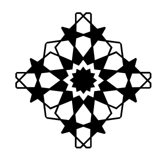
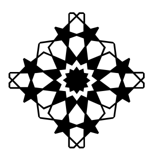
تكريم الأمراء وذوي السلطان لأهل العلم والفضل على مر الزمان

تأليف

أبي إسحاق محمود بن أحمد الزويد



دار الكتاب العالمي

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

دار الكتاب العالمي

التصميم والتنسيق: دار الكتاب العالمي

الطبع والتجليد

Step Ajans Matbaa Ltd. Şti
Göztepe Mah. Bosna Cad. No: 11 Bağcılar / İstanbul Tel: 0212 468 84 6
Sertfika No: ٤٥٥٢٢

عنوان دار الكتاب العالمي

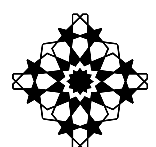
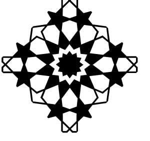
Yamanevler Mah. Küçüksu Cad. Bıldırcın Sok. No: 9 Dükkan: 1 Ümraniye / İstanbul

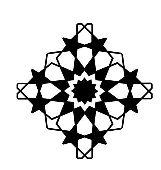
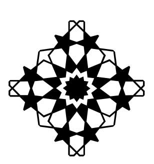
رقم الهاتف

00905397626695

bilgi@kureselkitap.com

www.kureselkitap.com

تكريم الأمراء وذوي السلطان

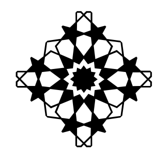
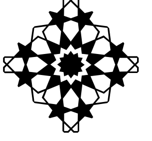
لأهل العلم والفضل على مر الزمان

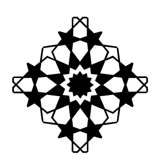
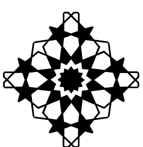
تأليف

أبي إسحاق محمود بن أحمد الزويد

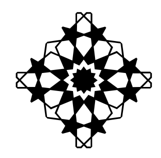
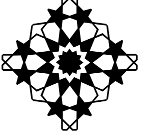


دار الكتاب العالمي

بسم الله الرحمن الرحيم





إضــاءة

وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المؤمنين عندك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا،فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك**».

حلية الأولياء (١٠٥/٨)

وقال ابن المعتز بالله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الملكُ بالدِّينِ يبقى، والدِّينُ بالملكِ يقوى**»[(١)].

الوافي بالوفيات (٢٤٢/١٧)

وقال أبو جعفر المنصور رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الخليفةُ لا يصلحُهُ إلا التَّقوى، والسلطان لا يصلحه إلاَّ الطَّاعةُ، والرعيَّةُ لا يُصلِحُها إلا العدْلُ، وأولى النَّاسُ بالعفو أقدُرُهم على العُقُوبةِ، وأنقصُ النَّاسِ عقلًا مَنْ ظلمَ مَنْ هو دونِهِ**».

سير أعلام النبلاء (٨٥/٧)[(٢)]

---

(١) وله حكم وفوائد جميلة ذكرها الصفدي، فلينظر فيها في المصدر ذاته.

(٢) وفي «تاريخ ابن جرير» (٦٧/٨) كان يقول: ما كان أحوجني إلىٰ أن يكون علىٰ بابي أربعة نفر لا يكون علىٰ بابي أعف منهم، قيل له: يا أمير المؤمنين، من هم؟ قال: هم أركان الملك، ولا يصلح الملك إلا بهم، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم، =

وقال هارون الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «**العلم ينفعُ ويرفعُ في الدُّنيا والآخرة**».

البداية والنهاية (٦١٦/١٣)

وقال الوزير العالم ظهير الدين أبو شجاع رَحِمَهُ اللَّهُ: «**لقدْ ضلَّ من يظنُّ أنَّ الملك يستقيم بالملك والمال يثمر الجور، لا ورافع السماء ومؤتي الملك من يشاء ما يصلح الملك إلا بإحسان السيرة، وإحكام السياسة**».

ذيل تجارب الأمم (١١٩/٣)

وقال بعض البلغاء: «**العلمُ عِصمةُ الملوك؛ لأنَّه يمنعهم من الظلم، ويردُّهم إلى الحلم، ويصدُّهم عن الأذية، ويعطِّفُهم على الرَّعيَّة، فِمْن حقهم: أن يعرفوا حقَّه، ويستبطنوا أهله**».

أدب الدنيا والدين (ص٧٩)

= إن نقصت واحدة وهي، أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني، والرابع -ثم عض علىٰ أصبعه السبابة ثلاث مرات، يقول في كل مرة: آه آه- قيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين؟
قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء علىٰ الصحة.

مقدمة

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ونستعينُ بهِ ونستغفرهُ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله، فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمّا بعد: فإنَّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمّدٍ ﷺ، وشر الأمورِ محدثاتها، وكل محدثةٍ بِدعة، وكلَّ بِدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

فإنَّ الله أكرم أهل العلم إذ ذكرهم في معرض الإشهاد، وأمر النَّاس بالنهوضِ والقيام لهم في المجالس، وحثَّ نبيه ﷺ علىٰ طلب العلم والازدياد منه، وكفىٰ العلم شرفًا أنَّ الكلب المعلم ذكر في القرآن، والأصل في الكلب أنَّه نجس العين يجب تطهير الإناء من ولوغه؛ ولكن

لما فُضِل بالعلمِ كان حكم التعامل معه غير بقية الكلاب ممَّا هو مدونٌ ومعلوم حكمه في كتب الحديث والفقه[١].

ورئاسة النَّملةِ علىٰ غيرها في قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تكن إلا بسبب أنَّها علمت مسألة واحدة[٢]، وهذا يدلُّ علىٰ فضل العلم.

وكلُّ من تعلق بالعلم كانت له من الفضائل والمناقب بقدر ما تحمَّل منه، وحصَّل عليه.

والعلم فضيلة خُصَّ به الإنسان[٣]، وأسجد الله لعلو شأنهِ ومكانته ملائكته لبني الإنسان، كما حصل لأبي البشرِ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) قال أبو عبد الله القرطبي في «تفسيره» (٧/ ٣١٣) في تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ «وفي هذه الآية دليل علىٰ أنَّ العالم له من الفضيلة ما ليس للجاهل، لأنَّ الكلب إذا علم يكون له فضيلة علىٰ سائر الكلاب، فالإنسان إذا كان له علم أولىٰ أن يكون له فضل علىٰ سائر الناس، لا سيَّما إذا عمل بما علم، وهذا كما روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: لكل شي قيمة وقيمة المرء ما يحسنه».

(٢) تفسير مفاتيح الغيب (٢/ ٤١٢).

(٣) قال الغزالي في «الإحياء» (١/ ٧): «ولم يجعل غير العالم من الناس لأنَّ الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله، وليس ذلك بقوة شخصه فإن الجمل أقوىٰ منه.
ولا بعظمه فإنَّ الفيل أعظم منه، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطنا منه، ولا ليجامع فإن أخس العصافير أقوىٰ علىٰ السفاد منه؛ بل لم يخلق إلا للعلم».
وقال العلامة الفيروز آبادي في «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (١/ ٤٣): «واعلم أَنّه تَبَيَّن في علم الأَخلاق أَنّ الفضائل الإِنسانية التي هي الأُمّهات أَربع. وهي: العلم، والشجاعة، والعفَّة، والعدل. وما عدا هذه فهي فروع عليها أَو تضاف إِليها. (فالعلم فضيلة النَّفس الناطقة، والشجاعة فضيلة النَّفس الغضبيَّة، والعفَّة فضيلة النَّفس الشَّهْوانيَّة، والعدل فضيلة عامَّة في الجميع».

وفضائل العلم لا تحصر، وفوائده جلَّت عن الذكر، وكما قيل: «العلمُ غنًى بلا مال، وعزٌّ بلا عشيرة، وسلطانٌ بلا رجال»(١).

ولما كانت مرتبة العلم مرتبة شريفة، ومعالم الإكرام لأهله خفية، وأهله غرباء لا سيَّما في هذا الزمان(٢)، وتحصل بسبب ذلك الإعراض

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٧٦).

(٢) ومن أسباب قلة المعين:

[١] كثرة الجهال، كما قيل: «العلماء غرباء لكثرة الجهال» «أدب الدين والدنيا (ص٤٨).

[٢] ومن أسباب قلَّة المعين، كثرة البدع والمبتدعة، قال الإمام مالك رحمه الله: «إذا قلَّ العلمُ ظهر الجفاء، وإذا قلَّت الآثار كثرت الأهواء». كما في «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٢٧١).

وقال تاج الدين الفاكهاني كما في «رسالة المورد في عمل المولد» عن شيخه أبي هاشم إسحاق بن عيسىٰ القشيري:

قد عرف المنكر واستنكر الـ ... معروف في أيامنا الصعبة
وصار أهل العلم في وهدة ... وصار أهل الجهل في رتبة
حادوا عن الحق فما للذي ... سادوا به فيما مضىٰ نسبة
فقلت للأبرار أهل التقىٰ ... والدين لما اشتدت الكربة
لا تنكروا أحوالكم قد أتت ... نوبتكم في زمن الغربة

[٣] عدم التواصل بين أهل العلم:

قال سفيان الثوري رحمه الله: «استوصوا بأهل السنة خيرًا، فإنهَّم غرباء». كما في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ٧٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٧٣).

وذكر أبو بكر المروذي عن إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل الشيباني رحمه الله: «وكان إذا بلغه عن رجل صلاحٌ، أو زهد، أو قيامٌ بحق، أو اتباع للأمر؛ سأل عنه، وأحبَّ أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله». كما في «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص٢٩٨-٢٩٩).

وقال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيىٰ المعلمي اليماني رحمه الله: «وقد كان العلماء في =

عنهم والجفاء. رأيت أن أكتب في ذلك كتبًا؛ مذكرًا به العالم، ومنبهًا له الطالب، وناصحًا به من ولّاه الله أمر البلاد، وكلَّفه برعاية العباد، ليكون علىٰ بصيرة تنجيه من عظم السؤال يوم التناد.

= العصور السابقة علىٰ خلاف هذه الحال، فكان من أعظم ما يهتم به العالم إذا حج: الاجتماع بالعلماء، والاستفادة منهم، وإفادتهم.

ولقد كان بعض العلماء يحج وأعظم البواعث له علىٰ الحج: الاجتماع بالعلماء، مع أن هذه العبادات -أعني الجماعة والجمعة والعيد والحج- من أعظم الحكم في شرعها الاجتماع والتعارف وتبادل الفوائد العلمية وغيرها» كما في محاضرة «صفة الارتباط بين العلماء في القديم للمعلم» (ص٣).

[٤] غياب فقه الإنصاف، وإهدار حق الأخوة، ورحم العلم، وحرمة أهل العلم -بسبب بعض الأخطاء والاجتهادات-، وضرب هذه الإخوة بالهجران والرمي بالبهتان في بعض الأحيان، والنطق بالعبارات الشديدة التي تخالف معادن النفوس الشريفة، وعجبًا لهؤلاء كيف سلطوا أنفسهم علىٰ رقاب عباده، وقد وقع جماعة من أعلام الأمة، ورجال الحديث والسنة في مواقف ومحن، كان الشافع في كثيرٍ منها عند السلطان وأرباب الدولة، شفاعة العالم لأخيه العالم، والأستاذ للطالب، والقرين للقرين، وأمثل مثال في ذلك قصة وكيع ﷀ، وقد ذكرتها في كتاب «احترام العلماء وتوقيرهم»، وقد كتبت في هذا الباب -فقه الخلاف- مجلدًا بعنوان «قواعد شرعية في التعامل مع المخالف بإنصاف» يسر الله الكريم طبعه ونشره.

[٥] جهل الناس ومعرفتهم لمقدار أهل العلم ومكانتهم، ومن ذلك ما حكاه الحافظ ابن عبد الهادي في «طبقات علماء الحديث» (٢/ ٤٥٠): قال أبو الوليد الفقيه: سمعتُ السرّاج يقول: واأسَفَىٰ علىٰ بغداد، فقيل: لِمَ فارقْتَها؟ قال: أقام بها أخي خمسينَ سَنَة، فلمّا تُوفيَ سمعتُ رجلًا يقول لآخر في الدَّرب: مَن هذا الميت؟ قال: غريبٌ كان ها هنا، فقلت: «إنَّا للَّه، بعد طول إقامةِ أخي هنا واشتهارِه بالعلم وبالتِّجارة يُقال: غريب، فَحَملني ذلك علىٰ فِراقها».

[٦] تصدر أهل التعالم وتقديمهم، كما قال ابن حزم في «الأخلاق والسير» (ص٩٧-٩٨): «لا آفة علىٰ العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها؛ فإنهَّم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون ويقدرون أنهم يصلحون».

وكما قال العلامة المقريزي: «مَن أَرَّخَ فقد حاسَب الأيامَ علىٰ عُمْرِهِ، ومن كتب حوادث دهره فقد كتب كتابًا إلىٰ مَن بعدَه بحديث دهرِه، ومَن قَيَّد ما شَهِدَ فقد أَشهد عصرَه مَن لم يكن من أهل عصره، فهو يَهدي إلىٰ الفضلاء أعمارًا، ويُبَوِّءُ أسماعَهم وأبصارَهم دِيَارًا ما كانت دِيارًا»[1].

عَزَّنِي أنْ أَرى الدِّيارَ بعيني ... ولَعَلِّي أَرَىٰ الدِّيَارَ بِسَمعي

وقد سميته بـ (**تكريم الأمراء للعلماء**) أو (**تكريم الأمراء وذوي السلطان لأهل العلم والفضل علىٰ مرِّ الزمان**)، وجعلته علىٰ أبواب والله الموفق للصوابِ:

الباب الأول وفيه:

الفصل الأول: في ذكر نماذج ممن كان من السلاطين موسومًا بعنايته بالعلم وأهله.

الفصل الثاني: دور العلماء في الحفاظ علىٰ أمن البلاد وتثبيت السلاطين، والمشاركة في الغزو ورد المعتدين.

الفصل الثالث: روائع الصور في تعظيم الملوك والأمراء للعلماء.

الفصل الرابع: علو رتبة العلماء.

الفصل الخامس: من سمع من الأمراء الحديث علىٰ المحدثين أو أسمعه ومن عرف باشتغاله ببعض العلوم.

الفصل السادس: من امتنع من المحدثين أنَّ يحدث السلاطين والأمراء.

الفصل السابع: صور من عناية الحكام بالعلماءِ.

الفصل الثامن: عناية الملوك والحكام بالقرآن الكريم.

الفصل التاسع: عنايتهم ببناء المدارس الشرعية.

---

(١) إتحاف الورىٰ بأخبار أم القرىٰ (١/ ٤/ ٥).

الفصل العاشر: عنايتهم بمعرفة منزلتهم.

الفصل الحادي عشر: عنايتهم بكفالتهم لأهل العلم.

الفصل الثاني عشر: في ذكر المتوكل ونصرته للسنة، وعونه لأهل الحديث وإكرامهِ لهم.

الفصل الثالث عشر: حكم عطايا السلطان.

الفصل الرابع عشر: جوائز السلطان.

الفضل الخامس عشر: الحذر من غصب المناصب والأمر بالتكسب.

الباب الثاني، وفيه:

الفصل الأول عناية أهل العلم بعضهم لبعض.

الفصل الثاني: من كفل من أهل العلم غيره بالمال نصرة لمذهبه.

الفصل الثالث: من عناية أهل العلم بإخوانهم.

الفصل الرابع: عناية أهل العلم بعضهم ببعض [الإمام الليث بن سعد (ت١٧٥هـ) أنموذجًا].

الباب الثالث، وفيه:

الفصل الأول: من امتنع من العلماء في الدخول علىٰ الأمراء.

الفصل الثاني: ما قيل في ذلك شعرًا.

الفصل الثالث: من دخله الهم بسبب معرفة السلطان له أو لأنَّه استعمل لهم.

الفصل الرابع: علماء اعتزلوا السلطان ونصحوا له (الإمام سفيان الثوري أنموذجًا).

الفصل الخامس: في الدخول عليهم والمخالطة لهم.

الباب الرابع: عقيدة أهل السنة والجماعة في التعامل مع الأمراء، وفيه:

١- من عقيدة أهل السنَّة والجماعة عقد الإمامة للسلطان وبيعته.

٢- ومن عقيدة أهل السنَّة عدم الخروج علىٰ ولاة الأمر الشرعيين.

٣- ومن عقيدة أهل السنَّة والجماعة أداء العبادات معهم.

٤- ومن عقيدة أهل السنَّة هيبتهم للأمراء وزرع ذلك في نفوس عامة الناس.

٥- ومن عقيدتهم السمع والطاعة بغير معصية.

٦- ومن عقيدة أهل السنَّة والجماعة بذل النصح لهم.

٧- ومن عقيدة أهل السنَّة والجماعة غض الطرف عن زلاتهم، وعدم تكفيرهم بالكبائر.

٨- ومن عقيدة أهل السنَّة والجماعة الدعاء لهم.

٩- ومن عقيدة أهل السنَّة والجماعة الفرح بما يقومون به نصرة للشريعة.

الباب الخامس: فضل الولي العادل، وبيان عظيم أجره عند الله، ويليه نقوش خواتم بعض الخلفاء والأمراء.

الباب السادس: هكذا هم ملوك المسلمين.

أبو بكر رضي الله عنه يتفقد رعيته.

انشغال عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأمور الرعية عن أمر نفسه.

تواضع عثمان رضي الله عنه.

علي رضي الله عنه يستأثر خدمة نفسه بنفسه.

نزاهة حذيفة رضي الله عنه.

أبو هريرة رضي الله عنه يحمل متاعه وهو الأمير، ويقول: «أوسع الطريق للأمير».

جلوس عبد الملك بن مروان لسماع مظالم الناس.

الخليفة أبو جعفر المنصور رَحِمَهُ اللَّهُ.

والي اليمن عروة بن محمد بن عطية السعدي الجشمي.

الملك العادل نور الدين زنكي رَحِمَهُ اللَّهُ.

السلطان المظفر صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

عبد الملك بن رفاعة.

جقمق الظاهر أبو سعيد الجركسي.

الإمام المهدي لدين الله العباس بن الامام المنصور بالله الحسين ابن الإمام المتوكل.

(تتمة مفيدة) ابن الخليفة هارون الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ.

(فرع) بذكر جوانب مضيئة من سيرة الخليفة عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ.

الباب السابع: نماذج عطرة من إمارة وقيادة الشباب.

الباب الثامن: الناس علىٰ دين ملوكهم وكما تكونوا يولىٰ عليكم.

الباب التاسع: العلماء زينة الدولة ومصدر القوة.

فما كان من خير فمن الله، ومن كان من خطئ أو سهو أو نسيانٍ فهو مني أو من الشيطان -وأنا أعود له راشدًا إن شاء الله-، وليعذر القارئ كاتبه، فكما قال إبراهيم الصولي: «المتصفِّحُ للكتابِ أبصرُ بمواقع الخلل فيه من مُنشِئِه»[1].

وكما قال القلقشندي: «وليعذر الواقف عليه، فنتائج الأفكار علىٰ اختلاف القرائح لا تتناهىٰ، وإنَّما يُنفق كلُّ أحدٍ علىٰ قدر سعته، لا يكلف الله نفسًا إلّا ما آتاها، ورحم الله من وقف فيه علىٰ سهوٍ

(١) الأعلام للزركلي (١/ ٢٢)، وقيل: «عقل المنشئ مشغول، وعقل المتصفح فارغ».

أو خطأٍ فأصلحه عاذرًا لا عاذلًا، ومنيلًا لا نائلًا، فليس المبرأ من الخطل إلا من وقىٰ الله وعصم. وقد قيل: (الكتاب كالمكلَّف لا يسلم من المؤاخذة، ولا يرتفع عنه القلم)، والله تعالىٰ يقرنه بالتوفيق، ويرشد فيه إلىٰ أوضح طريق، وما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب»(١).

والله أسأل القبول لهذه الكتاب والأجر والنفع لي ولوالدي وأهلي، وكل من دلَّ عليه بخير أو ساهم بنشره ولو بكلمة.

يَا نَاظِرًا فِيمَا عَمَدْتُ لَجِمْعِهِ ... عُذْرًا فَإِنَّ أَخَا الْبَصِيرَةِ يَعْذِرُ

وَاعْلَمْ بِأَنَّ المرْءَ لَوْ بلَغَ المدَىٰ ... فِي الْعُمْرِ لاقَىٰ الموْتَ وَهْوَ مُقَصِّرُ

فَإِذا ظَفِرْتَ بِزَلَّةٍ فَافْتِحْ لَها ... بَابَ التَّجَاوزِ فَالتَّجَاوُزُ أَجْدَرُ

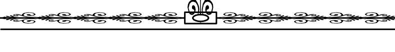
وَمِنَ المحَالِ بِأَنْ نَرَىٰ أحدًا حَوَىٰ ... كُنهَ الْكَمَالِ وَذَا هُوَ المتَعَذِّرُ

فَالنَّقْصُ فِي نفَسِ الطَّبِيعَةِ كائِنٌ ... فَبَنُو الطَّبِيعَةِ نَقْصُهُمْ لا يُنْكَرُ(٢)



(١) صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشاء (١/ ٣٦).

(٢) فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات للكتاني (٢/ ١١٦٩)، والشعر للقاسم بن أحمد الأندلسي، وقد صححت أبياتها ممَّا أنشده الشيخ المحدث عبد الله السعد حفظه الله فإنَّه يروي ذلك بالسند لقائله، كما في مقدمات بعض كتبه، ككتاب: (كيف تكون محدثًا).


الباب الأول

[الفصل الأول: في ذكر نماذج ممن كان من السلاطين موسومًا بعنايته بالعلم وأهله]

إنّ الناظر في كتب السير والتراجم، والمتمعن في تاريخ الأمة يجد نماذج عطرة من أمراء ورؤساء وسلاطين تميزوا بعنايتهم بالعلماء فصاروا بذلك حديث يخبر، وتاريخ يذكر في اجلالهم لأهل العلم والفضل والعناية بهم، فأجلَّهم الله ورفع ذكرهم، وهم كثر لا سبيل للحصر(١)، ونذكر منهم بكلام وجيز معتصر(٢):

(١) قال جار الله بن فهد (ت٩٥٤هـ) في «مناقب السلطان سليمان بن عثمان» (ص٢٩٣): «وممَّا يؤذن بأنَّ إكرام السلطان للعلماء لا سيَّما أهل الحديث النبوي المشهورين به، يكونُ سببًا في استمرار الملك فيه وفي عقبه، ومن دلَّهُ علىٰ ذلك من وزرائه وأهل مملكته».

(٢) يقول الإمام النووي في «طبقات الفقهاء الشافعية» (١/ ٧٥) «وقد روينا عن مسلم بن الحجاج صاحب «الصحيح» رضي الله عنه أنَّه قال: إنَّ أول ما يجب علىٰ مبتغي العلم وطالبه أن يعرف مراتب العلماء في العلم، ورجحان بعضهم علىٰ بعض، ولأنَّ المعرفة بالخواص آصرة ونسب، وهي يوم القيامة وصلة إلىٰ شفاعتهم وسبب، ولأنَّ العالم بالنسبة إلىٰ مقتبس علمه بمنزلة الوالد بل أفضل، فإذا كان جاهلا به فهو كالجاهل بوالده بل أضل!».

ويقول الشيخ محمد بهجة الأثري في كتابه «محمود شكري الألوسي سيرته ودراسته اللغوية» (ص١٤): «وهذا الجيل العربي؛ قمينٌ أن يتعرَّفَ السير العالمة العاملة الناصبة، التي شقَّت له طريق المجدِ، وعبَّدت عِقابه، وذلَّلت صِعابه، وأذنتهُ من الغاية، وكانت منه في مناط النَّجم. =

[١] **سليمان بن عبد الملك** (ت٩٩هـ)، قال مجير الدين الحنبلي: «وكان سليمان بن عبد الملك رحمه الله يعظم العلماء»[(١)].

[٢] **عمر بن عبد العزيز** رحمه الله (ت١٠١هـ)، فقد كان عالمًا وله عناية بالعلم والعلماء، كما قال عمر بن ميمون: «كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة»[(٢)]، وسوف يأتي ذكر شيءٍ من خصاله.

[٣] **أبو جعفر المنْصور** رحمه الله **(ت١٥٨هـ)**، وقد قال: «الذي عليّ للرعية أنْ أرفع أقدارَ فقهائِهم وعلمائهم، وأكف جهالهم عن حكمائهم»[(٣)].

وقال أحمد بن يعقوب اليعقوبي (ت٢٨٤هـ): «وكان أبو جعفر قد نظر في العلم، وروىٰ الحديث، وكثرت علوم النَّاس ورواياتهم في أيَّامه»[(٤)].

[٤] **الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر** رحمه الله (ت**٣٩٢هـ**) رحمه الله، قال عنه ابن خلدون: «أعلىٰ مراتب العلماء»[(٥)].

[٥] **أبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش بن منذر الأسدي** رحمه الله

= وما أجدرهُ بأن يستنَّ سنة أصحابها؛ في السهر والطلب والنِّضال، ويقتفي آثارهم، في مدارجه إلىٰ الرفعة، واصِلًا جهادَه بجهادهم، وأوصره بأوصرهم، ذاكرًا: أنَّ صنائع حملة السيوف والساسة الأحرار إنَّما هي أقلام هؤلاء المفكِّرين المصلحين».

(١) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (١/ ٢٨١).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٢).

(٣) بهجة المجالس (ص٧٢).

(٤) كتاب مشاكلة الناس لزمانهم؛ وما يغلب عليهم في كل عصر «ضمن الاختيارات من مجلة معهد المخطوطات» للشيخ محمد موسىٰ الشريف (ص١٥-١٦٣) ط: مركز الراية.

(٥) كما في «تاريخه» المسمىٰ: «ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر» (٤/ ١٨٩).

(ت٤١٨هـ): اقتطع البلد رئاسة، وقام فيه مقام القاضي أبي القاسم بن عباد بإشبيلية، والبكري بغرب الأندلس، وحمىٰ جهته، وحسن سياسته.

وكان لا يدعي باسم الرئاسة، مقتصرًا علىٰ اسم الفقيه، ولا يفارق زي العلماء.

أخذ من العلم بأوفر نصيب، وولي الجهاد والحجّ، وأوسع النَّفقة في السبيل، وأكثر التلاوة والصلاة[١].

[٦] **أحمد بن إسحاق أمير المؤمنين القادر بالله أبو العباس (ت٤٢٢هـ).** بويع بالخلافة في حادي عشر شهر رمضان سنة إحدىٰ وثمانين وثلاث مائة، وكان من أهل الستر والصيانة وإدامة التهجد، وصنَّف كتابًا في (الأصول) ذكر فيه فضل الصحابة وإكفار المعتزلة والقائلين بخلق القرآن، وكان ذلك الكتاب يقرأ في كلِّ جمعةٍ في حلقة من أصحاب الحديث بجامع المهدي، ويحضر النَّاس مدة خلافته وهي إحدىٰ وأربعون سنة وثلاثة أشهر[٢].

[٧] **الرئيس أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور القرطبي** (ت٤٣٥هـ)، من بيت رئاسة ووزارة، كان آباؤه وزراء الدولة الحَكَمية والعامرية، وكان علىٰ طريقة الرؤساء الصالحين، فاستمر أمر النَّاس معه مستقيمًا إلىٰ أن توفي.

قال الذهبي: «من كبار العلماء، روىٰ عن: أبي عبد الله بن مفرج، وخلف بن القاسم، وعباس بن أصبغ، وجماعة سمع منهم، وأخذ العلم عنهم»[٣].

---

(١) ترتيب المدارك (٨/ ٤١-٤٢).

(٢) الوافي بالوفيات (٦/ ١٥٠).

(٣) السير (١٧/ ١٣٩-١٤٠)، و«الصلة في تاريخ أئمة الأندلس» (١/ ١٣٠). وسيرته عظيمة =

وقال أبو نصر بن خاقان: «وبنو جهور أهل بيت وزارة، اشتهروا كاشتهار ابن هبيرة في فزارة، وأبو الحزم أمجدهم في المكرمات، وأنجدهم في الملمات، ركب متون الفتون فراضها، ووقع في بحور المحن فخاضها، منبسط غير منكمش، لا طائش اللسان ولا رعش . . .»[(١)].

[٨] **سلطان إفريقية وما والاها من المغرب المعز بن باديس بن منصور الصنهاجي** رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٤٥٣هـ) كان رقيق القلب، خاشعًا، متجنبًا لسفك الدماء إلا في حدٍّ، حليمًا، يتجاوز عن الذنوب العظام، (حسن الصحبة مع عَبيدِهِ وأصحابه، مكرمًا لأهل العلم، كثيرَ العطاء لهم)، كريمًا. وهب مرة مائة ألف دينار للمستنصر الزناتي وكان عنده وقد جاءه هذا المال، فاستكثره، فأمر به فأفرغ بين يديه، ثم وهبه له، فقيل له: لم أمرت بإخراجه من أوعيته؟ قال: لئلا يقال لو رآه ما سمحت نفسه به[(٢)].

وقال محيي الدين الحنفي: قال ابن خلكان في (ترجمة المعز ابن باديس) وكان مذهب أبي حنيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإفريقية أظهر المذاهب فحمل المعز المذكور جميع أهل المغرب علىٰ التمسك بمذهب مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسم مادة الخلاف في المذاهب، واستمر الحال في ذلك إلىٰ الآن[(٣)].

= عطرة وفيها من أخلاق العلماء والكبار، وانظر: «المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلىٰ آخر عصر الموحدين» (ص٥٢)، و«الحلة السيراء» (٢/ ٣٠-٣٤).

(١) مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس (ص٣٤-٣٦) ط: الرسالة.

(٢) الكامل لابن الأثير (٨/ ١٧٢-١٧٣).

(٣) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١/ ٥)، ونقله الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١٠/ ٥٤)، وكان ولده من بعده تميم بن المعز بن باديس (ت٥٠١هـ)، وصفه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٦/ ٢٠٢): «بأنه من خيار الملوك خلقًا وكرمًا وإحسانًا».
قال الشاعر يمدحه: =

[٩] الوزير **نظام الملك الطوسي** رَحِمَهُ اللَّهُ **(ت٤٥٨هـ)**، قال الإمام الذهبي: «كانت أيامه دولة أهل العلم»[(١)].

وقال الحافظ ابن كثير (ت٧٧٤هـ): كان مجلسه عامرًا بالفقهاء والعلماء بحيث يقضي معهم عامة أوقاته، فقيل له: إنَّ هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح.

فقال: «هؤلاء جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستهم علىٰ رأسي ما استكثرت ذلك»[(٢)].

وقال التاج السبكي (ت٧٧١هـ): «دولته كلها فضلٌ، وأيَّامه جميعها عدل، ومجلسه بجماعة العلماء صباح مشرق»[(٣)].

[١٠] **الوزير العالم أبو شجاع محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم الروذراوري** رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٤٨٨هـ). كان يبالغ في التواضع، حتىٰ ترك الاحتجاب فيكلم المرأة والطفل، وأوطأ العوام والصالحين مجلسه، وكان يحضر الفقهاء الديوان في كلِّ مُشكَل، وكانوا إذا أفتوا في حق شخص بوجوب حق القصاص عليه سأل أولياء الدم أخذ شيء من ماله وأن يعفوا، فإن فعلوا وإلا أمر بالقصاص، وأعطىٰ ذلك المال ورثة المقتول الثاني[(٤)].

= أَصَحُّ وَأَعْلَىٰ مَا سَمِعْنَاهُ فِي النَّدَىٰ ... مِنَ الْخَبَرِ الْمَرْوِيِّ مُنْذُ قَدِيمِ
أَحَادِيثُ تَرْوِيهَا السُّيُولُ عَنِ الْحَيَا ... عَنِ الْبَحْرِ عَنِ كَفِّ الْأَمِيرِ تَمِيمِ

(١) السير (١٩/ ٩٦)

(٢) البداية والنهاية (١٦/ ١٢٦).

(٣) طبقات الشافعية (١٦/ ١٢٦).

(٤) المنتظم لابن الجوزي (١٧/ ٢٢).

[١١] **زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين** رَحِمَهُ اللَّهُ **(ت٥٠٠هـ)**.

قال الأستاذ محمود شاكر الحرستاني: «كان رجل دينٍ وعلمٍ، فلمَّا ملك الأندلسَ جمع الفقهاءَ وأحسنَ إليهم»[١].

[١٢] **ملك المرابطين أبو الحسن علي بن يوسف البربري** رَحِمَهُ اللَّهُ **(ت٥٣٧هـ)**.

قال عنه الحافظ الذهبي: «كان شجاعًا، مجاهدًا، عادلًا، دينًا، ورعًا، صالحًا، معظمًا للعلماء، مشاورًا لهم، نفق في زمانه الفقه والكتب والفروع، حتىٰ تكاسلوا عن الحديث والآثار، وأهينت الفلسفة، ومج الكلام، ومقته»[٢].

[١٣] **أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله محمد ابن المستظهر بالله** رَحِمَهُ اللَّهُ **(ت٥٥٥هـ)** وصف بأنَّه: «كان جوادًا، محبًا للحديثِ والعلم، مكرمًا لأهله، وكان حميدَ السيرة، يرجع إلىٰ تدينٍ وحسنَ سياسة، جدَّد معالم

(١) الخلفاء في عصر السلاجقة (ص١٩١) ط: المكتب الإسلامي، وقال الذهبي في «السير» (١٩/ ٢٥٣): «كثير العفو، مقربًا للعلماء».

(٢) السير (٢٠/ ١٢٤). تعتبر الحركة الفكرية في عصر المرابطين امتدادًا للحركة في عهد أمراء الطوائف، وعلىٰ الرغم من تعثرها أيام يوسف بن تاشفين إلا أنَّها اندفعت خطواتٌ للأمام أيام خلفائه علي وتاشفين، فبلاطهم كان ملتقىٰ لجمٍّ غفير من الفقهاء والحفاظ والمحدثين، وفي مقدمتهم: أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي (ت٥٤٣هـ).

ومن هؤلاء الفقهاء: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد، قاضي الجماعة بقرطبة (ت٤٥٠هـ).

ومنهم كذلك: القاضي عياض بن موس اليحصبي السبتي (ت٥٤٤٨هـ).

ومنهم: ابن زهر عبقري الأندلس، وهو أبو مروان عبد الملك بن العلاء الإشبيلي الأندلسي (ت٥٥٧هـ)، كما في «المرابطون والأندلس» (ص٧٥)، و«قصة الأندلس» (ص٤٣٩-٤٤٣).

الخلافة، وباشر المهمات بنفسه، وغزا في جيوشه»[١].

[١٤] **الوزير الكامل الإمام العالم ابن هُبَيْرَة الشيباني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت٥٦٠هـ).**

قال الحافظ الذهبي (ت٧٤٨هـ) عنه: وكان يكثرُ مجالسةَ العلماء والفقراء، ويبذل لهم الأموال، فكانت السنَة تدور وعليه ديون!!.

وكان يقول: «ما وجبت عليَّ زكاة قط»[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٠٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/٤٢٨). وترجمة هذا الوزير نافعة جديرة بالقراءة لما فيها من معالي الأمور، ومكارم الأخلاق.

وقد قيل: لمّا تولّىٰ الوزارة دخل الديوان وعليه الخلع، فرأىٰ غلامًا من غلمان الديوان واقفًا عن بعد فاستدناه وتبسّم في وجهه، وأمر له بذهب وكسوة، ثمَّ قال: لا إله إلا الله أذكر مرّة، وقد دخلت هذا الديوان وجلست في بعض المجالس، فجاء هذا الغلام وجذبني بيدي وقال: قم فليس هذا مكانك، وقد رأيته الساعة واقفًا، وأثر الخوف ظاهر عليه، فأحببت أن أؤانسه وأزيل رعبه.

ورأىٰ يومًا في الديوان جنديّا فقال لحاجبه: أعطِ هذا الجندي عشرين دينارًا وكرّ حنطة، وقل له: لا يدخل الديوان ولا يرينا وجهه!

فتغامز الناس وتشوّفوا إلىٰ معرفة السبب في ذلك وفطن الوزير لذلك، فقال لهم: كان هذا الجنديّ شحنة في قريتنا، فقتل شخص من أهل القرية فجاء هذا الشّحنة -الشّحنة: هنا، ضابط الأمن في البلد، ما يعرف لدىٰ عوام اليوم بالبوليس- وأخذ جماعة من أهل القرية وأخذني معهم مكتوفا في عرض الفرس، وبالغ في أذاي وضربي، ثمّ أخذ من كلّ واحد منهم شيئًا وأطلقهم وبقيت أنا معه، فقال لي: أعطني شيئا أخلصك.

فقلت: والله ما أملك شيئًا، فأعاد عليّ الضرب والإهانة، ثمّ قال لي: اذهب إلىٰ لعنة الله، ثم أطلقني، فأنا لا أحبّ أن أرىٰ صورة وجهه. كما في «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» (ص٢٩٩-٣٠٠).

وفي «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ١٢٤-١٢٥): =

[١٥] **الملك العادل، نور الدين الزنكي** رحمه الله **(ت٥٦٩هـ)**، تقي الملوك، ليث الإسلام.

كان رحمه الله مليح الخط، كثير المطالعة، يصلي في جماعة، ويصوم، ويتلو، ويسبح، ويتحرىٰ في القوت، ويتجنب الكبر، ويتشبه بالعلماء والأخيار[(١)].

وفي ذكر قاضي القضاة أبو الفضل بن الشهرزوري. قال: «ولّاه نور الدّين قضاء دمشق، ووقف الهامة علىٰ الحنابلة»[(٢)].

والهامة بلدة شامية، تقع غرب مدينة دمشق، وتعتبر بوابة الغوطة الشرقية، وهذا الوقف إكرامًا وإجلالًا منه لعلماء المقادسة الذين قدموا إلىٰ الشام، وكان لهم دورًا في النهضة العلمية والفكرية، ومشاركة فعلية في المعارك العسكرية.

= قال ابن الجوزي: «وكان ابن الوزير إذا استفاد شيئًا قَالَ: أفادنيه فلان حتىٰ، إنَّه عرض له يومًا حديث، وهو «مَنْ فاته حزب من الليل فصلاه قبل الزوال كان كأنَّه صلىٰ بالليل». فقال: ما أدري ما معنىٰ هذا؟ فقلت له: هذا ظاهر في اللغة والفقه.

أمَّا اللغة: فإن العرب تقول: كيف كنت الليلة، إلىٰ وقت الزوال.

وأمَّا الفقه: فإنَّ أبا حنيفة يصحح الصوم بنيَّةٍ قبل الزوال، فقد جعل ذلك الوقت في حكم الليل. فأعجبه هذا القول. وكان يقول بين الجمع الكثير: ما كنت أدري معنىٰ هذا الحديث حتىٰ عرفنيه ابن الجوزي، فكنت أستحي من الجماعة.

قال: وكان بعض الفقراء يقرأ القرآن في داره كثيرًا، فأعجبه، فقال لزوجته: أريد أن أزوجه ابنتي، فغضبت الأم من ذلك. وكان يقرأ عنده الحديث كل يوم بعد العصر» أهـ.

(١) السير (٢٠/ ٥٣٣) وله أخبار في «الروضتين»، و«المنتظم»، و«مرآة الزمان» لا يمكن ذكرها في هذا المقام.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد (٦/ ٤٠٣).

[١٦]- **زعيم دولة الموحدين يعقوب بن يوسف الموحدي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت٥٩٥هـ)**. قال: «يا معشر الموحدين، أنتم قبائل؛ فمن نابه منكم أمر فزع إلىٰ قبيلته؛ وهؤلاء -يعني الطلبة- لا قبيل لهم إلا أنا؛ فمهما نابهم أمر فأنا ملجَؤُهم، وإلي فزعهم، وإليَّ ينتسبون! فعظُم منذ ذلك اليوم أمرهم، وبالغ الموحدون في برهم وإكرامهم»[١].

[١٧] **محمد بن سام أبو المظفر الغزنوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت٦٠٢هـ)**، قال السبكي: «أحد المشكورين من الملوك، الموصوفين بمحبة العلماء، وإحضارهم للمناظرة عنده».

وهو الذي قال له الإمام فخر الدين الرازي في موعظة وعظها له علىٰ المنبر: «يا سلطان العالم لا سلطانك يبقىٰ، ولا تلبيس الرازي يبقىٰ ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾»[٢].

[١٨] **الخليفة العباسي الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله** العباسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٦٢٣هـ).

قال ابن الأثير: «وفرَّق في العلماء، وأهل الدين مائة ألف دينار»[٣].

[١٩] **صاحب الأندلس الحاكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأموي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ «كان محبًا لأهلِ العلم، عالمًا فقيهًا في المذاهب،

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلىٰ آخر عصر الموحدين (ص٢٠٤).

(٢) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٨/ ٦٠-٦١)، وزاد السبكي قائلًا: «ملك غزنة والهند، وكثيرًا من بلاد خراسان، وكان شافعي المذهب، له بلاء حسن في الكفار.
قتلته الباطنية اغتيالًا جهزهم الكفار عليه لشدة ما أنكىٰ فيهم، فإنَّه كان جاهد في الكفار وأوسعهم قتلًا ونهبًا وأسرًا فجهزوا عليه الباطنية فقتلوه بعد عوده من لهاور في شعبان سنة اثنتين وستمائة رَحِمَهُ ٱللَّهُ».

(٣) الكامل في التاريخ (١٩/ ٤٠١-٤٠٣)

عالمًا بالأنساب والتواريخ، جمَّاعًا للكتب والعلماء، مكرمًا لهم، محسنًا إليهم، أحضرهم من البلدان البعيدة ليستفيد منهم، ويحسن إليهم»[١].

[٢٠] **الملك الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر بن قلاوون (ت٧٧٨هـ).** وكان رحمه الله من أجلِّ الملوك سماحةً وشهامةً، هينًا لينًا محبًا لأهل الخير والعلماء، واقفًا عند الأمور الشرعية[٢].

[٢١] ووصف **السلطان العثماني الفالح محمد الفاتح** رحمه الله (ت٨٨٦هـ): بأنَّه «راعٍ لنهضة أدبية، وشاعر مجيد، حكم ثلاثين عامًا كانت أعوام خصب ورخاء وبركة ونماء، وعرف بأبي الفتح لأنَّه غلب علىٰ إمبراطوريتين، وفتح سبع ممالك، واستولىٰ علىٰ مائتي مدينة، وشاد دور العلم والعبادة، فعرف بأبي الخيرات»[٣].

وفي أيامه: افتتحت القسطنطينية الكبرىٰ، وصلىٰ الجمعة في آيا صوفية، ثم جعلها مقرَّ السلطنةِ، وبنىٰ بها المدارس، ورتَّبَ الرَّواتب[٤].

وفيه يقول المؤرخ العثماني القديم لطيفي: «كان الفاتح إذا سمع بعالم متبحر متفرَّد في فنٍ من الفنون في الهند كان أو في السند، استماله بالإكرام ونفحه بالمال، ومنَّاه من المراتب والمناصب بكل عزيز المنال، فحبَّب العلماء أن يزايلوا أوطانهم ويفدوا عليه، ومن المتعارف المشهور أنَّه استقدم العالم الكبير علي قوشجي السمرقندي وكانت له في الحكمة والفلك شهرة، استقدمه الفاتح من ديار العجم وقدَّر له ألف آقجه علىٰ كل مرحلة من مراحل سفره، وأكرمه إكرامًا ووقره توقيرًا».

---

(١) المصدر نفسه (٧/ ٣٤٨-٣٤٩)
(٢) نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر (٨/ ١٠٥-١٠٦).
(٣) العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص٢٦٧) ط: دار القلم.
(٤) نزهة الناظرين (٨/ ١٣٤).

[٢٢] **السلطان سليمان القانوني** رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٩٧٤هـ).

قال ابن حجر الهيتمي: «انفرد هو وجميع آبائه الأكرمين، من بين سائر الملوك والسلاطين، ألا يبرموا أمرًا إلا بعد مشاورة العلماء العاملين»[(١)].

ويذكر أنَّه «أمر ببناء مدارس للمذاهب الأربعة بمكة المكرمة، يتولاها متخصصون بكل مذهب وجعل لها أوقافًا كبيرة، وصار يدرس فيها العلوم الشرعية والكونية»[(٢)].

نَسْأَلُ اللَّهَ صَلَاحًا ... لِلْوُلَاةِ الرُّؤَسَاءِ
فَصَلَاحُ الدِّينِ وَالدُّنْـ ... ـيَا صَلَاحُ الْأُمَرَاءِ
فَبِهِمْ يَلْتَئِمُ الشَّمْـ ... ـلُ عَلَىٰ بُعْدِ التَّنَاءِ
وَبِهِمْ قَامَتْ حُدُودُ اللَّـ ... ـهِ فِي أَهْلِ الْعَدَاءِ
وَهُمُ الْمُغْنُونَ عَنَّا ... فِي مَوَاطِينِ الْعَنَاءِ
وَذَهَابُ الْعِلْمِ عَنَّا ... فِي ذَهَابِ الْعُلَمَاءِ
فَهُمُ أَرْكَانُ دِينِ اللَّهِ ... فِي الْأَرْضِ الْفَضَاءِ

---

(١) كما في «المناهل العذبة» (ص٢٤)، نقلًا عن مقدمة محقق «قلائد العقيان في فضائل آل عثمان» من مجموع رسائل مرعي الكرمي (٧/ ٤٠٤)

(٢) ذكره قطب الدين النهروالي في «الإعلام» (ص٣٥٠)، وقال مرعي الكرمي (ت١٠٣٣هـ) في «نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر» في ترجمة الظاهر بيبرس (ت٦٧٦هـ) (٨/ ٨١-٨٢) «وفي أيامه سنةَ ثلاثٍ وستِّين جعل القضاة أربعةً، من كلِّ مذهبٍ واحدٌ، ولم يكن ذلك قبلَهُ في الإسلام».

وفيه (٨/ ٨٩) قال في الحديث عن الملك المنصور حسام الدِّين لاجين (ت٦٩٨هـ): و«كان ملكًا عارفًا عاقلًا وقورًا، وهو الذي وقف الأوقاف علىٰ جامع طولون، وجعل فيه دروس تفسير وحديث وفقه علىٰ المذاهب الأربعة وقراءاتٍ وميقاتٍ وطبٍّ، وهي مستمرة إلىٰ الآن».

فَـجَـزَاهُـمْ رَبُّـهُـمْ عَـنَّـا بِـمَـحْـمُـودِ الْـجَـزَاءِ[١]

قلت: قد ذكرت في هذا الكلام المختصر سير بعض ملوك المسلمين من الأمويين، والعباسيين، والسلاجقة، والزنكيين، والمرابطين، والموحدين، والعثمانيين؛ ممَّن حكموا في أوقاتٍ مختلفة، بلادًا مختلفة في العراق، والشام، ومصر، والمغرب[٢]، والأندلس، وأفريقيا، وغيرها، وكيف كانت أحوالهم، وعنايتهم، وتعظيمهم لأهل العلم، ومعرف حقهم.

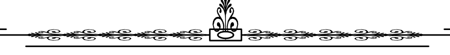


(١) جامع بيان العلم (١/ ٦٤١).

(٢) في كتاب مدنيَّة المسلمين في إسبانيا لجوزيف ماك كيب (ص١٣٢-١٣٣) يقول: «والغيرة علىٰ بث العلم كانت عامة في ملوك المغربيين، ونظام التعليم عندهم يذكر بما كان من ذلك في رومية الوثنية ويبشر بنظام التعليم في هذا الزمان، وكان ذلك واديًا خصيبًا في صحراء الجهل الكبرىٰ التي امتدت من القرن الرابع إلىٰ القرن التاسع عشر؛ لأن النصارىٰ الإسبانيين خربوا مدارس الأمة كما فعل أسلافهم النصارىٰ. وسكوت الذي هو أقوىٰ برهانًا وأكثر تفصيلًا أخبرنا مرارًا أنَّ المعارف كانت منتشرة في جميع الطبقات: كان في كل قرية مدارس كافية لحاجة أهلها، وكان التعليم فيها قائمًا علىٰ أفضل التسهيلات وأنفعها كل الأطفال الذي قعد بهم العُدم عن التعلم، كانت الحكومة تعتني بهم وتؤسس لهم مدارس مجانية علىٰ نفقتها.

لم تكن هناك قرية -وإن كانت صغيرة جدًا- داخل حدود المملكة قد حرمت من بركات التعليم، وكان التعليم عاما يتمتع به حتى أولاد أحقر الفلاحين.

وعلىٰ هذا نقول: إنَّه يتعذر أن يوجد فلاح أندلسي لا يعرف القراءة والكتابة، في حين كان ملوك بقية أوربا لا يقدرون أن يكتبوا أسماءهم في توقيعاتهم، وكذلك أشراف الروم من أعلىٰ الطبقات لم يكونوا يقتدرون علىٰ القراءة والكتابة، وتسع تسعون في كل مائة من أهل الممالك النصرانية كانوا أميين تمامًا».




[الفصل الثاني:

دور العلماء في الحفاظ على أمن البلاد وتثبيت السلاطين]

وراء كل ملكٍ فاضل أو قائدٍ فاتح، عالم جليل وشيخ نبيل، كما قيل: «بقاء الدنيا بسيوف الأمراء، ولسان العلماء»[١].

والمعتاد في سير الملوك الذين دانت لها البلاد، وأقرت بملكهم العباد، وتُرجم لهم في الكتبِ حتىٰ ذاع صيتهم في كل ناد؛ من حبهم العلم ومطالعتهم لمآثر السابقين، ومن ذلك قول ابن الأثير (ت٦٣٠هـ) عن الملك ألب أرسلان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٤٦٥هـ) بإنَّه: «كان كثيرًا ما يُقرأ عليه تواريخَ الملوكِ وآدابهم[٢]، وأحكام الشَّريعةِ، ولما اشتهر بين الملوك حُسن سيرته، ومحافظته علىٰ عهودهِ، أذعنوا له بالطاعةِ والموافقة بعد الامتناع، وحضروا عنده من أقاصي ما وراء النَّهر إلىٰ أقصىٰ الشام»[٣].

ومثله: السلطان المظفر صلاح الدين الأيوبي (ت٥٨٩هـ) كما قال العماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ): «وكان يأمرني بكتابة كتب الملوك وأصحاب الأطراف عن كتبهم في حالتي سلمهم وحربهم. وهي تشتمل علىٰ أسباب متنوعة، وآراب متفرعة، بحسب الحوادث المتجددة، والبواعث المتمهدة. فإذا قلت له: بماذا اكتب، وما أخطب؟ فيقول: أنت

(١) نشر طيّ التعريف في فضل حملة العلم الشريف والرد علىٰ ماقتهم السخيف (ص١٧).
(٢) انظر: ما كتبه الأمير شكيب أرسلان عن السلطان سليم الأول في «تاريخ الدولة العثمانية» (ص١٤٢).
(٣) الكامل في التاريخ (٨/ ٢٣٣).

أعرف وبحسب ما تعلم من حالنا تتصرف»[١].

قال جوزيف ماك كيب: «ولم يكن الخلفاء يقتصرون علىٰ إكرام العلماء بالجوائز والصلات العظام من المال، بل كانوا يتخدونهم أصدقاء وخاصة أصفياء، ويولونهم أجل المناصب في الدولة والقصر»[٢].

وحكىٰ بدر الدين القَرَافي رحمه الله (ت١٠٠٩هـ) أنَّ الإمام الشافعي رضي الله عنه (ت٢٠٤هـ) كان يقول: «ما معناه: دأبت في قراءة علم التاريخ كذا وكذا سنة، وما قرأته إلا لأستعين به علىٰ الفقه»[٣]، فتأمل واتعظ.

قلت: وإذا لم يكن للملك بالعلم شغلًا، وبأهلهِ تواصلًا، وللخير مداخلًا، فقد بان أمر مملكته، وقرب خرابها. كما قال أبو الفتح البستي (ت٤٠٠هـ):

إِذَا غَدا مَلِكٌ باللِهوِ مُشْتَغِلًا ... فَاحْكُم عَلَىٰ مُلْكِه بِالْوَيْلِ وَالْحَربِ[٤]

والملك لا بدَّ له من ناصحٍ وواعظ، وإلا ذهب حكْمه وتقوَّض، ورحم الله ابن العدوي (ت٥٩٠هـ) إذ قال موصيًا: «**فلا ينبغي أن تخلو مجالسهم -الملوك- من علماء الدين، وأصالح المتنسكين لينهوهم عند**

---

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي (حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس) (ص٣٤٣).

(٢) مدنية المسلمين في إسبانيا (ص١٣٤-١٣٥)، وتتمة كلامه: «وكان لملوك المور رأي صائب ينبغي أن يكون قدوة لجميع المدنيات، وهو أنَّ الرجال اللائقين بتدبير المملكة وإدارة شؤونها ليسوا البلغاء في الأقوال، أو المكرة ذوي الكيد والدسائس، بل رجال العلم برهنوا علىٰ كفاءتهم بسموا أفكارهم وثقوب أذهانهم. ولم يكن العلماء في الأندلس إلىٰ الأشراف والأجناد ورجال السياسة؛ بل كان العلماء من أكثر الناس مالًا ونعمةً، وكان الناس لهم أشد حسدًا، ولم يكونوا يحسدونهم علىٰ قصورهم الملكية وكثرة خدمهم وحشمهم، بل على علمهم».

(٣) الاستقصا في أخبار المغرب الأقصىٰ (١/ ٥٩).

(٤) الحلة السيراء (١/ ١٧٦).

طريان الغفلة، ويذكروهم عند ضراوة الشهوة، ويوضحوا لهم نهج الآخرةِ، ومعالمَ الشريعة، **وقد كان ذلك شعارُ الملوك الغابرين، والخلفاء الراشدين في مجالسهم الحكماء واستماع مواعظ العلماء**»[١].

وقال الماوردي (ت٤٥٠هـ): «**وأمَّا العلم فينبغي للملك أن يعرف فضله، ويستبطن أهله؛ لأنهَّم للدين أركان، وللشرع أعوان.**

والدين أسُّ الملك ونظامه، وقد قاموا فيه بحقه، ونابوا عن الملك في حفظه، ولولاهم لما عرف حق أمر من باطله، ولا صحة حكم من فاسده؛ فليحفظ الملك نظام ملكه بمراعاتهم، وليستظهر لدينه وملكه باستبطانهم؛ ليكون بالعلم موسومًا، وإليه منسوبًا، فإنَّ الإنسان موسوم بسِيما منْ قارب، ومنسوب إليه أفاعيل من صاحبه، ولذلك قال النبي ﷺ: **(المرء علىٰ دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)** »[٢].

إنَّ وجود العلماء في الدولة والأخذ بكلامهم بعين الاعتبار من أسباب البركة، ومن مكامن القوة والنصرة فيها، ولعلَّ القارئ ينظر في دور العلماء في الدولة الأيوبية وأنَّهم بفضل الله أولًا ثمَّ بجهودهِم كانوا من أسباب فتح بيت المقدس مع السلطان المظفر صلاح الدين[٣]، وكذلك الناظر في دولة المرابطين في المغرب والأندلس، يجد بأنَّ (العلماء المالكيون كان سعيهم وهدفهم انتشار العلم وأنْ تكون دولة المرابطين دولة علم ودين، وقد أضحتْ بالفعل كذلك؛ لأنَّها تأسست علىٰ أيدي أهل

---

(١) المنهج المسلوك في سياسة الملوك (ص٦٩٠).

(٢) تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك (ص٢٧٤).

(٣) ينظر كتاب (صور من جهاد العلماء)، وكتاب (العذب المعين في سيرة السلطان المظفر صلاح الدين) للمؤلف غفر الله له وثبته.

العلم، وظلَّ البيت المرابطي بيت علم ومأوىٰ للعلم وأهله)[(١)].

لقد سعىٰ العلماء في العهد المرابطي إلىٰ جعل الدولة ذات منطلق ومرتكز ديني، لقد كان للعلماء من أمثال عبد الله بن ياسين، والإمام محمد بن ياسين الحضرمي رؤية خاصة لهوية الدولة التي يسعون إلىٰ تحقيقها من خلال مبادئ الإسلام ومعطيات الواقع. لقد كان الهدف والمبدأ هو وحدة ديار الإسلام تحت لواء قيادة الخلافة العباسية، وكان الواقع هو استحالة هذه الوحدة الشاملة في الظرف الحالي. ولتجاوز هذا الإشكال أعطىٰ هؤلاء العلماء لدولتهم هدفًا وهوية يتمثل في الجهاد بمعناه الشامل من مدافعة للعدو إلىٰ إقامة الحق الذي يعين ويهيئ سبل تلك المدافعة.

فالعلماء أرادوا أن يجعلوا من دولتهم المرابطية نسقًا سياسيًا فرعيًا تابعًا لدولة الخلافة، ولقد حصل أمراء المرابطين علىٰ التفويض من طرف الخلفاء العباسيين، وكدليل علىٰ هذه التبعية نقش الأمراء المرابطون اسم الخليفة العباسي علىٰ سكتهم واكتفوا بلقب أمير المسلمين.

هكذا يغدوا العلماء دعاة لوحدة الأمة في إطار دولة الخلافة من خلال نسقًا سياسيًا مركزيًا تدور في فلكه مجموعة الأنساق الفرعية أيًا كان شكلها[(٢)].

ومن هؤلاء: الفقيه العالم عبد الله بن ياسين (ت٤٥١هـ). ظهر بعد الأربعين وأربع مائة، فذكر علي بن أبي فنون قاضي مراكش أنَّ جوهرًا -رجلًا من المرابطين- قدم من الصحراء إلىٰ بلاد المغرب ليحج، والصحراء برية واسعة جنوبي فاس وتلمسان، متصلة بأرضِ السودان،

---

(١) الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين (ص١٠٦) ط: دار الأندلس الخضراء.

(٢) المصدر السابق (ص١٠٩-١١٠) بتصرف يسير.

ويذكر لمتونة أنهَّم من حمير نزلوا في الجاهلية بهذهِ البراري، وأوَّل ما فشا فيهم الإسلام في حدود سنة أربع مائة، ثمَّ آمن سائرهم، وسارَ إليهم من يذكر لهم جملا من الشريعة، فحسن إسلامهم -ثمَّ حج الفقيه المذكور، وكان ديِّنًا خيرًا، فمرَّ بفقيه يقرئ مذهب مالك -ولعله أبو عمران الفاسي بالقيروان- فجالسه وحجَّ، ورجع إليه، ثمَّ قال: يا فقيه! ما عندنا في الصحراءِ من العلم إلا الشَّهادتينِ والصلاة في بعضنا.

قال: خذْ معك من يعلمهم الدين.

قال جوهر: نعم، وعليَّ كرامته.

فقال لابن أخيه: يا عمر! اذهب مع هذا.

فامتنع، فقال لعبد الله بن ياسين: اذهب معه.

فأرسله.

وكان عالـمًا قويَّ النَّفسِ، فأتيا لمتونة، فأخذ جوهر بزمام جمل ابن ياسين[1] تعظيمًا له، فأقبلت المشيخة يهنئونه بالسلامة، وقالوا: من ذا؟.

قال: حامل السنة.

فأكرموه، وفيهم أبو بكر بن عمر، فذكر لهم قواعد الإسلام، وفهمهم، فقالوا: أمَّا الصلاة والزكاة فقريب، وأمَّا من قتل يقتل، ومن سرق يقطع، ومن زنىٰ يجلد، فلا نلتزمه! فاذهب!

فأخذ جوهر بزمام راحلته، ومضيا.

وفي تلك الصحاري المتصلة بإقليم السودان قبائل ينسبون إلىٰ حمير،

---

(١) وهذا من تعظيمهم لأهل العلم واحترامهم، وقد فعله السلف: كابن عباس رضي الله عنهما مع جلالته وكونه من آل البيت، فعله لشيخه زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، فلا يمتنع عن فعل هذا إلا مريض قلب، أو جاهل جهول لا يعرف أقدار الرجال ومنازلهم، وترك التكلف بمثل هذا أفضل خشية الفتنة والغلو فيه.

ويذكرون أنَّ أجدادهم خرجوا من اليمن زمن الصديق، فأتوا مصر، ثمَّ غزوا المغرب مع موسىٰ بن نصير، ثمَّ أحبوا الصحراء وهم: لمتونة، وجدالة، ولمطة، وإينيصر، ومسوفة.

قال: فانتهيا إلىٰ جدالة، قبيلة جوهر، فاستجاب.

بعضهم، فقال ابن ياسين للذين أطاعوه: قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الجاحدين، وقد تحزبوا لكم، فانصبوا راية وأميرا.

قال جوهر: فأنت أميرنا.

قال: لا، أنا حامل أمانة الشرع، بل أنت الأمير.

قال: لو فعلت لتسلطت قبيلتي، وعاثوا.

قال: فهذا أبو بكر بن عمر رأس لمتونة، فسر إليه واعرض عليه الأمر . . .، إلىٰ أن قال: فبايعوا أبا بكر، ولقبوه أمير المسلمين، وقام معه طائفة من قومه وطائفة من جدالة، وحرضهم ابن ياسين علىٰ الجهاد، وسماهم المرابطين، فثارت عليهم القبائل، فاستمالهم أبو بكر، وكثر جمعه، وبقي أشرار، فتحيلوا عليهم حتىٰ زربوهم في مكان، وحصروهم، فهلكوا جوعا، وضعفوا، فقتلوهم، واستفحل أمر أبي بكر بن عمر، ودانت له الصحراء، ونشأ حول ابن ياسين جماعة فقهاء وصلحاء، وظهر الإسلام هناك[1].

ومنهم: العلامة أبو محمد عبد الحق ابن الحافظ أبي بكر غالب بن عطية المحاربي، الغرناطي (ت٥٤٢هـ). وهو مفسر[2] فقيه، أندلسي[3]،

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٢٥-٤٢٧)، و«الأعلام» (٤/ ١٤٣-١٤٤)، وانظر: «المسالك والممالك» للبكري (٢/ ٨٥٨-٨٥٩).

(٢) قال الذهبي في «السير» (١٩/ ٥٨٧) «شيخ المفسرين».

(٣) الأعلام للزركلي (٣/ ٢٨٢).

وعدَّه ابن فرحون في «الديباج المذهب» من أعيان مذهب المالكية، كما عدَّه السيوطي في «بغية الوعاة» من شيوخ النحو وأساطين النحاة[١].
صاحب التفسير المشهور «المحرر الوجيز». وقد وصف تفسيره ابن حيان في «البحر المحيط» فقال: «وأبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي، أجلُّ من صنف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير»[٢].

ولي قضاء المرية -للمرابطين- سنة تسع وعشرين وخمسمائة في المحرم، وكان غاية في الذكاء والدهاء والتهمّم بالعلم، سريّ الهمّة في اقتناء الكتب، توخّىٰ الحق، وعدل في الحكم[٣].

ومنهم: القاضي الجليلِ، والمفسر الكبيرِ أحمد بن عبد اللهِ **أبي بكر بن العربي** المعافري الأشبيلي المالكي (ت**٥٤٣هـ**).

رحل إلىٰ الشرق ضمن وقد أرسله ابن تاشفين للخليفة العباسي، وقابل في طريقه الإمام الغزالي في بغداد، وأبا بكر الطُرطوشي في دمشق، وغدا أستاذًا لكل الذين أتوا من بعده، وله عدّة مؤلفات تربو علىٰ الأربعين، وترأس وفد بلاده إلىٰ الخليفة عبد المؤمن بن علي عندما احتل أتباعه إشبيلية، وبعد ما جرت المقابلة في مراكش، عاد الوفد للأندلس، وفي الطريق توفي[٤].

استقضىٰ بمدينة إشبيلية؛ فقام بها أجمل قيام، وكان من أهل السرابة في الحق، والشدة، والقوة علىٰ الظالمين، والرفق بالمساكين. ثم صرف

---

(١) التفسير والمفسرون (١/ ١٧١).
(٢) البحر المحيط في التفسير (١/ ٢٠).
(٣) نفح الطيب (٢/ ٥٢٦).
(٤) المرابطون والأندلس (ص٧٥).

عن القضاء وأقبل علىٰ نشر العلم وبثه[١].

وقال: «لقد نزل بنا العدو قصمه الله سنة سبع وعشرين وخمسمائة؛ فجاس ديارنا، وأسر جيرتنا، وتوسط بلادنا في عدد هال الناس عدده، وكان كثيرًا، وإن لم يبلغ ما حددوه، فقلت للوالي والمولىٰ عليه: هذا عدو الله، وقد حصل في الشرك والشبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتظهر منكم إلىٰ نصرة دين الله المتعينة عليكم حركة، فليخرج إليه جميع الناس حتىٰ لا يبقىٰ منهم أحد في جميع هذه الأقطار فيحاط به فإنَّه هالك لا محالة إن يسركم الله له؛ فغلبت الذنوب، ووجفت القلوب بالمعاصي، وصار كل أحد من النَّاس ثعلبًا يأوي إلىٰ وجاره، وإنْ رأىٰ المكروه بجاره؛ فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل»[٢].

قال القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولقد حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتىٰ لم يك يرىٰ في الأرض منكر، واشتد الخطب علىٰ أهل الغصب، وعظم علىٰ الفسقة الكرب، فتألبوا وألبوا، وثاروا إليَّ، فاستسلمت لأمر الله، وأمرت كل من حولي ألا يدفعوا عن داري، وخرجت علىٰ السطوح بنفسي فعاثوا علي، وأمسيت سليب الدار، ولولا ما سبق من حسن المقدار لكنت قتيل الدار»[٣].

وعلىٰ العموم نذكر دور بعض العلماء علىٰ مر الزمان في الحفاظ علىٰ أمن البلاد، وتثبيت السلاطين، وحضور الغزو والنزال، وهم:

(١)- كان القاضي أبو يوسف القاضي (ت١٨٢هـ) هو المتولي لكثير من الأمور، والمتصدر لكثير من مشاهد السلطنة القضائية والعلميَّة، وقد

(١) تاريخ قضاة الأندلس لأبي الحسن المالقي (ص١٠٦).
(٢) أحكام القرآن (٢/ ٥١٧).
(٣) العواصم من القواصم (ص١٣٨).

لُقب بقاضي القضاة -علىٰ أنَّه عدَّ من المناهي اللفظية-[١]، وله وصيَّةٌ عظيمة وخالدة، ينصح بها الخليقة الرشيد في أول كتابه الخرَاج الذي ألفه بطلب منه، ومنها قوله: «إنَّ أمير المؤمنين أيَّده الله تعالىٰ سألني أنْ أضع له كتابًا جامعًا يعمل به في جباية الخراج، والعشور والصدقات والجوالي -جماعة تنتقل من وطنها إلىٰ وطن غيره، ويطلق علىٰ أهل الذمة-، وغير ذلك ممَّا يجب عليه النَّظرُ فيه، والعمل به.

وإنمَّا أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته، والصلاح لأمرهم. وفَّق الله تعالىٰ أمير المؤمنين، وسدده وأعانه علىٰ ما تولَّىٰ من ذلك، وسلَّمه ممَّا يخاف ويحذر»[٢].

[٢]- وقال السيوطي عن نظام الملك الطوسي السلجوقي (ت٤٥٨هـ): وقد أحاطت العلوم بما أجاب به الوزير نظام الملك حين أنكر عليه السلطان صرفه الأموال الكثيرة في جهة طلب العلم، فقال: «أقمتُ لك جندًا لا تردُّ سهامهم بالأسحار؛ فاستصوب فعله، وساعده عليه»[٣].

[٢]- **وكان الشيخ الزاهد حياة بن قيس بن رجال** بن سلطان الأنصاري (ت٥٨١هـ)، القدوة، العابد، شيخ حران وزاهدها.

يقول عنه الحافظ الذهبي: «**كانت الملوك يزورونه ويتبركون بلقائه،** وكان كلمة وفاق بين أهل بلده».

قيل: **إنَّ السلطان نور الدين زاره،** فقوىٰ عزمه علىٰ جهاد الفرنج، ودعا له، وإنَّ السلطان صلاح الدين زاره، وطلب منه الدعاء، فأشار عليه

---

(١) ينظر: معجم المناهي اللفظية للعلامة بكر أبو زيد رحمه الله (ص١٩٤-١٩٥).
(٢) (ص١٣).
(٣) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (٢/ ١٠٤).

بترك قصد الموصل، فلم يقبل، وسار إليها فلم يظفر بها[(١)].

ومثله: **الكمال الشهرزوري**: فقد كان له مآثر طيبة في الجهاد وصد الأعداء، وله فضل كبير في استنفار جيش العراق لمساندة نور الدين في حصار حلب، كما وصفه ابن الأثير بأنَّه: «خير من عشرة آلاف فارس».

وقال: «قيل للشهيد -الملك العادل نور الدين- إنَّ هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما يزيد علىٰ عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار، فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي، إنَّ كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فإنَّ شغلًا واحدًا يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار، وكان كما قال»[(٢)].

[٣]- وكان القائد الفاتح، والفقيه الفالح صلاحُ الدِّين الأيوبي (ت٥٨٩هـ)، يقول في ملأ من النَّاس: «لا تظنُوا أنَّي ملكتُ البلادَ بسيوفكم؛ **بل بقلم الفاضل**»[(٣)].

وكان يقول عن الفقيه الواعظ المفسر: **علي بن إبراهيم بن نجا** بن غنائم الأنصاري الدمشقي: بأنَّه «عمرو بن العاص»، ويعمل برأيه[(٤)].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ١٨١-١٨٢).

(٢) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (ص٦٢-٦٣) ط: دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

(٣) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي (٢٣/ ٨٣).

(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٥٣١).

قال أبُو شامة: «كان صلاح الدين يكاتبه، ويحضر مجلسه هو وأولاده: العزيز، وغيره. وكان له جاه عظيم، وحرمة زائدة».

وقال ناصح الدين: «كان أهل السنة بمصر لا يخرجون عما يراه لهم زين الدين -يعني ابن نجية- وكثير من أرباب الدولة».

وقال له الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين: «إذا رأيت مصلحة في شيء فاكتب إليَّ بها، فأنا ما أعمل إلا برأيك».

وأمَّا الفقيه **عيسىٰ الهكّاري الكردي**: فكان يميل إليه ويستشيره، وكأنّ الله قد أقامه لقضاء حوائج الناس، والتفريج عن المكروبين مع الورع والعفّة والدين[(١)].

[٤]- **ومنهم: سيف الدين المظفر قطز (ت٦٥٨هـ)**، فإنَّه قدَّم العلماء، وأخذ بنصحهم وكلامهم، وفي مقدمتهم العز بن عبد السلام رحمه الله، وكان ذلك من أسباب الانتصار بفضل الله ثم مشورته في معركة من معارك الإسلام الفاصلة (عين جالوت) سنة (٦٥٨هـ).

[٥]- ويذكر أنَّ **خوارزم شاه** غزا الكرج بتفليس[(٢)] في هذه السنة (٦٢٣هـ)، وقتل فيهم بنفسه حتىٰ جمد الدُّم علىٰ يده، فلمَّا مرَّ بقزوين خرج إليه الرافعي، فلمَّا دخل إليه أكرمه إكرامًا عظيمًا، فقال له الرافعي: سمعت أنَّك قاتلت الكفار حتىٰ جمد الدم علىٰ يدك فأحب أن تخرج إليَّ يدك لأقبلها.

فقال له السلطان: بل أنا أحب أن أقبل يدك.

فقبل السلطان يده وتحادثا، ثمَّ خرج الشيخ وركب دابته[(٣)].

[٦]- ومنهم **محمد بن حمزة الدمشقي آق شمس الدين المولود سنة (٧٩٢هـ)** وكان هو الفاتح المعنوي للقسطنطينية، وكان السلطان محمد الفاتح رحمه الله يقول: «ليس فرحي لفتح القلعة؛ إنمَّا فرحي بوجودِ مثل هذا الرجل في زمني»[(٤)].

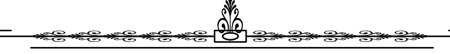
---

(١) النجوم الزاهرة (٦/ ١١٠).

(٢) وهي تبليس عاصمة جورجيا اليوم.

(٣) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٨/ ٢٨٤).

(٤) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٢/ ١٦٦-١٦٧)، قلت: هؤلاء العلماء هم الربانيون الذين جمعوا مع العلم العمل، ومع القول الفعل، وضمنوه بالتزكية والتربية، =







(فرع): ويدخل في هذا الباب

حرص العلماء على جعل نفقاتهم في الثغور

ذكر جمال الدين القفطي (ت٦٤٦هـ) عن الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ): أنَّه كان ديّنًا ورعًا جوادًا، وأنفذ أبو دلف إلىٰ ابن طاهر يستهديه أبا عبيد مدّة شهرين، فأنفذ أبا عبيد إليه، فأقام شهرين، فلمَّا أراد الانصراف وصله أبو دلف بثلاثين ألف درهم، فلم يقبلها وقال: أنا في جنبة رجل ما يحوجني إلىٰ صلة غيره، ولا آخذ ما فيه عليَّ نقص. فلمَّا عاد إلىٰ طاهر بن الحسين وصله بثلاثين ألف دينار بدل ما وصله

= وجملوه ببعد النظر، وبصيرة القلب في معرفة الأشياء بعضها من بعض، فبهذا قامت الدول (بعزيمة القادة، وبُعد نظر العلماء وصبرهم وتصبيرهم من حولهم)، ومن فقد هذا (العلم بأمور السياسة الشرعية، والخطط الحربية) فلن يلحق ركب هؤلاء العلماء الأفذاذ وهذا رزق، والله يؤتيه رزقه من يشاء، وفي هذا المقام يذكر أنَّ سلطنة «بخارىٰ»، ذهبت حيث استفتىٰ السلطان من علماء زمانه بشراءِ بعض الآلات الكائنة في زمنه؛ فمنعوه، وقالوا: إنهَّا بدعة!! فلم يدعوه أن يشتريها، حتىٰ كانت عاقبة أمرهم أنهم انهزموا، وتسلط عليهم الروس، ونعوذ بالله من الجهل. قاله الكشميري في «فيض الباري شرح صحيح البخاري» (٣/ ٤٣٥) ونحوه عند المطيعي في «تكملة المجموع» (١٥/ ٢٠٣)، والساعاتي في «الفتح الرباني» (١٣/ ١٣٠)، وذكره الشيخ مشهور في «حواشي الموافقات» (١/ ٢٢٩).

قال الأمير شكيب أرسلان في «تاريخ الدولة العثمانية» (ص٧٩) «وما سبقنا الأوربيون في المعارف العمرانية والوسائل المادية إلا بكثرة اشتغالنا بزيدٌ قائمٌ إلىٰ الحد الذي يخرجُ عن اللزومِ، بينما كانوا يقضون أوقاتهم بالعلوم الرياضية، والتجارب الطبيعية المفيدة، وهكذا تفوَّقوا وتغلبوا علينا».

أبو دلف، فقال له: «أيُّها الأمير، قد قبلتها ولكن قد أغنيتني بمعروفك وبرّك وكفايتك، وقد رأيت أن أشتري بها خيلًا وسلاحًا وأوجّهها إلىٰ الثغر ليكون الثواب متوفّرًا علىٰ الأمير، ففعل»[١].

وكان محمد بن خالد بن يزيد بن غزوان أبو عبد الله البراثي (ت٢٣٩هـ) كان فاضلًا دينًا ورعًا، وكان بشر الحافي يأنس إليه ويقبل صلته لورعه وحسن معاملته، وكان ذا مال يتصدق منه، ويجهز المجاهدين إلىٰ الثغور[٢].

ومنهم الحسين بن علي بن محمد بن يحيىٰ أبو أحمد التميمي النيسابوري (ت٣٧٥هـ)، يقال له: «حسينك».

وكانت صدقاته دارَّةً سرًا وعلانية، خرج مرة عشرة أنفس إلىٰ الغزاة بآلتهم بدلًا عن نفسه، ورابط غير مرة.

قال الخطيب: «كان حجة ثقة». وخرج السلطان للصلاة عليه[٣].

وقيل: لما وقع الاستنفار لطرسوس، دخلت عليه وهو يبكي، ويقول: قد دخل الطاغي ثغر المسلمين طرَسُوس، وليس في الخزانة ذهب ولا فضة، ثمَّ باع ضيعتين نفيستين من أجلِّ ضياعهِ بخمسين ألف درهم وأخرج عشرة من الغزاة المطوعة الأجلاد بدلًا عن نفسه، وما خلا رباط قط عن بديل له بها فارس شهم للنيابة عن نفسه[٤].

(١) إنباه الرواة للقفطي (٣/ ١٦)، و«تاريخ بغداد» (١٤/ ٣٩٢).
(٢) الوافي بالوفيات (٣/ ٣٠).
(٣) الوافي بالوفيات (١٣/ ١٣).
(٤) تراجم حفَّاظ الحديث ونقَّاد الأثر للبدخشي (ت١١٦١هـ) (٢/ ١٤١-١٤٢) ط: دار الهلال - طشقند.

ومنهم: هشام بن سليمان بن إسحاق بن هلال القيسي يكنىٰ أبا الوليد (ت٤٢٠هـ).

كان زاهدًا فاضلًا متنسكًا متبتلًا، منقطعًا عن الدنيا صوَّامًا قوامًا، كتب بخطهِ علمًا كثيرًا ورواه. وكان حسن الخط، جيد الضبط، وكان يصوم رمضان في الفهمين، ويصنع في عيد الفطر طعامًا كثيرًا لأهل الحصن ولمن حضره من المرابطين، وينفق فيه المال الكثير، وكان يرابط نفسه في الثغور، ويلبس الخشن من الثياب[١].

ولما بعث الملك الكامل علىٰ يد فخر الدين عثمان خمسة عشر ألف درهم لابن قوام الصالح (ت٦٥٨هـ) لم يقبلها، وقال: «لا حاجة لنا بها أنفقها في جند المسلمين»[٢].



(١) الصلة لابن بشكوال (ص٦١٤). روىٰ عن: عبدوس بن محمد، ومحمد بن إبراهيم الخشني، وتمام بن عبد الله، وابن أبي زمنين، والقاضي يونس بن عبد الله، وجماعة كثيرة يكثر تعدادهم.

(٢) الوافي بالوفيات (١٠/ ١٥٤).





[الفصل الثالث

روائع الصور في تعظيم الملوك والأمراء للعلماء]

في تاريخنا المجيد يوجد من التعظيم الكبير، والاحترام اللائق الجميل بأهل العلم من قبل السلاطين والملوك والخلفاء ما يسرُّ له القلب؛ ممَّا يبين مكانة العلم وتبجيله، واحترام أهله عندهم وتقديرهم، وقد ذكرت في كتابي هذا وغيره مما هو متعلق بذلك بحمد الله، وأستعين بالله مذكرًا بعلو مكانة أهل العلمِ عند سلاطين الدنيا وحكَّامِها، وعلىٰ رأسِهم **الخليفة الإمام عمر بن عبد العزيز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت١٠١هـ)**.

قال ابن عبد الحكم: قدم عليه زياد مولىٰ ابن عياش، وأصحاب له، فأتىٰ الباب وبه جماعة من النَّاسِ فأذن له دونهم، فدخل عليه فنسي أنْ يسلم عليه بالخلافة، ثمَّ ذكر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

فقال له عمر: والأولىٰ لم تضرني، ثمَّ نزل عمر عن موضع كان عليه إلىٰ الأرض وقال: **إنِّي أعظم أن أكون في موضع أعلو فيه علىٰ زياد،** فلمَّا قضىٰ زياد ما يريد خرج، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد ومن معه يأخذون منه حاجتهم، فنظر إليه خازن بيت المال فاقتحمته عينه عن أن يكون يفتح لمثله بيت المال ويسلَّطُ عليه -وهو به غير عارف- ففعل الخازن ما أمر به، فدخل زياد فأخذ لنفسه ولأصحابه بضعًا وثمانين درهمًا أو بضعًا وتسعين درهمًا، فلمَّا رأىٰ ذلك الخازن قال: «أمير

المؤمنين أعلم بمن يسلط علىٰ بيت المال»[١].

ومنهم: عبد الملك بن مروان (ت٨٦هـ).

قال الرياشي، عن الأصمعي: دخل عطاء بن أبي رباح علىٰ عبد الملك بن مروان وهو جالس علىٰ سريره وحواليه الأشراف من كلِّ بطنٍ وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلمَّا بصُرَ به قام إليه فسلَّم عليه، وأجلسه معه علىٰ السرير، وقعد بين يديه، وقال له: «يا أبا محمدٍ حاجتك؟»[٢].

ولما دخل صالح بن بشير المري (ت١٧٢هـ) علىٰ المهدي فقدم عليه، فلمَّا أدخل عليه ودنا بحماره من بساط المهدي، أمر ابنيه، -وهما وليا العهد موسىٰ وهارون-، فقال: قوما فأنزلا عمكما، فلمَّا انتهيا إليه، أقبل صالح علىٰ نفسه، فقال: «يا صالح لقد خبت وخسرت، إن كنت إنما عملت لهذا اليوم»[٣].

ومنهم: الخليفة هارون الرشيد (ت١٩٣هـ). عن علي ابن المديني، يقول: سمعت أبا معاوية -الضرير-، يقول: «أكلتُ مع هارون الرشيد أمير المؤمنين طعامًا يومًا من الأيام، **فصب علىٰ يدي رجلٌ لا أعرفه**، فقال هارون الرشيد: يا أبا معاوية، تدري منْ يصبُ علىٰ يديك؟ قلتُ: لا، قال: أنا، قلت: أنت يا أمير المؤمنين؟! قال: نعم! إجلالًا للعلم»[٤].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز علىٰ ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه لابن عبد الحكم (ت٢١٤هـ) (ص٥١).

(٢) تهذيب الكمال (٢٠/ ٨٠-٨١).

(٣) تاريخ بغداد (ترجمة: صالح المري) (١٠/ ٤١٥).

(٤) تاريخ بغداد (١٦/ ٩).

وحكي أنَّ هارون الرشيد بعث ابنه إلىٰ الأصمعي يعلِّمُهُ العلمَ والأدب، فرآهُ يومًا ويغسل رجليه، وابن الخليفةِ يَصُبُّ الماء، فعاتبَ الأصمعيَّ في ذلكَ، وقال: «أنا أبعثُهُ لك لتعلِّمهُ وتؤدبه، فلِمَ لا تأمُرُهُ أن يصبَّ الماء بإحدىٰ يديه، ويغسل بالأخرىٰ رجلك؟!»[(١)].

وقال أحمد بن عطية: سمعت أبا عبيد، يقول: كنَّا مع محمد بن الحسن، إذ أقبل الرشيد فقام النَّاسُ كلهم إلا محمد بن الحسن فإنَّه لم يقم، وكان الحسن بن زياد ثقيل القلب علىٰ محمد بن الحسن، فقام ودخل الناس من أصحاب الخليفة، فأمهل الرشيد يسيرًا ثمَّ خرج الآذن، فقال: محمد بن الحسن فجزع أصحابه، فأدخل فأمهل ثمَّ خرج طيبَ النَّفس مسرورًا، فقال: قال لي: مالك لم تقم مع النَّاس؟ قلت: كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها، إنَّك أهلتني للعلم فكرهتُ أن أخرج منه إلىٰ طبقةِ الخدمة التي هي خارجة منه، وإن ابن عمك ﷺ قال: «**من أحبَ أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده مِن النَّار**» وإنَّه إنمَّا أراد بذلك العلماء فمنْ قام بحق الخدمة وإعزاز الملك فهو هيبة للعدو، ومن قعد اتبع السنَّة التي عنكم أخذت فهو زين لكم.

قال: صدقت يا محمد[(٢)].

وكان المأمون (ت٢١٨هـ) قد وكل الفراء يلقن ابنيه النحو، فلمَّا كان يومًا أراد الفراء أن ينهض إلىٰ بعض حوائجه، فابتدرا إلىٰ نعل الفراء يقدمانه له، فتنازعا أيُّهما يقدمه، ثمَّ اصطلحا علىٰ أن يقدم كل واحد منهما فردا، فقدماها.

---

(١) تمام النصيحة في إرشاد الطلبة ليبورك السملالي (ت١٠٥٨هـ) (ص٨٠).

(٢) تاريخ بغداد (٢/ ٥٦١).

وكان المأمون له علىٰ كلِّ شيءٍ صاحب، فرفع ذلك إليه في الخبر، فوجه إلىٰ الفراء فاستدعاه، فلمَّا دخل عليه، قال له: من أعزُّ النَّاس؟ قال: ما أعرف أعز من أمير المؤمنين، قال: بلىٰ، مَن إذا نهض تقاتل علىٰ تقديم نعليه وليا عهد المسلمين، حتىٰ رضي كل واحد أن يقدم له فردًا، قال: يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصًا عليها وقد يروىٰ عن ابن عباس: أنَّه أمسك للحسن والحسين ركابيهما حين خرجا من عنده، فقال له بعض من حضر: أتمسك لهذين الحدثين ركابيهما، وأنت أسنُّ منهما؟ قال له: اسكت يا جاهل، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذو الفضل(١).

ومنهم: الأمير زياد الله بن الأغلب (ت٢٢٣هـ). كما قال القاضي عياض: حدثنا الثقة: «كنَّا ليلة النصف من شعبان عند أبي محمد الأنصاري، وكان ساكنًا بالدمنة، وكنَّا نجتمع عنده مع القراء للذكر مع وجوه النَّاس ليلةَ النصفِ من شعبان وليلة النصف من رمضان، وكان أمراء بني الأغلب يأتون إلىٰ جامع القيروان في تينك الليلتين ويكون فيهما من الصدقات أمر كثير، ثمَّ يخرجون من المسجد الجامع إلىٰ «الدمنة» ويزورون أبا محمد الأنصاري، يتبركون به وبدعائه.

قال: فخرج زيادة الله بن الأغلب من الجامع مقبلًا إليه حتىٰ وقف علىٰ باب داره في حشمه وأهل بيته وخدمه، ثمَّ قال لخلف الخادم ومسرور الخادم: «ادخلا جميعًا إلىٰ هذا الرجل الصالح وأعلماه وقولا له: «إمامك بالباب يريد الدخول إليك والسلام عليك». فدخلا إليه

(١) تاريخ بغداد (١٦/ ٢٢٤).

وأعلماه بما أمرهما به زيادة الله، فقال لهما: «قولا له ينصرف عنّي إلىٰ حال سبيله، فما له عندي حاجة ولا لي عنده حاجة».

فخرجا إلىٰ زيادة الله فأعلماه بما رد عليهما، فاغتاظ زيادة الله عند ذلك، غيظا عظيما وقال لهما: «ادخلا إليه وأخرجاه شاء أو أبىٰ». فدخلا إليه فأعلماه بما أمرهما، فحمله قوم من أصحابه من الصالحين، حتىٰ وقفوا به إليه فقال له زيادة الله: «يا هذا! أتيناك لتأمرنا بمعروف فنفعله ونسارع إليه، وتنهانا عن منكر فننزجر عنه، فجبهتني وحجبتني عن نفسك وأنا إمامك!» فانتهره أبو محمد الأنصاري وقال له: «جرأك عليّ علماء السوء الذين يغرونك ويزينون لك زخارف الدنيا وغرورها، ولو عملت بما علمت أنبأتك بما جهلت. اذهب عنّي لئلا أشتكيك إلىٰ الله ﷻ» فقال: صدقت، ثمَّ انصرف عنه[1].

ومنهم: المعتضد بالله (ت٢٨٩هـ) قيل: كان لتاجر علىٰ أمير مال، فمطله، ثمَّ جحده، فقال له صاحب له: قم معي، فأتىٰ بي خياطًا في مسجد.

فقام معنا إلىٰ الأمير، فلما رآه، هابه، ووفاني المال.

فقلت للخياط: خذ مني ما تريد، فغضب.

فقلت له: فحدثني عن سبب خوفه منك.

قال: خرجت ليلة، فإذا بتركي قد صاد امرأة مليحة، وهي تتمنع منه وتستغيث، فأنكرت عليه، فضربني، فلمَّا صليت العشاء جمعت أصحابي، وجئت بابه، فخرج في غلمانه، وعرفني، فضربني وشجني، وحملت إلىٰ بيتي، فلما تنصف الليل، قمت فأذنت في المنارة، لكي يظن أنَّ الفجر طلع، فيخلي المرأة، لأنَّها قالت: زوجي حالف عليَّ بالطلاق أنَّني

(١) طبقات علماء القيروان (١/ ٤١٢).

لا أبيت عن بيتي، فما نزلت حتىٰ أحاط بي بدر وأعوانه، فأدخلت علىٰ المعتضد، فقال: ما هذا الأذان؟ فحدثته بالقصة، فطلب التركي، وجهز المرأة إلىٰ بيتها، وضرب التركي في جوالق حتىٰ مات.

ثمَّ قال لي: أنكر المنكر، وما جرىٰ عليك فأذن كما أذنت، فدعوت له، وشاع الخبر، فما خاطبت أحدًا في خصمه إلا أطاعني وخاف[١].

وولي يوسف بن يعقوب بن إسماعيل (ت٢٩٧هـ) قضاء البصرة وواسط والجانب الشرقي من بغداد وكان ثقةً نزهًا عفيفًا شديد الحرمة جاءه يومًا بعض خدم الخليفة المعتضد فرفع في المجلس، فأمره حاجب القاضي أن يساوي خصمه، فامتنع إدلالًا بجاهه عنده فنهره القاضي وقال: ائتوني بدلال النخس حتىٰ أبيع هذا العبد وأبعث بثمنه إلىٰ الخليفة، وجاء حاجب القاضي، فأخذه بيده وأجلسه مع خصمه، فلما انقضت الحكومة رجع الخادم إلىٰ المعتضد فبكىٰ بين يديه وأخبره بما قال القاضي فقال: والله لو باعك لأجزت بيعه ولما استرجعتك أبدا، فليس خصوصيتك عندي تزيل مرتبة الحكم، فإنَّه عمود السلطان وقوام الأديان[٢].

ومنهم: الأمير إبراهيم بن أحمد (ت٢٨٩هـ) كان يزور -أبو الأحوص المتعبد (ت٢٨٤هـ)-، فإنْ وجده يطحن قوته بيده جلس علىٰ التراب، وإن وجده فارغًا جلس علىٰ جلد المطحنة؛ لأنَّه لم يكن في بيته حصير ولا غيرها، وكان إذا عرضت للمسلمين حاجة، لله فيها رضىٰ، كتب إليه فيها بالفحمة في شقفة.

---

(١) السير (١٣/ ٤٧١-٤٧٢)، وهذا الموقف وإن لم يكن صدر من عالم؛ إلا أنَّ تعظيم المعتضد بالله لفعل هذا الرجل هو من صور التعظيم التي يجدر بها أن تذكر؛ فإن أولىٰ النَّاس بهذا الوظيفة -إنكار المنكرات- هم العلماء، ومن ألزم الناس في عونهم ولاة الأمر؛ فبهذا يصلح حال الرعية، ويعم الأمن والخير.

(٢) البداية والنهاية (١٤/ ٧٦١-٧٦٢).

وذَكر بعض الشيوخ أنَّ إبراهيم بن أحمد جار[١] علىٰ الناس وتعسّفهم، فكتب إليه رقعة أغلظ له فيها.

وقيل: إنَّه كتب إليه رقعة فيها: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ فلمَّا وصلت إلىٰ إبراهيم بلغت منه مبلغًا عظيمًا، فأتاه في الليل فاستأذن عليه، فلم يسمع من حس -صوت- المطحنة، لأنَّ زوجته كانت تطحن، فلمَّا سمعوا فتحوا له الباب، فدخل إليه فقال، بعد السلام والسؤال عن الحال: «أتتني رقعةً ذكر أنهَّا من عندك» فقال: «أنا مكفوف البصر كما ترىٰ، ولكن تقرأ الرقعة عليّ، فإن كنت أمليتها أخبرتك» فقرئت عليه، فقال: «نعم؛ أنا أمليتها»، فوعظه فاتعظ، ثمَّ قال له: «أحب أن ترفع إليّ كلما ثبت عندك من مثل هذا فأغيره»[٢].

ومنهم: الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني.

قال الوزير أبو الفضل محمد بن عبيد الله البلعمي[٣]: سمعت الأمير إسماعيل بن أحمد يقول: كنت بسمرقند، فجلست يومًا للمظالم، وجلس أخي إسحاق إلىٰ جنبي، إذ دخل **أبو عبد الله محمد بن نصر (ت٢٩٤هـ)**، فقمت له إجلالًا للعلم، فلمَّا خرج عاتبني أخي وقال: أنت والي خراسان تقوم لرجل من الرعية؟ هذا ذهاب السياسة.

قال: فبت تلك الليلة وأنا متقسم القلب، فرأيت النبي ﷺ في المنام كأني واقف مع أخي إسحاق إذ أقبل النبي ﷺ فأخذ بعضدي، فقال لي: ثبَّتَ ملكك وملَّك بنيك بإجلالك محمد بن نصر.

---

(١) من الجور، وهو الظلم.

(٢) طبقات علماء القيروان (١/ ٤٨٣-٤٨٥).

(٣) بفتح الباء الموحدة وسكون اللام، وفتح العين المهملة وفي آخرها الميم: نسبة إلىٰ «بلعم» بلدة من بلاد الروم. وفي سبب نسبة جد الوزير أبي الفضل اختلاف انظره في (اللباب) (١/ ١٧٤).

ثـمَّ التفت إلىٰ إسحاق، فقال: ذهب ملك إسحاق، وملك بنيه باستخفافه بمحمد بن نصر[١].

ومنهم: أبو هاشم المقدسي قاضي مصر، جمع الشُّهود وأهل مصر لأمر يركبونَ فيه إلىٰ تِكِين أميرها[٢]، فوقفوا رُكبانًا ينتظرون خُروجه، فلمَّا خرج، نظرَ إليهم، فقال: ألم يكن معكم ابن رمضان (ت٣٢١هـ)؟ قالوا: نعم هو ماشٍ، فنظر إليه قائمًا، فقال: «قدِّموا له دابتِّي»، وأسرج للقاضي غيرها، وقال: «هذا مكافأة من أتانا ماشيًا»[٣].

ومنهم: معز الدولة (ت٣٥٦هـ): قال الذهبي: «وهذا ابن الداعي أفتىٰ ودرس، وولي نقابة الطالبيين في دولة بني بويه، فعدل وحمد، وكان معز الدولة يبالغ في تعظيمه، وتقبيل يده، لعبادته وهيبته»[٤].

ومنهم: الحكم المستنصر بالله الملقب بأمير المؤمنين سليل البيت الأموي، وصاحب الأندلس وابن ملوكها. (ت٣٦٦هـ) كان يتأدب مع العلماء والعبَّاد، التمس من زاهد الأندلس أبي بكر يحيىٰ بن مجاهد الفزاري أن يأتي إليه، فامتنع، فمرَّ في موكبه بيحيىٰ وسلم عليه، فرد عليه، ودعا له، وأقبل علىٰ تلاوته، ومرَّ بحلقة شيخ القراء أبي الحسن

(١) سير أعلام النبلاء (ترجمة: محمد بن نصر بن الحجاج المروزي) (١٤/ ٣٨-٣٩)، و«تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (١/ ٩٤)، و«الجواهر الحسان في مناقب السلطان سليمان بن عثمان» (ص٢٩٣-٢٩٤).

(٢) هو الأمير أبو منصور تكين التركي، انظر: السير (١٤/ ٢٢٣).

(٣) ترتيب المدارك (٣/ ٥١-٥٢) والمثبت هنا من طبعة الرسالة ناشرون، وابن رمضان هو أبو بكر محمد بن رمصان بن شاكر الحميري، كان مالكيًا شافعيًا، وابنه أحد المناضلين عن مذهب مالك.

(٤) المصدر نفسه (السير) (١٦/ ١١٤-١١٥)، ونعته بـ «الكبير، الرئيس، المعظم، الشريف».

الأنطاكي، فجلس ومنعهم من القيام له، فما تحرك أحد[١].

ومنهم: علي بن عمر بن محمد بن الحسن أبو الحسن الحربي الزاهد المعروف بابن القزويني (ت٤٤٢هـ). كان القائم يأتي إليه يزوره ليالي الجمع وتجتمع عنده قصص الناس فيوقع علىٰ الجميع عنده[٢].

ومنهم: أبو الريحان البيروني (ت٤٣٠هـ) وبلغ من حظوته عند الملوك أنَّ شمس المعالي قابوسًا أراد أن يستخلصه لنفسه علىٰ أن تكون له الإمرة المطاعة في جميع ما يحويه ملكه ويشتمل عليه ملكه فأبىٰ ولم يطاوعه، ولما سمح للملوك الخوارزمشاهية بذلك أنزله في داره معه، ودخل خوارزمشاه يومًا وهو يشرب علىٰ ظهر الدابة فأمر باستدعائه من الحجرة فأبطأ قليلًا فتصور الأمر علىٰ غير صورته وثنىٰ العنان نحوه ورام النزول، فسبقه أبو الريحان إلىٰ البروز وناشده الله ألا يفعل، فتمثل خوارزمشاه:

الْعِلْمُ مِنْ أَشْرَفِ الولاياتِ ... يَأْتِيهِ كلُّ الورىٰ وَلَا يأتي

ثمَّ قال: لولا الرسوم الدنيويَّة لما استدعيتك، **فالعلم يعلو ولا يعلىٰ**[٣].

ومنهم: الوزير نظام الملك (ت٤٥٨هـ). وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري وأبو المعالي الجويني قام لهما وأجلسهما في المسند، فإذا دخل أبو علي الفارمذي قام وأجلسه مكانه وجلس بين يديه!، فعوتب في ذلك، فقال: إنهَّما إذا دخلا عليَّ قالا: أنتَ وأنت فأزداد تيهًا.

---

(١) السير (١٦/ ٢٣١).

(٢) الوافي بالوفيات (٢١/ ٢٣٣).

(٣) المصدر السابق (الوافي بالوفيات) (٨/ ٩٢).

وأمَّا الفارمذي يذكر لي عيوبي وظلمي، فأنكسر وأرجع عن كثير من الذي أنا فيه[(١)].

قال السبكي (ت٧٧١هـ): «قد اعتبرت فوجدتُ أربعةً لا خامس لهم في العدل بعد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلا أن يكون بعض أُناس لم تطل لهم مدة، ولا ظهرت عنهم آثار ممتدة، وهم سلطانان، وملك، ووزيره في العجم وهما هذا السلطان محمود بن سبكتكين[(٢)]، والوزير نظام الملك، وبينهما في الزمان مدة؛ وسلطان وملك في بلادنا، وهما السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس، وقبله الملك نور الدين محمود بن زنكي الشهيد، ولا أستطيع أن أسميه سلطانًا؛ لأنَّه لم يسمَّ بذلك»[(٣)].

وقال عنه: «إن جلس بين العلماء جلس وعليه سِيما الوقار، وله من التأدب معهم ما شهدت به في التَّواريخِ الأخبار»[(٤)].

ومنهم: الأمير إبراهيم -أحدُ أمراء إفريقية في القرن الثالث- يقول: «علىٰ بابي رجلان: أحدهما يخاف الله ولا يخافني، والثاني يخافني ولا يخاف الله . . . فأمَّا الذي يخاف الله ولا يخافني فهو ابنُ طالب، والثاني

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ١٢٦).

(٢) قال الحافظ ابن كثير عن أحداث سنة (٥٤٧هـ) في «البداية والنهاية» (١٦/ ٣٦٥) «وفي ذلك انقضت دولة بني سبكتكين عن بلاد غزنة وغيرها. وقد كان ابتداء أمرهم في سنة ست وستين وثلاثمائة، وكانوا من خيار الملوك، وأكثرهم جهادًا في الكفرة، وأكثرهم أموالًا ونساءً وعددًا وعددًا، قد كسروا الأصنام، وأبادوا الكفار، وجمعوا من الأموال ما لم يجمع غيرهم من الملوك، مع أنَّ بلادهم من أطيب البلاد وأكثرها ريفًا ومياها ففني جميعه، وزال عنهم ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]».

(٣) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٥/ ٣١٥).

(٤) المصدر السابق (طبقات الشافعية الكبرىٰ) (ترجمة: نظام الملك) (٤/ ٣١٠).

فلانٌ، فذلك عظيم الحرمة عندي، وهذا الذي يخافني صغير عندي»[1].

ومنهم الأمير صاحب بخارىٰ. حكىٰ صاحب كتابِ «جامع الحكايات ولامع الروايات»: أنَّ السلطان إسماعيلَ صاحب بخارىٰ وممالك ما وراء النهر، استأذن عليه بعض العلماء فأذن له، فلمَّا دخل إليه قام السلطان له، واستقبله حافيًا سبع خطواتٍ، ثمَّ أجلسه معه علىٰ منصَّته، وأصغىٰ إلىٰ كلامه، وعظَّمه تعظيمًا بالغًا، وقضىٰ حوائجَه، فلمَّا قام ذلك العالم نهض السلطان معه مقدارَ سبع خطواتٍ، وكان أخوه إسحاقُ حاضرًا فقال له: يا أخي، لقد أوهنت نموس الملك، ووضعت من جانبه، قال: بماذا؟

قال: بما فعلت مع هذا الفقيه من التعظيم والمشي قُدّامه، وحشمة الملك والسلطنة تقتضي الوقار والسكون، وعدم الاكتراث بالنَّاسِ، فإذا فعلت هذا مع واحد من آحاد الفقهاء فقد أضعت حشمة الملك.

فقال إسماعيل: **يا أخي، إنَّ عزَّة تزولُ بتعظيم العلم والعلماء، وملكًا يحصل له الوهن وكسرة الناموس بإكرام ورثة الأنبياء لجدير ألا يكون**، وحقيق أن يذل ويهون، أنا ما عظمت هذا الرجلَ، إنَّما عظمت هذا العلم الذي شرفه الله تعالىٰ به.

---

(١) ارتياض العلوم (ص٢١٩) بالاستفادة، وفي «ترتيب المدارك» (٤/ ٣٢١). يذكر عن أبي العباس بن طالب، أنَّه تَنازعُ الفُقهاءِ المالكيّةِ في المسائل، فربَّما ذكر في المسألةِ خمسةَ أقوالٍ أو ستّة، ثمَّ تَسيلُ دُموعُه، ويضع خدَّه علىٰ الأرض، ويقول: «يا فتىٰ: أردت أن يُقال فَقيهٌ! فهل معك عملٌ صالحٌ تَنجو به من عذاب اللهِ؟ وإلَّا فما يُغني هذا عنك!».

قال أبو جعفر القصري: وما رأيتُ أكثرَ دُموعًا عند ذكر رسولِ اللهِ ﷺ منه، وكان مع ذلك يقولُ أعجبتني نفسِي، فأقول: «يا ابن طالب هبك أعظم النَّاس قدرًا، وأكثرهم عِلمًا، أليس يَشفع وراء ذلك كلّه الموت».

فلمَّا نام السلطان إسماعيل تلك الليلة رأىٰ في منامه النبي ﷺ وهو مستبشرٌ فقال له: «يا إسماعيل، أكرمت عالمًا من علماء أمتي، ومشيت معه سبع خطواتٍ، فسيملك من ولدك بعدك سبعة بنينَ، ويكون الملك في ذريتك إلىٰ سابع ولدك، وأما أخوك إسحاق: فليس له في الملك نصيبٌ» وكان الأمر كذلك، وهو أمر عجيب![1].

ومنهم: الأمير قطب الدين محمد ابن عماد الدين زنكي (ت٥٦٥هـ).

كان دينًا، خيرًا، عادلًا، حسن السيرة في رعيته، عفيفًا عن أموالهم وأملاكهم، متواضعًا يحب أهل العلم والدين ويحترمهم، ويجلس معهم، ويرجع إلىٰ أقوالهم[2].

ومنهم نور الدين زنكي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٥٩٦هـ).

قال شمس الدين الذهبي: «وتناقَصَ العلمُ بدمشق في المئة الرابعة والخامسة، وكثُر بعد ذلك ولا سيَّما في دولة نور الدين، وأيام محدثها ابن عساكر، والمقادسة النازلي بسفحها، ثم تكاثر بعد ذلك بابن تيمية والمزي وأصحابهما، ولله الحمد»[3].

قال أبو شامة: «وبلغني أنَّ بعض أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي، وكان قد استقدمه من خراسان، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، فحسده ذلك الأمير فنال منه يومًا عند نور الدين فقال له: يا هذا، إن صح ما تقول؛ فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها، وهي العلم والدين.

---

(١) قلائد العقيان في فضائل آل عثمان (مطبوع ضمن مجموع رسائل العلامة مرعي الكرمي الحنبلي) (٧/ ٤٧٥-٤٧٦).
(٢) الكامل في التاريخ (١٠/ ١٥١).
(٣) الأمصار ذوات الآثار (ص٢٦).

وأمَّا أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عَقَلت لشَغَلك عيبُك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئة هذا -إن صحت- مع وجود حسنته عليَّ؟ أنَّني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدبنَّك، فكف عنه»[١].

ومنهم: السلطان صلاح الدين الأيوبي (ت٥٨٩هـ). كان يكرم من يرد عليه من المشايخ، وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، كما قال ابن شداد: «وكان يوصينا بأنْ لا نغفل عمَّن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتىٰ يحضرهم عنده، وينالهم من إحسانه»[٢].

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٤٧)، و«مرآة الزمان» (٢١/ ٢٠٩)، وانظر كتابي (العبير الشذي في سيرة الملك العادل نور الدين) في عناية نور الدين بالعلم وأهله ففيه مباحث مفيدة ونافعة بإذن الله.

(٢) سيرة صلاح الدين الأيوبي لابن شداد (ص٦٧)، وفيه: «لقد مر بنا سنة أربع وثمانين وخمس مائة رجل جمع بين العلم والتصوف، وكان من ذوي الأقدار وأبوه صاحب توريز فأعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل وحج ووصل زائرًا لبيت الله المقدس ولما قضىٰ لبانته منه ورأىٰ آثار السلطان ﷺ فيه وقع له زيارته فوصل إلينا إلىٰ المعسكر المنصور فما أحسست به إلا وقد دخل علي في الخيمة فلقيته ورحبت به وسألته عن سبب ذلك ووصوله فأخبرني بذلك وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأىٰ له من الآثار الحميدة الجميلة فعرفت السلطان بذلك في ليلة وصول هذا الرجل فاستحضره وروىٰ عنه حديثًا ثم انصرفنا وبات عندي في الخيمة فلما صليت الصبح أخذ يودعني فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو علىٰ ذلك وقال قد قضيت حاجتي منه ولا عرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته وانصرف من ساعته ومضىٰ علىٰ ذلك ليال فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله فظهر عليه آثار الغضب كيف لم أخبره برواحه وقال كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا وشدد النكير علي في ذلك فما وجدت بدًا من أن أكتب كتابًا إلىٰ محيي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل وإيصال رقعة كتبتها إليه طي كتابي أخبره فيها بإنكار =

ويذكر أنَّ أبا الفتح محمود بن أحمد بن علي المحمودي البغدادي (ت٥٨١هـ)، قدم الشام فزاره نور الدين، وسأله الإقامة بدمشق، فقال: قصدي زيارة ضريح الشافعي، فجهزه سنة بضع وستين، في صحبة الأمير نجم الدين أيوب، وصار صديقا له، فكان ولداه السلطانان صلاح الدين وسيف الدين يحترمان أبا الفتح، ويرعيانه[(١)].

ومنهم: الوزير ابن هبيرة (ت٥٩٠هـ)، قال عنه ابن رجب: «ولما ولي الوزير أَبُو المظفر رحمه الله الوزارة بالغ في تقريب خيار النَّاسِ من الفقهاء والمحدثين والصالحين، واجتهد في إكرامهم وإيصال النفع إليهم، وارتفع أهل السنَّة به غاية الارتفاع».

ولقد قَالَ مرة في وزارته: «والله لقد كنت أسأل الله تعالىٰ الدنيا لأخدم بما يرزقنيه منها العلم وأهله»[(٢)].

ومنهم: القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (ت٥٩٦هـ). فإنَّ الإمام أبو محمد الشاطبي (ت٥٩٠هـ) لما دخل مصر أكرمه القاضي الفاضل عبد الرحيم، وبالغ في إكرامه، وولاه مشيخة الإقراء بمدرسته، وعظم شأنه فقصده الناس من الأقطار.

ولما فتح السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس توجه لزيارته في سنة تسع وثمانين وخمسمائة ...[(٣)].

= السلطان رواحه من غير اجتماعه به وحسنت له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك فما أحسست به إلا وقد عاد إلي فرحب به السلطان وانبسط معه وأمسكه».

(١) السير (٢١/ ١٦٣-١٦٤).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ١٢٢).

(٣) مختصر الفتح المواهبي في مناقب الإمام الشاطبي (ص٣٣) ط: ابن كثير.

ومنهم: **شهاب الدين، السلطان أبو المظفر محمد بن سام الغوري صاحب غزنة (ت٦٠٢هـ).** كان ملكًا شجاعًا غازيًا، عادلًا، حسن السيرة، يحكم بما يوجبه الشرع، ينصف الضعيف والمظلوم، وكان يحضر عنده العلماء.

وقد جاء أنَّ الفخر الرازي صاحب التصانيف وعظ عنده مرة، فقال في كلامه: يا سلطان العالم، لا سلطانك يبقىٰ، ولا تلبيس الرازي يبقىٰ ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فانتحب السلطان بالبكاء[1].

وكان الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) كما قال الصفدي: حكىٰ لي بعض الأفاضل أنَّ بعض الملوك -أُنسيته- سأله أن يضع له شيئًا في الأصول يقرأه، فقال له: بشرط أنَّك تحضر إلىٰ درسي، وتقرأه عليَّ.

فقال: نعم، وأزيدك علىٰ هذا فوضع له (المحصل).

قال الحاكي: -والعهدة عليه في ذلك-: أنَّ السلطان كان يجيء ويقف ويأخذ مداسه -يعني مداس الإمام- ويحمله في كُمِّه، ويسمع الدرس في الكتاب.

قلت -الصفدي-: إذا كان السُّلطان كذلك! كيف لا يرغب أهل العلم؟ ويزادون نشاطًا ويجتهدون في طلب الغايات.

وذكر أيضًا عن الرازي بإنَّه: إذا ركب يمشي حولَه نحوَ ثلاث مائة تلميذ فقهاء وغيرهم، وكان خوارزم شاه يأتي إليه، وكان شديد الحرص جدًا في العلوم الشرعيَّة والحكمة[2].

ومنهم: **الملك العادل أخو القائد صلاح الدين الأيوبي (ت٦١٥هـ).** ذكر ابن عبد الهادي عن الحافظ عبد الغني المقدسي أنَّه قال: ما رأيتُ منه

---

(١) تاريخ الإسلام (١٣/ ٥٩).

(٢) الوافي بالوفيات (٤/ ١٧٥-١٧٩).

إلا الجميل، أقبل عليَّ وقام لي، والتزمني، ودَعَوْتُ له، وقلتُ: عندنا قصور يوجب التقصير.

فقال: ما عندك تقصير ولا قصور. وذكر أمر السُّنَّة فقال: ما عندك شيء يُعاب في أمر الدِّين ولا الدُّنيا، ولا بدَّ للناس من حاسدين.

وبلغني عنه بعد ذلك أنه ذُكر عنده العلماء فقال: ما رأيتُ مثل فلان، دخل عليَّ فَخُيِّلَ إليَّ أنَّه أسدٌ قد دخل عليَّ[1].

ومنهم: الملك المعظم عيسىٰ بن العادل (ت٦٢٤هـ). وكان يتردد إلىٰ الشيخين (تاج الدين أبو اليمن وهو شيخه في النحوِ والأدب، والشيخ جمال الدين الحصيري وهو شيخه في الفقه) في معظم الأوقات، وربمَّا أتىٰ إليهما ماشيًا[2].

وكان المعظم يقرأ دائمًا علىٰ تاج الدِّين الكندي (ت٦١٣هـ)، سيبويه وشرحه، والحماسة والإيضاح، وشيئًا كثيرًا، وكان يأتي من القلعة ماشيًا إلىٰ دربِ العجم والمجلدُ تحت إبطه[3].

ومنهم: موسىٰ ابن الملك العادل أبي بكر (ت٦٣٥هـ).

يقول ابن سلطان العلماء العز بن عبد السلام: ولم يزل والدي معظمًا عند السلطان إلىٰ أن مرض مرضة الموت، قال لأكبر أصحابه: اذهب إلىٰ ابن عبد السلام، وقل له: محبك موسىٰ ابن الملك العادل أبي بكر يسلم عليك، ويسألك أن تعوده وتدعو له وتوصيه بما ينتفع به غدًا عند الله.

فلمَّا وصل الرسول إليه بهذه الرسالة، قال: نعم، إنَّ هذه العيادة

---

(١) طبقات علماء الحديث (٤/ ١٥٣).

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٤/ ٢١٠).

(٣) الوافي بالوفيات (١٥/ ٣٣).

لمن أفضل العبادات؛ لما فيها من النفع المتعدي إن شاء الله تعالىٰ، فتوجه إليه وسلم عليه، فسُرَّ برؤيته سرورًا عظيمًا، **وقبَّل يده**، وقال: «**يا عز الدين اجعلني في حلٍّ، وادع الله لي، وأوصني وانصحني**»[1].

ومنهم: الظاهر بيبرس (ت٦٧٦هـ) ومعاملته الحسنة للعز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ).

قال السبكي: ثمَّ سارت الدولة إلىٰ الأتراك -يعني المماليك- وكل منهم عامل الشيخ بأحسن معاملة، ولا سيَّما السلطان الملك الظاهر بيبرس ركن الدين رحمه الله، فإنَّه كان يعظمه ويحترمه، ويعرف مقداره، ويقف عند أقواله وفتاويه، وأقام الخليفة بحضرته وإشارته[2].

ولله در خوارزمشاه إذ قال:

الْعِلْمُ مِنْ أَشْرَفِ الولاياتِ   يَأْتِيهِ كلُّ الورىٰ وَلَا يأتي[3]

ومنهم: الأمير علم الدين الدواداري (ت٦٩٨ أو ٦٩٩هـ) وإجلاله للعالم فتح الدين ابن سيد النَّاس (ت٧٣٤هـ)، فإنَّه يحبه ويلازمه كثيرًا، ويقضي أشغال الناس عنده، ودخل به إلىٰ السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين وقد امتدحه بقصيدة وقال: احضرت لك هذا وهو كبير من أهل العلم، فأجلسه معه علىٰ الطراحة، فلما رأىٰ خطه وسمع كلامه قال: هذا ينبغي أن يكون في ديوان الإنشاء فرتب في جملة الموقعين، فرأىٰ فتح الدين الملازمة صعبًا عليه، فسأل الإعفاء من ذلك، فقال السلطان: إذا كان لا بد له من ذلك فيكون المعلوم له علىٰ سبيل الراتب

---

(١) طبقات الشافعية (٨/ ٣٤٠).

(٢) طبقات الشافعية (٨/ ٢٤٥)، وفي «الطبقات» قال ابن دقيق العيد: «كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء». وقال جمال الدين ابن الحاجب: «ابن عبد أفقه من الغزالي».

(٣) الوافي بالوفيات (٨/ ٩٢).

فرتب له إلىٰ أن مات[١].

ومنهم: الأمير ناصر الدين ابن الأمير بدر الدين جنكلي ابن البابا الحنبلي (ت٧٤١هـ). وكان فيه برٌّ وإيثار لأهلِ العلم والفقراء، ويخير مجالسة أهل العلم علىٰ مجالسة الأمراء والأتراك[٢].

ومنهم: تنكر نائب الشام (ت٧٤١هـ). وكان يعظم أهل العلم، وإذا كان عنده أحد منهم لم يسند ظهره؛ بل يقبل إليه بوجهه ويؤنسه بالقول والفعل[٣].

ومنهم: السلطان الظاهر برقوق (ت٨٠١هـ).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وبعد أن استقر علاء الدين السيرامي مدرس الحنفية بها، وشيخ الصوفية بها، بالغ السلطان في تعظيمه حتَّىٰ فرش سجادته بيده وحضر جميع الأعيان»[٤].

وكان حازمًا مهابًا محبًّا لأهلِ الخير والعلم، إذا أتاه أحد منهم قام إليه، ولم يعرف أحد قبله من الملوك الترك[٥] يقوم لفقيه، وقلّما كان يمكّن أحدًا منهم من تقبيل يده[٦].

---

(١) الوافي بالوفيات (١/ ٢٢١) بتصرف.

(٢) أعيان العصر وأعوان النصر (٤/ ٣٨١).

(٣) البدر الطالع (١/ ١٧١).

(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر (١/ ٣١٤).

(٥) في كتاب «نزهة الناظرين» (٨/ ١٠٩) «ولم يعرف أحدٌ من الملوك قبله قام لفقيه».

(٦) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١١/ ٢٩١)، وفي «الشهب اللامعة» (ص٣٢١)، بالاستفادة عن «الدولة الأموية» (٢/ ٤٨٩) كان هشام بن عبد الملك يكره تقبيل اليد، حكىٰ العتبي فقال: دخل رجل علىٰ هشام بن عبد الملك فقبل يده، فقال: «أفٍّ إنَّ العرب ما قبلت الأيدي إلا هلُوعًا، ولا فعلته العجم إلا خضوعًا».
وكان ابن قوام الصالح كما ذكر الصفدي في «الوافي بالوفيات» (١٠/ ١٥٤) يقول: «من مكن أحدًا من تقبيل يده، نقص من حاله شيء».

ومنهم: شاه رخ بن تيمورلنك (ت٨٥١هـ). صاحب هراة، وسمرقند، وبخارىٰ، وشيراز وما والاها من بلاد العجم، وغيرها؛ بل ملك الشرق علىٰ الإطلاق.

وفيه عدل في الجملة، وميل إلىٰ العلم وأهله.

ووصلت منه كتب إلىٰ سلطان مصر يستدعي فتح الباري ولم يكن قد فرغ منه مؤلفه فجهز له بعضه، وجهزت بقيته بعد ذلك.

وكان متواضعًا محببًا إلىٰ رعيته، مكرمًا لأهل العلم، قاضيًا لحوائجهم، لا يضع المال إلا في حقه[1].

ومنهم: جقمق الظاهر أبو سعيد الجركسي (ت٨٥٧هـ) وكان ملكًا متواضعًا يقوم للفقهاء والصالحينَ إذا دخلوا عليه، ويبالغُ في تقريبهم منه، ولا يرتفع في المجلس بحضرتهم. وله إلمامٌ بالعلم، واستحضار لبعض المسائل لكثرةِ تردد العلماء إليه في حال أمرته ورغبته في الاستفادة منهم، وله كرمٌ زائد بحيث ينسب إلىٰ التبذير؛ فإنَّه قد يعطىٰ بعض أهل العلم ألف دينار فصاعدًا[2].

---

(١) البدر الطالع (١/ ٢٧١-٢٧٢)، وانظر ترجمته في «المنهل الصافي والمستوفىٰ بعد الوافي» لابن تغري بردي (١٠/ ١٩٩-٢٠٠).

(٢) البدر الطالع (١/ ١٨٤-١٨٥) وفي «المصدر نفسه» (١/ ٢٨٣) شيخ المحمودي ثم الظاهري الجركسي (ت٨٢٤هـ). كان شهمًا شجاعًا، عالي الهمَّة، كثير الرجوع إلىٰ الحقِ، محبًا للعلماء، مكرمًا لهم، يميل إلىٰ العدل، ويحسن إلىٰ أصحابه، ويصفح عن جرائمهم، وحدَّث بصحيحِ البخاري عن السراج البلقيني.

قال العيني: «وجمع ابن ناهض سيرته في مجلدٍ حافل، قرظه له كل عالم وأديب».

وفيه: (١/ ٣٠٢) (ططر الملك الظاهر)، كان يحبُّ العلماء، ويعظمهم مع حسن الخلق، والمكارم الزائدة، والعطاء الواسع.

قال ابن خطيب الناصرية: «كان مائلًا إلىٰ العدل، وأهل العلم يحبهم ويكرمهم، ويتكلم في مسائل من الفقه علىٰ مذهب أبي حنيفة». =

ومنهم: السلطان سليم الأول (ت٩٢٦هـ). كان السلطان سليم الأول راجعًا مع جيشه من مصر إلىٰ اسطنبول، بعد أن دانت له مصر والشام والحجاز، وبعد أن أصبح هو الخليفة في آل عثمان، وكان يسير في المقدمة علىٰ صهوة جواده الأصيل، وهو يتسامر مع ابن الكمال، وكان من كبار علماء عصره يتبعهما الوزراء والقواد.

وبينما هما يتسامران إذا بفرس عالم ابن الكمال يجفل، ويضرب برجليه الأرض المغطاة بالوحل، فتتناثر الوحل علىٰ قفطان السلطان علىٰ شكل بقع كبيرة. اصفر وجه ابن الكمال فقد أيقن بالهلاك، وهلعت قلوب الوزراء والقواد، فقد توقعوا أن يطيح السيف برأس العالم، ولكن السلطان خلع بكل هدوء قفطانه الملوث بالوحل، ودعا بقفطان آخر قائلًا لابن الكمال: «إنَّ هذا القفطان، الذي تلوث بوحلٍ متناثر من رجل فرس عالم كبير مثلك سيكون من أثمن الأشياء عندي، وأنا أوصي بالاحتفاظ به

= وفيه (١/ ٣١٢): (الوزير الأكبر الفقيه أحمد بن علىٰ النهمي). من محاسن الزمن، له محبة للخير، وإقبال علىٰ الطاعة، وميل إلىٰ أهل العلم والصلاح، ومواساة الضعفاء؛ مع صدق لهجة، وحسن اعتقاد، وكان يغضب إذا قال له قائل: إنَّه وزير أو عظمه أو وصفه بوصف له مدح له، ولم يأتِ بعده في مجموع خصاله مثله إلا الحسن بن علي حنش!!

وفيه: (١/ ٣٧٢-٣٧٣) (عبد الكريم بن هبة الله ابن السديد المصري الملقب كريم الدين الكبير أبو الفضائل ت ٧٢٤هـ)، وكيل السلطان، ومدبر الدولة الناصرية. كان عادلًا، وقورًا، جزل الرأي، بعيد الغور، يحب العلماء والفضلاء، ويحسن إليهم كثيرًا، وكان يوفي ديون من في الحبس، ويطلق من فيها دائمًا.

قال الذهبي: «وكان لا يتكلف في ملبسٍ ولا زي».

وفيه: (٢/ ٢٣٦-٢٣٧) (محمد بن قلاون بن عبد الله الصالحي الملك الناصر ابن المنصور) وكان مطاعًا مهيبًا عارفًا بالأمور، يعظم أهل العلم، ولا يقرر في المناصب الشرعية إلا من يكون أهلًا لها، ويتحرىٰ لذلك ويبحث عنه ويبالغ.

ووضعه علىٰ تابوتي في أثناء تشيعي للقبر عند وفاتي!»[١].

ولنختم هذه الصور الرائعة، بكلام نفيس كالدرر يبين صحة ما ذكرت، قال محمد بن عبد الرحمن الوَصَابي الشافعي (ت٧٨٦هـ): «فما زال العلماء حكامًا علىٰ السلاطين، والسلاطين سيفًا ونصرة للدين، وما برح الملوك بالعلماء يقتدون، وبقولهم يهتدون؛ لا يضع الملوك سيفًا ولا يغمدونه إلا بما قاله علماؤهم لا يعتدونه, قد عرفوا للعلماءِ حقوقهم، وسلكوا بأفعالهم طريقهم، وأذلَّوا من رام عقوقهم، ونصروا الشريعة بالسيف، وردوا إليها من أظهر الحيف، ولم يقولوا لِمَ هذا، ولا كيف؛ بل مهدوا الأرض للعلماء تمهيدًا، وتبعوا أحكامهم وقلدوهم تقليدًا، ونصروا الشرع والعلماء نصرًا حميدًا.

علموا أنَّ العلماءَ هم الوسائط بن الله وبين خلقه، وأنهَّم العارفون بما يجب من رعاية حقه، فقدروهم قدرهم، وشدوا بهم أزرهم، وجعلوا من طاعة الله نصرهم، وتواضعوا للعلم والعلماء، ولم يتكبروا، وانقادوا تحت أمر علمائهم ولم يتجبروا»[٢].



(١) روائع من التاريخ العثماني (ص٦١).

(٢) نشر طيّ التعريف في فضل حملة العلم الشريف (ص١٤-١٥).





[الفصل الرابع

علو رتبة العلماء]

قد بينت بحمد الله وتوفيقه علو رتبة العلماء ووجوب احترامهم(١)، فأترك الإطالة في ذلك واختصر.

ويكفي الدليلُ علىٰ أنَّهم أمراء أنَّ الله ﷻ ذكرهم في معرض إثبات وحدانيته، وجعلهم ورثة أنبيائه ورسله، وهذا لا يؤتاه إلا من حباه الله، وخصه بالخصائص، وأكرمه بطيب الشمائل، وبهذا دليل من أقوىٰ الدلائل علىٰ منزلة العلماء.

قال الله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وفي «سنن أبي داود» بسندهِ عن أبي موسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ من إجلالِ اللهِ إكرامَ ذي الشّيبةِ المسلمِ، وحاملِ القرآنِ غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرَامَ ذي السّلطانِ المُقْسِطِ**»(٢).

قال ابن مسعود رضي الله عنه (ت٣٢هـ): «المتَّقون سادة، والفقهاءُ قادة،

---

(١) في أكثر من كتاب من كتبي، ومنها كتابي: (احترام العلماء وتوقيرهم).

(٢) السنن (٤٨٤٣)، هو عند البيهقي في «السنن» (٨/ ١٦٣)، وفي «الشعب» (٢٦٨٥) و(١٠٩٨٦)، وفي «الآداب» (٤٣) من طريق المصنف، بهذا الإسناد.

وأخرجه موقوفًا علىٰ أبي موسىٰ: البخاري في «الأدب المفرد» (٣٥٧) عن بشر ابن محمد، عن عبد الله بن حمران به.

ومجالستُهم زيادة»[١].

وكان إذا رأىٰ الشباب يطلبون العلمَ، قال: «مرحبًا بكم ينابيع الحكمة، ومصابيح الظلمة، خلقان الثياب، جدد القلوب، حلس البيوت، ريحان كل قبيلة»[٢].

وقال علي رضي الله عنه (ت٤٠هـ): «العلمُ يكسب العالمَ الطاعةَ في حياتِه».

قال ابن القيم: «أي: يجعله مطاعًا؛ لأنَّ الحاجة إلىٰ العلمِ عامةٌ لكل أحد، الملوك فمن دونهم، فكل أحد محتاجٌ إلىٰ طاعة العالم، فإنَّه يأمر بطاعة الله ورسوله، فيجب علىٰ الخلق طاعته، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]»[٣].

وعن محمد بن كعب القرظي (ت١٠٨هـ)، قال: «إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا زهده في الدنيا، وفقهه في الدين، وبصره عيوبه، ومن أوتيهنَّ أوتي خير الدنيا والآخرة»[٤].

وقال لقمان لابنه: «يا بنيَّ إنَّ الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك»[٥].

وقال عبد الملك بن مروان (ت٨٦هـ) لبنيه: «يا بَنيَّ: تعلموا العلم، فإنْ كنتم سادة فُقتُم، وإنْ كنتم وسطًا سُدتُم، وإنْ كنتم سوقة عِشتُم»[٦].

---

(١) حلية الأولياء (١/ ١٣٤)، و«الفقيه والمتفقه» (١/ ١٤٢)، وهو عند البيهقي في «الزهد الكبير» (٤٥٨) من قول عبد الله بن بسر المازني رضي الله عنه.

(٢) شعب الإيمان (١٦٠٠).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٨٦).

(٤) الزهد لوكيع (ص٢١٨)، و«صفة الصفوة» (٢/ ١٣٢)، وهذا علىٰ غرار الحديث النبوي الصحيح «من يرد به خيرًا يفقهه في الدين».

(٥) الزهد للإمام أحمد (٥٤٥).

(٦) أدب الدنيا (ص٣٦). وفي «جامع بيان العلم» (١/ ٢٤٤). =

وفضل العلم مقدم علىٰ مراتب الملكِ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما (ت٦٨هـ): «خُيِّرَ سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك؛ فاختار العلم، فأعطي المال والملك معه»[1].

وقال أبو الأسود الدؤلي (ت٦٩هـ): «ليس شيءٌ أعزُ من العلمِ، الملوكُ حكَّامٌ علىٰ النَّاسِ، والعلماءُ حكَّامٌ علىٰ الملوكِ»[2].

وقال الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ): «والعلماءُ في الحقيقةِ أمراء الأمراء»[3].

وقال: «فلولا أنَّ العلمَ أشرف الأشياء، وإلا فمن أين للهدهد أن يتكلم في مجلس سليمان بمثل هذا الكلام؟ ولذلك يرىٰ الرجل الساقط إذا تعلم العلم صار نافذ القول عند السلاطين، وما ذاك إلا ببركة العلم»[4].

وقال: «**اعلم أنَّ الحكام علىٰ الخلق ثلاث طوائف**:

أحدها: الذين يحكمون علىٰ بواطن الناس وعلىٰ أرواحهم، وهم العلماء.

وثانيها: الذين يحكمون علىٰ ظواهر الخلق، وهم السلاطين يحكمون علىٰ الناس بالقهر والسلطنة.

وثالثها: الأنبياء، وهم الذين أعطاهم الله تعالىٰ من العلوم والمعارف»[5].

= قال عبد الملك بن مروان لبنيهِ: «يا بنيَّ تعلموا العلم، فإنْ استغنيتم كان لكم كمالًا، وإنْ افتقرتم كان لكُم مالًا».

(١) الإحياء للغزالي (١/ ٧)، وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» مرفوعًا (٢٢/ ٢٧٤).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (ص٤٢).

(٣) مفاتيح الغيب (١٠/ ١١٤).

(٤) المصدر السابق (تفسير سورة البقرة) (٢/ ٤٠٧).

(٥) المصدر نفسه (تفسير سورة الأنعام) (١٣/ ٥٤).

ونصَّ بعض فقهاءِ الحنفيّةِ: «علىٰ أنَّ مدرِّسَ العلمَ الشرعيَّ كفءٌ لبنت الأميرِ»(١).

وصور علو مكانة العلماء، وتبجيلهم كتبجيل الملوك كثيرة، فهذا **أسلم بن يزيد** أبو عمران التجيبي المصريّ (ت٩١هـ).

يقول أبو سعيد بن يونس عنه: «كان وجيهًا بمصر في أيامه، وكانت الأمراء يسألونه في حوائجهم»(٢).

وعن أبي العالية (ت٩٠هـ) قال: كنت آتي ابن عباس رضي الله عنهما وهو علىٰ سريرهِ، وحوله قريش فيأخذ بيدي فيجلسني معه علىٰ السرير، فتغامزني قريش(٣)، ففطن لهم ابن عباس، فقال: «كذاك هذا العلم، يزيد الشريف شرفًا، ويجلس المملوك علىٰ الأسرة»(٤).

وقال **يزيد بن الأصم** (ت١٠٣هـ): «خرج معاوية حاجًا معه ابن عباس، **فكان لمعاوية موكب، ولابن عباس موكب** ممَّن يطلب العلم»(٥).

وقال أبو شهاب: «رأيت سعيد بن جبير (ت٩٥هـ) انقطع شسعه فخلع نعله الأخرىٰ وهو يطوف، فلمَّا رآه القوم خلعوا نعالهم»(٦).

---

(١) حاشية ابن عابدين (٢/ ٣٢٢)، وهو نقلًا عن «المروءة وخوارمها» (ص١٥٩).
(٢) تهذيب الكمال (٢/ ٥٢٨).
(٣) أبو العالية رفيع بن ميمون الرياحي، وسبب تغامزهم أنَّه كان مملوكًا، انظر: «طبقات ابن سعد» (٧/ ٨٠)، ط: العلمية.
(٤) الفقيه والمتفقه (١/ ١٣٩)، وعلَّق الحافظ الذهبي في «السير» (٤/ ٢٠٨)، فقال: «قلت: هذا كان سرير دار الإمرة -عندما كان واليًا علىٰ البصرة-، لما كان ابن عباس متوليها لعلي رضي الله عنهم».
(٥) السير (٣/ ٣٥١).
(٦) حلية الأولياء (٤/ ٢٨٠).

وقال **سالمُ بن أبي الجعد** (ت١٠٠هـ): «اشتراني مولايَ بثلاثِ مئةِ درهم فأعتقني، فقلت: بأيِّ حرفةٍ احترفُ؟ فاحترفتُ بالعلمِ، فما تمَّت لي سنةٌ **حتَّىٰ أتاني أمير المدينةِ زائرٌ فلم آذن له**»[(١)].

وقال ابن جابر: أقبل يزيد بن عبد الملك (ت١٠٥هـ) إلىٰ مجلس **مكحول** (ت١١٢هـ)، فهممنا أن نوسع له، فقال: «دعوه يتعلم التواضع»[(٢)].

وقال الذهبي في وصفِ **الإمام الزهري** (ت١٢٤هـ): «كان محتشمًا، جليلًا بزي الأجناد، له صورة كبيرة في دولة بني أمية»[(٣)].

وقال عمرو بن الحارث (ت١٤٧هـ): «الشرفُ شرفانِ: شرف العلم، وشرف السلطان؛ وشرف العلم أشرفهما»[(٤)].

وقال أبو الفيض محمد بن علي الفارسي (ت٧٨٣هـ)، كان **سفيان الثوري (ت١٦١هـ)** ربَّما حدث الرجل حديثًا، فيقول: «هذا خير لك من ولاية الري»[(٥)].

وقال أشهب بْن عَبْد الْعَزِيز: «كَانَ اللَّيْث (ت١٧٥هـ) له كل يَوْم أربعة مجالس يجلس فِيهَا: أمَّا أولها: فيجلس لنائبة السلطان في نوائبه

---

(١) تبعيد العلماء عن تقريب الأمراء للملا علي القاري (المطبوع ضمن مجموع رسائله) (٦/ ٤٦٥).

(٢) السير (٥/ ١٥٠).

(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٣٧)، ومكحول هذا إمام ففي «تذكرة الحفاظ» (١/ ٨٢) وروىٰ أبو وهب عن مكحول، قال: «عُتِقتُ بمصر فلم أدع بها علمًا إلا حويته فيما أرىٰ، ثمَّ أتيت العراق، ثمَّ المدينة فلم أدع بهما علمًا إلا حويت عليه فيما أرىٰ، ثمَّ أتيت الشام فغربلتها».

(٤) تهذيب الكمال في ترجمة (عمرو بن الحارث) (٢١/ ٥٧٦).

(٥) جواهر الأصول في علم حديث الرسول (ص١٧٦)، وهو في «الحلية» (٦/ ٣٧٠).

وحوائجه، وكان اللَّيْث يغشاه السلطان فإذا أنكر من الْقَاضِي أمرًا أو من السلطان كتب إِلَىٰ أمير المؤمنين، فيأتيه العزل.

ويجلس لأصحاب الحديث، وكان يَقُول: نجحوا أصحاب الحوانيت فإنَّ قلوبهم معلقة بأسواقهم.

ومجلس للمسائل يغشاه النَّاس فيسألونه، ومجلس لحوائجِ النَّاس لا يسأله أحد من النَّاسِ فيرده كبرت حاجته أو صغرت»[(١)].

وقال أبو عاصم: «ماتَ حماد بن زيد (ت١٧٩هـ) يوم مات ولا أعلمُ له في الإسلامِ نظيرًا في هيبته ودله، أظنُّه قال: وسمته»[(٢)].

ومُدِح الإمام مالك بن أنس (ت١٧٩هـ):

يَدَعُ الْجَوَابَ فَلَا يُرَاجِعُ هَيْبَةً ... وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الْأَذْقَانِ
نُورُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَىٰ ... فَهُوَ الْمُهِيبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ[(٣)]

قال الحسن ابن أبي الربيع: كنَّا علىٰ باب مالك بن أنس فخرج مناد فنادىٰ: ليدخل أهل الحجاز، فما دخل إلا أهل الحجاز.

ثمَّ خرج فنادىٰ ليدخل أهل الشام، فما دخل إلا أهل الشام.

ثمَّ خرج فنادىٰ ليدخل أخل العراق فكنَّا آخر من دخل، وكان فينا حماد بن أبي حنيفة، فلمَّا دخل قال: السلام عليكم ورحمة الله وإذا مالك بن أنس جالس علىٰ الفرش، والخدم قيامٌ بأيديهم المقارعُ.

قال: فأومأ النَّاسُ بأيديهم إليه اسكت! فقال: ويحكم أفي الصلاة نحن فلا نتكلم؟!

---

(١) تهذيب الكمال (٢٤/ ٢٧٥-٢٧٦)، وهو في «السير» (٨/ ١٥٠).
(٢) حلية الأولياء (٦/ ٢٥٨).
(٣) الجامع لأخلاق الراوي (١/ ١٨٤).

قال: فسمعت مالكًا يقول: أستخير الله ثلاثًا، ثمَّ قال: أخبرني نافع عن ابن عمر فحدثهم بعشرين حديثًا[١].

وقال القاضي عياض: «وكان كالسلطان له حاجب يأذنُ عليه، فإذا اجتمع النَّاسُ ببابهِ أمرَ آذنه يخص أولًا أصحابه، فإذا فرغ من يخص أذن للعامة»[٢].

وقال داود بن مخراق سمعت النَّضر بن شُمَيل (ت٢٠٣هـ): «من أراد أن يشرُف في الدنيا والآخرة، فليتعلم العلم»[٣].

إنَّ الملوكَ ليحْكُمونَ علَىٰ الوَرَىٰ وعلىٰ الملوكِ لتحكُمَ العلماءُ

وقيل: تعلموا العلم فإنَّه يوطئ المساكين بسط الملوك.

ونظر عمر رضي الله عنه إلىٰ رجل في هيئةٍ نفيسةٍ، فقال: ألستَ ابن قيس بالبصرة؟

قال: نعم؛ ولكنَّي كاتب!

فقال: لله درّ العلم ما زال يرفع أهله.

قال الشاعر:

الْعِلْمُ يَنْهَضُ بِالْخَسِيسِ إِلَىٰ الْعُلَا وَالْجَهْلُ يَقْعُدُ بِالْفَتَىٰ الْمَنْسُوبِ[٤]

---

(١) الإلماع (ص٣٢٢).

(٢) ترتيب المدارك (٢/ ١٣).

(٣) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص٨٠٩).

(٤) محاضرات الأدباء (١/ ٤٩)، و«جامع بيان العلم» (١/ ٨٤). وفي «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٧٥).

وقيل: كان بعضُ خلفاء بني العباس يلعبُ بالشِّطرنج، فاستأذن عليه عمُّه، فأذنَ له وغطَّىٰ الرُّقعة، فلما جلس قال له: «يا عم، هل قرأتَ القرآن؟ قال: لا، قال: فهل كتبتَ شيئًا من السُّنَّة؟ قال: لا، قال: فهل نظرتَ في الفقه واختلاف الناس؟ قال: لا، قال: فهل نظرتَ في العربية وأيام الناس؟ قال: لا، فقال الخليفة: اكشِف =

ومنهم: **الإمام يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي (ت٢٣٤هـ)** يلبس الوشي الرفيع، يريد القطني، ثمنه المال العظيم في الأعياد والدخول علىٰ الأمراء.

وقال الأمير محمد: ركبت يومًا في حياة أبي، فلقيت يحيىٰ بن يحيىٰ، فراكبني ثم ضرب علىٰ يدي، وقال لي: إن هذا الأمر صائر إليك، فاتق الله في عباد الله. فكانت في نفسي حتىٰ صرت إليه، ووليت الأمر بعده[(١)].

ومنهم: شيخ المالكية أحمد بن المعذل. وجَّه المتوكل إليه وغيره من العلماء، فجمعهم في داره، ثمَّ خرج عليهم، فقام النَّاس كُلُّهُم له غير أحمد بن المعذل، فقال المتوكل لعبيد الله: إنَّ هذا الرجل لا يرىٰ بيعتنا؟ فقال له: بلىٰ يا أمير المؤمنين، ولكِن في بصره سوء.

فقال أحمد بن المعذل: يا أمير المؤمنين! ما في بصري سوء، ولكنْ نزَّهتك من عذاب الله، قال النبي ﷺ: «**من أحبَّ أن يتمثَّل الرِّجال له قيامًا؛ فليتبوَّأ مقعده من النَّار**». فجاء المتوكل، فجلس إلىٰ جنبه[(٢)].

ومنهم: الأوزاعي (ت١٥٧هـ). قال عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين: سمعت أميرًا كان بالساحل وقد دفنا الأوزاعي ونحن عند

= الرُّقعة. ثمَّ أتمَّ اللعب، وزال احتشامُه وحياؤه منه، فقال له مُلاعِبُه: يا أمير المؤمنين تكشفُها ومعنا من تحتشِمُ منه؟! قال: اسكت، فما معنا أحد!».

والخليفة فيها سليمان بن عبد الملك. ونسبت للوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان ولي عهد خلافة هشام.

(١) ترتيب المدارك (٣/ ٣٩٢).

(٢) المجالسة وجواهر العلم (٢/ ٢١٢)، وعنه في «ترتيب المدارك» (٤/ ٧)، وفي «السير» قال الذهبي: «لم أر له وفاة» ومثله في «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية»، قال: «لم أقف علىٰ وفاته».

القبر يقول: «رحمك الله أبا عمرو، فقد كنت أخافك أكثر ممَّن ولاني»[١].

ومنهم: هُشَيْمُ بنُ بشير (ت١٨٣هـ)، أبو معاوية السلمي الواسطي، كان أبوه طباخا للحجاج بن يوسف الثقفي، ثمَّ كان بعد ذلك يبيع الصحناة والكوامخ، وكان يمنع ابنه من طلب العلم ليساعده علىٰ صناعته، فيأبىٰ إلا أن يسمع الحديث. فاتفق أنَّ هشيما مرض، فجاءه أبو شيبة قاضي واسط ليعوده، ومعه خلق من النَّاسِ، فلمَّا رآه بشير فرِح بذلك، وقال له: يا بنيَّ، أبلغَ مِن أمرِك أن جاء القاضي إلىٰ منزلي؟! لا أمنعك بعد هذا اليوم من طلب الحديث[٢].

وهذا أمير من الأمراء يطلب من عالم من العلماء أن يشتم رائحة فمه حتىٰ لا يطعن بعدالته، ففي «طبقات علماء القيروان» كان إبراهيم بن الأغلب يصلي بالجامع المكتوبات كلها، فخرج ليلة من الليالي من داره، دار الإمارة، فدخل الجامع لصلاة العتمة، وكان مشغول القلب فعثر علىٰ حصير فسقط، فلما صلّىٰ بالنَّاسِ وانصرف، بعث في طلب ابن غانم، فأتاه الرسول، وقال له: الأمير يدعوك، فتغير ابن غانم عند ذلك، وقال: «في مثل هذا الوقت يوجه ورائي؟» ثمَّ لم يجد بدًا من أن قام إليه. فلمَّا دخل عليه قال له: «يا أبا عبد الرحمن؛ إنِّي لم أبعث إليك إلا لخير، إنِّي لما دخلت المسجد اشتغل قلبي عن حفظ نفسي، فعثرت علىٰ حصير فسقطت، فظننت بالنَّاس أنَّهم حسبوا أنِّي منتبذ، فأحببت أن تكون براءتي عندك، ولا أبالي بغيرك، فاستنكهني»، فاستنكهه **ابن غانم (ت١٩٠هـ)** فوجده بريئًا ممَّا قال؛ فشكر له ذلك[٣].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٩٩).

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ٦٢٤)، و«تاريخ بغداد» (١٦/ ١٣٠).

(٣) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم (١/ ٢٢٦-٢٢٧). =

ومنهم: يزيد بن هارون (ت**٢٠٦هـ**) عن ابن أبي الخناجر، يقول: كنَّا في مجلس يزيد بن هارون ببغداد، والنَّاسُ قد اجتمعوا فيه، فمرَّ **المتوكل** مع جيشه، فنظر إلىٰ مجلس يزيد بن هارون، فلمَّا نظرَ إليه قال: «هذا الملك»[1].

وهذا المتوكل[2] يطلبُ من **الإمام أحمد** (ت٢٤١هـ) **أنْ يختار له من هو أهل للقضاء فيوليه**، وهذا من أكبرِ الأدلَّة علىٰ تعظيم العلماء الربانيين وأنهم هم المقدمون وهم أصحاب قرار، وقرار الحاكم تبعٌ لهم، ففي

= قلت: ومثله ما حصل: لجار الله الزمخشري، كما ذكره ابن خلكان عنه في «وفيات الأعيان» **(٦/ ٣٢٤)**: «وسمعت من بعض المشايخ أنَّ إحدىٰ رجليه -يعني الزمخشري- كانت ساقطة، وأنَّه كان يمشي في جارن خشب، وكان سبب سقوطها أنَّه كان في بعض أسفارهِ ببلاد خوارزم أصابه ثلجٌ كثير، وبرد شديد في الطريق؛ فسقطت منه رجلُه، وأنَّه كان بيده محضرٌ فيه شهادة خلق كثير ممَّن اطلعوا علىٰ حقيقة ذلك؛ خوفًا من أنْ يظنَّ من لم يعلم صورة الحال، أنَّها قطعت لريبةٍ.
والثلج والبرد كثيرًا ما يؤَّثرُ في الأطرافِ في تلك البلاد فتسقط**!** خصوصًا خوارزم، فإنَّها في غاية البرد، ولقد شاهدت خلقًا كثيرًا ممَّن سقطت أطرافهم بهذا السبب، فلا يستبعده من لم يعهده..»، وقد ذكرت نظائر لهذا فيما يتعلق بتحمل المصاعب والأهوال في طلب العلم، في كتاب «لذة العلم».

(١) شرف أصحاب الحديث (ص١٢١).

(٢) كانت خلافته بداية لما يسمَّىٰ بعصر نفوذ الأتراك، وكان في أول أمره يدني أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي حتىٰ جعله كبير القضاة، وفي سنة سبع وثلاثين ومائتين غضب عليه وقبض ضياعه وأمواله وحبسه، وأظهر السنة وتكلم بها في مجلسه وكتب إلىٰ الآفاق برفع المحنة وإظهار السنة وبسط أهلها ونصرهم، وأمر بترك الجدل الذي أثير في عهد المأمون والمعتصم، وكتب بذلك إلىٰ الأمصار الإسلامية مما كان له أكبر الأثر في نفوس المسلمين، فكان من حسناته أن الله رفع محنة القول بخلق القرآن في خلافته وعاد الأمر إلىٰ أهل السنة، وأشهر القول ببدعة. كما في كتاب «عش مع الملوك والخلفاء» (ص**٧٠**).

«مناقبه» لابن الجوزي بسندهِ، عن موسىٰ بن عُبيد الله بن يحيىٰ بن خاقان، قال: قال لي عمي أبو علي عبَد الرحمن بن يُحيىٰ بن خاقان: أمر المتوكل بمسألة أحمد بن حنبل عمن يتقلّد القضاء؟ فسألته. قال أبو مزاحم: فسالت عمي أن يُخرج إليَّ جوابَه، فوجّه إليَّ بنسخة فكتبتها، ثمَّ عدت إلىٰ عمي فأقرّ لي بصحة ما بعث به.

وهذا نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم، نسخة الرقعة التي عرضتها علىٰ أحمد بن محمد بن حنبل بعد أن سألته عما فيها فأجابني عن ذلك بما قد كتبتُه، وأمر ابنَه عبد الله أن يوقع بأسفلها بأمره، ما سألته أن يوقع فيها، سألت أحمد بن حنبل، عن أحمد بن رباح، فقال فيه: إنَّه جَهمي معروف بذلك، وإنَّه إنْ قُلّد شيئًا من أُمور المسلمين كان فيه ضَررٌ علىٰ المسلمين لما هو عليه من مذهبِهِ وبدعتِهِ.

وسألته عن ابن الخلَنْجي، فقال فيه أيضًا مثل ما قال في أحمد بن رباح، وذكر أنَّه جَهميٌّ معروف بذلك، وأنَّه كان من شرهم وأعظمهم ضررًا علىٰ النَّاسِ، وسألته عن شُعيب بن سهل فقال فيه: جَهميٌّ معروف بذلك. وسألته عن عُبيد الله بن أحمد فقال: جهميُّ معروف بذلك، وسألته عن المعروف بأبي شُعيب فقال فيه: إنَّه جهميٌّ معروف بذلك. وسألته عن محمد ابن مَنصور قاضي الأهواز، فقال فيه: إنَّه كان مع أبي دُؤاد وفي ناحيته وأعماله، إلا أنَّه كان من أمثلهم، ولا أعرف رأيه، وسألته عن ابن علي بن الجعد فقال: كان معروفًا عند النَّاسِ بأنَّه جَهمي مشهور بذلك، ثمَّ بلغني عنه الآن أنه رجع عن ذلك. وسألته عن الفَتح بن سَهل صاحب مظالم محمد بن عبد الله ببغداد، فقال: جَهميٌّ معروف بذلك، من أصحاب بشر المريسي، وليس ينبغي أنْ يقلّد مثله شيئًا من أمور المسلمين لما في ذلك من الضرر. وسألته عن ابن الثَّلجي، فقال:

مبتدعٌ صاحبُ هوىٰ. وسألته عن إبراهيم بن عَتاب فقال: لا أعرفه، إلا أنَّه كان من أصحاب بشر المريسي، فينبغي أن يحذر ولا يقرب، ولا يقلّد شيئًا من أمور النَّاسِ.

وفي الجملة: إنَّ أهل البدع والأهواء لا ينبغي أن يُستعان بهم في شيءٍ من أمور المسلمين، فإنَّ في ذلك أعظم الضرر علىٰ الدين، مع ما عليه رأي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه من التمسك بالسنَّةِ والمخالفةِ لأهل البدع.

ويقول أحمد بن محمد بن حنبل: وقد سألني عبد الرحمن بن يحيىٰ بن خاقان عن جميع ما في هذا القرطاس وأجبته بما كتب به، وكنت عليلَ العين ضعيفًا في بدني، فلم أقدر أن أكتب بخطي، فوقع هذا التوقيع في أسفل هذا القرطاس عبد الله ابني بأمري وبين يدي، وأسأل الله أن يطيل بقاءَ أمير المؤمنين، وأن يديم عافيته، ويحسن له المعونة والتوفيق بمنِّه وقُدرته[(١)].

ومنهم: عبد الملك بن حبيب (ت٢٣٨هـ): ذكر أنَّ بعض جيرانه اشتكىٰ إليه، بأنَّ بعض المنصرفين لبعض الوزراء، أنَّه يؤذيه، ويستطيل عليه.

فأمر عبد الملك برصده، فجيء به إليه، فضرب بين يديه ضربًا مبرحًا، فشكا إلىٰ صاحبه فكتب إلىٰ يحيىٰ بن يحيىٰ، فذكر له ما صنع ابن حبيب، بصاحبه وحاشيته، وسأله تأييده عليه عند الأمير. فكتب إليه يحيىٰ: ما كُنَّا نعينك علىٰ العلم وأهله، وأيمُ الله لأقلامنا أنفذ من سهامكُم، فانصرف عن رأيك، والسَّلام[(٢)].

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص٢٥١-٢٥٢).

(٢) ترتيب المدارك (٤/ ١٣٢).

ومنهم: **عون بن يوسف الخزاعي (ت٢٣٩هـ)**: قال ابن حارث: نزلت نزلة أحضَرَ لها ابن الأغلب فُقهاء القيروان، فتقدَّم عون فقال له ابن الأغلب: تقدم يا أبا محمَّد، فلكَ السَّبق والجلالة. ألم يقل مالك كذا؟ ألم يقل؟ وهو يقول: نعم[١].

ومنهم: سحنون (ت٢٤٠هـ).

قال القاضي عياض (ت٥٤٤هـ): قال بعضهم: «دخلتُ علىٰ الملوك وكلّمتهم، فما رأيت أحدًا أهيب في قلبي من سحنون».

قال أبو العرب: وكان لا يهابُ سلطانًا، في حقٍّ يقيمه عليه، ولما أكثر من ردِّ الظَّلامات في رجال ابن الأغلب وأبىٰ أنْ يقبل منهم الوكلاء علىٰ الخصومة إلا بأنفسهم.

وجَّه إليه الأمير -وقد شكوه إليه، بأنَّه يغلظ عليهم-. فأرسلَ إليه ابن الأغلب، وقال: إنَّهم فيهم غِلظة وقد شكوك، ورأيتُ ممَّا فاتك من شرِّهم، فلا تنُظر في أمرهم. فقال سحنون للرسول: ليس هذا الذي بيني وبينه، قل له: خذلتني خذلك الله. فلمَّا أنهىٰ الرَّسُول الرسالة إلىٰ الأمير، قال له: ما نعمل به. إنمَّا أراد الله.

فقال ابن أبي سليمان وغيره: إنَّ المحتسبين لم يكونوا يعرفون بإفريقية، حتىٰ كان سحنُون جالسًا علىٰ باب داره، إذ مرَّ به حاتم الجزري[٢]، ومعه سبي من سبي تونس، فقال سحنون لأصحابه: قوموا فأتوا بهم، حتىٰ خلوصهم من حاتم. فأتوا بهم.

---

(١) ترتيب المدارك (٤/ ٨٩).

(٢) المثبت في طبعة (فضالة) (الجراوي)، وفي طبعة (الرسالة الناشرون) (الجزري)، والمثبت منه.

وهرب حاتم علىٰ برذونه، وخرق ثيابه، ودخل علىٰ الأمير فشكا أمره.

فأرسل الأمير إلىٰ سحنون: إنَّهم أحرار ولا سبي عليهم وقد أطلقتهم. فرد الأمير إلىٰ سحنون لا بدَّ من ردهم. فأبىٰ سحنون، وقال للرسول: قل للأمير جعل الله حاتمًا شفيعك يوم القيامة. أقسم عليه ليبلغن ذلك إلىٰ الأمير.

ثمَّ قال سحنون: هذا الأسود -يعني حاتمًا-، يمضي هكذا، فأمر بسجنه، فطُرِحت عمامته في عنقه، وحمل إلىٰ الحبس، فلحقهُ مُعتِّب، وقال له: يا حاتم لا تُلقِ الشرَّ بين الأمير والقاضي. وأعطاهُ معتب من عنده سبعة دنانير. فخلَّىٰ حاتم عن السَّبي، وأخبر معتب سحنون بذلك، فأمر بإطلاق حاتم من السجن[1].

وقال تمام بن محمد الرازي (ت٤١٤هـ): سمعت أبي يقول: سمعت أبا القاسم ابن أخي أبي زرعة الرازي يقول: **سمعت عمي أبا زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي (ت٢٦٤هـ)** رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: كنَّا نبكر بالأسحار إلىٰ مجالس الحديث نسمع من الشّيوخ فبينا أنا يومًا من الأيام قد بكرت -وكنت حدثًا- إذ لقيني في بعض طرق الري في موضع قد سمَّاه أبي ونسيته أنا، شيخ مخضوب بالحناء -فيما وقع لي- فسلم عليَّ فرددت عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فقال لي: يا أبا زرعة سيكون لك شأن، فاحذر أن تأتي أبواب الأمراء، ثمَّ مضي الشيخ، ومضىٰ لهذا الحديث دهر وسنين كثيرة، وصرت شيخًا كبيرًا ونسيت ما أوصاني به الشيخ، وكنت أزور الأمراء وأغشىٰ أبوابهم؛ فبينا أنا يومًا وقد بكَّرت أطلب دار الأمير في حاجة عرضت لي

(١) ترتيب المدارك (٤/ ٥١)، و(٤/ ٦٣).

إليه، فإذا أنا بذلك الشيخ الخضيب بعينه، في ذلك الموضع، فسلم عليَّ كهيئة المغضب وقال لي: ألم أنهك عن أبواب الأمراء أن تغشاها؟! ثمَّ ولىٰ عنِّي فالتفتُ فلم أره؛ وكأنَّ الأرض انشقت فابتلعته!! فخيل إليَّ أنَّه الخضر فرجعت من وقتي **فلم أزر أميرًا، ولا غشيت بابه، ولا سألته حاجة حتىٰ تكون له الحاجة فيركب إليَّ؛ فربمَّا أذنت له، وربمَّا لم آذن له**[١].

وقال الحاكم عن **الحافظ صاحب الفنون أبي محمد المغفلي (ت٣٥٦هـ)**: «كان إمام أهل خراسان بلا مدافعة، وقد حجَّ بالنَّاسِ، وخطب بمكة، وقدم إليه المقام، وهو قاعد في جوف الكعبة.

ولقد سمعتهم بمكة يذكرون أنَّ هذه الولاية لم تكن قط لغيره، ومن عظمته أن **كان فوق الوزراء، وأنَّهم كانوا يصدرون عن رأيه**، وجاور مرة بمكة، وكنت ببخارىٰ أستملي له»[٢].

ومنهم: العلامة شيخ المالكية أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن مسرة التجيبي (ت٣٥٢هـ).

قال ابن الفرضي: كان أبو إبراهيم حافظًا للفقه، صدرًا في الفتيا، وقورًا، مهيبًا، لم يكن له بالحديث كبير علم، وله كتاب (معالم الطهارة)، وكان الحكم أمير المؤمنين معظمًا له، وإذا دخل عليه مدَّ رجليه، ويعتذر بشيخه، فيقول: اقعد كيف شئت.

وكان صليبًا قليل الهيبة للملوك، اغتاب الحكم رجلًا فسكت أبو إبراهيم، ونكس برأسه، فأقصر الحكم وفهم، وقد راوده علىٰ أن يأتيه بولده أحمد وهو صبي، فقال: لا يصلح الآن لذلك[٣].

---

(١) تاريخ دمشق (٣٨/ ٣٣-٣٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨١-١٨٢).
(٣) السير (١٦/ ٧٩-٨٠).

ومنهم: أبو أحمد الحافظ (ت**٣٧٨هـ)** يقول: حضرت مع الشيوخ عند أمير خراسان نوح بن نصر، فقال: من يحفظ منكم حديث أبي بكر في الصدقات؟ فلم يكن فيهم من يحفظه، وكان علي خلقان وأنا في آخر الناس، فقلت لوزيره: أنا أحفظه، فقال: ها هنا فتىٰ من نيسابور يحفظه، فقدمت فوقهم، ورويت الحديث، فقال الأمير: «مثل هذا لا يضيع، فولاني قضاء الشاش»[١].

ومنهم: الشيخ **أبو حامد الإسفرايني (ت٤٠٦هـ)** حافظ المذهب الشافعي، كان رفيع الجاه في الدنيا، ووقع من الخليفة أمير المؤمنين ما أوجب أن كتب إليه الشيخ أبو حامد: «اعلم أنَّك لست بقادرٍ علىٰ عزلي عن ولايتي التي ولانيها الله تعالىٰ، **وأنا أقدر أن أكتب رقعة إلىٰ خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك عن خلافتك**»[٢].

ومنهم: يحيىٰ بن عمَّار (ت٤٢٢هـ) قال أبو إسماعيل الأنصاري (ت٤٨١هـ): «كان **يحيىٰ بن عمَّار** ملكًا في زيِ عالم»[٣].

ومنهم: أبو علي المنيعي الحاجي (ت**٤٦٣هـ)**، بإنَّه كان يأمر بالمعروف، وينهىٰ عن المنكر، والملوك تسعىٰ إليه وتحترمه؛ حتىٰ قيل: إنَّ السلطان ألب أرسلان قال: «في مملكتي من لا يخافني، وإنَّما يخافُ من الله».

---

(١) المصدر نفسه (ترجمة: أبو أحمد الحاكم محمد بن محمد النيسابوري) **(١٦/ ٣٧٣)**.

(٢) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٤/ ٦٤).

(٣) السير (١٧/ ٤٨٢)، ويحيىٰ هو الإمام، المحدث، الواعظ، شيخ سجستان، أبو زكريا الشيباني، السجستاني، نزيل هراة.

قال الذهبي عنه: «أكمل التفسير علىٰ المنبر في سنة اثنتين وتسعين وثلاث مائة، ثمَّ افتتح ختمة أخرىٰ فمات وهو يفسر في سورة القيامة، وعاش تسعين سنة».

أبو الفتح النطنزي محمد بن علي بن إبراهيم بن أبي الفتح الكاتب (ت ٥٥٠هـ). نادم الملوك والسلاطين، وكانت له وجاهة عظيمة عندهم، وكان تياهًا عليهم متواضعًا لأهل العلم![١].

وروىٰ عنه: محيي السنَّة البغوي، وأبو المظفر عبد المنعم القشيري، ووجيه الشحامي، وغيرهم.

له شمائل كثيرة، ومحاسن عديدة مذكور في الكتب، مسطور فيها[٢].

اليونيني عبد الله بن عثمان بن جعفر (ت٦١٧هـ).

قال الشيخ علي القصار: كنت أهابه كأنَّه أسد، فإذا دنوت منه، وددت أن أشق قلبي وأجعله فيه.

قيل: إنَّ العادل أتىٰ والشيخ يتوضأ، فجعل تحت سجادته دنانير، فردها، وقال: يا أبو بكر كيف أدعو لك والخمور دائرة في دمشق، وتبيع المرأة وقية يؤخذ منها قرطيس؟ فأبطل ذلك[٣].

عيسىٰ بن أحمد بن إلياس اليونيني الزاهد (ت٦٥٤هـ)، القدوة، العابد. وكان الأمراء يقبلون شفاعته بالأوراق، وكان عليه هيبة شديدة، وسرد الصوم أزيد من أربعين سنة، وكان يقال له: سلاب الأحوال، وله كرامات، وكان كثير الود للشيخ الفقيه.

قال قطب الدين: «زرته كثيرًا، وأخبر بأنَّ ملوك بني أيوب ينقرضون ويتملك الترك، ويفتحون الساحل كله»[٤].

---

(١) الوافي بالوفيات (٤/ ١١٧).

(٢) طبقات الشافعية (٤/ ٢٩٩-٣٠٢) أما المنيعي فنسبة إلىٰ جده منيع بن خالد وأما الحاجي فلغة العجم في النسبة إلىٰ من حج يقولون للحاج إلىٰ بيت الله الحرام حاجي.

(٣) السير (٢٣/ ١٠١-١٠٣).

(٤) السير (٢٣/ ٢٩٩-٣٠٠).

ومنهم: **الحسن بن صافي بن عبد الله (ت٥٨٦هـ)**، عرف بملك النحاة، فقيه نحوي لغوي، سافر من بغداد الىٰ خراسان، وكرمان، وغزنة، ودخل إلىٰ ملك غزنة وأكرمه واحترمه، ثمَّ قدِم حلب، وأقام بها مدةً، وكان يقرئ بها الأدب بالمسجد الجامع.

قال ابن العديم: سمعت شيخ الشيوخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد الأنصاري يقول: سافر ملك النحاة إلىٰ غزنة، وأراد أن يجتمع بملك غزنة فقيل له: إنَّ ملك غزنة يجلس علىٰ سريرٍ عال، ويجلسُ وزيره بجانبِ السَّرير ولا يقعد أحدٌ إلّا تحت الوزير، فقال: مبارك، فأذن له فدخل إلىٰ ملك غزنه، وجاء إلىٰ السرير، وكان طويل القامة، فوضع رجله علىٰ السند الذي إلىٰ جانب الوزير وتعلق في السرير ليقبل يد ملك غزنه، فتحرك له ملك غزنة، فقال: «**أيَّها الملك ينبغي للملك أنْ يقوم للملك**، فقام له ملك غزنة فجلس علىٰ السرير إلىٰ جانبه»[1].

وذكر تاج الدين السبكي في «طبقات علماء الشافعية» **ابن حمويه (ت٦٤٢هـ)** أنفق مرة في العسكر مائتي ألف دينار، **وكان في الحقيقة هو السلطان**؛ يقف علىٰ بابه ويركب في خدمته سبعون أميرًا غير مماليكه وخدمه، وأبطل كثيرًا من المكوس، وجرت علىٰ يده خيرات حسان[2].

ومنهم: سلطان العلماء العز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ).

قال السبكي: ذكر أنَّ الشيخ -العز بن عبد السلام- لم يثبت عنده أنهَّم أحرار، وأنَّ حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين؛ فبلَغهم ذلك، فعظم الخطبُ عندهم فيه، وأضرم الأمر، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعًا ولا شرًاء ولا نكاحًا، وتعطلت مصالحهم بذلك، وكان

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب (٥/ ٢٣٩٨-٢٣٩٩).

(٢) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٨/ ٣٦٤).

من جملتهم نائب السلطنة فاستشاط غضبًا؛ فاجتمعوا وأرسلوا إليه، فقال: «نعقد لكُم مجلسًا وينادىٰ عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريقٍ شرعي».

فرفعوا الأمر إلىٰ السلطان فبعث إليه فلم يرجع، فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة؛ حاصلها الإنكار علىٰ الشيخ في دخوله في هذا الأمر، وأنَّه لا يتعلق به، فغضب الشيخ وحمل حوائجه علىٰ حمار، وأركب عائلته علىٰ حمار آخر، ومشىٰ خلفهم خارجًا من القاهرة قاصدًا نحو الشام، فلم يصل إلىٰ نحو نصفِ بريد إلا وقد لحقه غالب المسلمين؛ لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه إليه يتخلف، لا سيَّما العلماء والصلحاء والتُّجار وأنحاؤهم؛ فبلغ السلطان الخبر، وقيل له: متىٰ راح ذهب ملكك، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه فرجع، واتفقوا معهم علىٰ أنَّه ينادىٰ علىٰ الأمراء، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه فانزعج النائب، وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنَّه بسيفي هذا؛ فركب بنفسه في جماعتِهِ وجاء إلىٰ بيت الشيخ، والسيف مسلول في يدهِ، فطرق الباب فخرج ولد الشيخ أظنُّه عبد اللطيف، فرأىٰ من نائب السلطنة ما رأىٰ فعاد إلىٰ أبيه وشرح له الحال فما اكترث لذلك ولا تغير، وقال: يا ولدي أبوك أقلُّ من أن يقتل في سبيل الله، ثمَّ خرج كأنَّه قضاء الله قد نزل علىٰ نائب السلطنة، فحين وقع بصره علىٰ النائب يبست يد النائب، وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله، فبكىٰ وسأل الشيخ أنْ يدعو له، وقال: يا سيدي (أخبرني)[1] أيش تعمل؟

قال: أنادي عليكم وأبيعكم.

---

(١) الأصل (خبر)، وأثبت ذلك بما يتناسب مع سياق الكلام، والله أعلم بالصواب.

قال: ففيم تصرف ثمننا؟

قال: في مصالح المسلمين.

قال: من يقبضه؟

قال: أنا! فتم له ما أراد، ونادىٰ علىٰ الأمراء واحدًا واحدًا، وغالىٰ في ثمنهم، وقبضه وصرفه في وجوه الخير.

وهذا ما لم يسمع بمثله عن أحد رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه(١).

ومنهم: الإمام الأذرعي شمس الدين عبد الله بن عطاء الدمشقي (ت٦٧٣هـ)، فإنَّ السلطان بيبرس أراد الاستيلاء علىٰ أوقاف دمشق، فقال له الأذرعي: اليد لأرباب الأملاك، ولا يحلُّ لأحدٍ أن ينازعهم في أملاكهم، ومن استحل ما حرم الله فقد كفر!! فغضب السلطان غضبًا شديدًا، وتغيَّر لونُهُ، وقال: أنا أكفر!! انظروا لكم سلطانًا غيري، وانفض المجلس علىٰ وحشة من السلطان؛ فلمَّا كان الليل أرسل السلطان في طلب القاضي، فلمَّا دخل عليه قام له، وعظمه، وخلع عليه، ونزل مجبورًا معظمًا(٢).

وذكر الرافعي (ت١٣٥٦هـ) رَحِمَهُ اللهُ في «وحي القلم» قال الشيخ تاج الدين محمد بن علي المقلب طوير الليل، أحد أئمة الفقهاء بالمدرسة الظاهريَّة بالقاهرة: «كان شيخنا الإمام العظيم شيخ الإسلام **تقي الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ) لا يخاطب السلطان إلا بقوله: «يا إنسان»!** فما يخشاه، ولا يتعبد له، ولا ينحله ألقاب الجبروت والعظمة، ولا يزينه بالنفاق، ولا يداجيه كما يصنع غيره من العلماء؛ وكان هذا عجيبًا؛ غير أنَّ تمام العجب أنَّ الشيخ لم يكن يخاطب أحدًا قط من عامة

---

(١) طبقات الشافعية (٨/ ٢١٦-٢١٧).

(٢) الدَّارس في تاريخ المدَارِس (١/ ٣٣٦)، وانظر في «الوافي بالوفيات» (١٧/ ٣١٤).

الناس إلا بهذا اللفظ عينه: «يا إنسان»؛ فما يعلو بالسلطان والأمراء ولا ينزل بالضعفاء والمساكين، ولا يرىٰ أحسن ما في هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقة الإنسانية!

ثمَّ كان لا يعظم في الخطاب إلا أئمة الفقهاء فإذا خاطب منهم أحدًا قال له: «يا فقيه»؛ علىٰ أنَّه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الإسلام نجم الدين ابن الرقعة، ثمَّ يخص علاء الدين بن الباجي وحده بقوله: «يا إمام»؛ إذ كان آية من آيات الله في صناعة الحجة، لا يكاد يقطعه أحد في المناظرة والمباحثة؛ فهو كالبرهان. إجلاله إجلال الحق؛ لأن فيه المعنىٰ وتثبيت المعنىٰ.

وقلت له يومًا: يا سيدي، أراك تخاطب السلطان بخطاب العامة؛ فإن علوت قلت: «يا إنسان»، وإن نزلت قلت: «يا إنسان»؛ أفلا يسخطه هذا منك وقد تذوَّق حلاوة ألفاظ الطاعة والخضوع، وخصَّه النِّفاق بكلمات هي ظل الكلمات التي يوصف الله بها، ثمَّ جعله الملك إنسانًا بذاته في وجود ذاته، حتَّىٰ أصبح من غيره كالجبل والحصاة؛ يستويان في العنصر ويتباينان في القدر، وأقله مهما قل هو أكثرها مهما عظمت، ووجوده شيء ووجودها شيء آخر؟[١].

ومنهم: أحمد بن يوسف بن حسن بن رافع الشيباني المعروف بالكواشي (ت٦٨٠هـ). كان السلطان ومن دونه يزورونه ولا يعبأ بهم، وكان لا يقبل من أحد شيئًا[٢].

---

(١) وحي القلم (٣/ ٤٣)، والخبر مختصرًا في «طبقات الشافعية» للسبكي (٩/ ٢١٢).

(٢) طبقات الشافعية (٩/ ٤٢)، ولد بكواشة وهي قلعة من أعمال الموصل، قرأ القرآن علىٰ والده، وسمع الحديث من أبي الحسن السخاوي وغيره، ثمَّ رجع إلىٰ بلده ولازم الإقراء والعبادة والتصنيف، صنَّف التفسير الكبير والتفسير الصغير.

ومنهم: **الفقيه الحنفي محمد بن محمد العلاء أبو عبد الله البخاري العجمي الحنفي (ت٨٤١هـ)**. كان إذا اجتمع معه القضاة يكونون عن يمينه وعن يساره كالسلطان، وإذا حضر عنده أعيان الدولة بالغ في وعظهم والإغلاظ عليهم؛ بل ويراسل السلطان معهم بما هو أشد في الإغلاظ، ويحضه عن إزالة أشياء من المظالم مع كونه لا يحضر مجلسه؛ وهو مع هذا لا يزداد إلا إجلالًا ورفعة ومهابة في القلوب(١).

ويحكىٰ أنَّ الأمير محمد بن السلطان مراد (ت٨٨٦هـ) -وهو الذي صار فيما بعد السلطان محمد الفاتح- كان أرسل إليه والده عددًا من المعلمين ليعلموه، فلم يمتثل لأمرهم، ولم يقرأ شيئًا حتَّىٰ أنَّه لم يختم القرآن فطلب السلطان المذكور رجلا له مهابَة وحدِّة؛ فذكروا له المولىٰ الكوراني -**الشيخ العامل أحمد بن إسماعيل الكوراني** (ت٨٩٣هـ)- فجعله معلمًا لولده، وأعطاه بيده قضيبًا يضربه بذلك إذا خالف أمره، فذهب إليه فدخل عليه والقضيب بيده. فقال: أرسلني والدك للتعليم وللضرب إذا خالفت أمري، فضحك السلطان محمد خان من هذا الكلام، فضربه المولىٰ الكوراني في ذلك المجلس ضربًا شديدًا، حتَّىٰ خاف منه السلطان محمد خان، وختم القرآن في مدةٍ يسيرةٍ، ففرح بذلك السلطان مراد خان، وأرسل إلىٰ المولىٰ الكوراني أموالًا عظيمة(٢).

وهذا السيوطي (ت٩١١هـ) كما جاء في كتاب «بهجة العابدين» أتىٰ إليه نقيب الجيش يونس الطويل، وخاطبه علىٰ لسان الملك الأشرف قانصوه، بسبب شكوىٰ أهل البيبرسية فيه، وقال له: كلم السلطان.

---

(١) الضوء اللامع (٩/ ٢٩١).

(٢) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص٥١-٥٢)، و«تاريخ الدولة العثمانية» (ص٨٤).

فقال الشيخ -في الجواب-، وهو متكئ بذراعه الأيمن علىٰ وسادته، وهو في غاية الرياضة، لم يتحرك ولم يختلج: مالي وللسلطان؟! إن كان للسلطان عندي حاجة فليأت إلىٰ عندي أو إلىٰ منزلي.

فقال له نقيبُ الجيش ثانيًا من باب الإغلاظ عليه: أجب وليَّ الأمر.

فقال الشيخ: اسكت، وإلا أنَّني أفتي بكفرك، وضرب عنقك .. من هم أولو الأمر؟

نحن أولو الأمر، أولو الأمر العلماء .. مثلك يخاطبني بهذا الكلام؟!(١).

ويذكر عن الشيخ العالم العامل **محيي الدين محمد الشهير بابن الخطيب**، أنَّه كان جريء الجنان، قويًا علىٰ المحاورة، فصيحًا عند المباحثة، ولهذا قهر كثيرًا من علماء زمانه.

قال الشيخ طاش كبره زاده (ت٩٦٨هـ): «حكىٰ لي أستاذي المولىٰ محيي الدين الفناري أنَّه كان يقرأ علىٰ المولىٰ ابن الخطيب مع أخيه شاه أفندي، وكان ابن الخطيب عند ذلك متقاعدًا، عيَّن له كل يوم مائة درهم، فذهب إلىٰ السلطان بايزيد خان في يوم عيد، وأمرنا أن نذهب معه ليذكرنا عند السلطان بخير، وكان ابن افضل الدين مفتيًا في ذلك الوقت، وله تسعون درهمًا، وكان يتقدم المولىٰ ابن الخطيب عليه، فلمَّا مر بالديوان والوزراء جالسون فيه سلم المولىٰ ابن افضل الدين عليهم، فضرب المولىٰ ابن الخطيب بظهر يده علىٰ صدره وقال: هتكت عرض العلم، وسلمت عليهم! **أنت مخدوم، وهم خدام؛ سيَّما وأنت رجل شريف**، قال: ثمَّ دخل علىٰ السلطان، ونحن معه والسلطان استقبله.

(١) بهجة العابدين بترجمة الشيخ جلال الدين (ص١٦٧) ط: مجمع اللغة العربية.

قال الأستاذ: عددت بأصبعي فكان سبع خطوات فسلم عليه، وما انحنىٰ له، وصافحه، ولم يقبل يده، وقال للسلطان: بارك الله لك في هذه الأيام الشريفة، ثمَّ ذكرنا عنده، وقبلنا يد السلطان، وأوصانا السلطان بالاشتغال بالعلم، ثمَّ سلم ورجع، ورجعنا معه، وقلنا له: هذا سلطان الروم، واللائق أن تنحني له، وتقبل يده.

قال: «**أنتم لا تعرفون يكفيه فخرًا أن يذهب إليه عالم مثل ابن الخطيب** وهو راضٍ بهذا القدر»[١].

ولله در العسكري إذ قال: ولعمري أنَّ شيئًا ينزل المملوك منزلة الملوك، ويحلُّ التابع محلَّ المتبوع، ويحكم به السوقة علىٰ الملك العظيم، لحقيقٌ أن ينافس فيه، ويحسد صاحبه عليه، ويجتهد في طلبه أشد الاجتهاد، وأمرًا يخدم فيه عبد الله بن عمر مجاهدًا، ومجاهد هو ابن جبر، أحد مماليك مكة، وعبد الله عبد الله في فضله وزهده وورعه وشهرة اسمه، أبوه في شرفه ومكانه من الصحية، ثمَّ من رتبة الخلافة، وملكه الأرض شرقًا وغربًا، وطاعة أهل الإسلام والكفر له طوعًا وكرها، لحري أن يرغب فيه العاقل ويحافظ عليه اللبيب[٢]. ولولا خشية الملل لذكرت أزيد من ذلك وأكثر، وبهذا كفاية وغنية والله الموفق.

ومنهم: محمد بدر الدين الغزي العالم العلامة، المحقق المدقق الهمام، شيخ الإسلام (ت٩٨٤هـ) كما نعته بذلك ولده نجم الدين.

ومن حالهِ إذا قصده قاضي قضاة البلدة، أو نائبها لا يجتمع به إلا بعد الاستئذان عليه والمراجعة في الإذن، وقصده نائب الشام مصطفىٰ باشا فلم يجتمع به إلا بعد مرات، فلما دخل عليه قبل يده، والتمس منه

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية (ص٩٠).

(٢) الحث علىٰ طلب العلم والاجتهاد في جمعه (ص٤٠-٤١).

الدعاء فقال له: «ألهمك الله العدل»، ولم يزده علىٰ ذلك فكرر طلب الدعاء، فلم يزده علىٰ قوله: «ألهمك الله العدل»، وكانت هذه دعوته لكل من قصده من الحكام.

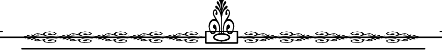
واستأذن عليه درويش باشا نائب الشام فلم يأذن له إلا في المرة الثالثة فقبل يده ورجله، وأشار إليه الشيخ أن يجلس معه علىٰ فراشه فأبىٰ درويش باشا وجلس بين يديه، وطلب منه الدعاء فقال له: «ألهمك الله العدل»، وأوصاه بالرعية وقال له: الباشا يا سيدي ماذا تسمعون عني.

فقال: الظلم بلغني أن صوباشيك[1] ضرب إنسانًا في تعزير حتىٰ مات، وضرب آخر فبالغ في ضربه فاستغاث بالله فلم يخل عنه . . .[2].



(١) وظيفة عثمانية صاحبها بمثابة النائب.

(٢) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٣/ ٥)، و«مواكب الضياء من رياض العلماء» (١/ ٣٠٨).





[ملحق بمن نعت أو لقب من العلماء بالأمير]

ولعل من خير ما نتحدث عنه في أول هذا الباب من لقب بأمير المؤمنين من أهل العلم، وهو من أعلىٰ الألقاب العلميَّة، ولفظ الأمير يطلق بالعادة علىٰ من يحكم البلاد، وأمير المؤمنين عند أهل الحديث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من فاق أهل زمانه في العلم ورفع الله به الجهل والغشاوة عن البلاد والعباد، ولأهمية ذلك أُلِف بخصوص، فمن ذلك رسالة «أمراء المؤمنين في الحديث» للشيخ أبي غدة الحلبي، ونظم الشيخ محمد بن حبيب الله الشنقيطي (ت١٣٦٣هـ) نظمًا سمَّاه: «هديةَ المغيث في أمراء المؤمنين في الحديث»[١].

ولقب أمير المؤمنين: من أرفع ألقاب المحدثين وأعلاها، وهو يطلق علىٰ من فاق حفظًا وتصنيفًا، وتعمقًا في علم الحديث وعلله. وقد لقَّب به جماعة منهم: السفيانان، وابن راهويه، والبخاري وغيرهم.

وقد قيل في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] ليس لأهل الحديث منقبة أشرف من ذلك؛ لأنَّه لا إمام لهم غيره ﷺ[٢]، وعند الإطلاق يقصد به الإمام البخاري وحده[٣].

---

(١) طبع في دار البشائر. بتحقيق الشيخ رمزي دمشقية رَحِمَهُ اللهُ، وطبعت في دار ابن حزم (١٤٢١هـ) بتحقيق: فخر الدين بن الزبير مع شرح لطيف سماه: (تعليق التحف علىٰ منظومة طرفة الطرف) واسمها الكامل (طرفة الطرف في مصطلح من سلف) وعدد أبياتها (٥٠) بيتًا.

(٢) قواعد التحديث (ص٤٨).

(٣) العبارة الأخيرة من «معجم مصطلحات المحدثين» (ص٥٩).

قال جلال الدين السيوطي:

وَذَا الْحَدِيثِ وَصَفُوا، فَاْخْتَصَّا ... بِـ «حَافِظٍ»، كَذَا الْخَطِيبُ نَصَّا
وَهْوَ الَّذِي إِلَيْهِ التَّصْحِيحِ ... يُرْجَعُ وَالتَّعْدِيلِ وَالتَّجْرِيحِ
أَنْ يَحْفَظَ السُّنَّةَ مَا صَحَّ وَمَا ... يَدْرِي الأَسَانِيدَ وَمَا قَدْ وَهِمَا
وَدُونَهُ «مُحَدِّثٌ» أَنْ تُبْصِرَهْ ... مِنْ ذَاكَ يَحْوِي جُمَلًا مُسْتَكْثَرَهْ
وَمَنْ عَلَىٰ سَمَاعِهِ الْمُجَرَّدِ ... مُقْتَصِرٌ لا عِلْمَ سِمْ بِـ «الْمُسْنِدِ»
وَبِـ «أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ» لَقَّبُوا ... ذَوِي الْحَدِيثِ قِدَمًا ذَا مَنْقَبُ[١]

قال الإمام يحيىٰ بن معين: «سفيان أمير المؤمنين في الحديث»[٢].

وعن أبي داود الطيالسي، عن شعبة قال: «قال لي سفيان الثوري: يا شعبة أنت أمير المؤمنين في الحديث»[٣].

وقال أحمد: «كان سفيان يسمِّي أبا الزناد أمير المؤمنين في الحديث»[٤]. وجماعة كثر ليس هذا بمقام عرض أسماءهم والحديث عن طيب شمائلهم، **ويلحق بالأمراء والعلماء، أهل الزهد والعبادة، فهم الملوك وإن لم يلبسوا التِّيجان، وهم الأمراء وإن لم يتربعوا علىٰ كرسي الحكم، ويكفي العبد أنَّ لذة أنسه بربه تغنيه عن الدنيا وحلاوتها.**

---

(١) ألفية السيوطي (٥٧٤-٥٨٣) مع حذف من بعضها.
(٢) الجرح والتعديل (٢/ ٢٢٤).
(٣) الكامل في ضعفاء الرجال (١/ ١٥٥) وابن حبان في «مقدمة صحيحه» رقم (٩٢).
(٤) تذكرة الحفاظ (١/ ١٠١)، وفيه: أبو الزناد فقيه المدينة أبو عبد الرحمن عبد الله بن ذكوان المدني: سمع أنس بن مالك، وأبا أمامة أسعد بن سهل بن حنيف، وعبد الله بن جعفر، وسعيد بن المسيب، وهو رَاوية عبد الرحمن الأعرج.
قال الليث بن سعد: «رأيت خلفه ثلاثمائة تابع من طالب فقه وطالب شعر وصنوف».

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «المتَّقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة»[(١)].

وروي أنَّ امرأة العزيز قالت ليوسف عليه الصلاة والسلام: يا يوسف إنَّ الحرص والشهوة صيرًا الملوك عبيدًا، وإنَّ الصبر والتقوىٰ صيَّر العبيد ملوكًا فقال لها: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٢)].

وخرَّج إبراهيم بن الجنيد فيما نقله الحافظ ابن رجب، قال فرقد السبخي: قرأت في بعض الكتب: «المحب لله -تعالىٰ- أمير مؤمر عَلَىٰ الأمراء، زمرته أول الزمر يوم القيامة، ومجلسه أقرب المجالس فيما هنالك»[(٣)].

ويروىٰ أنَّ جعفر بن محمد الصادق قال: «أبدال الدنيا سبعة، علىٰ مقاديرهم يكون النَّاس في كل زمان من العباد، والعلماء، والتجار، والخليفة، وزير، وأمير الجيش، وصاحب الشرطة، والقاضي وشهوده»[(٤)].

ويذكر عن الوزير الكبير نظام الملك رحمه الله أنَّه كان يعظم الصوفية -العباد الزهاد- تعظيمًا زائدًا فعوتب في ذلك؛ فقال: إنِّي كنت أخدم بعض الأمراء فجاءني يومًا إنسان فقال لي: اخدم من تنفعك خدمتُه ولا تخدم من تأكله الكلاب غدًا، فلم أفهم ما يقول! فاتفق أنَّ ذلك الأمير سكر تلك الليلة فخرج في أثناء الليل وهو ثملٌ، وكانت له كلاب تفترس

---

(١) حلية الأولياء (١/ ١٣٤)، والفقيه والمتفقه (١/ ١٤٢)، وهو عند البيهقي في «الزهد الكبير» (٤٥٨) من قول عبد الله بن بسر المازني رضي الله عنه.

(٢) الزاهر في بيان ما يجتنب من الخبائث الصغائر والكبائر لابن فرحون القيسي (ص٧٢)، وينظر: «السير والسلوك إلىٰ ملك الملوك» لابن قاسم الحنبلي (ت١١٠٩هـ).

(٣) استنشاق نسيم الأنس (٣/ ٣٧٩) ت: الحلواني.

(٤) قوت القلوب (٢/ ٢٠٩).

الغرباء بالليل فلم تعرفه ومزقته فأصبح وقد أكلتْه الكلاب، قال: «فأنا أطلبُ مثل ذلك الشيخ»[١].

ما لذّة العَيشِ إلا صُحبَةُ الفُقَرا[٢] هُم السّلاَطين والسَّادَاتُ والأُمَرا

فَاصْحَبْهُمُو وتأدَّب فِي مَجَالِسِهِم وخلِّ حظَّكَ مَهمَا خلَّفُوكَ ورَا[٣]

وقال حماد بن زيد: قال رجل لمحمد بن واسع: أوصني. قال: **أوصيك أنْ تكون ملكًا في الدنيا والآخرة**.

قال: كيف هذا؟ قال: «ازهد في الدنيا»[٤].

أرَىٰ الـزُّهَّـادَ فـي روحٍ ورَاحـةٍ قُـلـوبـهُـم عـنِ الـدُّنـيـا مُـزاحَـهْ

إذا أبـصـرتـهـمْ أبـصـرتَ قـوْمًـا ملوكُ الأرضِ سيمَتُهم سَماحَهْ[٥]

وقال أبو إسحاق الخُتَّلِيُّ: بلغني عن صالح النَّاجي أنَّه كان يقول: «الطاعة إمرة، **والمطيع لله أمير مؤمر علىٰ الأمراء**، ألا ترىٰ هيبته في قلوبهم، إنَّ قال قبلوا، وإنْ أَمر أطاعوا»[٦].

قال شيخ الإسلام: «فأسعد الخلق: أعظمهم عبودية لله، وأمَّا المخلوق فكما قيل: احتج إلىٰ من شئت تكن أسيره، واستغن عمَّن شئت تكن نظيره، وأحسن إلىٰ من شئت تكن أميره»[٧].

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ١٢٦).

(٢) فقراء اليد، أغنياء القلب بما عندهم من المحبة، وما لديهم من العبادة والقرب من الله.

(٣) تفسير روح المعاني للألوسي (٨/ ٢٨٩).

(٤) تاريخ الإسلام (٣/ ٥٢٦).

(٥) فيض القدير للمناوي (٤/ ٧٣) والأبيات غير مرتبة، والنقل من «تبعيد العلماء عن تقريب الأمراء» للملا علي قاري من مجموع رسائله (٦/ ٤٥٦).

(٦) المحبة لله سبحانه (ص٧٣) ط: دار الحضارة.

(٧) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٣٩).

ورحم الله القائل:

تنقضي الدُّنْيَا وتفنىٰ والفتىٰ فيها معنّىٰ
ليس في الدُّنْيَا نعيم لا ولا عيش مهنّا
يا غنيًّا بالدنانير محب الله أغنىٰ[١]

وقال الفتح بن خاقان: دخلت يومًا علىٰ المتوكل فإذا هو مطرقٌ مفكِّر، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما لك مفكرًا؟ فواللهِ ما علىٰ الأرضِ أطيبُ منك عيشًا، ولا أنعمُ مِنك بالًا.

فقال: «أطيبُ مني عيشًا رجلٌ له دارٌ واسعةٌ، وزوجة صالحةٌ، ومعيشة حاضرة، لا يعرفنا فنؤذيه، ولا يحتاجُ إلينا فنزدريه»[٢].

وقال صفوان بن محرز: «إذا دخلت بيتي، وأكلت رغيفي، وشربت من الماء؛ فعلىٰ الدنيا العفاء»[٣].

وقال ابن الوردي المعري رَحِمَهُ اللَّهُ:

مُلْكُ كِسْرىٰ تُغْني عَنْهُ كِسْرةٌ وَعنِ البحرِ اجتزاءٌ[٤] بِالْوَشَلْ[٥]
اعتبر (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ) تلقه حقا (وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)
ليَس ما يحوي الفتىٰ مِنْ عزمِهِ لاَ ولَا ما فاتَ يَومًا بالكسلْ
اطرِحِ الدُّنْيا فَمنْ عَاداتِها تخفِضُ العاليْ وتُعلي مَنْ سَفَلْ

---

(١) شرح حديث شداد بن أوس من المطبوع ضمن رسائل ابن رجب (١/ ٣٦٨) ط: أولاد الشيخ.

(٢) البداية والنهاية (٤/ ٤٥٤).

(٣) المجالسة وجواهر العلم (٣/ ١٥٠).

(٤) **اجتزاء**: اكتفاء.

(٥) **الوشل**: ما ينبع من الماء من الأرضِ رشحًا.

عيشةُ الرَّاغبِ[١] في تحصيلِها عيشةُ الجاهلِ[٢] فيها أو أقلْ
كَمْ جَهولٍ باتَ فيها مُكثرًا وعليمٍ باتَ منها في عِلَلْ
كمْ شجاعٍ لم ينلْ فيها المُنىٰ وجبانٍ نالَ غاياتِ الأملْ
فاْتركِ الحيلةَ فيها واتَّكِلْ[٣] إنَّما الحيلةُ في تَرْكِ الحِيَلْ[٤]

قال ابن الجوزي: وروينا أنَّ داود عليه السلام رأىٰ راهبًا في قلة جبل فصاح به: يا راهب من أنيسك.

فقال: اصعد تره. فصعد داود فإذا ميتٌ مسجىٰ، قال: من هذا؟

قال: قصته مكتوبة عند رأسه، فدنا داود عليه السلام فإذا عند رأسه لوح عليه مكتوب فقرأه فإذا فيه: أنا فلان ابن فلان ملك الأملاك، عشت ألف عام، وبنيت ألف مدينة، وهزمت ألف عسكر، وأحصنت ألف امرأة، وافتضضت ألف عذراء، فبينما أنا في ملكي أتاني ملك الموت فأخرجني، مما أنا فيه أنذا: التراب فراشي، والدود جيراني.

قال: فخر داود مغشيًا عليه.

حَصلُوا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الأَحْدَاثِ مِنْ كُلِّ مَا عُمرُوا عَلَىٰ الأَجْدَاثِ
فَإِذَا الَّذِي جَمَعُوهُ طُولَ حَيَاتِهِمْ نَهْبُ الْعِدَىٰ وَقَسِيمَةُ الْوُرَّاثِ
حَالَتْ مَنَازِلُهُمْ عَلَىٰ طُولِ الْمَدَىٰ وَوُجُوهُهُمْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ ثَلاثِ[٥]

وعن أبي عبد الرحمن الحبلي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل، فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟

---

(١) في نسخة (الزاهد).
(٢) في نسخة (الجاهد).
(٣) في نسخة (واتئِدْ).
(٤) طبعة دار الفجر (ص٣٣-٣٥)، والمثبت في الحواشي من الطبعة.
(٥) التبصرة (١/ ٢٤٣-٢٤٤).

فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. قال: فإنَّ لي خادمًا. قال: «فأنت من الملوك»(١).

وعن عبد الله بن سعيد قال: كان يقال: «من كان له بيت يأوي إليه، وخادم يخدمه، وزوجة فهو من الملوك الذين قال الله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المَائِدَة: ٢٠]»(٢).

وقال صالح بن جناح الدمشقي لابنه: «يا بنيَّ، إذا مرَّ بك يوم وليلة قد سلم فيها دينك، وجسمك، ومالك، وعيالك، فأكثر الشكر لله تعالىٰ. فكمْ من مسلوبٍ دينه، ومنزوع ملكه، ومهتوك ستره، ومقصوم ظهره في ذلك اليوم وأنت في عافية!»(٣).

وقال الأستاذ الكبير محمد الخضر حسين: «يكفيني كوب لبن، وكسرة خبز، وعلىٰ الدنيا بعدها العَفاء»(٤). وما أشبه كلامه بكلامِ وهب بن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ: «احتمال الذل خير من انتصار يزيد صاحبه قَمْأةً»(٥).

وملك المتقين (القناعة وحسن الظنِّ برب العالمين)، والقنوع ملك وإن كان فقيرًا، والملك فقيرٌ إن كان طامعًا.

وكم من مُلْكٍ ذهب وزال، ومن أسبابه: الطمع، وحب التوسع، والرغبة في النساء، وجمع الأموال بغير حق، وترك شؤون الرعية، وإهمال السياسة الشرعية، وجهاد أعداء رب البرية.

---

(١) صحيح مسلم (كتاب الزهد والرقائق) (٢٩٧٩).
(٢) الزهد لابن الأعرابي رقم (٨٦).
(٣) تاريخ دمشق (٢٣/ ٣٢٥).
(٤) مقدمة موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (١/ ٣٣). وقال: «إنَّ الأزهر أمانة في عنقي، أُسَلِّمها حين أُسَلِّمها، موفورةً كاملة، وإذا لم يتأتَّ أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار علىٰ يدي، فلا أقلَّ من ألا يحصل له نقص».
(٥) السير للذهبي (٤/ ٥٥٥) و(القمأة): الخصب والدعة.

وكم من سكرةٍ ذهبت فلمَّا حانت ساعة المنية فاق منها، وبدأت العبرة، واتضحت لصاحبها الحقيقة والفكرة التي كان عنها بمنأى[(١)].

أُبَـالِـي أَنْ أُقِـيـمَ بِـدَارِ خَـسْـفٍ ... عَلَىٰ أَمَلِ الرِّضَاءِ، فَمَا وَجَدْتُ
وَإِذَا أَنَـاخَ بِـكَـلْـكَـلِـهِ زَمَـانِـي ... عَـلَـيَّ وَلَـجَّ بِـي دَهْـرِي صَـبَـرْتُ
وَقَـدَّمَـنِـي عَـلَـىٰ نُـظَـرَائِـي أَنِّـي ... إِذَا طَـمَـعٌ عَـرَاهُـمْ يَـئِـسْـتُ
وَيَـجْـمَـعُـنِـي وَسُوءُ الْـحَـالِ لَـيْـلٌ ... فَأَكْثَرُ مَا أَقُولُ: «بِكَ اسْتَعَنْتُ»
وَيَسْأَلُنِي صَدِيقِي: كَيْفَ حَالِي؟ ... فَـأُوهِـمُـهُ الْـغَـنِـيَّ وَلَـوْ جَـهِـدْتُ
وَلَـوْلا أَنَّ ذِكْـرَ الْـمَـوْتِ يُـسْـلِـي ... عَـنِ الـدُّنْـيَـا وَلَـذَّتِـهَـا أَسِـفْـتُ
وَأَعْـظَـمُ مِـنْ نُـزُولِ الْـمَـوْتِ أَنِّـي ... أُدَانُ بِـمَـا كَـسَـبْـتُ وَمَـا اكْـتَـسَـبْـتُ[(٢)]

وقال العلامة نجم الدين الغزي، قال شيخ الإسلام الجدُّ رحمه الله تعالىٰ:

جُلُوْسُكَ مَعْ رِجالِ اللهِ يُلْهِيْ ... عَـنِ الـدُّنْـيـا وَعَـنْ أَهْـلٍ وَشُـغْـلِ
فَـجَـالِـسْـهُـمْ تَـنَـلْ خَـيْـرًا كَـثِـيْـرًا ... وتُـعْـطَـى كُـلَّ أَفْـضـالٍ وَفـضْـلِ[(٣)]

---

(١) كالذي حصل مع المعتمد بن العباد حينما سلب ملكه، وقتل ولده، ونفي إلىٰ أغمات -ناحية من بلاد المغرب قرب مراكش-، وكان يعيش منعمًا مرفهًا في بلاد الأندلس، بين المال والبنون، والجواري الحور، وذاك أنَّ بنات المعتمد أتينه في عيد، وكن يغزلن بالأجرة في أغمات، فرآهنَّ في أطمار رثة، فصدعن قلبه، فقال:

فِيمَا مَضَىٰ كُنْتَ بِالأَعْيَادِ مَسْرُوْرا ... فَسَاءَكَ العِيْدُ فِي أَغْمَاتَ مَأْسُوْرَا
تَرَىٰ بَنَاتِكَ فِي الأَطْمَارِ جَائِعَةً ... يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلُكْنَ قِطْمِيْرَا
بَرَزْنَ نَحْوَكَ لِلتَّسْلِيم خَاشِعَةً ... أَبْصَارُهُنَّ حَسِيْرَاتٍ مَكَاسِيْرَا
يَطَأْنَ فِي الطِّيْنِ وَالأَقْدَامُ حَافِيَةٌ ... كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكًا وَكَافُوْرَا

(٢) القناعة (ص٤٦).

(٣) حسن التنبه لما ورد في التشبه «وهو كتاب فريد في بابه يشتمل علىٰ بيان ما يتشبه به المسلم وما لا يتشبه به» (٢/ ٤٧٤).

وعن الأصمعي قال: حدثنا محمد بن حرب الزيادي قال: حدثني أبي، قال: قال زياد لجلسائه: منْ أغبط النَّاسِ عيشًا؟

قالوا: الأمير وجلساؤه.

فقال: «ما صنعتم شيئًا! إنَّ لأعواد المنبر هيبة، وإنَّ لقرع لجام البريد لفزعة؛ ولكن أغبط النَّاس عندي رجلٌ له دار لا يجري عليه كراها، وزوجةٌ صالحة قد رضيته ورضيها فهما راضيان بعيشهما؛ لا يعرفنا، ولا نعرفه؛ فلأنَّه إن عرفنا وعرفناه أتعبنا ليله ونهاره، وأذهبنا دينه ودنياه»[(١)].

ولله در الحافظ الحميدي إذ قال:

طريقُ الزهدِ أفضل ما طريق … وتقوىٰ الله باديةُ الحقوقِ

فثق بالله يكفك واستعنهُ … يعنكَ وذرِ بنياتِ الطرَّيقِ[(٢)]

وكان أبو السحماء الكلبي قد بلغ من الدنيا والسلطان مبلغا، ثمَّ عزم له علىٰ الزهد فيها فترك ذلك أجمع، وأقبل علىٰ العبادة والنسك فأخبرني الحارث بن مسكين أنَّه خرج مرة إلىٰ **الإسكندرية** فنزل منزلًا، فقال: «الحمد لله استرحنا من صحبة الملوك، هذا رحلنا إذا شئنا، نتكئ إذا شئنا، ونعمل ما أردنا»[(٣)].

مَلَكْتُ نَفْسِي وَذَاكَ مُلْكٌ … مَا مِثْلُهُ لِلْمُلُوكِ مُلْكُ

فَصِرْتُ حُرًّا بِمِلْكِ نَفْسِي … فَمَا لِخَلْقٍ عَلَيَّ مُلْكُ[(٤)]

وقيل: أراد واحد خدمة ملك، فقال الملك: اذهب وتعلم حتىٰ

---

(١) العزلة (ص٢٣٤).

(٢) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٥).

(٣) الزهد لابن الأعرابي (ص٢٨).

(٤) العزلة للخطابي (ص٢٣٧).

تصلح لخدمتي، فلمَّا شرع في التعلم، وذاق لذة العلم، بعث الملك إليه، وقال: اترك التعلم فقد صرت أهلًا لخدمتي!

فقال: كنت أهلًا لخدمتك حين لم ترني أهلًا لخدمتك، وحين رأيتني أهلًا لخدمتك رأيت نفسي أهلًا لخدمة الله تعالىٰ، وذلك أنِّي كنت أظنُّ أنَّ الباب بابك لجهلي، والآن علمت أنَّ الباب باب الله(١).

ويذكر بأنَّ المهدي قال للمُفَضَّل الضَّبِي: أسهرتني البارحة أبيات الحسين بن مطير الأسدي.

قال: وما هي يا أمير المؤمنين؟

قال المهدي: قوله:

وَكَمْ قَدْ رَأَيْنا مِنْ تَكدُّرِ عِيشَةٍ ... وَحالٍ صَفَا بَعْدَ اكْدِرَارٍ غَدِيرُها
وَقَدْ تَغْدِرُ الدُّنْيا فيُضْحىٰ غَنِيُّها ... فَقيرًا وَيَغْنَىٰ بَعْدَ بُؤْسٍ فَقيرُها
فَلَا تَقْرَبِ الأَمْرَ الحَرَامَ فَإِنَّهُ ... حَلَاوَتُهُ تَفْنَىٰ وَيَبْقَىٰ مَرِيرُهَا

فقال له المُفَضَّل: مثل هذا فليسهرك يا أمير المؤمنين(٢).

ويلحق بهم أصحاب الصحة والعافية وهذا الفصل اذكره تتمة للفائدة، روىٰ الترمذي وابن ماجه، عن سلمة بن عبيد الله بن محصن الأنصاري عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**منْ أصبح منكم معافىٰ في جسده، آمنًا في سِرْبِه، عنده قوتُ يومه، فكأنَّما حِيزت له الدنيا**»(٣).

قال وهب بن منبه: «مكتوب في حكمة آل داود: العافية الملك

---

(١) جامع لطائف التفسير (١/ ٢٧٥).

(٢) انظر: المحاسن والمساوئ لإبراهيم بن محمد البيهقي (ت٣٢٠هـ) (ص١٧٦)، و«الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٣/ ١٦٠).

(٣) رواه ابن ماجه في «سننه» (٤١٤١)، والترمذي (٢٥٠٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٠).

الخفي»[١].

وروي أنَّ ابن السمَّاك دخل علىٰ الرشيد يومًا فاستسقىٰ، فأتي بكوز، فلمَّا أخذه قال: «علىٰ رسلِك يا أمير المؤمنين، لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها؟

قال: بنصف ملكي.

قال: اشرب هنَّاك الله؛ فلمَّا شربها، قال: أسألكَ لو مُنِعت خروجها من بدنك، بماذا كنتَ تشتري خروجها؟ قال: بجميعِ ملكي.

فقال: إنَّ ملكًا قيمتهُ شربة ماء لجديرٌ أنْ لا ينافسَ فيه، قال: فبكىٰ هارون»[٢].

وقال صالح بن جناح الدمشقي لابنه: «يا بني إذا مرَّ بك يوم وليلة قد سلم فيها دينك، وجسمك، ومالك، وعيالك، فأكثر الشكر لله تعالىٰ؛ فكم من مسلوب دينه، ومنزوع ملكه، ومهتوك ستره، ومقصوم ظهره في ذلك اليوم، وأنت في عافية»[٣].

لَوْ أنَّني أُعْطِيتُ سُؤْلِي لماَ ... سَأْلتُ إِلَا الْعَفوَ وَالْعَافِيَةَ
فَكَمْ فتَىٰ قَدْ بَاتَ في نِعْمَةٍ ... فَسلَّ مِنْهَا اللَّيْلَةَ الثَّانِيَة[٤]

❁ ❁ ❁

(١) الشكر لابن أبي الدنيا (١٢٢).
(٢) انظر: تاريخ الطبري (٦/ ٥٣٨)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٤/ ١٠٣٠).
(٣) السير (٣/ ٢٢٢).
(٤) تاريخ دمشق (٣٣/ ٣٢٥).







[الفصل الخامس

من سمع من الأمراء الحديث على المحدثين أو أسمعه ومن عرف باشتغاله ببعض العلوم]

ثبت بالبراهين العقلية والدلائل النَّقليَّة أنَّ العلم من أفضل القربات، وأعظم العطيات، وأعلىٰ الدرجات، وأهم أنواع العلوم فائدة، وأشرفها عائدة علم حديث رسول الله ﷺ، إذ هو ثاني أدلة علوم الإسلام، ومادة الأصول والأحكام.

وعلم الحديث علم جليل، لا يطلبه إلا نبيل، ولا يصبر عليه إلا كل فحل نحرير، كما قال الزهري لأبي بكر الهذلي: يا هذلي! أيعجبك الحديث؟

قلت: نعم!

قال: «أمَّا أنَّه يعجب مذكري الرجال، ويكرهه مؤنثوهم»[(١)].

ولأبي الفضل العباس بن محمد الخراساني:

رَحَلْتُ أَطْلُبُ أَصْلَ الْعِلْمِ مُجْتَهِدًا ... وَزِينَةُ الْمَرْءِ فِي الدُّنْيَا الْأَحَادِيثُ

لَا يَطْلُبُ الْعِلْمَ إِلَّا بَازِلٌ ذَكَرٌ ... وَلَيْسَ يَبْغَضُهُ إِلَّا الْمَخَانِيثُ

لَا تَعْجَبَنَّ بِمَالٍ سَوْفَ تَتْرُكُهُ ... فَإِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَوَارِيثُ[(٢)]

ولا يبلغ صاحبه المبلغ الكبير بعد توفيق الله وعونه، إلا إذا كانت

---

(١) مسألة في العلو لابن القيسراني (ص٤٦)، وهو في «جامع بيان العلم» (٢٩٦) بنحوه.

(٢) شرف أصحاب الحديث (ص٩٥).

حاله كما قال أبو أحمد نصر بن أحمد العياضي الفقيه السمرقندي: «لا يَنال هذا العلم إلا من عطَّل دكانه، وخرَّب بستانه، وهجَر إخوانه، ومات أقرب أهله إليه فلم يشهد جنازته»(١).

ولما كان علم الحديث بهذه المكانة الكبيرة، والمنزلة العالية الرفيعة، تنافس الملوك والأشراف في طلبه، وتحسروا علىٰ عدم حصولهم عليه، فغلبوا الحسرة بالرحلة لأهله، والسماع منهم، وإكرام أهله وصحبه. ومن ذلك لما قيل للمنصور: هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تنله؟

قال: بقيت خصلةً، أن أقعد في مصطبةً، وحولي أصحاب الحديث، فيقول: المستملي من ذكرت رحمك الله؟

قال: فغدا عليه الندماءُ، وأبناء الوزراء بالمحابر والدفاتر، فقال: لستم هم، إنَّما هم الدَّنسةُ ثيابهم، المتشققةُ أرجلهم، الطويلةُ شعورهم، برد الآفاق، ونقلة الحديث»(٢).

قال شيخ الإسلام: «من دخل في العلم والدين لرغبةٍ في مال أو جاه أو رهبة من عزل، أو عقوبة، أو أخذ مال، فلمَّا ذاق حلاوة العلم والإيمان كان ذلك أحب إليه مَّما طلعت عليه الشمس»(٣). وصدق!

ومن هؤلاء: الخليفة عمر بن عبد العزيز. قال عكرمة بن عمار: سمعت كتاب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «أمَّا بعد: فآمر أهل العلم أنْ ينشروا العلم في مساجدهم، فإنَّ السنة كانت قد أميتت»(٤).

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ١٧٤)، وعنه ابن جماعة في «تذكرة السامع» (ص٨٨).
(٢) أدب الإملاء (١/ ١٨) و«فتح المغيث» (٣/ ٢٥٩)، وقوله: «برد الآفاق ...» مثبتة من طبعة (دار المنهاج) لفتح المغيث، وفي طبعة (مكتبة السنة) «يرد الآفاق».
(٣) در تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٥٦).
(٤) المحدث الفاصل (عقد المجالس في المساجد) (٨٧٠) (ص٦٨٩).

وعمر رَحِمَهُ اللَّهُ، تعلم وتربىٰ علىٰ يدي كثير من العلماء والفقهاء، وقد بلغ عدد شيوخه ثلاثة وثلاثين، ثمانية منهم من الصحابة، وخمسة وعشرون من التابعين[(١)].

وكتب رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ عدي بن عدي: «إنَّ للإيمانِ فرائض، وشرائع، وحدودًا، وسننًا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتىٰ تعملوا بها، وإن أمت فما أنا علىٰ صحبتكم بحريص»[(٢)].

قال عمرو بن ميمون: «كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة»[(٣)].

قال السيوطي في «ألفيته»:

---

(١) مسند عمر بن عبد العزيز (ص**٣٣**)، و«الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار» (٢/ ١٢٧).

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٠)، وأوصله ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٠٨٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٠)، وللفائدة فإنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ له مكانة عظيمة في الفقه والحديث، ويذكر في كتب فقه المذاهب الأربعة، ففي «الجواهر المضيئة» (٤/ ٥٥٢): (فائدة): يقول أصحابنا في كتبهم في مسائل الخلاف: وهو قول عمر الصغير. يريدون به عمر بن عبد العزيز الخليفة المشهور.
ويكثر الشافعية من ذكره في كتبهم، ولذلك ترجم له الإمام النووي ترجمة حافلة له في «تهذيب الأسماء واللغات» وقال في أولها: تكرر في «المختصر» و«المهذب» (وهي من كتب الشافعية المشهورة).
وأمَّا المالكية فيكثرون من ذكره في كتبهم أكثر من غيرهم، ومالك إمام المذهب ذكر في «الموطأ» محتجًا بفتواه وقوله في مواضع عديدة في موطئه كما في الأرقام التالية (٣٠٥. ٥٩٢. ٥٩٤. ٦١٤).
وأمَّا الحنابلة فكذلك يذكرونه كثيرًا، وعمر هو الذي قال فيه الإمام أحمد: لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز. نقلًا عن «كتاب الدولة الأموية» (٢/ ١٢٨-١٢٩).

أَوَّلُ جـامِـعِ الـحـديـثِ والأَثَـرْ اِبْـنُ شِـهـابٍ آمِـرًا لَـهُ عُـمَـرْ[١]

وعن جعفر بن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: «أمَّا بعد: مر أهل العلم والفقه من جندك فلينشروا ما علمهم الله ﷻ في مجالسهم ومساجدهم، والسلام»[٢].

تأمل حرص أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين علىٰ السنة، والغيرة علىٰ العلم آنذاك رحمه الله ورضي عنه، لتعلم أنَّ القيادة والإمارة تشمل أمور العباد في الدين والدنيا.

ومنهم: الخليفة أبو جعفر المنصور (ت١٥٨هـ)، وكان الدوانيقي ذكر الحاكم في «معرفة علوم الحديث»، قال: «سمعت أبا الحسن أحمد بن جعفر العلوي بالكوفة، يقول: سمعت أبي يحدث عن آبائه، أنَّ أبا جعفر المنصور كان يرحل في طلب العلم قبل الخلافة، فبينا هو يدخل منزلًا من المنازل قبض عليه صاحب الرصد، فقال: زنْ درهمين قبل أن تدخل، قال: خل عني، فإني رجل من بني هاشم، قال: زن درهمين، قال: خلِّ عنَّي، فإني رجل من بني أعمام رسول الله ﷺ، قال: زن درهمين، قال: خل عني، فإنِّي رجل قارئ لكتاب الله، قال: زن درهمين، قال: خل عني، فإنِّي رجل عالم بالفقه والفرائض، قال: زن درهمين، قال: فلمَّا أعياه أمره وزن الدرهمين، ولزم جمع المال والتدنق فيه، فبقي علىٰ ذلك برهة من زمانه إلىٰ أن قلد الخلافة، وبقي عليه فصار الناس يبخلونه فلقب بأبي الدوانيق»[٣].

---

(١) ألفية السيوطي في علم الحديث بيت رقم (٤١).

(٢) جامع بيان العلم (٧٨٨).

(٣) معرفة علوم الحديث (ص٦٠٦)، قال محققه: «قصة غريبة بإسنادٍ لا يثبت، والمعروف أنه لقب بذلك لحرصه علىٰ خزائن الدولة، والقصة مروية بإسناد علوي، وقد كان بين العلوية والعباسية إحن تشيب لها النواصي، وأمرهم مشهور».

قال الشيخ مناظر أحسن الكيلاني: «شدة شوق العلم كانت تدفعه»، وقال: «وكان يفرح بهذا اللقب في بعض المناسبات»[(١)].

ومنهم: **الخليفة المهدي (ت١٦٩هـ)** روىٰ الحديث عن أبيه، وعن مبارك بن فضالة.

وحدث عنه يحيىٰ بن حمزة، وجعفر بن سليمان الضبعي، ومحمد بن عبد الله الرقاشي، وأبو سفيان سعيد بن يحيىٰ الحميري.

قال الذهبي: وما علمت قيل فيه جرحًا ولا تعديلًا[(٢)].

وعن عمر بن المحبر الرعيني، قال: قدم المهدي المدينة، فبعث إلىٰ مالك، فأتاه، فقال لهارون وموسىٰ: اسمعا منه.

فبعث إليه، فلم يجبهما، فأعلما المهدي، فكلمه، فقال: يا أمير المؤمنين! العلم يؤتىٰ أهله.

فقال: صدق مالك، صيرا إليه.

فلمَّا صارا إليه، قال له مؤدبهما: اقرأ علينا.

فقال: إنَّ أهل المدينة يقرؤون علىٰ العالم، كما يقرأ الصبيان علىٰ المعلم، فإذا أخطؤوا، أفتاهم.

فرجعوا إلىٰ المهدي، فبعث إلىٰ مالك، فكلمه، فقال: سمعت ابن شهاب يقول: جمعنا هذا العلم في الروضة من رجال، وهم يا أمير المؤمنين: سعيد بن المسيب، وأبو سلمة، وعروة، والقاسم، وسالم، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، ونافع، وعبد الرحمن بن هرمز، ومن بعدهم: أبو الزناد، وربيعة، ويحيىٰ بن سعيد، وابن شهاب، كل هؤلاء يقرأ عليهم، ولا يقرؤون.

---

(١) تدوين الحديث (ص١٠٦)، ط: دار الغرب الإسلامي.

(٢) تاريخ الخلفاء (ص٢٧٥).

فقال: في هؤلاء قدوة، صيروا إليه، فاقرؤوا عليه، ففعلوا[١].

وقال حمدان بن الأصبهاني: كنت عند شريك (ت١٨٧ أو ١٨٨هـ)، فأتاه بعض ولد المهدي، فاستند، فسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه، وأقبل علينا، ثم أعاد، فعاد بمثل ذلك، فقال: كأنك تستخف بأولاد الخليفة.

قال: لا، ولكن العلم أزين عند أهله من أن تضيعوه.

قال: فجثا علىٰ ركبتيه، ثمَّ سأله، فقال شريك: هكذا يطلب العلم[٢].

وعن مسروق بن عبد الرحمن الكندي: حدثني محمد بن المنذر الكندي، جار لعبد الله بن إدريس، قال: حج الرشيد (ت١٩٣)، فدخل الكوفة، فلم يتخلف إلا ابن إدريس، وعيسىٰ بن يونس (ت١٨٧هـ)، فبعث إليهما **الأمين والمأمون**، فحدثهما ابن إدريس بمائة حديث.

فقال المأمون: يا عم! أتأذن لي أن أعيدها حفظًا؟

قال: افعل.

فأعادها، فعجب من حفظه، ومضيا إلىٰ عيسىٰ، فحدثهما.

فأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم، فأبىٰ، وقال: ولا شربة ماء علىٰ حديث رسول الله ﷺ[٣].

والمأمون (ت٢١٨هـ) له سماع وعناية بالحديث: عن محمد بن سهل بن عسكر، قال: حضرت المأمون بالمصِّيصة، فقام إليه رجل بيده محبرة، فقال: يا أمير المؤمنين، صاحبُ حديث منقطع به.

---

(١) السير (٨/ ٦٣-٦٤)، و«الآداب الشرعية» (٢/ ٤٩).

(٢) السير (٨/ ٢١٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (/ ٢٧٦).

قال: فوقف له المأمون، وقال: أيْش تحفظُ في باب كذا؟

قال: فسكت، فقال المأمون: حدثنا ابنُ عُلَيَّة بكذا، وحدثنا حجاجٌ الأعور بكذا، وسرد عدَّة أحاديث، ثمَّ قال: وأيْش تحفظ في باب كذا؟

قال: فسكت، فسرد له المأمون أيضًا عدة أحاديث.

ثم قال: أحدُهم يطلبُ الحديث ثلاثة أيام، ثمَّ يقول: أنا صاحب حديث، أعطوه ثلاثة دراهم[1].

وكان المأمون يقول: «غلبة الحجة أحب إليَّ من غلبة القدرة؛ لأنَّ غلبة القدرة تزول بزوالها، وغلبة الحجة لا يزيلها شيء»[2].

وفي ذكر الإمام سليمان بن حرب الأزدي (ت٢٢٤هـ) ذُكِر أنَّ مجلسه ببغداد حزروا فيه من حضره فبلغ أربعين ألفَ رجلٍ، وكان مجلسه عند قصرِ المأمون.

فبُني له شبه منبر، فصعد سليمان وحضر حوله جماعة من القوَّاد عليهم السواد، والمأمون فوق قصره، قد فتح باب القصر، وقد أرسل ستر شف وهو خلفه يكتب ما يملي[3].

وسأل المأمون الإمام مالك بن أنس هل لك دار؟ فقال: لا، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال: اشترِ لك بها دارًا قال: ثمَّ أراد المأمون الشخوص وقال لمالك: تعالَ معنا فإنِّي عزمت أنْ أحمل الناس علىٰ

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٧٦)، و«الجواهر والدرر» للسخاوي (١/ ٧٩).

(٢) تاريخ بغداد (١١/ ٤٣٠).

(٣) تاريخ بغداد (١٠/ ٤٤) بتصرف يسير، وانظر: «الجرح والتعديل» (٤/ ١٠٨-١٠٩)، و«تراجم حفاظ الحديث» (٢/ ٣٠٩)، ومثل هذا حصل مع عاصم بن علي الواسطي (ت٢٢١هـ)، ففي «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٩١) قال أبو الحسين بن المنادي: «كان مجلسه يحزر بأكثر من مائة ألف إنسان وكان يستملي عليه هارون مكحلة».

الموطأ كما حَمل عثمان النَّاسَ علىٰ القرآن فقال له: ما لك إلىٰ ذلك سبيل، وذلك أن أصحاب النبي ﷺ افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم ولا سبيل إلىٰ الخروج معك فإن النبي ﷺ قال: «**والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**». وقال: «**المدينة تنفي خبثها كما ينفىٰ الكير خبث الحديد**» وهذه دنانيركم فإن شئتم فخذوه وإن شئتم فدعوه(١).

وقال جعفر بن أحمد بن نصر الحافظ: ما رأيت من المحدثين أهيب من **محمد بن رافع (ت٢٤٥هـ)**، كان يستند إلىٰ الشجرة الصنوبر في داره، فيجلس العلماء بين يديه علىٰ مراتبهم، وأولاد الطاهرية، ومعهم الخدم، كأنَّ علىٰ رؤوسهم الطير، فيأخذ الكتاب، ويقرأ بنفسه، ولا ينطق أحد، ولا يتبسم إجلالًا له، وإذا تبسَّم واحدٌ أو راطن صاحبه، قال: وصلىٰ الله علىٰ محمد، ويأخذ الكتاب، فلا يقدر أحد يراجعه، أو يشير بيده.

ولقد تبسَّم خادمٌ من خدم الطاهريَّة يومًا، فقطع ابن رافع مجلسه، فانتهىٰ الخبر بذلك إلىٰ **طاهر بن عبد الله**، فأمر بقتل الخادم، حتىٰ احتلنا لخلاصه(٢). قلت: وهذا دليلٌ قويٌّ علىٰ تعظيم الأمراء للعلم، ومجالس الحديث، فلله درهم، ما أروع أخبارهم.

وهذا المتوكل علىٰ الله جعفر، أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد (ت٢٤٧هـ). استقدم المحدثين إلىٰ سامرا، وأجزل عطاياهم وأكرمهم، وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصِّفات والرؤية، وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في جامع الرصافة، فاجتمع إليه أيضًا نحو من ثلاثين ألف نفس، وجلسَ أخوه عثمان في جامع المنصورِ، فاجتمع إليه أيضًا نحو من ثلاثين

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٣١).

(٢) السير (١٢/ ٢١٦)، و«طبقات علماء الحديث» (٢/ ١٨١)، وانظر: «الإلماع» للقاضي عياض (ص٣٠٩-٣١٠)، و«معرفة علوم الحديث» للحاكم (ص٢٦٥)..

ألف نفس، وتوفّر دعاء الخلق للمتوكل، وبالغوا في الثناء عليه والتَّعظيم له، حتَّىٰ قالَ قائلهم: الخلفاء ثلاثة: «**أبو بكر الصديق** رضي الله عنه **في قتلِ أهل الرِّدة، وعمر بن عبد العزيز في ردِّ المظالم، والمتوكل في إحياء السنَّة وإماتة التجهم**».

وكان يقول: وا حسرتا علىٰ محمد بن إدريس الشافعي، كنت أحب أن أكون في أيامه فأراه وأشاهده، وأتعلم منه، فإنِّي رأيت رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول: «**أيُّها النَّاس إنَّ محمد بن إدريس المطّلبي قد صار إلىٰ رحمة الله وخلَّف فيكم علمًا حسنًا فاتبعوه تهدوا، ثمَّ قال: اللهم ارحم محمد بن إدريس رحمةً واسعةً، وسهل عليَّ حفظ مذهبه، وانفعني بذلك**».

قال السيوطي: «استفدنا من هذا أن المتوكل كان متمذهبًا بمذهب الشافعي، وهو أول من تمذهب من الخلفاء»[١].

ودخل محمد بن يوسف بن عيسىٰ ابن الطباع (ت٢٧٥ أو ٢٧٦هـ) من سامرا إلىٰ بغداد فنزل في البغويين فاجتمع أصحاب الحديث، **فسمع محمد بن عبد الله بن طاهر** الضوضاء من كلام أصحاب الحديث، فقال لحاجبه: ما هذا؟ فقال ابن الطباع: قدم من سر من رأىٰ، وهذا كلام أصحاب الحديث.

فقال: وقد قدم؟ قال: نعم.

فكتب إليه رقعة يسأله أن يصير إليه ليحدث فتيانه، فكتب جواب رقعته: «بسم الله الرحمن الرحيم، أكرمك الله كرامة تكون لك في الدنيا عزًا، وفي الآخرة من النَّار حرزًا، قرأت رقعتك، ولم أتخلف عنك صيانة، إنمَّا تخلفت عنك ديانة، والعلم يؤتىٰ ولا يأتي».

---

(١) تاريخ الخلفاء (ص٣٤٧-٣٥٤).

فقال: صدق.

فصار إليه محمد بن عبد الله وبنوه، وكان نازلًا في غرفة فصعد إليه، فحدثه عامة الليل وقال محمد بن عبد الله، يعني لحاجبه: سله ما يريد؟ فكلمه الحاجب بالفارسية.

وكان ابن الطباع يحسن الفارسية، فقال: قل له: يبعث له شيئًا نتغطىٰ به في هذا البرد.

فبعث إليه بمطرف خز يساوىٰ خمس مائة دينار، فاحتاج ابن الطباع إلىٰ بيعه فدفعه إلىٰ بعض البزازين فباعه بخمس وخمسين دينار، قال: لو صبرت عليه حتىٰ يجيء طالبه لأخذت لك خمس مائة دينار[1].

الأمير أحمد بن طولون (ت٢٧٠هـ).

قال الطحاوي: «ولا أحصي كم كان أحمد بن طولون يجيء إلىٰ مجلس بكار بن قتيبة (ت٢٧٠هـ) وهو يملي، ومجلسه مملوء بالنَّاس، فيتقدم الحاجب، ويقول: لا يتغير أحد من مكانه»[2].

وكان **الإمام بكار بن قتيبة**[3]، عظيم الحرمة، وافر الجلالة، من العلماء العاملين، كان السلطان -ابن طولون- ينزل إليه، ويحضر مجلسه[4].

ومنهم: الحسن بن زيد العلوي (ت٢٧٠هـ). صاحب طبرستان.

(١) تاريخ بغداد (ترجمة: محمد بن يوسف بن عيسىٰ ابن الطباع) (٤/ ٦٢٣).
(٢) السير (١٢/ ٦٠١).
(٣) حدث عنه: أبو عوانة في (صحيحه)، وابن خزيمة، وعبد الله بن عتاب الزفتي، ويحيىٰ بن صاعد، وابن جوصا، وأبو جعفر الطحاوي، وابن زياد النيسابوري، وابن أبي حاتم، ومحمد بن المسيب الأرغياني، وجماعة.
(٤) السير (١٢/ ٦٠٠).

وكان كريًما جوادًا، ممدحًا، **يعرف الفقه والعربية**، قال له شاعر في جملة قصيدة مدحه بها:

الله فرد وابن زيد فرد!

فقال: ويلك! لا تقل، هلَّا قلت: الله فرد وابن زيد عبد، ثمَّ نزل عن سريره، وخرَّ ساجدًا لله ﷻ وألصق خده بالتراب، ولم يعطِ ذلك الشاعر شيئًا[١].

وامتدحه بعضهم، فقال في أول قصيدته:

لَا تَقُلْ بُشْرَىٰ وَلَكِنْ بُشْرَيَانِ ... عِزَّةُ الدَّاعِي وَيَوْمُ الْمِهْرَجَانِ

فقال له الحسن بن زيد: لو ابتدأت بالمصراع الثاني لكان أحسن، وأبعدَ لك أن تبتدئ شعرك بحرف (لا). فقال له الشاعر: ليس في الدُّنيا كلمةٌ أجلُّ من قول: (لا إله إلا الله). فقال: أصبت. وأمر له بجائزة سَنيَّةٍ[٢].

ومنهم: **الناصر لدين الله الموفق بالله أبو أحمد محمد -طلحة- بن المتوكل علىٰ الله جعفر بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد (ت٢٧٨هـ).**

كان غزير العقل، حسن التدبير، كريمًا جوادًا، ممدحًا شجاعًا، حسن المحادثة والمجالسة، عادلًا حسن السيرة، يجلس للمظالم وعنده القضاة فينصف المظلوم من الظالم، وكان عالمًا بالأدب والنسب والفقه وسياسة الملك، وغير ذلك، وله محاسن ومآثر كثيرة جدًا[٣].

ومنهم: **صاحب خراسان الأمير أبو إبراهيم إسماعيل ابن الملك أحمد** (ت٢٩٥هـ).

---

(١) انظر: معجم المناهي اللفظية (الله فرد وابن زيد فرد) (ص١٢٤-١٢٥).

(٢) البداية والنهاية (١٤/ ٥٩٣).

(٣) البداية والنهاية (١٤/ ٦٣٩).

قال الذهبي: سمع من: أبيه، ومن محمد بن نصر المروزي عامة تصانيفه.

أخذ عنه: ابن خزيمة وغيره.

كان ملكًا فاضلًا، عالمًا، فارسًا، شجاعًا، ميمون النقيبة، معظمًا للعلماء، يلقب بالأمير الماضي(١).

الإمام صالح بن محمد بن جزرة (ت٢٩٣هـ). دخل بخارىٰ سنة ست وستين، فسكنها لما رأىٰ من الإحسان من أميرِ بخارىٰ(٢).

وقال جلال الدين السيوطي: ورأيتُ بخط الحافظ أبي الفضل العراقي، أنَّ النسائي (ت٣٠٣هـ) **لما صنَّف -السنن- الكبرىٰ أهداها لأمير الرملة،** فقال له: كل ما فيها صحيح.

فقال: لا.

فقال: «ميِّز لي الصحيح من غيره»، فصنَّف له (الصغرىٰ)(٣).

---

(١) السير (١٤/ ١٥٤)، ووصفه الذهبي: (وكان حسن السيرة، جامعًا للعلم، مكرمًا للأفاضل، كبير القدر، ذا نهمةٍ مفرطةٍ في العلمِ والفضائل، عاكفًا علىٰ المطالعة.
جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من الملوكِ، لا قبله ولا بعده، وتطلبها، وبذل في أثمانها الأموالَ، واشتُرِيت له من البلاد البعيدة بأغلىٰ الأثمان، مع صفاء السريرة والعقل والكرم، وتقريب العلماء.
ولقد ضاقت خزائنه بالكتب إلىٰ أن صارت إليه، وآثرها علىٰ لذات الملوك، فغزر علمه، ودق نظره، وكان له يد بيضاء في معرفة الرجال، والأنساب، والأخبار، وقلما تجد له كتابًا إلا وله فيه قراءة أو نظر، من أي فنٍّ كان، ويكتب فيه نسب المؤلف، ومولده ووفاته، ويأتي من ذلك بغرائبَ لا تكاد توجد.
وكان أخوه الأمير عبد الله المعروف بالولد، علىٰ أنموذجه في محبة العلم، فقتل في أيام أبيه).

(٢) تاريخ الإسلام (٦/ ٩٥٣).

(٣) تدريب الراوي (١/ ١٣٩).

ومنهم: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن كليب الجذامي، الملقب بغلام الله (ت٣٠٨ أو ٣٠٩ أو ٣١٣هـ).

قال أحمد بن عبد البر: «كان يُشير في الفقه إشارةً حسنة، ممَّن أنجبَ من أبناء الملوك، ورأسَ بالعلم، وكان طيِّبَ الخُلُق»[١].

ومنهم: الإمام ابن الإمام أحمد بن بقي بن مخلد (ت٣٢٤هـ)، ذُكِرَ أنَّه قرأ يومًا علىٰ الخليفة النَّاصر سورة يوسف، ففسَّرها آية آية.

ولم يزل الناصر عارفًا بحقِّ أحمد بن بقي، مُعظمًا له إلىٰ أن هلك أحمد[٢].

وكان **الراضي بالله محمد بن المقتدر بن المعتضد** (ت٣٢٩هـ). سمحًا كريمًا، أديبًا شاعرًا فصيحًا، محبًا للعلماء، وله شعر مدون، وسمع الحديثَ من البغوي وغيره[٣].

ومنهم: الحكم بن عبد الرحمن بن محمد المستنصر بالله أمير المؤمنين بالأندلس، أبو العاص، المستنصر بالله بن الناصر الأموي (ت٣٣٦هـ). أكثر عن: زكريا بن الخطاب، وأجاز له: قاسم بن ثابت كتاب (الدلائل في غريب الحديث).

وكتب عن خلق كثير، منهم: قاسم بن أصبغ، ومحمد بن محمد بن عبد السلام الخشني، وأحمد بن دحيم[٤].

---

(١) ترتيب المدارك (١/ ١٤٠)، وهل هذه السنن تأليف النسائي أم ابن السني؟ في ذلك خلاف بين أهل العلم، والصواب: أنَّها من تأليف النسائي، وليس هذا معرض ذكر الخلاف، وعرض أقوال أهل العلم، وبيان حججهم وأدلتهم.

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٦٩ و١٧٧).

(٣) تاريخ الخلفاء (ص٣٩٣).

(٤) السير للذهبي (٨/ ٢٦٩).

ومن كتبهِ: «خزانة العلوم»، وقد طبع حديثًا بحمد الله[١].

ومنهم: الناصر لدين الله عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس (ت٣٥٠هـ). كانت خلافته خمسين سنة وستة أشهر، وهو أول من تلقَّب بأمير المؤمنين من أولاد الأمويين الداخلين إلىٰ المغرب، وذلك حين بلغه ضعف الخلفاء بالعراق، وتغلب الفاطميين ببلاد المغرب، فتلقب بأمير المؤمنين قبل موته بثلاث وعشرين سنة، وكان شافعي المذهب، ناسكًا، شاعرًا[٢].

وذكر القاضي عياض في ترجمة الإمام قاسم بن صبيغ (ت٣٤٠هـ)، بأنَّ الناصر لدين الله أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد سَمِع منه[٣].

ومنهم: الوزير الكامل الحافظ المفيد الإمام ابن حِنْزَابة (ت٣٩١هـ)، قال ابن طاهر المقدسي: «رأيتُ عند الحبال كثيرًا من الأجزاء التي خرجت لابن حنزابة، وفيها الجزء الموفىٰ ألفًا من مسند كذا، والجزء الموفىٰ خمسمائة من مسند كذا، وأنفق أموالًا عظيمة في البر»[٤].

قال السلفي: «كان ابن حنزابة من الحفاظ الثقات المتبجحين بصحبةِ أصحاب الحديث مع جلالة ورئاسة، يروي ويملي بمصر في حال الوزارة، ولا يختار علىٰ العلم وصحبة أهله شيئًا[٥]، وعندي من أماليه فوائد ومن كلامه علىٰ الحديث وتصرفه الدال علىٰ حدة فهمه ووفور علمه»[٦].

---

(١) طبع في دار الحجاز بمصر حرسها الله.

(٢) البداية والنهاية (١٥/ ٢٤٨-٢٤٩).

(٣) ترتيب المدارك (٣/ ١٥٣).

(٤) تذكرة الحفاظ (٣/ ١٥١-١٥٢)، و«طبقات علماء الحديث» (٣/ ٢٢٠)، والحنزابة أمه كانت أم ولد، والده الفضل، وفي (اللغة): الحنزابة هي القصيرة الغليظة.

(٥) لله دره ورحمه الله وغفر له، وأكرم بهم من جماعة، وأكرم بتلك الصحابة والشرف.

(٦) الوافي بالوفيات (١١/ ٩٣).

ومنهم: **الحاجب أبو عامر محمد بن أبي عامر (ت٣٩٢هـ).** طلبَ الحديث في حداثته، وقرأ الأدب، وقيَّد اللغات علىٰ أبي علي البغدادي، وعلىٰ أبي بكر بن القوطية.

وقرأ الحديث علىٰ أبي بكر بن معاوية القرشي رَاوية النسائي، وغيره من رؤساء أهل المشرق[١].

وألَّف الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ) كتابه «المدخل إلىٰ الإكليل» **للأمير أبي علي بن سيمجور.**

قال الخليلي: «وصنَّف لأبي علي بن سيمجور كتابًا في أيام النبي ﷺ، وأزواجه، ومسنداته، وأحاديثه، وسماه الإكليل[٢]، لم أر أحدًا رتب ذلك الترتيب»[٣].

---

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (٢/ ٢٥٧).

(٢) وهو مطبوع في دار ابن حزم باسم (المدخل إلىٰ كتاب الإكليل).

(٣) الإرشاد في معرفة علماء الحديث (٣/ ٨٥٤)، قلت: والتصنيف للأمراء كثير، ومن ذلك: ألَّف ابن عساكر كتابًا في الجهاد للملك العادل نور الدين زنكي رحمه الله.
وكذلك القاضي ابن شداد ألَّف كتابًا في (الجهاد وفضائله وما يتعلق به) للسلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله.
وصنَّف الشيخ مجد الدين طاهر بن نصر الله بن جهبل الحلبي (ت٥٩١هـ) كتابًا في (فضائل الجهاد) لصلاح الدين أيضًا.
وجمع الفقيه القطب النيسابوري كتابًا في (العقيدة) فكان صلاح الدين يحفظها، ويحفظها من عقل من أولاده كما في «البداية والنهاية» (١٦/ ٦٥٧)، و«السلوك لمعرفة دول الملوك» (١/ ١٤٩). .
وألَّف الفخر الرازي كتابه (تأسيس التقديس) للملك العادل سيف أبو بكر بن أيوب (ت٦١٥هـ) كما في «نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر» لمرعي الكرمي (من مجموع رسائله) (٨/ ٦٨) ولما وصله جهزه إليه من خراسان. قيل: أنَّه سير إليه ألف دينار كما في «الوافي بالوفيات» (٢/ ١٦٩). =

. . . .

= وروي أنَّ الليث ابن المظفر بن نصر بن سيار صحب الخليل مدة يسيرة، وأنَّ الخليل عمل له كتاب (العين) وأحذاه طريقته، وعاجلت الخليل المنية فتممه الليث بن المظفر، كما في «الوافي بالوفيات» (١٣/ ٢٤٤).

ولما صنَّف أبو الريحان البيروني كتاب (القانون المسعودي) أجازه السلطان بحمل فيل من نقده الفضي فرده إلىٰ الخزانة بعذر الاستغناء عنه، وكان مكبًا علىٰ تحصيل العلوم، ولا يكاد يفارق القلم يده، ولا عينه النظر في الكتب. كما في «الوافي بالوفيات» (٨/ ٩٢).

وألف أحمد بن الحسين بن محمد بن مسلم بن شهاب المكي الشافعي المعروف بابن العُلَيف (ت٩٢٦هـ)، كتابًا سمَّاه (الدرر المنظوم) للسلطان بايزيد عثمان، كما في «البدر الطالع» (١/ ٤١).

وألف أبو السعود أفندي (ت٩٨٢هـ)، تفسيره المشهور، في مجلدين ضخمين، وسمَّاه (إرشاد العقل السليم إل مزايا الكتاب الكريم)، يقول الشوكاني عنه كما في «البدر الطالع» (١/ ١٨٢): «وهو من أجل التفاسير، وأحسنها، وأكثرها تحقيقًا وتدقيقًا، وأهداه للسلطان سليمان خان؛ فأنعم عليه بنعم عظيمة، وزاد في معلومه اليومي زيادة واسعة، وكان قد تناهت عظمته في الممالك الرومية، وصار المرجع في جميع ما يتعلق بالعلم».

وأهدىٰ الكرجي مؤلفيه: «الفخري في الجبر والمقابلة» و«الكافي في الحساب» لأبي غالب محمد بن علي ابن خلف الملقب بفخر الملك (ت٤٠٧هـ) وزير بهاء الدولة البويهي، وكان فخر الملك أعظم وزراء آل بويه علىٰ الإطلاق بعد ابن العميد وابن عباد كما وصفه الصفدي في «الوافي بالوفيات»؛ وربط المؤرخون اسم فخر الملك بكتابي الكرجي.

وصنَّف النسائي (السنن الكبرىٰ) وأهداها لأمير الرملة كما مرَّ ذكره.

وألف أبو علي الفارسي كتابًا في (النحو) لعضد الدولة بن بويه.

وألَّف الجويني العقيدة النظامية للوزير العالم نظام الملك، وهي في الاعتقاد الأشعري.

وألَّف شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني الواسطية لقاضي من واسط، وهي عقيدة سلفية بشهادة الذهبي وابن رجب وغيرهم من العلماء، وتصنيف العلماء للأمراء كثير، وحصره عسير، وهذا نتف منه، والله المعين.

ومنهم: يعيش بن محمد بن يعيش السدي (ت٤١٨هـ). من أهل طليطلة؛ يكنىٰ: أبا بكر.

رویٰ عن: أبيه وغيره.

وله رحلة إلىٰ المشرق لقي فيها ابن أبي زيد وغيره.

وكانت له عناية كبيرة بالعلم، وكان حافظًا للفقه، ذاكرًا للمسائل. تولَّىٰ الأحكام ببلده، ثمَّ صار إليه تدبير الرياسة به[1].

ومنهم: أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله بن المعتضد بن الأمير أبي أحمد الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور (ت٤٢٢هـ). كان رَحِمَهُ اللَّهُ محبًا لأهل العلم والدين والصلاح، يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، وكان علىٰ طريقة السلف في الاعتقاد، وله في ذلك مصنفات كانت تقرأ علىٰ النَّاس، وكان أبيض، حسن الجسم، طويل اللحية عريضها يخضبها، وكان يقوم الليل، كثير الصدقة، محبًا للسنَّة وأهلها، يبغض البدعة والقائمين بها، وكان يكثر الصوم، ويبر الفقراء من أقطاعه، يبعث منه إلىٰ المجاورين بجامع المنصور وجامع الرصافة، وكان يخرج من داره في زي العامة، فيزور قبور الصالحين[2].

وعدَّه ابن الصلاح في الفقهاء الشافعية[3].

وقال الخطيب البغدادي: وكان صنَّف كتابًا في الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة علىٰ ترتيب مذهب أصحاب الحديث، وأورد في كتابه فضائل عمر بن عبد العزيز، وإكفار المعتزلة والقائلين بخلق القرآن، وكان الكتاب يقرأ كل جمعة في حلقه أصحاب الحديث بجامع المهدي ويحضر

---

(١) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس (١/ ٦٥٠).

(٢) البداية والنهاية (١٥/ ٦٣٧)، وانظر: «المنتظم» (٧/ ١٦١).

(٣) تاريخ الإسلام (٩/ ٣٧٤)، و«السير» (١٥/ ١٢٧).

الناس سماعه[١].

ومنهم: الأمير المقتدر الحسن بن عيسىٰ بن المقتدر بالله العباسي (ت٤٤٠هـ).

سمع من: مؤدبه؛ أحمد بن منصور اليشكري، ومن أبي الأزهر عبد الوهاب الكاتب.

قال الخطيب: «كتبنا عنه، وكان دينًا، حافظًا لأخبار الخلفاء، عارفا بأيام النَّاس، فاضلًا»[٢].

ومنهم: أبو العباس ابن أمير المؤمنين القائم بأمر الله عبد الله ابن القادر بالله أحمد. (ت٤٤٧هـ)

قال ابن خيرون: «ولد سنة إحدىٰ وثلاثين وأربعمائة، وخطب له بولاية العهد سنة أربعين، ولقب ذخيرة الدين، فأدركه أجله في ثامن عشر ذي القعدة، وكان قد ختم القرآن، وحفظ الفقه، والعربية، والفرائض»[٣].

ومنهم: نظام الملك (ت٤٥٨هـ).

قال شقيقه عبد الله بن علي: «كان أخي نظام الملك يملي الحديث بالريِّ»، فلمَّا فرغ قال: «إنِّي لست أهلًا لما أتولاَّه من الإملاء، لكنِّي أريد أن أربط نفسي علىٰ قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ»[٤].

ومنهم: العالم العباسي بن المهتدي بالله محمد بن علي بن محمد الهاشمي (ت٤٦٥هـ).

---

(١) تاريخ بغداد (٥/ ٦١).

(٢) تاريخ الإسلام (٩/ ٥٨٩)، و«تاريخ بغداد» (٣٨٢٨) (٨/ ٣٣٧).

(٣) تاريخ الإسلام (٩/ ٧٠٠).

(٤) طبقات الشافعية (٤/ ٣١٨).

قال الحافظ الذهبي: «الإمام، العالم، الخطيب، المحدث الحجة، مسند العراق، أبو الحسين محمد بن علي بن محمد بن عبيد الله بن عبد الصمد بن محمد ابن المهتدي بالله أمير المؤمنين محمد ابن الواثق هارون بن المعتصم الهاشمي، العباسي، البغدادي، المعروف بابن الغريق سيد بني هاشم في عصره»[١].

وقال الخطيب: «كان ثقةً نبيلًا، ولي القضاء بمدينة المنصور، وهو ممَّن شاعَ أمره بالعبادة والصلاح، حتىٰ كان يُقال له: (راهب بني هاشم)، كتبت عنه»[٢].

ومنهم: الخليفة بأمر الله عبد الله ابن القادر بالله بن إسحاق العباسي (ت٤٦٧هـ). وكان مليحًا وسيما أبيضَ بحمرة، قويَّ النَّفس، دينًا ورِعًا متصدقًا، له يدٌ في الكتابة والأدب، وفيه عدلٌ وسماحةٌ[٣].

ومنهم: الوزير أبو شجاع محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم الروذراوري (ت٤٨٨هـ). كان رجلًا فاضلًا، أديبًا، له شعر كثير حسن، وقد كتب إليه أبو الحسن محمد بن علي بن أبي الصقر الواسطي يلتمسُ شعره لينظر فيه[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٤١).

(٢) تاريخ بغداد (١١/ ١٠٨).

(٣) السير (١٥/ ١٣٨).

(٤) طبقات الشافعية (٥/ ١٣٦-١٤٠)، ومن أخباره كما في (المصدر نفسه): كان لا يخرجُ من بيته حتىٰ يقرأ شيئًا من القرآن ويصلي، وكان يصلي الظهر ويجلس للمظالم إلىٰ وقت العصر وحجابه تنادي: أين أصحاب الحوائج.

قال النقلة: فلم يطمع في أيَّامه طامع، ولم يحدثْ نفسَهُ بالظلم ظالم.

وأمَّا ما كان يفعله من صنائع البر والتنوع في صلة المعروف فعجيب كثير، وحكي أنَّه استدعىٰ بعض أخصائه في يوم بارد، وعرض عليه رقعة من بعض الصالحين يذكر فيها أنَّ في الدار الفلانية امرأة معها أربعة أطفال أيتام، وهم عراة جياع. =

سمع الحديث من جماعة منهم: أبو إسحاق الشيرازي، وصنَّف كُتبًا منها كتابه الذي ذيلَّه علىٰ «تجارب الأمم»[(١)].

وقال الذهبي: «وكان كاملًا في فنون، وله يدٌ بيضاء في البلاغة والبيان، وكتابته طبقة عالية علىٰ طريقة ابن مقلة»[(٢)].

ومنهم: الأمير المرابطي ميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتوني (ت٥٣٠هـ) سمعَ العلم، وكانت له رحلة حجَّ فيها، وسمع بمكة من أبي عبد الله الطبري صحيح مسلم في (سنة ٤٩٧هـ) وسمع بها أيضًا من أبي مكتوم بن أبي ذر الهروي صحيح البخاري في أصلِ أبيه أبي ذر، وابتاعه منه بمال جليل، وهو الذي أوصله إلىٰ المغرب[(٣)].

ومنهم: المستنجد بالله، أبي المظفر يوسف بن المقتفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت٥٥٥هـ)** وكان شيخًا كبيرًا، له سماع بالحديث[(٤)].

ومنهم: الوزير العالم **ابن هبيرة (ت٥٦٠هـ)**. طلب العلم، وجالس

= فقال له: امضِ الآن وابتع لهم جميع ما يصلح لهم، ثمَّ خلع أثوابه وقال: واللهِ لا لبستها، ولا أكلت؛ حتىٰ تعود وتخبرني أنَّك كسوتهم وأشبعتهم.
وبقي يرعد بالبرد إلىٰ حيث قضىٰ الأمر وعاد إليه وأخبره.

(١) المنتظم لابن الجوزي (١٧/ ٢٢).

(٢) السير (١٩/ ٢٨-٣٠)، ومن أخباره كما في المصدر نفسه: قيل: إنَّه أمر ليلةً بعمل قطائف، فلمَّا أحضرت، تذكر نفوس مساكين تشتهيها، فأمر بحملها إلىٰ فقراء وأضراء.
وقيل: أحصي ما أنفقه علىٰ يد كاتب له، فبلغ أزيد من مائة ألف دينار.
وقال العماد في «الخريدة»: «وكان عصره أحسن العصور، وزمانه أنضر الازمان، ولم يكن في الوزراء من يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله، صعبًا شديدًا في أمور الشرع، سهلًا في أمور الدنيا، لا تأخذه في الله لومة لائم».

(٣) التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (٢/ ١٩٧).

(٤) البداية والنهاية (١٦/ ٣٩٤).

الفقهاء، وتفقَّه بأبي الحسين ابن القاضي أبي يعلىٰ والأدباء، وسمع الحديث، وتلا بالسبع، وشارك في علوم الإسلام، ومهر في اللغة، وكان يعرف المذهب، والعربية، والعروض، سلفيًا أثريًا.

له كتبٌ منها: كتاب «الإفصاحُ عن معاني الصحاح» شرح فيه الصحيحين في عشر مجلدات، وألَّف كتاب «العبادات» علىٰ مذهب أحمد، وله أرجوزةٌ في «المقصور والممدود»، وأخرىٰ في «علمِ الخط»، واختصرَ كتاب «إصلاح المنطق» لابن السكيت[(١)].

وذكر بأنَّ مجلسه كان غاصًا بولاة الدين والدنيا، والأعيان الأماثل وابن شافع يقرأ عليه الحديث، إذ فجأنا من باب الستر وراء ظهر الوزير صراخ بشع وصياح يرتفع، فاضطرب له المجلس، وارتاع الحاضرون، والوزير ساكن ساكت، حتىٰ أنهىٰ ابن شافع قِرَاءَةً الإسناد ومتنه. ثم أشار الوزير إلىٰ الجماعة علىٰ رسلكم، ثم قام ودخل إلىٰ الستر ولم يلبث أن خرج، فجلس وتقدم بالقراءة، فدعا له ابن شافع والحاضرون، وقالوا: قد أزعجنا ذلك الصياح، فإن رأىٰ مولانا أن يعرفنا سببه، فقال الوزير: حتىٰ ينتهي المجلس. وعاد ابن شافع إلىٰ القراءة حتَّىٰ غابت الشَّمس وقلوب الجماعة متعلقة بمعرفة الحال، فعاودوه، فقال: كان لي ابن صغير مات حين سمعتم الصياح، ولولا تعين الأمر عليَّ بالأمر بالمعروف في الإنكار عليهم ذاك الصياح لما قمت عن مجلس رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فعجب الحاضرون من صبره[(٢)].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/٤٢٦و ٤٣٠)، وقد صنَّف في سيرته عبيد الله بن علي بن نصر بن حمرة بن علي بن عبيد الله البغدادي التيمي المعروف بابن المارستانية، كما في «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/٥٤٢-٥٤٣).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢/١٣٩-١٤٠).

ومنهم: **الملك العادل نور الدين زنكي (ت٥٦٩هـ)**. حكىٰ تاج الدين، قال: ما تبسم **نور الدين** إلا نادرًا، حكىٰ عن جماعة من المحدثين أنهَّم قرؤوا عليه حديث التبسم، فقالوا له: تبسم.

قال: «لا أبتسم من غير عجب».

قلت -الذهبي-: الخبر ليس بصحيح، ولكن التبسم مستحب، قال النبي ﷺ: «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**»(١).

ونقل سبط ابن الجوزي قائلًا: حتىٰ روىٰ حديث المصطفىٰ ﷺ وأسمعه، وكان قد استجيز له ممَّن سمعه وجمعه حرصًا منه علىٰ الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث، ورجاء أن يكون ممَّن حفظ علىٰ الأمة أربعين حديثًا كما جاء في الحديث، فمن رآه شاهد من جلال السَّلْطنة وهيبةِ المملكة ما يبهره، فإذا فاوضه رأىٰ من لطافتهِ وتواضعه ما يحيِّره، يحبُّ الصالحين ويؤاخيهم، ويزورهم في أماكنهم لحُسْن ظنِّه فيهم.

وكان عارفًا بمذهب أبي حنيفة، وليس عنده تعصُّب علىٰ أحدٍ، والمذاهب كلّها سواء(٢). وصنَّف كتاب سيرة النَّبيِّ ﷺ(٣)، وكتابًا في الجهاد(٤).

قال ابنُ الأثير: كان مجلسُ نور الدين مثل مجلس رسول الله ﷺ لا يُسمع فيه لأحدٍ كلمة إلا مفيدة، فلما ملك صلاحُ الدِّين دمشق حضر الحافظ ابنُ عساكر مجلسه، فسمع لَغَطًا كثيرًا، وكلٌّ واحدٍ يتحدَّث مع الآخر، وليس للمجلس هيبة، فبكىٰ الحافظ، وقال: يرحم الله نور الدين،

(١) السير (٢٠/ ٥٣٨).
(٢) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (٢/ ١٥٨).
(٣) مرآة الزمان (٢١/ ٢٠٨).
(٤) المصدر نفسه (٢١/ ٢١١).

لقد حضرت مجلسه مرارًا، فما سمعتُ أحدًا ينطق إلا جوابًا، فما هذا اللَّغط! وبلغ صلاح الدين فقال: «إذا حضر الحافِظُ عندنا فلا يتكلَّمَنَّ أحدٌ بكلمة»[١].

وقال عنه المقريزي (ت٨٤٥هـ): «أوَّل من بنىٰ دار حديث علىٰ وجهِ الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق»[٢].

ومنهم: الأمير والشاعر أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ). سمع منه: أبو القاسم بن عساكر الحافظ، وأبو سعد ابن السمعاني، وأبو المواهب بن صصرىٰ، والحافظ عبد الغني، وولده الأمير أبو الفوارس مرهف، والبهاء عبد الرحمن، وشمس الدين محمد بن عبد الكافي، وعبد الصمد بن خليل بن مقلد الصائغ، وعبد الكريم بن نصر الله بن أبي سراقة، وآخرون[٣].

ومنهم: الأمير موسك بن جكو (ت٥٨٥هـ) خال السلطان صلاح الدين. كان حافظًا للقرآن سامعًا للحديث، وكان محسنًا إلىٰ الناس، ملازمًا للسلطان في غزواته، وكان ديِّنًا صالحًا جوادًا[٤].

ومنهم السلطان المظفر صلاح الدين (ت٥٨٩هـ) وأخوه الملك العادل (ت٦١٥هـ) حضرا عند الحافظ أبي طاهر السِّلفي (ت٥٧٦هـ) لسماع الحديث، فتحدثا، فأظهر لهما الكراهة، وقال: أنتما تتحدثان، وحديث النبي ﷺ يقرأ؟! فأصغيا عند ذلك.

---

(١) مرآة الزمان (٢١/ ٢٠٤و٢٠٦و٢١١و٢٢٢)، وقارنه بـ «التاريخ الباهر» (ص١٧٢-١٧٣)، و«الروضتين» (١/ ٤٩)، و«سيرة الملك العادل» (ص١٢٨-١٢٩).

(٢) حسن المحاضرة (٢/ ٢٤٠).

(٣) تاريخ الإسلام (١٢/ ٧٧٠).

(٤) النجوم الزاهرة (٦/ ١١٠).

قلت -الذهبي-: وقد حدَّث السلطان عنه[١].

وقال جمال الدين أبو عبد الله المازني في «مفرج الكروب» ثمَّ رحل إلىٰ ثغر الإسكندرية وتردد إلىٰ الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي رحمه الله في كل جمعة ثلاثة أيام: (الخميس، والجمعة، والسبت)، **وإنَّما استصحب ولديه** في هذه السفرة ليسمعهما الحديث النبوي وتعمهما البركة[٢].

وقال القاضي الفاضل (ت٥٩٦هـ) في بعض «رسائله»: «ما أعلم أنَّ لملك رحلة قط في طلب العلم إلا **للرشيد، فإنَّه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ علىٰ مالك** رحمه الله قال: وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين، وقال: ثمَّ رحل لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب إلىٰ الإسكندرية، فسمعه علىٰ بن طاهر بن عوف، ولا أعلم لهما ثالثًا»[٣].

وقال بهاء الدين ابن شداد: «وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتىٰ سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير؛ فإن كان ممن يحضر عنده استحضره، وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالًا له»[٤].

وقال: «ولقد قرئ عليه جزآن من الحديث بين الصفين، وذلك أني قلت له: قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة، ولم ينقل أنه سمع

(١) السير (٢١/٢٨)، و«تذكرة الحفاظ» (٤/٦٦).

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٢/٥٦).

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص٢٩٦) ط: ابن حزم.

(٤) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (ص٣٦).

بين الصفين؛ فإن رأىٰ المولىٰ أن يؤثر عنه ذلك كان حسنًا فأذن في ذلك فأحضر جزؤه كما أحضر من له به سماع فقرأ عليه، ونحن علىٰ ظهور الدواب بين الصفين نمشي تارة ونقف أخرىٰ»[١].

ورحل لسماع الموطأ من إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسىٰ بن عوف، الإسكندري، الفقيه المالكي (ت٥٨١هـ)[٢].

وقال ابن الأثير: «لم يلبس شيئًا ممَّا ينكره الشرع، وكان عنده علم ومعرفة، وسمع الحديث وأسمعه، وبالجملة كان نادرًا في عصره، كثير المحاسن والأفعال الجميلة، عظيم الجهاد في الكفار، وفتوحه تدل علىٰ ذلك، وخلف سبعة عشر ولدا ذكرًا»[٣].

ومنهم: الملك العادل سيف أبو بكر بن أيوب (ت٦١٥هـ). كان ملكًا عظيمًا ذا رأي ومعرفة تامة، حازمًا صالحًا، محافظًا علىٰ الصلوات في أوقاتها، متَّبِعًا لأرباب السنة، مائلًا للعلماء[٤].

ومنهم: عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي الملك المظفر صاحب حماة **(ت٥٨٧هـ)**. سمع من: السلفي، وابن عوف، وروىٰ شيئًا من شعره[٥].

---

(١) المصدر نفسه (ص٥١).

(٢) تاريخ الإسلام (١٢/ ٧٢٤).

(٣) الكامل في التاريخ (١٠/ ١١٩-١٢٠)، والذي يظهر بالبحث والقراءة في التراجم أنَّ الأيوبيين كان لديهم في الجملة حرص علىٰ سماع الحديث وحبٍ للعلماء، وكانوا علىٰ مذهب الشافعي سوىٰ السلطان عيسىٰ بن العادل فإنَّه علىٰ مذهبِ أبي حنيفة النعمان، ومن عنايتهم بسماع الحديث، نذكر جملة منهم ليتبين صدق الذي ذكرناه، وفي مقدمتهم، السلطان المظفر صلاح الدين كما مرَّ ذكره، وقد حررت ذلك في كتابي (العذب المعين في ترجمة السلطان المظفر صلاح الدين).

(٤) نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر (٨/ ٦٨).

(٥) السير (٢١/ ٢٠٢).

ومنهم: الملك الطاهر بن الملك النَّاصر صلاح الدين (ت٦١٣هـ) بنىٰ المدرسة الظاهرية البرانيَّة خارج باب النصر. درَّس بها كثير من المشاهير منهم: إمام الدين وجلال الدين القزويني، وابن صصري، وابن جملة(١).

وسمع الملك الظاهر من: أبي الطاهر بن عوف، وعبد الله بن بري النحوي، والفضل ابن البانياسي، وحدث.

قال سبط الجوزي: «كان مهيبًا سائسًا، فطنًا، دولته معمورة بالعلماء، مزينة بالملوك والأمراء، وكان محسنًا إلىٰ الرعية، وشهد معظم غزوات والده، وكان يزور الصالحين، ويتفقدهم، وله ذكاء مفرط، مات بعلة الذرب»(٢).

ومنهم: ناصر الدين الملك الكامل محمد ولد العادل (ت٦٣٥هـ)، وهو الذي عمَّر قبَّة الإمام الشافعي، وأجرىٰ إليها الماء من بركة الحبش، والمدرسة القصرين المعروفة بالكامليَّة، وهي دار الحديث.

وله الأوقاف الجزيلة علىٰ أنواع البر، وكان معظَّمًا للسنَّة أهلها(٣).

ومنهم: السلطان الملك المعظم عيسىٰ بن العادل (ت٦٥٦هـ). كان عالمًا فاضلًا متفننًا في الفقه والنحو وغيرهما، وشيخه في النحو وعلم الأدب الشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي، وكان شيخه في الفقه الإمام جمال الدين الحصيري.

وكان ملوك -بني أيوب- كلهم شافعية، وانفردَ هو بالانتماء إلىٰ

---

(١) خطط الشام (٦/ ٨١).

(٢) السير (٢١/ ٢٩٧-٢٩٨).

(٣) نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر (٨/ ٧٠).

مذهب أبي حنيفة[١].

كان شجاعًا باسلًا، عالمًا فاضلًا، اشتغل في الفقه علىٰ مذهب أبي حنيفة علىٰ الحصيري مدرس النورية، وفي اللغة والنحو علىٰ تاج الدين الكندي، وكان محفوظه (مفصل الزمخشري)، وكان يجيز من حفظه بثلاثين دينارًا، وكان قد أمر أن يجمع له كتاب في اللغة يشمل (صحاح الجوهري)، و(الجمهرة) لابن دريد، و(التهذيب) للأزهري وغير ذلك، وأمر أن يرتب له مسند الإمام أحمد.

وكان يحب العلماء ويكرمهم، ويجتهد في متابعة الخير، ويقول: «أنا علىٰ عقيدة الطحاوي». وأوصىٰ عند وفاته ألا يكفن إلا في البياض، وأن يلحد له، ويدفن في الصحراء، ولا يبني عليه، وكان يقول: «واقعة دمياط أدخرها عند الله تعالىٰ، وأرجو أن يرحمني بها». يعني أنَّه أبلىٰ فيها بلاءً حسنًا رَحِمَهُ اللَّهُ[٢].

ومنهم: يوسف بن شيخ الشيوخ، صدر الدين أبي الحسن محمد بن عمر بن علي بن محمد بن حمويه (ت٦٤٧هـ).

الأمير الكبير، الوزير، مقدم جيوش الإسلام الصالحيَّة، فخر الدين أبو الفضل الجويني، أحد من دان له العباد والبلاد

وسمع: منصور بن أبي الحسن الطبري، ومحمد بن يوسف الغزنوي، وغيرهما، وحدث[٣].

---

(١) ذكره تقي الدين الغزي (ت١٠١٠هـ) في «الطبقات السنية في تراجم الحنفية» (ص٢٧٥) «فقيه، أديب، واسع النفس، مُحبًا للعُلماء، مُقربًا لهم، مُحسنًا إلىٰ من يقدم عليه منهم، كثير العطاء لهم».

(٢) البداية والنهاية (١٧/ ١٦٧-١٦٨).

(٣) طبقات الشافعية (٨/ ٣٦٣).

ومنهم: الأمير الكبير العالم المحدث أبو موسىٰ الأمير علم الدين التركي البرلي، علم الدين الدواداري (ت٦٩٨ أو ٦٩٩هـ) سمع علىٰ المحدث المعمر أبي العباس اللواتي أحمد بن محمد بن حسن بن علي بن تامتيت الفاسي المغربي (ت٦٥٧هـ)[(١)].

وسمع أيضًا: من عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد الله، شمس الدين، أبو محمد بن اللمط الجذامي (ت٦٥٧هـ)[(٢)]. قلت: سمع علىٰ جماعة ذكرهم الذهبي في (تاريخ الإسلام)، وقال عنه: «قرأ لنا عليه البرزالي جزءًا»[(٣)].

وكان الملك المؤيّد هزبر الدّين داود ابن الملك المظفّر يوسف بن عمر بن رسول (ت٧٢١هـ) التّركمانيّ الأصل، اليمني المولد والمنشأ والوفاة، صاحب ممالك اليمن.

تفقّه وحفظ كفاية المتحفّظ ونهاية المتلفّظ في اللغة، ومقدّمة ابن بابشاذ، وبحث التنبيه، **وطالع وسمع الحديث**، وجمع الكتب النفيسة فىٰ سلطنته، حتىٰ قيل: إنّ خزانة كتبه اشتملت علىٰ مائة ألف مجلّد، وكان مشكور السّيرة، محبّا لأهل الخير[(٤)].

---

(١) تاريخ الإسلام (١٤/ ٨٥٨).

(٢) المصدر نفسه (تاريخ الإسلام) (١٤/ ٨٦١).

(٣) المصدر نفسه (ترجمته) (١٥/ ٨٨٥) وفي «أعيان العصر» (٢/ ٤٦٠) في وصف (الدواداري) «كان سهل الخلق، شجاعًا فارسًا، مجادلًا لأهل العلم ممارسًا، خيرًا دينًا، كاملًا صينًا، مليح الكتابه، سريع الإقبال والإجابه، يحفظ الكتاب العزيز، ويؤثر تلاوته علىٰ الإبريز، فيه اصطناع للفضلاء، وتقديم للنبلاء، أنشأ جماعة من الأفاضل وقدم زمرة ممَّن يناظر أو يناضل». وبنىٰ المدرسة(الدوادارية)، وتعرف بالمدرسة (البكرية).

(٤) الوافي بالوفيات (١٣/ ٣١٧)، و«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» (٩/ ٢٥٣).

و(حفظ مقدمة ابن بابشاذ) في النحو، و(كفاية المتحفظ) في اللغة، وسمعَ مِن المحب الطبري، وغيره.

وأهديت له نسخة من الأغاني بخطِ ياقوت الحموي فبذلَ فيها مائتي دينار مصريَّة، ولشعراء عصره فيه مدائح، واشتملت خزانة كتبه علىٰ مائتي ألف مجلد[(١)].

ومنهم: **الملك المنصور سيف الدين الناصري (ت٧٣١هـ)**، نائب الممالك الإسلامية. ولاه السلطان الملك الناصر النيابة بمصر، وكان رئيسًا كبيرًا في بيت أستاذه يخضع له الكبار ويقولون بمقالته، وكان فصيحًا، مليح الشكل، أنبل الناصرية وأميزهم.

تفقه لأبي حنيفة، وأذنوا له بالإفتاء، واستنسخ فتاوىٰ ابن قاضي خان، وعلم النَّاسُ رغبته فيها فجبيت إليه ثمراتها من كلِّ فجٍ.

قال الصفدي: قال لي الشيخ فتح الدين ابن سيد النَّاس كان يعرف مذهب أبي حنيفة ودقائقه، ويقصر فهمه في الحساب إلىٰ الغاية.

وسمع: من ابن الشحنة البخاري بقراءة فتح الدين، وكتبهُ بخطه في مجلدة واحدة في الليل علىٰ ضوء القنديل.

واقتنىٰ الكتب الكثيرة وغوي بها، وحصل منها جملة كبيرة إلىٰ الغاية[(٢)].

ومنهم: **الأمير ناصر الدين ابن الأمير بدر الدين جنكلي** ابن البابا الحنبلي (ت٧٤١هـ). كان أولًا قد اشتغل بمذهب أبي حنيفة، ثمَّ إنَّه تمذهب للإمام أحمد بن حنبل.

وأنشدَ من لفظهِ لنفسه غير مرة:

---

(١) البدر الطالع (١/ ٢٤٧-٢٤٨).

(٢) الوافي بالوفيات (٨/ ٢٣٢).

بِـك اسْـتـجـارَ الـحـنـبـلـي مـحـمـد بـنْ جـنْـكـلـي
فـاغـفِـر لَـهُ ذنـوبَـه فـأنْـتَ ذُو الـتَّـفـضـلِ

وخرَّج له شهاب الدين أحمد الدمياطي أربعين حديثًا، وحدث بها قبل موته، وأثنىٰ عليه الفاضل كمال الدين الأدفوني في تاريخه: «البدر السافر» ثناء كثيرًا[١].

ومنهم: سنجر الأمير علم الدين الجاولي (ت٧٤٥هـ). أميرًا كبيرًا من أمراء المشور الذين يجلسون في حضرة السلطان، سمع وروىٰ، وبزغ نجمه في الفضل وما هوىٰ.

انتفع به جماعة من الكتاب والعلماء، وزمرة من الكبراء والأمراء.

وقد وضع الأمير علم الدين شرحًا علىٰ مسند الإمام الشافعي ﷺ، وكان آخر وقت يفتي ويخرج خطه بالإفتاء علىٰ مذهب الشافعي، ولم يزل علىٰ حاله إلىٰ أن جاء ولي الموت إلىٰ الجاولي فتلقاه بالكرامه، وراح إلىٰ الله علىٰ طريق السلامه[٢].

ومنهم: شاه شجاع بن محمد بن مظفر ملك شيراز وعراق العجم (ت٧٨٧هـ). اشتغل بالعلم، واشتهار بقوة الفهم، ومحبة العلماء، وكان ينظم الشعر، ويحب الأدباء، وقُصِد من سائر البلاد، ويقال: أنَّه كان يقرأ الكشاف، وكتب منه نسخة بخطه الفائق، وكان يعرف الأصول والعربية، وله أشعار كثيرة بالفارسية[٣].

ونظم ابن الجزري (ت٨٣٣هـ) رحمه الله **نظمًا طويلًا** في مصطلح أهل الحديث والأثر، وهو المعروف بـ «الهداية في علم الرواية»، قائلًا فيه:

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر (٤/ ٣٧٩-٣٨٢).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٤٦٧-٤٧٠).
(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/ ٢٧٣).

نظمتها باسم الإِمَام العالِمِ أَبي مُحَمَّد الْمقر السَالِمِ

قال السخاوي في شرحه عليها المسمَّىٰ «الغاية في شرح الهداية في علم الرواية»: «والسالمي هذا هو: بليغًا الظاهري[1]، تأمر، وعمل الاستدارية[2]، والوزارة، والإشارة[3] وغيرها، وولىٰ نظر خانقاه سعيد السعداء، والشيخونية[4]، لازم الاشتغال بالعلم وأكثر من سماع الحديث، ولكنه لم يفتح عليه بشيء من ذلك سوىٰ أنَّه يصوم يومًا بعد يوم، ويكثر التلاوة، وقيام الليل، والذكر، والصداقة مع محبة العلماء والفضلاء»[5].

وكان الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا الظاهري[6]، وكان جامعًا بين فنون العلم والفروسيَّة والذكاء، والفصاحة وفنون السياسة وأنواع الكمال، قالوا: «لم يلِ مصرَ من يُشبهِهُ، بل ولا يقاربه»[7].

وكانت مجالس ختم الحافظ السخاوي (ت٩٠٢هـ) من المجالس العلمية المشهودة، والمحافل العلمية المحمودة، حيث يتناول فيها الحافظ السخاوي بعد الانتهاء من تدريس الكتاب طَرَفًا من منهج المؤلف في كتابه، وَيُبَيِّنُ خصائص الكتاب، ومزاياه، وَيُعَدِّدُ مناقب مؤلفه، وَيَسْرُدُ أسانيده إليه، وَيَنْثُرُ في غُضُونِ ذلك إفاداتٍ علميّة متنوعة، ولم يكن

---

(١) انظر: ترجمته في «خطط المقريزي» (٣/ ٤٠٢)، و«الضوء اللامع» (١٠/ ٢٨٩).

(٢) منصب وزاري في الدولة، فالاستادار هو ما يؤول إليه أمر البيوت السلطانية في كل تصرف من طعام وشراب، وإشراف علىٰ المصالح العامة والخاصة.

(٣) الظاهر أنَّ الإشارة منصب يُقصد به الإشارة علىٰ السلطان بما يصلح لتسيير شؤون الدولة.

(٤) وهي خانقاه شيخو توجد بالقاهرة، أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمري سنة ست وخمسين وسبعمائة، وجعل بها دروسًا للأئمة الأربعة. «خطط المقريزي» (٣/ ٤١٢).

(٥) انظر الغاية (١/ ٨٩-٩٠) ط: مكتبة العلوم والحكم. أثاب الله محقق الكتاب خيرًا.

(٦) وكان حكمه في سنة (٨٧٢هـ).

(٧) نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر (٨/ ١١٩).

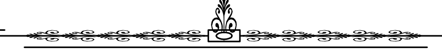
يَتَخَلَّفُ عن تلك المجالس كَبِيرُ أَحَدٍ، **فكان يحضرها الأمراء والأعيان**، وَتُنْشَدُ فيها القصائد.

يقول السّخاوي: «وكان لكثير من ذلك -أي الكتب التي أقرأها- ختوم حافلة، ورسوم أرجو أنْ تكون للقبولِ شاملة»[(١)].

وذكر المقريزي انتشار عقيدة الأشاعرة في بلاد المغرب، وثبات عقيدة الحنابلة، فقال: «فلمَّا عاد إلىٰ بلاد المغرب وقام في المصامدة يفقههم ويعلمهم، وضع لهم عقيدة لقفها عنه عامّتهم، ثمَّ مات فخلفه بعد موته عبد المؤمن بن عليّ القيسيّ، وتلقب بأمير المؤمنين، وغلب علىٰ ممالك المغرب هو وأولاده من بعد مدّة سنين، وتسموا بالموحدين، فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب تستبيح دماء من خالف عقيدة ابن تومرت[(٢)]، إذ هو عندهم الإمام المعلوم، المهديّ المعصوم، فكم أراقوا بسبب ذلك من دماء خلائق لا يحصيها إلّا الله خالقها ﷻ، كما هو معروف في كتب التاريخ، فكان هذا هو السبب في اشتهار مذهب الأشعريّ وانتشاره في أمصار الإسلام، بحيث نسي غيره من المذاهب، وجهل حتىٰ **لم يبق اليوم مذهب يخالفه، إلّا أن يكون مذهب الحنابلة أتباع الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل** رضي الله عنه، **فإنهم كانوا علىٰ ما كان عليه السلف**»[(٣)].



(١) انظر: مقدمة المحقق من كتاب الانتهاض في ختم «الشفا» لعياض (ص٤) ط: البشائر.
(٢) قلت هذا الكلام ليس علىٰ إطلاقه، فانتبه!
(٣) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٤/ ١٩٢).





[الفصل السادس:

من امتنع من المحدثين أن يحدث السلاطين والأمراء]

امتنع بعض أهل الحديث في الغالب تورعًا أن يحدثوا إلا من وجدوه من أهل الحرص، وأصحاب النية المرضية في طلبه[1]، وخشوا أن يضعوا الحديث عند غير أهله فيكون ذلك مضيعة له؛ وإن كان في الصورة قد بذلوه لغيرهم، ومع ذلك كانوا يخشون أن يكون ذلك مطعن ولمز بأهل الحديث؛ بسبب عدم تأدب هؤلاء الطالبين بأدبه، أو التخلق بأخلاق أهله، ولهذا قال مسلم بن إبراهيم: «طلبت الحديث، فلم أرَ أهل الحديث علىٰ مثل ما هم عليه اليوم»، ولولا أنِّي أقول: «إنهَّا سنة أحييها، وبدعة أميتها -لعلَّ الله أن يكفر عني بعض ما أنا فيه- ما حدثت»[2].

قلت: هو يتكلم عن أهل الحديث، فكيف بالله بغيرهم ممَّن خالط قلبه حب الدُّنيا ودرنها، والتعلق بها، والمنافسة عليها، والسعي لها!

وقال حميد بن عبد الرحمن الرؤاسي، سمعت الأعمش (ت١٤٨) يقول: «انظروا، لا تنثروا هذه الدنانير علىٰ الكنائس».

وقال: «لا تنثروا اللؤلؤ تحت أظلاف الخنازير»[3].

---

(١) قال أمير المؤمنين سفيان الثوري: «لو علمت أنَّ أحدًا يطلب الحديث لله، لصرت إليه في بيته فحدثته» أخرجه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (ص١٥٧)، ط: الناشر المتميز، والخطيب في «الجامع» (١/ ٣٣٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (ترجمة مسلم بن إبراهيم) (١٠/ ٣١٨).

(٣) السير (٦/ ٢٣٩-٢٣٠).

وللبيهقي (ت٤٥٨هـ) في «المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ» باب بعنوان: «من قال: من إضاعة العلم أنْ تحدثَ به غير أهله».

وكذا لابن مفلح (ت٧٦٣هـ) في كتابِهِ «الآداب الشرعية» فصلٌ بعنوان: «لا يودع العلم عند غير أهله». ممَّا يعني أنَّ المنع له محتمٌ، وهو مقرر في عرف المحدثين وكتبهم، والنصوص في هذا كثيرة ووفيرة، **وأنقل بأوجز اختصار**.

قال عبد الله بن الإمام أحمد حدثني أبي: قال سفيان: قال عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «للحكمة أهلٌ فإنْ وضعتَها في غيرِ أهلها ضِيعَت، وإن منعتها من أهلها ضيعَت، كنْ كالطبيب يضعُ الدواء حيث ينبغي»[1].

وقال كثير بن مرة الحضرمي: «لا تحدِّثْ بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقُتُوك، ولا تمنعِ العلم أهله فتأثم، ولا تحدث به غير أهله فتجهل، إنَّ عليك في علمك حقًا كما أنَّ عليك في مالك حقًا»[2].

وعن أرطاة بن أبي أرطاة: أنَّه سمع عكرمة (ت١٠٥هـ) يحدث القوم، وفيهم سعيد بن جبير (ت٩٥هـ)، وغيره، فقال: إنَّ للعلم ثمنًا، فأعطوه ثمنه.

قالوا: وما ثمنه يا أبا عبد الله؟

قال: «أن تضعه عند من يحسن حفظه ولا يضيعه»[3].

وقال الإمام الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٢٠٤هـ):

أأنثرُ درًّا بين سارحةِ النّعم ... أأنظمُ منثورًا لراعيةِ الغنم

---

(١) الآداب الشرعية (١٠٨/٢).
(٢) المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ (٦١٨)، وكثير تابعي مخضرم، أدرك سبعين بدريًا.
(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/٥).

ومَن منحَ الجهَّالَ عِلمًا أضاعَه ومَن منع المستوجبينَ فقد ظَلم[١]

قال أبو بكر الخطيب (ت٤٦٣هـ): «وكان بعض السلف يتمنع من التَّحديثِ إذا كان السامعُ ليس من أهلِ العلم»[٢].

ومن هنا يبين لنا موقفان مهمان:

الأول: أنَّ السلف حثوا وبينوا أنَّه لا يُحدِّث غير الثقة، ولا يعطىٰ العلم إلا من كان أهلًا له.

والثاني: التقييد بذلك، وتطبيقه قولًا وفعلًا.

فمن الأول: ما نقله القاسمي (ت١٣٣٢هـ) في «قواعد التحديث» عن أبي حامد الغزالي، في آداب المحدث، ومنها: «أن يلزم التواضع، ويكون مُعظَم ما يحدث به ما ينتفع المسلمون به من فرائضهم وسننهم وآدابهم في معاني كتاب ربهم ﷻ، ولا يحمل علمه إلىٰ الوزراء ولا يغشىٰ أبواب الأمراء؛ فإنَّ ذلك يزري بالعلماء، ويذهب بهاء علمهم إذا حملوه إلىٰ ملوكهم ومياسيرهم، ولا يحدث بما لا يعلمه في أصله، ولا يقرأ عليه ما لا يراه في كتابه، ولا يتحدث إذا قرئ عليه، ويحذر أن يدخل حديثًا في حديث»[٣].

وقال ابن جماعة الحموي (ت٧٣٣هـ) ﵀ في «تذكرة السامع والمتكلم» في (أدب العالم): «أن يصون العلم كما صانه علماء السلف، ويقوم له بما جعله الله تعالىٰ له من العزة والشرف، فلا يذله بذهابه ومشيه إلىٰ غير أهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة أو حاجة، أو إلىٰ من يتعلمه منه منهم، وإن عظم شأنه وكبر قدره.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (ص٢٣)، وهو في «السير» بأطول منه (١٠/ ٧١).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٢٠٥).

(٣) قواعد التحديث (ص٢٣٣).

وقال الزهري (ت١٢٤هـ): «هَوَانٌ بالعلم أن يحملَهُ العالـمُ إلىٰ بيتِ المتعلم».

وأحاديث السَّلفِ في هذا النَّوعِ كثيرة، وقد أحسن القائل -أبو شجاع الجرجاني-:

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ العِلْمِ مُهْجَتِي   لأَخْدُمَ مَنْ لاقيْتُ لَكِنْ لأُخْدَمَا
أَأَشقَىٰ بِهِ غَرْسًا وأَجْنِيهِ ذِلَّةً   إِذًا فاتباعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ صانُوهُ صَانَهُمْ   وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

فإنْ دعت حاجة إلىٰ ذلك أو ضرورةٌ، أو اقتضتْهُ مصلحةٌ دينيَّةٌ راجحة علىٰ مفسدةٍ: بذله، وحَسُنت فيه نيَّةٌ صالحةٌ؛ فلا بأس بهِ إن شاء الله تعالىٰ. وعلىٰ هذا يحمل ما جاء عن بعض أئمة السَّلف من المشي إلىٰ الملوك وولاة الأمر كالزهريِّ والشَّافعي وغيرهما؛ لا علىٰ أنهَّم قصدوا بذلك فُضُول الأغراض الدنيوية»[(١)].

ومن الثاني: صنيع الإمام العلم الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» ووضعه لباب في كتابه، سمَّاه بـ «من كان لا يحدث السلاطين».

ثـمَّ ساق بسندهِ، عن الحجاج بن حمزة، قال: أتىٰ ابن المبارك ابن والي خراسان فسأله أن يحدثه، فأبىٰ عليه ولم يحدثه، فلمَّا خرج خرج معه ابن المبارك إلىٰ باب الدار، فقال له: يا أبا عبد الرحمن سألتك أن تحدثني فلم تحدثني، وخرجت معي إلىٰ باب الدار.

فقال: «أمَّا نفسي فأهنتها لك، وأمَّا حديث رسول الله ﷺ فإنِّي أجلّه عنك»[(٢)].

---

(١) تذكرة السامع (ص٤٩).

(٢) وما فعله ابن المبارك هو حق الضيافة أن يخرج مع ضيفه للباب ثم يودعه، وأما عدم تحديثه فلما ذكرنا، والله أعلم.

■ وعن محمد بن هارون، نا أبو صالح الفراء، قال: قيل لفضيل بن عياض (ت١٨٧هـ): لِم لا تحدث جعفر بن يحيىٰ؟

قال: «أنا أُجِلُّ حديث رسول الله ﷺ أنْ أحدث به جعفر بن يحيىٰ».

■ وعن جعفر بن حمدويه، قال: «كنَّا بالكوفة علىٰ باب قبيصة بن عقبة، ومعنا دلف بن أبي دلف بن عبد العزيز، ومعه الخدم، فأبطأ قبيصة بالخروج، فدنا خادم وقال: ابن ملك الجبل علىٰ الباب وأنت تبطئ فخرج وعليه إزارٌ وفي طرفهِ كسر، فقال: «من رضي من الدنيا بهذا إيش يعمل بابن ملك الجبل، والله لا حدثته، ودخل ورد الباب».

وعن عبد الله بن كامل، عن مالك، أو غيره، قال: لما دخل ربيعة (ت١٣٦هـ) علىٰ الوليد بن يزيد وهو خليفة، قال: يا ربيعة حدثنا، قال: «ما أحدث شيئًا»، قال: «فلمَّا خرج من عنده» قال: ألا تعجبون من هذا الذي يقترح علي كما يقترح علىٰ المغنية: حدثنا يا ربيع.

■ وعن شَرِيك، قال: كان أبو جعفر المنصور قد استخفىٰ عند رجل فأكرمه، فلمَّا أفضت الخلافة إليه قدم عليه ذلك الرجل يهنئه فأكرمه أبو جعفر، وقال له: «سل حاجتك».

فقال له: أنت تعلم أنَّي من الله في نعمة، ما لي حاجة إلا أنَّي أشتهي أن يحدثني الأعمش، فاكتب إليه كتابًا ليحدثني، فكتب له أبو جعفر كتابًا بخطه إلىٰ الأعمش يعرفه فيه وجوب حقه عليه، ويأمره بأن يحدثه، فلمَّا مضىٰ الرجل بالكتاب وافىٰ باب الأعمش فدقه، وكان الأعمش يكره أن يدق عليه بابه فقال: من ذا؟ ادخل، فدخل والأعمش، يلخف كسبًا للشاة، فقال له: ما لك؟

فقال: هذا كتاب أمير المؤمنين إليك، فقال: هاته فأخذه، ثم قال: يا بسرة -يعني أن اسم الشاة بسرة- فرفعت رأسها، فجعل يضفرها الكتاب حتىٰ أكلته، ثم قال: إيش فيه؟

قال: فيه أن تحدثني.

فقال: ما أحدثك بحرف؟

فقال: سبحان الله يا أبا محمد يكتب إليك أمير المؤمنين في شيء فلا تفعله، فقال: «والله ما أحدثك، ولا أحدث قومًا أنت فيهم»(١). حتىٰ كان بعضهم يقول: «ليت أنِّي كنت شاة الأعمش»(٢).

وصدق عيسىٰ بن يونس (ت١٨٧هـ) إذ قال: «ما رأيتُ الأغنياءَ والسَّلاطين عند أحدٍ أحقرَ منهم عند الأعمش مع فقرِه وحاجتِه»(٣).

قلت: وأمَّا ما حكي أنَّ الأعمش لما بلغه ولاية الحسن بن عمارة مظالم الكوفة، فقال: «ظالمنا وابن ظالمنا، ولي مظالمنا»، ثمَّ قال بعد يسير -وقد جهز المشار إليه شيئًا-: «صالحنا وابن صالحنا، ولي مصالحنا».

قال الحافظ السخاوي ﵀ عن ذلك: «فأحسبه غير صحيح، ثمَّ ساق الأثر الذي نقله عيسىٰ بن يونس، والله أعلم»(٤).

وأنا أذكر تبعًا لمن ذكرهم الخطيب، فمن الذين امتنعوا أن يحدثوا أو تكلموا فيمن داخل السلطان: الإمام محمد بن سيرين (ت١١٠هـ).

قال علي بن المديني: سمعت يحيىٰ بن سعيد يقول: «كان محمد ابن سيرين لا يرضىٰ حميد بن هلال (ت١٢٠ هـ تقريبًا)».

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٣٣٦-٣٣٧).

(٢) رسائل الجاحظ (١/ ١٤٥).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٣٥٦).

(٤) الإعلان بالتوبيخ (ص٦٦) ط: الكتاب العربي.

قال أبو محمد بن أبي حاتم: فذكرت ذلك لأبي، فقال: «دخل في شيء من عمل السلطان فلهذا لا يرضاه»، وكان في الحديث ثقة[(١)].

وامتنع البعض أنْ يأخذوا الحديث عن الزهري (ت١٢٤هـ)، قال الذهبي: «بعض من لا يعتد به لم يأخذ عن الزهري؛ لكونِه كان مداخلًا للخلفاء، ولئن فعل ذلك، فهو الثبت الحجة، وأين مثل الزهري -رَحِمَهُ اللَّهُ؟»

وعن سلام بن أبي مطيع: عن أيوب السختياني، قال: لو كنت كاتبًا عن أحد، لكتبت عن ابن شهاب.

قلت -الذهبي-: «قد أخذ عنه أيوب قليلًا»[(٢)].

وامتنع جماعة من أهل الحديث أن يأخذوا الحديث عن الإمام الفقيه المسعودي أبي محمد عبد الرحمن بنُ عبدِ اللَّه بن عُتبة بن عبد الله بن مسعود الهُذَليُّ الكوفي (ت١٦٠هـ)[(٣)].

قال الحافظ ابن عبد الهادي في «طبقاته»: «وكان مُداخلًا للدَّولة، يلبس قَباءً أسود، وفي وسطه خِنْجر، وعلىٰ رأسه الطَّويلة، فتوقف بعضُ العلماء في الأخذ عنه لذلك، وقد تغيَّر بعض حفظه في الآخر»[(٤)].

---

(١) الجرح والتعديل (٣/ ٢٣٠)، و«تهذيب الكمال» (٧/ ٤٠٥) بتصرف، و«هدي الساري» (ص٧٤٠)، وهو في «الفتح» (١/ ٣٩٩-٤٠٠). قال الذهبي عن حميد في «السير» (٥/ ٣١١): «الظاهر أنَّه بقي إلىٰ قريب سنة عشرين ومائة».

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٣٩).

(٣) سمع منه: عَون بن عبد الله، وعليِّ بن الأقمر، وعلقمة بن مَرْثَد، وسعيد بن أبي بُردة، وزِياد بن عِلاقة، وعَمرو بن مرّة، وغيرِهم.
وعنه: ابنُ المبارك، وابنُ عُيينة، وابنُ مهدي، وأبو المغيرة الحِمصي، ويزيدُ بن هارون، وجعفرُ بنُ عَون، وأبو داود، وأبو نعيم، والمقرئ، وعلي بن الجَعْد، وخلق.

(٤) طبقات علماء الحديث (١/ ٢٩٦-٢٩٧).

ومنهم: حميد الطويل ترك حديث زائدة بن قدامة (ت١٦١هـ).

قال ابن حجر: «إنَّما تركه لدخولهِ في شيءٍ من أمر الخلفاء»[١].

ومنهم: حماد بن سلمة (ت١٦٧هـ).

قال مقاتل ابن صالح الخراساني صاحب الحميدي بمكة: دخلت علىٰ حماد بن سلمة، فإذا ليس في البيت إلا حصير وهو جالس عليه، ومصحف يقرأ فيه، وجراب فيه علمه، ومطهرة يتوضأ فيها، فبينا أنا عنده جالس إذ دق داق الباب فقال: يا صبية اخرجي فانظري من هذا؟

قالت: هذا رسول محمد بن سليمان.

قال: قولي له يدخل وحده، فدخل فسلم وناوله كتابه، فقال: اقرأه فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن سليمان إلىٰ حماد بن سلمة: أمَّا بعد فصبحه الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته، وقعت مسألة فائتنا نسألك عنها.

قال: يا صبية هلمي الدواة، ثمَّ قال: لي اقلب الكتاب، واكتب أمَّا بعد: وأنت فصبَّحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته، إنَّا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحدًا، فإن وقعت مسألة فائتنا فسلنا عمَّا بدا لك، وإن أتيتني فلا تأتني إلا وحدك، ولا تأتني بخيلك ورجلك فلا أنصحك، ولا أنصح نفسي، والسلام.

فبينا أنا عنده إذ دق داق الباب، فقال: يا صبية اخرجي فانظري من هذا؟

قالت: هذا محمد بن سليمان.

قال: قولي له يدخل وحده، فدخل فسلم، ثمَّ جلس بين يديه، ثمَّ ابتدأ، فقال: ما لي إذا نظرت إليك امتلأت رعبًا؟!

---

(١) فتح الباري (١/ ٣٩٩).

فقال حماد: سمعت ثابتًا البناني يقول: سمعت أنس بن مالك ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ العالم إذا أراد بعلمه وجه الله هابه كل شيء، وإذا أراد أن يكنز به الكنوز هاب من كل شيء**»[١].

وقال البخاري: سمعت آدم بن أبي إياس يقول: شهدت حماد بن سلمة ودعوه، يعني: -السلطان- فقال: أحمل لحية حمراء إلىٰ هؤلاء؟ لا والله لا فعلت[٢].

ومنهم: الإمام مالك إمام دار الهجرة (ت١٧٩هـ). فإنَّه تكلم في الإمام عبد الله بن ذكوان (ت١٣٠هـ) قال ابن حجر: «يقال: لدخوله في عمل السلطان»[٣].

وأخرج ابن فهر في كتاب «الفضائل مالك»، وابن عساكر، من طريق عبد الله بن رافع قال: قدم هارون الرشيد المدينة فوجَّه البرمكي إلىٰ مالك وقال له: احمل إليَّ الكتاب الذي صنَّفته حتىٰ أسمعه منك.

فقال للبرمكي: أقرئه السلام، وقل له: «إنَّ العلم يزار ولا يزور، وإنَّ العلم يؤتىٰ ولا يأتي»[٤].

---

(١) تاريخ دمشق وللقصة بقية (٥٣/ ١٣٢-١٣٣)، والحديث لا يصح.

(٢) تهذيب الكمال (٧/ ٢٦٦).

(٣) هدي الساري (ص٧٥٩).

(٤) وفي «الحلية» (٣/ ١٣٧-١٣٨)، و«السير» (٤/ ٣٨٨)، عن عبد الرحمن بن أردك -يقال: هو أخو علي بن الحسين لأمه- قال: «كان علي بن الحسين يدخل المسجد، فيشق الناس حتىٰ يجلس في حلقة زيد بن أسلم.
فقال له نافع بن جبير: غفر الله لك، أنت سيد الناس، تأتي تتخطىٰ حتىٰ تجلس مع هذا العبد!
فقال علي بن الحسين: العلم يبتغىٰ ويؤتىٰ ويطلب من حيث كان».

فرجع البرمكي إلىٰ هارون فقال له: يا أمير المؤمنين يبلغ أهل العراق أنَّك وجهت إلىٰ مالك فخالفك، اعزم عليه حتىٰ يأتيك؛ فإذا بمالك قد دخل، وليس معه كتاب، وأتاه مسلمًا فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ الله جعلك في هذا الموضع لعلمك؛ فلا تكن أنت أول من يضع العلم فيضعك الله، ولقد رأيت من ليس في حسبك، ولا بيتك يعز هذا العلم ويجله، فأنت أحرىٰ أن تعز وتجل علم ابن عمَّك، ولم يزل يعدد عليه من ذلك حتىٰ بكىٰ هارون..[1].

وكتب مالك إلىٰ الرشيد: إذا علِمتَ علمًا فَلْيُرَ عليك أثرُهُ، وسكينتُهُ، وسمتُهُ، ووقارُهُ، وحلمُهُ لقوله ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**»[2].

وقال هارون الفروي: سمعت مصعبًا يقول: سأل هارون الرشيد مالك بن أنس -وهو في منزله ومعه بنوه- أن يقرأ عليهم.

فقال: ما قرأت علىٰ أحدٍ منذ زمان، وإنَّما يقرأ عليَّ.

فقال: أخرج النَّاس عنَّي حتىٰ أقرأ أنا عليك؟

فقال: إذا منع العام لبعض الخاص لم ينتفع الخاص فأمر معن بن عيسىٰ فقرأ عليه[3].

وعن الحسين بن علي قال: لما حجَّ هارون قدم المدينة بعث إلىٰ مالك بكيس فيه خمس مائة دينارٍ، فلمَّا قضىٰ نسكه وانصرف وقدم المدينة بعث إلىٰ مالك أنَّ أمير المؤمنين يحب أن تنتقل معه إلىٰ مدينة السلام، فقال للرسول: قلْ له: إنَّ الكيس بخاتمه، وقال رسول الله ﷺ: «**والمدينة**

---

(١) الدر المنثور في تفسير الآية (٩٥) من سورة النساء (٢/ ٦٤٠-٦٤١).

(٢) تذكرة السامع (ص٤٩).

(٣) ذم الكلام وأهله للهروي (٥/ ٨٨-٨٩)، وهو في «مقدمة المجروحين» لابن حبان (ص١٣٩)، وضمن المطبوع (١/ ٤٤) وسنده حسن.

خير لهم لو كانوا يعلمون»[(١)].

وعن عبد الرحمن بن القاسم قال: سألت مالكًا عمَّن يحدث بالحديث الذي قالوا: إنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته، فأنكر ذلك مالك إنكارًا شديدًا، ونهىٰ أن يتحدث به أحد، فقيل له: إنَّ ناسًا من أهل العلم يتحدثون به؟

فقال: من هم، فقيل: محمد بن عجلان، عن أبي الزناد، فقال: لم يكن يعرف ابن عجلان هذه الأشياء، ولم يكن عالمًا، وذكر أبو الزناد فقال: «إنَّه لم يزل عاملًا لهؤلاء حتىٰ مات، وكان صاحب عمال يتبعهم»[(٢)].

ومنهم: الإمام ابن المبارك (ت١٨١هـ) يمتنع عن التحديث لأنَّ الراوي يسكن بغداد التي هي مجمع وظائف الدولة وأعوان الحاكم، كما قال عبيد بن جناد: «عرضت لابن المبارك فقلت: أملِ عليَّ فقال: أقرأت القرآن؟

قلت: نعم.

قال: أقرأ، فقرأت عشرًا.

فقال: هل علمت ما اختلف الناس فيه من الوقوف والابتداء؟

قلت: أبصر الناس بالوقوف والابتداء.

فقال: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾.

قلت: آية.

قال: فالألفاظ؟

---

(١) جامع بيان العلم (١١٢٥).

(٢) الضعفاء الكبير (٢/ ٢٥١).

قلت: عبقري وعباقري، ورفرف ورفارف، وسرق وسرق.

قال: فالحديث سمعته من أحد غيري؟

قلت: نعم.

قال: فحدثني قال فحدثته في المناسك بأحاديث، فقال لي أحسنت ثمَّ قال: أخرج الواحك فأخرجت، ثم قال لي من أين أنت؟

قلت: من بغداذ.

قال: قم.

قال: قلت هل رأيت إلا خيرًا؟

قال: قم.

قلت: امرأة الآخر طالق ثلاثًا إنْ قمت، أو تمل عليَّ وتفتيني وتغنيني، أقولها أربعًا قال: اكتب:

أيُّها القارئ الذي لبس الصوف ... وأمسىٰ يعد في الزهاد

الزم الثغر والتواضع فيه ... ليس بغداد منزل العباد

إنَّ بغداد للملوك محل ... ومناخ للقارئ الصيادِ

قلت: من الناس؟

قال: العلماء.

قلت: من الملوك؟

قال: الزهاد.

قلت: من الغوغاء؟

قال: هرثمة وخزيمة بن خازم[1].

(١) من القواد المشهورين أيام المأمون.

قلت: من السفل؟

قال: من باع دينه بدنيا غيره»[١].

ومنهم: ابن علية (ت١٩٣هـ). قيل لابن علية في حديثٍ كان يرويه خالد بن مهران الحذاء فلم يلتفت إليه ابن علية، وضعف أمر خالد.

قال ابن حجر: قرأت بخط الذهبي ما خالد في الثبت بدون هشام بن عروة وأمثاله.

قلت: والظاهر أنَّ كلام هؤلاء فيه من أجل ما أشار إليه حماد بن زيد من تغير حفظه بآخره، أو من أجل دخوله في عمل السلطان، والله أعلم[٢].

وقال إبراهيم بْن يعقوب الجوزجاني: سألت مُحَمَّد بْن المبارك الصوري عن عَمْرو بن واقد القرشي.

فقال: «كان يتبع السلطان، وكان صدوقًا»[٣].

وكان **الإمام وكيع بن الجراح (ت١٩٦ أو ١٩٧هـ)** لكون والده كان علىٰ بيت المال يقرن معه آخرٌ إذا روىٰ عنه[٤].

وقال الآجري: سمعت أبا داود يقول: «كان وكيع لا يحدث عن هشيم؛ لأنَّه كان يخالط السلطان»[٥].

---

(١) المحدث الفاصل (ص١٨٤-١٨٦)، و«الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ٨٥)، والقاضي عياض في «الإلماع» (١٩٥) (ص٣١٦-٣١٨). وأحيلك أيضًا إلىٰ قصة أبي العيناء محمد بن القاسم مع عبد الله بن داود الخريبي كما في «تاريخ بغداد» (٤/ ٢٨٤).

(٢) تهذيب التهذيب (٣/ ١٠٤).

(٣) تهذيب الكمال (٢٢/ ٢٨٦).

(٤) الإعلان بالتوبيخ للسخاوي (ص٦٦)، و«السنة قبل التدوين» لابن عجاج (ص٢٣٣).

(٥) سؤالات أبي عبيد الآجري أبا داود السجستاني (ص١٣٢-١٣٣).

وعن صالح بن أحمد بن حنبل، قال: قلت لأبي: أيُّهما أصلحُ عندك؛ وكيعٌ أو يزيدُ؟ -يعني ابن هارون- قال: «ما فيهما بحمد الله إِلا كلٌّ إلا إنَّ وكيعًا لم يختلط بالسُّلطان»[١].

ومنهم: القاسم بن سلَّام (ت٢٢٤هـ)، قال ابن عرعرة: كان طاهر بن عبد الله ببغداد، فطمع في أن يسمع من أبي عبيد، وطمع أن يأتيه في منزله، فلم يفعل أبو عبيد، حتىٰ كان هذا يأتيه، فقدم علي ابن المديني، وعباس العنبري، فأرادا أن يسمعا غريب الحديث، فكان يحمل كل يوم كتابه ويأتيهما في منزلهما، فيحدثهما فيه[٢].

ومنهم: بشر بن الحارث (ت٢٢٧هـ). عن مفلح بن الأسود، قال: قال المأمون ليحيىٰ بن أكثم: إنِّي أشتهي أن أرىٰ بشر بن الحارث. قال: إذا اشتهيت يا أمير المؤمنين، فإلىٰ الليلة ولا يكون معنا بشر. فركبا، فدق يحيىٰ الباب.

فقال بشر: من هذا؟

قال: من تجب عليك طاعته.

قال: وأي شيء تريد؟

قال: أحب لقاك.

فقال بشر: طائعًا أو مكرهًا.

قال: ففهم المأمون، فقال ليحيىٰ: اركب فمرَّ علىٰ رجل يقيم الصلاة صلاة العشاء الآخرة فدخلا يصليان فإذا الإمام حسن القراءة فلمَّا أصبح المأمون وجه إليه، فجاء به فجعل يناظره في الفقه، وجعل الرجل

(١) الجرح والتعديل (١/ ٢٢٣).

(٢) تاريخ بغداد (١٤/ ٣٩٢).

يخالفه، ويقول: القول في هذه المسألة خلاف هذا فغضب المأمون. فلما كثر خلافه.

قال: عهدي بك، كأنك تذهب إلىٰ أصحابك فتقول: خطأت أمير المؤمنين.

فقال: والله يا أمير المؤمنين إني لأستحي من أصحابي أن يعلموا أني جئتك!

فقال المأمون: الحمد لله الذي جعل في رعيتي من يستحي أن يجيئني، ثم سجد لله شكرًا. والرجل إبراهيم بن إسحاق الحربي(١).

ومنهم: الإمام أحمد (ت٢٤١هـ). كما ذكره ابن عبد الهادي في «طبقات علماء الحديث» في ترجمة الحافظ أبي عبد الله الرباطي، وذلك قد ولاه ابن طاهر أمر الرباط، فلهذا لما دخل إلىٰ أحمد بن حنبل لم يبش به، وقال: «هل بدَّ من أنْ يقال غدًا: أين ابن طاهر وأتباعه؟ فانظر أين تكون»(٢).

ولما سُئِل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن أحمد بن عبد الملك بن واقد الأسدي شيخ البخاري.

فقال: قد كان عندنا، ورأيته كيسًا وما رأيت بأسًا، رأيته حافظًا لحديثِهِ وما رأيت إلا خيرًا، وهو صاحب سنة.

قال: فقلت أهل حران يسيؤون الثناء عليه.

قال: «أهل حران قلَّ ما يرضون عن إنسان، هو يغشىٰ السلطان بسبب ضيعة له»(٣).

---

(١) أخرجه ابن النجار في «تاريخه»، كما نقله السيوطي في «ما رواه الأساطين» (ص٥٨).

(٢) طبقات علماء الحديث (٢/ ٢٢٠).

(٣) تهذيب الكمال (١/ ٣٩٣)، و«مقدمة فتح الباري» (١/ ٣٨٧).

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: قال أبي: «كان خالد الطحان ثقة، رجلًا صالحًا له في دينه صلاح، بلغني أنَّه اشترىٰ نفسه من الله ثلاث مرات».

وقال: وسألت أبي عن خالد الطحان وهشيم -بن بشير الواسطي-؟ فقال: خالد أحب إلينا خالد لم يتلبس من السلطان بشيءٍ[1]. ومع ذلك روىٰ عن هشيم كما في «مسنده» (٢٩٢) حديثًا[2].

وفي رواية المروذي وقد سأله: يكتب عن الرجل إذا كان جنديًا، فقال: أمَّا نحن فلا نكتب عنهم.

وقال أحمد في رواية إبراهيم بن الحارث: «إذا كان الرجل في الجند لم أكتب عنه»[3].

ومنهم: الإمام البخاري (ت٢٥٦هـ). كما قال غنجار في «تاريخه»: سمعت أبا عمرو أحمد بن محمد المقرئ، سمعت بكر بن منير بن خليد بن عسكر يقول: بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارىٰ إلىٰ محمد بن إسماعيل أن احمل إليَّ كتاب (الجامع) و(التاريخ) وغيرهما لأسمع منك.

فقال لرسوله: أنا لا أذل العلم، ولا أحمله إلىٰ أبواب الناس، فإن كانت لك إلىٰ شيء منه حاجة، فاحضر في مسجدي، أو في داري، وإن لم يعجبك هذا فإنك سلطان، فامنعني من المجلس، ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة، لأنِّي لا أكتم العلم لقول النبي ﷺ: «**من سئل عن**

---

(١) العلل ومعرفة الرجال (٩٦٨) و(١/ ٤٣٤).

(٢) انظر: المحدثون والسياسة للعجلان بخصوص هذا وغيره مما هو متعلق بالباب (ص٢٦٥).

(٣) العدة (٣/ ٩٥٢)، و«المسودة» (١/ ٥٣٢)، و«الجامع لعلوم الإمام أحمد» (١٥/ ٤٤٩).

علمٍ فكتمه **ألجم بلجامٍ مِن نار**» فكان سبب الوحشة بينهما هذا[١].

ومثله الإمام سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني (ت٢٧٥هـ)، قال الخطابي: حدثني عبد الله بن محمد المسكي، حدثني أبو بكر بن جابر خادم أبي داود رحمه الله قال: كنت مع أبي داود ببغداد، فصلينا المغرب، فجاءه الأمير أبو أحمد الموفق -يعني: ولي العهد- فدخل، ثمَّ أقبل عليه أبو داود، فقال: ما جاء بالأمير في مثل هذا الوقت؟

قال: خلال ثلاث.

قال: وما هي؟

قال: تنتقل إلىٰ البصرة فتتخذها وطنًا، ليرحل إليك طلبة العلم، فتعمر بك، فإنها قد خربت، وانقطع عنها الناس، لما جرىٰ عليها من محنة الزنج.

فقال: هذه واحدة.

قال: وتروي لأولادي (السنن).

قال: نعم، هاتِ الثالثة.

قال: وتفرد لهم مجلسًا، فإنَّ أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة.

قال: أمَّا هذه فلا سبيل إليها، لأنَّ النَّاسِ في العلم سواءٍ.

قال ابن جابر: فكانوا يحضرون ويقعدون في كم حيري، عليه ستر، ويسمعون مع العامة[٢].

ومنهم أبو حازم. عن ابن زيد بن أسلم عن أبيه قال: كنت مع أبي حازم في الصائفة فأرسل عبد الرحمن بن خالد (الأمير)

---

(١) السير (١٢/ ٤٦٤)، و«تاريخ بغداد» (١٦/ ٩).

(٢) السير (١٣/ ٢١٦)، وانظر: «طبقات الشافعية» للسبكي (٢/ ٢٩٥-٢٩٦).

-وكان أصلح من بقي من أهل بيته إلىٰ أبي حازم- أن ائتنا حتىٰ نسائلك وتحدثنا.

فقال أبو حازم: «معاذ الله أدركت أهل العلم لا يحملون الدين إلىٰ أهل الدنيا؛ فلن أكون بأول من فعل ذلك، فإن كانت لك حاجة فأبلغنا»؛ فتصدىٰ له عبد الرحمن وسأل عنه، وقال له: قد ازددت علينا بهذا كرامة[١].

ومنهم الإمام أحمد بن صالح المصري امتنع أن يحدث الإمام أحمد بن شعيب النسائي صاحب السنن (ت٣٠٣هـ)، والسبب فيه: أنَّه لا يحدث أحدًا حتىٰ يشهد عنده رجلان من المسلمين أنَّه من أهل الخير والعدالة، فكان يحدثه ويبذل له علمه، وكان يذهب في ذلك مذهب زائدة بن قدامة، فأتىٰ النسائي ليسمع منه، فدخل بلا إذن، ولم يأته برجلين يشهدان له بالعدالة، فلما رآه في مجلسه، أنكره، وأمر بإخراجه.

وأحمد هذا رحمه لله امتنع أن يحدث ابنًا للإمام أبي داود الذي مرَّ ذكره، قال الخطيب: بلغني أنَّ أحمد بن صالح كان لا يحدث إلا ذا لحية، ولا يترك أمرد يحضر مجلسه، فلما حمل أبو داود السجستاني إليه ابنه ليسمع منه -وكان إذ ذاك أمرد- أنكر أحمد بن صالح علىٰ أبي داود إحضاره.

فقال له أبو داود: هو -وإن كان أمرد- أحفظ من أصحاب اللحىٰ، فامتحنه بما أردت.

فسأله عن أشياء أجابه ابن أبي داود عن جميعها، فحدثه حينئذ، ولم يحدث أمرد غيره[٢].

---

(١) تاريخ دمشق (٣٤/ ٣٣٤)، ولا أعلم هل هو المتوفىٰ سنة (١٣٣أو ١٣٥أو١٤٤هـ).

(٢) تاريخ بغداد (٤/ ٢٠١)، و«السير» (١٢/ ١٦٨-١٦٩).

ومثله أيضًا لما أتىٰ الحارث بن مسكين (ت٢٥٠هـ) في زي أنكره، عليه قلنسوة وقباء، وكان الحارث خائفًا من أمور تتعلق بالسلطان، فخاف أن يكون عينا عليه، فمنعه، فكان يجيء فيقعد خلف الباب ويسمع، ولذلك ما قال: حدثنا الحارث وإنَّما يقول: «قال الحارث بن مسكين قراءة عليه وأنا أسمع»(١).

قلت: والنسائي رَحِمَهُ اللَّهُ من العلماء الأثرياء كما ذكره المزي وغيره، فربما لاحت عليه مراسم الإمرة فظُنَّ به هذا، والله أعلم.

ومنهم: عبد الله بن مفوز بن أحمد بن مفوز المعافري: من أهل شاطبة، يكنىٰ: أبا محمد (ت٤٧٥هـ). روىٰ عن الحافظ أبي عمر بن عبد البر النمري كثيرًا، ثمَّ زهد فيه لصحبته السلطان(٢).

ويستثنىٰ من ذلك إذا كان الشيخ ثقة، كما قال عبد الله بن نصر الكوفي: قيل لعبد الله بن المبارك: نأخذ عن شبيب بن شيبة وهو يدخل علىٰ الأمراء؟ فقال: خذوا عنه فإنَّه أشرف من أن يكذب(٣).

(ملحق): وعن صالح بن أحمد بن حنبل، قال: قلت لأبي: أيُّهما أصلحُ عندك؛ وكيعٌ أو يزيدُ؟ -يعني ابن هارون- قال: ما فيهما بحمد الله إلا كلٌّ إلا إنَّ وكيعًا لم يختلط بالسُّلطان(٤).

قال حماد بن سلمة: ما كنَّا نشبه شمائل إسماعيل ابن علية إلا بشمائل يونس، حتىٰ دخل فيما دخل فيه.

قلت -الذهبي-: يريد ولايته الصدقة، وكان موصوفا بالدين،

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٣٠).

(٢) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس (ص٢٧٤).

(٣) تهذيب الكمال (١٢/ ٣٦٤).

(٤) الجرح والتعديل (١/ ٢٢٣).

والورع، والتأله، منظورا إليه في الفضل والعلم، وبدت منه هفوات خفيفة، لم تغير رتبته -إن شاء الله-[١].

وحدثت عن أبي مسهر أنَّه قيل له: ما تقول في ابن علاق؟

قال: كان ثقة في طلب العلم، ونسبه لنا. فقال عثمان بن حصين بن عبيدة بن علاق.

قلت له: فما تقول في إبراهيم بن أبي شيبان؟

فقال: ثقة.

فقلت له: ما تقول في مدرك بن أبي سعد؟

فقال: صالح.

قيل له: فما تقول في سليمان بن عتبة؟

فقال: ثقة.

قيل لأبي مسهر إنَّه يسند أحاديث عن أبي الدرداء -رضي الله عنه-، قال: هي يسيرة وهو ثقة، ولم يكن له عيبٌ إلا لصوقه بالسلطان[٢].

وعن محمد بن يوسف قال: سمعت الأوزاعي -وسأله رجل-: أيُّهما أحب إليك سليمان الخواص أو إبراهيم بن أدهم؟

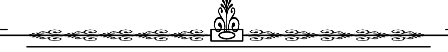
فقال: إبراهيم أحب إليَّ؛ لأنَّ إبراهيم يختلط بالنَّاسِ وينبسط إليهم[٣].

---

(١) السير (٩/ ١١٠).

(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١/ ٢٨٩)، وبنحوه مختصرًا في «تاريخ دمشق» (٣٨/ ٣٣٠)، و«تهذيب الكمال» (١٩/ ٣٥٢).

(٣) الجرح والتعديل (١/ ٢٠٦)، (ص٤٤٢).





[الفصل السابع:

صور من عناية الحكام بالعلماءِ]

وقد كان لحكام المسلمين عناية عجيبة، وأحوال ظريفة، بأهل العلم؛ من تصديرهم، ومد العون لهم، ورفع منزلتهم، والأخذ برأيهم واستشارتهم، وبناء المدارس لهم، وغير ذلك من أنواع العناية والاهتمام. وكما قيل: «كل عز لا يوطده علم مذلة، وكل علم لا يؤيده عقل مضلة».

وقال بعض علماء السلف: «إذا أراد الله بالنَّاس خيرًا جعل العلم في ملوكهم، والملك في علمائهم»[(١)].

قال حاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ): «والحق أنَّ أعظم الأسبابِ في رواج العلم وكساده، هو رغبة الملوك في كل عصر وعدم رغبتهم فإنا لله وإنا إليه راجعون»[(٢)].

وصدق:[(٣)] فلا يخفىٰ أنَّ أعظم عوامل رواج سوق العلم: هو تشجيع السلاطين وتحفيز الدول، وقيامها بإكرام العلماء وتقديرهم، وقضاء حوائجهم، وتبويئهم المكان اللائق، والمكانة المرموقة، ممَّا يرغب الناس إلىٰ دفع أولادهم إلىٰ معاهد العلم، وتفريغهم لطلبه، والحرص عليه وقد

---

(١) أدب الدنيا (ص٧٩).

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (١/ ٣٤).

(٣) من هنا وبعد من مقدمة محققي التفسير البسيط للواحدي، وقد وجدتها نافعة في الباب فذكرتها في الكتاب (١/ ١٢٦).

حظي ذلك العصر بخلفاء ووزراء كانوا إمَّا: من العلماء، أو من المحبين للعلم المشاركين فيه.

فالخليفة القادر بالله يعد من فقهاء الشافعية، وله تصانيف[(١)]، والقائم بأمر الله يعد من العلماء الأدباء الكتاب البلغاء[(٢)].

والسلطان محمود بن سبكتكين (ت٤٢١هـ) كان عنده علم ومعرفة، وحب للعلم وأهله، وتقريب لهم، وكان مجلسه علىٰ الدوام عامر بهم علىٰ اختلاف فنونهم، وصنفت له التصانيف وسار ابنه السلطان مسعود سيرته[(٣)].

وكانت الدولة السلجوقية مشهورة بتكريم العلماء ومحبتهم[(٤)]، حتىٰ أصبح كل واحد من العلماء بفضل تشجيع سلطان من سلاطين السلاجقة

---

(١) ينظر: طبقات الشافعية لابن الصلاح (١/ ٣٢٤)، و«تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص٤١٧).

(٢) ينظر: الكامل (٨/ ١٢٠)، و«البداية والنهاية» (١٢/ ١١٠).

(٣) ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/ ٤٩٥) و«البداية والنهاية» (١٢/ ٢٨).

(٤) وفي (التاريخ الإسلامي الوجيز) لطقوش (ص١٨٨) «الواقع بأنَّ البويهيين الأوائل كانوا من كبار الأمراء، ولا شك بأنَّ الحضارة المادية والروحية للإسلام في العصر الوسيط قد بلغت في عهدهم درجة عالية من النمو، فعضد الدولة نفسه كان إدرايًا ممتازًا. وأعتنىٰ البويهيون بالناحية الاقتصادية بعامة، وحققوا في بلاد فارس بخاصة أعمالًا متقدمة في مجالي التنمية والاستثمار.
أما في المدن فقد أخضعوا لسلطانهم فئة العيارين، كما شيدوا المباني الكبرىٰ في أصفهان وشيراز وبغداد.
أما الناحية الدينية فقد كانوا علويين غلاة، واعتنوا أيضًا بالثقافة، فبسطوا رعايتهم علىٰ الآثار والعلماء الذين يمثلون الثقافة العربية الإسلامية، كما اهتموا اهتمامًا كبيرًا بنهضة الثقافة الفارسيَّة، وكان المراصد، والمكتبات، والمدارس، والمستشفيات التي أنشؤوها مثار إعجاب الجميع».

محطًّا لأنظار العالمين[١].

وأمَّا الوزير نظام الملك (ت٤٨٥هـ)، فقد كان عالمًا مغرمًا بالعلم وأهله، وقد بقيت جهوده وآثاره في ذلك شامة في جبين التاريخ الإسلامي، يقول أبو الوفاء بن عقيل في الثناء عليه: «بنىٰ المدارس، ووقَّف الوقوف، ونَعَش من العلم وأهله ما كان خاملًا مهملًا في أيام من قبله»[٢].

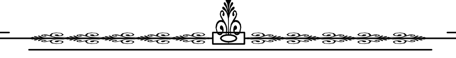
ويصفه العماد الأصفهاني قائلًا: «ولم يزل بابه مجمعَ الفضلاء وملجأ العلماء، وكان نافذًا بصيرًا ينقب عن أحوال كل منهم، ويسأل عن تصرفاته وخبرته ومعرفته، فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاّه، ومن رآه مستحقًا لرفع قدره رفعه وأعلاه، ومن رأىٰ الانتفاع بعلمه أغناه، ورتب له من جدواه حتىٰ ينقطع إلىٰ إفادة العلم ونشره، وتدريس الفضل وذكره، وربما سيَّره إلىٰ إقليم خال من العلم، ليُحْلِيَ به عاطله، ويحيي به حقه، ويميت باطله»[٣]. ومن أشهر أعماله: تلك المدارس التي بناها، وأدرَّ عليها الأرزاق، وأثثها بما تحتاج إليه.



(١) راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية للراوندي (ص٧٢).

(٢) المنتخب من السياق (ص١٤٦).

(٣) زبدة النصْرة للعماد الأصفهاني، اختصار البُنْداري (ص٥٧).





[الفصل الثامن:

عناية الملوك والحكام بالقرآن الكريم]

والقرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن عناية الأمراء بالقرآن حفظهم له، ومن هؤلاء: أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق[١]، وعمر بن عبد العزيز ﷺ، وعبد الملك بن مروان، وأبو جعفر المنصور، وهارون الرشيد، وهارون الرشيد، والمأمون، والمعتصم، والملك العادل محمود بن زنكي، والأمير علم الدين الدواداري[٢]. والسلطان المظفر صلاح الدين الأيوبي وكان مع **حفظه لكتاب الله**. محبًا لسماع القرآن العظيم، ويستجيد إمامه ويشترط أن يكون عالمًا بعلم القرآن العظيم متقنًا لحفظه، وكان يستقرئ من يحرسه في الليل وهو في برجه الجزئيين والثلاثة والأربعة وهو يسمع[٣]. واجتاز يومًا علىٰ صبي صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته، فوقف عليه وعلىٰ أبيه مزرعة[٤]. كان رقيق الدَّمعة، إذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبُه، وتدمع عينهُ في مُعْظم أوقاته[٥].

---

(١) أما الصحابة فهم كثر. وانظر: «حملة القران من الصحابة الكرام» للأستاذ محمد سادتي الشنقيطي.

(٢) انظر: من ضيع القرآن للدكتور شوقي أبو خليل (ص١٠٧-١٥٣).

(٣) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (ص٣٦).

(٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٦/ ٩).

(٥) الروضتين (٤/ ٣٨٤).

وقال عبيد الله العيشي (ت٢٢٨هـ): قال أبي: سمعت الأشياخ يقولون في (وصف دولة بني عباس): «والله لقد أفضت الخلافة إلىٰ بني العباس وما في الأرض أحد أكثر قارئًا للقرآن، ولا أفضل عابدًا ولا ناسكًا منهم»[١].

وكان لزبيدة زوج الرشيد في قصرها من الخدم والحشم والآلات والأموال ما يقصر عنه الوصف، من جملة ذلك مائة جارية كل منهن يحفظ القرآن، وكان يسمع من قصرها مثل دوي النحل من القراءة[٢].

وكان **نظام الملك السلجوقي** من أخلاقه أنَّه ما جلس قط إلا علىٰ وضوء، ولا توضأ إلا وتنفل، ويقرأ القرآن ولا يتلوه مستندًا إعظامًا له، ويستصحب المصحف معه أينما توجه، وإذا أذن المؤذن أمسك عن كل شغل هو فيه وأجابه، ويصوم يوم الاثنين والخميس[٣].

وكان **أحمد بن طولون** أطيب الناس صوتًا بالقراءة، فإنَّه حفظ القرآن وأتقنه، وطلب العلم، وتنقلت به الأحوال إلىٰ أن ملك مصر وعمره أربعون سنة[٤].

وممَّا جرىٰ للملك الأشرف **صلاح الدين خليل بن قلاون** السلطان أنَّه في بعض الأيام جالس في الميدان والقراء بين يديه يقرأون القرآن في خلوته، وكان والده يحاصر طرابلس، فقال: نصره الله تعالىٰ في هذه الساعة أخذت طرابلس، وشاع ذك عنه وذاع، وكان الأمر كذلك وذلك لأمر كشفه الله لذهنه الشريف وأطلعه عليه، وفيه يقول شمس الدين محمد بن سلمان بن غانم:

---

(١) تاريخ الخلفاء (ص٢٥٨).
(٢) الوافي بالوفيات (١٤/ ١١٩)، و«وفيات الأعيان» (٢/ ٣١٤).
(٣) طبقات الشافعية للسبكي (٤/ ٣١٣).
(٤) الوافي بالوفيات (٦/ ٢٦٦).

مـلـيـكـان قـد لـقِّـبـا بـالـصَّـلاح فَـهَـذَا خـلـيـلٌ وَذَا يُـوسُـف
فـيـوسـف لَا شـكَّ فِـي فَـضـلـه وَلَـكِـن خـلـيـلٌ هُـوَ الْأَشْـرَف[١]

وكان الملك المظفر عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر (ت٩٢٣هـ). قد نشأ في كفالة أبيه فحفظ القرآن، واشتغل قليلًا، ثمَّ ملك اليمن بعد أبيه.

وكان يحبُّ العلماء ويكرمهم، ويحب الكتب حتىٰ اهتمَّ بتحصيل (فتح الباري)، ولم يكن إذ ذاك باليمن، وكذلك كتاب (الخادم) للزركشي[٢].

ومن عنايتهم إكرامهم لأهله. قال الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما حسدت الحجاج عدو الله علىٰ شيء حسدي إيَّاه علىٰ حبه القرآن، وإعطائه أهله»[٣].

وقال سليمان بن عبد الملك: «اتخذوا كتاب الله إمامًا، وارضوا به حكمًا، واجعلوه قائدًا، فإنَّه ناسخ لما قبله، ولم ينسخه كتاب بعده»[٤].

وقال إبراهيم ابن أبي عبلة (ت١٥٢هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الوليد -بن عبد الملك-! وأين مثله؟ بنىٰ مسجد دمشق، وكان يعطيني قصاع الفضة، فأقسمها علىٰ قراء بيت المقدس»[٥].

وأتاه -أي الوليد- رجل من بني مخزوم يسأله في دينه، فقال: نعم،

---

(١) المصدر نفسه (١٣/ ٢٥٢)، فخليل هو ابن قلاون، ويوسف هو صلاح الدين الأيوبي.
(٢) البدر الطالع (١/ ٣٠٩).
(٣) البداية والنهاية (١٢/ ٥٤٩-٥٥٠).
(٤) البيان والتبيين (١/ ٢٥٠).
(٥) البداية والنهاية (١٢/ ٦٠٨).

إن كنت مستحقا لذلك، قال: يا أمير المؤمنين، وكيف لا أكون مستحقا لذلك مع قرابتي!

قال: أقرأت القرآن؟

قال: لا.

قال: ادنُ مني، فدنا منه، فنزع عمامته بقضيب كان في يده، وقرعه قرعات بالقضيب، وقال لرجل: ضم هذا إليك، فلا يفارقك حتىٰ يقرأ القرآن، فقام اليه عثمان ابن يزيد بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ عليَّ دينًا.

فقال: أقرأت القرآن؟

قال: نعم، فاستقرأه عشر آيات من الأنفال، وعشر آيات من براءة، فقرأ، فقال: نعم، نقضي عنكم، ونصل أرحامكم علىٰ هذا[1].

قال ابن المبارك: فما رأيت عالمًا ولا قارئًا للقرآن، ولا سابقًا للخيرات، ولا حافظًا للمحرماتِ بعد أيام رسول الله ﷺ، وأيام الخلفاء والصحابة **أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه**، لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثمان سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعلم، ويروي الحديث، ويجمع الدواوين، ويناظر المعلمين وهو ابن إحدىٰ عشرة[2].

ويذكر أنَّ الخليفة هارون الرشيد رحمه الله لما ولي العراق كان أول ما ابتدأ فيه النَّظر أن كتب إلىٰ الأمصار كلها، وإلىٰ أمراء الأجناد، أمَّا بعد: فانظروا من التزم الأذان عندكم، فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع

---

(١) تاريخ الرسل والملوك لابن جرير (٦/ ٤٩٦).

(٢) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (٢/ ١٥٧)، وهذا الكتاب لا يجزم بثوبته لابن قتيبة، وانظر: «العواصم من القواصم» (ص٢٤٧-٢٤٩)، و«حقبة من التاريخ» (ص٢٠-٢٢) ط: الدار العالمية.

القرآن وأقبل علىٰ طلب العلم وعمّر مجالس العلم، ومقاصد الأدب فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومن جمع القرآن، ورویٰ الحديث، وتفقه في العلم واستبحر، فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم، وفضلاء دهركم، فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم، فإنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ وهم أهل العلم.

وأكرم السلطان بايزيد الأول بن مراد الأول (ت٨٠٥هـ) المقرئ ابن الجزري (ت٨٣٣هـ)، وعظمه، فنشر هنالك علم القراءات والحديث، وانتفعوا به؛ فلمَّا دخل تيمورلنك بلاد الروم أخذه معه إلىٰ سمرقند فأقام بها ناشرًا للعلم، ثمَّ قدم دمشق سنة (٨٢٧)، ثمَّ القاهرة واجتمع بالسلطان الأشرف فعظمه وأكرمه، وتصدىٰ للإقراء والتحديث، ثمَّ عاد إلىٰ مكة ودخل اليمن فعظمه صاحبها وأكرمه، وأخذ عنه جماعة من علماء اليمن![(١)].

---

(١) البدر الطالع (٢/٢٥٨)، و[تتمة الفائدة، ولا أعلم من كتبها] رحل ابنُ الجزري إلىٰ مدينة بورصةَ واجتمع بالسلطان بايزيد، فطلب منه الإقامةَ بقصره، فاعتذر وقال: جئتُ لأنشرَ القراءاتِ وينتفع بي من لا يقدر الرحلةَ إلي.
عندما كان الإمام ابنُ الجزري ببورصةَ أمر السلطان بايزيد أولادَه الثلاثة الصغار «محمد ومصطفىٰ وموسىٰ» بالذهاب إليه، وملازمتِه والتعلُّمِ منه!
لازم أولادُ السلطان بايزيد ابنَ الجزري نحوًا من ٧ سنين، فتعلموا عندَه مختلفَ العلوم، حتىٰ إنه قال: صاروا يُكلموني بالعربية أحسنَ من أولادي!
قال السلطان العثماني بايزيد الأول للإمام ابن الجزري: إني جهزتُ جيشًا لفتح القسطنطينية فهل تكون معي؟ فأجابه ابنُ الجزري: بل أسبقك!
كان ابن الجزري مع السلطان بايزيد مرابطين لفتح القسطنطينية، فصار يُحدِّثه عن فضل الجهاد والشهادة، فأرسل السلطان وأحضر كلَّ أولاده للمعركة!
بعد أن رجع ابنُ الجزري من زيارة السلطان بايزيد الأول من بورصة مكتفيًا برعايته والإنفاق عليه ألَّف (النشرَ في القراءات العشر)، ونظم (طيبةَ النشر).

ومن صور عنايتهم بالقرآن: **العناية بعلومه وتفسيره، وما يتعلق به.** فهذا الصاحب ابن عباد الوزير (ت٣٨٥هـ) صنف كتابا فِي أَحْكَام الْقُرْآن[١].

ومنهم: أمير بخارى وابن أميرها **خلف بن أحمد بن محمد بن الليث (ت٣٩٩هـ)** كان أوحد الملوك في إجلال أهل العلم والإفضال علىٰ العلماء. صنف في تفسير القرآن كتابًا كبيرًا نحو مائة وعشرين مجلدًا، وله كتاب تعبير الرؤيا سمَّاه: «تحفة الملوك»[٢].

ومنهم: محمد بن أحمد بن صمادح (ت**٤١٩هـ)** كان رئيسًا غالبًا علىٰ وشقة، ثمَّ تخلىٰ عنها لابن عمه منديل بن يحيىٰ التجيبي.

وكان مع رئاسته من أهل العلم والأدب والفضل، وله (مختصر نبيل في غريب القرآن)، ووصيته لابنيه معًا من أنفع الوصايا وأجمعها لمعظم آداب الدين والدنيا، وأصدقها شهادة بوفور علمه[٣].

ومنهم: المظفر بن الأفطس (ت٤٦١هـ). كان سلطان الثغر الشمالي من الأندلس، ودار ملكه بطليوس.

وكان رأسًا في العلمِ والأدب، والشجاعة، والرأي، فكان مناغرًا[٤] للروم، شجىٰ في حلوقهم، لا ينفس لهم مخنقًا، ولا يوجد لهم إلىٰ الظهور عليه مرتقىٰ. وللمظفر (تفسير) للقرآن.

وكان مع استغراقه في الجهاد لا يفتر عن العلم، ولا يترك العدل، صنع مدرسة يجلس فيها كل جمعة، ويحضره العلماء، وكان يبيت في

---

(١) الوافي بالوفيات (٩/ ٧٧).

(٢) الوافي بالوفيات (١٣/ ٢٢٦-٢٢٧).

(٣) السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة (٢/ ٦٤٦).

(٤) أي مغيظًا لهم.

منظرة له، فإذا سمع صوتا وجه أعوانا لكشف الخبر، لا ينام إلا قليلًا[١].

ومنهم: السيد محمد بن إدريس بن الناصر علي بن عبد الله الزيدي اليماني، من أشراف اليمن وأمرائها.

صنَّف في التفسير كتبًا أحدها التيسير، والآخر الإكسير الإبريز في تفسير القرآن العزيز، وله الحسام المرهف تفسير غريب المصحف.

قال الشوكاني: أرخ موته بعضهم في عشر الثلاثين وسبعمائة[٢].

وحكي -**أنَّ عثمان الغازي (ت٧٢٨هـ) جد السلاطين العثمانية**- إنمَّا وصل إلىٰ ما وصل إليه برعاية كلام الله تعالىٰ، وذلك أنَّه كان من أسخياء زمانه يبذل النعم للمترددين فثقل ذلك علىٰ أهل قريته وانعكس إليه ذلك وذهب ليشتكي من أهل القرية إلىٰ الحاج بكتاش أو غيره من الرجال فنزل فىٰ بيت رجل قد علَّق فيه مصحف فسأل عنه فقالوا: هو كلام الله تعالىٰ.

فقال: ليس من الأدب أنْ نقعد عند كلام الله، فقام وعقد يديه مستقبلًا إليه فلم تزل إلىٰ الصبح فلمَّا أصبح ذهب إلىٰ طريقه فاستقبله رجل، وقال: أنا مطلبك، ثمَّ قال له: إنَّ الله تعالىٰ عظمك وأعطاك وذريتك السلطنة بسبب تعظيمكَ لكلامه، ثمَّ أمر بقطع شجرة وربط برأسها منديلًا، وقال: ليكن ذلك لواء، ثمَّ اجتمع عنده جماعة فجعل أول غزوته إلىٰ بلاجك وفتح بعناية الله تعالىٰ، ثمَّ أذن له السلطان علاء الدين في الظاهر أيضًا فصار سلطانا ثمَّ بعد ارتحاله صار ولده أورخان سلطانًا ففتح هو بروسة المحروسة بالعون الإلهي، **فالدولة العثمانية من ذلك الوقت إلىٰ هذا الآن علىٰ الازدياد**[٣]. والله أعلم.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٩٤-٥٩٥).

(٢) البدر الطالع للشوكاني (٢/ ١٢٦).

(٣) روح البيان للخلوتي (٣/ ٢٥٣) والمنامات لا يحتج بها، وإنما ذكرناه من باب الاستئناس به. =

ومن صور الوقوف عنده. ويذكر أنَّ الفقيه أبا طاهر الحموي المعروف بالحصني (ت٥٦١هـ)، قدم دمشق واجتمع بالملك العادل نور الدين وحكىٰ عن نفسهِ أنَّه كان عنده يومًا بقلعة دمشق وأنَّ نور الدين التفت إلىٰ كاتبه، وقال: اكتب إلىٰ نائبنا بمعرة النعمان ليقبض علىٰ جميع أملاك أهلها، فقد صحَّ عندي أنَّ أهل المعرة يتقارضون الشهادة، فيشهد أحدهم لصاحبه في ملك ليشهد له ذلك في ملك آخر، فجميع ما في أيديهم بهذا الطريق.

= وتكرر هذا، وفيه: أنَّ دوام الملك من أسبابه العناية بالعلم وأهله، وأولىٰ الأشياء عناية كتاب الله، وأهل القرآن، ولعلنا نذكر أيضًا هنا موقفًا يقارب هذا، في «السير» (١٣/ ٣٥٧-٣٥٨) يروىٰ أن أبا إسحاق الحربي لما دخل علىٰ إسماعيل القاضي، بادر أبو عمر محمد بن يوسف القاضي إلىٰ نعله، فأخذها، فمسحها من الغبار، فدعا له، وقال: أعزك الله في الدنيا والآخرة، فلمَّا توفي أبو عمر، رؤي في النوم، فقيل: ما فعل الله بك؟

قال: «أعزني في الدنيا والآخرة بدعوة الرجل الصالح».

ومثله الدعاء ما حصل مع الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني واجلاله لمحمد بن نصر بن الحجاج المروزي. كما في «السير» (١٤/ ٣٨-٣٩)، والقصة مذكورة في الكتاب.

وفي «الوافي بالوفيات» (١٣/ ٢٢١) في ترجمة: ابن أيوب الحنفي الفقيه أبو سعيد العامري البخلي الحنفي مفتي أهل بلخ وزاهدهم وعابدهم (ت٢١٥هـ) وذلك أنَّه جاء إليه أسد بن نوح الساماني صاحب بلخ وتحين مجيئه إلىٰ الجمعة، فلمَّا رآه ترجل وقصده، فقعد خلف وغطىٰ وجهه، فقال: السلام عليكم، فأجاب ولم يرفع رأسه فرفع الأمير أسد رأسه إلىٰ السماء وقال: اللهم إنَّ هذا العبد الصالح يبغضنا فيك ونحن نحبه فيك ثمَّ ركب ومر، فأخبر بعد ذلك أنَّه مرض فعاده الأمير، وقال له: هل لك من حاجة؟ قال: نعم أن لا تعود إليَّ، وإن متَّ فلا تصل عليَّ، وعليك السواد، فلمَّا توفي شهد جنازته راجلًا، ونزع السواد، وصلَّىٰ عليه فسمع صوتًا بالليل: «بتواضعك وإجلالك لخلف ثبتت الدولة في عقبك».

قال: فقلت له: اتقِ الله فإنَّه لا يتصور أن يتمالأ أهل بلد علىٰ شهادةِ الزور.

فقال: صح عندي ذلك.

فكتب الكاتب الكتاب، ودفعه إليه ليعلم عليه، وإذا بصبي راكب بهيمة علىٰ نهر بردىٰ وهو ينشد:

اعدلوا مَا دَامَ أَمركُم نَافِذا فِي النَّفْع وَالضَّرَر

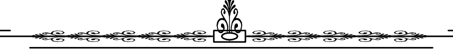
واحفظوا أَيَّام دولتكم إِنَّكُم مِنْهَا علىٰ خطر

إِنَّمَا الدُّنْيَا وَزينتهَا حسن مَا يبْقىٰ من الْخَبَر

قال: فاستدار إلىٰ القبلة، وسجد واستغفر الله، ثمَّ مزق الكتاب وتلا قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[1].



(١) طبقات الشافعية للسبكي (٧/ ٣٢-٣٣) والآية من سورة البقرة (٢٧٥).





[الفصل التاسع:

عنايتهم ببناء المدارس الشرعية]

ومن صور عناية الحكام بالعلم واهتمامهم بالعلماء بناء المدارس الوقفية، ومن الأمثلة علىٰ ذلك دمشق الشام حرسها الله، بنيت فيها عدد من المدارس الوقفية؛ مما يعني أنَّ قيادة الأمراء للبلاد هي قيادة عامة متمثلة بالجانب الشرعي، والسياسي، والعسكري، وغير ذلك.

ولم يكن ولاة الأمر الذين خلَّد الله ذكرهم، وفتح الله لهم البلاد وقلوب العباد؛ ممَّن يعتني بجانب دون الآخر، بل جمعوا خيري الدنيا والآخرة، وعلم البنان واللسان، وفن فروسية العلم وفروسية الطعان. كما قال ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ): «فالفروسية فروسيتان: فروسية العلم والبيان، وفروسية الرمي والطعان.

ولما كان أصحاب النبي ﷺ أكمل الخلق في الفروسيتين فتحوا القلوب بالحجة والبرهان، والبلاد بالسيف والسنان.

وما النَّاسُ إلا هؤلاء الفريقان، وما عداهما؛ فإنْ لم يكن ردءًا وعونًا لهما؛ فهو كل علىٰ نوع الإنسان.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله بجدال الكفار والمنافقين، وجلاد أعدائه المشاقين والمحاربين، فعلم الجدال والجلاد من أهم العلوم وأنفعها للعباد، في المعاش والمعاد، ولا يعدل مداد العلماء إلا دم الشهداء، والرفعة وعلو المنزلة في الدارين إنما هي لهاتين الطائفتين، وسائر الناس

رعية لهما منقادون لرؤسائهما»[١].

اتخذ المسلمون مساجدهم للصلاة والعبادة وتلقي القرآن وعلومه والحديث وفنونه وعلوم اللسان، وما يتعلق بذلك من المطالب التي فيها قيام أمرهم وخدمة دينهم أولًا ولغتهم ثانيًا، وظلوا علىٰ ذلك في الشان حتىٰ أنشأ بدمشق رشأ بن نظيف بن ما شاء الله الدمشقي (سنة ٤٤٤هـ) مدرسته المعروفة بالرشائية اتخذها دار القرآن، وكان الحسن بن عمار قاضي طرابلس للفاطميين والمتغلب عليها أقام في بلده دار الحكمة أو شبه مدرسة جامعة علىٰ النحو دار الحكمة التي أنشأها الحاكم بأمر الله في مصر سنة أربعمائة. ولما أراد المعتضد بالله العباسي بناء قصره ببغداد استزاد في الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد فسئل عن ذلك فذكر أنه يريده ليبني فيه دورًا ومساكن ومقاصير يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعلمية ويجري عليهم الأرزاق السنية ليقصد كل من اختار علمًا أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه. وأول من حفظ عنه أنه بنىٰ مدرسة في الإسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية ثم مدرسة الأمير نصر بن سبكتكين وتبعه غيره. وعُني السلاجقة بإنشاء المدارس في أقطار الشرق، وكان آلب أرسلان إذا رأىٰ في بلد رجلًا متميزًا متبحرًا في العلم بنىٰ له مدرسة ووقف عليها وقفًا وقرر فيها للفقهاء تعاليم وجعل فيها دار كتب، ونظام الملك أحد وزراء السلاجقة الذي أنشأ المدرسة النظامية في بغداد في القرن الخامس أيضًا.

أصبحت طرابلس بدار الحكمة التي أنشأها فيها ابن عمار كعبة علم، كما كانت حلب علىٰ عهد سيف الدولة بن حمدان كعبة أدب. ويقال: إنه

---

(١) الفروسية النبوية (ص١٥٧).

كان في طرابلس في ذاك القرن عدة مدارس وخزائن كتب لم يبلغنا خبرها. وعلىٰ هذا فالمدارس في الإسلام نشأت في أواخر القرن الرابع وعرفت جيدًا في الخامس والسادس[(١)].

وقال ابن الأزرق الغرناطي (ت٨٩٦هـ): أنَّ من سعادة السلطان سعيه في تشييد مفاخر الملك، وتخليد مآثره الشاهدة بكمال النيابة به في الظهور، كما قال أفلاطون: «السعيدُ منْ تمت به رياسةُ آبائه، والشقيُ من انقطعت عنده».

وفي معناهُ قول بعض الحكماء: «إنَّ أبر الملوك منْ تمَّ به سعي سلفه، وأعقهم من أنقطع سعيهم عنده».

المقدمة الثانية: أنَّ تحصيل هذه السعادة حقيق أن يرغب فيه لأمرين:

أحدهما: ثواب الآخرة ونعيمها المخلد الملك الكبير، لقوله تعالىٰ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾.

وقوله ﷺ: «**من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجرهم شيئًا ...**».

الثاني: عزُ الدِّين بتخليد جميل الذكر، والثناء الحسن، كما قال:

وهل شيء يدوم سوىٰ حديث جميل الذكر فالدنيا حديث

قال الطرطوشي: أثر تقريره لهذا المعنىٰ فانتهز فرصة العمر، ومساعدة الدنيا، وقدم لنفسك كما قدموا؛ تذكر بالصالحات كما ذكروا، وأعلم أنَّ المأكول للبدن، والموهوب للمعاد، والمتروك للعدىٰ فاختر أي الثلاثة شئت، والسلام.

---

(١) خطط الشام (٦/ ٦٦-٦٧).

تقرر أنَّ هذا ممَّا به نيل السعادة، وهو ما يشيد به مفاخر الملك، ويخلد به مآثره[١].

ومن هنا يتبين لنا أهمية بناء الدور العلميَّة، والعناية بالعلوم، وأنَّها سبب الازدهار والتطور؛ لأن الضعف والتفرق، والاختلاف والابتداع من أعظم مسبباته، وأسباب انتشاره الجهل؛ وقد كُتِبت في خصوص ذلك في الباب كُتُب، ودُوِنت في متفرقاته لألئ ودرر، ومن أجلِّها كتاب الشيخ عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت٩٢٧هـ)، المسمىٰ بـ (الدارس في تاريخ المدارس)[٢]. وقد تناوله في ذكر المدارس (الفقهية، والحديثية)، وألحق بها أشياء كالمساجد وغيرها، ويظهر للناظر فيه عناية وجهاء الدولة وقيادتها في رعاية العلم.

ويذكر أنَّ السلطان الكبير محمود بن سبكتكين لما بنىٰ جامع غزنة ألحق به مدرسة عظيمة، كانت موئلًا للعلماء وطلاب العلم، مع إجراء الأموال علىٰ المنقطعين والغرباء من طلاب العلم[٣].

وبنىٰ السلطان: ألب أرسلان ببغداد مدارس أنفق عليها أموالًا عظيمة، واشتهر في تلك الفترة التي مر بها المؤلف المدارس النظامية، المنسوبة للوزير نظام الملك وقد بنىٰ مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويقال: إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة[٤].

---

(١) بدائع السلك (ص٤٠٨) بتصرف يسير.

(٢) وهو مطبوع بحمد الله.

(٣) ينظر: تاريخ العتبي (٢/ ٢٩٩).

(٤) ينظر: طبقات الشافعية للسبكي (٤/ ٣١٣)، و«آثار البلاد» للقزويني (ص٤١٢) =

وكان سيف الدين غازي بن زنكي (ت٥٤٤هـ) صاحب الموصل -وهو أخو نور الدين الأكبر- بنىٰ بالموصل المدرسة الأتابكية العتيقة، وهي من أحسن المدارس وأوسعها، وجعلها وقفًا علىٰ الفقهاء الشافعية والحنفية نصفين

وبنىٰ رباط الصوفية بالموصل أيضًا وهو الرباط المجاور لباب المشرعة، ووقف عليهما الوقوف الكثيرة[١].

الملك غياث الدين الغوري أخو شهاب الدين (ت٥٩٩هـ)، وكان شافعي المذهب، قد ابتنىٰ مدرسة هائلة للشافعية، وكانت سيرته في غاية الجودة، وكذا سريرته؛ رَحِمَهُ اللَّهُ[٢].

ويذكر أنَّ السلطان سليمان القانوني أمر ببناء مدارس للمذاهب الأربعة بمكة المكرمة، يتولاها متخصصون بكل مذهب وجعل لها أوقافًا كبيرة، وصار يدرس فيها العلوم الشرعية والكونية[٣].

يقول جوزيف ماك كيب: «ولم يكن في الدنيا كلها ولا هو كائن اليوم بلد يكرم فيه العلماء والأدباء ويكافؤون بالجوائز العظم مثل ما كان في الأندلس، ولم يكن في الدنيا بلد غير الأندلس يحوي خزائن الكتب

= وحكي أنَّ السبب في بناء هذه المدارس: أنَّ السلطان ألب أرسلان دخل نيسابور فمر علىٰ باب مسجد فرأىٰ جماعة من الفقهاء علىٰ حال رثة، فسأل وزيره نظام الملك عنهم، فأخبره بحالهم وفقرهم، فلان قلب السلطان لهم، فاقترح عليه الوزير أن يبني لهم دارًا، ويجري عليهم أرزاقًا، فأذن له السلطان، فأمر نظام الملك ببناء المدارس في جميع مملكة السلطان، وأن يصرف عشر مال السلطان في بناء المدارس. بالاستفادة مقدمة كتاب «التفسير البسيط» (١/ ١٢١-١٢٣).

(١) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (١/ ٢٢٨).

(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٧٢٣)، قال عنه ابن كثير: «وكان غياث الدين عاقلًا حازمًا شجاعًا، لم تكسر له راية قط مع كثرة حروبه».

(٣) ذكره قطب الدين النهروالي في الإعلام (ص٣٥٠).

العجيبة والمدارس والكليات العامرة وجمعًا عظيمًا من خيرة الكُتَّاب البلغاء، وذوقًا عامًّا في المباحث العقلية مثل ما كان في الأندلس والحلقات أو الدوائر الصغيرة من الرجال والنساء المهذبين، الذين كانوا في إيطالي يبحثون في الفنون والآداب في بدء النهضة إنَّما كانت تقليدًا ضئيلًا للمغربيين»[١].

ومن هذه المدارس[٢]: **المدرسة النورية** بناها نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ، وتعرف بـ (دار الحديث النورية) نسبةً إليه[٣]. أو مشيخة دار الحديث العادليَّة[٤]. ودار السنة، ودار السنَّة النورية.

وقال ابن أبي شامة (ت٦٦٥هـ): «وبنىٰ بدمشق أيضًا دار الحديث ووقف عليها وعلىٰ من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة وهو أول من بنىٰ دارا للحديث فيما علمنا.

وبنىٰ أيضًا في كثير من بلاده مكاتب للأيتام، وأجرىٰ عليهم وعلىٰ معلميهم الجرايات الوافرة

وبنىٰ أيضًا مساجد كثيرة، ووقف عليها وعلىٰ من يقرأ بها القرآن[٥].

وهذه المدرسة بناها السلطان نور الدين للحافظ ابن عساكر الدمشقي تكريمًا له فأملىٰ بها بعض كتبه ومسموعاته، وتسمىٰ بدار (الحديث النورية، ودار السنة، ودار السنة النورية).

وقد درس فيها عددٌ من العلماء (ابن عساكر، وابنه، وجماعة من

---

(١) مدنيَّة المسلمين في إسبانيا لجوزيف ماك كيب، ترجمة العلامة محمد تقي الدين الهلالي، تقديم الشيخ مشهور حسن (ص١٢٦).

(٢) بالاستفادة من دور الحديث الشريف بدمشق.

(٣) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام لابن دقماق (ص٩٢).

(٤) السحب الوابلة علىٰ ضرائح الحنابلة (٣/١٠٩٣).

(٥) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (١/٤٨).

آل عساكر، والمزي، وابن المزي، وابن العطار المعروف بمختصر النواوي، والبرزالي، وابن كثير، وجماعة كثر).

دار الحديث الفاضلية: بناها القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي عبد الرحيم ابن القاضي بهاء الدين علي العسقلاني (ت٥٩٦هـ).

وممَّن درس بها (عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني، كان شيخًا صالحًا مشتغلًا بالحديث وإسماعه، والذهبي، وأبو المعالي محمد بن رافع بن هجرس السلامي المصري الشافعي، وجماعة كثر).

دار الحديث الأشرفية الجوانية: كان دارً لقايماز النجمي، فاشتراها الملك موسىٰ ابن الملك العادل الأيوبي وبناها دارًا للحديث، وخرَّب الحمام الذي بجوارها، وبناها سكنًا لشيخها المدرس، وأتمَّ بناءها في سنتين.

وموسىٰ ابن الملك العادل الأيوبي (ت٦٣٥هـ) سمع صحيح البخاري في ثمانية أيام من ابن الزبيدي، تملك القدس أولًا، ثمَّ أعطاه أبوه حران والرُّها وغير ذلك، ثم تملك دمشق فعدل وأحبته الرعية، وله فهم وذكاء، عمَّر جامع التوبة، وجامع الجراح، ومسجد أبي الدرداء، وداري الحديث الجوانية والبرانية وغيرها.

من درس فيها (أول من درس فيها الحافظ أبو عمرو بن الصلاح، وثم أبو شامة المقدسي، والشيخ يحيىٰ بن شرف النووي، والمزي، وتقي الدين السبكي، وتاج الدين السبكي، وسراج الدين البلقيني، وابن كثير الدمشقي، وعمر بن عثمان المعري الحلبي، وابن حجر العسقلاني، وجماعة كثر رحمهم الله).

وفي هذه الدار يقول تقي الدين السبكي:

وفي دار الحديث لطيف معنىٰ عـلـىٰ بُسُطٍ لها أصبو وآوي
عسىٰ أنِّي أمسُّ بحرِّ وجهي مكانًا مسه قدمُ النووي

دار الحديث الأشرفية البرانية: واقفها موسىٰ ابن الملك العادل الأيوبي (ت٦٣٥هـ). بناها للحافظ جمال الدين عبد الله ابن الحافظ عبد الغني المقدسي (ت٦٢٩هـ).

وجعل الملك الأشرف هذه الدار للحديث، وخاصة بالحنابلة، كما جعل دار الحديث الأشرفية الجوانية للشافعية، وقرر الأشرف للحافظ معلومًا فمات قبل فراغها.

وأصيبت هذه المدرسة بنكبة في هجوم قازان التتري لدمشق وما حولها لدمشق سنة (٦٩٩هـ)، وأصيبت أيضًا بهجوم تيمورلنك علىٰ دمشق سنة (٨٠٣هـ).

ودرس بها عدد من العلماء الأجلاء كالمقادسة وآل مفلح وغيرهم، ومن هؤلاء (عبد الرحمن بن أبي عمر المقدسي (ت٦٨٢هـ) وهو الشيخ الزاهد قاضي القضاة، وهو أول من درس فيها، محمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد المقدسي (ت٦٨٢هـ).

قال الحافظ ابن كثير عن أحداث (٥٦٦هـ) وهي التي كانت في البلاد المصرية: و«فيها استناب -صلاح الدين- في سائر المعاملات قضاة شافعية وبنىٰ مدرسة للشافعية وأخرىٰ للمالكية، واشترىٰ ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه دارا كانت تعرف بمنازل العز، وجعلها مدرسة للشافعية، ووقف عليها الروضة وغيرها»[1].

(فائدة) قال ابن خلكان عن نظام الملك الطوسي: «هو أول من ابتنىٰ المدارس فاقتدىٰ به الناس، وشرع في عمارة مدرسته بغداد سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وفي سنة تسع وخمسين جمع الناس علىٰ طبقاتهم ليدرس بها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي فلم يحضر، فدرسها أبو نصر بن

(١) البداية والنهاية (١٦/٤٤٨).

الصباغ صاحب الشامل عشرين يومًا . . .»[١].

وقال المقريزي: «وأول من حُفظ عنه أنَّه بنىٰ مدرسة في الإسلام أهلُ نيسابور»[٢].

---

(١) بدائع السلك (ص٤١٣).

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٢/ ٣٦٣)، و«حسن المحاضرة» (٢/ ٢٥٥-٢٧٧) و«خطط الشام» لمحمد كرد علي (٦/ ٦٦-١٢٤)، وانظر: (المدارس العلمية في عهد عمر بن عبد العزيز والدولة الأموية) في كتاب «الدولة الأموية» للصلابي (٢/ ٣٠٠-٣١٢) والمدارس هي:

[١]- (مدرسة الشام)، ومن أعلامها:

١- الإمام الفقيه أبو إدريس الخولاني عائذ بن عبد الله.

٢- الفقيه قبيصة بن ذؤويب الدمشقي.

٣- رجاء بن حيوة الفلسطيني.

٤- مكحول الشامي الدمشقي.

٥- عمر بن عبد العزيز.

٦- بلال بن سعد السكوني.

[٢]- (المدرسة المدنية) بلغ فقهاء الصحابة المفتون ١٣٠ مائة وثلاثين صحابيًا وكان المكثرون منهم سبعة: عمر وعلي وعبد الله بن مسعود، وعائشة، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وورث علماء التابعين الفقه والعلم والتربية والدعوة، وأما أشهر علماء التابعين: سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، وعمرة بنت عبد الرحمن بن سعد الأنصارية، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وسليمان بن يسار، ونافع مولىٰ ابن عمر.

[٣]- (المدرسة المكية)، ولقد كان العلم بمكة يسير زمن الصحابة، ثم كثر في أواخر عصرهم وكذلك في أيام التابعين، وزمن أصحابهم، كابن أبي نجيح، وابن جريج، إلا أن مكة اختصت زمن التابعين بحبر الأمة وترجمات القران ابن عباس رضي الله عنهما الذي صرف جل همه، وغاية وسعه إلىٰ علم التفسير.

ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة المكية:

١- مجاهد بن جبر المكي.

٢- عكرمة مولىٰ ابن عباس.

=

. . . .

= ٣- عطاء بن أبي رباح).

[٤]- (المدرسة البصرية)، وهي منافسة للكوفة في كل الفنون، وقد نزلها من الصحابة جمع كثير، منهم أبو موسىٰ الأشعري، وعمران بن حصين وأنس بن مالك وغيرهم، ويعتبر أنس بن مالك ﵁ شيخ السادة من علماء التابعين أمثال الحسن البصري، وسليمان التيمي، وثابت البناني، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وإبراهيم بن أبي ميسرة، ومحمد بن سيرين، وقتادة وغيرهم.

[٥]- (المدرسة الكوفية)، نزل الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر رضي الله عنهم أجمعين، وقد اهتم عمر بالكوفة ووجه عبد الله بن مسعود واجتهد ابن مسعود في إيجاد جيل يحمل دعوة الله فهمًا وعلمًا وكان له الأثر البالغ في نفوس الملازمين له، أو من جاء بعدهم، وقد اشتهر مجموعة من تلاميذ ابن مسعود بالفقه والعلم والزهد والتقوىٰ منهم، علقمة بن قيس، مسروق بن الأجدع، عبيدة السلماني، الأسود بن يزيد، ومرة الجعفي وغيرهم، من أشهر علماء التابعين في المدرسة الكوفية: عامر بن شرحبيل الشعبي، وحمّاد بن أبي سلمة.

[٦]- (المدرسة اليمنية)، ومن أشهر علمائها من الصحابة الذين ساهموا في دخول الإسلام فيها معاذ بن جبل، علي بن أبي طالب وأبو موسىٰ الأشعري وغيرهم، ومن أراد التوسع فليراجع الرسالة العلمية للدكتور عبد الله الحميري، الحديث والمحدثون في اليمن في عصر الصحابة، ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة اليمنية: طاووس بن كيسان، ووهب بن منبه.

[٧]- (المدرسة المصرية)، تكونت في مصر مدرسة كان شيوخها من الصحابة الذين رحلوا إليها أيام الفتح ونزلوا في موضع الفسطاط والإسكندرية، ومن هؤلاء عمرو بن العاص، عبد الله بن عمرو بن العاص، الزبير بن العوام، وكان من أكثر الصحابة تأثيرًا في مصر عقبة بن عامر ﵁، ومن العلماء الأجلاء فيها يزيد بن أبي حبيب: الإمام الحجة، مفتي الديار المصرية أبو رجاء الأزدي كان من جلة العلماء العاملين، ارتفع بالتقوىٰ مع كونه مولىٰ أسود. قال عنه الليث بن سعد: يزيد بن أبي حبيب سيدنا وعالمنا.

[٨]- (مدرسة شمال إفريقيا)، دخل القادة الفاتحون شمال إفريقيا وكان علىٰ رأسهم عمرو بن العاص ثم عبد الله بن سعد بن أبي السرح ﵃ ثم تابع معاوية بن حديج =

وذكر قطب الدين المكّي في «الإعلام»[١] «أن أوّل مدرسة بنيت في الدّنيا مدرسة نظام الملك في بغداد»[٢]، وكذلك الصفدي في «الوافي»[٣].

قلت: ردَّه السبكي في «طبقاته»، قائلًا: «وشيخنا الذهبي زعم أنَّه أول من بنىٰ المدارس وليس كذلك؛ فقد كانت المدرسة البيهقية بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك، والمدرسة السعدية بنيسابور أيضًا بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود لما كان واليا بنيسابور، ومدرسة ثالثة بنيسابور بناها أبو سعد إسماعيل بن علي بن المثنىٰ الإستراباذي الواعظ الصوفي شيخ الخطيب ومدرسة رابعة بنيسابور أيضًا»[٤].

لقد كانت الأوقاف هي المصدر الرئيسي لتمويل الحركة العلمية، وكان يساهم فيها الأمراء والشعب علىٰ حد سواء، وقد توسعت في عصر

= فتح إفريقية، وولىٰ معاوية بن أبي سفيان علىٰ مصر وإفريقية، وجاء بعده عقبة بن نافع الفهري فاختط مدينة القيروان، وسار في الناس سيرة حسنة وكان من خيار الولاة والدعاة، الذين جاهدوا ودعوا بالسيف والكلمة ثم قام علىٰ إفريقية ولاة صالحون ساروا علىٰ النهج نفسه. وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث إسماعيل بن أبي المهاجر واليًا علىٰ إفريقية سنة مائة، فكان داعية إلىٰ الإسلام بلسانه وأعماله وأخلاقه، فأحبه الناس، وأحبوا دينه، وحرص علىٰ دعوة البربر إلىٰ الإسلام، فاستجابوا لدعوته، وأسلموا علىٰ يديه، واهتم إسماعيل بتعليم الناس أحكام الشريعة، وتفقيههم في الحلال والحرام وكان عمر بن عبد العزيز بعث معه عشرة من التابعين من أهل العلم والفضل، وأهل إفريقية يومئذ من الجهل بحيث لا يعرفون أنَّ الخمر حرام حتىٰ وصل هؤلاء فعلموا الناس الحلال والحرام.

(١) يعني «الإعلام بأعلام بلد الله الحرام».

(٢) نقله حاجي خليفة في «سلم الوصول إلىٰ طبقات الفحول» (٥/٤١٩).

(٣) الوافي بالوفيات (١٢/٧٨) بقوله: «وهو أول من بنىٰ المدارس في الإسلام».

(٤) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٤/٣١٤)، وانظر: فللكلام تتمة وبقية.

المماليك حتىٰ شملت قسمًا كبيرًا من الأراضي والعقارات داخل دمشق وخارجها[١].

وقد حرص السلاطين المماليك وغيرهم ممَّن أنشأ المدارس علىٰ استمرارها في أداء رسالتها في نشر العلم وتعليم الأمة، واهتموا بنظام الأوقاف، فمن خلاله يتم تأمين الموارد المالية اللازمة، تجبي للنفقة علىٰ تلك المدارس وغيرها من دور العلم[٢].

ومن هذه الأوقاف تجبىٰ الأموال الكثيرة، وتصرف علىٰ المدارس، ومن فيها من مدرسين وموظفين وطلاب[٣].

وساعد نظام الأوقاف علىٰ فتح أبواب العلم للفقراء، إذ تكفلت تلك الأوقاف بتدريسهم وتأمين الطعام والشراب والسكن والعلاج لأولئك الطلاب.

وقد اتسعت أوقاف هذه المدرسة وخيراتها، وقلَّ سنةٌ من السنين تمضي إلا ويصير إليها وقف حتىٰ صار من كل أنواع البر لها[٤].

ولا شك أنَّه متىٰ كان الوقف كبيرًا وثابتًا لتلك المدارس فإنَّه يمكنها من أداء رسالتها علىٰ الوجه الأكمل.

فما سبق يعطي صورة واضحة للحركة العلميَّة التي كانت في ذلك العصر مما أدىٰ إلىٰ وجود عدد كبير من العلماء والمؤلفين، وخير دليل علىٰ ذلك كتب التراجم لعلماء هذا العصر، كـ: (النجوم الزاهرة) لابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ) ويقع في خمسة عشر مجلدًا، و(الضوء اللامع

---

(١) دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين (ص١٦٢).

(٢) الخلافة العباسية في مصر للغامدي (ص٤٧٢).

(٣) الخطط للمقريزي (٤/ ٢٠١ و٢٢٢ و٢٥١).

(٤) القلائد الجوهرية لابن طولون (١/ ٢٦٦).

في أعيان القرن التاسع) للسخاوي (ت٩٠٢هـ)، ويقع في اثني عشر مجلدًا[١].

وكان عصر السيوطي متميزًا في العلوم الاسلامية، حيث غدت مصر ميدانًا واسعًا، ونشاطٍ علمي كبيرٍ يتمثل في ذلك التراث الضخم في كافة المجالات، العلميَّة، والأدبيَّة.

والسبب في ذلك يعود إلىٰ تشجيع الكثير من سلاطين المماليك للعلماء والأدباء، والأخذ بأيديهم، ومساعدتهم علىٰ البحث والتحصيل؛ حيث ساهم بعض السلاطين في بناء المدارس، وخزانات الكتب، التي ساعدت السيوطي -بالإضافة لما عنده من عزيمة عالية- علىٰ تصنيف كتبه، في كثير من المجالات العلمية، التي تتناول في كافة ميادين المعرفة في عصره[٢].

وفي عصر المماليك كانت مدراس حديث عامرة، ومن تلك المدارس: **المدرسة الزنجيلية**: نسبة إلىٰ عثمان بن علي، الأمير فخر الدين الزنجيلي، نائب السلطان صلاح الدين الأيوبي بعدن، بناها بمكة سنة (٥٧٩هـ) ووقفها علىٰ الحنفية، ومكانها عند باب العمرة.

المدرسة طاب الزمان الحبشية: نسبة إلىٰ عتيقة الخليفة المستضيء العباسي، وتسم هذه المدرسة بدار زبيدة، أوقفتها طاب الزمان سنة (٥٨٠هـ) عل عشرة من الفقهاء الشافعية، ودرس بها المحدث الكبير الشيخ قطب الدين القسطلاني (٦٦٤هـ).

المدرسة الأرسوفي: نسبة إلىٰ عبد الله بن محمد بن عبد الله، الملقب بعفيف الدين الأرسوفي سنة (٥٩١هـ).

---

(١) هذا والذي قبله منقول من مقدمة محقق كتاب «محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه» أثابه الله (ص٣٠-٣١).

(٢) انظر: مقدمة طبقات المفسرين (ص٧).

المدرسة المنصورية: قال ابن فهد في إتحاف الورىٰ في حوادث سنة (٦٤١هـ): وفيها عمَّر الملك المنصور عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن مدرسة بالجانب الغربي من المسجد الحرام، وأوقفها علىٰ الفقهاء الشافعية، وغبطه ملوك الأرض علىٰ هذه المدرسة.

المدرسة الشرابية: بناها الأمير إقبال بن عبد الله الشرابي المستنصري العباسي سنة (٦٤١هـ) عندما حج.

المدرسة المجاهدية: عمَّرها الملك المجاهد علي بن داود بن يوسف صاحب اليمن سنة (٧٣٩هـ)، وأوقفها في ذي القعدة علىٰ الشافعية.

المدرسة الأفضلية: نسب إلىٰ الملك الأفضل العباس بن الملك المجاهد علي بن الملك المؤيد داود بن الملك المظفر داود بن الملك بن المنصور يوسف بن علي بن رسول صاحب اليمن (٨٠٣هـ)[١].

وفي النَّظر في السياسة التي اتبعها السلطان عبد الحميد الثاني نجد أنَّ اهتمامه في التعليم نابعًا من إدراكه لتأخر المدرسة العثمانية عن تلبية حاجة المجتمع إلىٰ معارف حديثة تواكب ما يتمتع به غير المسلمين في الدول من تعليم عصري من خلال مؤسساتهم التعليمية، فضلًا عن نشاط المدارس الأجنبية البعيدة عن رقابة الدولة[٢]، وهذا يمثل خطرًا كبيرًا علىٰ الدولة وعلىٰ هواية المتعلمين في هذه المدارس[٣]. فاهتم بإصلاح التعليم

(١) علم الحديث في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي (ص٢٢١-٢٣١).

(٢) انظر: فريدون إمجن، التاريخ السياسي للدولة العثمانية (ص١١٤-١١٥).

(٣) ومن كلام السلطان: «إنَّ المدارس الخاصَّة تشكل خطرًا كبيرًا علىٰ بلادنا، وقد كان خطؤنا جسيمًا إذ سمحنا لكل دولة في كل زمان ومكان بإنشاء المدرس كما تريد، والان نجني ضرر ما زرعنا، فقد سمحنا لهم بفتح هذه المدارس فنهضوا يعلمون الطلاب أفكارًا معادية لبلادنا، وسأحاسب وزير المعارف علىٰ إهماله، وقد يكون =

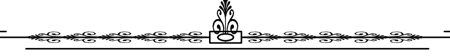
ليواكب النهضة العلميَّة التي تشهدها أوربا من ناحية، ولتلبية احتياج الدولة من العلوم والفنون الحديثة من ناحية أخرىٰ.

كانت هذه المدارس الخاصة التي تتبع الأقليات والمنصرين من كافة الطوائف، تقدم تعليمًا أكثر تطورًا من المدارس العثمانية، لذا توسع السلطان عبد الحميد الثاني في إنشاء المدارس الإعدادية والثانوية في الولايات والمدارس الابتدائية كافة في جميع القرىٰ، كما أنشأ عددًا من المدارس العليا والمتوسط في جميع أنحاء الدولة، ومدارس متخصصة للصناعة والتجارة والزراعة والبيطرة والتعدين، وأوفد البعثات العلميَّة إلىٰ كل من فرنسا وألمانيا علىٰ النمطِ الذي رأه مناسبًا في إرسال البعثات إلىٰ الدول الأوربية. فارتفع عدد المدارس في عهده إلىٰ عشرة أضعاف ما كانت عليه فبلغت مائتي ألف مدرسة. ومع ذلك كان يرىٰ أنَّ هذه المدارس لا تفي بالمؤمل، وأنَّ الدولة بحاجة إلىٰ فتح مدارس إعدادية تهيأ الطلاب لدخول مؤسسات علميَّة يتخرج فيها مهندسون ومعماريون وفنيون(١). وفي الوقت ذاته اهتم بتطوير الفكر الديني لمقاومة الفكر الوافد، ورأىٰ أنَّ إصلاح الفكر الديني يكون بإصلاح التعليم الديني علىٰ نحو يجعله قادرًا علىٰ التجاوب مع مستجدات العصر، فلا تفقد الدولة هوايتها، ويستعد علماء الدين مكانتهم وحيوتهم العلمية(٢).

= السبب في هذا الإهمال افتقاره إلىٰ جرأة التصدي. والحقيقة إنَّ التصدي لهذه المدارس ليس بالأمر الهيِّن؛ إذ يقف في مواجهتنا قنصل دولة أو سفيرها ليحمي المدارس التي تتبعه إن تطالها أيدينا».

(١) عبد الحميد الثاني (مذكراتي السياسية) (ص١٨٧).

(٢) الدولة العثمانية من الإصلاح إلىٰ الحداثة (ص٣٠٥-٣٠٧).





[الفصل العاشر:

عنايتهم بمشاورتهم لأهل العلم]

الشورىٰ نموذج سليم، وطريق قويم في جمع الصف، والقضاء علىٰ الاستبداد والطبقية في المجتمع، وهو من مقدمات النصر، ومفاتيح الفلاح والظفر في الحياة، ووسيلة من وسائل تقوية روح الجماعة، وحث أفرادها علىٰ تقديم المصلحة العامة علىٰ المصلحة الفردية.

فالشورىٰ نظام حياة ليست مؤقتة بوقت أو محددةٌ بمكان، بل هي أنموذج نبوي، وطريق قويم سلفي، تمسك بها أصحاب النبي ﷺ، وسار عليها الفاتحون الكبار، ففتح الله لهم، وجمع القلوب عليهم.

والتشاور والمشاورة والمشورة: «استخراج الرأي بمراجعة البعض إلىٰ البعض من قولهم: شرت العسل إذا اخذته من موضعه واستخرجته منه، وشرت العسل وأشرته: أخرجته»(١).

روىٰ البيهقي في «معرفة السنن والآثار»، بسنده عن الزهري قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحدًا أكثر مشاورةً لأصحابه من رسول الله ﷺ»(٢).

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص٤٧٠).

(٢) قلت: هو منقطع، فإنَّ الزهري لم يروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي رؤيته احتمال كما ذكر ذلك الذهبي في «السير».

ورواه البغوي في «شرح السنة» (٣٦١١)، بنحوه من حديث الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها، وفي إسناد البغوي طلحة بن زيد، متروك، واتهمه بالوضع ابن المديني =

وقال الحسن البصري: «إنْ كان النبي ﷺ عن مشاورتهم لغنيًا، ولكنَّه أراد أن يستنَّ بذلك الحكام بعده»[١].

قال الإمام البخاري: «وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلىٰ غيره، اقتدًاء بالنبي ﷺ.

وكان القرَّاء[٢] أصحاب مشورة عمر، كهولًا أو شبَّانًا، وكان وقَّافًا عند كتاب الله ﷻ»[٣].

ومن تأمل في سياسة الملوك، وجد أنَّ من خير الوسائل المعينة في تمكين دولتهم، ونشر العدل في بلادهم، هو تحقيق مبدأ الشورىٰ.

فعند النظر في خلافة سليمان بن عبد الملك، نجد من أهم الاعتبارات استشارته العلماء والنصحاء من ذوي الخبرة في كل أمور الأمصار، فقد اتخذ عمر بن عبد العزيز وزيرًا ومستشارًا، وقد صدر سليمان عن رأيه في عزل عمال الحجاج، وممَّن كان يستشيرهم رجاء بن حيوة الكندي، فقد ولىٰ سليمان محمد بن يزيد الأنصاري -ويقال القرشي- إفريقية بمشورته[٤].

= وأحمد وأبو داود.

وذكره الترمذي بقوله: ويروىٰ عن أبي هريرة ﷺ، كما في «سننه» برقم (١٧١٤)، وذكره ابن قدامة في «المغني» (١٤/ ٢٧)، بلفظ (وروي) بدون عزوه إلىٰ قائل له، وثم ذكره ...»، والله أعلم.

(١) الأم للشافعي (٧/ ١٠٠)، وذكرهما البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (١٤/ ٢٢٨)، و«السنن الكبرىٰ» (١٣٣٠٤).

(٢) هم أهل القرآن، ويقوم مقامهم أهل العلم.

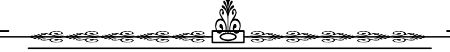
(٣) صحيح البخاري (٢/ ٢٦٨١).

(٤) فتوح مصر (ص٢١٣).

وفي سياسة عبد الرحمن بن الحكم، كان يقدم يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي (ت٢٣٤هـ) قال أحمد بن خالد: «لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلت الإسلام من الخطوة، وعظم القدر وجلالة الذكر، ما أعطيه يحيىٰ بن يحيىٰ». وكان الأمير عبد الرحمن بن الحكم يبجله، بتبجيله الأدب، ولا يرجع عن قوله، ويستشيره في جميع أمره، وفيمن يوليه ويعزله، فلذلك كثر القضاة في مدته[1]. وهكذا في كل دولةٍ كتب الله لها التمكين.



(١) ترتيب المدارك (٣/ ٣٨٢).





[الفصل الحادي عشر:

عنايتهم بمعرفة منزلتهم]

كتب عمر رضي الله عنه إلىٰ أبي موسىٰ رضي الله عنه، وهو بالبصرة: بلغني أنَّك تأذن للناس جمًّا غفيرًا، فإذا جاءك كتابي هذا، فأذن لأهل الشرف، وأهل القرآن، والتقوىٰ، والدين؛ فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة(١).

وفي «صحيح البخاريّ» عن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما قال: «كان القرَّاءُ أصحاب مجلسِ عمرَ ومشاورتِه، كهولًا كانوا أو شبّانًا»(٢).

وفي «سنن أبي داود» عن ميمون بن أبي شبيب، أنَّ عائشة رضي الله عنها مرَّ بها سائل فاعطته كسرة، ومرَّ بها رجل عليه ثياب وهيئة، فأقعدته، فأكل، فقيل لها في ذلك، فقالت: قال رسول الله ﷺ: «**أنزلوا النَّاس منازلهم**»(٣).

قال أبو حازم: «إنَّ خير الأمراء من أحب العلماء، وإنَّ شر العلماء

---

(١) أخبار القضاة لوكيع (١/ ٢٨٦).

(٢) صحيح البخاري (٦٨٥٦).

(٣) سنن أبي داود (٤٨٤٢) وأخرجه البيهقي في «الآداب» (٢٩٩) من طريقه.
وأبو يعلىٰ في «المسند» (٤٨٢٦) والحديث: إسناده منقطع، ميمون بن أبي شبيب لم يدرك عائشة عند الأكثر، وبقية رجاله ثقات، وانظر: «المقاصد الحسنة» للسخاوي (١٧٩).
قال صاحب «عون المعبود» في شرحه للسنن (٥/ ١٣٦): «أي عاملوا كلَّ أحدٍ بما يلائمُ منصبه في الدين والعلم والشرف».

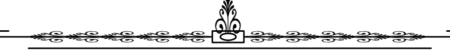
من أحب الأمراء»[١].

وقال قتادة: «أخيار أمرائكم الذين يحبون قراءكم، وشراركم الذين يحبون أمراءكم»[٢].



(١) السير للذهبي (٦/ ١٠١) وقد كتبت في ذلك كتابين بحمد الله، وطبع أحدهما وهو «احترام العلماء وتوقيرهم (الجزاء من جنس العمل) أهل الحديث أنموذجًا». ويسر الله طبع الآخر.

(٢) حلية الأولياء (١٠/ ٢٤).





[الفصل الثاني عشر:

عنايتهم بكفالتهم لأهل العلم]

ومن التَّكريم الذي وقع في سير العلماء من قبل السلاطين والأمراء كفايتهم عن ذلة السؤال وإكرامهم بالعطاء والنوال، وقد بوَّب علىٰ ذلك أبو بكر الخطيب في «شرف أصحاب الحديثِ»، فقال: «منْ جعل من الخلفاء في بيت المال نصيبًا لأصحاب الحديث»[(١)].

وقبل عرض الصور الجليلة، والمواقف الفاضلة النبيلة في إعانة الأمراء لأهل العلم ذوي الخصال الحميدة، ينبغي علينا أن نذكر بأنَّ إعانة أهل العلم بالمال، هو عونٌ لهم علىٰ طلب العلم، وتسديد لهم في تعليمه ونشره، فتقديم المال لهم من أفضل القرباتِ، وأجلِّ الطاعات.

قال ابن القيم: «فالعالم -ومثله طالب العلم- إذا منح غناء، فقد أعين علىٰ تنفيذ علمه، وإذا احتاج إلىٰ النَّاس، فقد مات عِلْمُه وهو ينظر»[(٢)].

وحُكي أنَّ ابن طولون كان يتنكر[(٣)] ويخرج فيسمع قراءة الأئمة في

---

(١) شرف أصحاب الحديث (ص٨٩) ط: البصيرة، وفي زمن دولة المرابطين، (كان خمس الفيء للفقهاء والعلماء وطلبة العلم).

(٢) إعلام الموقعين (٦/ ١١٣) ط: ابن الجوزي.

(٣) في بعض النسخ يبكر، ومن كان من الأمراء والسلاطين يتنكر، الخليفة العباسي هارون الرشيد رَحِمَهُ اللهُ كان يطوف أكثر الليالي متنكرًا يتفقد أحوال الرعية، كما في «مقدمة كتاب الخراج» لأبي يوسف (ص١١).

المحاريب، فدعا بعض أصحابه يومًا، وقال: امضِ إلىٰ المسجد الفلاني وأعطِ إمامه هذه الدنانير.

قال: فمضيت، فجلست مع الإمام وباسطتُه حتىٰ شكا أنَّ زوجته ضربها الطَّلقُ ولم يكن معه ما يصلح به شأنها، وأنَّه صلىٰ فغلط مرارًا في القراءة، فعدت إلىٰ ابن طولون فأخبرته، فقال: «صدق! لقد وقفت أمس فرأيته يغلط كثيرًا، فعلِمتُ شغلَ قلبه»(١).

وروىٰ بقية، عن أبي بكر بن مريم قال: **كتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ والي حمص**(٢) «انظر الذين نَصَبُوا أنفسهم للفقه، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعطِ كل رجل منهم مائة دينار من بيت المال»(٣).

وبنحوه، عن يحيىٰ بن أبي كثير، قال: **كتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ عماله**: «أن أَجْرُوا علىٰ طلبة العلم الرزق، وفرَّغوهم للطلب»(٤). وبنحوهِ في «سيرته» لابن عبد الحكم(٥).

(١) الأذكياء (ص٧٣)، وهو بنحوهِ في «الطرق الحكمية» لابن القيم (١/ ١١٣). وفي قصة مشابهة في «حلية الأولياء (٩/ ١٣٢) قال المزني: «ما رأيت رجلًا أكرم من الشافعي، خرجت معه ليلة عيد من المسجد، وأنا أذاكره في مسألة، حتىٰ أتيت باب داره، فأتاه غلام بكيس، فقال: مولاي يقرئك السلام، ويقول لك: خذ هذا الكيس. فأخذه منه وأدخله في كمه، فأتاه رجل من الحلقة، فقال يا أبا عبد الله، ولدت امرأتي الساعة، ولا شيء عندي، فدفع إليه الكيس، وصعد وليس معه شيء».

(٢) وترجم الذهبي في «سيره»: (٢٠/ ٢٢٩-٢٣٠)، فقال: «أنر معين الدين الطغتكيني، أمير سائس، رئيس شجاع، مهيب، فحل الرأي، دبر دولة أولاد أستاذه.
وكان يحب العلماء والصلحاء، ويبذل المال، وله مواقف مشهودة، وغزو كثير، وكان حسن الديانة».

(٣) تاريخ الإسلام (٣/ ٧١٤)، و«السير» (٥/ ٣٢٣).

(٤) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٤٧).

(٥) (ص١٤١).

وعن الحسن، أنَّ عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان رضي الله عنهما «كانا يرزقان المؤذنين والأئمة والمعلمين والقضاة»[(١)].

وهذا **الخليفة المهدي محمد بن المنصور العباسي** (ت١٦٩هـ). كان جوادًا، ممداحًا، معطاءً، محببًا إلىٰ الرعية، قصابًا في الزنادقة، باحثًا عنهم، مليح الشكل.

قال مالك: قال لي المهدي: يا أبا عبد الله! لك دار؟

قلت: لا.

«فأمر لي بثلاثة آلاف دينار».

وقيل: «إنَّه وصل **عبد العزيز بن الماجشون** بعشرة آلاف دينار»[(٢)].

وأشخص المهدي **إلىٰ أبي معشر -نجيح بن عبد الرحمن صاحب المغازي (ت١٧٠هـ)-** معه من المدينة إلىٰ العراق، وأمر له بألف دينار، وذلك سنة ستين ومائة، وقال: «تكون بحضرتنا، فتفقه من حولنا»[(٣)].

وعن الزبير بن سليمان القرشي، عن الشافعي قال: «خرج هَرْثَمَة فأقرأني سلَام أمير المؤمنين هارون، قال: وقد أمر لك بخمسة آلاف دينار.

قال: فَحُمل إليه المال، فدعا بحجَّام فأخذ من شعره فأعطاه خمسين دينارًا. ثمَّ أخذ رقاعًا وصر من تلك الدنانير صُرَرًا ففرقها في القرشيين الذين هم بالحضرة من أهل مكة حتىٰ ما رجع إلىٰ بيته إلا بأقل من مائة دينار»[(٤)].

---

(١) تاريخ بغداد (٢/ ٤٧٢).

(٢) السير للذهبي (٧/ ٤٠٢-٤٠٣).

(٣) السير للذهبي (٧/ ٤٣٩-٤٤٠) وتمام الخبر في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٤٢٨) فشخص أبو معشر معه إلىٰ مدينة السلام سنة إحدىٰ وستين.

(٤) مناقب الشافعي (٢/ ٢٢٦) فانظر لكرم الرشيد، ولكرم الشافعي رحمهما الله.

وقيل: إنَّ هارون أعطىٰ ابن عيينة مائة ألف درهم، وأعطىٰ مرةً أبا بكر بن عياش ستة آلاف دينار[١].

ومثله وزيره يحيىٰ بن خالد (ت١٩٠هـ) يجري علىٰ الإمام سفيان بن عيينة كل شهر ألف درهم، وكان سفيان يدعو له في سجوده يقول: «اللهم إنَّه قد كفاني أمر دنياي فاكفه أمر آخرته».

فلمَّا مات يحيىٰ رآه بعض أصحابه في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟

قال: «غفر لي بدعاء سفيان»[٢].

وقال محمد بن سعد (ت٢٣٠هـ): زارني الواقدي (ت٢٠٧هـ) مغتمًا، فقال لي: لا تغتم فإنَّ الرزق يأتي من حيث لا تحتسب؛ أملقت مرة حتىٰ بعت برذوني، فاستبطأني يحيىٰ بن خالد، فاعتذرت إليه، فوقف علىٰ حالي فأمر لي بخمسمائة دينار، فصرت بها إلىٰ البيت، فأنا في تصريفها في قضاء الدين وعلىٰ العيال إذ طرقني رجل من أهل المدينة قد قطع عليه الطريق، من ولد أبي بكر ﵁، فشكا إليَّ حاله، فدفعت إليه ما فضل، ولم أشتر برذونًا، فاستبطأني يحيىٰ بن خالد، فأخبرته الخبر. فوجه إلىٰ البكري فسأله، فقال: نعم، أخذت الدنانير منه، فلما صرت بها إلىٰ البيت جاءني فلان الأنصاري، فشكا إلي حاله فدفعتها إليه، فوجه يحيىٰ إلي الأنصاري فأخبره، فتعجب من الكرم ثمَّ أمر لي بألف دينار وللبكري بمثلها، ولزوجتي بخمسمائة لغمها حين دفعت الدنانير إلىٰ البكري[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٨٩-٢٩٠).

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ٦٧٩).

(٣) ترتيب المدارك (٣/ ٢١٢-٢١٣).

وكان السلطان محمد الفاتح (ت٨٨٦هـ) رحمه الله يعتني بالعلماء والأدباء، وكان لهم مكانة خاصة لديه، فقرب العلماء، ورفع قدرهم، وشجعهم علىٰ العمل، والإنتاج، وبذل لهم الأموال، ووسع لهم العطايا، والمنح، والهدايا؛ ليتفرغوا للعلم، والتعليم، ويكرمهم غاية الإكرام، ولو كانوا خصومه، فبعد أن ضم القرمان إلىٰ الدولة أمر بنقل العمَّال، والصُّناع إلىٰ القسطنطينية، غير أنَّ وزيره روم محمد باشا ظلم النَّاس ومن بينهم العلماء، وأهل الفضل، ومن بنيهم العالم أحمد جلبي، فلمَّا علم السلطان محمد الفاتح بأمره؛ اعتذر إليه، وأعاده إلىٰ وطنه مع رفقائه معززًا مكرَّمًا[1].

وفي إعانتهم سبب لرحلاتهم العلمية، وجوبهم الآفاق، وقطعهم القفار، وركوبهم البحار، طلبًا للفائدة، وحرصًا علىٰ نقلهم العلم وتلقينه.

وقد كتبت في كتابي لذة العلم فصلًا بعنوان: (من تحسر لعدم الخروج بسبب الفقر وقلة ذات اليد)[2]، وذكرت جملة من الأقوالِ في الباب، ومن ذلك قول سحنون (ت٢٤٠هـ): «كنت عند ابن القاسم (ت١٩١هـ)، وجوابات مالك ترد عليه. فقيل له: فما منعك من السماع منه؟

قال: قلَّة الدراهم.

وقال مرَّة أخرىٰ: لحىٰ اللهُ الفقرَ، فلولاه لأدركتُ مالكًا»[3].

وقال الإمام عبد الرزاق (ت٢١١هـ): «ما رأيت أحدًا أحفَظَ لما عنده من الثوري. قيل له: ما منعك أنْ ترحل إلىٰ الزهري؟

(١) الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (ص١٥٠) ط: ابن كثير.

(٢) (ص٢٧٣) فانظره غير مأمور.

(٣) ترتيب المدارك (٤/ ٤٦).

قال: لم تكن دراهم»[١].

ولعلك تتمعن بهذه الحادثة؛ قال أبو العباس البكري من ولد أبي بكر الصديق: جمعت الرحلة بين محمد بن جرير، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، ومحمد بن نصر المروزي، ومحمد بن هارون الروياني بمصر، فأرملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم، وأضر بهم الجوع، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه، فاتفق رأيهم علىٰ أن يستهموا ويضربوا القرعة، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة علىٰ محمد بن إسحاق بن خزيمة، فقال: لأصحابه أمهلوني حتىٰ أتوضأ وأصلي صلاة الخيرة، قال: فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع وخصي من قبل والي مصر يدق الباب، ففتحوا الباب فنزل عن دابته، فقال: أيكم محمد بن نصر؟

فقيل: هو هذا.

فأخرج صرة فيها خمسون دينارًا فدفعها إليه، ثمَّ قال: أيكم محمد بن جرير؟ فقالوا: هو ذا فأخرج صرة فيها خمسون دينارًا فدفعها إليه، ثمَّ قال: أيُّكم محمد بن هارون؟

فقالوا: هو ذا فأخرج صرة فيها خمسون دينارا فدفعها إليه، ثمَّ قال: أيُّكم محمد بن إسحاق بن خزيمة؟

فقالوا: هو ذا يصلي، فلما فرغ دفع إليه الصرة، وفيها خمسون دينارًا، ثمَّ قال: «إنَّ الأمير كان قائلًا بالأمس فرأىٰ في المنَّام خيالًا قال: إنَّ المحامد طووا كشحهم جياعًا، فأنفذ إليكم هذه الصرار، وأقسم عليكم إذا نفدت فابعثوا إليَّ أمدكم»[٢].

---

(١) السير (٧/ ٢٤٦).

(٢) تاريخ بغداد (٢/ ٥٤٨)

وكان عيسىٰ بن مسكين (ت٢٩٥هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «المعاش مذلٌّ لأهل العلم»[١].

وفي إعانتهم تقليل للهم؛ وقلة الهم خير معين لحفظ العلم ونشره، كما قرره جماعة من أهل العلم، كالزرنوجي (ت٥٩١هـ)[٢]، وابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)[٣]، والنووي (ت٦٧٦هـ)[٤]، ونجم الدين ابن قدامة (ت٦٨٩هـ)[٥]، وغيرهم.

ومن أجمع الكلام في هذا المقام، قول ابن جماعة (ت٧٣٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «رأس ماله -يعني طالب العلم- جمع الخاطر، وإجمام القلب، واشتغال الفكر»[٦]. وهذا لا يكون إذا كان الطالب أو العالم محتاجًا أو مدينًا!.

وقال أبو الفرج في «صيده»: «هيهات أنْ يجتمع الهم مع التلبس بأمور الدنيا! خصوصًا الشاب الفقير، الذي قد أَلِف الفقر؛ فإنَّه إذا تزوج، وليس له شيء من الدنيا، اهتم بالكسب، أو بالطلب من النَّاس، فتشتت همته، وجاءه الأولاد، فزاد الأمر عليه، ولا يزال يرخص لنفسه فيما يحصل إلىٰ أن يتلبس بالحرام.

---

(١) ترتيب المدارك (٤/ ٣٤٨).

(٢) كما في «تعليم المتعلم» (ص١٣٢)، وقال: «وأما ما يورث النسيان فهو: المعاصي، وكثرة الذنوب، والهموم والأحزان في أمور الدنيا، وكثرة الاشتغال والعلائق».

(٣) كما في «صيد الخاطر» (ص١٩٢)، وقال فيه: «والخلوة أصل، وجمع الهم أصل الأصول».

(٤) مقدمة المجموع في شرح المهذب (١/ ٣٨).

(٥) كما في «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢١)، وقال: «وينبغي له قطع العلائق الشاغلة، فإنَّ الفكرة متىٰ توزعت قصرت عن إدراك الحقائق».

(٦) تذكرة السامع والمتكلم (ص٨٩).

ومن يفكر، فهمته ما يأكل، وما يأكله أهله، وما ترضىٰ به الزوجة من النفقة والكسوة، وليس له ذلك، فأي قلب يحضر له؟! وأي هم يجتمع؟!

هيهات! والله لا يجتمع الهم، والعين تنظر إلىٰ النَّاس، والسمع يسمع حديثهم، واللسان يخاطبهم، والقلب متوزع في تحصيل ما لا بدَّ منه»(١).

وإنَّما ذكرت ذلك لأبين أنَّ عون طالب العلم بالمال، هو عون له علىٰ طلبه ونشره.

ولله در القاضي عبد الوهاب المالكي (ت٤٢٢هـ) القائل:

يَا لهَفَ نَفَسيَ عَلَىٰ شيْئيْنِ لَوْ جُمِعَا ... عِنْدِيَ لكُنْتُ إِذًا مِنْ أَسعدِ البَشَرِ
كَفَافُ عيْشٍ يَقِينيَ ذُلَّ مسْأَلةٍ ... وَخِدْمَةُ الْعِلمِ حتَّىٰ ينْقَضِي عُمُري

وقال أبو صالح: «**حضرتُ مجلس يزيد بن هارون (ت٢٠٦هـ)** فأملىٰ ثلاثين حديثًا فحفظتها، فجئت إلىٰ منزلي فنسيت منها ثلاثة فجاءتني الجارية، وقالت: يا مولاي، فني الدقيق فنسيت سبعة وعشرين، وبقيت ثلاثة»(٢).

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «لا تشاور من ليس في بيته دقيق؛ فإنَّه مُدَلَّهُ العقل»(٣).

ويحكىٰ عنه أنَّه قال: «لو كُلِّفتُ شراءَ بصلةٍ لما فهمت مسألة».

وقال الإمام أبو حنيفة (ت١٥٠هـ): «يُستعان علىٰ الفقهِ بجمعِ الهم، ويستعانُ علىٰ حذف العلائق بأخذ اليسيرِ عند الحاجة ولا يزد»(٤).

---

(١) صيد الخاطر (ص٣٦٨).
(٢) إكمال تهذيب الكمال (١/ ١٠٣).
(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ١٠٣).
(٤) تذكرة السامع والمتكلم (ص٨٧-٨٨).

وقد نصَّ أهل العلم أنَّ هذه الكفالة والإعانة واجبة علىٰ ولي الأمر.

قال أبو حاتم البستي (ت٣٥٤هـ): «الواجبُ علىٰ السلطان قبل كل شيء أن يبدأ بتقوىٰ اللَّه، وإصلاح سريرته بينه وبين خالقه، ثمَّ يتفكرُ فيما قلَّده اللَّه من أمر إخوانه ورفعه عليهم؛ ليعلم أنَّه مسئول عنهم في دقِّ الأمور وجلِّها، ومحاسب علىٰ قليلها وكثيرِها، ثمَّ يتخذ وزيرًا صالحًا عاقلًا عفيفًا نصوحًا، وعمالًا صالحين.

ثمَّ يتفقد أهل العلم والقراء والمؤذنين والصالحين وضعفاء المسلمين، وليكن لمن هو أصغر سنًا منه أبًا، ولمن هو أكبر منه ابنًا، ولأترابه -أقارنهِ- أخًا؛ فيكون في تفقد أمورهم، ولصلاح أسبابهم؛ أكثر من تفقدهم بأنفسهم»[1].

وقال الماوردي الشافعي (ت٤٥٠هـ): «وهذا أمرٌ يجب علىٰ الملك مراعاته؛ لما فيه من حراسة الدين، وحفظ المملكة، وحسم ذلك أنْ يراعي العلم وأهله، ويصرف إليهم حظًا من عنايتِه، ويعتمدُ أهل الكفاية منهم بالتقريب والصيانة، وأهل الْخلَّة منهم بِالْبرِّ والمعونة، ليكون العلم به أنشر، والتوفر عليه أكثر، والنَّاسُ له أشكر؛ ففي ذلك بهاء الملك، وإعزاز الدّين، وخلود الذكر»[2].

وقال الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ): «وفرض علىٰ الإمام أن يأخذ الناس بذلك، ويرتب أقوامًا لتعليم الجهال، ويفرض لهم الرزق في بيت المال، ويجب علىٰ العلماء تعليم الجاهل، ليتميز له الحق من الباطل»[3].

---

(١) روضة العقلاء (ص٢٠٠).

(٢) تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك (ص٢٧٨).

(٣) الفقيه والمتفقه (١/ ١٧٤)، و«المجموع شرح المهذب» (١/ ٤٦).

وقال الغزالي أبو حامد (ت٥٠٥هـ): «فكل من يتولىٰ أمرًا يقوم به تتعدىٰ مصلحته إلىٰ المسلمين، ولو اشتغل بالكسب لتعطل عليه ما هو فيه، فله في بيت المال حق الكفاية.

ويدخل فيه العلماء كلهم أعني العلوم التي تتعلق بمصالح الدين، من علم الفقه، والحديث، والتفسير، والقراءة؛ حتىٰ يدخل فيه المعلمون والمؤذنون، وطلبة هذه العلوم أيضًا يدخلون فيه؛ فإنهَّم إن لم يكفوا لم يتمكنوا من الطلب»[١].

وقال ابن جماعة (ت٧٣٣هـ) في ذكر واجباتِ الخليفة: «حفظ الدين علىٰ أصوله المقررة، وقواعده المحررة، ورد البدع، والمبتدعين، وإيضاح حجج الدين، ونشر العلوم الشرعية، وتعظيم العلم وأهله، ورفع مناره ومحله، ومخالطة العلماء الأعلام، النصحاء لدين الإسلام، ومشاورتهم في موارد الأحكام، ومصادر النقض والإبرام»[٢].

وقال السبكي (ت٧٧١هـ) الشافعي: «ومن وظائفه -يعني السلطان- الفكرة في العلماء والفقراء وسائر المستحقين، وتنزيلهم منازلهم، وكفايتهم من بيت المال الذي هو في يده أمانة عنده، ليس هو فيه إلَّا كواحد منهم، ولدلوه نسبة دلاء المسلمين، فإن ترك العلماء والفقراء جياعًا في بيوتهم يبيتون، ومنهم من يطوي الليلة والليلتين هو وعياله. وآخر يمنّ بعظيم مُلكه، ومحاسن سماطه، وزينته ولباسه ولباس حاشيته، فذلك أحمق جهول»[٣].

وقال ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) في «السر المصون»: «وقد كان للعلماء قديمًا حظٌ من بيت المال يغنيهم.

---

(١) الإحياء (٢/ ١٤٠).

(٢) تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام (ص٦٥) ط: دار الثقافة.

(٣) معيد النعم ومبيد النقم (ص٢١).

وكان فيهم من يعيش في ظل سلطان كأبي عبيد مع ابن طاهر، والزجاج مع ابن وهب.

ثمَّ كان للعلماء من يراعيهم من الإخوان حتىٰ قال ابن المبارك: «**لولا فلان وفلان ما اتجرت**»(١)، وكان يبعث بالمال إلىٰ الفضيل وغيرهم.

ثمَّ قل ذلك المعنىٰ فصار أقوامٌ من التَّجار يفتقدون العلماء بالزكاة فيندفع الزمان.

وقد وصلنا إلىٰ زمانٍ تقطعت فيه هذه الأسبابُ حتىٰ لو احتاج العالم فطلب لم يعط! فأولىٰ النَّاسِ بحفظ المال وتنمية اليسير منه، والقناعة بقليله، توفيرًا لحفظ الدين والجاه، والسلامة من منن العوام الأراذل العالم الذي فيه دين وله أنفة من الذل»(٢).

يا لهفَ نفسي علىٰ مالٍ أفرقُهُ — علىٰ المقلينَ منْ أهلِ المروءاتِ
إنَّ اعتذارِي إلىٰ منْ جاءَ يسألُني — ما ليسَ عندي لمِن إحدَىٰ المصيباتِ

ويذكر أنَّ الشيخ الحداد المهدوي باع كتابَه اضطرارًا وفقرًا، فتسأله زوجته -وهي تعرف حُبَّه لكُتُبِه، وشِدَّة تعلقه بها- كيف بعتَ الكتب وهي أعزُّ شيءٍ لديك؟! فيقول لها(٣):

قالتْ: وأبدتْ صفحةً — كالشمسِ منْ تحت القناعِ
بعتَ الدفاترَ وهي آ — خِرُ ما يُبَاعُ مِن المتاعِ
فأجبتُها، ويدي علىٰ — كبدي وهمّت بانصداعِ

---

(١) وفي روح البيان (٣/ ٢٨٧) كان يقول: «لولا خمسة ما اتجرت السفيانان، وفضيل، وابن السماك».

(٢) الآداب الشرعية (١/ ٢١٩).

(٣) صلاح الأمة في علو الهمة (١/ ٤٤٩).

لا تــعــجــبــي فــيــمــا رأيــ ـتِ فنحنُ في زمنِ الضّياعِ[١]

قلت: هذا في زمانهم، فكيف بالله بزماننا؟!

وما نقله ابن الجوزي عن ابن المبارك، ذكره المزي في «تهذيب الكمال» عن إسماعيل بن عيَّاش (ت١٨١هـ) قال: قلت لعبد الله بن عثمان بن خثيم: ما كان معاش عطاء؟

قال: «صلة الإخوان، ونيل السلطان»[٢].

وقال حسان بن أبي سنان (ت١٨٠هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لولا المساكينُ ما اتجرت»[٣].

وقال محمد بن عبد الله الحافظ النيسابوري، المعروف بـ (حسينك): «اللهم إنَّك تعلم أنَّي لا أدخر ما أدخره، ولا أقتني هذه الضياع إلا للاستغناء عن خلقك، والإحسان إلىٰ أهل السنة والمستورين»[٤].

وقال علي بن الفضيل: سمعت أبي وهو يقول لابن المبارك: يا ابن المبارك أنت تأمرنا بالزهد، والتقلل، والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلىٰ البلد الحرام، كيف ذا؟ فقال ابن المبارك: يا أبا علي إنما أفعل ذا لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، واستعين به علىٰ طاعة ربي، لا أرىٰ لله حقًا إلا سارعت إليه حتىٰ أقوم به.

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي (٥/ ٢٣٢) ط: صادر.

(٢) تهذيب الكمال (٢٠/ ٨٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٥/ ٨٤).

(٣) صفة الصفوة (٣/ ٣٤٠)، وتصحفت في (نسخة المعرفة)، والمثبت من (طبعة دار الحديث)، والعزو (لدار للمعرفة). ورواه أحمد في «الزهد» (١٨٢٦) عن مورق العجلي أنه كان يتجر فيصيب المال فيفرقه علىٰ الفقراء والمساكين يقول: «لولاهم ما اتجرت».

(٤) تاريخ بغداد (٨/ ٦٢٧).

فقال له الفضيل: «يا ابن المبارك ما أحسن ذا، إن تم ذا»[(١)].

وعن زهير البناني قال: بلغني أنَّ مورقًا (ت١٠٥هـ) كان يصوم الدهر، ويفطر علىٰ قرصين خفيفين، وكان له مال يتجر فيه علىٰ فضله، فيتصدق به علىٰ أهل الحاجة ويصل به إخوانه، وكان يقول: «لولا الفقراء ما تعرضت للتجارة»[(٢)].

وقيل لابن المنكدر (ت١٣٠هـ): أي الدنيا أحب إليك؟ قال: «الإفضال علىٰ الإخوان»[(٣)].

وقال محمد بن عبد الواحد الزاهد (ت٣٤٥هـ): «ترك قضاء حقوق الإخوان مذلة، وفي قضاء حقوقهم رفعة، فاحمدوا الله علىٰ ذلك، وسارعوا في قضاء حوائجهم ومسارهم، تكافئوا عليه»[(٤)].

وقد قيل: «رفعُ الحوائج، أشدُّ من نُزولِ الجوائح»[(٥)].

وقال ابن الأزرق بعد أن ذكر (أن الله تكفَّل لطالب العلم برزقه) و(طالب العلم مُعان): وقد كان شيخنا الأستاذ القاضي أبو إسحاق البدوي[(٦)] رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «عليكم بالقراءة؛ فإنا ما رأينا طالب علم يمدُّ يدَه بسؤال صدقة في الأسواق كما يفعل المحاويج وذوو الاضطرار من الجُهّال»[(٧)].

---

(١) تاريخ بغداد (١١/ ٣٨٨).
(٢) الزهد لأحمد (١٨٢٧).
(٣) السير للذهبي (٥/ ٣٥٦).
(٤) تاريخ بغداد (٣/ ٦١٨).
(٥) ذيل الكلم النوابغ للزمخشري (ص٤٠٥) ط: دار اللباب. و(الحوائج): جمع حاجة. و(الجوائح): وهي النازلة.
(٦) أبو إسحاق الحميري البدوي الدمشقي له ترجمة في «غاية النهاية في طبقات القراء» (١/ ٢٢).
(٧) روضة الإعلام (ص٤٨٠).

ولنعد إلىٰ حديثنا ونتذاكر فيه ما يقرب لنا حال السلف، وقادة الأمة وفاتحيها، من العناية الكبيرة، والإعانة الجليلة لأهل العلم، فنذكر بعون الله:

قال مالك: كتب أبو موسىٰ الأشعري (ت٤٤هـ) رضي الله عنه إلىٰ عمر بن الخطاب (ت٢٣هـ) رضي الله عنه أنَّه قد قرأ القرآن عندنا عدد كذا وكذا، فكتب إليه عمر: «أنْ افرض لهم من بيت المال، فلمَّا كان في العام الثاني كتب إليه أنَّه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير، لأكثر من ذلك؛ فكتب إليه عمر: أنْ امحهم من الديوان؛ فإنِّي أخاف إن يسرع النَّاس في القرآن أن يتفقهوا في الدين فيتأولوه علىٰ غير تأويله»[١].

وذُكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه كتب إلىٰ أبي عبيدة -بن الجراح- ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما بالشام: «أن انظروا رجلًا من أهل العلم من الصالحين من قبلكم، فاستعملوهم علىٰ القضاء وأوسعوا عليهم من الرزق»[٢].

وقال معاوية (ت٦٠هـ) رضي الله عنه لضرار الصّدائي: يا ضرار، صف لي عليّا، فقال: يعظم أهل الدين، ويحبّ المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخىٰ الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه، قابضًا علىٰ لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: «يا دنيا إليك عنّي! غرّي غيري، أليَّ تعرّضت، أم إليَّ تشوّفت؟ هيهات! قد باينتك ثلاثًا، لا رجعة لي عليك؛ فعمرك قصير، وخطرك حقير، وخطبك يسير؛ آهٍ من قله الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق»! فبكىٰ معاوية حتىٰ

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٣٤)، وينظر: في «الطبقات» لابن سعد (٩/ ١٣٠) مختصرًا.
وانظر: «الجامع» لمعمر (١١/ ٢١٧)، و«المعرفة والتاريخ» (١/ ٥١٦)، و«المستدرك» (٣/ ٥٤٠)، و«السنة» لعبد الله بن أحمد (١/ ١٣٥).

(٢) شرح أدب القاضي للخصاف شرح الصدر الشهيد (٢/ ٩).

أخضلت دموعه لحيته؛ وقال: «رحم الله أبا الحسن! فلقد كان كذلك»[(١)].

وعن أم الدرداء الصغرىٰ هجيمة (ت٨٢هـ) تقول: ما بال أحدكم يقول: «اللهم ارزقني، وقد علم أن الله لا يمطر عليه من السماء دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما يرزق بعضكم من بعض، فمن أُعطىٰ شيئًا فليقبله فإن كان عنه غنيًا فليضعه في ذي الحاجة من إخوانه، وإن كان فقيرًا فليستغن به علىٰ حاجته، ولا يردّ علىٰ الله رزقه الذي رزقه»[(٢)].

وحكىٰ أهل التاريخ: أنَّ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ دخل عليه بنوه في مرض موته، وكانوا بضعة عشر ذكرًا ليس فيهم بالغ، وكان قد قيل له: يا أمير المؤمنين أفغرت أفواه بنيك من هذا المال، وتركتهم فقراء لا شيء لهم.

فقال: «أدخلوهم عليَّ، فلمَّا رآهم، ذرفت عيناه بالدموع، ثمَّ قال: يا بنيَّ، والله ما منعتكم حقًا هو لكم، ولم أكن آخذ أموال المسلمين فأدفعها إليكم، فإنَّما أنتم أحد رجلين: إمَّا صالح، فالله يتولىٰ الصالحين، وإمَّا غير صالح، فلا أترك له ما يستعين به علىٰ معصية الله، قوموا عنِّي فانصرفوا ولم يعطهم شيئًا».

قال الراوي: فلقد رأيت بعضهم حمل علىٰ مائة فرس في سبيل الله تعالىٰ يعني: دفعها لمن يغزو عليها. وكان ما حصل لكل واحد من أولاده من تركه أبيهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقال: أنَّه أقل من عشرين درهمًا، هذا وقد كان عمر خليفة المسلمين، من أقصي المشرق ببلاد الترك إلىٰ أقصىٰ المغرب بالأندلس وجزيرة قبرص وثغور الشام، والعواصم كطرسوس وغيرها إلىٰ أقصىٰ اليمن.

(١) زهرة الآداب (١/ ٧٨-٧٩).

(٢) تذهيب تهذيب الكمال (١١/ ٢٠١).

قال: ولقد حضرت موت بعض الخلفاء بعده وقد اقتسم بنوه تركته، فحصل لكل واحد منهم ستمائة ألف دينار، ثمَّ رأيت بعضهم يتكفف الناس بعد ذلك -أي يسألهم بكفه-. فليتأمل العاقل هذه الحكاية، فإنَّ فيها عظة وعبرة لمن يعتبر، نسأل الله التوفيق لما يحب ويرضىٰ[1].

وهذا عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص (ت٨٦هـ)، يقول الإمام الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: أصاب أهل المدينة حاجة زمان عبد الملك بن مروان، فعمت أهل البلد، وقد خيل إليَّ أنَّه قد أصابنا أهل البيت من ذلك ما لم يصب أحدًا من أهل البلد، وذلك لخبرتي بأهلي، فتذكرت هل من أحد أمت إليه برحم أو مودة أرجو إن خرجت إليه أن أصيب منه شيئًا، فما علِمت من أحدٍ أخرج إليه، ثمَّ قلت: إنَّ الرزق بيد الله، ثمَّ خرجت حتىٰ قدمت دمشق، فوضعت رحلي ثمَّ غدوت إلىٰ المسجد، فعمدتُ إلىٰ أعظمِ مجلسٍ رأيته في المسجد، وأكثره أهلًا، فجلست إليه، فبينما نحن علىٰ ذلك إذ خرج رجل من عند عبد الملك بن مروان كأجسم الرجال وأجملهم وأحسنهم هيئة، فأقبل إلىٰ المجلس الذي أنا فيه، فتحثحثوا له، أي أوسعوا، فجلس فقال: لقد جاء أمير المؤمنين اليوم كتاب ما جاءه مثله منذ استخلفه الله، قالوا: ما هو؟

قال: كتب إليه عامله بالمدينة هشام بن إسماعيل يذكر أنَّ ابنًا لمصعب بن الزبير ابن أم ولد مات، فأرادت أمَّه أن تأخذ ميراثها فيه، فمنعها عروة بن الزبير، وزعم أنَّه لا ميراث لها، فتوهم أمير المؤمنين في ذلك حديثًا سمعه من سعيد بن المسيب، يذكره عن عمر بن الخطاب في أمهات الأولاد، لا يحفظ أمير المؤمنين ذلك الحديث.

---

(١) بذل النصائح الشرعية فيما علىٰ السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية (ص١١٧).

قال ابن شهاب: أنا أحدثكم، فقام إليَّ قبيصة حتَّىٰ أخذ بيدي، ثمَّ خرج بي حتَّىٰ دخل الدار علىٰ عبد الملك، ثمَّ جاء إلىٰ البيت الذي فيه عبد الملك فقال: السلام عليكم، فقال له عبد الملك مجيبًا: وعليكم السلام، فقال له قبيصة: أندخل؟

قال عبد الملك: ادخل.

فدخل قبيصة وهو آخذ بيدي، وقال: هذا يا أمير المؤمنين يحدث بالحديث الذي سمعت من ابن المسيب في أمهات الأولاد، فقال عبد الملك: إيهٍ، قال: فقلت: سمعت سعيد بن المسيب يذكر أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر لأمهات الأولاد أن يقمنَ في أموالِ أبنائهنَّ بقيمة عدلٍ، ثمَّ يعتقن، فمكث بذلك صدرًا من خلافته، ثمَّ توفي رجل من قريش كان له ابن من أم ولد، كان عمر يعجب بذلك الغلام، فمرَّ ذلك الغلام علىٰ عمر في المسجد بعد وفاة أبيهِ بليالٍ، فقال له عمر: ما فعلت يا ابن أخي في أمك؟

قال: فعلت يا أمير المؤمنين خيرًا، خيَّروني بين أن يسترقوا أمي أو يخرجوني من ميراثي من أبي، فكان ميراثي من أبي أهون عليَّ من أن يسترقوا أمي، قال عمر: أو لست إنمَّا أمرت في ذلك بقيمة عدل، ما أرىٰ رأيا، ولا آمر أمرًا، إلا قلتم فيه، ثمَّ قام فجلس علىٰ المنبر فاجتمع الناس إليه، حتىٰ إذا رضي من جماعتهم قال: أيُّها النَّاس، إنِّي قد كنت أمرت في أمهات الأولاد بأمر قد علمتموه، ثمَّ قد حدث لي رأي غير ذلك، فأيُّما امرئٍ كانت عنده أم ولد فملكها بيمينه ما عاش، فإذا مات فهي حرةٌ لا سبيلَ لأحدٍ عليها.

قال عبد الملك: مَن أنت؟

قال: أنا محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب، قال: أمَا والله إن كان لك لأب نعار في الفتنة مؤذيًا لنا فيها، قال: فقلت: يا أمير

المؤمنين، قل كما قال العبد الصالح قال: أجل! ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، افرض لي؛ فإنَّي مقطع من الديوان، قال: إنَّ بلدك لبلدٌ ما فرضنا لأحدٍ فيها منذ كان هذا الأمر، ثمَّ نظر إلىٰ قبيصة، وأنَّي وهو قائمان بين يديه، فكأنَّه أومأ إليه أنْ افرض له، قال: قد فرض لك أمير المؤمنين، قال: قلت: وصلةً تصلنا بها يا أمير المؤمنين؛ فإنَّي والله لقد خرجت من أهلي، وإنَّ فيهم لحاجة ما يعلمها إلا الله، ولقد عمت الحاجة أهل البلد، قال: قد وصلك أمير المؤمنين، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، وخادم تخدمنا؛ فإنَّي والله قد تركت أهلي ما لهم خادم إلا أختي، إنَّها الآن تخبز لهم، وتعجن لهم، وتطحن لهم، قال: وقد أخدمك أمير المؤمنين.

قال ابن شهاب: ثمَّ كتب إلىٰ هشام بن إسماعيل مع ما قد عرف من حديثي أن ابعث إلىٰ ابن المسيب فاسأله عن الحديث الذي سمعت يحدث في أمهات الأولاد عن عمر بن الخطاب، فكتب إليه هشام بمثل حديثي، ما زاد عنه حرفًا، ولا نقص منه حرفًا[(١)].

وكان الوليد بن عبد الملك (ت٩٦هـ) من أفضل خلفاء بني أمية سيرة عند أهل الشام؛ بنىٰ الجوامع (جامع دمشق، وجامع المدينة -علىٰ ساكنها أفضل السّلام- والمسجد الأقصىٰ)، وأعطىٰ المجذمين، ومنعهم من سؤال النّاس. وأعطىٰ كلّ مقعدٍ خادمًا، وكلّ ضرير قائدًا، وفتح في خلافته فتوحًا عظامًا، منها الأندلس وكاشغر، والهند، وكان شديد التكلّف بالعمارات والأبنية، واتّخاذ المصانع والضّياع[(٢)].

(١) حلية الأولياء (٣/ ٣٦٧).

(٢) الفخري لابن طباطبا (ص١٢٧).

وكان الأمير الكبير، **أبو عبد الرحمن اللخمي موسىٰ بن نصير** (ت٩٧هـ)، متولي إقليم المغرب، وفاتح الأندلس قد قدم مصر في هيئة ما سمع بمثلها، فوصل العلماء والأشراف[1].

وأوصىٰ مسلمة بن عبد الملك (ت١٢١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما قال سعيد بن عبد العزيز: بثلث ماله لطلابِ الأدب، وقال: «إنَّها صناعة مجفو أهلها»[2].

وإنَّما المرءُ حديثُ بعدهِ فكنْ حَدِيثًا حَسنًا لمنْ وعىٰ

ومنهم: معن بن زائدة (ت١٥١هـ).

يقول الإمام عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (ت١٥٠هـ) فقيه مكة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فلمَّا نزلت عليه رحبّ بي وسهّل، وقال: ما أقدمك هذه المدرة؟

فقلت: دينٌ ركبني لم تف به جائزة أمير المؤمنين، فضاق ذرعي فلم أر له سواك، فخرجت إليك.

فقال: قدمت خير مقدم، يقضي دينك وتنصرف محبورًا إلىٰ وطنك.

قال: فأقمت عنده شهورًا في أحسن مثوي وأكرم ضيافة، فإنَّي لخارج من عنده يومًا إذ رأيت الناس يتأهبون إلىٰ الحج، فأدركتني وحشة، ولم أملك العبرة، وحنّت نفسي إلىٰ الوطن، فرجعت إليه وقد اغرورقت عيناي بالدموع، فقال لي: مالك؟

قلت: رأيت الناس في أهبة الحج والخروج إلىٰ مكة فذكرت أبياتًا لعمر بن أبي ربيعة حملتني علىٰ ما ترىٰ.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩٨).

(٢) تاريخ الإسلام (٣/ ٣١٢).

قال: وأي أبيات عمر هي؟

فقلت: قوله:

هيهاتَ من أمَةِ الوَهَّاب منزلُنا ... إذا حَلَلْنا بسيفِ البحرِ مِن عَدَنِ

واحتلَّ أهلُكِ أجْيادًا وليسَ لنا ... إلا التذكُّرُ أو حظٌّ مِن الحَزَنِ

فقال: أتعزم علىٰ الرحيل والرجوع إلىٰ وطنك؟

قلت: نعم.

قال: صحبتك السلامة، ورزقت العافية.

وخرجت من عنده فما وصلت إلىٰ موضعي، حتىٰ سبقني خمسة عشر بغلًا عليها عصب اليمن، ودراهم، وضروب من الخير، فقضيت ديني وتأثّلت منه كنزًا مما بيدي اليوم[١].

ومنهم أبو جعفر المنصور (ت١٥٨هـ).

يقول الأستاذ مصطفىٰ صادق الرافعي: «ولقد كانت النهضة العلمية في زمن بني أمية قائمة بأكثر العلوم الإسلامية التي مرَّت الإشارة إليها، حتىٰ امتهد أبو جعفر المنصور؛ ثم الرشيد من بعده للنهضة العباسية الكبرىٰ التي نشأت من جمع كلمة أهل الفقه والحديث بعد انشقاقهم زمنًا وافتراق الكلمة بينهم - ومن إقبال الناس علىٰ الطلب والاستيعاب؛ فكان ذلك تهيئة لانشقاق علوم الفلسفة والكلام وما إليها وظهور أهلها وانحياز السنة عنها جانبًا، ثمَّ اجتماعها علىٰ مناظرتها؛ فإنَّ المنصور لما حج في سنة (١٦٣هـ).

لقيه مالك بن أنس رضي الله عنه بمنىٰ علىٰ ميعاد، بعد الذي كان مما أنزل

(١) بهجة المجالس لابن عبد البر (ص١٧٠-١٧١)، والشعر في «الأغاني» لأبي الفرج (١/١١٩).

به جعفرُ بن سليمان عامل المنصور علىٰ المدينة من الضرب بالسوط وانتهاك الحرمة وإزالة الهيبة.

قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: ثم فاتحني -يعني المنصور- فيمن مضىٰ من السلفِ والعلماء، **فوجدته أعلَم الناس بالنَّاسِ؛ ثمَّ فاتحني في العلم والفقه فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه وأعرفَهم بما اختلفوا فيه**، حافظًا لما روىٰ، واعيًا لما سمع، ثم قال لي: يا أبا عبد الله، ضع هذا العلم ودون منه كتبًا، وتجنَّب شدائدَ عبد الله بن عمر، ورُخَصَ عبد الله بن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد إلىٰ أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمةُ والصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، لنحمل الناس إن شاء الله.

علىٰ علمك وكتبك، ونبثُّها في الأمصار، ونعهدَ إليهم أن لا يخالفوها ولا يقضوا بسواها.

فقلت: أصلح الله الأمير، إنَّ أهل العراق لا يرضون علمنا ولا يرون في علمهم رأينا.

فقال أبو جعفر: يُحمَلون عليه، وتُضرب عليه هاماتُهم بالسيف، وتُقطَع ظهورهم بالسياط!! فتعجل بذلك وضَعها، فسيأتيك محمد ابني (المهدي) العامَ القابل إن شاء الله إلىٰ المدينة ليسمعها منك، فيجدك وقد فرغتَ من ذلك إن شاء الله! . . .»[١].

لقد كان -عصر أبي جعفر المنصور- عصر تدوين الحديث، والفقه، والتفسير، فصنف ابن جريج بمكة، ومالك الموطأ بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وصنف ابن إسحاق المغازي، وصنف أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ الفقه والرأي، ثم بعد يسير صنف هشيم، والليث،

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبويَّة (ص٨٥).

وابن لهيعة، ثم ابن المبارك وأبو يوسف، وابن وهب، وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودونت كتب العربية، واللغة، والتاريخ وأيام الناس، وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم، أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة[١].

وقالوا: كان أبو جعفر المنصور في أول النَّهارِ يتصدىٰ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولايات والعزل، والنظر في المصالح العامة، فإذا صلَّىٰ الظهر دخل منزله، واستراح من بعد ذلك إلىٰ العصر، فإذا صلاها جلس لأهل بيته ومصالحهم الخاصة، فإذا صلَّىٰ العشاء نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق، وجلس عنده من يسامره إلىٰ ثلث الليل، ثمَّ يقوم إلىٰ أهله، فينام في فراشه إلىٰ الثلث الآخر، فيقوم إلىٰ وضوئه وصلاته حتىٰ يتفجر الصباح، ثمَّ يخرج فيصلي بالناس، ثمَّ يدخل فيجلس في إيوانه.

وقيل: ولىٰ بعض العمال علىٰ بلد، فبلغه أنَّه قد تصدىٰ للصيد، وأعد لذلك الكلاب والبزاة، فكتب إليه المنصور: ثكلتك أمُّك وعدمتك عشيرتك، ويحك! إنَّا إنمَّا استكفيناك أمور المسلمين، ولم نستكفك أمور الوحوش، فسلم ما كنت تلي من عملنا إلىٰ فلان، والحق بأهلك ملومًا مدحورًا.

وكان المنصور في شبيبته يطلب العلم من مظانه والحديث والفقه، فنال من ذلك جانبا جيدًا، وطرفًا صالحًا، وقد قيل له يومًا: يا أمير المؤمنين، هل بقي شيء من اللذات لم تنله؟ قال: لا، سوىٰ شيء واحد. قالوا: وما هو؟ فقال: قول المحدث للشيخ: من ذكرت، رحمك الله؟ فاجتمع وزراؤه وكتابه، وجلسوا حوله، وقالوا: ليمل علينا أمير المؤمنين شيئا من الحديث.

---

(١) تاريخ الخلفاء (ص٢٦٤).

فقال: لستم بهم، إنَّما هم الدنسة ثيابهم، المشققة أرجلهم، الطويلة شعورهم، برد الآفاق، ونقلة الحديث..[١].

وقيل: دخل علىٰ المنصور رجل من أهل العلم، فازدراه واقتحمته عينه، فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده، فقال له: أنىٰ لك هذا العلم! قَالَ: لم أبخل بعلم علمته، ولم أستحِ من علم أتعلمه. قَالَ: فَمِن هناك![٢].

وذكر عبد الملك بن الماجشون الفقيه: **أنَّ المهدي (ت١٦٩هـ) أجاز أباه** بعشرة آلاف دينار[٣].

وقال أبو العباس السراج: أخبرنا محمد بن عمرو، سمعت أصحابنا يقولون: **وهب المهدي شعبة** ثلاثين ألف درهم فقسمها، وأقطعه ألف جريب بالبصرة فقدم البصرة فلم يجد شيئًا يطيب له فتركها[٤].

ومنهم: أبو المطرَّف عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموي (ت١٧٢هـ) المشهور: بالداخل؛ لأنَّه حين انقرضت خلافة بني أمية من الدنيا، وقتل مروان الحمار، وقامت دولة بني العباس، هرب هذا، فنجا، ودخل إلىٰ الأندلس، فتملكها.

قال الحميدي: دخل عبد الرحمن الأندلس، فقامت معه اليمانية، وحارب يوسف بن عبد الرحمن الفهري متولي الأندلس، فهزمه، **وكان عبد الرحمن من أهل العلم علىٰ سيرة جميلة من العدل.**

ومنهم: الخليفة هارون الرشيد (ت١٩٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان من أفاضل الخلفاء وفصحائهم، وعلمائهم وكرمائهم. كان يحجّ سنة ويغزو سنة،

---

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٤٦٧-٤٦٨).
(٢) تاريخ الطبري (٨/ ٨٨).
(٣) السير للذهبي (٧/ ٣١٢).
(٤) تذكرة الحفاظ (١/ ١٤٦).

كذلك مدّة خلافته إلا سنين قليلة.

قالوا: وكان يصلّي في كلّ يوم مائة ركعة، وحجّ ماشيًا، ولم يحجّ خليفة ماشيًا غيره.

وكان **إذا حجّ حجّ معه مائة من الفقهاء وأبناؤهم**، وإذا لم يحجّ أحجّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة.

وكان يتشبّه في أفعاله بالمنصور إلا في بذل المال، فإنَّه خليفة أسمح منه بالمال، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخّر.

وكان يحبّ الشّعر والشّعراء ويميل إلىٰ أهل الأدب والفقه، ويكره المراء في الدين[١].

وكان يحب العلماء، ويعظم حرمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، ويبكي علىٰ نفسه ولهوه وذنوبه، لا سيما إذا وعظ.

ولما بلغه موت الإمام عبد الله ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حزن عليه، وجلس للعزاء، فعزاه الأكابر[٢].

قال سعيد بن مسلم: «كان فهمُ الرشيد فهمَ العلماء»[٣]. وقيل: «كان الرشيد يُعرض عليه ألواح أولاده في كل يوم اثنين وخميس»[٤].

ويقول الأستاذ شوقي أبو خليل عن الرشيد: أمَّا أساتذتُه فهم: «(المفضل الضَّبَّي)، أشبعه البلاغة والأدب، إنَّه المفضل بن محمد أبو العباس، راوية علاَّمة بالشَّعرِ والأدبِ وأيام العربِ، لزم المهدي فأوكل إليه تأديب ابنه الرشيد.

---

(١) الفخري (ص١٩١-١٩٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٣) تاريخ الخلفاء (ص٢٩٤).

(٤) تاريخ بغداد (١١/ ٢٩٣).

و(حمزة الزيات)، الذي قرأ الرَّشيدُ علىٰ يده القران الكريم أربع مراتٍ، واختار لنفسهِ قراءةً صارت إحد القراءات السَّبع.

و(علي بن حمزة الكسائي) علَّمه العربيَّة، وأيام الناس، والفقه.

وملأه (الأصمعي) عبد الملك بن قُريبٍ طرفًا من طرائف العربِ الأدبيَّة، ومُلحًا من مُلَحهم.

وخرج إلىٰ (مجلس الخليل بن أحمد الفراهيدي) إلىٰ البصرة.

ورحل بولديه الأمين والمأمون إلىٰ المدينة المنوَّرة لسماع الموطأ علىٰ (مالك).

لما سبق تدلُّ مناقشاتُ الرشيدِ الكثيرة للعلماء والأدباء علىٰ سعة علمهِ وأدبهِ، ويدلُّ تفقدُهُ للشَّعرِ والشعراءِ علىٰ أنَّه بحرٌ واسعٌ في اللَّغة والعلم والأدب»[١].

وبيَّن الحافظ ابن كثير علو مكانة الرشيد ومنزلته، فقال: «وفضائله، ومكارمه، ومآثره، وأشعاره كثيرةٌ جدًا، قد أورد الأئمة من ذلك شيئًا كثيرًا، وقد ذكرنا من ذلك أنموذجًا صالحًا، ولله الحمد».

وقد كان الفضيل بن عياض يقول: «ليس أحد أعز علينا من موت هارون الرشيد وإنِّي لأدعو الله أن يزيد في عمره من عمري.

قالوا: فلمَّا مات الرشيد، وظهرت تلك الفتن والاختلافات، والقول بخلق القرآن، عرفنا ما كان يحمل الفضيل علىٰ ذلك»[٢].

قال المروزي: وأخبرت عن داود بن رشيد قال: كان ابن المبارك عند أبي الأحوص **فجاء رسول فلان الهاشمي بعض الولاة** فقال يقرئك

(١) في التاريخ الإسلامي (ص٣٢٧-٣٢٨) ط: دار الفكر.

(٢) البداية والنهاية (١٤/ ٤٥)، وانظر: «هارون الرشيد وأسرته» لـ: محمود شاكر (ص١٨٢) ط: المكتب الإسلامي.

السلام ويقول: يا أبا الأحوص هذا شهر رمضان، وقد وسعنا علىٰ عيالنا وهذه ألف درهم توسع بها عليهم في هذا الشهر.

قال أبو الأحوص: فعل الله به وفعل به، وقال: قل له يدعها عنده حتىٰ إذا احتجنا إليها بعثنا فأخذناها

قال: وانسل ابن المبارك إلىٰ منزله فجاء بألف فقال يا أبا الأحوص هذه الألف تنفقها فإنِّي لا آمن أن يكون قد بلغ أهلك فيخاصمونك وهذه من وجه أرجو أن تكون أطيب فقبلها[(١)].

ومنهم: المأمون.

قال الواقديُّ (ت٢٠٧هـ): كان لي صديقان أحدهُما هاشمي فنالتنا ضيقة، فقالت لي امرأتي: أمَّا نحن فنصبر علىٰ البؤس، وأمَّا صبياننا فقد قطَّعوا قلبي، فلو نظرتَ لهم في شيء تصرفه في صلاح شأنهم.

فكتبتُ إلىٰ صديقي الهاشمي، أسأله التوسعة بما حضره، فوجَّه إليَّ كيسًا مختومًا، ذكر أنَّ فيه ألف درهم، فما استقَّر قراره، حتَّىٰ كتب إليَّ الصديق الآخر يذكرُ مثل شكواي، فوجَّهتُ إليه بالكيس كهيئته، وخرجت إلىٰ المسجد أبيتُ فيه، حياء من امرأتي.

ثمَّ رجعتُ فاستحسنت فعلي، إذ وافىٰ صديقي الهاشميُّ ومعه الكيس كهيئته، فقال: اصدقني عن الأمر فأخبرته.

فقال: وجَّهتَ إليَّ وما أملك إلَّا ما بعثتُ به إليك، وكتبتُ إلىٰ صديقنا أسأله المواساة فوجَّه إليَّ بكيس بخاتمي.

قال: فتواسينا الألف، وقسَّمنا ما بيننا أثلاثًا، بعد أن أخرجنا إلىٰ المرأة مائة درهم.

---

(١) صفة الصفوة (٤/ ١٤٦).

ونمىٰ الخبر إلىٰ المأمون فدعاني، فشرحت له الأمر فأمر لي بسبعة آلاف دينار، لكلٍّ واحد منَّا الفان، وللمرأة ألف[١].

ومنهم: الأمير غسان بن عباد (ت بعد عام ٢١٦هـ)[٢]. عن محمد بن يونس الكديمي، قال: حدثني أبو حسان الزيادي، قال: مطرنا يوما مطرًا شديدًا، فأقمت في المسجد للصلاة، فإذا أنا بشخص حيالي، إذا أطرقت نظر إليَّ، وإذا رفعت رأسي أطرق، ففعل هذا مرات، فدعوت به، وقلت: ما شأنك؟

فقال: ملهوف أنا رجل متجمل جاء هذا المطر فسقط بيتي، ولا والله ما أقدر علىٰ بنيانه.

قال: فأقبلت أفكر من له؟ فخطر ببالي غسان بن عباد، فركبت إليه معه، وذكرت له شأنه، فقال: قد دخلتني له رقة، ههنا عشرة آلاف درهم قد كنت أريد تفرقتها، فأنا أدفعها إليه، فبادرت إليه وهو علىٰ الباب فأخبرته، فسقط مغشيا عليه من الفرح، فلامني ناس رأوه، وقالوا: ما صنعت به.

فدخلت إلىٰ غسان فأمر بإدخاله، ورش علىٰ وجهه من ماء الورد حتىٰ أفاق.

---

(١) ترتيب المدارك (٣/ ٢١٤).

(٢) في «الأعلام» للزركلي (٥/ ١١٩) غسان بن عباد بن أبي الفرج: والٍ من رجال المأمون العباسي. وهو ابن عم الفضل بن سهل.
ولي «خراسان» من قبل الحسن بن سهل. ثمَّ ولاه المأمون السند سنة (٢١٣هـ) وكان العامل عليها بشر بن داود المهلبي، قد عصىٰ المأمون ولم يحمل إليه خراجها، فلما دخلها غسان استأمن إليه بشر. وأقام نحو ثلاث سنوات أصلح فيها شؤون الإمارة، ثم اَستعمل عليها عمران بن موسىٰ البرمكي، وعاد إلىٰ بغداد سنة (٢١٦هـ) فقال فيه أحد الشعراء، من أبيات:

سيف غسّان رونق الحرب فيه وسمام الحتوف في ظبتيه.

فقلت: ويحك ما نالك؟

قال: وردَّ عليَّ من الفرح ما أنزل بي ما ترى.

ثمَّ تحدثنا مليًا، فقال لي غسان: قد دخلتني له رقة، قلت: فمه؟

قال: احمله علىٰ دابة.

فقلت له: إنَّ الأمير قد عزم في أمرك علىٰ شيء، أفمن رأيك أن تموت إن أخبرتك؟

قال: لا.

قلت: قد عزم علىٰ حملك علىٰ دابة، قال: أحسن الله جزاءه، ثمَّ تحدثنا مليًا، فقال لي: قد دخلتني لهذا الرجل رقة، قلت: فما تصنع به؟

قال: أجري له رزقًا سنيًا وأضمه إليَّ.

فقلت له: إنَّ الأمير قد عزم في أمرك علىٰ شيء أفمن رأيك أن تموت؟!

قال: لا.

قلت: إنَّه قد عزم علىٰ أن يجري لك رزقًا ويضمك إليه.

قال: أحسن الله جزاءه، ثمَّ ركبت ودفعت البدرة إلىٰ الغلام يحملها، فلما سرنا بعض الطريق.

قال لي: ادفع البدرة إليَّ أحملها؟

قلت: الغلام يكفيك.

قال: «آنس بمكانها علىٰ عنقي! ثمَّ غدوت به إلىٰ غسان، فحمله وضمه إليه وخص به، فكان من خير تابع»[١].

(١) تاريخ بغداد (٨/ ٣٣٩).

ومنهم عبد الله بن طاهر (ت٢٣٠هـ).

قال ابن خلدون: من أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين[1] لابنه عبد الله بن طاهر لمّا ولّاه المأمون الرّقّة ومصر وما بينهما، فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد إليه فيه، ووصّاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدّينيّة والخلقيّة، والسّياسة الشّرعيّة والملوكيّة، وحثّه علىٰ مكارم الأخلاق، ومحاسن الشّيم بما لا يستغني عنه ملك ولا سوقة. ومن جملة ما ذكر: «وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله ﷻ وتقواه، وبلزوم ما أنزل الله ﷻ في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه، وائتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله ﷺ، ثمّ قم فيه بالحقّ للّٰه ﷻ، ولا تميلنّ عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من النّاس أو لبعيد، **وآثر الفقه وأهله، والدّين وحملته، وكتاب الله ﷻ والعاملين به، فإنّ أفضل ما يتزيّن به المرء الفقه في الدّين، والطّلب له، والحثّ عليه**، والمعرفة بما يتقرّب به إلىٰ الله ﷻ؛ فإنّه الدّليل علىٰ الخير كلّه، والقائد إليه، والآمر والنّاهي عن

---

(١) وفي السير (١٢/ ٢٠٤) ترجمة (الإمام محمد بن أسلم بن سالم بن يزيد الكندي (ت٢٤٢هـ) قال أحمد بن سلمة: مرض محمد بن أسلم في بيت رجل من أهل طوس، فقال له: لا تفارقني الليل، فإنّي يأتيني أمر الله قبل أن أصبح، فإذا مت، فلا تنتظر بي أحدًا، واغسلني للوقت، وجهزني.
قال: فماتَ في نصف الليل.
قال: فأتاهم صاحب الأمير طاهر بن عبد الله، وأمرهم أن يحملوه إلىٰ مقبرة الساذياخ؛ ليصلي عليه طاهر.
قال: فوضعت الجنازة، والناس يؤذنون لصلاة الصبح، وما نادىٰ علىٰ جنازته أحد، ولا روسل بوفاته أحد، وإذا الخلق قد اجتمع بحيث لا يذكر مثله.
فأمهم طاهر، ودفن بجنب إسحاق بن راهويه.

المعاصي والموبقات كلّها»[١].

وعبد الله بن طاهر كانت له صلات وأعطيات لأهل العلم كما فعل مع أبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ). عن عبيد الله بن عبد الرحمن السكري، قال: قال أحمد بن يوسف: أما سمعته منه أو حدثت به عنه، قال: لما عمل أبو عبيد كتاب غريب الحديث، **عرض علىٰ عبد الله بن طاهر فاستحسنه،** وقال: «إنَّ عقلًا بعث صاحبه علىٰ عمل مثل هذا الكتاب لحقيق أنْ لا يحوج إلىٰ طلب المعاش»، فأجرىٰ له عشرة آلاف درهم في كل شهر، كذا قال لي الأزهري: عشرة آلاف درهم في كل شهر[٢].

وكذلك مع الحافظ القشيري محمد بن رافع بن أبي زيد سابور القشيري مولاهم (ت٢٤٥هـ). إمام عصره بخراسان الزاهد أحد الأعلام بعث إليه عبد الله بن طاهر[٣] بخمسة آلاف درهم فدخل إليه الرسول بها وهو يأكل الخبز مع الفجل بعد صلاة العصر.

وقال: الأمير بعث إليك بهذه لتنفقها عليك وعلىٰ أهلك، فقال: خذه لا أحتاج إليه، فإن الشمس قد بلغت رؤوس الجبال، وقد جاوزت الثمانين إلىٰ متىٰ أعيش[٤].

ولما قدم محمد بن يوسف بن عيسىٰ أبو بكر ابن الطباع (ت٢٧٧هـ) سر من رأىٰ فنزل في البغويين فاجتمع الناس والمحدثون إليه، فسمع محمد بن عبد الله بن طاهر الضوضاء، فقال: ما هذا؟

---

(١) المقدمة لابن خلدون (ص٣١٢-٣١٣)، وهي في «تاريخه» (١/ ٣٧٨-٣٧٩).
(٢) تاريخ بغداد (١٤/ ٣٩٢).
(٣) المذكور في السير للذهبي (بعث طاهر بن عبد الله)، وليس (عبد الله بن طاهر).
(٤) الوافي بالوفيات (٣/ ٥٥).

قالوا: كلام المحدثين عند ابن الطباع، فكتب إليه يطلبه، فكتب إليه أمَّا بعد: فأكرمك الله كرامة تكون لك في الدنيا عزًّا وفي الآخرة حرزًا، لم أتخلف عنك صيانة بل ديانة؛ لأنَّ العلم يؤتىٰ ولا يأتي، فلمَّا قرأها محمد قال: صدق، ثمَّ صار إليه هو وبنوه فحدثه عامة الليل ثمَّ قام محمد وانصرف، وقال لحاجبه: سله ما يريد؟ فقال: ابن الطباع قل له يبعث لنا ما نتغطىٰ به من البرد، فأرسل إليه بمطرف خز يساوي خمس مائة دينار[(١)].

ومنهم: الأمير الْحَسَن بن سهل (ت٢٣٥هـ). جاء في ترجمة العالم الفاضل الثقة **الحسن بن عثمان بن حماد** بن حسان بن عبد الرحمن بن يزيد أبو حسان الزيادي[(٢)].

قال رحمه الله: ضقت ضيقة بلغت فيها إلىٰ الغاية، حتَّىٰ ألحَّ عليَّ القصَّاب والبَّقال والخبَّاز وسائرُ المعاملين، ولم تبقَ لي حيلة، فإنَّي ليومًا علىٰ تلك الحال وأنا مفكر في الحيلة، إذ دخل عليَّ الغلام، فقال: حاجي بالباب يستأذن؟

فقلت له: ائذن له، فدخل الخراساني فسلم، وقال: ألستَ أبا حسان؟ قلت: نعم، فما حاجتك؟

قال: أنا رجل غريب وأريد الحج، ومعي عشرة آلاف درهم، واحتجت إلىٰ أن تكون قبلك إلىٰ أن أقضي حجي وأرجع، فقلت هاتها، فأحضرها وخرج بعد أن وزنها وختمها.

---

(١) الوافي بالوفيات (٥/ ١٥٩).

(٢) سمع من: إسماعيل بن جعفر، وهشيم بن بشير، وإسماعيل ابن علية، ومعمر بن سليمان، وعباد بن العوام، وجرير بن عبد الحميد، ويحيىٰ بن زكريا بن أبي زائدة، ووكيع بن الجراح، وشعيب بن إسحاق الدمشقي، والوليد بن مسلم، وسعيد بن زكريا المدائني، وأبا داود الطيالسي، ومحمد بن عمر الواقدي.

فلمَّا خرج فككت الخاتم علىٰ المكان، ثم أحضرت المعاملين فقضيت كل من كان له عليَّ دين، واتسعت وأنفقت وقلت: أضمن هذا المال للخراساني، فإلىٰ أن يجيء يكون قد أتىٰ الله بفرج من عنده، فكنت يومي ذلك في سعة وأنا لا أشك في خروج الخراساني، فلما أصبحت من غد ذلك اليوم دخل إلي الغلام، فقال: الخراساني الحاجي بالباب يستأذن، فقلت: ائذن له، فدخل، فقال: إني كنت عازما علىٰ ما أعلمتك، ثمَّ ورد عليَّ الخبر بوفاة والدي وقد عزمت علىٰ الرجوع إلىٰ بلدي، فتأمر لي بالمال الذي أعطيتك أمس.

فورد علي أمر لم يرد عليَّ مثله قط، وتحيرت فلم أدر بما أجيبه، وفكرت فقلت: ماذا أقول للرجل؟ ثم قلت له: نعم، عافاك الله، منزلي هذا ليس بالحريز، ولما أخذت مالك وجهت به إلىٰ من هو قبله، فتعود في غد لتأخذه، فانصرف وبقيت متحيرا لا أدري ما أعمل؟ إن جحدته قدمني واستحلفني، وكانت الفضيحة في الدنيا والآخرة، والهتك، وإن دافعته صاح وهتكني، وغلظ الأمر عليَّ جدًا، وأدركني الليل وفكرت في بكور الخراساني إليَّ، فلم يأخذني النَّوم ولا قدرتُ علىٰ الغمض، فقمت إلىٰ الغلام، فقلت: أسرج البغلة، فقال يا مولاي: هذه العتمة بعد، وما مضىٰ من الليل شيء، فإلىٰ أين تمضي؟ فرجعت إلىٰ فراشي فإذا النوم ممتنعٌ، فلم أزل أقوم إلىٰ الغلام وهو يردني، حتىٰ فعلت ذلك ثلاث مرات، وأنا لا يأخذني القرار، وطلع الفجر فأسرج البغلة وركبت، وأنا لا أدري أين أتوجه وطرحت عنان البغلة وأقبلت أفكر وهي تسير حتىٰ بلغت الجسر، فعدلت بي إليه، فتركتها فعبرت، ثمَّ قلت: إلىٰ أين أعبر، وإلىٰ أين أمضي؟ ولكن إن رجعت وجدت الخراساني علىٰ بابي، أدعها تمضي حيث شاءت، ومضت البغلة فلما عبرت الجسر أخذت بي يمنة ناحية دار المأمون، فتركتها إلىٰ أن قاربت باب المأمون والدنيا بعد

مظلمة، فإذا فارس قد تلقاني، فنظر في وجهي، ثم سار وتركني، ثم رجع إلي، فقال: ألست بأبي حسان الزيادي؟

قلت: بلىٰ.

قال: الأمير الحسن بن سهل.

فقلت في نفسي: وما يريد الحسن بن سهل مني؟ ثم سرت معه حتىٰ صرنا إلىٰ بابه، واستأذن لي عليه، فدخلت.

فقال: أبا حسان ما خبرك؟ وكيف حالك؟ ولم انقطعت عنا؟

فقلت: لأسباب، وذهبت لأعتذر.

فقال: دع هذا عنك، أنت في لوثة أو في أمر، فما هو؟ فإني رأيتك البارحة في النوم في تخليط كثير.

فابتدأت فشرحت له قصتي من أولها إلىٰ أن لقيني صاحبه، ودخلت عليه، فقال: لا يغمك الله يا أبا حسان، قد فرج الله عنك، هذه بدرة للخراساني مكان بدرته، وبدرة أخرىٰ لك تتسع بها، وإذا نفذت أعلمتنا.

فرجعت من مكاني فقضيت الخراساني واتسعت وفرج الله، وله الحمد[١].

وهذا إبراهيم بن سعيد الجوهري أبو إسحاق (٢٤٧ وقيل: ٢٤٩ وقيل: ٢٥٣هـ)، وهو ابن عبد العزيز. كان لوالده إبراهيم اتساع من الدنيا، وأفضال علىٰ العلماء، فلذلك تمكن ابنه من السماع، وقدر علىٰ الإكثار من الشيوخ[٢].

---

(١) تاريخ بغداد (٨/ ٣٣٩).

(٢) إكمال التهذيب (١/ ٢١١).

ونقل القاضي ابن خلكان: **أنَّ ابن طولون** كان ينفذ إلىٰ بكار بن قتيبة في العام ألف دينار، سوىٰ المقرر له[١].

وقال الفقيه أبو الحسن الصفّار: كنا عند الشيخ الإمام الزاهد الحسن بن سفيان النسوي وقد اجتمع لديه طائفة من أهل الفضل، ارتحلوا اليه من أطباق الأرض والبلاد البعيدة مختلفين إلىٰ مجلسه لاقتباس العلم، وكتبة الحديث، فخرج يومًا إلىٰ مجلسه الذي كان يُملي فيه الحديث فقال: اسمعوا ما أقول لكم قبل أن نشرع في الإملاء، قد علمنا أنكم طائفة من أبناء النعم، وأهل الفضل، هجرتم أوطانكم، وفارقتم دياركم وأصحابكم في طلب العلم، واستفادة الحديث، فلا يخطرن ببالكم أنَّكم قضيتم بهذا التجشم للعلم حقًا، أو أديتم بما تحملتم من الكلف والمشاق من فروضه فرضًا، فإني أحدثكم ببعض ما تحملته في طلب العلم من المشقة والجهد وما كشف الله ﷻ عني وعن أصحابي ببركة العلم وصفوة العقيدة من الضيق والضنك.

اعلموا أني كنت في عنفوان شبابي ارتحلت من وطني أطلب العلم واستملاء الحديث، فاتفق حصولي بأقصىٰ المغرب وحلولي بمصر في تسعة نفر من أصحابي طلبة للعلم وسامعي الحديث، وكنا نختلف إلىٰ شيخ كان أرفع أهل عصره في العلم منزلة وأدراهم للحديث، وأعلاهم إسنادًا وأصحهم رواية، فكان يملي علينا كل يوم مقدارًا يسيرًا من الحديث حتىٰ طالت المدة، وخفت النفقة، ودفعت الضرورة إلىٰ بيع ما صحبنا من ثوب وخرقة إلىٰ أن لم يبق لنا ما كنا نرجو حصول قوت يوم منه، وطوينا ثلاثة أيام بلياليها جوعًا وسوء حال، ولم يذق أحد منا فيها شيئًا، وأصبحنا بكرة اليوم الرابع بحيث لا حراك بأحد من جملتنا من الجوع،

---

(١) السير (١٢/ ٦٠٣).

وضعف الأطراف، وأحوجت الضرورة إلىٰ كشف قناع الحشمة، وبذل الوجه للسؤال، فلم تسمح أنفسنا بذلك، ولم تطب قلوبنا به، وأنف كل واحد منا عن ذلك، والضرورة تحوج إلىٰ السؤال علىٰ كل حال، فوقع اختيار الجماعة علىٰ كتابة رقاع بأسامي كل واحد منا، وإرسالها قرعة فمن ارتفع اسمه من الرقاع كان هو القائم بالسؤال، واستماحة القوت لنفسه ولجميع أصحابه، فارتفعت الرقعة التي اشتملت علىٰ اسمي فتحيرت ودهشت ولم تسامحني نفسي بالمسألة واحتمال المذلة، فعدلت إلىٰ زاوية من المسجد أصلي ركعتين طويلتين قد اقترن الاعتقاد فيها بالإخلاص أدعو الله سبحانه بأسمائه العظام، وكلماته الرفيعة، لكشف الضر وسياقة الفرج، فلم أفرغ بعد عن إتمام الصلاة حتىٰ دخل المسجد شاب حسن الوجه، نظيف الثوب طيب الرائحة يتبعه خادم في يده منديل، فقال: من منكم الحسن بن سفيان؟ فرفعت رأسي من السجدة، فقلت: أنا الحسن بن سفيان، فما الحاجة؟ فقال: إن الأمير ابن طولون صاحبي يقرئكم السلام والتحية ويعتذر إليكم في الغفلة عن تفقد أحوالكم والتقصير الواقع في رعاية حقوقكم، وقد بعث بما يكفي نفقة الوقت وهو زائركم غدًا بنفسه ويعتذر بلفظه إليكم، ووضع بين يدي كل واحد منا صرة فيها مائة دينار، فتعجبنا من ذلك جدًا، وقلنا للشاب: ما القصة في هذا؟ فقال: أنا أحد خدم الأمير ابن طولون المختصين به والمتصلين بأقربائه وخواص أصحابه، دخلت عليه بكرة يومي هذا مُسلمًا في جملة أصحابي، فقال لي وللقوم: أنا أحب أن أخلو يومي هذا فانصرفوا أنتم الىٰ منازلكم، فانصرفت أنا والقوم، فلما عدت الىٰ منزلي فلم يتسق قعودي حتىٰ أتاني الأمير مسرعًا مستعجلًا يطلبني حثيثا فأجبته مسرعًا، فوجدته منفردًا في بيت واضعًا يمينه علىٰ خاصرته لوجع ممض اعتراه في داخل جسده، فقال لي: أتعرف الحسن بن سفيان وأصحابه؟ فقلت: لا، فقال: اقصد المحلة

الفلانية والمسجد الفلاني واحمل هذه الصرر وسلمها في الحين إليه وإلىٰ أصحابه، فإنَّهم منذ ثلاثة أيام جياع بحالة صعبة، ومهّد عذري لديهم، وعرفهم أني صبيحة الغد زائرهم ومعتذر شِفاهًا إليهم، فقال الشاب: سألته عن السبب الذي دعاه إلىٰ هذا، فقال: دخلت هذا البيت منفردًا علىٰ أن أستريح ساعة فلمَّا هدأت عيني رأيت في المنام فارسًا في الهواء متمكنًا تمكن من يمشي علىٰ بساط الأرض وبيده رمح فقضيت العجب من ذلك، وكنت أنظر إليه متعجبًا حتىٰ نزل إلىٰ باب هذا البيت ووضع سافلة رمحه علىٰ خاصرتي، فقال: قم، فأدرك الحسن بن سفيان وأصحابه، قم وأدركهم، قم وأدركهم، قم وأدركهم فإنهم منذ ثلاثة جياع في المسجد الفلاني، فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا رضوان صاحب الجنة، ومنذ أصاب سافلة رمحه خاصرتي أصابني وجع شديد لا حراك بي له، فعجل إيصال هذا المال ليزول هذا الوجع عني.

فقال الحسن: فتعجبنا من ذلك وشكرنا الله ﷻ وأصلحنا أمورنا ولم تطب أنفسنا بالمقام حتىٰ لا يزورنا الأمير، ولا يطلع الناس علىٰ أسرارنا فيكون ذلك سبب ارتفاع اسم وانبساط حياة ويتصل ذلك بنوع من الرياء والسمعة، وخرجنا تلك الليلة من مصر، **وأصبح كل واحد منَّا واحد عصره، وقريع دهره في العلم والفضل، فلمَّا أصبح الأمير ابن طولون (ت٢٧٠هـ)** أتىٰ المسجد لزيارتنا وطلبنا وأحس بخروجنا أمر بابتياع تلك المحلة بأسرها ووقفها علىٰ ذلك المسجد وعلىٰ من ينزل به من الغرباء وأهل الفضل وطلبة العلم نفقة لهم حتىٰ لا تختل أمورهم ولا يصيبهم من الخلل ما أصابنا، وذلك كله بقوة الدين وصفوة الاعتقاد والله سبحانه ولي التوفيق[١].

(١) تاريخ دمشق (١٣/ ١٠٥).

ومنهم: **أبو المطرف عبد الرحمن بن الحكم، الملقب عبد الرحمن الأوسط (ت٢٣٨هـ)**. رفع له أحد المشتغلين بتثمير الخراج: أن القنطرة التي بناها جده علىٰ نهر قرطبة لو رسم علىٰ الدواب والأحمال التي تعبر عليها رسمًا؛ لاجتمع من ذلك مال عظيم.

فوقّع: نحن أحوج إلىٰ أن نُحدث من أفعال البر أمثال هذه القنطرة، لا أن نمحو ما خلده آباؤنا باختراع هذا المكس القبيح؛ فتكون عائدته قليلة لنا، وتبقىٰ تبعته وذكر السوء علينا.

وهلّا كنت نبهتنا علىٰ إصلاح المسجد المجاور لك الذي قد تداعىٰ جداره واختل سقفه، وفصلُ المطر مستقبَل، لكن يأبىٰ الله أن تكون هذه المكرمة في صحيفتك، وقد جعلنا عقوبتك بأن تصلح المسجد المذكور من مالك علىٰ رغم أنفك، فيكون ما تنفق فيه منك وأجره لنا إن شاء الله[1].

ومنهم: **محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الأموي المرواني** (ت٢٧٣هـ)، صاحب الأندلس، أبو عبد الله الأموي.

كان محبًا للعلم، مؤثرًا لأصحاب الحديث، مكرمًا لهم، حسن السيرة، وهو الذي نصر بقي بن مخلد الحافظ علىٰ أهل الرأي.

قال بقي: ما كلمت أحدًا من الملوك أكمل عقلًا، ولا أبلغ لفظًا من الأمير محمد، ولقد دخلت عليه يومًا في مجلس خلافته، فافتتح الكلام بحمد الله، والصلاة علىٰ نبيه، ثمَّ ذكر الخلفاء، فحلَّىٰ كل واحد بحليته وصفته، وذكر مآثره بأفصح لسان حتىٰ انتهىٰ إلىٰ نفسه، فحمد الله علىٰ ما قدره، ثم سكت.

---

(١) المغرب في حلىٰ المغرب (١/ ٥١).

قال الذهبي: رأىٰ مصنف أبي بكر بن أبي شيبة، إذ نازع أهل الرأي بقي بن مخلد، فأمر بنسخه، وقال: «لا تستغني خزانتنا عن هذا»[(١)].

ومنهم: والي خراسان إسماعيل بن أحمد.

قال أحمد بن إسحاق الصبغي: سمعت محمد بن عبد الوهاب الثقفي يقول: كان إسماعيل بن أحمد: والي خراسان يصل محمد بن نصر (ت٢٩٤هـ) في العام بأربعة آلاف درهم، ويصله أخوه إسحاق بمثلها، ويصله أهل سمرقند بمثلها، فكان ينفقها من السنة إلىٰ السنة، من غير أن يكون له عيال، فقيل له: لو ادخرت لنائبة؟

فقال: «سبحان الله! أنا بقيت بمصر كذا وكذا سنة، قوتي وثيابي وكاغدي[(٢)] وحبري وجميع ما أنفقه علىٰ نفسي في السنة عشرون درهمًا، فترىٰ إن ذهب ذا لا يبقىٰ ذاك!»[(٣)].

وكان الزجاج اللغوي المعروف (ت٣١١هـ) **يؤدب الوزير القاسم بن عبيد الله**، ونال من جهته ونسبه مالًا عظيمًا فوق أربعين ألف دينار[(٤)].

ومنهم: قاضي حلب أبو عبيد الله محمد بن عبدة.

قال ابن زولاق: حدثني حمزة الحافظ (ت٣٥٧هـ)، قال: رحلت سنة خمس **فدخلت حلب وقاضيها أبو عبيد الله محمد بن عبدة**، فكتبت عنه فكان يقول: لو عرفتك بمصر لملأت ركائبك ذهبًا، فقال: إنَّه أعطاه مئتي دينار يرحل بها إلىٰ العراق[(٥)].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٢).

(٢) بفتح الغين المعجمة: هو القرطاس. فارسي معرب.

(٣) السير (١٤/ ٣٧).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٧١).

(٥) طبقات علماء الحديث (ترجمة: محدث مصر حمزة بن محمد بن علي) (٣/ ١٢٦).

ومنهم: **الحكم المستنصر بالله سليل البيت الأموي (ت٣٦٦هـ)**، وحفيد الداخل صقر قريش، وُصِف بحبهِ للعلم، وعنايتهِ الفائقة بجمع الكتب، وأنَّه جمع ما لا يحدّ ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتىٰ قيل: إنَّها كانت أربعمائة ألفَ مجلد، وإنّهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر، وكان ذا غرامٍ بها، قد آثرَ ذلك علىٰ لذات الملوك[1].

سمع من: قاسم بن أصبغ، وأحمد بن دحيم، ومحمد بن محمد بن عبد السلام الخشني، وزكريا بن خطاب، وطائفة.

وأجاز له ثابت بن قاسم السرقسطي.

قال الذهبي: «وكان عالمًا أخباريًا، وقورًا، نسيج وحده، قلَّ أنْ تجد له كتابًا إلا وله فيه نظر وفائدة، ويكتب اسم مؤلفه ونسبه ومولده، ويغرب ويفيد»[2].

قال اليسع بن حزم: «كان الحكم عالمًا، راوية للحديث، فطنًا، ورعًا».

وكان حسن السيرة، جامعًا للعلم، مكرمًا للأفاضل، كبير القدر، ذا نهمة مفرطة في العلم والفضائل، عاكفًا علىٰ المطالعة.

قال ابن كثير: «وقد كان هذا من خيار الملوك وعلمائهم، عالمًا بالفقه والخلاف والتواريخ، محبًا للعلماء، محسنًا إليهم»[3].

وفي كتاب «الحلة السيراء» لأبي بكر البلنسي (ت٦٥٨هـ) وصف جميل وعظيم عنه، وهو: «أنَّ لم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغ

---

(١) نفح الطيب (١/ ٣٩٥)، وللحكم كتاب جمعه في (أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلىٰ المغرب).

(٢) السير (١٦/ ٢٣١).

(٣) تاريخ ابن كثير (١٥/ ٣٧١).

الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والاهتمام بها، أفاء علىٰ العلم ونوه بأهله، ورغب النَّاس في طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته إلىٰ فقهاء الأمصار النائية عنه، ومنهم: أبو إسحاق محمد ابن القاسم بن شعبان بمصر، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي وغيرهما، جرىٰ ذكر هذا في كتب تواريخهم.

وبعث إلىٰ أبي الفرج الأصبهاني القرشي المرواني ألف دينار عينًا ذهبًا، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذي ألفه في الأغاني وما لأحد مثله.

ووصل بذلك المال رحمه إذ كان قسيمه في المروانية ومن ولد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم.

وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف، ورجال يوجههم إلىٰ الآفاق عنها، ومن وراقيهِ ببغداد محمد بن طرخان، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة، وكان مع هذا كثير التهمم بكتبه، والتصحيح لها، والمطالعة لفوائدها، وقلَّما تجد له كتابًا كان في خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أي فن كان من فنون العلم، يقرؤه ويكتب فيه بخطه إمَّا في أوله، أو آخره، أو في تضاعيفه نسب المؤلف ومولده ووفاته، والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة له، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده؛ لكثرة مطالعته، وعنايته بهذا الفن، وكان موثوقًا به مأمونًا عليه، صار كل ما كتبه حجَّة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه، ويحاضرون به»[١].

(١) الحلة السيراء (ص٢٠١-٢٠٢).

وكان أخوه الأمير عبد الله المعروف بالولد، علىٰ أنموذجه في محبة العلم، فقتل في أيام أبيه[(١)].

ومنهم: ركن الدولة أبو علي بن بويه (ت٣٦٦هـ). كان سائسًا حليمًا وقورًا، كثير الصدقات، محبًا للعلماء، فيه إيثار وكرم كثير، وحسن عشرة علىٰ أقاربه ودولته ورعيته[(٢)].

ومنهم: عضد الدولة (ت٣٧٢هـ) وهو ابن ركن الدولة، وكان محبًا للعلوم وأهلها، مقربًا لهم، محسنًا إليهم، وكان يجلس معهم يعارضهم في المسائل، فقصده العلماء من كل بلد، وصنَّفوا له الكتب منها: «الإيضاح» في النحو، و«الحجة» في القراءات، و«الملكي» في الطب، و«التاجي» في التاريخ، إلىٰ غير ذلك.

وكان لا يعول في الأمور إلا علىٰ الكفاة، ولا يجعل للشفاعات طريقًا إلىٰ معارضة من ليس من جنس الشافع، ولا فيما يتعلق به[(٣)].

---

(١) السير (٨/ ٢٦٩).

(٢) البداية والنهاية (١٥/ ٣٦٩).

(٣) الكامل في التاريخ (٧/ ٣٩١)، وفي ط: صادر (٩/ ١٣)، وفي (الكتاب نفسه) قيل: لما مات عضد الدولة بلغ خبره بعض العلماء، وعنده جماعة من أعيان الفضلاء، فتذاكروا الكلمات التي قالها الحكماء عند موت الإسكندر، وقد ذكرتها في أخباره، فقال بعضهم: لو قلتم أنتم مثلها لكان ذلك يؤثر عنكم.
فقال أحدهم: «لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها، وأعطاها فوق قيمتها، وطلب الربح فيها فخسر روحه فيها».
وقال الثاني: «من استيقظ للدنيا فهذا نومه، ومن حلم فيها فهذا انتباهه».
وقال الثالث: «ما رأيت عاقلا في عقله، ولا غافلا في غفلته مثله، لقد كان ينقض جانبا وهو يظن أنه مبرم، ويغرم وهو يظن أنه غانم».
وقال الرابع: «من جد للدنيا هزلت به، ومن هزل راغبا عنها جدت له».
وقال الخامس: «ترك هذا الدنيا شاغرة، ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة». =

ومنهم: **الوزير الصاحب ابن إسماعيل ابن العبَّاد (ت٣٨٥هـ)**، كان: «موصوفًا بالعلم والفصاحة، وكان ينفذ إلىٰ بغداد كل سنة خمسة مائة آلاف درهم، تفرَّقُ علىٰ طلاب العلم»[1].

ومنهم: **الحاجب المنصور (ت٣٩٢هـ)، مؤسس دولة بني عامر في بلاد الأندلس**، صاحب الرأي الثاقب، والعقل الراجح، محمد بن أبي عامر المعافري. ذُكِر عنه أنَّه أرخص للجند في العطاء، **وأعلىٰ مراتب العلماء، وقمع أهل البدع والابتداع**، وكان ذا عقل ورأي، وشجاعة وبصر بالحروب، ودين متين[2].

قال الذهبي: «كان ابن أبي عامر ممَّن طلب العلم والأدب، ورأس وترقىٰ، وكان له نكايةٌ عظيمة في الفرنج، وله مجلس في الأسبوع يجتمع إليه فيه الفضلاء للمناظرة، فيكرمهم، ويحترمهم، ويصلهم، ويجيز الشعراء، وافتتح عدة أماكن»[3].

ولله دَرُّ القائل فيه:

آثـارُهُ تُـنْـبِـيـكَ عَـنْ أخْـبَـارِهِ ... حَـتَّـىٰ كـأَنَّـكَ بـالـعُـيُـونِ تـرَاهُ

= وقال السادس: «إن ماء أطفأ هذه النار لعظيم، وإن ريحا زعزعت هذا الركن لعصوف».

وقال السابع: «إنما سلبك من قدر عليك».

وقال الثامن: «أما إنَّه لو كان معتبرًا في حياته لما صار عبرًة في مماته».

وقال التاسع: «الصاعد في درجات الدنيا إلىٰ استفال، والنازل في درجاتها إلىٰ تعال».

وقال العاشر: «كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتىٰ نفذ فيك، وهلا اتخذت دونه جنة تقيك، إنَّ في ذلك لعبرة للمعتبرين، وإنك لآية للمستبصرين».

(١) الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء (ص٨٣).

(٢) تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٨٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٢٣-١٢٤).

تَاللهِ ما مَلَكَ الجَزيرَةَ مِثْلُهُ ... حَقًّا وَلاَ قَادَ الجُيُوشَ سِوَاهُ[(١)]

ومنهم: قاضي بغداد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم المعروفِ بابن الأكفاني (ت٤٠٥هـ). في «تاريخ بغداد» قَالَ لي التنوخي: قَالَ لي أبو إسحاق الطبري: من قَالَ إن أحدًا أنفقَ علىٰ أهل العلم مائةَ ألف دينار غير أبي مُحَمَّد بْن الأكفاني فقد كذب!

وَلِيَ ابن الأكفاني قضاء مدينة المنصور، ثمَّ ولي قضاء باب الطاق وضمَّ إليه سوق الثلاثاء، ثمَّ جمع له قضاء جميع بغداد في سنة ست وتسعين وثلاث مائة[(٢)].

ومنهم: الخليفة أبو العباس القادر بالله أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر (ت٤٢٢هـ) طلب من أبي الحسن بن القزويني أن ينفذ له من طعامه، فنفَّذ باذنجانًا مقلوًا بخل وباقلىٰ ودبسًا، فأكل منه وفرَّق، وبعث إليه بمائتي دينار فقبلها.

ثمَّ طلب منه بعدُ طعامًا، فبعث إليه زبادي فراريج ودجاج وفالوذج، فتعجب الخليفةُ وسأله، فقال: «لم أتكلف، ولما وسع عليَّ وسعت علىٰ نفسي فأعجبه، وكان يتفقده»[(٣)].

ومنهم: المعتضد بن عبَّاد (ت٤٦١هـ) وجه ابن عبد الله وكان في منصب الوزارة برسالة يخاطب بها حافظ المغرب ابن عبد البر النمري، يقول فيها: «إن كُنَّا لم نتعارف ترائيًا، ولم نتلاق تدانيًا، ففضلك في كلِّ قطر كالمشاهد، وشخصك في كل نفسٍ غير متباعد، فأنت واحد عصرك، وقريع دهرك، عَلَمًا بيدك لواؤه، وفضلًا إليك اعتزاؤه، وكنت كذلك

---

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (٢/ ٣٠١).

(٢) تاريخ بغداد (١١/ ٣٧٠).

(٣) السير (١٥/ ١٢٨-١٢٩)، وانظر: «المنتظم» (٧/ ١٦٢).

والنَّاسُ موفورون، والشيوخ أحياء يرزقون، فكيف وقد دُرس الأعلام والكدىٰ، وانتزع العلم بقبض العلماء فانقضىٰ، والله يبارك في عمرك، ويعين كلًا علىٰ برك..»[(١)].

ومنهم: مسعود بن محمد، السلطان، شهاب الدولة (ت٤٣٢هـ).

كان طوالًا، جسيمًا، مليحًا، كبير العين، شديدًا، حازمًا، كثير البرِّ، ساد الجَوَاب، رؤوفًا بالرعية، محبًا للعلم، صُنِّف له كتب في فنون[(٢)].

ومنهم: ألب أرسلان (ت٤٦٥هـ): سلطان العالم كما نعته بذلك ابن الأثير، بقوله: «كان كريمًا، عادلًا، عاقلًا، واتسع ملكه جدًا، ودان له العالم، وبحق قيل له سلطان العالم.

وكان رحيم القلب، رفيقًا بالفقراء، كثير الدعاء بدوام ما أنعم الله به عليه، اجتاز يوما بمرو علىٰ فقراء الخرائسين، فبكىٰ، وسأل الله تعالىٰ أن يغنيه من فضله.

وكان يكثر الصدقة، فيتصدق في رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان في ديوانه أسماء خلق كثير من الفقراء في جميع ممالكه، عليهم الإدرارات والصلات، ولم يكن في جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلي يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقا بهم»[(٣)].

قال ابن عقيل: وقد رأينا **أبا الحسن الغزنوي** (ت٤٦٩هـ) وقد بنىٰ له رباطًا ببغداد ووقفت عليه قرية فكان يقول: يدخل لي في كل سنة ثلاثة

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٥/ ١٣٤).

(٢) السير (١٧/ ٤٩٥).

(٣) الكامل في التاريخ (٨/ ٢٣٢)، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٦/ ٣٩): «وكان شديد الحرص علىٰ حفظ مال الرعايا، بلغه أنَّ غلامًا من غلمانه أخذ إزارا لبعض التجار فصلبه، فارتدع سائر المماليك به خوفًا من سطوته».

آلاف وست مائة دينار فألف ومائتان لي ولأولادي، وألف ومائتان لأهل الرباط، وألف ومائتان للمجلس، **فكان يعطي العلماء والقراء والزهاد** ولا يقبل منه أحد حتىٰ إنه أفطر في رمضان عند الوزير أبي القاسم الزيني، فبعث إليه خلعة قبل العيد وهذه عادتهم فيمن يفطر عندهم فحدثني الحاجب أنه حملها إليه فقال: لا أقبل، قال: فقبحت له هذا وبالغت حتىٰ قبل علىٰ مضض[١].

ومنهم: الوزير نظام الملك (ت٤٨٥هـ)[٢] بنىٰ دور العلم للفقهاء، وأنشأ المدارس للعلماء، وأسس الرباطات للعباد، والزهاد، وأهل الصلاح، والفقراء، وأجرىٰ لهم الجرايات مشاهرة والكساوىٰ والنفقات.

وأجرىٰ الحبر والورق لمن كان من أهل الطلب للعلم مضافا إلىٰ أرزاقهم[٣].

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنه: «عاقل، سائس، خبير، سعيد، متدين، محتشم، عامر المجلس بالقراء والفقهاء.

أنشأ المدرسة الكبرىٰ ببغداد، وأخرىٰ بنيسابور، وأخرىٰ بطوس، ورغب في العلم، وأدر علىٰ الطلبة الصلات، وأملىٰ الحديث، وبعُدَ صيته.

وكان أبوه من دهاقين بيهق[٤]، فنشأ وقرأ نحوا، وتعانىٰ الكتابة والديوان، وخدم بغزنة، وتنقلت به الأحوال إلىٰ أن وزر للسلطان ألب

---

(١) الآداب الشرعية (١/ ٢٢٠).

(٢) الوزير الكبير، نظام الملك، قوام الدين، أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي.

(٣) انظر: بدائع السلك (١/ ٤١٣)، و«سراج الملوك» (ص١٢٨).

(٤) ذكر له السبكي في «طبقاته» تسع مدارس أخرىٰ غير هذه.

آرسلان، ثم لابنه ملكشاه، فدبر ممالكه علىٰ أتمِّ ما ينبغي، وخفف المظالم، ورفق بالرعايا، وبنىٰ الوقوف، وهاجرت الكبار إلىٰ جنابه، وازدادت رفعته، واستمر عشرين سنة.

وكان فيه خير وتقوىٰ، وميل إلىٰ الصالحين، وخضوع لموعظتهم، يعجبه من يبين له عيوب نفسه، فينكسر ويبكي.

ولنظام الملك سيرة طويلة في (تاريخ ابن النجار)، وكان شافعيًا أشعريًا[١].

ودخل أَبُو عَليّ القومساني علىٰ نظام الْملك أبي عَليّ الْوَزير فِي مرضة مَرضهَا يعودهُ فَأَنْشَأَ يَقُول:

إِذا مرِضْنَا نَويْنَا كُلَّ صَالِحَة فَإِنْ شُفِينَا فَمِنَا الزَّيغُ والَّزّلُل
نرَجُو الْإِلَهَ إِذَا خِفْنَا وَنَسْخَط إِذَا أَمِنَا فَمَا يزْكُو لَنَا عَمَلُ

فَبكىٰ نظام الْملك وَقَالَ هُوَ كَمَا يَقُول[٢].

ومنهم: الأمير أبو الحارث صاحب الحديثة مهارش البدوي بن مجلّي (ت٤٩٩هـ)، الذي خدم الخليفة القائم بأمر الله، فيما تقدّم ذكره لما حصل عنده بالحديثة. «وكان كثير الصلاة، والصوم، والصدقة، صالحًا، محبًّا لأهل العلم» وعاش نيّفًا وثمانين سنة[٣].

ومنهم: الأمير سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي (ت٥٠١هـ). صاحب الحلة وتكريت وواسط وغيرها كان كريمًا، عفيفًا، ذا ذمام، ملجأ لكلِّ خائفٍ، يأمنُ في بلاده وتحت جنابه اقتنىٰ كتبًا كثيرة جدًا نفيسة، وكان لا يتزوج علىٰ امرأة قطُّ، ولا يتسرَّىٰ

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٩٤-٩٥).
(٢) طبقات الشافعية (٤/ ٣٢٨).
(٣) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (١٩/ ٥٤١)، و«النجوم الزاهرة» (٥/ ١٩٣).

علىٰ سُرِّيَّةٍ؛ حِفظًا للذمام ولئلا يكسر قلب أحدٍ، وقد مُدِح بأوصاف جميلةٍ كثيرة جدًا[١].

ومنهم: أبو العباس أحمد بن أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله المستظهر بالله (ت٥١٢هـ)، كان لين الجانب، كريم الأخلاق، ويحب مصانعة الناس، ويفعل الخير، وكانت الرعيّةُ في أيَّامِه في حالةِ رضىٰ وسرور، وكان إذا بلغه تعرَّض السلطان أو نائب له إلىٰ أذىٰ أحد بالغ في إنكارهِ، وكان سمحًا جوادًا، محبًا للعلماء والصلحاء.

غسله ابن عقيل شيخ الحنابلة، وصلىٰ عليه ابنه المسترشد بالله، وماتت بعده جدته أرجوان والدة المقتدي بأمر الله، ولا يعرف خليفة عاشت جدته بعده إلَّا المستظهر بالله، رأت ابنها خليفَة، ثمَّ ابن ابنها، ثمَّ ابن ابن ابنها![٢].

ومنهم: الوزير جلال الدين أبو علي بن صدقة (ت٥٢٢هـ) وزير الخليفة، وكان حسن السيرة، جميل الطريقة، متواضعًا، محبًا لأهل العلم، مكرمًا لهم، وله شعر حسن[٣].

ومنهم: السلطان مسعود (ت٥٤٧هـ) شجاعًا كريمًا، ذا فضائل كثيرة، محبًا للعلماء، كثير الإحسان إليهم والتقرب لهم، صنفوا له التصانيف

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٢٠٢-٢٠٣)، وانظر: «السير» (١٩/ ٢٦٤-٢٦٥).

(٢) الخلفاء في عصر السلاجقة (ص٢٦٨)، قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٦/ ٢٣٦): «كان خيرًا فاضلًا ذكيًا بارعًا، كتب الخط المنسوب، وكانت أيامه ببغداد كأنها الأعياد، وكان راغبا في البر والخير مسارعا إلىٰ ذلك؛ لا يرد سائلًا، وكان جميل المعاشرة، لا يصغي إلىٰ أقوال الوشاة في الناس ولا يثق بالمباشرين، وقد ضبط أمور الخلافة جيدا وأحكمها وعرفها وعلمها، ولديه علم كثير، وفضل كبير، وشعر حسن قد ذكرناه أولا عند ذكر خلافته، وقد ولي غسله ابن عقيل وابن السني».

(٣) الكامل في التاريخ (٩/ ١٤).

الكثيرة في فنون العلوم، وكان كثير الصدقة والإحسان إلىٰ أهل الحاجة، تصدق مرة في شهر رمضان بألف ألف درهم، وأكثرَ الإدرارات والصلات، وعمر كثيرًا من المساجد في ممالكه، وكانت صنائعه ظاهرة مشهورة تسير بها الركبان، مع عفة عن أموال رعاياه، وأجاز الشعراء بجوائز عظيمة، أعطىٰ شامرًا علىٰ قصيدة ألف دينار، وأعطىٰ آخر بكل بيت ألف درهم، وكان يكتب خطا حسنا، وكان ملكه عظيمًا[1].

وأهديت **للسلطان نور الدين زنكي (ت٥٦٩هـ)** عمامة من مصر مذهبة، فأعطاها لابن حمويه شيخ الصوفية، فبيعت بألف دينار[2].

ومنهم: الخليفة المستضيء بأمر الله (ت٥٧٥هـ): أبو محمد الحسن ابن المستنجد بالله العباسي. كان ﷺ من الأئمة الموفقين، كثيرَ السخاء، حسن السيرة.

قال ابن الجوزي: وفرَّق أموالًا في العلويين والعلماء والصوفية، وكان دائمَ البذل للمال، ليس له عنده وقع.

قال الذهبي: وخطب له باليمن، وبرقة، وتوزر، وإلىٰ بلاد الترك، ودانت له الملوك، وكان يطلب ابن الجوزي، ويأمره أن يعظ بحيث يسمع، ويميل إلىٰ مذهب الحنابلة، وضعف بدولته الرفض ببغداد وبمصر وظهرت السنة، وحصل الأمن -ولله المنة-[3].

ومنهم: صاحب مَرَّاكُش. فإنَّه لما بلغه أنَّ الحافظ العلَّامة البارع السُّهَيلي (ت٥٨١هـ)، حاله أكرمه، كما قال ابن دحية عنه: كان يتسوَّغ بالعَفَاف ويتبلَّغ بالكفَاف، حتىٰ نُمِيَ خَبَرُه إلىٰ صاحب مَرَّاكُش، فطلبه،

---

(١) الكامل (٨/ ١٧-١٨).

(٢) السير (٢٠/ ٥٣٥-٥٣٦)، وهو في «مرآة الزمان» (٢١/ ٢٠٥).

(٣) المنتظم (١٠/ ٢٣٣)، و«سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٦٩-٧٠).

وأحسن إليه، وأقبل عليه، فأقام بها نحوًا من ثلاثة أعوام[(١)].

ومنهم: سلطان المغرب أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي (ت٥٩٥هـ).

قال عبد الواحد بن علي: كنت بفاس، فشهدت الأحمال يؤتىٰ بها، فتحرق، وتهدد علىٰ الاشتغال بالفروع، وأمر الحفاظ بجمع كتاب في الصلاة من (الكتب الخمسة)، و(الموطأ)، و(مسند ابن أبي شيبة)، و(مسند البزار)، و(سنن الدارقطني)، و(سنن البيهقي)، كما جمع ابن تومرت في الطهارة.

ثمَّ كان يملي ذلك بنفسه علىٰ كبار دولته، وحفظ ذلك خلق، فكان لمن يحفظه عطاء وخلعة . . .، إلىٰ أن قال: وكان قصده محو مذهب مالك من البلاد، وحمل الناس علىٰ الظاهر، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده، فلم يظهراه، فأخبرني غير واحد أن ابن الجد أخبرهم، قال: دخلت علىٰ أمير المؤمنين يوسف، فوجدت بين يديه كتاب ابن يونس، فقال: أنا انظر في هذه الآراء التي أحدثت في الدين، أرأيت المسألة فيها أقوال، ففي أيها الحق؟ وأيُّها يجب أن يأخذ به المقلد؟

فافتتحت أبين له، فقطع كلامي، وقال: ليس إلا هذا، وأشار إلىٰ المصحف، أو هذا، وأشار إلىٰ (سنن أبي داود)، أو هذا، وأشار إلىٰ السيف.

قال الحافظ ابن كثير: «كان دينًا حسن السيرة، صحيح السريرة، وكان مالكي المذهب، ثمَّ صار ظاهريًا حزميًا، ثمَّ مال إلىٰ مذهب الشافعي، واستقضىٰ في بعض بلاده منهم قضاة، وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة، وكان كثيرَ الجهاد رَحِمَهُ اللهُ، وكان يؤم الناس في الصلوات

---

(١) طبقات علماء الحديث (٤/ ١٢٣-١٢٥).

الخمس، وكان قريبًا إلىٰ المرأة والضعيف. وقام بالملك بعده ولده محمد، فسار كسيرة والده، ورجع إليه كثير من البلدان اللاتي كانت قد عصت علىٰ أبيه»[١].

قال يعقوب: «يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه أمر، فزع إلىٰ قبيلته، وهؤلاء -يعني: طلبة العلم[٢]- لا قبيل لهم إلا أنا»، قال: «فعظموا عند الموحدين»[٣].

وكان يجلس للحكم، حتىٰ اختصم إليه اثنان في نصف، فقضىٰ، ثم أدبهما، وقال: أما كان في البلد حكام؟

وكان يسمع حكم ابن بقي من وراء الستر، ويدخل إليه أمناء الأسواق، فيسألهم عن الأمور.

وتصدق في غزوة بأربعين ألف دينار.

وكان يجمع الأيتام في العام، فيأمر للصبي بدينار وثوب ورغيف ورمانة[٤].

قال عبد الواحد بن علي التميمي: صحَّ عندي أنَّه كان يحفظُ أحد (الصحيحين)، أظنُّه البخاري.

قال الذهبي: كان سديد الملوكيَّة، بعيد الهمة، جوادًا، استغنىٰ النَّاسُ في أيامهِ، ثمَّ إنَّه نظر في الطب والفلسفة، وحفظَ أكثر كتاب (الملكي).

قال أبو الوليد بن رشد الحفيد: لما دخلت علىٰ أمير المؤمنين

---

(١) البداية والنهاية (وفيات سنة ٥٩٥هـ) (١٦/ ٦٨٧).

(٢) يعني طلبة علم الحديث.

(٣) تاريخ الإسلام (١٢/ ١٠٥١).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٤).

أبي يعقوب، وجدته هو وابن طفيل فقط، فأخذ ابن طفيل يطريني، فكان أول ما فاتحني أن قال: ما رأيهم في السماء؟ أقديمة أم حادثة؟

فخفت، وتعللت، وأنكرت الفلسفة، ففهم، فالتفت إلىٰ ابن طفيل، وذكر قول أرسطو فيها، وأورد حجج أهل الإسلام، فرأيت منه غزارة حفظ لم أكن أظنها في عالم، ولم يزل يبسطني، حتىٰ تكلمت، ثم أمر لي بخلعة ومال ومركوب»[(١)].

قال الأستاذ شوقي أبو خليل: «أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، وأحسن النَّاس ألفاظًا للقرآن الكريم، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النَّحو، وأحفظهم للغة العربية، وكان بعيد الهمة، سخيًا جودًا، استغنىٰ النَّاس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال، هذا مع إيثار للعلم شديد وتعطش إليه مفرط، صح أنَّه كان يحفظ أحد الصحيحين وأغلب الظن أنه البخاري، حفظ في حياة أبيه بعد تعلم القران الكريم، هذا مع ذكر جميل في الفقه، وكان له مشاركة في علم الأدب، واتساع في حفظ اللغة، وتبحر في علم النحو، وطمع به شرف نفسه وعلو همته إلىٰ تعلم الطب، وجمع مكتبة ما كان فيه قريبًا مما اجتمع للحاكم المستنصر بالله الأموي ثاني الخلفاء بالأندلس (٣٥٠-٣٦٦هـ)، حيث احتوت مكتبته علىٰ أربعمائة ألف مجلد»[(٢)].

ومنهم: الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله العباسي (ت٦٢٣هـ).

قال ابن الأثير الجزري: ولما ولي الخلافة، أظهر من العدل

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٩٩-١٠٠).

(٢) إعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحدين (ص١٠٨-١٠٩) ط: الأندلس.

والإحسان ما أعاد به سنة العمرين[١]، فلو قيل إنَّه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقًا، فإنَّه أعاد من الأموال المغصوبة في أيام أبيه وقبله شيئًا كثيرًا، وأطلق المكوس في البلاد جميعها، وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق، وأن يسقط جميع ما جدده أبوه.

ومن حسن نيته للنَّاسِ أنَّ الأسعار في الموصل وديار الجزيرة كانت غالية، فرخصت الأسعار، وأطلق حمل الأطعمة إليها، وأنْ يبيع كل من أراد البيع للغلة، فحمل منها الكثير الذي لا يحصىٰ، فقيل له: إنَّ السعر قد غلا شيئا، والمصلحة المنع منه، فقال: أولئك مسلمون وهؤلاء مسلمون، وكما يجب علينا النظر في أمرِ هؤلاء، كذلك يجب علينا النَّظرَ لأولئك[٢].

ومنهم: السلطان الملك المعظم عيسىٰ بن العادل (ت٦٢٤هـ). كان عالمًا فاضلًا متفننًا في الفقه والنحو وغيرهما، وشيخه في النحو وعلم الأدب الشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان شيخه في الفقه الأمام جمال الدين الحصيري رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان ملوك -بني أيوب- كلهم شافعية، وانفرد هو رَحِمَهُ اللَّهُ بالانتماء إلىٰ مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ. وقيل: أن أباه السلطان الملك العادل لامه في ذلك، وقال له: «كيف اخترت مذهب أبي حنيفة، وأهلك كلهم شافعية؟».

فقال لأبيه علىٰ سبيل المداعبة: «يا خوند أما ترضون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم».

ولما وقف الملك المعظم علىٰ تاريخ بغداد الذي صنفه الشيخ الحافظ أبو بكر أحمد بن ثابت، وفيه مطاعن علىٰ أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، رواها

---

(١) عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) الكامل في التاريخ (١٩/ ٤٠١-٤٠٣).

الخطيب عن جماعة من المحدثين، رد عليه الملك المعظم في ذلك، وصنَّف كتابًا سمَّاه «السهم المصيب في الرد علىٰ الخطيب». وأجاب الملك المعظم في هذا الكتاب عن كل مطعن ذكره بأحسن جواب، وذكر فيه مباحث جليله دقيقه في الفقه والنحو، ووقفت علىٰ هذا الكتاب بالقدس الشريف، وطالعته جميعه ووجدته في غاية الحسن، قاله أبو عبد الله المازني في «مفرج الكروب»[(١)].

ومنهم: المستنصر بالله العباسي (ت٦٤٠هـ): أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله.

قال ابن النجار: نشر العدل في الرعايا، وبذل الإنصاف في القضايا، **وقرب أهل العلم والدين، وبنىٰ المساجد والربط والمدارس**، وأقام منار الدين، وقمع المتمردة، ونشر السنن، وكف الفتن، وحمل الناس علىٰ أقوم سنن، وقام بأمر الجهاد أحسن قيام، وجمع الجيوش لنصرةِ الإسلام، وحفظ الثغور، وافتتح الحصون.

قال الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري: «كان المستنصر راغبًا في فعل الخير، مجتهدًا في تكثير البر، وله في ذلك آثار جميلة، وأنشأ المدرسة المستنصرية، ورتب فيها الرواتب الحسنة لأهل العلم»[(٢)].

ومنهم السلطان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل (ت٦٥٧هـ).

يقول عنه ابن حداد: «أحسن الله عاقبته وأبد ولايته في البلاد، وجميل سيرته ومعدلته بين العباد، والعمل بالعدل والإفضال والفضل، وحب الصدقات وفعل الخيرات والتنفيس عن المكروبين، والإحسان إلىٰ جميع المسلمين المقيمين بمقره والنازحين، وإغاثة الملهوف وتحبيس

---

(١) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٤/ ٢١٠-٢١٢).

(٢) تاريخ الخلفاء (ص٤٥٧).

الوقوف، وإعطاء الجزيل وإسداء الجميل، وتتبع فعل الخيرات بما لا يحصىٰ من جميع الجهات علىٰ دوام الأوقات»[(١)].

قال السبكي: سمعت الشيخ الإمام الوالد يقول: سمعت صدر الدين ابن المرحل رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: ما جلس علىٰ كرسي ملك مصر غير شافعي إلا وقتل سريعًا، وهذا الأمر يظهر بالتجربة، فلا يعرف غير شافعي إلا قطز رَحِمَهُ اللَّهُ كان حنفيًا، ومكث يسيرًا وقتل، «وأمَّا **الظاهر (ت٦٧٦هـ)** فقلد الشافعي يوم ولاية السلطنة، ثمَّ لما ضم القضاة إلىٰ الشافعية استثنىٰ للشافعية الأوقاف وبيت المال والنواب وقضاة البر والأيتام، وجعلهم الأرفعين»[(٢)].

ومنهم: سلطان المغرب، مؤسس الامبراطورية المرينية، المَنْصور المَرِيني يعقوب بن عبد الحق بن أبي بكر بن حمامة المريني الزناتي (ت٦٨٥هـ)، بنىٰ المدارس لطلبة العلم، ووقف عليها الأوقاف، واستمر غازيًا مجاهدًا وبانيًا مصلحًا إلىٰ أن توفي بقصره في الجزيرة الخضراء بالأندلس، ودفن برباط الفتح[(٣)].

ومنهم: بهادر بن عبد الله المنصوري المعروف بالعجمي (ت٦٩٦هـ). كان من جملة أمراء دمشق، وسكنه بالديماس، وكان في سنة خمس وتسعين وست مئة قد حج بالنَّاس، وحُمِدت في المسير سيرته، وشُكِرت في الطريق طريقته. وكان شابًا حسن الطلعه، جميل الذهاب والرجعه، له دين متين، ومحبةً لأهل العلم العاملين[(٤)].

---

(١) الجوهر النفيس (ص١١٩-١٢٠).
(٢) طبقات الشافعية الكبرىٰ (٨/ ٣٢٠).
(٣) الأعلام للزركلي (٨/ ١٩٩-٢٠١).
(٤) أعيان العصر (٢/ ٥٩).

ومنهم: مظفر بن أحمد بن عثمان بن عبد الله بن محمد بن علي الشعبي (ت٧١٨هـ). خلف أباه أحمد، وسار برعية بلده أحسن سيرة، ومشىٰ علىٰ منهاج أبيه وجده في محبة العلماء والصالحين، وفي فعل الخير إلىٰ أن توفي عائدًا من الحج[١].

ومنهم: عثمان بن أرطغرل (ت٧٢٦هـ) وقد أوصىٰ ابنه قائلًا له **يا بنيَّ**: «أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم، وانزل علىٰ مشورتهم، فإنهَّم لا يأمرون إلا بخير».

يا بنيَّ: «إيَّاك أن تفعل أمرًا لا يرضىٰ الله ﷻ، وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة، فإنَّهم سيدلونك عل الخير».

واعلم يا بنيَّ: «أنَّ طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وأنَّنا لسنا طلاب جاه ولا دنيا»[٢].

وَهل شَيْء يَدُوم سوىٰ حَدِيث جميل الذّكر فالدنيا حَدِيث[٣]

وفي كتاب «تاريخ الأدب التركي» كان من السلاطين والأمراء شعراء يبلغون العشرين عدًّا، ولبعضهم دواوين كبيرة، وللآخرين أشعار جياد، فقربوا العلماء والأدباء، ورفعوا منازلهم وأجروا عليهم رزقًا حسنًا[٤].

وقال الحافظ ابن كثير: **ولما وصل ابن جماعة (ت٧٣٣هـ) إلىٰ مصر أكرمه السلطان إكرامًا زائدًا**، وخلع عليه خلعة صوف، وبغلة تساوي ثلاثة آلاف درهم، وباشر الحكم القضاء بمصر[٥].

---

(١) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر لابن بامخرمة الحضرمي الشافعي (٦/١٠٨).

(٢) جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين (ص٣).

(٣) بدائع السلك لابن الزرق (ص٤٠٨).

(٤) نقلًا عن كتاب العثمانيون في التاريخ والحضارة (ص٢٦٥).

(٥) البداية والنهاية (١٨/١٧).

ومنهم: الأمير الكبير المهيب العادل الفريد سيف الدين تكنز أبو سعيد الأشرفي الناصري (ت٧٤١هـ). «يعظم الشرع الشريف ولا يخرج عن حكمهِ، ويوقر من يراه من الفضلاء لعلمه، ماله لذةٌ في غير أمنِ رعاياه، ومن انضوىٰ إلىٰ ظله أو انزوىٰ إلىٰ زواياه، وكانت بذلك أيامه أعيادًا، ولياليه أعراسًا، وأموال النَّاسِ موفرة عليهم لا تفارق منهم أكياسًا، كم أخذ النَّاس من إمرهِ، وما نالهم غرامة خيط في إبره. وكم باشروا ولايات، وكم وصلوا إلىٰ عدة نيابات، وكم وصل من إقطاع، وكم حكم حاكمًا فقضىٰ وهو بأمره يطاع، وما أحد تنوبه غرامه، ولا يعرف أسد خبت من غزلان رامه. هذا مع معرفة ودربه، وأحكام قد سددها الله»[1].

ولتنكر مآثر في دمشق؛ مساجد، ومدارس، ورباطات. وكان يقول: «أي لذةٍ لحاكم إذا كانت رعاياه يدعون عليه؟»، وما كان يخلو ليلة من قيامٍ ودعاء[2].

ومنهم: الأمير بدر الدين بن البابا، والأمير سيف الدين بشتاك.

قال الصفدي: وكان -الإمام ابن القيم (ت٧٥١هـ)- محظوظًا عند المصريين من الأمراء، يعطونه الذهب والدراهم، وهبه الأمير بدر الدين بن البابا مبلغ اثني عشر ألف درهم، والأمير سيف الدين بشتاك أعطاه في الحجاز مئتي دينار[3].

ومنهم: محمد بن طغلق شاه، السلطان الأعظم، العادل الفاضل، أبو المجاهد (ت٧٥٢هـ)، صاحب دهلي وسائر مملكة الهند والسند،

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر (٢/ ١١٦).
(٢) البدر الطالع (١/ ١٧١).
(٣) أعيان العصر وأعوان النصر (٤/ ٣٦٨).

ومكران والمعبر، وكان يخطب له بمقديشو وسرنديب، وكثير من الجزر البحرية[١].

قال الصفدي: وأمَّا تواضعه لله تعالىٰ مع هذه العظمة فأمر عجيب، وفعل لا يصدر إلا ممَّن إذا دعاه الهدىٰ يجيب.

وأمَّا محبته لأهل العلم فشيءٌ زاد علىٰ الصفة، وعجزت عن إدراك كنهها بنت كل شفة، يجعلهم ندماءه الخواص وجلساءه الذين هم في بحر كرمه غوَّاص، يتقرب إليهم بالمكارم، ويحكمهم في أمواله كما يحكم في فريسته الليث الضبارم.

لم يزل علىٰ حاله إلىٰ أن أوحش منه إيوانه، وما أغنىٰ عنه ماله وهلك عنه سلطانه.

وكان متمذهبًا بمذهب أبي حنيفة، يحفظ في المذهب كتاب (الهداية)، وقد شدا طرفًا جيدًا من الحكمة، ويحضر مجلسه الفقهاء للمناظرة بين يديه، ويجيز الجوائز السنية، وملكه ملك متسع جدًا، وعسكره كثير[٢].

وكان إذا سمع المؤذن وقف مكشوف الرأس ولا يزال واقفًا إلىٰ أن يفرغ المؤذن، ثمَّ أنَّه لا يشتغل بشيء بعد ذلك غير الصلاة النوافل والفريضة[٣].

ومن محبته للعلم أنَّه أهدىٰ له شخص عجمي الشفاء لابن سيناء

---

(١) يقال أنَّ عساكره بلغت ستمائة ألف، وأنَّه كان له ألف وسبعمائة فيل، وفي خدمته من الأطباء والحكماء والعلماء والندماء عدد كثير لم يجتمع لغيره.
قلت: ومع هذا الجاه كله، كان مشتغلًا بالعلم، معتنيًا به، مكرمً له، ولولا العلم الذي حازه لكان في طي النسيان.

(٢) أعيان العصر (٤/ ٤٨٢-٤٨٤).

(٣) الوافي بالوفيات (٢٤/ ٨٨).

بخطِ ياقوت الحموي في مجلدٍ واحد فأجازه بمال عظيم، يقال: بأن قدره مائتا ألف مثقال أو أكثر[(١)].

ومنهم: **القاضي عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل بن عبد الله بن محمد بن محمد الحلبي نزيل القاهرة (ت٧٦٩هـ).** وكان جوادًا مهيبًا، ومن كرمه أنَّه فرق علىٰ الفقراء والطلبة في ولايته للقضاءِ نحو ستين ألف درهم، مع أنَّ مدة ولايته للقضاء ثمانون يومًا فقط![(٢)].

وكان أبو المفاخر الملك الأشرف شعبان بن حسين (ت٧٧٤هـ).

قال عنه قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني ؒ في «تاريخه»: «كان ملكًا جليلًا، لم ير مثله في الحلم، كان هينًا ليّنًا محبًّا لأهل الخير والعلماء والفقراء، مقتديًا بالأمور الشّرعيَّة، واقفًا عندها، محسنًا لإخوته»[(٣)].

ومنهم: **شاه شجاع بن محمد مظفر اليزدي (ت٧٨٧هـ)**، كان ملكًا عادلًا، عالمًا بفنون من العلم، محبًا للعلماء والعلم، وكان يقرئ الكشاف، والأصول والعربية، وينظم الشعر بالعربي والفارسي مع سعة العلم والحلم، والإفضال والكرم، وكتب الخط الفائق، وكان قد ابتلىٰ بترك الشبع فكان لا يسير إلا والمأكول علىٰ البغال صحبته فلا يزال يأكل[(٤)].

ومنهم: **المعتضد بالله** (ت**٧٩٣هـ**): أبو الفتح أبو بكر بن المستكفي بالله، ذكر عنه: «أنَّه كان خَيِّرًا متواضعًا، محبًّا لأهل العلم»[(٥)].

---

(١) البدر الطالع (٢/ ١٨٠).

(٢) البدر الطالع (١/ ٣٨٧).

(٣) النجوم الزهرة لابن تغري (١١/ ٨١).

(٤) إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ لابن حجر (٢/ ٢٠١).

(٥) تاريخ الخلفاء (ص٤٩٥) ط: دار ابن حزم.

ومنهم: **بايزيد خان (ت٨٠٥هـ)** بن محمد بن محمد بن مراد بن محمد، «كان سلطانًا مجاهدًا مرابطًا، محبًا لأهل العلم، محسنًا اليهم»[١].

ومنهم: **أحمد بن محمد الشهاب اليغموري (ت٨١١هـ)**. ولي الحجوبية وشد الدواوين بدمشق، «وكان يظهر محبة العلماء وتعجبه مباحثتهم ويفهم جيدًا»[٢].

ومنهم: **الملك المؤيد أبو النصر، شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهري (ت٨٢٤هـ).** أسواق ذوي الفنون نافقة في أيامه؛ لجودة فهمه وذوقه بالنسبة إلىٰ أبناء جنسه.

وكان معظمًا للشريعة، محبًا للعلماء والفضلاء، يميل إلىٰ اللهو والطرب، مسرفًا علىٰ نفسه، غير أنَّه مات بعد توبة صادقة في مرض موته.

ثمَّ قال ابن تغري البردي الحنفي: وقد رماه المقريزي بأمور كان الأليق الإضراب عنها؛ لما كان عنده مما يقاوم ذلك من المحاسن، ولو لم يكن فيه إلا محبة العلماء وإجلال الشرع لكفاه!![٣].

ومنهم: **خليل بن أحمد بن سليمان بن غازي الأيوبي (ت٨٥٦هـ)**، وكان جوادًا محبًا للعلماء رَحِمَهُ اللَّهُ، واستقر في مملكته ولده الملك الصالح خليل وهو علىٰ طريقة والده في محبة العلماء خصوصًا الشافعية، وله نظم أيضًا[٤].

ومنهم: **القاضي يحيىٰ بن عمر بن أحمد بن يونس** شرف الدين أبو زكرياء والد البدر القرافي (ت٩٤٦هـ). سخي النفس، كثير العطاء

(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/ ١٥١).
(٢) الدرر الكامنة (٦/ ١١٦)، و«الضوء اللامع» (١١/ ١٩٦).
(٣) مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة (٢/ ١٣٦-١٣٩).
(٤) الضوء اللامع (٨/ ١٧٨).

للفقراء، يردون عليه مع كثرتهم فيرضيهم، مع اطراح نفس إلىٰ الغاية بحيث يضرب به المثل، واعتقاد جميل في محبة العلماء والصالحين(١).

ومنهم: **الوزير كُجرات آصف خان الهندي**. كان مجاورًا بمكة أثناء سني العشر السادس من المائة التاسعة، وكان رجلًا مفضالًا، إذا أعطىٰ أغنىٰ، وإذا أحسن أفضل وأسنىٰ، وكانت له فضيلة وفهم ومشاركة، وكان مجلسه مجلس الفوائد(٢).

ومنهم: **بايزيد خان بن محمد بن مراد بن بايزيد (ت٩١٨هـ)**. كان مجاهدًا، مثاغرًا مرابطًا، محبًا لأهل العلم، محسنًا إليهم(٣).

ومنهم: **غازي باشا ابن شاهوار الجركسي الأصل، أحد وزراء الدولة العثمانية** (ت١٠٧١هـ)، كان من مشاهير فضلاء الوزراء، مطلعًا علىٰ كثير من المسائل، والنكات، عارفًا باللغات العربية والفارسية والتركية، حافظًا لكثير من أشعارها، كان والده من الأمراء.

وكان بعيدًا عمَّا يقتضيه الشباب من غلوائه، مقبلًا علىٰ محبةِ العلماء، لا يعرف له صبوة(٤).

ومنهم: **الوزير علي بن أحمد بن راجح بن سعيد (ت١١٧٣هـ)**. وقف ثلث تركته علىٰ العلماء والمحاويج، وصارت الآن صدقة جارية علىٰ المستحقين يحصل منها في كلِّ عام شيء واسع(٥).

---

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص٦٣٩).
(٢) قيد الأوابد من الفوائد والعوائد والزوائد لعبد الملك العصامي (ت١١١١هـ) (١/ ١٤١) ط: ابن حزم.
(٣) البدر الطالع (١/ ١٦١).
(٤) خلاصة الأثر (٢/ ٢٧٢).
(٥) البدر الطالع (١/ ٤٢٤).

ومنهم: محمد بن عبد الله صاحب الدولة العلوية في المغرب (ت١٢٠٤هـ). ذكر الشيخ شهاب الدين السلاوي في «الاستقصا» قائلًا عنه: «رتب لأهل الحرمين الشريفين وشرفاء الحجاز واليمن مائة ألف مثقال في السنة، ولشرفاء المغرب مائة ألف مثقال كذلك.

وأمَّا الطلبة والمؤذنون والقراء وأئمة المساجد، كانت تأتيهم صِلاتهم في كل عيد.

وأمَّا ما كان ينفقه في الجهاد علىٰ رؤساء البحر وطبجيته، وما يضيره علىٰ المراكب الجهادية والآلات الحربية التي ملأ بها بلاد المغرب فشيء لا يحصيه الحصر.

وأمَّا ما أنفقه من الأموال في فكاك أسرىٰ المسلمين فأكثر من ذلك كله حتىٰ لم يبق ببلاد الكفر أسير لا من المغرب ولا من المشرق، ولقد بلغ عددهم في سنة مائتين وألف ثمانية وأربعين ألف أسير وزيادة.

وأوقافه بالحرمين الشريفين وكتبه العلمية المحبسة بهما لا زالت قائمة العين والأثر إلىٰ الآن»(١).

وقال الشيخ محمد الخضر حسين (ت١٣٧٧هـ) كان **صاحب تونس** كان يكرم العلماء، ويقربهم من مجلسه. فقال لهم ذات ليلة: نحن ملوك الآن، أحسن من الملوك السابقين، فقال له الشيخ حمودة الريكلي: في أي شيء أنتم أحسن؟

فقال: إنَّ الملوك السابقين كانوا يقتلون العلماء، ونحن نكرمهم ونقربهم من مجالسنا.

فقال له الشيخ: الأمر ظاهر، فإنَّ الملوك السابقين كانوا يفعلون المنكر، ويعترض عليهم العلماء، فيقتلونهم، ونحن نسكت لكم عما

---

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصىٰ (٣/ ٧٠).

تفعلونه، فلماذا تقتلوننا؟؟ فغضب الأمير، ودخل إلىٰ داره. ثم أرسل إلىٰ العلماء بأن يذهبوا إلىٰ منازلهم، ويبقىٰ الشيخ حمودة، فذهبوا معتقدين أن الأمير سيعاقب الشيخ بأشد عقوبة. ثم خرج الأمير بعد مدة، وقال للشيخ حمودة: جزاك الله خيرًا فيما قلته، وأعطاه في الصباح عربته الخاصة، ونزل بها إلىٰ تونس[1].



(١) الأعمال للشيخ محمد الخضر حسين (٢/ ١٣٦).







[الفصل الثالث عشر:

في ذكر المتوكل ونصرته للسنة، وعونه لأهل الحديث وإكرامهِ لهم]

هو جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد، بويع له في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتي بعد الواثق، فأظهر الميل إلىٰ السنة، ونصر أهلها، ورفع المحنة، وكتب بذلك إلىٰ الآفاق.

استقدم المحدثين إلىٰ سامرا، وأجزل عطاياهم وأكرمهم، وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية (وأَظهر الله به السنَّة، وأَفل به نجم التجهم والاعتزال)، وجلس أبو بكر بن أبي شيبة في جامع الرصافة، فاجتمع إليه أيضًا نحو من ثلاثين ألف نفس، وجلس أخوه عثمان في جامع المنصور، فاجتمع إليه أيضًا نحو من ثلاثين ألف نفس، وتوفّر دعاء الخلق للمتوكل، وبالغوا في الثناء عليه والتعظيم له، حتىٰ قال قائلهم: الخلفاء ثلاثة: «أبو بكر الصديق رضي الله عنه في قتل أهل الردة، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم، والمتوكل في إحياء السنة، وإماتة التجهم»[1].

وقال أبو بكر ابن الخبازة في ذلك:

وبعْدُ، فَإنَّ السُّنَّة اليَومَ أَصْبحتْ   معزَّزةً حَتَّىٰ كَأنَّ لمْ تُذلَّلِ

---

(١) وفي «الوافيات بالوفيات» للصفدي (١١/ ١٠١) قال إبراهيم بن محمد التيمي قاضي البصرة: «الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق قاتل أهل الردة حتىٰ استجابوا، وعمر بن عبد العزيز رد مظالم بني أمية، والمتوكل محا البدع وأظهر السنة».

تَصُولُ وتَسْطُو إذْ أُقِيمَ مَنَارُها وَحُطَّ مَنَارُ الإفْكِ والزُّورِ مِن علِ
وولَّىٰ أَخُو الإبداعِ في الدِّينِ هَارِبًا إلىٰ النَّارِ يَهْوِي مُدْبِرًا غَيْر مُقْبلِ
شفَىٰ اللهُ مِنْهُم بالخليفةِ جعفرٍ خليفتهِ ذي السُّنَّة المتوكِّلِ
خليفةِ ربِّي وابنِ عمِّ نبيِّه وخير بَني العبَّاسِ مَنْ مِنْهُم وَلي[1]

وكان جوادًا ممدحًا، يقال: ما أعطىٰ خليفة ما أعطىٰ المتوكل.

قال الحسين بن إسحاق: سمعت صالح بن أحمد بن حنبل، يقول: سهرت ليلة، ثمَّ غفوتُ، فرأيتُ في نومي كأنَّ رجلًا يعرج به إلىٰ السماء وقائلًا، يقول:

مَلِكٌ يُقَادُ إلىٰ مَلِيكٍ قادِرٍ مُتَفضِلٍ في العَفو لَيسَ بجَائِرِ

ثمَّ أصبحنا فما أمسينَا حتىٰ جاء نعيُ المتوكل من «سر من رأىٰ» إلىٰ بغداد[2].

وعن عبد الله بن عبد الرحمن، قال: رأيت المتوكل فيما يرىٰ النَّائم، فقلت: يا متوكل، ما فعل بك ربك؟

قال: غفر لي ربي، قلت: غفر لك ربك! وقد عملت ما عملت، قال: «نعم، بالقليل من السنَّةِ التي أظهرتها»[3].

وقال أبو الفضل: بلغني أنَّه ذُكِرَ عند المتوكل بعد موت أحمد أنَّ أصحاب أحمد يكون بينهم وبين أهل البدع الشر، فقال المتوكل لصاحب الخبر: «لا ترفع إليَّ من أخبارهم شيئًا، وشدَّ علىٰ أيديهم، فإنهَّم وصاحبهم من سادَة أُمة محمد، وقد عرف الله لأحمد صبره وبلاءه، ورفع

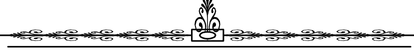
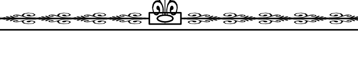
---

(١) تاريخ الخلفاء (ص٣٤٧) ط: ابن حزم. و«تاريخ الإسلام» (٥/ ١٠٩٧).
(٢) المحنة لعبد الغني (ص١٩٨).
(٣) تاريخ بغداد (٨/ ٤٥)، وبنحوهِ في «المحنة» (ص١٩٨)، قال غفَر لي بثلاثٍ: «بإظهار السنَّة، وبنياني المسجد الجامع، وقتلت مظلومًا».

علمه أيام حياته وبعد موته، أصحابه أجلِّ الأصحاب، وأنا أظن أن الله تعالىٰ يُعطىٰ أحمد ثواب الصدّيقين»[١].



(١) المناقب (ص٦٧٠-٦٧١).


[الفصل الرابع عشر:

مَن امتنع مِن العلماء أخذ الأعطيات من السلطان]

واعلم بأنَّ مذاهب علماء الأمة في الغالب ترجع إلىٰ مذهبين في حكم عطايا السلطان وماله الذي يعطيه للناس، فمنهم من قبله، ومن امتنع عن أخذه.

والسبب في ذلك:

التورع لأنَّ المال الذي يأتي من جهتهم ربما كان فيه غصب وظلم وأخذ للمال من غير وجه مشروع.

أو لأنَّ هناك منافرة ومنازعة بين العالم والسلطة الحاكمة.

أو من باب الترفع والتكرم؛ لأنهَّم يرون في أخذ ذلك منهم كسر لأنفسهم وذل لهم.

أو لأنهَّم يرون أخذ المال علىٰ بعض الأعمال غير مشروع، كما هو حاصل مع عبد الله بن معقل المزني في أخذ الأجرة علىٰ قراءة القرآن، ومثله في الحديث الشريف، وهذا المبحث فيه أخذ ورد طويل بين أهل العلم.

أو خشية مِن أنَّ ذلك يفضي إلىٰ السكوتِ عن واجب النُّصح والإنكار، فإنَّ البطن إذا امتلأت سكتت العين عن رؤية المنكر.

ومن هؤلاء الذين رفضوا الأعطيات: **شقيق بن سلمة (ت٨٢هـ)**. عن عاصم، قال: كان أبو وائل -شقيق بن سلمة- يقول لجاريته: «يا بركة،

إذا جاء يحيىٰ -يعني ابنه-، بشيءٍ فلا تقبليه، وإذا جاءك أصحابي بشيء فخذيه». قال: وكان يحيىٰ ابنه قاضيًا[١].

ومنهم: عبد الله بن معقل بن مقرن المزني (ت٨٨هـ). صلَّىٰ بالنَّاسِ في شهر رمضان فلمَّا كان يوم الفطر بعث إليه عبيد الله بن زياد بحلةٍ وخمسمائة درهم فردها عليه، وقال: «إنَّ لا نأخذ علىٰ القرآن أجرًا»[٢].

ومنهم: إمام التابعين سعيد بن المسيب (ت٩٤هـ) كان لا يقبل جوائز السلطان، فقيل له في ذلك، فقال: «قد ردَّها مَن هو خيرٌ منِّي علىٰ من هو خيرٌ منهم»[٣].

وكان لا يأخذ العطاء، وكان يعيش من التِّجارة بالزيت[٤]، وقيل: كان يأخذ من مال الخمس من السلطان.

وقال عمران بن عبد الله بن طلحة: دعي سعيد بن المسيب إلىٰ نيفٍ وثلاثين ألفًا ليأخذها فقال: «لا حاجة لي فيها، ولا بني مروان حتىٰ ألقىٰ الله؛ فيحكم بيني وبينهم»[٥].

ومنهم: عثمان بن عاصم بن حصين قال مِسعر (ت١٣٢هـ): بعث بعض الأمراء **إلىٰ أبي حصين**[٦] بألفي درهم وهو عائل -فقير-، فردها!!

---

(١) حلية الأولياء (٤/ ١٠٣).

(٢) الثقات لابن حبان (٥/ ٣٥).

(٣) شرح السنة للبغوي (٨/ ١٥).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٢٠)، و«الأعلام» للزركلي (٣/ ١٠٢)

(٥) حلية الأولياء (٢/ ١٦٦).

(٦) عثمان بن عاصم بن حصين، ويقال: عثمان بن عاصم بن زيد بن كثير بن زيد بن مرة، أبو حصين الأسدي الكوفي. روىٰ عن: إبراهيم النخعي، والأسود بن هلال، وأنس بن مالك، وجابر بن سمرة، وحبيب بن أبي ثابت، وحبيب بن صهبان، وزيد بن أرقم، وسالم بن أبي الجعد، وسعد بن عبيدة، وسعيد بن جبير، وسويد بن غفلة، =

فقلت له: لم رددتها؟

قال: «الحياء والتكرم»[١].

قَالُوا توصَّل بالخضوعِ إِلَىٰ الْغنىٰ وَمَا علمُوا أَنَّ الخضوعَ هُوَ الْفقر
وبيني وَبَين المَال بَابَانِ حرَما عليَّ الْغنىٰ نَفسِي الأبيةُ والدهر[٢]

ومنهم: الإمام ربيعة بن عبد الرحمن (ت١٣٦هـ).

قال مالك: «لما مات القاسم، وسالم، أَفْضىٰ الأمر إلىٰ ربيعة، ولما قدم علىٰ السَّفاح أمر له بمال فلم يقبله»[٣]. وفي رواية: «فأمر له بخمسة آلاف درهم يشتري بها جارية فأبىٰ أن يقبلها»[٤].

أَنا إنْ عِشتُ لستُ أعدِمُ قوتًا وإذا مِتُ لستُ أعدِم قبرًا
همتَي همةُ الملوكِ ونفسي نفسُ حرٍ ترىٰ المذلَّةَ كفرًا

ومنهم: الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت (ت١٥٠هـ). وكان خزازًا يُنفق من كيسه ولا يقبل جوائز السلطان تورّعًا، وله دارٌ وضياع ومعاش متسع، وكان معدودًا في الأجواد الأسخياء الألبَّاء[٥].

وعن يوسف السمتي، أنَّ أبا جعفر المنصور، أجاز أبا حنيفة بثلاثين ألف درهم في دفعات، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّي ببغداد غريب، وليس

= وشريح بن الحارث القاضي، وعامر الشعبي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس.

(١) تهذيب الكمال (١٩/ ٤٠٦) و«تاريخ دمشق» (٣٨/ ٤١٠)، و«السير» (٥/ ٤١٦).

(٢) يتيمة الدهر (٤/ ٢٦)، و«وفيات الأعيان» (٣/ ٢٧٩)، و«معجم الأدباء» (٤/ ١٨٠٥).

(٣) طبقات علماء الحديث (١/ ٢٤٦)، قال عبيدُ اللهِ بنُ عمر: «ربيعة هو صاحبُ مُعضلاتِنا، وعالمُنا، وأفضلُنا». قال ابن عبد الهادي: «وأخبار ربيعة مستوفاة في (تاريخ بغداد)، و(تاريخ دمشق)».

(٤) حلية الأولياء (٣/ ٢٥٩)، و«تاريخ بغداد» (٩/ ٤١٤).

(٥) الوافي بالوفيات (٢٧/ ٨٩).

لها عندي موضع، فأجعلها في بيت المال، فأجابه المنصور إلىٰ ذلك، قال: فلما مات أبو حنيفة أخرجت ودائع النَّاس من بيته، فقال المنصور: خدعنا أبو حنيفة[١].

وقال سهل بن مزاحم: «بُذِلَتْ الدنيا لأبي حنيفة فلم يُرِدْهَا، وضُرب عليها بالسياط فلم يقبلها»[٢].

ومنهم: عالم اليمن ومحدثها، مَعْمر بن راشِد (ت١٥٣هـ)[٣].

قال الإمام عبد الرَّزَّاق بن همام: «بعثَ معنُ بن زائدة إلىٰ معْمر بذهبٍ فرَدَّه، وكتم ذلك»[٤].

ومنهم: الإمام سفيان الثوري (ت١٦١هـ)، وقال: «إنِّي لأعلم أنَّه حلال لي؛ ولكن أكره أن يقع لهم في قلبي مودّة»[٥].

وعن أحمد بن الحسن المرعشي قال: «بعث عامل مكة إلىٰ سفيان الثوري مائتي دينار فردها»[٦].

---

(١) تاريخ بغداد (١٥/ ٤٨٧)، وقال ابن عبد الهادي في «طبقات علماء الحديث» (١/ ٢٦١): «وكان إمامًا، ورعًا، عالمًا، عاملًا، مُتعبدًا، كبير الشأن، لا يقبل جوائز السلطان. بل يَتَّجِرُ وَيَتكَسَّبُ».

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢١٩).

(٣) حدَّث عن: الزُّهري، وقَتادة، وعمرو بن دينار، وزياد بن عِلاقة، ويحيىٰ بن أبي كثير، ومحمد بن زياد الجمَحي، وغيرِهم.
وعنه: السُّفيانان، وابن المبارك، وغُندر، وابن عُليَّة، ويزيد بن زُريع، وعبد الأعلىٰ بن عبد الأعلىٰ، وهشام بن يوسف، وعبد الرَّزاق، وخلق. وحدث عنه من شيوخه أيّوب، وأبو إسحاق.

(٤) طبقات علماء الحديث (١/ ٢٨٩).

(٥) التذكرة الحمدونية (١/ ٢١٦).

(٦) الثقات (٨/ ٤٩).

وقال: «إنَّما سميت الدنيا؛ لأنَّها دنت، وإنَّما سمي المال؛ لأنَّه يميل»[(١)].

وقال سفيان بن عيينة: أنَّ محمد بن إبراهيم -يعني الهاشمي- والي مكة، بعث إلىٰ سفيان الثوري بمائتي دينار فأبىٰ أن يقبلها، قلت له: يا أبا عبد الله كأنَّك لا تراها حلالًا.

قال: «بلىٰ؛ ولكن أكره أن أذل»[(٢)].

وقال حسين بن روح: أتىٰ سفيان الثوري رجل فقال أبي مررت بفلان فأعطاني صره فيها ألف دينار أعطيك إيَّاها.

قال: يقول له سفيان فمررت بأختي فأعطتك شيئًا من دقيقه.

قال: نعم.

قال: فأتني بصره الدقيق ورد صره الدنانير. قال: «فكان يختبز منها أقراصًا ويأكل»[(٣)].

ومنهم: وكيع (ت١٩٧هـ).

قال عنه الإمام أحمد: «وكيع لم يتلطخ بالسلطان، ما رأيت أوعىٰ للعلم، ولا أشبه بأهل النُّسك من وكيع»[(٤)].

ومنهم: بهلول بن راشد (ت١٨٣هـ). عن أبي عثمان قال: أتىٰ هرثمة بن أعين، وهو والي إفريقية، إلىٰ البهلول برجاله وألويته.

وكان في مسجده مستندًا إلىٰ عمود، فمال هرثمة عن السرج لينزل،

---

(١) تاريخ بغداد (٥/ ٧٢).

(٢) الجرح والتعديل (١/ ١١٤)، و«حلية الأولياء» (٧/ ٤٠).

(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١/ ١٠١).

(٤) بحر الدم فيمن تكلم فيه الامام احمد بمدح أو ذم لابن عبد الهادي (ابن المبرد) (٢/ ١٠٧).

فلمَّا رآه لم يرفع رأسه إليه ولم ينهض إلىٰ القيام، رجع إلىٰ سرجه وقال لبعض أعوانه: ادفع هذا المزود الدراهم إليه، وقل له: يأمرك الأمير أنْ تفرقه، فقال له البهلول: «قل له أنت أعرف بموضعه منِّي» وأبىٰ أن يقبله[١].

ومنهم: **الحافظ محدِّث الرَّي جريرُ بنُ عبد الحميد** (ت١٨٨هـ).

قال ابن مَعين: سمعتُه يقول: «عُرض عليَّ بالكوفة ألفًا درهم يعطوني مع القُرَّاء، فأبيتُ، ثم جئت اليوم أطلبُ ما عندهم أو ما في أيديهم»[٢].

حَسْبُ الكريمِ مذلَّةً ونَقيصةً ... أنْ لا يزال إلىٰ لئيمٍ يطلبُ
وإذَا أتتْ أعجوبةٌ فاصبِرْ لها ... فالدّهرُ يأْتي بالذِي هو أعجَبُ

ومنهم: **الإمام الرباني محمد بن حسن الشيباني (ت١٨٩هـ)** لم يبقَ له ثوبٌ نفيسٌ فرآه أبو يوسف في ثوب خَلق فأرسل إليه ثيابًا نفيسًا[٣] فلم يقبلها.

فقال: عُجِّل لكم، وأُجِّل لنا.

قال الزرنوجي: «ولعله إنَّما لم يقبله، وإن كان قبول الهدية سنة، لما رأىٰ في ذلك مذلةً لنفسه»[٤].

---

(١) طبقات علماء القيروان (١/ ٢٠٧).

(٢) تاريخ ابن معين رواية الدوري (١٤٥٧).

(٣) ذكر الدميري في «حياة الحيوان الكبرىٰ» (١/ ٢٠٥) «أنَّ أبا يوسف هو أول من دعي بقاضي القضاة، وأول من غير لباس العلماء إلىٰ هذه الهيئة التي هم عليها إلىٰ هذا الزمان، وكان ملبوس الناس قبل ذلك، شيئًا واحدًا لا يتميز أحد عن أحد بلباسه». فلعل ما فعله رَحِمَهُ اللهُ من هذا القبيل، لا زيادة في الرفاهية، والله أعلم.

(٤) قلت: ولعله امتنع عن ذلك تورعًا كما حصل مع الإمام أحمد والفضيل بن عياض وجماعة من السلف، عدم الأخذ من موارد السلطان خشية أن يكون فيها مكس، وما سوىٰ ذلك، والله أعلم. =

وقال عباس الدوري: قلت ليحيىٰ بن معين: إنَّ النَّاس قالوا: إنَّ **عبد الله بن داود (ت٢١٣هـ)** بعث إليه السلطان بمال فأبىٰ أن يأخذه، وقال: «هو من مال الصدقة، ولو كتب به لي من مال الخراج أخذته»(١).

وقال أبو عبيد الآجري، عن أبي داود: «خلف ابن داود أربع مئة دينارٍ، وبعثَ إليه محمد بن عبَّاد بيد نصر بن علي مئة دينار، فقبلها»(٢).

ومنهم: الإمام عفان بن مسلم الصفار (ت٢٢٠هـ).

قال حنبل: حضرت أبا عبد الله وابن معين عند عفان، بعد ما دعاه إسحاق بن إبراهيم للمحنة، وكان أول من امتحن من الناس عفان، فسأله يحيىٰ من الغد بعد ما امتحن، وأبو عبد الله حاضر ونحن معه، فقال: أخبرنا بما قال لك إسحاق؟

قال: يا أبا زكريا، لم أسود وجهك، ولا وجوه أصحابك، إنِّي لم أجب.

فقال له: فكيف كان؟

قال: دعاني، وقرأ عليَّ الكتاب الذي كتب به المأمون من الجزيرة، فإذا فيه: امتحن عفان، وادعه إلىٰ أن يقول: «القرآن كذا وكذا، فإن قال ذلك، فأقره علىٰ أمره، وإن لم يجبك إلىٰ ما كتبت به إليك، فاقطع عنه الذي يجرىٰ عليه -وكان المأمون يجري علىٰ عفان كل شهر خمس مائة درهم-.

فلما قرأ عليَّ الكتاب، قال لي إسحاق: ما تقول؟

= وهذا خلق عظيم، ومنقبة شريفة، وهي أخذ المال الحلال من المكان الحلال، والبعد عن مواطن الشبه، ورحم الله امرئ جب الشبهة عن نفسه.

(١) تاريخه (٢/ ٣٠٣-٣٠٤)، و«تهذيب الكمال» (١٤/ ٤٦٤).

(٢) سؤالات أبي عبيد الآجري أبا داود السجستاني في الجرح والتعديل (ص٣٣٩)، و«تهذيب الكمال» (١٤/ ٤٦٤).

فقرأت عليه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتىٰ ختمتها.

فقلت: أمخلوق هذا؟

فقال: يا شيخ! إنَّ أمير المؤمنين يقول: إنَّك إنْ لم تجبه إلىٰ الذي يدعوك إليه، يقطعُ عنك ما يجري عليك.

فقلت: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

فسكت عني، وانصرفت.

فسر بذلك أبو عبد الله، ويحيىٰ»[١]. وذكرت هذا في بيان أنَّ عطاء السلطان لم يكن يكم أفواه العلماء، ويسكتهم عن الحق[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٤٤)، و«تاريخ بغداد» (١٤/ ٢٠١).

(٢) وهذه الفتنة المنكرة النكرة التي أحدثت في الأمة، وهي القول بخلق القرآن، وقد ابتلي بها جماعة من العلماء، أذكر منهم:

قال الربيع بن سليمان عن البويطي: «لقد رأيته علىٰ بغل، في عنقه غل، وفي رجليه قيد، وبينه وبين الغل سلسلة فيها لبنة أربعون رطلًا، وهو يقول: إنَّما خلق الله الخلق بـ (كن)، فإذا كانت مخلوقة، فكأن مخلوقا خلق بمخلوق، ولئن أدخلت عليه لأصدقنه -يعني الواثق- ولأموتنَّ في حديدي هذا حتىٰ يأتي قوم يعلمون أنَّه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم». كما في «السير» (١٢/ ٥٩).

قال محمد بن يحيىٰ الصولي: كان أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي من أهل الحديث، وكان جده من رؤساء نقباء بني العباس، وكان أحمد وسهل بن سلامة حين كان المأمون بخرسان بايعا النَّاس علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلىٰ أن دخل المأمون بغداد فرفق بسهل حتىٰ لبس السواد، وأخذ الأرزاق، ولزم أحمد بيته، ثمَّ إن أمره تحرك ببغداد في آخر أيام الواثق، واجتمع إليه خلق من النَّاسِ يأمرون بالمعروف إلىٰ أن ملكوا بغداد، وتعدىٰ رجلان من أصحابه يقال لأحدهما: طالب في الجانب الغربي، ويقال للآخر: أبو هارون في الجانب الشرقي، وكانا موسرين فبذلًا مالًا، وعزما علىٰ الوثوب ببغداد في شعبان سنة إحدىٰ وثلاثين ومائتين، فنم عليهم قوم إلىٰ إسحاق بن إبراهيم، فأخذ جماعة فيهم أحمد بن نصر، وأخذ صاحبيه طالبًا، وأبا هارون فقيدهما، ووجد في منزل أحدهما أعلامًا، =

ومنهم: الإمام سحنون (ت٢٤٠هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان لا يشرب من المواجل[١] التي يبينها السلاطين تورعًا، ويفتي بجواز ذلك.

وقال أحمد بن أبي سليمان: «كان العلماء يأكلون طعام علي بن حميد الوزير، خلا سحنون وولده. فلم يكن يأتيهم، ولا يأكل طعامهم».

= وضرب خادمًا لأحمد بن نصر فأقران هؤلاء كانوا يصيرون إليه ليلًا، فيعرفونه ما عملوا، فحملهم إسحاق مقيدين (إلىٰ سر من رأىٰ)، فجلس لهم الواثق، وقال لأحمد بن نصر: دع ما أخذت له، ما تقول في القرآن؟ قال كلام الله، قال: أفمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله، قال: أفترىٰ ربك في القيامة؟ قال كذا جاءت الرواية فقال: ويحك يرىٰ كما يرىٰ المحدود المتجسم، ويحويه مكان، ويحصره النَّاظر؟ أنا أكفر برب هذه صفته، ما تقولون فيه؟ فقال عبد الرحمن بن إسحاق، وكان قاضيًا علىٰ الجانب الغربي ببغداد، فعزل: هو حلال الدم، وقال جماعة من الفقهاء كما قال، فأظهر ابن أبي دؤاد أنَّه كاره لقتله، فقال للواثق: يا أمير المؤمنين شيخ مختل لعل به عاهة أو تغير عقل، يؤخر أمره، ويستتاب، فقال الواثق: ما أراه إلا مؤديا لكفره قائما بما يعتقده منه، ودعا الواثق بالصمصامة، وقال: إذا قمت إليه فلا يقومن أحد معي، فإنِّي أحتسب خطاي إلىٰ هذا الكافر الذي يعبد ربًا لا نعبده، ولا نعرفه الصفة التي وصفه بها، ثمَّ أمر بالنطع، فأجلس عليه وهو مقيد، وأمر بشد رأسه بحبلٍ، وأمرهم أن يمدوه ومشىٰ إليه حتىٰ ضرب عنقه، وأمر بحمل رأسه إلىٰ بغداد، فنصب في الجانب الشرقي أيامًا، وفي الجانب الغربي أيامًا، وتتبع رؤساء أصحابه فوضعوا في الحبوس. كما في «تاريخ بغداد» (٦/ ٣٩٧).

قال ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ عن نعيم بن حماد: «حُمل نُعيم -وكان أولُ مَنْ جمعَ المسند- من مصر مع البُوَيطي إلىٰ بغداد في محنة القرآن مقيَّدَين، فحُبِسَا بسامَرَّا حتىٰ مات نُعيم في جمادىٰ الأولىٰ سنةَ ثمانٍ وعشرين ومئتين».

وكان الإمام أحمد بنُ حنبل يقول عنه: «هو ركنٌ من أركان سنَّةِ النبي ﷺ». كما في «طبقات علماء الحديث» (٢/ ٦٤-٦٥).

قال أبو بكر الطرسوسي: «أخذ نعيم بن حماد في أيام المحنة، سنة ثلاث، أو أربع وعشرين ومائتين، وألقوه في السجن، ومات في سنة تسع وعشرين ومائتين، وأوصىٰ أن يدفن في قيوده، وقال: إني مخاصم».

(١) **المواجل**: حفرة يستنقع فيها الماء (اللسان).

وبعث إليه ابن الأغلب إلىٰ سحنون يقول له: إنِّي أريد أن استكفي قضاء رعيتي، فاعلمه. فقال: «أصلح الله الأمير، لا أقوىٰ عليه، أدلك علىٰ من هو أقوىٰ، سلميان بن عمران»[١].

وكان يقول: «أَكُلُ بالمسكنة، ولا أكل بالعلم».

وقال: «محب الدنيا أعمىٰ، لم ينوره العلم»[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا أتىٰ الرجل مجلس القاضي ثلاثة أيام متوالية بلا حاجة، فينبغي أنْ لا تقبل شهادته»[٣].

وقال: «إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه علىٰ دينكم»[٤].

ومنهم: **الإمام القدوة أحمد بن إسحاق (ت٢٤٢هـ)**، وهب له المأمون ثلاثين ألفًا، وعشرة أفراس، وجارية، فلم يقبلها.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ من فرسان الإسلام، كما قال الذهبي: «أخبار هذا الغازي تسر قلب المسلم».

قال الحافظ أبو القاسم الدمشقي: «فإنَّه كان مع فرطِ شجاعته من العلماء العاملينَ العباد»[٥].

ومنهم: **الإمام الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام ابن عبد الصمد السمرقندي الدارمي** (ت٢٥٥)، أحد الأئمة الحفاظ المبرزين، والعلماء العاملين، وقد صنَّف المسند والجامع والتفسير. وامتحن في مسألة القرآن فلم يجب. وألحّ عليه السلطان في قضاء

(١) ترتيب المدارك (٤/ ٧٩)، و(٤/ ٤٨).

(٢) الديباج المذهب (٢/ ٣٨)، و«السير» (١٢/ ٦٥).

(٣) ترتيب المدارك (٢/ ٦٥) و«الديباج المذهب» (٢/ ٣٩).

(٤) طبقات علماء القيروان (١/ ٣٥٧).

(٥) السير (١٣/ ٤٠).

سمرقند، فتقلده وقضىٰ قضية واحدة ثم استعفىٰ فأعفىٰ.

وكان الإمام أحمد إذا ذكره قال: «ذاك السيد عرض علىٰ الكفر فلم يقبل، وعرضت عليه الدنيا فلم يقبل»[1].

رَضِيتُ مِنَ الدُّنْيَا بِقُوتٍ يُقِيمُنِي ... فَلَا أَبْتَغِي مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا فَضْلَا
وَلَسْتُ أَرُومُ الْقُوتَ إِلَّا لِأَنَّهُ ... يُعِينُ عَلَىٰ عِلْمٍ أَرُدُّ بِهِ جَهْلَا
فَمَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِطِيبِ نَعِيمِهَا ... لِأَيْسَرَ مَا فِي الْعِلْمِ مِنْ نُكْتَةٍ عِدْلَا[2]

ويحكىٰ عن **الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)** أنَّ امرأة سألته عن الغزل بضوء مشاعل السلطان؛ فسألها: «من أنت؟ فقالت: أخت بشر الحافي، فأجابها بترك الغزل بضوئها»[3].

وقال عم الإمام أحمد: لو دخلت إلىٰ الخليفة فإنَّك تُكرم عليه، قال: «إنَّما غمي من كرامتي عليه»[4].

قال الحافظ ابن رجب: «كان الإمام أحمد له عيال، وكان يومًا لا يكون عنده شيء يفرح».

وقال: «أسرُّ أيامي يوم أصبح وليس عندي شيء، وأرسل يومًا إِلَيْهِ عياله يَقُولُونَ له: ليس عندنا اليوم دقيق، أو قالوا: خبز -فَقَالَ لهم: الساعة، ثمَّ أبطأ عليهم، فعاودوه فَقَالَ: الساعة. فدق عليه رجل الباب، فإذا هو رجل من خراسان قد أرسل معه إِلَيْهِ بخمسة آلاف درهم، فأبىٰ أن يأخذها رردها»[5].

---

(١) شرح علل الترمذي (١/ ٢٢٨-٢٣٠) ط: دار السلام.
(٢) القناعة لابن السني (ص٤٦).
(٣) حكاها الشاطبي في «الموافقات» (٥/ ٢٤٩)، وانظر: الرسالة القشيرية (ص٥٤).
(٤) طبقات علماء الحنابلة (١/ ١١٢).
(٥) رسالة شرح حديث «إن أغبط أوليائي» (٤/ ٤٢٠) ت: النجار.

وقال أبو جعفر بن دريج العكبري: «طلبت أحمد بن محمد بن حنبل في سنة ست وثلاثين ومائتين لأسأله عن مسألة، فسألت عنه».

فقالوا: خرج يصلىٰ خارجًا، فجلست له علىٰ باب الدرب حتىٰ جاء، فقمت فسلمت عليه فردَّ عليَّ السلام، وكان شيخًا مخضوبًا طوالًا أسمر شديدَ السمرة فدخل الزقاق، وأنا معه أماشيه خطوة بخطوة فلما بلغنا آخر الدرب إذا باب يفرج فدخله وصار ينظر خلفه.

وقال: اذهب عافاك الله فتثبت عليه فقال: اذهب عافاك الله.

قال: فالتفت فإذا مسجد علىٰ الباب، وشيخ مخضوب قائم يصلي بالناس فجلست حتىٰ سلم الإمام فخرج رجل، فسألته عن أحمد بن حنبل، وعن تخلفه عن صلاته.

فقال: ادعي عليه عند السلطان أنَّ عنده علويًا فجاء محمد بن نصر، فأحاط بالمحلة، ففتشت فلم يوجد شيء مما ذكر فأحجم من كلام العامة.

فقلت: من هذا الشيخ؟

قال: عمه إسحاق.

قلت: «فما له لا يصلي خلفه». فقال ليس يكلم ذا ولا ابنيه؛ لأنهَّم أخذوا جائزة السلطان[1].

وروي أنَّه كان لا يصلي خلف عمه إسحاق بن حنبل ولا خلف بنيه، ولا يكلمهم أيضًا؛ لأنهَّم أخذوا جائزة السلطان.

ومكث مرةً ثلاثةَ أيامٍ لا يجدُ ما يأكله حتىٰ بعث إلىٰ بعض أصحابه فاستقرض منه دقيقًا، فعرف أهله حاجته إلىٰ الطعام فعجلوا وعجنوا وخبزوا له سريعًا، فقال: ما هذه العجلة! كيف خبزتم سريعًا؟

(١) حلية الأولياء (٩/ ١٧٦).

فقالوا: وجدنا تنور بيت صالح مسجورًا فخبزنا لك فيه.

فقال: ارفعوا. ولم يأكل، وأمر بسد بابه إلىٰ دار صالح.

قال البيهقي: لأنَّ صالحًا أخذ جائزة المتوكل علىٰ الله.

وبعث الخليفة المأمون مرة ذهبًا؛ ليقسم علىٰ أصحاب الحديث، فما بقي منهم أحد إلا أخذ، إلا أحمد بن حنبل فإنَّه أبىٰ[١].

ولما ضُرب ومرض أمره الطبيب بأن تشوىٰ له دجاجة، فشويت في دار ابنه صالح فلم يأكلها، وقال: «إنَّ ابني يأخذ عطاء الخليفة»[٢].

إذا عَرضتْ ليْ في زمانيَ حاجةٌ ... وقد أشكلتْ فيها عليَّ المقاصدُ

وقفتُ ببابِ اللّهِ وقفةَ ضارعٍ ... وقلتُ: إلهي إنَّني لكَ قاصدُ

ولستَ تراني واقفًا عندَ بابِ مَنْ ... يقولُ فتاهُ: سيّدي اليومَ راقدُ

لا تهنِيني بِعامٍ ليس عَامِي ... لستُ قِسيسًا ولا جَدي ابْنُ حامِ

أنا يَا هذا حَنيفٌ مُسلمٌ ... رأس عَامِي غرةُ الشَّهر الحَرامِ[٣]

ومنهم: الإمام محمد بن رافع، أبو عبد الله القُشَيريُّ مولاهم النَّيسابوري (ت٢٤٥هـ). بعث إليه الأمير طاهر بخمسة آلاف، فردَّها، وقال: «الشمس قد بلغتْ رأسَ الحيطان، وبعدَ ساعةٍ تغرُب، ولم يقبل»[٤].

وعن أبي عثمان الرازي قال: جاء رجل من أصحاب المعتضد إلىٰ **إبراهيم الحربي** (ت٢٨٥هـ) بعشرة آلاف درهم من عند المعتضد يسأله عن أمر أمير المؤمنين يفرق ذلك فرده فانصرف الرسول، ثم عاد فقال: إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرقه في جيرانك.

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) منازل الأئمة الأربعة (ص٢٤٢).

(٣) قاله عبدُالرحمن بن علي المَكودي الفاسي (ت٨٠٧هـ).

(٤) طبقات علماء الحديث (٢/ ١٨٢).

فقال: عافاك الله هذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته قل لأمير المؤمنين: «إن تركتنا وإلا تحولنا من جوارك»[(١)].

ومنهم: إبراهيم الخواص (ت٢٩١هـ). يقال: إنَّ سعيد بن عبد العزيز زار الخواص ليلة في بيته ببيروت، فرآه في الظلمة، فقال: «ظلمةُ القبرِ أشد».

فأعطاه دراهم، فردها، وقال: «أكره أن أعود نفسي مثل دراهمك، فمن لي بمثلها إذا احتجت».

فبلغ ذلك الأوزاعي، فقال: «دعوه، فلو كان في السلف لكان علامة»[(٢)].

ومنهم: الإمام أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ) «صاحب السنن».

قال محمد بن المظفر الحافظ: «سمعت مشايخنا بمصر يعترفون لأبي عبد الرحمن بالتقدم والإمامة، ويصفون من اجتهاده في العبادة بالليل والنَّهار، ومواظبته علىٰ الحجِّ والاجتهاد، وأنَّه خرج إلىٰ الفداء مع والي مصر، فوصف من شهامته وإقامته السنن المأثورة، واحترازه في مجالسة السلطان الذي خرج معه، وأنَّه لم يزل ذلك دأبه إلىٰ أن استشهد رضي الله عنه بدمشق من جهة الخوارج»[(٣)].

ومنهم: أبو بكر بن أبي داود، عبد الله بن سليمان بن الأشعث (ت٣١٦هـ).

قال أبو حفص بن شاهين: أراد الوزير؛ علي بن عيسىٰ أن يصلح

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ٤٠٦-٤٠٧)، وهو في «تاريخ بغداد» (٦/ ٥٢٢).

(٢) السير (٨/ ١٧٩).

(٣) تذهيب تهذيب الكمال (١/ ١٤٩-١٥٠).

بين ابن أبي داود، وابن صاعد، فجمعهما، وحضر أبو عمر القاضي، فقال الوزير: يا أبا بكر! أبو محمد أكبر منك، فلو قمت إليه، فقال: لا أفعل.

فقال الوزير: أنت شيخ زيف.

فقال: الشيخ الزيف: الكذاب علىٰ رسول الله ﷺ

فقال الوزير: من الكذاب؟

قال: هذا.

ثم قام، وقال: تتوهم أني أذل لك لأجل رزقي، وأنه يصل إلي علىٰ يدك؟! والله لا آخذ من يدك شيئا.

قال: فكان الخليفة المقتدر يزن رزقه بيده، ويبعث به في طبق علىٰ يد الخادم(١).

ومنهم: العالم الزاهد يحيىٰ بن مجاهد بن عوانة (ت٣٣٦هـ) أحب أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله أن يجتمع به، فلم يقدر عليه، ووجَّه إليه من يتلطف به ويستعطفه، فقال: ما لي إليه حاجة، وإنَّما يدخل علىٰ السلطان الوزراء، وأهل الهيئة، وأيش يعمل بأصحاب الأطمار الرثة، فوجَّه إليه الحكم جبة صوف وغفارةً وقميصًا من وسط الثياب ودنانير، فلمَّا نظر إليها قال: ما لي ولهذه؟! ردُّوها علىٰ صاحبها، ولئن لم يتركوني سافرت، فيئس من لقائه وتركه، وكان يجلس إلىٰ مؤدب بالجامع يأنس به(٢).

ومنهم: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن رزقويه (ت٤١٢هـ).

---

(١) السير (١٣/ ٢٢٦).

(٢) السير (١٦/ ٢٤٥).

قال الأزهري: يذكر أنَّ بعض الوزراء دخلَ بغداد ففرق مالًا كثيرًا علىٰ أهلِ العلم، وكان ابن رزقويه فيمن وجَّه إليه من ذلك المال، فقبلوا كلهم سواه فإنَّه رده؛ تورعًا وظلف نفس.

وكان ابن رزقويه يذكر أنَّه درس الفقه وعلق علىٰ مذهب الشافعي، وكان يقول: «والله ما أحبُّ الحياة في الدنيا لكسبٍ ولا تجارة؛ ولكنَّي أحبُها لذكر الله، ولقراءتي عليكُم الحديث»[(١)].

ومنهم: الشيخ الزاهد، القدوة، أبو الحسن علي بن أحمد الخرقاني، البسطامي (ت٤٢٥هـ). كما قال السمعاني: «هو شيخ العصر، له الكرامات والأحوال، وكان يكري علىٰ بهيمة، ثمَّ فُتح عليه، زاره محمود بن سبكتكين، فوعظه، ولم يقبل منه شيئًا»[(٢)].

وقال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن أعظم ما يُحكىٰ من المكارم التي لم نَسمع لها أختًا: أن: **غالب تمام بن غالب التَّيَّاني** (ت٤٣٦هـ) ألَّف كتابًا في اللغة، فوجَّه إليه أبو الجيش مجاهد العامريُّ صاحب الجزائر ودانية ألف دينارٍ أندلسية، ومركوبًا وأكسية، علىٰ أن يزيد في ترجمة الكتاب -أي: في اسمه-: «مما ألَّفه أبو غالب لأبي الجيش مجاهد» فردَّ الدنانيرْ وغيرها، وقال: «كتاب ألَّفْتُه لينتفع به الناس، وأُخلِّدَ فيه همتي، أجعل في صدره اسم غيري، وأصرف الفخر له! والله لو بذل لي الدنيا علىٰ ذلك ما فعلتُ، ولا استجزتُ الكذب، لأنني لم أجمعه له خاصة، بل لكل طالب» فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها![(٣)].

---

(١) تاريخ بغداد (٢/ ٢١١).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٤٢١).

(٣) نفح الطيب للمقري (٣/ ١٧٢-١٩٠)، و«جذوة المقتبس» (١/ ٢٨٣)، و«الوافي بالوفيات» (١٠/ ٢٤٦).

وقال غيث بن علي الأرمنازي: سمعت الفقيه نصرًا (ت٤٩٠هـ) يقول: درست علىٰ الفقيه سليم الرازي من سنة سبع وثلاثين وأربع مائة إلىٰ سنة أربعين، ما فاتني منها درس، ولا وجعت إلا يومًا واحدًا، وعوفيت، وسألته في كم التعليقة التي صنفها؟

قال: في نحو ثلاث مائة جزء، ما كتبت منها حرفًا إلا وأنا علىٰ وضوء -أو كما قال-.

قال: وسمعت من يحكي أنَّ الملك تاج الدولة تتش بن ألب آرسلان زار الفقيه نصرًا يومًا، فلم يقم له، ولا التفت إليه، وكذا ابنه الملك دقاق، فسأله عن أحل الأموال التي يتصرف فيها السلطان، قال: أحلها أموال الجزية، فقام من عنده، وأرسل إليه بمبلغ، وقال: هذا من الجزية، ففرقه علىٰ الأصحاب.

فلم يقبله، وقال: لا حاجة بنا إليه، فلما ذهب الرسول، لامه الفقيه نصر المصيصي، وقال: قد علمت حاجتنا إليه.

فقال: «لا تجزع من فواته، فسوف يأتيك من الدنيا ما يكفيك فيما بعد، فكان كما تفرس فيه»(١).

ومنهم: حكم بن محمد بن حكم بن محمد الجذامي (ت٤٤٤هـ): كان رجلًا صليبًا في السنة، متشددًا علىٰ أهل البدع، عفيفًا ورعًا، متين الديانة، رافضًا للدنيا، مهينا لأهلها، منقبضًا عن السلطان، لا يأتيهم زائرًا ولا شاهدًا(٢).

---

(١) سير أعلام النبلاء (ترجمة: الفقيه نصر أبو الفتح بن إبراهيم بن نصر النابلسي) (١٩/١٣٩-١٤٠).

(٢) الصلة لابن بشكوال (ص١٤٧-١٤٨).

ومنهم: أبو بكر الشامي[١] محمد بن المظفر بن بكران الحموي (ت٤٤٨هـ). كان مِن أنزه الناس وأعفهم؛ لم يقبل من سلطان عطيّة، ولا من صاحبٍ هدية، ولم يغيَّر ملبسه ولا مأكله، ولم يأخذ علىٰ القضاء أجرًا، ولم يستنب أحدًا بل كان يباشر القضاء بنفسه، ولم يحاب مخلوقًا[٢].

ومنهم: الإمام المقرئ الشاطبي القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني (ت٥٩٠هـ).

قال أبو شامة: أخبرنا السخاوي: أنَّ سبب انتقال الشاطبي من بلده أنَّه أريد علىٰ الخطابة، فاحتج بالحج، وترك بلده، ولم يعد إليه تورعا مما كانوا يلزمون الخطباء من ذكرهم الأمراء بأوصاف لم يرها سائغة، وصبر علىٰ فقر شديد[٣].

ولما قدم السلطان عبد العزيز مصرَ (ت١٨٧٦هـ) وزار الجامع الأزهر وصحبه الخديوي، فلحظ الخديوي علىٰ شيخ غير مهتم، فهو مسندٌ ظهره، مادٌّ رجله، فأسرع بالسلطان عنه، ثمَّ كلَّف أحد رجاله -وقد أراه الشيخ- أن يذهب بصرَّةٍ، يريد أنْ يعرف حاله، فلمَّا جاء الرسول ليعيطه قبضَ الشيخُ عنه يده، وقال له: قل لمن أرسلك: إنَّ من يمدُّ رجله لا يمدُّ يده[٤].

وأختم الباب بما رواه أبو نعيم في «الحلية» الفضل بن الربيع، قال: حجَّ أمير المؤمنين فأتاني فخرجت مسرعًا فقلت: يا أمير المؤمنين لو

(١) قال محققو طبعة دار ابن كثير: أنه (الشامي) أما (الشاشي) فهو تحريق قبيح، فهو حموي شامي (بشار عواد).
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ١٥٢) ط: هجر.
(٣) ذيل الروضتين (٧)، و«السير» (٢١/ ٢٦٣).
(٤) صلاح الأمة في علو الهمة (٣/ ٢٨٣).

أرسلت إليَّ أتيتك، فقال: ويحكَ قد حاك في نفسي شيء فانظر لي رجلًا أسأله فقلت: هاهنا سفيان بن عيينة، فقال: امضِ بنا إليه فأتيناه فقرعنا الباب فقال: من ذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعا، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك، فقال: خذ لما جئناك له رحمك الله فحدثه ساعة، ثمَّ قال له: عليك دين؟ فقال: نعم، قال: أبا عباس اقض دينه فلما خرجنا قال: ما أغنىٰ عني صاحبك شيئا انظر لي رجلا أسأله قلت: هاهنا عبد الرزاق بن همام قال: امضِ بنا إليه فأتيناه فقرعنا الباب فخرج مسرعًا، فقال: من هذا؟ قلتُ: أجب أمير المؤمنين، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك، فقال: خذ لما جئناك له فحادثه ساعة ثمَّ قال له: عليكَ دين؟ قال: نعم، قال: أبا عباس اقض دينه. فلمَّا خرجنا قال: ما أغنىٰ عني صاحبك شيئًا، انظر لي رجلًا أسأله قلت: هاهنا الفضيل بن عياض قال: امضِ بنا إليه، فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها، فقال: أقرع الباب فقرعت الباب فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي ولأمير المؤمنين، فقلت: سبحان الله أمَا عليك طاعة أليس قد روي عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**ليس للمؤمن بذل نفسه**» فنزل ففتح الباب ثمَّ ارتقىٰ إلىٰ الغرفة فأطفأ السراج، ثمَّ التجأ إلىٰ زاوية من زوايا البيت فدخلنا فجعلنا نجول بأيدينا فسبقت كف هارون قبلي إليه، فقال: «يا لها من كفٍ ما ألينها إن نجت غدًا من عذاب الله ﷻ».

فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام من قلبٍ تقي فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله فقال: إنَّ عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إنِّي قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليَّ فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت

وأصحابك نعمة، فقال له سالم بن عبد الله: إنْ أردت النجاة من عذاب الله فصم الدنيا وليكن إفطارك منها الموت.

وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن أمير المؤمنين عندك أبا وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا؛ فوقِّر أباك، وأكرِم أخاك، وتحنن علىٰ ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك وأكره لهم ما تكره لنفسك، ثمَّ مت إذا شئت، وإنَّي أقول لك: فإنَّي أخاف عليك أشد الخوف يومًا تزل فيه الأقدام، فهل معك رحمك الله مثل هذا أو من يشير عليك بمثل هذا؟ فبكىٰ هارون بكاءً شديدًا حتىٰ غشي عليه، فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين فقال: يا ابن الربيع تقتله أنت وأصحابك، وأرفق به أنا ثمَّ أفاق، فقال له: زدني رحمك الله فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أنَّ عاملًا لعمر بن عبد العزيز شكي فكتب إليه عمر: يا أخي أذكرك طول سهر أهل النَّار مع خلود الأبد، وإيَّاك أن ينصرف بك من عند الله فيكون أخر العهد وانقطاع الرجاء، قال: فلمَّا قرأ الكتاب طوىٰ البلاد حتىٰ قدم علىٰ عمر بن عبد العزيز فقال له: ما أقدمك قال: خلعت قلبي بكتابك لا أعود إلىٰ ولاية حتىٰ ألقىٰ الله ﷻ، قال: فبكىٰ هارون بكاءً شديدًا، ثم قال له: زدني رحمك الله فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ العباس عم المصطفىٰ ﷺ جاء إلىٰ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله أمرني علىٰ إمارة، قال له النبي ﷺ: «**إنَّ الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت أن لا تكون أميرا فافعل**» فبكىٰ هارون بكاءً شديدًا، فقال له: زدني رحمك الله قال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله ﷻ عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فإيَّاك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غشٌ لأحد من رعيتك فإنَّ النبي ﷺ قال: «**من أصبح لهم غاشًا لم يرح رائحة الجنة**» فبكىٰ هارون،

وقال له: عليك دين؟ قال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم ألهم حجتي. قال: إنَّما أعني من دين العباد قال: إنَّ ربي لم يأمرني بهذا إنَّما أمرني أن أصدق وعده، وأطيع أمره، فقال جل وعز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧]. فقال له: هذه ألف دينار خذها فأنفقها علىٰ عيالك، وتقو بها علىٰ عبادتك، فقال: سبحان الله أنا أدلك علىٰ طريق النَّجاة وأنت تكافئني بمثل هذا سلمك الله ووفقك. ثمَّ صمت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده فلمَّا صِرنا علىٰ الباب، قال هارون: إذا دللتني علىٰ رجلٍ فدلني علىٰ مثل هذا، **هذا سيد المسلمين**، فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت: يا هذا قد ترىٰ ما نحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به، فقال لها: مثلي ومثلكم كمثلِ قومٍ كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلمَّا كبر نحروه، فأكلوا لحمه.

فلمَّا سمع هارون هذا الكلام، قال: ندخل فعسىٰ أن يقبل المال فلمَّا عَلِم الفضيل خرج فجلس في السطح علىٰ باب الغرفة، فجاء هارون فجلس إلىٰ جنبه، فجعل يكلمه فلا يجيبه فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت: يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله فانصرفنا(١).

وفصل ذلك ما قاله ابن خويز منداد (ت٣٩٠هـ): «وأمَّا أخذ الأرزاق من الأئمة الظلمة فلذلك ثلاثة أحوال:

إن كان جميع ما في أيديهم مأخوذا علىٰ موجب الشريعة فجائز أخذه، وقد أخذت الصحابة والتابعون من يد الحجاج وغيره.

(١) حلية الأولياء (٨/ ١٠٥)، وانظر: «تاريخ بغداد» (١٦/ ٩).

وإنْ كان مختلطًا حلالًا وظلمًا كما في أيدي الأمراء اليوم فالورع تركه، ويجوز للمحتاج أخذه.

وإنْ كان ما في أيديهم، ظلمًا صراحًا فلا يجوز أن يؤخذ من أيديهم، ولو كان ما في أيديهم من المال مغصوبًا، غير أنَّه لا يعرف له صاحب ولا مطالب، فهو كما لو وجد في أيدي اللصوص وقطاع الطريق ويجعل في بيت المال، وينتظر طالبه بقدر الاجتهاد، فإذا لم يعرف صرفه الإمام في مصالح المسلمين»[1].

وقال نجم الدين ابن قدامة: «اعلم أنَّ من أخذ مالًا من السلطان فلا بد أن ينظر في مدخل ذلك إلىٰ السلطان من أين هو، وفي صفته التي يستحق بها الأخذ، وفي المقدار الذي يأخذه، هل يستحقه؟

وقد تورع جماعة عن ذلك، وكان فيهم من يأخذه فيتصدق به.

وأمَّا في هذا الزمان، فالاحتراز عنه أولىٰ؛ لأنَّه قد علم طريق الأخذ، ثمَّ لا ينال إلا بالذل والسؤال والسكوت علىٰ الإنكار.

وقد كان بعض السلف لا يأخذ، ويعلل بأنَّ باقي المستحقين لم يأخذوا، وهذا ليس بشيء، لأنَّه يأخذ حقه ويبقىٰ أولئك في مقام مظلوم، وليس المال مشتركًا»[2].

والخلاصة: للغزالي (ت٥٠٥هـ) رأي أنَّه يجوز الأخذ بشروط وهي: «لا يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولًا.

وبالتردد في الخدمة ثانيًا.

وبالثناء والدعاء ثالثًا.

---

(١) تفسير الجامع لأحكام القران (٢/ ٣٧١).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص٩٣).

وبالمساعدة له علىٰ أغراضه عند الاستعانة رابعًا.

وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامسًا.

وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له علىٰ أعدائه سادسًا.

وبالستر علىٰ ظلمه ومقابحه ومساوي أعماله سابعًا»[(١)].

وقال الجرجاني (ت٣٩٢هـ):

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلًا عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا

أَرَىٰ النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمْ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ لَزِمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا

وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا

وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحَ لِي يَسْتَفِزُّنِي ... وَلَا كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ أَرْضَاهُ مُنْعِمَا

إذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَدْ أَرَىٰ ... وَلَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا

وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي ... لِأَخْدِمَ مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا

أَأَشْقَىٰ بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إذًا فَاتِّبَاعُ الْجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحْزَمَا

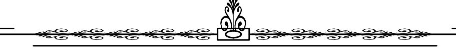
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

وَلَكِنْ أَذَلُّوهُ فَهَانَ وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّىٰ تَجَهَّمَا[(٢)]



(١) الإحياء (٢/ ١٣٩) بتصرف يسير، ورأي الشوكاني في المسألة كما في «رفع الأساطين» (ص٢٧) «يأخذ من له جراية من بيت مال المسلمين ما يصل إليه منه من غير كشف عن حقيقته، إلا أن يعلم أن ذلك هو الحرام بعينه، علىٰ أن هذا الحرام الذي أخذه السلطان من الرعية علىٰ غير وجهه، قد صار إرجاعه إلىٰ مالكه مأيوسًا، وصرفه في أهل العلم والفضل واقع في موقعه، ومطابق لمحلة، لأنهم مصرف للمظالم، بل أحسن مصارفها».

(٢) طبقات الشافعية للسبكي (٣/ ٤٦١).





[الفصل الخامس عشر:
من ذهب لجواز أخذ جوائز السلطان]

وذهب جماعة لجواز أخذ الجوائز من السلطان، ومن هؤلاء: زيد بن ثابت وكان من الراسخين في العلم يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد.

وكان ابن عمر مع ورعه وفضله يقبل هدايا صهره المختار بن أبي عبد الله ويأكل طعامه، ويأخذ جوائزه، وكان المختار غير مختار(١).

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه حين سُئِلَ عن جوائز السلاطين، فقال: «لحم ظبي ذُكي».

وكان الشعبي وهو من كبار التابعين وعلمائهم يؤدب بني عبد الملك بن مروان ويقبل جوائزه ويأكل طعامه.

---

(١) قال البغوي في «شرح السنة» (٨/ ١٥) وكان المختار يبعث إلىٰ ابن عمر وابن عباس فيقبلانه.

وبعث عبد الملك بن مروان إلىٰ ابن عمر في الفتنة في قتال ابن الزبير مالا فأبىٰ أن يقبله، فلما ذهبت الفتنة بعث إليه فقبله.

وأمر الحجاج سعيد بن جبير يصلي بالناس في رمضان، فلمَّا فرغ كساه برنسًا من خز أسود فلبسه.

وعن سعيد بن جبير، ومكحول، والزهري، قالوا: «إذا كان المال فيه الحلال والحرام، فلا بأس أن يؤكل منه، إلا أن يعلم أن الذي يطعمه أو يهديه إليه حرام بعينه، فلا يحل».

وروي عن علي رضي الله عنه، أنَّه قال: «لا تسأل السلطان، فإن أعطوك عن غير مسألة، فاقبل منهم، فإنهَّم يصيبون من الحلال أكثر ممَّا يعطونك». =

وكان إبراهيم النخعي وسائر علماء الكوفة، والحسن البصري مع زهده وورعه، وسائر علماء البصرة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبان بن عثمان، والفقهاء السبعة بالمدينة حاشا سعيد بن المسيب يقبلون جوائز السلطان.

وكان ابن شهاب يقبلها ويتقلب في جوائزهم، وكانت أكثر كسبه، وكذلك أبو الزناد، وكان مالك، وأبو يوسف، والشافعي، وغيرهم من فقهاء العراق، والحجاز، يقبلون جوائز السلاطين والأمراء.

ولأحمد بن خالد فقيه الأندلس وعالمها كتاب حمله علىٰ وضعه وجمعه طعن أهل بلده عليه في قبول جوائز عبد الرحمن الناصر إذ نقله إلىٰ المدينة بقرطبة، وأسكنه دارًا من دور الجامع، وقربه وأجرىٰ عليه من الرزق من الطعام والإدام والتأمن وله ولمثله في بيت المال حظ والمسئول فيه عن التخطيط هو السلطان.

وروي أنَّ الإمام أبا عمر بن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ حين بلغه أنَّ أقوامًا بشاطئه عابوه يأكل طعام السلطان وقبول جوائزهم، فقال:

قُلْ لِمَن يَذْكُرُ أُكْلِي ... مِنْ طَعَامَ الأُمَرَاءِ
أنْتِ مِنْ جَهْلِكَ هَذَا ... فِي مَحلِّ السُّفَهَاءِ[1]

وكان عكرمة مولىٰ ابن عباس كثير التطواف، كثير العلم، ويأخذ جوائز الأمراء[2].

وقال عبد اللَّه بن نافع بن ثابت: بعث أبو عبيد اللَّه إلىٰ عبد اللَّه بن مصعب (ت١٨٤هـ) في أول ما صاحب أمير المؤمنين المهدي بألفي دينار

= وسئل الحسن عن جار عريف يهدي إلي، فأقبل؟ أو أولم فدعاني فآكل؟ قال: «نعم لك مهنؤها، وعليه وزرها».

(١) قمع الحرص بالزهد (ص٢٠٥-٢٠٦).

(٢) تاريخ الإسلام (٣/١٠٦).

فردها، وكتب إليه: «إني لا أقبل صلة إلا من خليفة، أو ولي عهد»[١].

وقال سفيان بن عيينة -إنْ صحَّ ذلك عنه-: «كنت قد أوتيت فهم القرآن فلما قَبِلْتُ الصرة من أبي جعفر سُلِبْتُهُ»[٢].

وعن غيلان أنَّ مطرفًا -بن عبد الله- كَانَ يلبس المطارف والبرانس، ويركب الخيل، ويغشىٰ السلطان؛ ولكنَّه إذا أفضيت إليه أفضيت إِلَىٰ قرة عين[٣].

وقال ابن عون: «كان إبراهيم -النخعي- يأتي السلطان، فيسألهم الجوائز»[٤].

وقال مالك بن سليمان: كان لإبراهيم بن طهمان[٥] جراية من بيت المال فاخرة، يأخذ في كل وقت، وكان يسخو به.

فسئل مرة في مجلس الخليفة، فقال: لا أدري.

قالوا له: تأخذ في كل شهر كذا وكذا، ولا تحسن مسألة؟

فقال: «إنمَّا آخذ علىٰ ما أحسن، ولو أخذت علىٰ ما لا أحسن، لفني بيت المال علي، ولا يفنىٰ ما لا أحسن».

---

(١) تاريخ بغداد (١١/ ٤١٥).
(٢) تذكرة السامع والمتكلم (ص٥١).
(٣) تهذيب الكمال (٢٨/ ٦٩)، وفيه: قَال العجلي: «كَانَ ثقة ولم ينج بالبصرة من فتنة ابْن الأشعث إلا رجلان: مطرف، وابن سيرين ولم ينج منها بالكوفة إلا رجلان: خيثمة بْن عَبْد الرحمن، وإبراهيم النخعي».
وَقَال مهدي بْن ميمون: حَدَّثَنَا غيلان بْن جرير أنه كَانَ بينه وبين رجل كلام فكذب عليه، فقال مطرف: اللهم إن كَانَ كاذبًا فأمته فخرَّ مكانه ميتًا، فرفع ذلك إِلَىٰ زياد، فقال: قتلت الرجل قال: «لا ولكنها دعوة وافقت أجلًا».
(٤) السير (٤/ ٥٢٣)، و«طبقات ابن سعد» (٦/ ٢٧٧).
(٥) نعته الذهبي بقوله: «الإمام، عالم خراسان، أبو سعيد الهروي».

فأعجب أمير المؤمنين جوابه، وأمر له بجائزة فاخرة، وزاد في جرايته[(١)].

وعن إسحاق بن راهويه قال: دعا الرشيد أبا يوسف ليلًا فأفتاه، فأمر له بمائة ألف درهم، فقال أبو يوسف، إنَّ رأىٰ أمير المؤمنين أمر بتعجيلها قبل الصبح.

فقال: عجلوها.

فقال بعض من عنده: إنَّ الخازن في بيته والأبواب مغلقة.

فقال أبو يوسف: «قد كانت الأبواب مغلقة حين دعاني، ففتحت»[(٢)].

قال الشيخ محمد الخضر حسين ﷺ: «ومن النَّاس من يكون في ماله حرام وحلال، سواء كان الحرام أقل أو كثر، ولم يعرف الحرام بعينه؛ كأموال السلاطين والأمراء، فأكثر علماء السلف علىٰ قبول جوائزهم، وأكل طعامهم.

وقد ألّف الحافظ ابن عبد البر في ذلك رسالة؛ حيث عاب عليه أهل بلده (شاطبة) أكل طعام السلطان[(٣)].

وقد أجاز قبولَ جوائزهم، وأكل طعامهم جماعةٌ من الصحابة والتابعين ﷺ.

فالحاكم الأعلىٰ من خليفة وغيره، لا يجوز له أن يتناول من بيت مال المسلمين إلا ما تدعو إليه حاجته، وكذلك كان الخلفاء الراشدون، وعمر ابن عبد العزيز، إذ طبقوا أوامر الإسلام علىٰ سيرتهم، مع الورع والخوف من الحساب.

---

(١) السير (٧/ ٣٨٢).

(٢) تاريخ الخلفاء (ص٢٩٤).

(٣) انظر: نفح الطيب (٤/ ٢٢٢-٢٢٤).

وروي: أنَّ أسد بن الفرات كان يقبل جوائز الولاة، ويقول: «هذا بعض حقنا، والله حسيبهم في الباقي».

وكان بعض العلماء المتورعين دخلوا علىٰ ملك، فقدّم لهم طعامًا، فاعتذر بعضهم بالصوم، واعتذر آخرون بالصوم أيضًا، ولكنهم أخذوا شيئًا من طعام الملك، وأعطوه للفقراء، واقتصر بعضهم علىٰ ما يمسك الرمق، إذ كان جائعًا، ويباح له ذلك بإجماع.

وسأل ملك الأندلس يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي عمَّا يلزمه كفارة عن فطر رمضان بمباشرة جارية له، فأفتاه يحيىٰ بصيام شهرين، واعترض عليه العلماء، حيث لم يفته بالتخيير بين الصيام والإطعام وتحرير رقبة، فقال: «لو أفتيته بذلك، لاختار غير الصيام».

ومن العلماء من تأوّل فتوىٰ يحيىٰ الليثي بالصيام فقط علىٰ أنَّ مال السلطان أكثره حرام لا تصح منه الكفارة، وتحريرُ الرقبة.

وقال ابن الوزير اليماني: «وأمَّا من خالط الملوك، أو كاتبهم، أو قَبِلَ عطاياهم، فهم السواد الأعظم من المتقدمين والمتأخِّرين والصحابة والتابعين»[١].

والخلاصة: أنَّه يجوز قبول جوائز الملوك والأمراء؛ كما دلَّ عليه عمل السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم، وذلك أيام الخلفاء الراشدين الذين لم يأخذوا مالًا إلا بحقه.

ومن لم يقبل جوائز السلاطين، فكان ذلك حين اختلطت أموالهم بالمحرّم، وأصبحوا يتصرفون في أموال المسلمين تصرفهم في خاصة أموالهم»[٢].

---

(١) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٦/ ٢٠٦).

(٢) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (٢/ ١٥٤-١٥٦)، =

[**تنبيه وتذكير**]: قال تاج الدين السبكي الشافعي: «ومن قبائحهم -يعني الأمراء- استكثارهم الأرزاق -وإن قلَّت- علىٰ العلماء، واستقلالهم الأرزاق -وإن كثرت- علىٰ أنفسهم، ورأيت كثيرًا منهم يعيبون علىٰ بعض الفقهاء ركوب الخيل، ولبس الثياب الفاخرة. وهذه الطائفة من الأمراء يخشىٰ عليها زوال النعمة عن قريب، فإنَّها تتبختر في أنعم اللَّه مع الجهل والمعصية. وتنقم علىٰ خاصة خَلْقه يسيرًا ممَّا هم فيه. أفما يخشون ربهم من فوقهم! ولو اعتبرَ واحد منهم رزق أكبر فقيه لوجده دون رزق أقلِّ مملوك عنده، أفما يستحي هذا الأمير المسكين من اللَّه تعالىٰ! وإذا سلبه اللَّه تعافىٰ نعمته فَلِمَ يتعجَّب ويبكي؟ أو مَا يدري أنَّ واحدة من هذه المصائب تهلكه وتدمِّره، وما أحسن ما رأيته منقوشًا علىٰ دواة بعض الأمراء، وهو من نظمي، وأنا أمرت بأن يكتب:

حلَّفت من يكتب بي ... باللَّه ربِّ العالَم
ألا يمد مدَّة ... تؤلم قلب عالِم[(١)]

= قال البغوي في شرح السنة (٨/ ١٥) وجملة الشبه العارضة في الأمور قسمان:
أحدهما هو الذي ذكرناه، وهو ما لا يعرف له أصل في تحليل ولا تحريم، فالورع تركه.
والثاني: أن يكون له أصل في التحليل أو التحريم، فعليه التمسك بالأصل، ولا ينزل عنه إلا بيقين علم.
وذلك مثل الرجل يتطهر للصلاة، ثم يشك في الحدث، فإنه يصلي ما لم يعلم الحدث يقينًا.

(١) معيد النعم (ص٤٤).

[تتمة] **حكم: ما يأخذهُ طالبُ العلم من المالِ، وهو يعودُ في مجملهِ إلىٰ ثلاثةِ أنواعٍ**[١]:

النوع الأوّل: الأرزاق لا خلاف بين الفقهاء في جواز أخذ طالب العلم الرزق من بيت المال، وذلك؛ لأنَّ بيت المال معد لمصالح المسلمين العامة وطلب العلم منها، فإذا فرغ طالب العلم نفسه لإفادة العلم واستفادته، فإنّه يأخذ كفايته من بيت مال المسلمين[٢].

النوع الثّاني: الزَّكاة اتفق الفقهاء رحمهم الله تعالىٰ علىٰ جواز إعطاء طالب العلم من الزَّكاة، وقد صرّح بهذا فقهاء الحنفية، والمالكية، والشّافعيّة، والحنابلة، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ.

قال علاء الدِّين الحصفكي: «وطالب العلم يجوز له أخذ الزَّكاة ولو غنيًا إذا فرغ نفسه لإفادة العلم واستفادته، لعجزه عن الكسب والحاجة داعية إلىٰ ما لا بد منه»[٣].

وقال الدسوقي: «لا تعطىٰ الزَّكاة للعالم والمفتي والقاضي إِلَّا أن يُمنعوا حقهم من بيت المال، وإلَّا جاز لهم الأخذ بوصف الفقر، أمّا الغني فلا يجوز له الأخذ، وقال اللخمي وابن رشد: إذا منعوا من بيت المال جاز لهم أخذ الزَّكاة مطلقًا سواء أكانوا فقراء أم كانوا أغنياء بالأولىٰ من الأصناف المذكورة في الآية»[٤].

وقال النوويّ: «ولو قدر علىٰ كسب يليق بحاله إِلَّا أنّه مشتغل

---

(١) ذكرت هذه الصور ونقلتها من كتاب «أخذ المال علىٰ أعمال القُرَب» (٢/ ٥٦١-٥٧٠).

(٢) المبسوط للسرخسي (٣/ ١٨)، و«الشرح الصغير» للدردير (٢/ ٢٩٥)، و«حاشية قليوبي» (٢/ ٢١٣)، و«المغني» لابن قدامة (٩/ ١٩٨).

(٣) الدر المختار مع حاشية ابن عابدين (٢/ ٥٩).

(٤) حاشية الدسوقي (١/ ٤٩٧-٤٩٨).

بتحصيل بعض العلوم الشرعية، بحيث لو أقبل علىٰ الكسب لانقطع عن التحصيل، حلت له الزَّكاة؛ لأنَّ تحصيل العلم فرض كفاية»[١].

وقال البهوتي: «وإن تفرغ قادر علىٰ الكسب تفرغًا كليًا للعلّم الشرعي . . وتعذر الجمع بين التكسب والاشتغال بالعلّم أعطي من الزَّكاة لحاجته . . ويجوز أخذه ما يحتاج إليه من كتب العلم الّتي لا بد لمصلحة دينه ودنياه منها»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن ليس معه ما يشتري به كتبًا يشتغل فيها بعلم الدِّين، يجوز له الأخذ من الزَّكاة ما يشتري له به ما يحتاج إليه من كتب العلم الّتي لا بد لتعلم دينه ودنياه منها»[٣].

فالذي يظهر من كلام العلماء السابق أنَّ طالب العلم يأخذ من الزَّكاة وإن كان قادرًا علىٰ الكسب ببدنه؛ لأنّه لو أقبل علىٰ التكسب لنفسه انقطع عن تحصيل العلم وإفادته فيضعف الدِّين لعدم من يتحمله[٤].

ولكن بقيت هنا مسألة وهي: **هل يجوز لطالب العلم الأخذ من الزَّكاة مع الغنىٰ؟**

اختلف الفقهاء في هذه المسألة علىٰ قولين:

القول الأوّل: لا يجوز لطالب العلم الأخذ من الزَّكاة مع الغنىٰ.

---

(١) المجموع للنووي (٦/ ١٩٠).

(٢) شرح منتهىٰ الإرادات للبهوتي (٢/ ٤٢٥).

(٣) الاختيارات الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية للبعلي (ص١٠٥).

(٤) قال مؤلفه: «ولعلّ كلام العلماء هنا متوجه إلىٰ من تعلّق تكسبه ببدنه وتعذر عليه الجمع بين طلب العلم والتكسب، أمّا من كان يملك عقارًا أو شركة أو مصنعًا مثلًا يدر عليه دخلًا يغنيه ولا يتطلب ذلك منه مجهودًا بدنيًا يقطعه عن الطلب لتمكنه من إدارته بوكيله أو مديره، فإنّه حينئذ لا يجوز له الأخذ من الزَّكاة لانتفاء العلّة، والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا».

وإلىٰ هذا ذهب جمهور العلماء، فقد قال به بعض الحنفية وهو الأوجه عندهم[١]. وبه قال بعض المالكية، وهو الراجح عندهم[٢].

وهو قول الشّافعيّة[٣] والحنابلة[٤].

القول الثّاني: يجوز لطالب العلم الأخذ من الزَّكاة مع الغنىٰ، وبهذا قال بعض الحنفية[٥]، وبعض المالكية[٦].

النوع الثّالث: **النفقة.** ومن الشروط الّتي اشترطها الفقهاء لوجوب النفقة: أن يكون طالب النفقة فقيرًا لا مال له، عاجزًا عن كسب يستغني به عن إنفاق غيره[٧].

فإذا كان طالب النفقة موسرًا فلا نفقة له، وإذا كان قادرًا علىٰ الكسب فإنّه لا يستحق النفقة؛ لأنّه بقدرته علىٰ الكسب يكون مستغنيًا وتكون نفقته علىٰ نفسه كما لو كان غنيًا بماله.

وقد استدل الفقهاء علىٰ جواز ذلك بما يأتي:

الدّليل الأوّل: قالوا: إنَّ اشتغال طالب العلم بالكسب عن التحصيل وطلب العلم يؤدِّي إلىٰ ضياع العلم، والتعطيل، فيضعف الدِّين لعدم من

---

(١) حاشية ابن عابدين (٢/ ٥٩).
(٢) حاشية الدسوقي (١/ ٤٩٧-٤٩٨).
(٣) المجموع للنووي (٦/ ١٩٠).
(٤) شرح منتهىٰ الإرادات للبهوتي (٢/ ٤٢٥).
(٥) الدر المختار مع حاشية ابن عابدين (٢/ ٥٩)، و«حاشية الطحطاوي علىٰ مراقي الفلاح» (ص٥٩٢)، وحاشية ابن عابدين (٢/ ٥٩)، وقد نقل ذلك عن السرخسي.
(٦) حاشية الدسوقي (١/ ٤٩٧-٤٩٨).
(٧) بدائع الصنائع للكاساني (٤/ ٣٤)، و«قوانين الأحكام الشرعية» (ص٢٤٦) و«الشرح الصغير» للدردير (٢/ ٧٥٣)، و«حاشية البجيرمي علىٰ الخطيب» (٤/ ٦٧) و«المغني» لابن قدامة (١١/ ٣٧٤).

يتحمله وفي هذا من الفساد ما لا يخفىٰ، من أجل ذلك وجبت له النفقة[١].

الدّليل الثّاني: قالوا: إنَّ اشتغال طالب العلم بالطلب والتحصيل، يجعله عاجزًا عن الكسب ولا يهتدي إليه، فلا تسقط نفقته عن الأب كالزمن والأنثىٰ[٢].

الدّليل الثّالث: قالوا: لما كان طالب العلم مشتغلًا بالعلّم والطلب والإفادة والاستفادة والكسب يمنعه من ذلك وجبت له النفقة قياسًا علىٰ الزّكاة[٣].

ومن خلال كلام أهل العلم نجد أنّهم اشترطوا لوجوب النفقة لطالب العلم: أن يكون مشتغلًا حقيقة بالطلب والتحصيل والإفادة والاستفادة، مجدًا في ذلك، رشيدًا مستقيمًا، غير منشغل عن التحصيل والطلب والاستفادة.

قال ابن عابدين: «وأقول الحق[٤] الذي تقبله الطباع المستقيمة، ولا تنفر منه الأذواق السليمة القول بوجوبها -أي النفقة- لذي الرشد لا غيره ولا حرج في التمييز بين المصلح والمفسد لظهور مسالك الاستقامة وتمييزه من غيره»[٥].

والخلاصة: فالراجح من أقوال الفقهاء أن طالب العلم إذا كان رشيدًا بمعنىٰ أن يكون ناجحًا في طلب العلم، مجدًا فيه مفيدًا ومستفيدًا،

---

(١) حاشية ابن عابدين (٢/ ٦٧٢).

(٢) البناية شرح الهداية للعيش (٥/ ٥٣٩).

(٣) حاشية الشبراملسي (٧/ ٢٢٠)، و«حاشية البجيرمي» (٤/ ٦٧).

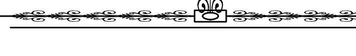
(٤) تصحف في النسخة المطبوعة (الحقال)، والصواب المثبت من المصدر الأساسي للكتاب.

(٥) حاشية ابن عابدين (٢/ ٦٧٢).

وكان فقيرًا، فإن النفقة تجب له علىٰ أبيه أو علىٰ قريبه ذي الرّحم المحرم -علىٰ خلاف في الأخير-؛ لأنّه يعتبر عاجزًا عن الكسب بطلب العلم إذ طلب العلم وتحصيله يشغله عن كسب قوته وحاجاته الضرورية.

أمّا إذا كان طالب العلم غير رشيد ولا مجد في الطلب، ولا هو حريص عليه، فإنّه في هذه الحالة لا يستحق نفقة في مال غيره، ما دام صحيحًا قادرًا علىٰ كسب قوته. اهـ




[الفصل السادس عشر:
الحذر من غصب المناصب والحث على التكسب]

إنَّ من أسباب قوة الدولة، وعزة رجالها وأهلها، أن يعطىٰ كل ذي حق حقه من أفرادها ورعياتها، ومن أعظم الحقوق التي ينبغي أن تؤدىٰ لأصحابها بأن يعرف لهم حقهم وفضلهم، وأن يكونوا في الأماكن التي هي أولىٰ بهم. وقوة الدولة برجالها لا بمالها، فالمال يذهب بالرأي الفاسد، وأمَّا أصحاب الرأي فيربوا المال بأيديهم، وتصلح برأيهم أحوال الأمة(١).

---

(١) يقول الشيخ علي الطنطاوي في كتابه «فكر ومباحث» (بحث في الوظيفة والموظفين) (ص٦٤): «أول الوجائب في الوظيفة أن تكون الغاية من إحداثها تحقيق منفعة عامة ضرورية لا يستغنىٰ عنها ولا يمكن تحقيقها إلا بإحداث هذه الوظيفة، وبغير هذا الشرط لا تكون الوظيفة مشروعة، بل تكون شكلًا من أشكال الاستبداد كما لو أحدثت لمنفعة شخص أو لإرشائه أو لتأمين مصلحة خاصة لحزب من الأحزاب، أو جمعية من الجمعيات السياسية.

وثانيها أن يُختار من الأشخاص أقدرهم علىٰ تأمين هذه المنفعة وأن يُراعىٰ في اختياره الكفاية الشخصية والمواهب الذاتية، لا الأسرة ولا اللون الحزبي ولا الشفاعات».

وقال في حديثه عن (القضاء في الإسلام) (ص١٠٨-١٠٩): «ولقد كان تقلد عيسىٰ بن المنكدر وأبي الذكر محمد بن يحيىٰ بالانتخاب، ولما كان وفد مصر في العراق عند المنصور وجاءه نعي قاضي مصر، قال لهم: أعظم الله أجركم في قاضيكم أبي خزيمة. ثم التفت إلىٰ الربيع فقال له: أبغنا لأهل مصر قاضيًا، فقال له ابن حديج (وكان في الوفد): ما أردت بنا يا أمير المؤمنين؟! أردت أن تشهرنا في الأمصار بأن بلدنا ليس فيه من يصلح لقضائنا حتىٰ تولِّي علينا من غيرنا. =

وإنَّ من ظلم الأفراد والعامة والأمة لهم بالتبع، أن يولىٰ ويعطىٰ المنصب والمكانة لمن ليس لها بأهل، والوظيفة لمن هو عنها مشتغل، فلا هو بأمورها صاحب تجربة، ولا فيما يتعلق بها ذو صبر وحكمة؛ فتولية هذا جنايةٌ كبيرة، وتنصيبه فعل عظيم، وخطر جسيم علىٰ الأمة، وحسبُ فاعل ذلك أنَّه في صف الخائنين، وأنَّ فعل ذلك مغضب لرب العالمين، وماذا تراه تنفعه القرابة، وما عساه أن يقول إذ وقف بين يدي الله، وسأله عن ذلك؟

فدع عنك عتب الناس وكلامهم، فإنَّ رضاهم لا يحوز، ومن رضي عنك لأشياءٍ، حُقِّرت عنده لشيءٍ! إلا من رحم الله.

= قال المنصور: فسمِّ رجلًا. فقال: أبو معدان اليحصبي. فقال: إنه لخيار ولكنْ به صمم، ولا يصلح الأصمُّ للقضاء. قال: فعبد الله بن لهيعة. فقال: فابن لهيعة.
انظروا أيُّها السادة إلىٰ معرفة المنصور بأهل العلم من رعيَّته علىٰ بعد ما بين العراق ومصر، ورجوعه عن أمره الذي أمر به الربيع لما بدا له الحق فيما قال ابن حديج. واختياره الصالح للعمل بعد الاستشارة والسؤال. وتوليته إياه القضاء من غير طلب له ولا سعي منه إليه. ولولا حقُّ المجاملة وأني ربما نشرت هذه المحاضرة في الرسالة، لقلت: انظروا إلىٰ حبِّ أهل مصر بلدهم وقديم عصبيَّتهم له!».
وقال في مبحث (سؤال) (ص٢١١): «أفليس هناك طريقة لإنقاذ الدماغ من المعدة؟ لإنصاف العلم من المال، لحماية النبوغ من الضياع؟
من يشتغل بالعلم والدرس والكتابة والتأليف إذا كان الفقراء لا يطيقونه، والأغنياء لا يحسُّونه؟ أكان لزامًا علىٰ من يشتغل بذلك أن يموت من الجوع؟ ألا يستحق هذا المسكين بطريقة من الطرق، بقانون من القوانين، عشرين دينارًا، يأخذها موظف جاهل خامل بليد، لا يحسن شيئًا إلا النفاق والالتماسات والوساطات، ولا ينفع الأمة معشار ما ينفعها هذا الذي يذيب دماغه، ويحرق نفسه، ويعمي بصره، وينفق حياته في النظر في الكتب، والخطِّ بالقلم؟
أما في ميزانية الدولة، أما في صندوق الجمعية، أما في مال الجريدة، ما تشترىٰ به آثار هذا الكاتب، وأشعار هذا الشاعر، وبحوث هذا العالم، بالثمن الذي يعدل ما بذل فيها، ليعيش فيصنع غيرها».

فينبغي علىٰ الحكومات أن تجعل معيار التفاضل في العمل بعد صحة المنهج وسلامة العقيدة، هو من اجتمعت فيه هذه الصفات (الخبرة، والأمانة، والقوة) وهذا ما نصَّ عليه القرآن في مواطن كثيرةٍ، منها:

قول الله تعالىٰ حكاية: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقوله عن يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

وقال عن بنات العبد الصالح شعيب: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وحسب الذي تجرأ فجعل قرابته، وأهل عشيرته، أو أهل بلده ومنطقته، في المناصب والوظائف وهم ليسوا بالأهل لها، أنَّه قد فعل ما حذر منه النبي ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**فإذا ضعيت الأمانة فانتظر الساعة**». قال كيف إضاعتها؟

قال: «**إذا وُسِّد الأمر إلىٰ غير أهله فانتظر الساعة**»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن استعمل رجلًا من عصابة وفي تلك العصابة من هو أرضىٰ لله منه، فقد خان الله وخان رسوله، وخان المؤمنين**»[٢].

---

(١) صحيح البخاري (٥٩)، (٦١٣١).

(٢) المستدرك للحاكم (٧٠٢٣)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه). وليس كما قال! فإنَّ الذهبي لم يورده في «التلخيص»، ففي إسناده (حسين بن قيس الرحبي) =

وعن أبي بكر رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ وُلِّي من أمر المسلمينَ شيئًا فأمَّر عليهم أحدًا محاباةً فعليه لعنة الله، لا يقبلُ الله منه صرفًا ولا عدلًا حتَّىٰ يدخله جهنم**»(١).

وممَّا ينبغي للملك أو الأمير أن يبني قاعدته في اختياره عماله بما ذكره الماوردي وهو أنَّ: «يختبر أهل مملكته، ويسبر جميع حاشيته بتصفح عقولهم وآرائهم، ومعرفة هممهم وأخلاقهم؛ حتىٰ يعرف به باطن سرائرهم، وما يلائم كامن شيمهم؛ فإنه سيجد طباعهم مختلفة، وهممهم متباينة، ومننهم متفاضلة

وقد قيل: «الهمَّةُ رائد الجد».

فيصرف كل واحد منهم فما طبع عليه من خلق، وتكاملت فيهم الآلة، وتخصصت به من همة، فهي أحوال ثلاث يجب اعتبارها في كل مستكف وهي: (الخلق، والكفاية، والهمة).

فلا يعطي أحدهم منزلة لا يستحقها لنقص أو خلل، ولا يستكفيه أمر

= ويلقب (بحنش)، وهو متروك الحديث، وأحاديثه منكرة، وانظر: ميزان الاعتدال (٢٠٤٣).

وهو في «السنة» لابن أبي عاصم (١٤٦٢)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣٣٤٥)، وأعلَّه بـ(حسين بن قيس) وقال: «حسين هذا هو حنش واه، وقد أعلَّه غير واحد».

(١) أخرجه الحاكم (٧٠٢٤)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وليس كما قال ففي إسناده (بكر بن خنيس) قال الدارقطني: «متروك».

والبزار كما في «البحر الزَّخَّار» في (مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه) (١٠١)، وقال: «وهذا الحديث أمسكنا عن إسناده؛ لأنَّ في إسنادِهِ رجالًا ضعافًا»، والمروزي في «مسند أبي بكر» (١٣٣)، ونحوه عند أبي نعيم بإسناده في كتابه «فضيلة العادلين» (ص١٠٢)، وفيه (عمرو بن واقد) وقد رمي بالكذب، فالحديث ضعيف جدًا، وطرقه معلولة.

ولايته، ولا ينهض بها لعجز أو فشل؛ فإنهَّم آلات الملك، فإذا اختلت كان تأثيرها مختلًا، وفعلها معتلًا.

قيل لبزرجمهر: كيف اضطربت أمور آل ساسان وفيهم مثلك، قال: «لأنهَّم استعانوا بأصاغر العمال علىٰ أكابر الأعمال، فآل أمرهم إلىٰ ما آل».

وقيل في منثور الحكم: «من استعان بأصاغر رجاله علىٰ أكابر أعماله؛ فقد ضيع العمل، وأوقع الخلل»[1].

وقيل: لما تولىٰ الأمر عمر بن عبد العزيز كتب إلىٰ الحسن البصري: أن أعني بأصحابك، فكتب إليه الحسن البصري: «أمَّا طالب الدنيا فلا ينصح لك، وأمَّا طالب الآخرة فلا يرغب فيك، ولا يجوز للسلطان أن يسلم وزارته ولا عملًا من أعماله إلىٰ من ليس بأهل، فإن سلم الأعمال إلىٰ ذلك الرجل فقد أفسد ملكه، وظهر له الخلل الوافر من كل وجه، ومن كل جانب.

كما قال الشاعر:

البيتُ إذا ما حانَ خَرَابه ... ظهَر التخلخُلُ مِن أساسِ الحائطِ

وإذا تولى المُلكُ غير رِجالهُ ... ولُوا الأمورَ لكُلِ فدم ساقطِ»

وينبغي لمن خدم الملوك أن يكون كما قال الشاعر:

إذا خدمَت الملوكَ فالبس ... مِن التوقِي اعزَ ملبس

وأدخُل إذا ما دخلَت أعمىٰ ... واخرُج إذا ما خرجَت أخرسَ[2]

وقال المأمون لأبي حفص عمر بن الأزرق الكرماني: أريدك للوزارة.

---

(١) تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك (ص١٩٤-١٩٥).

(٢) التبر المسبوك (ص٦٩).

قال: لا أصلح لها يا أمير المؤمنين، قال: ترفع نفسك عنها؟ قال: ومن يرفع نفسه عن الوزارة؟ ولكنَّني قلتُ هذا رافعًا لها وواضعًا لنفسي بها.

فقال المأمون: إنا نعرف موضع الكفاة الثقات المتقدمين من الرجال، ولكن دولتنا منكوسة، إن قومناها بالراجحين انتقصت، وإن أيَّدناها بالناقصين استقامت، لذلك اخترت استعمال الصواب فيك[(١)].

وقال ابن حجر الهيتمي: «غصب المناصب أولىٰ بالكبيرة، من غصب الأموال المصرح فيه بأنَّه كبيرة»[(٢)]. لأنَّ غصب الأموال جنايته علىٰ الخزينة وهو قد يعوض أو يغرم، أما غصب المناصب فجنايته وبليته علىٰ الأمة.

قال السخاوي: «ولذلك قال بعض أئمة الحديث في هذا المحل: الذي يطلق عليه اسم المحدث في عرف المحدثين أنْ يكون كتب وقرأ وسمع ووعىٰ، ورحل إلىٰ المدائن والقرىٰ، وحصَّل أصولًا، وعلق فروعًا من كتب المسانيد والعلل والتواريخ التي تقرب من ألف تصنيف، فإذا كان كذلك، فلا يُنكُر له ذلك، **وأمَّا إذا كان علىٰ رأسه طيلسان، وفي رجليه نعلان، وصحب أميرًا من أمراء الزمان، أو من تحلَّىٰ بلؤلؤ ومرجان، أو بثياب ذات ألوان،** فحصل تدريس حديث بالإفك والبهتان، وجعل نفسه ملعبة للصبيان، لا يفهم ما يقرأ عليه من جزء ولا ديوان، فهذا لا يطلق عليه اسم محدث؛ بل ولا إنسان، وإنَّه مع الجهالة آكل حرام، فإنْ استحله خرج من دين الإسلام»[(٣)].

---

(١) تاريخ بغداد (ترجمة: المأمون) (١١/ ٤٣٠).
(٢) الزواجر (١/ ٣٧٣) ط: دار الحديث.
(٣) فتح المغيث (١/ ٨١) ط: المنهاج.

وقال الشوكاني (ت١٢٥٠هـ): ومن جملة الأسباب التي يتسبب عنها ترك الإنصاف ويصدر عنها البعد عن الحق وكتم الحجة وعدم ما أوجبه الله من البيان: حب الشرف والمال اللذين هما أعدىٰ علىٰ الإنسان من ذئبين ضاريين، كما وصف ذلك رسول الله ﷺ، فإنَّ هذا هو السبب الذي حرَّف به أهل الكتاب كُتِب الله المنزلة علىٰ رسله، وكتموا ما جاءهم فيها من البينات والهدىٰ كما وقع من أحبار اليهود، وقد أخبرنا الله بذلك في كتابه العزيز، وأخبرنا به رسول الله ﷺ في الثابت عنه في الصحيح، وبهذا السبب بقي من بقي علىٰ الكفر من العرب وغيرهم بعد قيام الحجة عليهم وظهور الحق لهم، وبه نافق من نافق ووقع في الإسلام من أهل العلم بذلك السبب عجائب مودعة بطون كتب التاريخ، وكم من عالم قد مال إلىٰ هوىٰ ملك من الملوك فوافقه علىٰ ما يريد وحسَّن له ما يخالف الشرع، وتظهر له بما ينفق لديه من المذاهب، بل قد وضع بعض المحدثين للملوك أحاديث عن رسول الله ﷺ كما وقع من وهب بن وهب أبو البختري مع الرشيد ووقع من آخر في حديث: «**لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل**» فزاد في الحديث أو «جناح» موافقة للملك الذي رآه يلعب بالحمام ويسابق بينها ووضع جماعة مناقب لقوم وآخرون مثالب لآخرين لا حامل لهم علىٰ ذلك إلا حب الدنيا والطمع في الحطام والتقرب إلىٰ أهل الرئاسة بما ينفق لديهم ويروح عليهم نسأل الله الهداية والحماية من الغواية.

وكم قد سمعنا ورأينا في عصرنا من أهله، فكثيرًا ما نرىٰ الرجل يعتقد في نفسه اعتقادًا يوافق الحق ويطابق الصواب، فإذا تكلم عند من يخالفه في ذلك ويميل إلىٰ شيء من البدعة، فضلًا عن أن يكون من أهل الرئاسة وممن بيده من الدنيا، فضلًا عن أن يكون من الملوك، وافقه

وساعده وسانده وعاضده، وأقل الأحوال أن يكتم ما يعتقده من الحق ويغمط ما قد تبين له من الصواب، عند من لا يجوز منه ضررًا ولا يقدر منه نفعًا فكيف ممَّن عداه، وهذا في الحقيقة من تأثير الدنيا علىٰ الدين والعاجلة علىٰ الآجلة[١].

وقال الشيخ عثمان بن المكي التوزري الزبيدي (ت١٣٥٠هـ) في كتابه: «المرآة لإظهار الضلالات» في بيان غربة العلماء «وتقديم الجهال علىٰ العلماء، وتولية المناصب الشرعيَّة بالتوارث والجاه لمن لا يصلح لها[٢].

وقال أبو حيان شعرًا في ذلك:

بُلينا بقومٍ صُدروا في المجالسِ ... لإقراءِ عِلمٍ ضلَّ عنهم مراشدُه

لقدْ أُخِّر التَّدرِيس عَن مستحقَّهِ ... وقُدِّم غمرٌ جَامِد العقلِ خَامِدُه

وسوف يلاقي من سعىٰ في الإسلام ... مِنْ الله عُقبىٰ مَا أكنَّت عقائِدُه

جهلُهُ فيهم هواهُ ومَا درىٰ ... بأنَّ هوىٰ الإنسان للنَّارِ قائدُه[٣]

وأنشد أبو الحسن الفالي لنفسه:

لما تبدَّلت المنَازلُ أوْجُهاَ ... غيرَ الذين عَهِدتُ مِنْ عُلَمَائِها

ورأيتُها محفوفَةً بسَوَىٰ الأُلَىٰ ... كانوا وُلاةَ صُدُورِها وفِنَائِها

أنشَدُتُ بيتًا سائرًا مُتَقدِمًا ... والعَينُ قدْ شرِقتْ بِجارِي مَائِها

أمَّا الخيامُ فانهَّا كخيَامِهِمْ ... وأرىٰ نِسَاءَ الحيِّ غيرَ نِسائِها[٤]

---

(١) أدب الطلب للشوكاني (ص١٠٦-١٠٧) ط: مكتبة الإرشاد.

(٢) ولا ريب هذا من الخيانة، لله ولرسوله ﷺ، وللدين، والمسلمين، وانظر «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» (ص٧) وما بعد.

(٣) المرآة لإظهار الضلالات (ص٦٩-٧٠) ط: دار ابن حزم.

(٤) معجم الأدباء (٤/١٦٤٦).

قال ابن جماعة عن أدب العالم: «أن لا ينتصب للتدريس إذا لم يكن أهلًا له، ولا يذكر الدرس مِنْ عِلْمٍ لا يعرفه، سواء أشرطه الواقف أو لم يشرطه فإن ذلك لعب في الدين وازدراء بين الناس»(١).

وكان عتبة الغلام يقول: «لا يعجبني رجل ألا يحترف»(٢).

وقال: «لا يعجبني رجل لا يكون في يده حرفة. فقلنا له: هو ذا تجالسنا أنت وما نراك تحترف، فقال: بلىٰ، إنِّي لاحترف: رأس مالي طسوج أشتري به خوصًا أعمله وأبيعه بثلاث طساسيج، فطسوج رأس مالي، وقيراط خبزي»(٣).

وقال سفيان بن سعيد الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: كان المال فيما مضىٰ يُكره، فأمَّا اليوم فهو ترس المؤمن، ونظر إليه رجل في يده، دنانير، فقال: يا أبا عبد الله تمسك هذه الدنانير؟

قال: «اسكت، فلولاها لتمندل بنا الملوك»(٤).

وكان يقول: «عليك بعمل الأبطال: الكسب من الحلال، والإنفاق علىٰ العيال»(٥).

وقال: «إذا أردت أن تتعبد فاحرز الحنطة»(٦).

وقال: «يعجبني أن يكون صاحب الحديث مكفيًا؛ لأنَّ الآفات إليهم أسرع، وألسنة النَّاسِ إليهم أسرع»(٧).

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم (ص٧٠).
(٢) السير (٧/ ٦٢).
(٣) الحلية (٦/ ٢٣٠).
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٤١)، و«المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ» (٥٤٩).
(٥) العيال لابن أبي الدنيا (ص١٥٨).
(٦) حلية الأولياء (٧/ ١٨).
(٧) المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ (٥٤٩).

قال سفيان: وقال أبو إسحاق السبيعي: «كانوا يرون السَّعَةَ عونًا علىٰ الدين»[١].

قال يحيىٰ بن سعيد، سمعت ابن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يعطي منه حقه، ويكف به وجهه عن الناس»[٢].

وقال سلطان العلماء العز بن عبد السلام: «**الاقتصاد** رتبة بين رتبتين، ومنزلة بين منزلتين، والمنازل ثلاثة: التقصير في جلب المصالح، والإسراف في جلبها، والاقتصاد بينهما.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الحسنة بين السيئتين، ومعناه أنَّ التقصير سيِّئَةٌ، والإسراف سيِّئَةٌ، والحسنة ما توسط بين الإسراف والتقصير»[٣].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

قال السيوطي: «الظاهرة التجارات بإصلاح المعاش، والباطنة ألا تشغلك زهرةُ التجارة عن إصلاح المعاد».

وقيل: «الظاهرة تجميع الرزق، والباطنةُ تفريقُ الرزق».

وقيل: «المال والتروي، والباطنة العلمُ والحكمة»[٤].

---

(١) السير (٥/ ٣٩٦).

(٢) السير (٤/ ٢٣٨)، و«حلية الأولياء» (٢/ ١٧٣).

(٣) قواعد الأحكام (٢/ ٣٣٩).

(٤) الفوائد البارزة والكامنة في النعيم الظاهرة والباطنة (ص٣٠-٣٦) ط: ابن حزم.

وقال الإمام أحمد: «التِّجارةُ أحبُ إليَّ من غلةِ بغداد»[١].

وقيل له: ما تقول في رجل جلس في بيته أو مسجده، وقال: لا أعمل شيئًا حتىٰ يأتيني رزقي؟

فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي ﷺ: «**إنَّ الله جعل رزقي تحت ظل رمحي**»، وقال حين ذكر الطير: «**تغدو خماصًا وتروح بطانًا**».

قال ابن قدامة: وكان أصحاب رسول الله ﷺ، يَتّجرون فىٰ البر والبحر، ويعملون فىٰ نخلهم، والقدوة بهم»[٢].

ونقل أبو طالب عن أحمد أنَّه قال: «التعليم أحب إليَّ من أن يتوكل لهؤلاء السلاطين، ومن أن يتوكل لرجل من عامة الناس في ضيعة، ومن أن يستدين ويتجر لعله لا يقدر علىٰ الوفاء فيلقىٰ الله تعالىٰ بأمانات الناس، التعليم أحب إليَّ».

قال الشيخ محمد بن المختار الشنقيطي معلقًا: «وهذا يدل علىٰ أن منعه منه في موضع منعه للكراهة لا للتحريم»[٣].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: «واعلم أنَّه لا مفسدةَ أضرُّ علىٰ الدين وأبعث علىٰ إضاعة الكتاب، ونبذه وراء الظهر، واشتراء ثمن قليل به من جعل أرزاق العلماء ورتبهم في أيدي الأمراء والحكام، **فيجب أن يكون علماء الدين مستقلين تمام الاستقلال دون الحكام** -لاسيما المستبدين منهم- وإنَّني لا أعقلُ معنىٰ لجعلِ الرتب العلميَّة،

---

(١) الورع (ص٢٤).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص٨٣).

(٣) أضواء البيان (٢/ ٢٩١).

ومعايش العلماء في أيدي السلاطين، والأمراء إلا جعل هذه السلاسل الذهبية أغلالًا في أعناقهم يقودونهم بها إلىٰ حيث شاءوا من غش العامة باسم الدين، وجعلها مستعبدة لهؤلاءِ المستبدين، ولو عقلت العامة لما وثقت بقول، ولا فتوىٰ من عالم رسمي مطوق بتلك السلاسل، وقد انتهىٰ الأمر بالرتب العلمية في الدولة العثمانيَّة أنْ صارت توجه علىٰ الأطفال بل الجاهلين من الرجال حتىٰ قال فيها أحد علماء طرابلس الشام من قصيدة طويلة في سوء حال الدولة:

زَمَنٌ رَأَيْتُ بِهِ الْعَجَائِبْ ... وَذُهِلْتُ فِيهِ مِنَ الْغَرَائِبْ
زَمَنٌ بِهِ الْوَهْمُ السَّخِي ... فُ عَلَىٰ عُقُولِ النَّاسِ غَالِبْ
أَفَلَا تَرَاهُمْ جَانَبُوا ... كَسْبَ الْمَعَارِفِ وَالْمَآدِبْ
وَرَضُوا بِأَوْرَاقٍ تُخَطُّ ... خُطُوطُهَا مِثْلُ الْعَقَارِبْ
يَشْهَدْنَ زُورًا أَنَّ مَنْ ... هِيَ بِاسْمِهِ نُورُ الْغَيَاهِبْ
عَلَّامَةُ الْعُلَمَاءِ أَوْ ... بَلَّاغُ دَوْلَتِهِ الْمَآرِب
وَيَكُونُ أَجْهَلَ جَاهِلٍ ... ولِمَا لَهَا بِالْغِشِّ نَاهِبْ
أَوْ أَنَّهُ حَدَثٌ عَلَىٰ ... فَخِذَيْهِ خَرْءُ اللَّيْلِ لَازِبْ

ثمَّ هزأ الناظم بعد ذلك بكساوي التشريف العلمية وشبهها -وهي علىٰ العلماء- بالسروج (المزركشة) علىٰ الدواب «والسيور علىٰ القباقب» إلىٰ أنْ قال:

ضَحِكَتْ عَلَيْهِمْ دَوْلَةٌ ... هَرِمَتْ وَقَارَبَتِ الْمَعَاطِبْ

علىٰ أنَّه صار بعد ذلك من حملة هاتيك الأوراق، والمتزينين بتلك الكساوي الموشاة والمتحلين بتلك الأوسمة البراقة الذين يسبحون بحمد السلطان معطيها بكرة وأصيلا، ويضللون من يطلب إصلاح حال الدولة تضليلًا؟ فهل يوثق بعلم عالم مقرب من المستبدين أو بدينه؟

إنَّ علماء السلف كانوا يهربون من قرب الأمراء المستبدين أشدَّ مما يهربون من الحيات، والعقارب، ورووا في ذلك أخبارًا، وآثارًا كثيرة»[١].

وقال الحجاج بن المنهال: «كنت مع حماد بن سلمة في حاجة، فمر بباب السلطان فوقف وقبض علىٰ لحيته، وقال: الحمد لله الذي دلنا علىٰ السوق، وأغنانا عن أبواب هؤلاء»[٢].

وقال الحجاج: وكان حماد بن سلمة يجيء إلىٰ السوق فيجلس قدر ما يربح لمئة دراهم ثم ينصرف، ويقول: «يكفيني هذا المقدار هذا قوتي، وهذا قوت عيالي»[٣].

وقال عمر رضي الله عنه: «لأن يأكل الرجل بالطنبور والمزمار خيرٌ له من أن

---

(١) تفسير المنار (٤/ ٢٣٢-٢٣٣).

(٢) قال التبوذكي: سمعت حماد بن سلمة يقول: «إن دعاك الأمير لتقرأ عليه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، فلا تأته». «السير» (٧/ ٤٤٨)، وانظر: «الحلية» (٦/ ٢٥١).

(٣) وفي «إرواء الغليل» (٨/ ٢٣١-٢٣٢). روىٰ ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١٣١) من طريق عمرو بن ميمون عن أبيه قال: «لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين، فقال: زيدوني فإن لي عيالًا، وقد شغلتموني عن التجارة، قال: فزادوه خمسمائة.
قال: إمَّا أن تكون ألفين فزادوه خمسمائة، أو كانت ألفين وخمسمائة فزادوه خمسمائة». ورجاله ثقات رجال الصحيح إلا أنَّه منقطع فإنَّ ميمونًا وهو ابن مهران الجزري لم يدرك خلافة أبي بكر.
وأخرج أيضا عن عائشة قالت: «لما ولىٰ أبو بكر قال: قد علم قومي أن حرفتي لم تكن لتعجز عن مؤنة أهلي، وقد شغلت بأمر المسلمين، وسأحترف للمسلمين فىٰ مالهم، وسيأكل آل أبىٰ بكر من هذا المال». قلت: وإسناد هذا صحيح علىٰ شرط الشيخين، وقد أخرجه البخاري (٢/ ١٠)، والبيهقي (١٠/ ١٠٧) أهـ.
قلت: وفي «صحيح البخاري» معلقًا «باب رزق الحكام والعاملين عليها» (٦/ ٢٦١٩): كان شريح القاضي يأخذ علىٰ القضاء أجرًا، وقالت عائشة رضي الله عنها: يأكل الوصي بقدر عمالته. وأكل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

يأكل بدينه»[١].

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «حبذا المال أصون به عرضي، وأقرضه ربي فيضاعفه لي أضعافًا كثيرة».

وقال سفيان: «إنَّما افتضحَ أصحابُنا حين احتاجوا».

قال القرطبي: «وما زال السلف يمدحون المال ويجمعونه للمنائب وإعانة الفقير، وأكثر الصحابة كسبوا المال، وخلفوه.

وكان مال الزبير خمسين ألف ألف ومائتي ألف، وخلف ابن مسعود رضي الله عنه تسعين ألفًا.

وخلف سعيد بن المسيب أربع مائة دينار، وسفيان الثوري مع زهده وتقشفه -ترك- مائتين، وقال: لأن أخلف عشرة آلاف درهم، وأحاسب عليها خيرٌ لي أن أحتاج إلىٰ الناس»[٢].

وقال محمد بن أبي حاتم وراق البخاري: «كانت له قطعة أرض يكريها كل سنة بسبع مائة درهم»[٣].

وقال أيوب: قال لي أَبُو قلابة: «الزم السوق فإنَّ الغنىٰ من العافية»[٤].

وقال إبراهيم بن أدهم يقول: أعزُّ الأشياء في آخر الزمان ثلاثة: «أخ في الله يؤنس به، وكسب درهم من حلال، وكلمة حق عند سلطان»[٥].

---

(١) هذه الآثار ذكرها أبو عبد الله القرطبي في كتابه «قمع الحرص بالزهد» (ص١١١-١١٢) ط: دار الصحابة.

(٢) المصدر نفسه (ص١٨٧).

(٣) السير (١٢/ ٤٩٩).

(٤) روضة العقلاء (ص١٦٥).

(٥) تهذيب الكمال (٢/ ٣٥).

وقال النخعي: «إنمَّا أهلك النَّاسُ فضول الكلام، وفضول المال»[١].

قلت: فإذا علمت هذا، تبين لك أنَّ المال إنْ كان من كسب حلال فنعم هو؛ بل هو من الطيبات التي أحلها الله لعباده من الرزق، وهو زينة الحياة الدنيا، وقد حبذه النبي ﷺ للعبد الصالح، وهو سبب في نيل كثير من المكارم، كما قال ابن المنكدر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نعم العون علىٰ تقوىٰ الله الغِنىٰ» وهو ورفعة للعبد إن كان من أهل الدراية في استخدامه في الوجوه المشروعة.

فإن علمت هذا، تبين لك أن التكسب وجمع المال لا للبغي والكبر والتفاخر والتباهي، وإنما لحفظ ماء الوجه، وصلة الإخوان، وعون المحتاجين فهو من الخير الذي كان عليه السلف وحثوا عليه، ورحم الله الحافظ ابن عبد البر إذ قال: «المال المذموم عند أهل العلم هو المطلوب من غير وجهه، والمأخوذ من غير حله»[٢].

ولنختم بما قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس؛ فإنَّه إذا ضم إلىٰ العلم، حيز الكمال.

وإنَّ جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب، فاحتاجوا إلىٰ ما لا بد منه، وقلَّ الصبر، فدخلوا مداخل شانتهم، وإن تأولوا فيها، إلا أن غيرها كان أحسن لهم! فالزهري مع عبد الملك، وأبو عبيد مع طاهر بن الحسين، وابن أبي الدنيا مؤدب المعتضد، وابن قتيبة صدر كتابه بمدح الوزير «ابن خاقان».

وما زال خلف من العلماء والزهاد يعيشون في ظل جماعة من

(١) بهجة المجالس (١/ ٢٠٠).
(٢) جامع بيان العلم (١/ ٧١١).

المعروفين بالظلم، وهؤلاءِ وإن كانوا سلكوا طريقًا من التأويل؛ فإنَّهم فقدوا من قلوبهم وكمال دينهم أكثر ممَّا نالوا من الدنيا.

وقد رأينا جماعة من المتصوفة والعلماء يغشون الولاة لأجل نيل ما في أيديهم، فمنهم: من يداهن ويرائي، ومنهم: من يمدح بما لا يجوز، ومنهم: من يسكت عن منكرات، إلىٰ غير ذلك من المداهنات، وسببها الفقر، فعلمنا أن كمال العز، وبعد الرياء، إنمَّا يكون في البعد عن العمال الظلمة.

ولم نرَ من صح له هذا إلا في أحد رجلين: أمَّا من كان له مال: كسعيد بن المسيب، كان يتجر في الزيت وغيره، وسفيان الثوري، كانت له بضائع، وابن المبارك.

وأمَّا من كان شديد الصبر، قنوعًا بما رزق، وإن لم يكفه، كبشر الحافي، وأحمد بن حنبل.

ومتىٰ لم يجد الإنسان كصبر هذين، ولا كمال أولئك؛ فالظاهر تقلبه في المحن والآفات، وربما تلف دينه.

فعليك -يا طالب العلم- بالاجتهاد في جمع المال للغنىٰ عن الناس؛ فإنه يجمع لك دينك! فما رأينا في الأغلب منافقًا في التدين والتزهد والتخشع ولا آفة طرأت علىٰ عالم، إلا بحب الدنيا، وغالب ذلك الفقر. فإن كان من له مال يكفيه، ثم يطلب بتلك المخالطة الزيادة، فذلك معدود في أهل الشره، خارج عن حيز العلماء، نعوذ بالله من تلك الأحوال»[١].

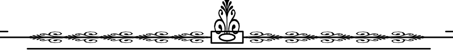
إنَّ السَّلاطِيْنَ الذين اعْتَلَوْا ... فـي حُفَرِ هَاوِيَةٍ قَدْ هَوَوْا
نـاداهـم مـا لـهـم بَـعْـدَمَـا ... قَدْ طبقوا الأرضَ مَضَوْا وانزَوَوْا

(١) صيد الخاطر (ص١٧٥-١٧٦).

مَــا بَــالُ أغْــصَــانِــهــم ذُبَّــلٌ ... وما لهُم تَحتَ الثَّرىٰ قَدْ ثَوَوْا
أُنْـظُـرْ إلـى دَارِهَـمْ بَـعْـدهـمِ ... خَـالـيَـةً خَـاويَـةً إذْ خَـوَوْا
وَادْخُـلْ بـلا إذْنٍ ولاَ رِقْـبَـةٍ ... واعْلُوْا ذُرَىٰ كُلِ مَنِيْعٍ أوَوْا
إنْ لَم تُفِدْ مِن حَالِهم عِبْرَةً ... فاهْوَ هَوَاهُمْ واجْتَوِ ما اجْتَوَوْا[1]



(١) مجموعة القصائد الزهديات (٢/ ٣٥٢).




الباب الثاني

عناية أهل العلم بعضهم لبعض، وفيـه:

[الفصل الأول:
من كفل من أهل العلم غيره
بالمال نصرة لمذهبه أو لفائدة رأها]

قال المزني: سألت الشافعي: من السّفلة؟ قال: من يكون إكرامه لمخالفيه أكثر من إكرامه لأهل مذهبه، وليس ذلك لقلّة فضله وعلمه، يريد أن يستكثر بهم ومتىٰ يوالي العدو؟[١].

أبو إسحاق السمرقندي إبراهيم بن الحسين بن هارون، من عباد الله الصالحين **من أصحاب أبي حنيفة** فاضلًا في نفسه، أنفق علىٰ أهل مذهبه جملة، وأوقف عليهم ضياعات فاخرة، مات سنة تسعين وثلاثمائة وبعد التسعين بقليل[٢].

وهذا سحنون (ت٢٤٠هـ). ذكر أبو العرب: أنَّ سحنونًا خلا **بسعيد بن عباد** يومًا. فقال له: ألستُ بإمامك؟

قال: نعم. قال: وتقبل قولي؟ فقال: نعم. لو لم أقبله لم أختلف إليكَ. فقال له: هذا قوتي، وعيني، فحلف بالله وأراه صُرَّة في يده، ذكر أنَّ فيها ثلاثينَ دينارًا. وقال له: ما هي من سُلطان، ولا من تجارة،

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٩٤-١٩٥)، و«مناقب الشافعي» للرازي (١٢٢).

(٢) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١/ ٣٧).

ولا وصيَّة، وما هي إلا من ثمرة شجرة غرستها بيدي، فخُذها، تتقوىٰ بها علىٰ أمر دينك ودنياك، فقال: أنا عنها غني. وكان مفرط الحاجة الىٰ ما دونها. فقال سحنون: خذها سلفًا، فتتزوج منها، وتنفق، فإن رزقك الله فردها أقبلها منك، وإن تعذَّر ردُّها فأنت منها في حلٍّ. فقال: ما كنتُ بالذي آخذ دينًا في ذمةٍ من غير حاجة. فقال سحنون: فإذا أبيت فلا تذكره لأحد ما دمت حيًا[(١)].

وكان أبو محمد بن أبي زيد الفقيه (ت٣٨٦هـ) يبعث إلىٰ أبي بكر الأبهري (ت٣٧٥هـ) شيخ المالكية ببغداد خمسمائة دينار من القيروان في كل سنة إلىٰ أن توفي هدية لا صدقة[(٢)].

وقال السخاوي: «**وأول من أدخل مذهب -يعني الشافعي- دمشق أبو زرعة** محمد بن عثمان بن إبراهيم الثقفي الدمشقي (ت٣٠٢هـ) بعد أن كان الغالب عليها مذهب الأوزاعي، فكان أبو زرعة يهب لمن يحفظ مختصر المزني مائة دينار»[(٣)].

وكان الجويني (ت٤٧٨هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ ينفق علىٰ طلبة العلم، ويبحث عمن يدرس الفقه لينفق عليهم، ويبحث عنهم[(٤)].

وَقَال الصغاني (ت٦٥٠هـ) لأَصْحَابه: احْفَظُوا غَرِيب أبي عبيد الْقَاسِم بن سَلام فَمن حفظه ملك ألف دِينَار، فَإِنِّي حفظته فملكتها وأشرت علىٰ بعض أَصْحَابِي بحفظه فحفظه فملكها[(٥)].

---

(١) ترتيب المدارك (٤/ ٢٣١).
(٢) معجم السفر للسلفي (٦٨٨).
(٣) الإعلان بالتوبيخ (ص٩٩) ط: دار الكتاب العربي، وهو في «السير» للذهبي (١٤/ ٢٣٣)، وزاد الذهبي «وكان من الأكلة، يأكل سل مشمش وسل تين».
(٤) انظر: السلاجقة (ص٢١٢)، و«طبقات الشافعية» (٥/ ١٧٠-١٧٥).
(٥) الوافي بالوفيات (١٢/ ١٥٠).

ومنهم الشيخ الفقيه محمد بن عبدويه (ت**٥٢٥هـ**) المدفون بجزيرة كمران من اليمن ببحر القلزم، تفقّه بالشيخ أبي إسحاق ببغداد، وقرأ عليه كتابه «المهذب» ونكته في الأصول والجدل، وهو أول من دخل بـ «المهذب» إلىٰ اليمن، وكان سكن عدن، ثمَّ انتقل إلىٰ زبيد في دولة الحبشة، فلمَّا دخل مفضل بن أبي البركات بعسكر من العرب انتهب مالًا لابن عبدويه، كان يتجر فيه في جملة من انتهب، ثمَّ خرج إلىٰ كمران وأقام بها إلىٰ أن توفي وقبره هناك مشهور مزور، وكان زاهدًا ورعًا لا يأكل إلّا رزًا يأتي من بلاد الهند، وكان عبيده يسافرون إلىٰ الحبشة، والهند، ومكة، وعدن، للتجارة، فأخلفه الله مالًا عن ماله المنهوب، وكان ينفق علىٰ طلبة العلم، وكانت طريقته سنّية، وله تصنيف في أصول الفقه يسمىٰ «الإرشاد»[1].

وكان العلامَة جمال الدّين مُحَمَّد طَاهِر الملقب بملك المحدثين الهنديّ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٩٨٦هـ)، يرسل إلىٰ معلم الصبيان ويقول: أيما صبي حسن ذكاؤه وجيد فهمه أرسله إليَّ، فيرسل إليه، فيقول له: كيف حالك؟ فإن كان غنيًا يقول له: تعلم. وإن كان فقيرًا يقول له: تعلم ولا تهتم من جهة معاشك، أنا أتعهد أمرك وجميع عيالك علىٰ قدر كفايتهم، فكن فارغ البال، واجتهد في تحصيل العلم. فكان يفعل ذلك بجميع من يأتيه من الضعفاء والفقراء ويعطيهم قدر ما وظفه لهم، حتىٰ صر منهم جماعة كثيرة علماء ذووا فنون كثيرة فأنفق جميع ماله في ذلك[2].

وكان العلامة محمد بدر الدين الغزي (ت٩٨٤هـ) يعطي الطلبة كثيرًا، ويكسوهم، ويجري علىٰ بعضهم، وإذا ختم كتابًا تدريسًا، أو تصنيفًا،

---

(١) شذور الذهب (٦/ ١٢٥)، و«مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان» (٣/ ١٨٦).

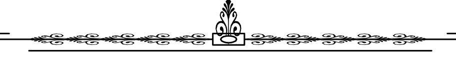
(٢) النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص٣٢٤).

أولم وجعل ختمًا حافلًا، ودعا أكابر الناس إليه، وفقراءهم، ثم أضافهم، وساوىٰ في ضيافته بين الفقراء، والأمراء، وأحسن إلىٰ الطلبة.

وكان إذا ورد إلىٰ دمشق طالب علم أو فقير سأل الشيخ عنه، واستدعاه وأكرمه وأحسن إليه، وإن كان من مظنات البركة سأله الدعاء له ولأولاده[1].



(١) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٣/ ٥).





[الفصل الثاني:

من عناية أهل العلم بإخوانهم]

رحم العلم من أعظم أنواع الرحم، والبر به من خير أنواع البر، ومن البر المشروع: عونهم بالمال، ومساندتهم بالجاه، وبذل الشفاعة لهم، وقد سطر أسلافنا من العلماء كل أنواع البر المشروع، وبهذا تحقق معنىٰ الأخوة، وأنه حقيقة واقعة لا مجرد وهم أو خيال.

إنَّ أَخَاكَ الصِّدْقَ مَنْ كَانَ مَعَك ... وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَك
وَمَنْ إِذَا رَيْبُ الزَّمَانِ صَدَّعَك ... شَتَّتْ فِيك شَمْلَهُ لِيَجْمَعَك[(١)]

عن راوية الإسلام أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «كنَّا نسمي جعفرا أبا المساكين، كان يذهب بنا إلىٰ بيته، فإذا لم يجد لنا شيئًا، أخرج إلينا عكة أثرها عسل، فنشقها، ونلعقها»[(٢)].

وعن مالك بن أنس، يذكر أنَّ أبا الدرداء رضي الله عنه، قال: «إنِّي لبخيل إن كان لي ثلاثةُ أثوابٍ لا أقرضُ الله عز وجل أحدها»[(٣)].

وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «لقد رأيتنا وما صاحبُ الدينار والدرهم بأحقِّ به من أخيه المسلم»[(٤)].

---

(١) غذاء الألباب (٢/ ٤٧٧) ينسبُ لسيدنا علي رضي الله عنه.
(٢) السير (١/ ٢١٧).
(٣) مكارم الأخلاق للخرائطي (٦٠٢).
(٤) الفوائد المجموعة للسخاوي (١٢٨).

وقال حكيم بن حزام رضي الله عنه: «ما أصبحت وليس ببابي صاحب حاجة، إلا علمت أنها من المصائب التي أسأل الله الأجر عليها»[١].

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: أدركت سعد بن عبادة رضي الله عنه وهو ينادي علىٰ أُطُمه: «من أحبَ شحمًا أو لحمًا فليأتِ سعد بن عبادة، ثمَّ أدركت ابنه مثل ذلك يدعو به»[٢].

وَقَال حَفْص بْن عُمَر السياري، عنِ الأصمعِيّ، عَن أَبِيهِ: كَانَ سَعِيد بْن العاص رضي الله عنه يدعو إخوانه وجيرانه فِي كلِّ جمعة، فيصنع لهم الطعام ويخلع عليهم الثياب الفاخرة، ويأمر لهم بالجوائز الواسعة، ويبعث إِلَىٰ عيالاتهم بالبرِّ الكثير، وكان يوجِّه مولىٰ لَهُ فِي كل ليلة جمعة، فيدخل المسجد ومعه صرر فيها دنانير، فيضعها بين يدي المصلين، وكان قد كثُر المصلُّون فِي كلِّ ليلة جمعة فِي مسجد الكوفة[٣].

ودخل المنكدر (ت١٣٠هـ) علىٰ عائشة رضي الله عنها، فقالت: لك ولد؟ قال: لا. فقالت: لو كان عندي عشرة آلاف درهم لوهبتها لك.

قال: فما أمست إلا بعث إليها معاوية رضي الله عنه بمال.

فقالت: ما أسرع ما ابتليت، وبعثت إلىٰ المنكدر بعشرة ألاف فاشترىٰ منها جارية فهي أم محمد وعمر وأبي بكر[٤].

قلت: وفي زماننا هم صنف آخر كما قاله ابن أخ الأصمعي:

---

(١) السير (٣/ ٥١)، و«تهذيب ابن عساكر» (٤/ ٤٢٤).

(٢) الطبقات لابن سعد (٣/ ٤٦١)، و«تهذيب الكمال» (١٠/ ٢٨١). وكان يدعو: «اللهم هب لي حمدًا وهبْ لي مجدًا، لا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال. اللهم لا يصلحني القليل ولا أصلح عليه».

(٣) تهذيب الكمال (١٠/ ٥٠٦).

(٤) صفة الصفوة (٢/ ١٤٠).

صديقُك حِين تَسْتَغْنِي كثيرٌ ... وَمَالك عِنْد فقرك من صديق
فَلَا تغْضبْ عَلىٰ أحدٍ إذا مَا ... طوي عَنْك الزِّيَارَة عِنْد ضيق[(١)]

وكان إبراهيم التيمي (ت٩٢ أو ٩٥هـ) يجمع جماعة من الفقراء، ويجلسهم في المسجد، ويقول: «تعبدوا وأنا أقومُ بخدمتكم ومؤنتكم»[(٢)].

لقد كان الصحابة رحمهم الله ورضي عنهم من أعظم الناس كرمًا وجودًا، وأكثرهم مروءة وخيرًا، ثمَّ كان ذلك فيمن جاء من بعدهم بمقالهم وفعالهم. قال الأسود بن كثير (ت٧٥هـ): شكوت إلىٰ محمد بن علي بن الحسين الحاجة وجفاء الإخوان.

فقال: بئسَ الأخُ أخًا يرعاك غنيًّا، ويقطعك فقيرًا، ثمَّ أمر غلامه، فأخرج كيسًا فيه سبعمائة درهم، فقال: «استنفق هذه، فإذا نفدت، فأعلمني»[(٣)].

وقال عبد الله بن ضريس: **قال الحسن** (ت١١٠هـ): «كنَّا نعد البخيل الذي يقرض أخاه»[(٤)].

وقال أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد (ت٣٤٥هـ): «ترك قضاء حقوق الإخوان مذلة، وفي قضاءِ حقوقهم رفعة»[(٥)].

دعوىٰ الإخاء علىٰ الرخاء كثيرةٌ ... بل في الشدائدِ تُعْرَفُ الأخوانُ[(٦)]

قال الإمام الأعمش (ت١٤٨هـ): «اشتكت شاة عندي فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي يسألني: هل استوفت علفها؟ وكيف

---

(١) الأمالي للزجاجي (ص١٠).
(٢) تنبيه المغترين (ص٩١)، بالاستفادة من «صلاح الأمة» (٢/٦٠٦).
(٣) المتحابين في الله لابن قدامة المقدسي (ص٧٩).
(٤) شعب الإيمان (١٠٣٨٠).
(٥) تاريخ بغداد (٣/٦١٨).
(٦) شرح لامية العجم (ص٥٨).

صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها؟ وكان تحتي لبد أجلس عليه فإذا خرج قال: خذ ما تحت اللبد حتىٰ صار إليَّ في علةِ الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من بره؛ حتىٰ تمنيت أنَّ الشاة لم تبرأ»[١].

وقال المأمون (ت٢١٨هـ): «الإخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغنىٰ عنه، وطبقة كالدواءِ لا يحتاج إليه إلّا أحيانًا، وطبقة كالداءِ لا يحتاج إليه أبدًا»[٢].

وقال أبو الفضل العباس بن يوسف السايح: حدثني عمي محمد بن إسماعيل بن العلاء قال: حدثني أبي قال: دعاني الكلوذاني رزق الله بن موسىٰ فقدم إلينا طعاما كثيرًا، وكان في القوم أحمد بن حنبل ويحيىٰ بن معين وأبو خيثمة وجماعة فقدم لوزينج أنفق عليها ثمانين درهما، فقال: أبو خيثمة هذا إسراف!

قال: فقال أحمد: لا لو أنَّ الدنيا جمعت حتىٰ تكون في مقدار لقمة، ثم أخذها امرؤ مسلم فوضعها في فم أخيه المسلم لما كان مسرفًا قال: فقال: يحيىٰ صدقت يا أبا عبد الله[٣].

ومن هؤلاء: فقيه من فقهاء التابعين **خيثمة بن عبد الرحمن (ت٨٢هـ)**، قال العلاء بن المسيب: «كان خيثمة يحمل صرارًا، وكان موسرًا، فيجلس في المسجد، فإذا رأىٰ رجلًا من أصحابه في ثيابه، يعني خرقًا أو رقة، اعترض له فأعطاه صرة»[٤].

وعن العلاء بن زهير، قال: قدم **إبراهيم -النخعي- (ت٩٦هـ)** علىٰ

(١) كنوز الذهب في تاريخ حلب لسبط ابن العجمي (١/ ١٠١-١٠٢).
(٢) عيون الأخبار (٣/ ٥).
(٣) طبقات الحنابلة (١/ ١٠٥).
(٤) حلية الأولياء (٤/ ١١٤).

أبي وهو علىٰ حلوان، فحمله علىٰ برذون، وكساه أثوابًا، وأعطاه ألف درهم، فقبله[١].

ومنهم: مورق العجلي (ت١٠٥هـ). عن جميل بن مرة، قال: كان مورق رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجيئنا، فيقول: أمسكوا لنا هذه الصرة، فإن احتجتم، فأنفقوها.

فيكون آخر عهده بها.

وقال جعفر بن سليمان: حدثنا بعض أصحابنا، قال: كان مورق يتجر، فيصيب المال، فلا يأتي عليه جمعة وعنده منه شيء، وكان يأتي الأخ، فيعطيه الأربع مائة والخمس مائة، ويقول: ضعها لنا عندك.

ثمَّ يلقاه بعد، فيقول: شأنك بها، لا حاجة لي فيها[٢].

ومنهم: الزهري (ت١٢٤هـ). سمعت الشافعي، يقول: مر رجل من التجار بالزهري وهو قريبه، والرجل يريد الحج، فابتاع من بزه بأربع مائة دينار، إلىٰ أن يرجع من حجه، قال: فلم يبرح عنه الرجل حتىٰ فرقه، فعرف الزهري في وجه الرجل بعض ما كره.

فلمَّا رجع من حجه مر به، فقضاه ذلك، وأمر له بثلاثين دينارًا ينفقها في سفره، فقال له الزهري: كأنَّي رأيتك يومئِذ، ساء ظنك؟ فقال: أجل، فقال الزهري: والله لم أفعل ذلك إلا للتجارة، أعطي القليل، فأعطىٰ الكثير[٣].

وعن أبي خيثمة زهير بن معاوية (ت١٧٣هـ): استقرض أبي من الحسن بن الحر ألف درهم، فلما جاء يردها عليه، قال له **الحسن بن**

---

(١) السير (٤/ ٥٢٣)، و«طبقات ابن سعد» (٦/ ٢٧٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٥٤)، و«الزهد» لأحمد (١٨٢٤).

(٣) أدب الشافعي لابن أبي حاتم (ص٨١-٨٢) ط: الرسالة العالمية.

الحر (ت١٣٣هـ): «اذهب فاشترِ بها لزهير سكرًا»[١].

وقال ابن وهب (ت١٩٧هـ): «أنَّ ربيعة **(ت١٣٦هـ)** كان من الأجواد، أنفق علىٰ إخوانهِ أربعين ألف دينار»[٢].

وقال: «أنفق **ربيعة** علىٰ إخوانه أربعين ألف دينار، ثمَّ كان بعد يسأل إخوانه في إخوانه»[٣].

وقال سعيد بن عبد العزيز: **قضىٰ هشام (ت١٤٦هـ) عن الزهري** سبعة آلاف دينار، وقال: لا تعد لمثلها، تدان.

وعن مالك: قال **الزهري**: «وجدنا السخي لا تنفعه التجارب».

وعن يونس بن عبد الأعلىٰ: سمعت الشافعي يقول: مرَّ رجل تاجر بالزهري وهو بقريته، والرجل يريد الحج، فأخذ منه بأربع مائة دينار إلىٰ أن يرجع من حجه، فلم يبرح الزهري حتىٰ فرقه، فعرف الزهري في وجه التاجر الكراهية.

فلمَّا رجع، قضاه، وأمر له بثلاثين دينارًا ينفقها..[٤].

ومنهم: محمد بن سوقة الغنوي (ت١٤٧هـ) من القراء، ومن أهل العبادة، والفضل والدين، والسخاء.

أنفق علىٰ أهل العلم عشرين ومائة ألف درهم، وقد زامل رفيقًا له إلىٰ مكة فكانا إذا أصبحا أخذا في البكاء فيراهما الجمال فيقول: «ما

---

(١) تهذيب الكمال (٦/ ٨٢).

(٢) تذكرة الحفاظ (١/ ١١٨).

(٣) الآداب الشرعية (٢/ ٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٤٠)، وانظر عبارة الزهري في «مسند الموطأ» للجوهري (١١٤)، و«شعب الإيمان» (١٠٩٥)، ويرويه الشافعي كما في «آداب الشافعي» لابن أبي حاتم (ص١٥٥).

شأنكما أجاءكما من أهلكما خبر؟!»[١].

ومنهم: إبراهيم بن الأدهم (ت١٦٢هـ).

قال الإمام أحمد: «كان إبراهيم بن أدهم يبيع ثيابه وينفقها علىٰ أصحابه، وكانت الدنيا أهون عليه من ذلك العدد»[٢].

وقال قيس بن الربيع (ت١٦٧هـ): «كان أبو حنيفة (ت١٥٠هـ) ورعًا تقيًا، مفضلًا علىٰ إخوانه»[٣].

وقال الفضيل بن عياض: «كان أبو حنيفة فقيهًا، معروفًا بالفقه، مشهورًا بالورع، وسيع المال، معروفًا بالأفضال علىٰ من يطيق، صبورًا علىٰ تعليم العلم بالليل والنهار، كثير الصمت، قليل الكلام حتىٰ ترد مسألة فىٰ حلال أو حرام، وكان يُحسن يدل علىٰ الحق، هاربًا من السلطان»[٤].

وقال الخريبي: «كنَّا عند أبي حنيفة، فقال رجلٌ: إني وضعت كتابًا علىٰ خطك إلىٰ فلان، فوهب لي أربعة آلاف درهم»[٥].

وقال الإمام يحيىٰ بن معين: **أبو حمزة السكري**[٦] محمد بن ميمون (ت١٦٧هـ)، وقد حدث عنه: ابن المبارك، وعلي بن الحسين بن شقيق، وكان إذا مرض إنسان من جيرانِه يسأل ما أنفق؟ وما أُنفِق عليه؟ ثمَّ يأمر

(١) الثقات لابن حبان (١٠٦١٨).

(٢) بحر الدم فيمن تكلم فيه أحمد بمدح أو ذم لابن عبد الهادي (١/ ٦٢).

(٣) مناقب أبي حنيفة للذهبي (ص١٨) ط: لجنة إحياء المعارف النعمانية.

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢١٩)، و«أخبار أبو حنيفة وأصحابه» (ص٤٦).

(٥) السير (٦/ ٤٠٠).

(٦) والسكري لقب له، كما بينته في «إبهاج الطالبين» (ص١٧٩)، وذكر ابن حجر في «نزهة الألباب في الألقاب» (٣١٨٨) أنَّه «قيل له ذلك: لحلاوة كلامه» وانظر: «طبقات علماء الحديث» (١/ ٣٣٩).

أهله فيتصدقون بمثل ما أنفق علىٰ ذلك المريض، يقول: نحن أصحاء أو نحوِ هذا من الكلام[(١)].

وقال يحيىٰ القطَّان (ت١٩٨هـ): «كان **شُعبة** (ت١٦٠هـ) رقيقًا -يعني القلب- يُعطي السائل ما أمكنه»[(٢)].

ومنهم: الإمام عبد الله بن المبارك.

قال المسيب بن واضح رحمه الله: «أرسل **ابن المبارك** (ت١٨١هـ) إلىٰ أبي بكر بن عياش أربعة آلاف درهم، فقال: سدَّ بها فتنة القوم عنك»[(٣)].

وقال الحسن بن حماد: دخل أبو أسامة علىٰ **ابن المبارك،** فوجد في وجه عبد الله أثر الضر، فلمَّا خرج، بعث إليه أربعة آلاف درهم، وكتب إليه:

وَفَتَىٰ خَلاَ مِنْ مَالِهِ ... وَمِنَ الْمُرُوءةِ غَيْرُ خَالِ
أَعْطَاكَ قَبْلَ سُؤَالِهِ ... وَكَفَاكَ مَكْرُوهَ السُّؤَالِ

وقال علي بن خشرم: قلت لعيسىٰ بن يونس: كيف فضلكم ابن المبارك، ولم يكن بأَسَنَّ منكم؟

قال: «كان يقدم، ومعه الغلمة الخراسانية، والبزة الحسنة، فيصل العلماء، ويعطيهم، وكنَّا لا نقدر علىٰ هذا»[(٤)].

وقال حبان بن موسىٰ: «**عوتب ابن المبارك فيما يفرق من المال في البلدان دون بلده،** قال: إنِّي أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث، فأحسنوا طلبه لحاجة الناس إليهم، احتاجوا، فإن تركناهم،

(١) تاريخ ابن معين رواية الدوري (٤٧٨٣).
(٢) طبقات علماء الحديث (١/ ٢٩٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤١٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٠٩-٤١٠).

ضاع علمهم، وإن أعنَّاهم، بثوا العلم لأمة محمد ﷺ لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم»[١].

وعن سلمة بن سليمان قال: جاء رجل إلىٰ ابن المبارك فسأله أن يقضي عنه دينا، فكتب إلىٰ وكيله؛ فلمَّا ورد عليه الكتاب قال الوكيل للرجل: كم دينك الذي سألت؟

قال: سبع مائة درهم.

قال: فكتب إلىٰ ابن المبارك: إنَّ هذا سألك وفاء سبع مائة درهم، وقد كتبت إلي بسبعة آلاف درهم، وقد فنيت الغلات. فكتب إليه عبد الله: إن كانت الغلات فنيت فإنَّ العمر أيضًا قد فني، فأجر له ما سبق به قلمي[٢].

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ **كثير الاختلاف إلىٰ طرسوس،** وكان ينزل الرقة في خان، فكان شاب يختلف إليه ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث، قال: فقدم عبد الله الرقة مرًة فلم يرَ ذلك الشاب، وكان مستعجلًا فخرج في النَّفيرِ فلمَّا قفل من غزوتِه ورجع إلىٰ الرقةِ سأل عن الشاب، فقالوا: إنَّه محبوس لدين ركبه.

فقال عبد الله: وكم مبلغ دينه؟

قالوا: عشرة آلف درهم، فلم يزل يستقصي حتىٰ دُلَّ علىٰ صاحب المال فدعا به ليلًا ووزن له عشرة آلاف درهم، وحلَّفه ألا يخبر أحدًا ما دام عبد الله حيًا، وقال: إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس.

وأدلج عبد الله، وأخرج الفتىٰ من الحبس، وقيل له عبد الله ابن المبارك كان هاهنا، وكان يذكرك، وقد خرج فخرج الفتىٰ في أثره

(١) السير (٨/ ٣٨٧)، و«تاريخ بغداد» (١٠/ ١٦٠).

(٢) تاريخ الإسلام (٤/ ٨٨٢).

فلحقه علىٰ مرحلتين أو ثلاث من الرقة، فقال: يا فتىٰ أين كنت؟ لم أرك في الخان!

قال نعم: يا أبا عبد الرحمن كنت محبوسًا بدين.

قال: وكيف سبب خلاصك؟

قال: جاء رجلٌ وقضىٰ ديني، ولم أعلم به حتىٰ أخرجت من الحبس؟!

فقال له عبد الله: يا فتىٰ أحمدِ الله علىٰ ما وفق لك من قضاء دينك؛ فلم يخبر ذلك الرجل أحدًا إلا بعد موت عبد الله[(١)].

وعن محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، سمعت أبي، قال: كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج، اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو، فيقولون: نصحبك.

فيقول: هاتوا نفقاتكم.

فيأخذ نفقاتهم، فيجعلها في صندوق، ويقفل عليها، ثمَّ يكتري لهم، ويخرجهم من مرو إلىٰ بغداد، فلا يزال ينفق عليهم، ويطعمهم أطيب الطعام، وأطيب الحلوىٰ، ثمَّ يخرجهم من بغداد بأحسن زي، وأكمل مروءة، حتىٰ يصلوا إلىٰ مدينة الرسول ﷺ فيقول لكل واحد: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من المدينة من طرفها؟

فيقول: كذا وكذا. ثمَّ يخرجهم إلىٰ مكة، فإذا قضوا حجهم، قال لكل واحد منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكة؟

فيقول: كذا وكذا.

فيشتري لهم، ثمَّ يخرجهم من مكة، فلا يزال ينفق عليهم إلىٰ أن

---

(١) صفة الصفوة (٤/ ١٤١-١٤٢).

يصيروا إلىٰ مرو، فيجصص بيوتهم وأبوابهم، فإذا كان بعد ثلاثة أيام، عمل لهم وليمة وكساهم، فإذا أكلوا وسروا، دعا بالصندوق، ففتحه، ودفع إلىٰ كل رجل منهم صرته عليها اسمه[١].

قال أبي: أخبرني خادمه أنَّه عمل آخر سفرة سافرها دعوة، فقدم إلىٰ النَّاس خمسة وعشرين خوانا فالوذج، فبلغنا أنَّه قال للفضيل: لولاك وأصحابك ما اتجرت.

وكان ينفق علىٰ الفقراء، في كل سنة مائة ألف درهم[٢]. رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عنه.

وقال الذهبي عن الإمام أبي يوسف (ت١٨٢هـ)[٣]: وكان أبوه فقيرًا، له حانوت ضعيف، فكان أبو حنيفة يتعاهد أبا يوسف بالدراهم، مائة بعد مائة[٤].

وقال أبو عبيد: رأيت الشافعي عند **محمد بن الحسن** (ت١٨٩هـ)، **وقد دفع إليه خمسين دينارًا**، وقد كان قبل ذلك دفع إليه خمسين درهمًا، وقال: «إن اشتهيت العلم، فالزم»[٥].

---

(١) انظر: تهذيب الكمال (١٦/ ٢١).

(٢) السير (٨/ ٣٨٥-٣٨٦).

(٣) الإمام العلّامة، فقيهُ العِراقَين، يعقوبُ بن إبراهيم الأنصاريُّ الكوفي، صاحبُ أبي حنيفة. روىٰ عن: هشام بن عُروة، وأبي إسحاق الشَّيباني، وعطاء بن السَّائب، وطبقتهم.
وعنه: محمد بن الحسن الفقيه، وأحمد بنُ حنبل، وابنُ مَعين، وبشر بن الوليد، وعلي بنُ الجَعْد، وعليُّ بنُ مسلم الطوسي، وخلق.

(٤) السير (٨/ ٥٣٦)، و«طبقات علماء الحديث» (١/ ٤٢١).

(٥) السير (١٠/ ١٤)، والشهوة من خير المعينات علىٰ طلب العلم، وقد تكلمت عن ذلك في «لذة العلم» فانظره.

وكان لمحمد بن الحسن مال كثير حتىٰ كان له ثلاثمائة من الوكلاء علىٰ ماله، وأنفقه كله في العلم والفقه[١].

ومنهم: عبد الوهاب الثقفي (ت١٩٤هـ).

قال الفلاس (ت٢٤٩هـ): «كانت غلة عبد الوهاب[٢] في السنة نحو أربعين ألفًا، ينفقها كلها علىٰ المحدثين»[٣].

ومنهم: معروف الكرخي (ت٢٠٠هـ).

قال أبو العباس المؤدب: حدثني جار لي هاشمي في سوق يحيىٰ، وكانت حاله رقيقة، قال: ولد لي مولود، فقالت لي زوجتي: هو ذا ترىٰ حالي وصورتي، ولا بدَّ لي من شيء أتغدىٰ به، ولا يمكنني الصبر علىٰ هذا الحال فاطلب شيئًا، فخرجت بعد عشاء الآخرة، فجئت إلىٰ بقال كنت أعامله فعرفته حالي، وسألته شيئًا يدفعه لي، وكان له عليَّ دين، فلم يفعل، فصرت إلىٰ غيره ممَّن كنت أرجو أن يغير حالي، فلم يدفع إليَّ شيئا، فبقيت متحيرًا لا أدري إلىٰ أين أتوجه، فصرت إلىٰ دجلة، فرأيت ملاحًا في سمارية ينادي: فرضة عثمان، قصر عيسىٰ، أصحاب الساج، فصحت به، فقرب إلىٰ الشط، فجلست معه وانحدر بي، فقال لي: إلىٰ أين تريد؟

---

(١) تعليم المتعلم (ص١٠٨-١٠٩)، و«إفادة الطالب الألمعي بخلاصة تعليم المتعلم» للزرنوجي (ص١١).

(٢) عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت بن عبيد الله بن الحكم بن أبي العاص، الإمام الحافظ، أبو محمد الثقفي البصري. حدث عن: أيوب السختياني، ومالك بن دينار، وخالد الحذاء، وحميد الطويل، والطبقة.
وعنه: أحمد بن حنبل، وابن راهويه، والفلاس، وبندار، وحفص الربالي، والحسن بن عرفة، وخلق.

(٣) طبقات علماء الحديث (١/ ٤٦٣).

فقلت لا أدري أين أريد!

فقال: ما رأيت أعجب أمرًا منك، تجلس معي في مثل هذا الوقت وأنحدر بك، وتقول: لا أدري أين أتوجه؟ فقصصت عليه قصتي، فقال لي الملاح: لا تغتم، فإنِّي من أصحاب الساج، وأنا أقصد بك إلىٰ بغيتك إن شاء الله، فحملني إلىٰ مسجد معروف الكرخي الذي علىٰ دجلة في أصحاب الساج.

وقال لي: هذا معروف الكرخي، يبيت في المسجد ويصلي فيه، تطهر للصلاة وامضِ إليه إلىٰ المسجد، وقصَّ عليه حالك، وسلهُ أن يدعو لك، ففعلت، ودخلت المسجد، فإذا معروف يصلي في المحراب، فسلمت وصليت ركعتين وجلست، فلمَّا سلم ردَّ عليَّ السلام.

وقال لي: منْ أنت رحمك الله؟ فقصصت عليه قصتي وحالي، فسمع ذلك مني، وقام يصلي، ومطرت السماء مطرًا كثيرًا، فاغتممت، وقلت: كيف جئت إلىٰ هذا الموضعِ، ومنزلي بسوق يحيىٰ وقد جاء هذا المطر؟ وكيف أرجع إلىٰ منزلي؟ واشتغل قلبي بذلك، فبينا نحن كذلك إذ سمعت صوت حافر دابةٍ، فقلت: في مثلِ هذا الوقت حافرُ دابة؟ فإذا هو يريد المسجد، فنزل ودخل المسجد وسلم وجلس، فسلم معروف.

وقال: من أنت رحمك الله؟

فقال له الرجل: أنا رسول فلان، وهو يقرأ عليك السلام، ويقول لك: كنت نائمًا علىٰ وطاءٍ وفوقي دثار، فانتبهت علىٰ صورة نعمة الله عليَّ، فشكرت الله، ووجهت إليك بهذا الكيسِ تدفعه إلىٰ مستحقه.

فقال له: ادفعه إلىٰ هذا الرجل الهاشمي.

فقال له: إنَّه خمس مائة دينار.

فقال له: أعطه، فكذلك طلب له.

قال: فدفعها إليَّ، فشددتها في وسطي وخضت الوحل والطين في الليل حتىٰ صرت إلىٰ منزلي، وجئت إلىٰ البقَّال، فقلت له: افتح لي بابك، ففتح، فقلت: هذه خمس مائة دينار قد رزقني الله فخذ ما لك عليَّ، وخذْ ثمن ما أريد، فقال لي: دعها معك إلىٰ غد وخذ ما تريد، فأخذ مفاتيحه وصار إلىٰ دكانه، ودفع إليَّ عسلًا وسكرًا وشيرجًا وأرزًا وشحمًا، وما نحتاج إليه، وقال لي: خذ.

فقلت: لا أطيق حمله.

فقال لي: أنا أحمل معك، فحمل بعضه، وحملت أنا بعضه، وجئت إلىٰ منزلي، والباب مفتوح، ولم يكن فيها نهوض تغلقه، وقد كادت تتلف، يعني: زوجته، فوبختني علىٰ تركي إيَّاها علىٰ مثل صورتها.

فقلت لها: هذا عسل وسكر وشيرج، وجميع ما تحتاجين إليه، فسري عنها بعض ما كانت تجده، ولم أعلمها بالدنانير خوفًا أن تتلف فرحًا، فلمَّا أصبحنا أريتها الدنانير، وشرحت لها القصة، واشتريت بها عقارًا نحن نستغله ونعيش من فضله ومن غلته، وكشف الله عنا ما كنَّا فيه ببركة معروف الكرخي[1]. فرحمه الله وجزاه خيرًا علىٰ إيثاره وفعله النبيل.

وقال شيخ المحدثين، و**مسند العراق علي بن عاصم** (ت٢٠١هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «أعطاني أبي مائة ألف درهم، فأتيته بمائة ألف حديث، وكنت أردف هشيمًا خلفي ليسمع معي الشيء بعد الشيء»[2].

قال الخطيب البغدادي: «وقد كان علي بن عاصم من ذوي الأحوال، والاتساع في الدنيا، ولم يزل ينفق في طلب العلم، ويفضل

---

(١) تاريخ بغداد (١٥/ ٢٦٣).

(٢) السير (٩/ ٢٥٢).

علىٰ أهله قديما وحديثًا»[١].

وهذا **الشافعي (ت٢٠٤هـ)** كما يقول الحميدي: قدِم الشافعي صنعاءَ، فضرُبت له خيمة، ومعه عشرة آلاف دينار، فجاء قوم فسألوه، فما قُلعت الخيمة ومعه منها شيء[٢].

وقال الربيع بن سليمان: تزوجت، فسألني الشافعي: كم أصدقتها؟ قلت: ثلاثين دينارًا.

فقال: كم أعطيتها؟

فقلت: ستة دنانير. فصعد داره وأرسل إليَّ صرة فيها أربعة وعشرون دينارًا[٣].

ويؤثر عن الإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ: «لو أوصىٰ إنسان لأعقل الناس، صرف إلىٰ الزهاد»[٤].

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المصري: كان الشافعي أسخىٰ النَّاس بما يجد، وكان يمر بنا فإن وجدني، وإلا قال: قولي لمحمد إذا جاء يأتي المنزل، فإنِّي لست أتغدىٰ، حتىٰ يجيء، فربَّما جئته، فإذا قعدت معه علىٰ الغداء، قال: «يا جارية، اضربي لنا فالوذجًا، فلا تزال المائدة بين يديه، حتَّىٰ تفرغ منه، ونتغدىٰ»[٥].

وقال أسد بن الفرات (ت٢١٣هـ): قلت **لمحمد الحسن**: أنا غريب

---

(١) تاريخ بغداد (١٣/ ٤٠٧).

(٢) مناقب الشافعي للرازي (ص١٢٨).

(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٢٢٣).

(٤) تعليم المتعلم (ص١٠٨-١٠٩)، و«إفادة الطالب الألمعي بخلاصة تعليم المتعلم» للزرنوجي (ص١١).

(٥) أدب الشافعي (ص١٥١).

والسماع منك قليل. قال: اسمع العراقيين بالنهار، وجئني بالليل وحدك تبيت معي، فأسمعك. فكان إذا رآني نعست نضح وجهي بالماء.

ورآني يومًا أشرب ماء السبيل فقال لي: تشربه؟ فقلت له: أنا ابن سبيل.

فلمَّا كان الليل بعث إليّ بثمانين دينارًا، وقال: ما عرفت أنَّك ابن سبيل، إلا الآن..[1].

وهذا عبد الله بن عثمان بن جبلة الأزدي العتكيّ، مولاهم، المروزي (ت٢٢١هـ)، حافظ الحديث، ثقة، كانت الرحلة إليه في خراسان، وولاه عبد الله بن طاهر قضاء الجوزجان، فاستعفىٰ.

قال ابن ناصر الدين: «تصدق بألف ألف درهم في حياته»[2].

وقال المروذي قال ابن وهب: سمعت **بشر بن الحارث (ت٢٢٧هـ)** يقول: «ولقد جاءني صديق لي وعندي عشرون درهمًا فأعطيته تسعة عشر درهمًا، وبقيت لنفسي درهمًا، ففيهم اليوم من يفعل هذا بصاحبه؟»[3].

ومنهم: أبو الصلت عبد السلام بن صالح الهروي (ت٢٣٦هـ). قال: أخذت من هؤلاء -يعني: الدولة- ألف ألف وثلاث مائة ألف، وضعت منها سبع مائة ألف في أهل الحرمين[4].

ومنهم: محمد بن عبد الله بن نمير.

قال يحيىٰ بن هلال الوراق: جئت إلىٰ محمد بن عبد الله بن نمير (ت٢٤٠هـ) فشكوت إليه فأخرج أربعة دراهم أو خمسة وقال: هذا نصف

---

(١) ترتيب المدارك (٣/ ٢٩٣-٢٩٤)، و«طبقات علماء القيروان» (١/ ٢٥٨).

(٢) الأعلام للزركلي (٤/ ١٠٢).

(٣) الآداب الشرعية (٢/ ٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (١١/ ٤٤٨).

ما أملك، وجئت مرة إلىٰ أبي عبد الله بن حنبل فأخرج إلي أربعة دراهم وقال: هذا جميع ما أملك[(١)].

وفي ترجمة خلاد بن أسلم البغدادي (ت٢٤٩هـ). عن أبي جَعْفَر محمد بن عَبد الرَّحمنِ الصَّيَرفِيّ يَقُولُ: بعث الي الحكم بْن موسىٰ فِي أيام عيد أَنَّهُ يحتاج إِلَىٰ نفقة، ولم يكن عندي إلا ثلاثة آلاف درهم.

فوجهت إليه بها، فلمَّا صارت فِي قبضته، وجه إليه خلاد بْن أسلم أَنَّهُ يحتاج إِلَىٰ نفقة، فوجه بها كلها إليه، واحتجت أنا إِلَىٰ نفقة، فوجهت إِلَىٰ خلاد: أنِّي احتاج إِلَىٰ نفقة، فوجه بها كلها إلي، فلمَّا رأيتها مصرورة فِي خرقتها، وهي الدراهم بعينها، أنكرت ذلك، فبعثت إلىٰ خلاد: حدثني بقصة هذه الدراهم، فأَخْبَرَنِي أن الحكم بْن موسىٰ بعث بها إليه، فوجهت إِلَىٰ الحكم منها بألف ووجهت إِلَىٰ خلاد منها بألف، وأخذت أنا منها ألفًا[(٢)].

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت البخاري (ت٢٥٦هـ) يقول: «خرجت إلىٰ آدم ابن أبي إياس، فتخلفت عني نفقتي، حتىٰ جعلت أتناول الحشيش، ولا أخبر بذلك أحدًا.

فلمَّا كان اليوم الثالث، أتاني آتٍ لم أعرفه، فناولني صرة دنانير، وقال: أنفق علىٰ نفسك»[(٣)].

وقال: كان -يعني البخاري- يتصدق بالكثير، يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث، فيناوله ما بين العشرين إلىٰ الثلاثين، وأقل وأكثر، من غير أن يشعر بذلك أحد.

---

(١) ذكرهم ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٢/ ٤).

(٢) تهذيب الكمال (٨/ ٣٥٢-٢٥٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٨)، و«تاريخ الإسلام» (٦/ ١٤٠)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٢/ ٢٢٧).

وكان لا يفارقُه كيسه[١].

وكان **صالح بن أحمد بن حنبل (ت٢٦٥هـ)** سَخيًّا جدًّا، يطول ذِكرُ سخائه أن يُرسَم في كتاب[٢].

وقال أبو نعيم: عن الحافظ أحمد بن مهدي بن رستم (ت٢٧٢هـ): «كان صاحب أموال، أنفق علىٰ أهل العلم ثلاث مئة ألف درهم»[٣].

وقال محمد بن الفضل عن الحافظ الكبير أبي بكر بن خزيمة (ت٣١١هـ): «كان جدي لا يدخر شيئًا جهده؛ بل ينفقه علىٰ أهل العلم، ولا يعرف الشح، ولا يميز بين العشرة والعشرين»[٤].

قلت: بخصوص عدم تمييزه للدراهم في هذا المقام يقول الشيخ العلامة بكر عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي المتوفىٰ (١٣٩٣هـ) رحمه الله تعالىٰ متقللًا من الدنيا، وقد شاهدته لا يعرف فئاتَ العملة الورقيَّة، وقد شافهني بقوله: «لقد جئتُ من البلاد -شنقيط- ومعي كنز قلَّ أن يوجد عند أحد، وهو (القناعة)، ولو أردتُ المناصب، لعرفتُ الطريق إليها، ولكني لا أوثر الدنيا علىٰ الآخرة، ولا أبذلُ العلمَ لنيل المآرب الدنيوية»[٥].

إنْ زُرتَ ساحتَهُ ترجُو سماحَتَه بلّتكَ راَحتَهُ بالجودِ والديمِ

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٥٠).

(٢) طبقات أصحاب أحمد للخلال (ص١٦٠).

(٣) طبقات علماء الحديث (٢/ ٢٩٧) وينظر: «أخبار أصبهان» (١/ ٨٥)، وفيه: قال محمد بن يحيىٰ بن مَنْدة: «لم يحدثْ ببلدنا منذ أربعينَ سنةً أوثقُ منه، صنَّف (المسند)، ولم يعرف له فراش منذ أربعينَ سنة، صاحب عبادة».

(٤) تذكرة الحفاظ (٢/ ٢٠٨).

(٥) حلية طالب العلم (ص١٤٧).

أخـلاقُـه كـرمٌ وقـولُـه نـعـم ... يقولُها بفم بَحْبَحْتْ فاحِتَكمِ
مـا ضـرّ زائـرَه يـرجـو أنـامـلَـه ... إنْ كاَن ذَا رحمٍ أو غيرَ ذي رحمِ
الـجـودُ غـرّتُـه والـمـجـد غـايـتَـه ... يـقـولُـها بـفـمٍ قـدْ لـجَ فـي نـعـمِ

ومنهم: عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي (ت٣٣٩هـ).

قال الحاكم: «هو الذي أذن ثلاثًا وستين سنة محتسبًا، وحجَّ ثلاث حجج، وغزا اثنتين وعشرين غزوة. وما ترك قيام الليل. وأنفق علىٰ العلماء والزهاد أكثر من مائة ألف»[1].

وقال أبو القاسم علي بن محمد بن علان الواسطي: لما أصاب أبو الحسن الكرخي (ت٣٤٠هـ) الفالج في آخر عمره، حضرته وحضر أصحابه: **أبو بكر الدامغاني، وأبو علي الشاشي، وأبو عبد الله البصري، فقالوا: هذا مرضٌ يحتاج إلىٰ نفقة وعلاج، وهو مقلٌّ ولا نحبُ أن نبذله للنَّاسَ، فيجب أن نكتب إلىٰ سيف الدولة ونطلب منه ما ينفق عليه،** ففعلوا ذلك وأحسن أبو الحسن بما هم فيه، فسأل عن ذلك فأخبر به، فبكىٰ وقال: «اللهم لا تجعل رزقي إلا من حيث عودتني»، فمات قبل أن يحمل سيف الدولة إليه شيئًا، ثمَّ ورد كتاب سيف الدولة ومعه عشرة آلاف درهم، ووعد أن يمد بأمثاله فتصدق به[2].

ومنهم: البخاري الحسن بن يعقوب بن يوسف (ت٣٤٢هـ).

قال الحاكم: هو أبو الفضل العدل، كان هو وأبوه من ذوي اليسار والثروة.

---

(١) تاريخ الإسلام (٢٨٧) (٧/ ٧٢٦)، وانظر: «الرّوض الباسم في تراجم شيوخ الحاكم» (١/ ٦١٨).

(٢) تاريخ بغداد (١٢/ ٧٤).

له خطة[١] ومسجد وبساتين، فأنفق هذه الأموال علىٰ العلماء والصلحاء، وبقي يأوي إلىٰ مسجد[٢].

ومنهم: **دعلج بن أحمد بن دعلج** بن عبد الرحمن أبو محمد السجستاني المعدل (ت٣٥١هـ) سمع الحديث ببلاد خراسان، وبالري، وحلوان، وبغداد، والبصرة، والكوفة، ومكة.

قال الخطيب: وكان من ذوي اليسار والأحوال، وأحد المشهورين بالبر والإفضال، وله صدقات جارية، ووقوف محبَّسة علىٰ أهل الحديث ببغداد، ومكة، وسجستان.

وقال: وبلغني أنَّه بعث بكتابه المسند إلىٰ أبي العباس بن عقدة لينظر فيه، وجعل في الأجزاء بين كل ورقتين دينارًا.

وعن أبي عمر محمد بن العباس بن حيويه، قال: أدخلني دعلج إلىٰ داره، وأراني بدرًا من المال معبأة في منزله، وقال لي: يا أبا عمر، خذ من هذه ما شئت، فشكرت له، وقلت: «أنا في كفاية وغني عنها، فلا حاجة لي فيها»[٣].

---

(١) **(الخطة)**، بالكسر: الأرض التي يختطها الرجل لنفسه، ليعلم أنه قد احتازها ليبنيها دارًا.

(٢) السير (١٥/ ٤٣٣).

(٣) تاريخ بغداد (٩/ ٣٦٦) سمع من جماعة: إسحاق بن الحسن الحربي، وعبد الله بن أحمد بن حنبل، وأحمد بن علي الأبار، وموسىٰ بن هارون الحافظ، ومعاذ بن المثنىٰ العنبري، وأبي مسلم الكجي، وعبيد الله بن موسىٰ الإصطخري.
سُئِل عن سبب مفارقته مكة بعد أن سكنها، فقال: خرجت ليلة من المسجد، فتقدم ثلاثة من الأعراب، فقالوا: أخ لك من أهل خراسان قتل أخانا، فنحن نقتلك به.
فقلت: اتقوا الله فإن خراسان ليس بمدينة واحدة فلم أزل أداريهم إلىٰ أن اجتمع الناس وخلوا عني، فكان هذا سبب انتقالي إلىٰ بغداد.

ويحكىٰ أنَّ رجلًا صلىٰ الجمعة، فرأىٰ رجلًا متنسكًا لم يصل، فكلمه، فقال: استر علي، لدعلج علي خمسة آلاف، فلمَّا رأيته أحدثتُ. فبلغ ذلك دعلجًا، فطلبه إلىٰ منزله، وحلله من المال، ووصله بمثلها لكونه روعه[(١)].

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيىٰ المزكي (ت٣٦٢هـ): أنفقت علىٰ الحديث بدرًا من الدنانير، وقدمت بغداد في سنة ست عشرة لأسمع من ابن صاعد، ومعي خمسون ألف درهم بضاعة، ورجعت إلىٰ نيسابور ومعي أقل من ثلثها أنفقت ما ذهب منها علىٰ أصحاب الحديث[(٢)].

وكان عبد الله بن أَحْمَد بن جعفر أبو حامد الشيباني النيسابوري (ت٣٧٢هـ) له ثروة ظاهرة، فأنفق أكثرها علىٰ العلم وأهل العلم، وفي الحج والجهاد، وغير ذلك من أعمال البر، وكان من أكثر أقرانه سماعًا للحديث[(٣)].

وقال الوهراني: عن أبي بكر الأبهري (ت٣٧٥هـ): وما رأيتُ من الشيوخِ أسخىٰ منه، ولا أشد مؤاساة لطلبة العلم، ومن يرد عليه من الغرباء يعطيهم الدراهم، ويكسوهم، وكان لا يخلي جيبه من كيس فيه مال، فكل من يرد عليه من الفقراء يغرف له غرفة بلا وزن.

ولقد سألته عن سبب عيشه، أولًا؛ فقال: كان رؤساء بغداد، لا يموت أحد منهم إلا وصّىٰ لي من ماله، ولو كنت ممن يريد الجمع، لكان معي فوق الثلاثين ألف مثقال[(٤)]. رحمه الله ورضي عنه، لو كان

---

(١) السير (١٦/ ٣٣).
(٢) تاريخ بغداد (٧/ ١٠٥).
(٣) تاريخ بغداد (١١/ ٣٤).
(٤) ترتيب المدارك (٦/ ١٨٦).

يجمع كان ثريًا؛ ولكن كان ينفق المال في سبيل الله علىٰ طلاب العلم، وخصوصًا الغرباء منهم، فهو أغنىٰ الأغنياء من البشر لما فعل وقدم من الخير والعمل الصالح.

ووُجِد بخطِهِ: «الدين عز، والعلم كنز، والحلم حرز، والتوكل قوة»[(١)].

ومنهم: العلامة، القدوة، الفقيه، عالم أهل المغرب، **ابن أبي زيد أبو محمد عبد الله القيرواني المالكي (ت٣٨٦هـ)**.

قال الإمام الذهبي: وكان مع عظمته في العلم والعمل، ذا بر وإيثار، وإنفاق علىٰ الطلبة وإحسان.

وقيل: إنَّه نفذ إلىٰ القاضي عبد الوهاب بن نصر المالكي ألف دينار، وهذا فيه بعد، فإنَّ عبد الوهاب لم يشتهر إلا بعد زمان أبي محمد.

نعم، قد وصل الفقيه يحيىٰ بن عبد العزيز العمري حين قدم القيروان بمائة وخمسين دينارا، وجهزت بنت الشيخ أبي الحسن القابسي بأربع مائة دينار من مال ابن أبي زيد[(٢)].

ومنهم: **عبد الملك بن محمد بن إبراهيم** بن يعقوب أبو سعد بن أبي عثمان الواعظ النيسابوري (ت٤٠٦هـ).

ذكره ابن عساكر في الواردين إلىٰ دمشق، ثمَّ قال: انصرف إلىٰ وطنه بنيسابور فلزم منزله ومجلسه، وبذل النفس والمال والجاه للمستورين من الغرباء، والفقراء المنقطع بهم، حتىٰ صار الفقراء في مجالسه، كما حدثونا عن إبراهيم بن الحسين، نا عمرو بن عون، نا يحيىٰ بن اليمان قال: (كان الفقراء في مجلس سفيان أمراء).

---

(١) الديباج المذهب (٢/ ٢٠٩).

(٢) السير (١٧/ ١٠-١٣)، وقال الذهبي: قيل: إنَّه صنع (رسالته) المشهورة وله سبع عشرة سنة.

قد وفقه الله لعمارة المساجد، والحياض، والقناطر، والدروب، وكسوة الفقراء، والعراة من الغرباء، والبلدية حتىٰ بنىٰ دارًا للمرضىٰ بعد أن خربت الدور القديمة لهم بنيسابور، ووكل جماعة من أصحابه المستورين بتمريضهم، وحمل مياههم إلىٰ الأطباء، وشراء الأدوية . . .[١].

ومنهم: الحسين بن محمد الطبري أبو عبد الله الكشفلي (ت٤١٤هـ)[٢].

قال الشيخ أبو إسحاق: كان فقيهًا، مجودًا، موصوفًا بجودة النظر.

وقال الخطيب: كان من فقهاء الشافعيين، وكان فهمًا فاضلًا صالحًا متقللًا زاهدًا.

وحكي أنَّ بعض طلبته اشتكىٰ إليه فاقة، وأنَّه تأخرت عنه نفقته التي ترد عليه من أبيه، فأخذ الكشفلي بيده وذهب إلىٰ بعض التجار بقطيعة الربيع فاستقرض له منه خمسين دينارًا.

فقال (التاجر): حتىٰ نأكل شيئًا، فمد السماط فأكلوا.

ثمَّ قال: يا جارية هاتي المال، فأحضرت جاريته شيئًا من المالِ فوزن منه خمسين دينارًا، ودفعها إلىٰ الشيخ.

فلمَّا قاما إذا بوجه الفقيه قد تغير، فقال له الكشفلي: ما لك؟

فقال: يا سيدي قد سكن قلبي حب الجارية!

فرجع به إلىٰ التاجر، فقال: وقد وقعنا في فتنة أخرىٰ!

---

(١) تاريخ دمشق (٣٧/ ٩٠-٩٣).

(٢) و(**كشفل**): بفتح الكاف وضم الفاء بينهما شين معجمة ساكنة وآخرها اللام، من قرىٰ آمل طبرستان.

قال: ما هي؟

قال: إنَّ الفقيه قد هوي الجارية!

فأمر التاجر بأن تخرج، وسلمها إليه، وقال: ربما تكون قد وقع في قلبها منه مثل الذي وقع في قلبه منها![(١)].

ومنهم: ابن ريذة محمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (ت٤٤٠هـ) الشيخ، العالم، الأديب، الرئيس، مسند العصر، أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن إسحاق بن زياد الأصبهاني.

قال يحيىٰ بن مندة: «كان أحد الوجوه، ثقَّة أمينًا، وافر العقل، كامل الفضل، مكرمًا لأهل العلم»[(٢)].

وقال ابن ناصر: حدثتني أمي أنَّ أبي حدثها قال: **دخلت علىٰ الخطيب (ت٤٦٣هـ) في مرضه فقلت له يومًا**: سيدي إنَّ ابن خيرون لم يعطني من الذهب شيئًا الذي أمرته أنْ يفرقه علىٰ أصحاب الحديث؛ فرفع الخطيب رأسه من المخدة، وقال: «خذ هذه بارك الله لك فيها, فكان فيها أربعون دينارًا»[(٣)].

وقال أبو زكريا التبريزي: كنت أقرأ علىٰ الخطيب بحلقته بجامع دمشق كتب الأدب المسموعة له، وكنت أسكن منارة الجامع فصعد إليّ، وقال: أحببت أن أزورك فتحدثنا ساعة ثمَّ أخرج ورقة، وقال: «الهدية مستحبة اشترِ بهذه أقلامًا وقام فإذا خمسة دنانير»؛ ثمَّ صعد نوبة أخرىٰ ووضع نحوًا من ذلك، وكان إذا قرأ الحديث يسمع صوته في آخر الجامع,

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي (٤/ ٢١٢-٢١٣)، وانظر: «النسبة إلىٰ المواضع والبلدان» لابن بامخرمة الحميري (ص٥٥٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٩٥-٤٩٦).

(٣) تذكرة الحفاظ ترجمة (الخطيب البغدادي) (٣/ ٢٢٥-٢٢٦).

كان يقرأ معربًا صحيحًا[(١)].

ذَهَابُ المَالِ في جُهْدٍ وأجْرٍ   ذَهَابٌ لا يُقَالُ لَهُ: ذَهَابُ[(٢)]

ومنهم: عبد السيد بن محمد بن عطاء بن إبراهيم، النسفي، ثمَّ الوسيجي (ت٥١٤هـ)[(٣)]. الملقب بسعد الملك، كان له حشمة وجاه ومنزلة عند الخاقان محمد بن سليمان، وكان يكْرِم أهل العلم، وينزهم بالبِشر بعد البشر[(٤)].

وحكىٰ بعض العلماء أن **أبا بكر الطُّرطُوشي (ت٥٢٠هـ)**، كان يأتي إلىٰ الفقهاء وهم نيام، فيضع في أفواههم الدنانير، فيهبون، فيرونها في أفواههم!![(٥)].

وما أروع ما قاله عبد الله بن محمد بن السِيد البطليوسي (ت٥٢١هـ): كان سبب طلبي للعلم أنَّ والدي كان رجلًا من أهل القرىٰ، وكان له ثروة، فسلّم إليّ مالًا لأدخل به إلىٰ الحاضرة للتجارة، فدخلت إلىٰ [قرطبة] فاتفق أنِّي اجتزت في السوق فوجدت حلقة تباع فيها الكتب، فوقفت عليها، واستحسنت الكتب، وشريت منها بمقدار مائتي دينار للتجارة، فلمَّا خلوت بها جعلت أتفقدها وأقول: هذا جيد لا ينبغي أن يباع، وهذا جيد إلىٰ أن اخترت لنفسي أكثرها، ثمَّ جعلت أطالعها فلا أفهم معانيها، فيضيق صدري. فسألت بعض الطلبة، وقلت له: أي العلوم أنفق؟

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) اللباب في علوم الكتاب (٨/ ٤٧٣).

(٣) بفتح الواو والسين المهملة المكسورة والياء الساكنة آخر الحروف وفي آخرها الجيم، هذه النسبة إلىٰ وسيج، وهو موضع في بلاد الترك.

(٤) الأنساب للسمعاني (١٣/ ٣٤٠).

(٥) السير (١٩/ ٤٩٢).

فقال: النَّاس في الأدب أرغب منهم في غيره.

قلت له: وأيّ الكتب أشهر من كتب الأدب؟

فقال: كتاب العين.

فشرعت فيه علىٰ شيخ هناك. فلم تمض لي شهور حتىٰ حفظته، ثمَّ حفظت كتابا في النَّحو، ولذّ لي العلم، فلم تمض إلا مدة قليلة حتىٰ صرت ممن يشار إليه. فاشتقت إلىٰ أهلي بعد أن أنفقت جميع ما كان معي، فخرجت إليهم واجتمعت بوالدي، فسألني عن الحال، فأخبرته بقصتي، فلم ينكره عليّ بل سرّه، وقال: يا ولدي، هذه نعمة من الله في حقك حيث ألهمك بالعلم. وأمدني بشيءٍ آخر من المال، ورجعت إلىٰ المدينة، وطلبت المشايخ حتىٰ بلغت إلىٰ ما ترون[١].

ومنهم: الشيخ زاهر بن طاهر أبو القاسم بن أبي عبد الرحمن بن أبي بكر الشحامي (ت٥٣٣هـ). سمع منه الكثير بأصبهان، والري، وهمذان، والحجاز، وبغداد. أملىٰ في جامع نيسابور قريبًا من ألف مجلس، وكان صبورًا علىٰ القراءة عليه، وكان يكرم الغرباء الواردين عليه، ويمرضهم، ويداويهم، ويعيرهم الكتب[٢].

أبو عبد الله الشافعي بن عبد الرحمن بن محمد بن ثابت بن أحمد الخرقي الدهان الثابتي (ت٥٤١هـ)، وكان شيخًا صالحًا، له سمت ووقار، من أولاد العلماء، غير أنَّه لم يكن يعرف شيئًا، وكان ينفقُ علىٰ الفقراء والعلماء والصالحينَ من مالهِ الذي يكتسبه[٣].

---

(١) معجم الأدباء (٤/ ١٥٢٧-١٥٢٩).

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٠/ ٧٩-٨٠).

(٣) المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (ص٨٨٤).

ووِصف **الحافظ ابن دقيق العيد** رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٧٠٢هـ) «بأنَّه كان شفوق علىٰ المشتغلين -يعني بالعلم-، كثير البر لهم»[١].

الْـمَـالُ يَـذْهَـبُ حِـلُّـهُ وَحَـرَامُـهُ ... يَـوْمًـا وَتَـبْـقَـىٰ فِـي غَـدٍ آثَـامُـه
لَـيْـسَ الـتَّـقِـيُّ بِـمُـتَّـقٍ لإِلَـهِـه ... حَتَّىٰ يَطِيبَ شَرَابُهُ وَطَعَامُه
وَيَطِيبَ مَا يَحْوِي وَيَكْسِبُ كَفُّهُ ... وَيَكُونَ فِي حُسْنِ الْحَدِيثِ كَلَامُه
نَـطَـقَ الـنَّـبِـيُّ لَـنَـا بِـهِ عَـنْ رَبِّـهِ ... فَعَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَاتُهُ وَسَلَامُه[٢]

وفي ترجمة **الحافظ عبد الغني المقدسي** (ت٦٠٠هـ)، قال بدر بن محمد الجزري: «ما رأيت أحدا أكرم من الحافظ؛ كنت أستدين يعني لأطعم به الفقراء، فبقي لرجل عندي ثمانية وتسعون درهمًا، فلمَّا تهيأ الوفاء، أتيت الرجل، فقلت: كم لك؟

قال: ما لي عندك شيء!

قلت: من أوفاه؟

قال: قد أوفي عنك، فكان وفاه الحافظ، وأمره أن يكتم عليه»[٣].

ومنهم **ابن حمويه** يوسف بن شيخ الشيوخ صدر الدين أبي الحسن محمد بن عمر بن علي بن محمد (ت٦٤٧ه).

قال السبكي: «وكان رئيسًا، عاقلًا، مدبرًا، سمح اليدين بالأموال، محببًا إلىٰ الناس»[٤].

ومنهم الحافظ المفيد عبيد بن محمد ابن عباس، تقي الدين أبو القاسم الإسعردي (ت٦٩٢ه).

---

(١) الوافي بالوفيات (٤/ ١٩٤).
(٢) طبقات الحنابلة (١/ ٤٠٥-٤٠٦)، والشعر للإمام ابن معين رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٣) السير (٢١/ ٤٥٧).
(٤) طبقات الشافعية (٨/ ٣٦٣).

قال اليعمري: كان ذا عيالٍ وتعففٍ وإقلالٍ، ويتكسب بالشهادة والوِراقة، ولا يلقىٰ من الفاقة إفاقة، أتىٰ عليه عيدٌ وهو معدم، **فأتاه شيخنا ابن دقيق العيد بدراهم ملء يده، فقال: هذه كانت لك عليَّ**[1].

ومنهم: محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري (ت٧٧٨هـ)، المعروف بناظر الجيش: عالم بالعربية، من تلاميذ أبي حيان، أصله من حلب، ومولده ووفاته بالقاهرة. ترقي إلىٰ أن ولي نظر الجيش بالديار المصرية، وفاق غيره في المروءة، ومساعدة من يقصده؛ ولا سيَّما طلبة العلم[2].

ومنهم: محمد بن محمد القاياتي المصري الشافعي (ت٨٠٨هـ)، أوصىٰ بثياب بدنه لطلبة العلم، ففرقت فيهم[3].

ومنهم: الشيخ العالم محمد بن محمد بن محمد الحموي المعروف بابن البارزي (٨٥٦هـ)، قال السخاوي واصفًا إيَّاه بأنَّه: [صاحب] إحسان إلىٰ الطلبة ومحبتهم، وضمهم إليه، بحيث يجري علىٰ كثير منهم المرتبات الشهرية والسنوية، ولما ارتفع سعر الغلال في بعض السنين حسَّن له بعض جماعته أن يصرف للمرتب لهم في البر دراهم، فقبحه وقال: نعطيهم البر في حال كونه ترابًا، ثمَّ نعطيهم التراب في حال كونه ذهبًا أو نحو هذا[4].

وذكر الحافظ السخاوي (ت٩٠٢هـ) في ترجمة ابن حجر (ت٨٥٢هـ)، وتعامله مع طلابه الغرباء القادمين إليه، فقال: وأخصُّ منه إحسانه للغرباء من الطلبة الوافدين إليه، وقد كانوا عنده علىٰ مراتب؛ منهم منْ يتفقَّده كلَّ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦٣٩٧)، ط: دار الكتب العلمية، ولم أجد ذلك في طبعة الرسالة، والله أعلم.

(٢) الأعلام للزركلي (٧/ ١٥٣).

(٣) الضوء اللامع (٩/ ٢٠١).

(٤) الضوء اللامع (٩/ ٢٣٦-٢٣٨).

قليل، ومنهم منْ يقررُ له شيئًا ينفقُه كل يوم، ومنهم مِنْ يتفقده عند قدُومه وعند سفره، ومنهم مَنْ يعلمُ عدمَ حاجتهِ، لكنه يحبُّ إكرامه، فيهدي إليه إما شيئًا من تصانيفه أو ثيابًا مِن ملبوسه، وهذا يكون عند المهديِّ إليه أعظمَ مِن مفروحٍ به، إلىٰ غير ذلك من الأقسام[(١)].

ومنهم: الشيخ العلامة علاء الدين الكردي الشرابي الشافعي (ت٩٠٥هـ). قطن حلب، وأخذ بها عن الحافظ أبي ذر المصابيح وغيره، وأجاز له وكان عالمًا عاملًا ينفق علىٰ طلبة العلم من ماله، ولم يتزوج قط، وكان يختار من المأكل ما لا تميل إليه نفسه، ويؤثر غيره بالطيبات[(٢)].

وذكر الشيخ ابن عثيمين رحمه الله عن شيخه **ابن سعدي** رحمه الله: أنَّ الشيخ كان متواضعًا للطلبة، يمازحهم ويهدي إليهم أشياء ليست بذات قيمة جلبًا لقلوبهم، وكان أيضًا ربما يجعل الجعل علىٰ حفظ متن من المتون، كما جعل علىٰ حفظ بلوغ المرام (١٠٠ ريال)، وهي في ذلك الوقت تساوي (١٠٠ألف) تقريبًا في الوقت الحالي[(٣)].

وفي ترجمة الشيخ أبي بكر الجزائري المدني (ت١٤٣٩هـ): ومن توفيق الله للشيخ: أنْ جعل لحديثه في شؤون الدعوة قَبولًا في الأسماع والقلوب، فما إن يفتتح الكلام حتىٰ ينجذب إليه الانتباه، وتتفاعل معه النفوس. ومَرَدُّ ذلك إلىٰ انفعاله هو بما يدعو إليه؛ تصديقًا للحكمة القائلة (ما خرج من الجَنان فمقرُّه الجَنان، وما خرج من اللسان فلا يتجاوز الآذان)، وما أراني مبالغًا إذا قررتُ أن الشيخ أبا بكر من أوفر المدرسين

---

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٣/ ١٠١٢).
(٢) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (٥٢٩) (١/ ٢٦١-٢٦٢).
(٣) كتاب لذة العلم عبد الرحمن السعدي واحدٌ من هؤلاء (ص٣٣).

الإسلاميين نجاحًا في دروسه، لا لأنه فوق غيره علمًا وخبرة، بل لأثره في قلوب طلابه، وحسن تأتّيه في معاملتهم، فهو شيخهم في أداء المحاضرة، ولكنه أبوهم وأخوهم وأكثر أصدقائهم اهتمامًا بشؤونهم، فلا غرابة أن يبادلوه ودًّا بود واحترامًا باحترام. وهذا الضرب من العلائق الرُّوحية بين الأستاذ وتلميذه هو الذي نفتقده وندعو إليه، ونلاقي العنت ممن يخالفنا فيه؛ لأنه لا يرىٰ للمدرس من مهنة تتجاوز حدود الدرس، فإذا فرغ منه فرغ من كل اتصال بطلابه![(١)].

ولنختم الباب بقول ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن يتواضع مع الطالب، وكلِّ مسترشدٍ سائلٍ، إذا قام بما يجبُ عليه من حقوق الله تعالىٰ وحقوقه، ويخفضَ له جناحهُ، ويلين له جانبه، قال الله تعالىٰ لنبيه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٢١٥]، وصحَّ عن النبي ﷺ «**أنَّ الله تعالىٰ أوحىٰ إليَّ أن تواضعوا**»، «**وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»، وهذا لمطلقِ النَّاسِ، فكيف بمن له حقُّ الصحبة وحرمة التَّرددِ، وصدق التودد، وشرف الطلب؟ وفي الحديث: «**لينوا لمن تعلِّمون ولمن تتعلَّمون منه**»، وعن الفضيل: «من تواضع لله ورَّثه اللهُ الحكمة».

وينبغي أن يخاطب كلًا منهم -لاسيَّما الفاضل المتميز- بكنية ونحوها من أحب الأسماء إليه وما فيه تعظيم له وتوقير، فعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «كان رسول الله ﷺ يكني أصحابه إكرامًا لهم».

وكذلك ينبغي أن يترحَّب بالطلبة إذا لقيهم، وعند إقبالهم عليه، ويكرمهم إذا جلسوا إليه، ويؤنسهم بسؤاله عن أحوالهم، وأحوال من يتعلق بهم، بعد ردِّ سلامهم.

---

(١) علماء ومفكرون عرفتهم لـ محمد المجذوب (١/ ٣٧).

وليعاملهم بطلاقة الوجه، وظهور البشر، وحسن المودَّة، وإعلام المحبة، وإضمار الشفقة؛ لأنَّ ذلك أشرح لصدره، وأطلق لوجهه، وأبسط لسؤاله، ويزيد في ذلك لمن يرجىٰ فلاحه، ويظهر صلاحه.

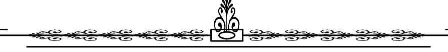
وبالجملة: فهم وصية رسول الله ﷺ فيما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، عنه ﷺ قال: «**إنَّ النَّاس لكم تبع، وإنَّ رجالًا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا**». وكان البويطي[(١)] يدني القُرَّاء ويقربهم إذا طلبوا العلم ويعرفهم فضل الشافعي رضي الله عنه وفضل كتبه ويقول: كان الشافعي يأمر بذلك ويقول: «اصبر للغرباء وغيرهم من التلاميذ».

وقيل: كان أبو حنيفة أكرم الناس مجالسة وأشدهم إكرامًا لأصحابه[(٢)].



(١) يوسف بن يحيىٰ صاحب الإمام الشافعي وتلميذه، تخرج به، وفاق الأقران، كان زاهدًا ربانيًا، متهجدًا كثير الذكر. (طبقات الشافعية) للسبكي (٢/ ١٦٢).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (ص٨٢-٨٤).





[الفصل الثالث:

عناية أهل العلم بعضهم ببعض
الإمام الليث بن سعد (ت١٧٥هـ) أنموذجًا]

هو الإمام، الحافظ، شيخ الإسلام، وعالم الديار المصرية، أبو الحارث الفهمي، مولىٰ خالد بن ثابت بن ظاعن(١).

ولد بقرقشندة، وهي قرية من أسفل أرض مصر. وسمع علماء المصريين والحجازيين.

وروىٰ عن: عطاء بن أبي رباح، وابن أبي مليكة، وابن شهاب الزهري، وسعيد المقبري، وأبي الزبير المكي، ونافع مولىٰ ابن عمر، وعمرو بن الحارث، ويزيد بن أبي حبيب، وعقيل بن خالد، ويونس بن يزيد، وعبد الرحمن بن خالد الفهمي، وسعيد بن أبي هلال.

حدَّث عنه: هشيم بن بشير، وعطاف بن خالد، وعبد الله بن المبارك، وعبد الله بن وهب، وأبو عبد الرحمن المقرئ، وعبد الله بن

---

(١) ولله در الحسن إذ قال: «الحياء والتكرم خصلتان من خصال الخير، لم تكونا في عبد إلا رفعه الله بهما» كما في «الكرم والجود» للبرجلاني (ت٢٣٨هـ) رقم (٣٣).
وعن عبد الله بن عباس وعلي بن الحسين رضي الله عنهم قالا: «سادة النَّاسِ في الدنيا الأسخياء، وسادةُ النَّاسِ في الاخرة الأتقياء» كما في «الجواهر المجموعة والنوادر المسموعة» للسخاوي (ت٩٠٢هـ) رقم (٧٧).
وعن العتبي؛ قال: كان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من كانت فيه سِتُّ خصالٍ: «السَّخاءُ، والنَّجدةُ، والصَّبرُ، والحلمُ، والبيانُ، والموضعُ، وصار الإسلامُ بالعفافِ له سبعًا». كما في «المجالسة وجواهر العلم» للدينوري (ت٣٣٣هـ) (١٧٠٦).

عبد الحكم، وسعيد بن أبي مريم، ويحيىٰ بن بكير، وعبد الله بن صالح الجهني، وعمرو بن خالد، وعبد الله بن يوسف التنيسي.

قال ابن وهب: «كل ما كان في كتب مالك: وأخبرني من أرضىٰ من أهل العلم، فهو الليث بن سعد»(١).

أعطىٰ الإمام الكبير الليث بن سعد ابن لهيعة ألف دينار، وأعطىٰ مالكًا ألف دينار، وأعطىٰ منصور بن عمار الواعظ ألف دينار، وجارية تسوىٰ ثلاث مائة دينار(٢).

وعن حرملة بن يحيىٰ يقول: سمعت ابن وهب يقول: «كان الليث بن سعد يصل مالك بن أنس بمائة دينار في كل سنة»، وكتب مالك إليه: «أنَّ علي دين، فبعث إليه بخمس مائة دينار»(٣).

وقال: سمعت ابن وهب يقول: كتب مالك إلىٰ الليث: إنِّي أريد أن أدخل ابنتي علىٰ زوجها، فأحب أن تبعث إليَّ بشيءٍ من عصفر.

وقال ابن وهب: «فبعث إليه الليث بثلاثين حملًا عصفرًا، فصبغ منه لابنته، وباع منه بخمس مائة دينار، وبقي عنده فضلة»(٤).

وعن عبد الملك بن يحيىٰ بن بكير، قال: سمعت أبي، يقول: وصل الليث بن سعد ثلاثة أنفس بثلاثة آلاف دينار، احترقت دار ابن لهيعة، فبعث إليه بألف دينار.

وحج فأهدىٰ إليه مالك بن أنس رطبًا علىٰ طبق فرد إليه علىٰ الطبق ألف دينار.

---

(١) تاريخ بغداد (١٤/ ٥٢٤).
(٢) السير (٨/ ١٤٨-١٤٩).
(٣) تاريخ دمشق (٥٠/ ٣٧١).
(٤) تاريخ بغداد (١٤/ ٥٢٤).

ووصل منصور بن عمار القاضي بألف دينار، وقال: «لا تسمع بهذا ابني فتهون عليه»، فبلغ ذلك شعيب بن الليث، فوصله بألف دينار إلا دينارًا، وقال: إنَّما نقصتك هذا الدينار لئلا أساوي الشيخ في عطيته[1].

قال منصور بن عمار: كان الليث بن سعد، إذا تكلم بمصر أحد قفاه، فتكلمت في مسجد الجامع يومًا، فإذا رجلان قد دخلا من باب المسجد، فوقفا علىٰ الحلقة، فقالا: منْ المتكلم؟ فأشاروا إليَّ فقالا: أجب أبا الحارث الليث، فقمت وأنا أقول: واسوأتاه ألقىٰ من مرلد هكذا؟ فلما دخلت علىٰ الليث سلمت، فقال لي: أنت المتكلم في المسجد؟

قلت: نعم رحمك الله.

فقال لي: اجلس ورد عليَّ الكلام الذي تكلمت به، فأخذت في ذلك المجلس بعينه، فرق الشيخ وبكىٰ، وسري عني، وأخذت في صفةِ الجنَّةِ والنَّارِ، فبكىٰ الشيخ حتىٰ رحمته، ثمَّ قال لي بيده: اسكت، فقال لي: ما اسمك؟

قلت: منصور.

قال: ابن من؟

قلت: ابن عمار.

قال: أنت أبو السري؟

قلت: نعم.

قال: الحمد لله الذي لم يمتني حتىٰ رأيتك، ثمَّ قال: يا جارية، فجاءت فوقفت بين يديه، فقال لها: جيئيني بكيس كذا وكذا، فجاءت بكيس فيه ألف دينار، فقال: يا أبا السري، خذ هذا إليك، وصن هذا

(١) حلية الأولياء (٧/ ٣٢٢).

الكلام أن تقف به علىٰ أبواب السلاطين، ولا تمدحنَّ أحدًا من المخلوقين بعد مدحتك لرب العالمين، ولك في كلِّ سنةٍ مثلها[(١)].

وعن منصور بن عمار يقول: لما مرض ابن لهيعة مرضه الذي مات فيه، دخل عليه الليث بن سعد، فقال له: ما تشتكي؟

قال: الدين.

قال: كم دينك؟

قال: ألف دينار، فأتىٰ فأعطاه إياه.

وقال: ولي القضاء ثلاثين سنة لم يستحل أن يغرس ريحانة يشمها[(٢)].

وعن أسد بن موسىٰ، يقول: «كان عبد الله بن علي يطلب بني أمية، فيقتلهم، فلمَّا دخلت مصر دخلتها في هيئة رثة، فدخلت علىٰ الليث بن سعد، فلما فرغت من مجلسه خرجت، فتبعني خادم له في دهليزه، فقال: اجلس حتىٰ أخرج إليك، فجلست، فلما خرج إلي وأنا وحدي دفع إلي صرة فيها مائة دينار، فقال: يقول لك مولاي: أصلح بهذه النفقة بعض أمرك، ولم من شعثك، وكان في حوزتي هميان فيه ألف دينار، فأخرجت الهميان فقلت: أنا عنها في غنىٰ، استأذن لي علىٰ الشيخ، فاستأذن لي، فدخلت فأخبرته بنسبي، واعتذرت إليه من ردها وأخبرته بما مضىٰ، فقال: هذه صلة وليست بصدقة.

فقلت: أكره أن أعود نفسي عادة وأنا في غنىٰ.

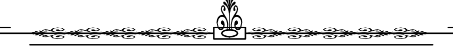
فقال: ادفعها إلىٰ بعض أصحاب الحديث ممَّن تراه مستحقًا لها، فلم يزل بيَّ حتىٰ أخذتها ففرقتها علىٰ جماعة»[(٣)].

---

(١) حلية الأولياء (٧/ ٣٢٠).

(٢) تاريخ دمشق (٥٠/ ٣٧٤).

(٣) حلية الأولياء (٧/ ٣٢١)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٥٨).





[الفصل الرابع

إكرام أهل العلم بعضهم بصنع الطعام لبعض]

وروي عن علي ﵁ قال: «لأن أجمع أناسًا من إخواني علىٰ صاع من طعام، أحب إليَّ من أن أدخل سوقكم هذا فأبتاع نسمة فأعتقها».

وعن أبي بن علي قال: «لأن أدعو عشرة من أصحابي فأطعمهم طعامًا يشتهونه، أحبُّ إليَّ من أن أعتق عشرة من ولد إسماعيل»[(١)].

وكان **الليث** يطعم النَّاس في الشتاء الهرائس بعسل النحل وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز بالسكر[(٢)].

وَمـا الـمَـرء إلا بِـإخـوانِـهِ ... كَما يَقبض الكَفُّ بِالمعصمِ
وَلا خَير في الكَفِّ مَقطوعَةً ... وَلا خَيرَ في السَّاعِد الأَجذَمِ

قال الأعمش: ورِث **خيثمة بن عبد الرحمن** (ت٨٢هـ) مائتي ألف درهم، فأنفقها علىٰ القراء والفقهاء، وكان يضع الخبيص والطعام، ثمَّ يدعو إبراهيم النخعي ويدعونا معه، ويقول: «كلوا ما أشتهيه، ما أصنع إلا من أجلكم»[(٣)].

وقال نعيم بن حماد: قدم ابن المبارك أيلة علىٰ **يونس بن يزيد (ت١٥٩هـ)**، ومعه غلام مفرغ لعمل الفالوذج، يتخذه للمحدثين[(٤)].

---

(١) شرح حديث اختصام الملأ الأعلىٰ (٤/ ٤١).
(٢) تهذيب الكمال (٢٤/ ٢٧٥-٢٧٦).
(٣) سير السلف الصالحين (ص٧٤٧).
(٤) سير أعلام النبلاء (٨/ ٤١٠).

وقال عبد الرحمن بن الحكم بن بشير بن سلمان، عن أبيه: «كنَّا ندخل علىٰ عبيد الله بن الوليد الوصافي (١٤١-١٥٠هـ) فلا يدعنَّا حتىٰ نأكل ويقسم علينا، وربما سأله إنسان عن حديث فيقول: إن أكلت وإلا لم أحدثك»[(١)].

وعن يحيىٰ بن أيوب، عن أبي عيسىٰ قال: كان **إبراهيم ابن أدهم** (ت١٦٢هـ) كريم النفس، يخالط الناس بأخلاقهم ويأكل معهم، قال: فربما اتخذ لهم الشواء والجواذيات والخبيص، وربما خلا وأصحابه الذين يأنس بهم فيتصارعون، قال: وكان يعمل عمل رجلين وكان إذا صار الىٰ نفسه أكل عجينًا[(٢)].

وقال محمد بن العباس الثقفي، عن محمد بن عبد الوهاب: كان **الحسين بن الوليد** (ت٢٠٢هـ) يطعم أصحاب الحديث الفالوذج، وكان يجري عليهم، وكان سخيًا.

وقال أبو عمرو المستملي، عن محمد بن عبد الوهاب: كان الحسين بن الوليد لا يحدث أحدًا حتىٰ يأكل من فالوذجه[(٣)].

وعن يحيىٰ بن صالح الوحاظي (ت٢٢٢هـ): «ما رأيت رجلًا أكبر نفسًا من إسماعيل بن عياش، كنَّا إذا أتيناه إلىٰ مزرعته لا يرضىٰ لنا إلا بالخروف والخبيص»[(٤)].

---

(١) تهذيب الكمال (١٧/ ١٧٥)، و«تاريخ الإسلام» (٣/ ٩٣٤).

(٢) روضة العقلاء (ص١٢٤-١٢٥) ط: القاسم. وفي «غذاء الألباب» (٢/ ٤٧٧) وقيل لابن السماك: أي الإخوان أحق بإبقاء المودة؟ قال: الوافر دينه، الوافي عقله، الذي لا يملك علىٰ القرب، ولا ينساك علىٰ البعد، إن دنوت منه داناك. وإن بعدت عنه راعاك، وإن استعضدته عضدك، وإن احتجت إليه رفدك، وتكفي مودة فعله، أكثر من مودة قوله.

(٣) ذكرهما في تهذيب الكمال (٦/ ٤٩٨).

(٤) تهذيب الكمال (٣/ ١٧٠).

وفي ترجمة (**أبي مسلم الكجي البصري**) (ت**٢٩٢هـ**)، قال فاروق الخطابي: «لما فرغنا من سماع السنن منه عمل لنا مأدبةً أنفقَ فيها ألف دينار»[(١)].

وكان **محمد بن علي** يدعو نفرًا من إخوانه كل جمعة فيطعمهم الطعام الطيب، ويطيبهم، ويجمرهم، ويروحون إلىٰ المسجد من منزله[(٢)].

وفي ترجمة (**هبة الله بن علي الأسنائي**) (ت٧٢١هـ) قال الأدفوي عنه: «بنىٰ مدرسة بأسنا، ووقف عليها بساتينه، وكان يدرِّس بها، ويعمل للطبة في كثير من الأوقات طعامًا طيبًا عامًا، فإذا اتفق غيبة بعضهم، يقول: «يا فلان فاتتك اليوم الفوائد والموائد، وينشده:

أرض لمن غاب عنك غيبته فذاك ذنبٌ عقابه فيك»[(٣)]

وكان الشيخ محمد بن عبد الله بن المجد إبراهيم (ت٧٣٧هـ) **وكان فقيهًا شافعي المذهب.**

وكان يطعم الناس الذين يردون عليه، ويأتي لكل واحد بما في خاطره ويقدمه بين يديه، اشتهر هذا الأمر عنه وذاع، وامتلأت به النواحي والبقاع.

وتحيل السلطان الملك الناصر محمد وجهز له مع الأمير سيف الدين بكتمر الساقي جملة من الذهب، فغالطه في قبولها ودسها معه في مأكول جهزه معه إلىٰ السلطان. وحج في هيئة كبيرة وتلامذة.

وكان قد عظم شأنه، ويكتب الأوراق إلىٰ دوادار السلطان، وإلىٰ

---

(١) تذكرة الحفاظ (**٢/ ١٤٦**)، و«طبقات علماء الحديث» (**٢/ ٣٢٣**).

(٢) المتحابين في الله (ص**٧٩**).

(٣) الطالع السعيد (ص**٧٠٠**)، والبيت ذكره العز بن عبد السلام في «قواعد الأحكام» (**٢/ ٣٥٤**) ط: مؤسسة الريان.

كاتب السر، وإلىٰ من يتحدث في الدولة بقضاء أشغال الناس بعبارة ملخصة موجزة علىٰ يد من يتقاضاه ذلك.

ولم يزل علىٰ حاله إلىٰ أن راح إلىٰ خالقه علىٰ سداد، وسكن لحده إلىٰ يوم المعاد[١].



(١) أعيان العصر وأعوان النصر (٤/ ٥٣٢-٥٣٦).




[الباب الثالث]

[الفصل الأول:
من امتنع من العلماء في الدخول على الأمراء]

اختلف أهل العلم في الدخول علىٰ الأمراء والسلاطين، فذهب قوم إلىٰ الدخول عليهم، وبذل النصح لهم، والشفاعة لمن هو بحاجة لها.

وذهب بعضهم إلىٰ عدم الدخول علىٰ السلاطين[1]، أو القرب منهم، خوفًا من أن يفتوا لصالحهم، أو يوافقوهم علىٰ خطأهم[2]، وغير ذلك من مضار تدخل عليهم بسبب الدخول عليهم، فضلًا عن الامتثال لظاهرِ نصوص السنة، وهذا يصدق في حق أمير ظالم متسلط، ممَّن ينشر البدعة ويحارب للسنة، وينصر هواه، ويوالي الكفار وينصرهم، ويعادي أهل الإسلام ويخذلهم.

ومن الأسباب في النهي للدخول عليهم، ما قاله ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»: فالدخول علىٰ السلاطين خطر عظيم؛ **لأنَّ النَّية قد تحسن في أول الدخول.**

---

(١) قَال ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٣/ ٤٧٦): «وكان هذا رأي جماعة من السلف، وكلامه في ذلك مشهور منهم سويد بن غفلة وطاووس والنخعي وأبو حازم الأعرج والثوري والفضيل بن عياض وابن المبارك وداود الطائي وعبد الله بن إدريس وبشر بن الحارث الحافي وغيرهم».

(٢) قال التاج السبكي «طبقات الشافعية» (٢/ ٥٩): «إنما يُتلِف السلاطينَ فسقةُ الفقهاء، يترامىٰ علىٰ السلاطين، ثم يجري معهم علىٰ هواهم، ويُهوِّن عليهم العظائمَ».

ثمَّ تتغير بإكرامهم، وإنعامهم.

أو بالطمع فيهم.

ولا يتماسك عن مداهنتهم.

وترك الانكار عليهم.

وقد كان سفيان الثوري رضي الله عنه يقول: «ما أخاف من إهانتهم لي، إنَّما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم»، وقد كان علماء السلف يبعدون عن الأمراء لما يظهر من جورهم[١].

وقال الثوري أيضًا: «إنِّي لألقىٰ الرجل أبغضه، فيقول لي: كيف أصبحت؟ فيلين له قلبي، فكيف بمن أكل ثريدهم، ووطئ بساطهم»[٢].

وقيل للأعمش: يا أبا محمد، لقد أحييت العلم بكثرة من يأخذه عنك فقال: «لا تعجبوا؛ فإنَّ ثلثًا منهم يموتون قبل أن يدركوا، وثلثًا يكرمون السلطان فهم شر من الموتىٰ، ومن الثلث الثالث قليل من يفلح»[٣].

وقال سلمة بن دينار أبو حازم: «إنَّ خير الأمراء من أحب العلماء وإنَّ شر العلماء من أحب الأمراء، وأنَّه كان فيما مضىٰ إذا بعث الأمراء إلىٰ العلماء لم يأتوهم، وإذا أعطوهم لم يقبلوا منهم، وإذا سألوهم لم يرخصوا لهم، وكان الأمراء يأتون العلماء في بيوتهم فيسألونهم، فكان في

---

(١) تلبيس إبليس (ص١٤٨-١٤٩).

(٢) أخبار الشيوخ (٢١١) (ص١٣٧)، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٥١).

(٣) جامع بيان العلم (١١١٥).

ذلك صلاح للأمراء وصلاح للعلماء، فلمَّا رأىٰ ذلك ناس من النَّاس قالوا: ما لنا لا نطلب العلم حتىٰ نكون مثل هؤلاء؟ فطلبوا العلم فأتوا الأمراء فحدثوهم، فرخصوا لهم، وأعطوهم فقبلوا منهم، فجرؤت الأمراء علىٰ العلماء وجرؤت العلماء علىٰ الأمراء»(١).

وقال الحافظ ابن رجب في «ذم المال والجاه»: «ومن أعظم ما يخشىٰ علىٰ من يدخل علىٰ الملوك الظلمة أن يصدقهم بكذبهم، ويعينهم علىٰ ظلمهم ولو بالسكوت عن الإنكار عليهم، فإنَّ من يريد بدخوله عليهم الشرف والرياسة -وهو حريص عليهم- لا يقدم علىٰ الإنكار عليهم؛ بل ربما حسن لهم بعض أفعالهم القبيحة تقربًا إليهم ليحسن موقعه عندهم، ويساعدوه علىٰ غرضه»(٢).

وأدلة النَّهيِ في ذلك كثيرة، منها: ما رواه «أصحاب السنن»، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتىٰ أبواب السلاطين افتتن**»(٣).

---

(١) حلية الأولياء (٣/ ٢٤٤).

(٢) المطبوعة ضمن مجموع رسائله باسم «شرح ما ذئبان جائعان» (٥/ ٦٣) ت: النجار.

(٣) رواه أبو داود في «سننه» (٢٥٨٩)، والترمذي (٢٢٥٦)، والنسائي (٤٣٠٩)، وأحمد في «مسنده» (٣٣٦٢) كلاهم من رواية ابن عباس رضي الله عنه، وهو بالتمام: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتىٰ السلطان افتتن» وسنده ضعيف، وهو حسن بشواهده علىٰ قاعدة من يحسن بمثل هذا. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب من حديث ابن عباس، لا نعرفه إلا من حديث الثوري».
وهو عند أحمد في «مسنده» (١٨٦١٩)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (١٦٥٤) عن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من بدا جفا**».
وقال ابن الملقن في «التوضيح شرح الجامع الصحيح» (٢٦/ ٣١٨) «أخرجه الترمذي، وقال: (حسن غريب). وأعلَّه الكرابيسي بأبي موسىٰ أحد رواته، وقال: حديثه ليس بالقائم. وروي أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد ضعيف».

وذاك أنَّ السلاطين قلَّما يرضون عمن يصارحهم القول، ويؤثرهم بالنصح، ولا يزداد قربًا منهم إلا المراؤون الذين يعينونهم علىٰ الظلم ويثنون عليهم بالباطل.

وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**سيكون بعدي أمراء؛ فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم علىٰ ظلمهم فليس مني، ولست منه، وليس بوارد علي الحوض، ومن لم يدخل عليهم، ولم يعنهم علىٰ ظلمهم، ولم يصدقهم بكذبهم؛ فهو مني وأنا منه، وهو وارد عليَّ الحوض**»(١).

وأخرج ابن ماجه من حديث ابن عباس رضي الله عنه وعن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ أناسًا من أمتي سيتفقهون في الدين، ويقرؤون القرآن ويقولون: نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك كما لا يجتنىٰ من القتاد إلا الشوك، كذلك لا يجتنىٰ من قربهم إلا الخطايا**»(٢).

وعند الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**تعوذوا بالله من جب الحزن**. قالوا: يا رسول الله: وما جب الحزن؟

قال: **وادٍ في جهنَّم تتعوذ منه جهنَّم كلَّ يوم مائة مرة**.

قيل: يا رسول الله ومن يدخله؟

قال: **القراؤون المراؤون بأعمالهم**».

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٥٣)، والترمذي في «سننه» (٢٢٥٩).

(٢) سنن ابن ماجه (٢٥٥)، إسناده ضعيف لجهالة عبيد الله بن المغيرة بن أبي بردة، فقد تفرد بالرواية عنه يحيىٰ بن عبد الرحمن الكندي، ولم يوثقه أحد، وقال الذهبي: مجهول. والطبراني في «الأوسط» (٨٢٣٦)، والمزي في «تهذيب الكمال» (١٩/ ١٦١).

وخرج ابن ماجه نحوه، وزاد فيه: «وإنَّ من أبغض القراء إلىٰ الله الذين يزورون الأمراء الجورة»(١).

وعن خلف بن حوشب قال: **قال عيسىٰ ابن مريم للحواريين**: «كما ترك لكم الملوك الحكمة، فكذلك فدعوا لهم الدنيا»(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «من أراد أنْ يكرم دينه، فلا يدخل علىٰ السلطان، ولا يخلونَّ بالنسوان، ولا يخاصمنَّ أصحاب الأهواء»(٣).

وعن عمارة بن عبد قال: **قال حذيفة** رضي الله عنه: «اتقوا أبواب الأمراء فإنهَّا مواقف الفتن، ألا إنَّ الفتنة تشتبه مقبلة وتبين مدبرة»(٤).

وقال: إيَّاكم ومواقف الفتن. قيل: وما هي؟ قال: «أبواب الأمراء، يدخل أحدكم علىٰ الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه»(٥).

وقال: «من اقتراب الساعة أن تكون أمراء فجرة، وقراء كذبة، وأمناء خونة، وعلماء فسقة، وعرفاء ظلمة»(٦).

قُلْ لِلْأَمِيرِ مَقَالَةً ... لَا تَرْكَنَنَّ إِلَىٰ فَقِيهِ
إِنَّ الْفَقِيهَ إِذَا أَتَىٰ ... أَبْوَابَكُمْ لَا خَيْرَ فِيهِ(٧)

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٥٦) وإسناده ضعيف لضعف عمار بن سيف الضبي وجهالة أبي معاذ، ويقال: أبو معان.

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٢٨٤)، وأحمد في «الزهد» (٩٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٧٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ٤٢٢)، بسندهم إلىٰ ابن المبارك.

(٣) رواه الدارمي في «سننه» (١/ ٣٤١)، وابن الوضاح في «البدع» (١٢٥).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (١٥٦٨).

(٥) جامع معمر بن راشد (١٢٥٢)، و«المصنف» لعبد الرزاق (٢٠٦٤٣).

(٦) ذكره الطرطوشي في «سراج الملوك» (ص٤١) بدون سند.

(٧) ما رواه الأساطين (ص٦٩).

قلت: ومثل هذا يروىٰ عن شهر بن حوشب -إنْ صح ذلك عنه-؛ فإنَّه كان علىٰ بيت المال، فأخذ خريطة فيها دراهم، فقيل فيه:

لَقَدْ بَاعَ شَهْرٌ دِيْنَهُ بِخَرِيْطَةٍ ... فَمَنْ يَأْمَنُ القُرَّاءَ بَعْدَكَ يَا شَهْرُ؟

أَخَذْتَ بِهَا شَيْئًا طَفِيْفًا وَبِعْتَهُ ... مِنِ ابْنِ جَرِيْرٍ، إِنَّ هَذَا هُوَ الغَدْرُ[1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «ليس شيء أضر بهذه الأمةِ من ثلاث: حب الدينار والدرهم، وحب الرياسة، وإتيان باب السلطان، وقد جعل الله منهنَّ مخرجًا»[2].

وعن عبيد بن عمير الليثي، قال: «يخرج الدجال فيتبعه ناس، يقولون: نحن نشهد أنَّه كافر، وإنَّما نتبعه لنأكلَ من طعامِهِ، ونرعىٰ من الشَّجر، فإذا نزل غضَبُ الله نزل عليهم جميعًا»[3].

وعن **يونس بن عبيد**، قال: «ثلاثة احفظوهنَّ عنِّي: لا يدخل أحدكم علىٰ سلطان يقرأ عليه القرآن، ولا يخلونَّ أحدكم مع امرأة شابة يقرأ عليها القرآن، ولا يمكن أحدكم سمعه من أصحابِ الأهواء»[4].

وعن إبراهيم النخعي قال: «كانوا يكرهون مجالسة أبناء الملوك، وقال: مجالستهم فتنة، وإنَّما هم بمنزلة النساء»[5].

---

(١) السير (٤/ ٣٧٥)، وقد أوردهما الطبري في «تاريخه» (٦/ ٥٣٨-٥٣٩)، من طريق آخر، وعزا البيتين للقطامي الكلبي، ويقال: لسنان بن مكمل النمري. وعلق الذهبي قائلًا: «إسنادها منقطع، ولعلها وقعت وتاب منها، أو أخذها متأولًا أنَّ له في بيت مال المسلمين حقًا -نسأل الله الصفح».

(٢) تنبيه الغافلين (ص٥٢٥).

(٣) الفتن لنعيم بن حماد (١٥٢٩).

(٤) حلية الأولياء (٣/ ٢١).

(٥) اعتلال القلوب للخرائطي (٢٥١) (١/ ٢٧٠).

و**قال محمد الواسع** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الدنو منهم هو الذبح»[(١)].

وإنْ أَرَادوكَ يَومًا مَا لحاَجَتِهِم كُلِ التُّرَاب وَلا تعْمل لَهُم عَمَلًا[(٢)]

وعن عبد الصمد بن معقل: قيل **لوهب** -بن منبه-: إنَّك يا أبا عبد الله كنت ترىٰ الرؤيا، فتحدثنا بها، فتكون حقًا!

قال: «هيهات، ذهب ذلك عنِّي منذ وليت القضاء»[(٣)].

وقال وهب بن منبه: «إنَّ جمع المال وغشيان السلطان لا يبقيان من حسنات المرءِ إلا كما يبقي ذئبان جائعان ضاريان سقطا في حظار فيه غنم فباتا يجوسان حتىٰ أصبحا»[(٤)].

وعن أبي سنان القسملي قال: سمعت **وهب بن منبه**، وأقبل علىٰ عطاء الخراساني فقال له: «ويحك يا عطاء ألم أخبر أنك تحمل علمك إلىٰ أبواب الملوك وأبناء الدنيا.

يا عطاء تأتي من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه، ويظهر لك غناه، ويقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

ويحكَ يا عطاء ارض لك بدون من الدنيا مع الحكمة، ولا ترض بالدون من الحكمة مع الدنيا. ويحكَ يا عطاء، إن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس شيء من الدنيا يكفيك. ويحك يا عطاء، إنمَّا بطنك بحر من

---

(١) أخبار الشيوخ (ص٤٩) لأنَّ الدنو من الأمراء يورث الكبر والعجب فهو مهلك كالذبح، وفي «الحلية» (٢/ ٣٥٢) قال: «لقضمُ القصب وسفُّ التراب خيرٌ من الدُّنو من السلطان».

(٢) ترتيب المدارك (٣/ ١٢٤)، والشعر لأبي صالح أيُّوب بن سليمان بن صالح المعافري (ت٣٠٢ أو ٣٠١هـ).

(٣) السير (٤/ ٥٨٤).

(٤) جامع بيان العلم (١/ ٦٧١).

البحور، ووادٍ من الأودية لا يملؤه شيء إلا التراب»[(١)].

وقال ابن شبرمة: «من أكل من حلوائهم انحطّ؟ في أهوائهم»[(٢)].

وقال الإمام الفضيل بْن عياض: «مَا أقبح بالعالم يؤتىٰ إلىٰ منزله، فيقال: أين العالم؟ فيقال: عند الأمير، أين العالم؟ فيقال: عند القاضي، مَا للعالم وما للقاضي؟ وما للعالم وما للأمير؟ ينبغي للعالم أن يكون في مسجده يقرأ في مُصحفه»[(٣)].

وقال: «إنِّي لأرحم ثلاثة: عزيز قومٍ ذلَّ، وغنيًا افتقر، وعالمًا تلعَّبُ به الدنيا»[(٤)].

وقال: «كم منْ عالم يدخل علىٰ الملك ومعه دينه، ويخرج وليس معه منه شيءٍ، فلا جعل الله مصيبتنا في ديننا».

وقال: ربَّما دخل العالم علىٰ الملك ومعه شيء من دينه، فيخرج وليس معه شيء، فقلنا: وكيف ذاك؟ قال: «يصدقه في كذبه، ويمدحه في وجهه»[(٥)].

وقال: «رجل لا يخالط هؤلاء، ولا يزيد علىٰ المكتوبة، أفضل عندنا من رجل يقوم الليل ويصوم النَّهار، ويحج ويعتمر، ويجاهد في سبيل الله ويخالطهم»[(٦)].

وعن الشعبي، قال: دخل شاب من قريش علىٰ معاوية فأغلظ له،

---

(١) الزهد لأحمد (١٤٤٠)، و«القناعة» لابن أبي الدنيا (ص٦٧-٦٨).
(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس (ص٧٣).
(٣) روضة العقلاء (ص٢٨).
(٤) معيد النعم (ص٥٧)، و«بذل النصائح الشرعية فيما علىٰ السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية» لمحب الدين المقدسي (ص٢١٧).
(٥) أخبار الشيوخ (ص٤٣).
(٦) حلية الأولياء (٨/ ٩٨).

فقال له: «يا ابن أخي، أنهاك عن السلطان، إنَّ السلطان يغضب غضب الصبي، ويأخذ أخذ الأسد»[١].

وعن الحسن البصري، قال: كان رجل من أهل المصر يغشىٰ السلطان ويصيب منهم، فترك ذلك، وجلس في بيته، فأتاه أهله وبنوه، فقالوا: تركت السلطان وحظك منه؟ فجعل لا يلتفت إليهم، فقالوا: والله لو فعلت لتموتن هرسًا، فقال: يا بني! والله لأن أموت مؤمنًا مهروسًا أحب إليَّ من أن أموت منافقًا سمينًا.

قال الحسن: «علم واللهِ، أنَّ القبر يأكل الشحم واللحم، ولا يأكل الإيمان»[٢].

وقال: «لا تجيئنَّ أميرًا وإن دعاك لتقرأ عنده سورة من القرآن، فإنَّك لا تخرج من عنده إلا شرًا ممَّا دخلت»[٣].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «جعل الله الدين بين لاءين: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟﴾»[٤].

وعن أبي همام الكلاعي عن الحسن أنَّه مر ببعض القراء علىٰ بعض أبواب السلاطين فقال: أقرحتم جباهكم، وفرطحتم نعالكم، وجئتم بالعلم تحملونه علىٰ رقابكم إلىٰ أبوابهم، فزهدوا فيكم؟ أمَّا إنَّكم لو جلستم في بيوتكم حتىٰ يكونوا هم الذين يرسلون إليكم لكان أعظم لكم في أعينهم، تفرقوا فرق الله بين أعضائكم![٥].

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة «كتاب الأمراء» (٣١١٩٤).

(٢) العزلة والانفراد لابن أبي الدنيا (ص١٦٨) ط: دار الوطن.

(٣) العزلة للخطابي «باب: في فساد الأئمة وما جاء في الإقلال من صحبة السلاطين» (ص٢٣٣).

(٤) تفسير الكشاف (٢/ ٤٣٤).

(٥) التبصرة (٢/ ١٩٣-١٩٤).

وعن عبد الصمد بن خاقان بن الأهتم قال: لما ولي محارب بن دثار القضاء، قيل للحكم بن عتيبة ألا تأتيه؟

قال: «ما أصابته عند نفسه مصيبة فأعزيه، ولا حدث له نعمة عندي فأهنئه، ولا كنت له قبل اليوم زوَّارًا فآتيه»[(١)].

وقال جعفر بن محمد: «الفقهاء أمناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا إلىٰ السلاطين فاتهموهم»[(٢)].

وقال **الأوزاعي**: «ليس شيءٌ أبغض إلىٰ الله ﷻ من عالم يزور عاملًا»[(٣)].

قال الطحاوي: بلغني عن **عبد الرحمن بن القاسم** صاحب الإمام مالك، قال: «ليس في قرب الولاة، ولا في الدنو منهم خير».

وقال: «ما أعلم في فلان عيبًا إلا دخوله إلىٰ الحكام، ألا اشتغل بنفسه؟!»[(٤)].

وقال **سحنون**: «ما أقبحَ بالعالم أن يؤتىٰ إلىٰ مجلسه، فلا يوجد فيه. فيسأل عنه، فيقال: هو عند الأمير، هو عند الوزير، هو عند القاضي، فإنَّ هذا وشبهه شرٌّ من علماء بني إسرائيل»[(٥)].

---

(١) الطيوريات للسلفي (١٢١٤).

(٢) مواعظ السلف للأصبهاني (ص٧٢١)، و«سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٦٢). ومن مواعظه: «إياكم والخصومة في الدين، فإنها تشغل القلب وتورث النفاق».
وقال: «لا يتم المعروف إلا بثلاثة: تعجيله، وتصغيره، وستره».
وقال أحمد بن عمرو بن المقدام الرازي: «وقع الذباب علىٰ المنصور فذبه عنه فعاد فذبه عنه حتىٰ أضجره، فدخل جعفر بن محمد، فقال له المنصور: يا أبا عبد الله: لم خلق الله الذباب؟ قال: ليذل به الجبابرة».

(٣) أخبار الشيوخ للمروذي (ص١٢٨).

(٤) السير (٩/ ١٢١-١٢٢).

(٥) ترتيب المدارك (٤/ ٧٦).

وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ لا يأتي الخلفاء ولا الولاة والأمراء ويمتنع من الكتابة إليهم، وينهىٰ أصحابه عن ذلك مطلقًا نقله عنه جماعة، وكلامه فيه مشهور.

وقال مهنا: سألت أحمد عن إبراهيم بن الهروي.

فقال: رجل وسخ!!!

فقلت ما قولك إنَّه وسخ؟

قال: من يتبع الولاة والقضاة فهو وسخ[١].

وقال سعيد بن يعقوب (ت٢٤٤هـ): كتب إليَّ أحمد بن حنبل: بسم الله الرحمن الرحيم من أحمد بن محمد إلىٰ سعيد بن يعقوب، أمَّا بعد: «فإنَّ الدنيا داء، والسلطان دواء، والعالم طبيب، فإذا رأيت الطبيب يجر الداء إلىٰ نفسه فاحذره، والسلام عليك»[٢].

وقال -الإمام أحمد-: «رأيتُ الفتْنة معلقةٌ بالسُّلطان»[٣].

وقيل للإمام أحمد: إنَّ ابن المبارك قيل له: كيف يُعرف العالِم الصادق؟ فقال: «الذي يزهد في الدنيا، ويُقبل علىٰ أمر الآخرة.

فقال أحمد: نعم، هكذا ينبغي أن يكون، **وكان أحمد ينكر علىٰ أهل العلم حب الدُّنيا والحرص عليها**»[٤].

وقال سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللهُ: «إذا رأيتم العالم يغشىٰ الأمراء، فاحذروا منه فإنَّه لص».

وقال بعض السلف: «إنَّك لا تصيب من دنياهم شيئًا إلا أصابوا من

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٤٧٦).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٤٤).

(٣) السنة للخلال (١/ ٨٢).

(٤) شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم لابن رجب (٢/ ٣٣٣).

دينك أفضل منه»[١].

وعن الحسن بن عمرو، قال: سمعت بشرًا يقول: «ما أقبح أن يطلب العالم فيقال: هو بباب الأمير»[٢].

قال الإمام ابن المبارك:

أرىٰ لَي أُنَاسًا بأدنىٰ الدِّينِ قدْ قَنِعُوا ... ولَا أَرَاهُم رَضُوا فِي الْعيشِ بالدُّونِ

فَاستغْنِ باللهِ عَنْ دُنْيَا المُلُوكِ كَمَا ... اسْتَغنَىٰ الملُوكُ بدنْيَاهُم عَنْ الدِّينِ[٣]

وقال أبو حازم: «كانت الأمراء تحتاج إلىٰ العلماء؛ فكانت العلماء تفر بدينها من الأمراء»[٤].

وقال: «إنَّ العلماء كانوا يفرون من السلطان ويطلبهم، وإنَّهم اليوم يأتون أبواب السلطان، والسلطان يفر منهم»[٥].

وعن ميمون بن مهران، قال: «في صحبة السلطان خطران: إن أطعته خاطرت بدينك، وإن عصيته خاطرت بنفسك، والسلامة أن لا يعرفك»[٦].

وقال: «ثلاث لا تبلُونَّ نفسك بهنَّ: لا تدخل علىٰ السلطان، وإن قلت: آمُرُه بطاعة الله، ولا تصغينَّ بسمعك إلىٰ هوىٰ، فإنَّك لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل علىٰ امرأةٍ، ولو قلت: أُعلِّمها كتاب الله»[٧].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص٢٥).

(٢) شعب الإيمان (١٧١٧).

(٣) ترتيب المدارك (٣/ ٤٥).

(٤) المجالسة (٨/ ١٤٩).

(٥) جامع بيان العلم (١٠٩٣).

(٦) تنبيه الغافلين (ص٥٢٥).

(٧) محنة الإمام لصالح (ص١٤٤-١٤٥)، و«المحنة» لعبد الغني المقدسي (ص٤٥)، قلت: أصل كلام ميمون بن مهران هو وصية له من عمر بن عبد العزيز. انظر: «تاريخ بغداد» (١٥/ ٢٢٤).

وكان محمد بن سيرين يقول: «إنْ دعاك الوالي أن تقرأ عليه سورة من القرآن فلا تأته»[١].

وكان عبد الرحمن بن عبد الله بن صدقة الإسكندراني المصري، يقول: «من قارب السلطان فقد قارن الشيطان ولو كان يصلىٰ به في شهر رمضان»[٢].

قال عبد الله بن المعتز: «أشقىٰ النَّاس أقربهم من السلطان، كما أنَّ أقرب الأشياء من النَّارِ أسرعها احتراقًا».

وقال: «من شاركَ السلطان في عزِ الدنيا، شاركه في ذلِّ الآخرة»[٣].

وعن ميمون، أنَّ عامر بن عبد قيس بعث إليه أمير البصرة، فقال: إن أمير المؤمنين أمرني أنْ أسألك: ما لك لا تزوج النساء؟

قال: ما تركتهن، وإنِّي لدائب الخطبة.

قال: وما يمنعك تغشىٰ الأمراء؟

قال: «إذا أتىٰ أبوابكم طلاب الحاجات فادعوهم، فاقضوا لهم حوائجهم، ودعوا من لا حاجة له إليكم»[٤].

وذكِر أنَّ عيسىٰ بن موسىٰ، لقي ابن شبرمة، فقال لهما: مالك لا تأتينا؟ قال: «وما أصنع بإتيانك؟ إنْ قربتني فتنتني، وإن أبعدتني آذيتني،

---

(١) أخبار الشيوخ وأخلاقهم (٥٦) (ص٦٦).

(٢) معجم السفر (٥٧٣)، ونعته بالمصدر نفسه «كان محبًا للحديثِ وأهله، ويحضر عندي كل وقت لسماع ما يقرأ، وكان قديمًا يخدم ولاة الثغر، ثمَّ اعتزل عنهم فسمعته . . . ثم ذكر الأثر».

(٣) السير للذهبي (١٤/ ٤٤).

(٤) الزهد للمعافىٰ (٧٩).

وما عندي ما أخافك، وما عندي ما أرجوك»[١].

وذكر نجم الدين الغزي في ترجمة: «محمد بن الخطيب: محمد بن إبراهيم الشهير بابن الخطيب الرومي الحنفي» وذكر صاحب عن والده أنَّه دخل مع ابن الخطيب حين كان يقرأ عليه وهو متقاعد عن المناصب إلىٰ السلطان أبي يزيد خان -رحمه الله تعالىٰ في يوم عيد، فلما مر مع موالي بالديوان والوزراء جالسون سلم المولىٰ بن فضل الله، وكان مفتيًا في ذلك الوقت عليهم، فضرب ابن الخطيب في صدره بظهر يده، وقال: هتكتَ عرض العلم، وسلمت عليهم **أنت مخدوم، وهم خدام سيمَّا** وأنت رجل شريف.

قال: ثمَّ دخل ونحن معه، فاستقبله سبع خطوات، وسلم عليه وما انحنىٰ له، وصافحه ولم يقبل يده، وقال للسلطان: بارك الله لك في هذه الأيام الشريفة، ثمَّ سلم ورجع.

قلت: قد اشتملت هذه الحكاية علىٰ أمور بعضها معروف، وبعضها منكر، فأمَّا ترك انحنائه للسلطان، وتقبيل يده، فمن السنَّة[٢]، وأمَّا إنكاره

---

(١) تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص٥٢٨)، قلت: في «تاريخ بغداد» (٧/ ٢١) قاله أبو شيبة إبراهيم بن عثمان لأمير الكوفة موسىٰ بن عيسىٰ.

(٢) وهذا مبحث طويل ويحتاج لتحرير، والعلماء منهم من أنكر كمالك رحمه الله، وسحنون. ومنهم من جوز كالإمام أحمد -أعني التقبيل في العموم لا في حق السلطان-، وضابط ذلك ألا تكون القبلة لمبتدع ولا صاحب شهوة، وعلامة الشهوة مد اليد واستحسان ذلك، وجواز ذلك أيضًا أن يكون ذلك لإمام عادل تقي، وكان سفيان الثوري يقول لا بأس بها -قبلة اليد- للإمام العادل وأكرهها علىٰ دنيا، كما في «الورع» لأحمد (٤٧٩). وتحرير هذا المقام لعله في كتاب آخر بعون الله.
وقد ذكر الإمام ابن القيم في «بدائع الفوائد» (٣/ ٦٩٤-٦٩٥)، قائلًا: [فائدة: تقبيل يد السلطان]. «عوتب ابن عقيل في تقبيل يد السلطان حين صافحه فقال: أرأيتم لو كان والدي فعل ذلك فقبلت يده أكان خطأ أم واقعًا موقعة؟ =

علىٰ المفتي السلام علىٰ الوزراء، وأهل الديوان ولومه علىٰ ذلك، وضرب

= قالوا: بلىٰ.
قال: فالأب يربي ولده تربية خاصة، والسلطان يربي العالم تربية عامة فهو بالإكرام أولىٰ».
قلت: لا أدري هل السلطان هنا الحاكم الذي يتولىٰ إدارة البلاد، أم العالم الرباني؟! فإنَّه ورد في خصوص هذا التعظيم، وهذا النعت من الاحترام بخصوص العلماء فحسب، كما حررته في كتابي «احترام العلماء» وأين مقام التربية الذي ذكره ابن عقيل، ولو سلم بالأمر، فهل ينطبق ذلك علىٰ زماننا؟!
وانظر: ما رواه الإمام ابن حبان في كتابه «المجروحين» (ص١٣٦) (١/ ٤٣) بإسنادٍ حسن، عن ابن وهب، قال: سمت مالكًا يقول: «دخلت علىٰ أبي جعفر، فرأيت غير واحد من بني هاشم يقبل يده المرتين والثلاث، ورزقني الله ﷻ العافية من ذلك، فلم أقل له يدًا» وأين من هو مثل أبو جعفر المنصور، وهل يقاس ابن عقيل بالإمام مالك إمام دار الهجرة، وصاحب الموطأ المقبول المسموع في أنحاء الدنيا!
وقال سحنون كما في «ترتيب المدارك» (٤/ ٨٥) ورأىٰ الناس يقبّلون يدا ابن الأغلب، فقال له: «لا تعطيهم يدك، لو كان هذا يقرّبك من الجنة ما سبقونا إليه».
قال النووي في «الأذكار» (ص٤١٠): «إذا أراد تقبيل يد غيره، إن كان ذلك لزهده وصلاحه أو علمه أو شرفه وصيانته أو نحو ذلك من الأمور الدينية، لم يُكره، بل يُستحبّ، وإن كان لغناه ودنياه وثروته وشوكته ووجاهته عند أهل الدنيا ونحو ذلك، فهو مكروه شديد الكراهة. وقال المتولّي من أصحابنا: لا يجوز فأشار إلىٰ أنه حرام».
وقال الشيخ ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «السلسلة الصحيحة» عقب حديث (١٦٠): «وأما تقبيل اليد، ففي الباب أحاديث وآثار كثيرة، يدل مجموعها علىٰ ثبوت ذلك عن رسول الله ﷺ، فنرىٰ جواز تقبيل يد العالم إذا توفرت الشروط الآتية:
١- ألا يتخذ عادة بحيث يتطبع العالم علىٰ مد يده إلىٰ تلامذته، ويتطبع هؤلاء علىٰ التبرك بذلك، فإن النبي ﷺ وإن قبلت يده فإنما كان ذلك علىٰ الندرة، وما كان كذلك فلا يجوز أن يجعل سنة مستمرة، كما هو معلوم من القواعد الفقهية.
٢- ألا يدعو ذلك إلىٰ تكبر العالم علىٰ غيره، ورؤيته لنفسه، كما هو الواقع مع بعض المشايخ اليوم. =

يده في صدره، فجرأة وقلة أدب وخطأ ظاهر[١].

ودخل الأحنف بن قيس علىٰ معاوية بن أبي سفيان، فأشار له إلىٰ الوساد فقال له: اجلس. فجلس علىٰ الأرض، فقال له معاوية: وما منعك يا أحنف من الجلوس علىٰ الوساد؟

فقال يا أمير المؤمنين، إنَّ فيما أوصىٰ به قيس بن عاصم المنقري ولده أن قال: «لا تغش السلطان حتىٰ يملك، ولا تقطعه حتىٰ ينساك، ولا تجلس له علىٰ فراش ولا وساد، واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين، فإنه عسىٰ أن يأتي من هو أولىٰ بذلك المجلس منك فتقام له، فيكون قيامك زيادة له، ونقصانا عليك».

حسبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين، لعله إنْ يأتي من هو أولىٰ بذلك المجلس مني، فقال معاوية رضي الله عنه: «لقد أوتيت تميم الحكمة، مع رقة حواشي الكلم». وأنشأ يقول:

يَا أيُّها السَائِلُ عَمَّا مَضَىٰ ... وعَلْمُ هَذا الَزمَنُ العَائِبِ

إنْ كُنْتَ تبْغِي العِلمَ أوْ أهْلِهِ ... أوْ شَاهِدًا يُخْبِرُ عنْ غَائِبِ

فَاعْتَبِر الأَرْضِ بَسُكانِهَا ... واَعْتَبِر الصَّاحِبَ بالصَّاحَبِ[٢]

وهذا المكتفي أراد أن يحبس وقفًا تجتمع عليه أقاويل العلماء، فأحضر له ابن جرير، فأملىٰ عليهم كتابا لذلك، فأخرجت له جائزة، فامتنع من قبولها، فقيل له: لا بدَّ من قضاء حاجة.

= ٣- ألا يؤدي ذلك إلىٰ تعطيل سنة معلومة، كسنة المصافحة، فإنها مشروعة بفعله صلى الله عليه وسلم وقوله، وهي سبب تساقط ذنوب المتصافحين كما روي في غير ما حديث واحد، فلا يجوز إلغاؤها من أجل أمر، أحسن أحواله أنه جائز».

(١) الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة (١/ ٢٤).

(٢) البيان والتبيين (١/٦٦).

قال أسأل أمير المؤمنين أن يمنع السؤال يوم الجمعة، ففعل ذلك.

وكذا التمس منه الوزير أن يعمل له كتابًا في الفقه، فألَّفَ له كتاب (الخفيف) فوجه إليه بألف دينار، فردها[١].

وعن عبيد الله بن شميط، عن أبيه، قال: كان أبو مسلم الخولاني يطوف ينعي الإسلام فأتىٰ معاوية ﷺ. فقيل له: فأرسل إليه فدعاه فقال له: ما اسمك؟

قال: معاوية.

قال: «بل أنت حدوثة قبر عن قليل، إنْ عملت خيرًا أجزيت به، وإن عملت شرًا أجزيت. يا معاوية: إنْ عدلت علىٰ أهل الأرض جميعًا، ثمَّ جرت علىٰ رجلٍ واحد مال جورك بعدلك»[٢].

قال عيسىٰ بن مسكين: «خلّوا لهم دنيَاهم، يخلّون بينكم دينكم وبين آخرتكم»[٣].

قال القاضي غريب بن محمد: رأيت ابن زرب بعد وفاته، فسألته؟ فقال: «ما وجدتُ شيئًا أضرّ من الاختلافِ إلىٰ أبوابِ الملوك»[٤].

قال أبو عاصم النبيل: زعم لي سفيان، قال: جاء ابن لسليمان بن عبد الملك، فجلس إلىٰ جنب طاووس، فلم يلتفت إليه، فقيل له: جلس إليك ابن أمير المؤمنين، فلم تلتفت إليه!

---

(١) السير (١٤/ ٢٧٠).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٢٥).

(٣) ترتيب المدارك (٤/ ٣٤٨)، ومن أقواله: «من أطلق طرفه كثر أسفه». «في تقلّب الأحوال، علم جواهر الرجال». و«بحسن التأني تسهل المطالب». و«قارب الناس في عقولهم تسلم من غوائلهم».

(٤) ترتيب المدارك (٧/ ١١٨).

قال: «أردتُ أنْ يعلمَ أنَّ للهِ عبادًا يزهدون فيما في يديه»[١].

ويقال: «من جلس مع ثمانية أصناف من النَّاسِ، زاده الله ثمانية أشياء:

منْ جلس مع الأغنياء، زادهُ الله حب الدنيا والرغبة فيها.

ومنْ جلس مع الفقراء، زادهُ الله الشكر والرضا بقسمةِ الله تعالىٰ.

ومنْ جلس مع السلطان، زادهُ الله الكبر، وقساوة القلب.

ومنْ جلس مع النساء، زادهُ الله الجهل، والشهوة، والميل إلىٰ عقولهنَّ.

ومن جلس مع الصبيان، زاده الله اللهو والمزاح.

ومن جلس مع الفساق، زاده الله الجرأة علىٰ الذنوب، والمعاصي والإقدام عليها، والتسويف في التوبة.

ومن جلس مع الصالحين، زاده الله الرغبة في الطاعات واجتناب المحارم.

ومن جلس مع العلماء، زاده الله العلم والورع»[٢].

وكان ابن عبد ربه الطبيب منقبضًا عن الملوك، وقال:

أَمِنْ بَعدِ غَوْصي فِي عُلوِ الحقائقِ ... وطُولِ انبساطي فِي مَذاهِبِ خالِقي

وَفي حينِ إشرافي عَلىٰ مَلَكوته ... أُرَىٰ طَالبًا رِزْقًا إِلَىٰ غيرِ رازِقي

وأيّامُ عُمْرِ المَرْءِ مُتْعَةُ ساعةٍ ... تُحَيّي خيالًا مِثل لمحَةٍ بارِقِ

وَقَدْ أذَنَتْ نَفْسِي بِتَقْويضِ رَحْلِها ... وَأَسْرَعَ فِي سَوقِي إِلَىٰ المَوْتِ سَائِقي

وإنّي وَإن أوْغَلْتُ أَوْ سِرْتُ هَارِبًا ... مِنَ المَوْتِ فِي الآفاقِ فالموتُ لَاحِقي[٣]

(١) السير (٥/ ٤٢).

(٢) تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص٢٩٢) ط: دار الحديث.

(٣) الوافي بالوفيات (١٥/ ١٤٩).

ولنختم بما حكي عن الإمام الزهري، وذلك أنَّ لما خالط السلاطين كتب إليه أخ له في الدين: عافانا الله وإيَّاك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك.

أصبحت شيخًا كبيرًا، وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق علىٰ العلماء، قال الله سبحانه: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ واعلم أنّ أيسر ما ارتكبت وأخفّ ما احتملت: أنَّك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوّك ممَّن لم يؤدّ حقًا ولم يترك باطلًا حين أدناك.

اتخذوك قطبًا تدور عليك رحىٰ باطلهم، وجسرًا يعبرون عليك إلىٰ بلائهم، وسلمًا يصعدون فيك إلىٰ ضلالهم، يدخلون الشكّ بك علىٰ العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خرّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممَّن قال الله فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ فإنَّك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سقم، وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفىٰ علىٰ الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام[1].

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٤٣٣-٤٣٤) وفي «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٣٩).
قال مكحول، وذكر الزهري عنده: أيُّ رجل هو؟! لولا أنَّه أفسد نفسه بصحبة الملوك»
قلت: والزهري هو من قال: «هَوَانٌ بالعلم أن يحمله العالم إلىٰ بيت المتعلم».
وعلىٰ هذا فإنَّ ذهاب الزهري يتأول له ما قاله ابن جماعة مما سبق ذكره في الكتاب: هو إذا دعت حاجة إلىٰ ذلك أو ضرورة أو اقتضته مصلحة دينية راجحة علىٰ مفسدة بذله وحسنت فيه نية صالحة فلا بأس به إن شاء الله تعالىٰ، وعلىٰ هذا يحمل ما جاء عن بعض أئمة السلف من المشي إلىٰ الملوك وولاة الأمر كالزهري والشافعي وغيرهما لا علىٰ أنهم قصدوا بذلك فُضُول الأغراض الدنيوية».

[فصل:
فيما يتحصن به من الذكر والعبادة في الدخول عليهم]

١- ذكر الله في العموم، وهو من أعظم الحصون، وخير العون والمعين لمن قاله موقنًا به، مستعينًا بالله.

قال الإمام ابن القيم: وهو يحكي عن شيخه الشامة، والإمام العلامة ابن تيمية الحراني الدمشقي رَحِمَهُ اللَّهُ فيقول: «أن الذكر يعطي الذاكر قوة، حتىٰ إنَّه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه وكلامه وإقدامه وكتابه أمرًا عجيبًا، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعه وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمرًا عظيمًا»[١].

٢- قول لاحول ولا قوة إلا بالله. كان حبيب بن سلمة: يستحب إذا لقي عدوًا أو ناهض حصنًا قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله، وإنَّه ناهض يومًا حصنًا للروم فانهزم، فقالها المسلمون وكبروا فانهدم الحصن[٢].

قال ابن القيم: «لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معالجة الأشغال الصعبة، وتحمل المشاق، والدخول علىٰ الملوك، ومن يخاف ركوب الأهوال، ولها أيضًا تأثير في دفعِ الفقر»[٣].

وقال المناوي: «لا حول ولا قوة إلا بالله، لو يعلم صاحب الحاجة ما في هذه الكلمة من العون والتوفيق والسداد ما تركها»[٤].

٣- قول: (**بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء**). عن أبان بن

(١) الوابل الصيب (ص١٣٠).

(٢) أخرج الحاكم في «المستدرك» (٥٤٧١)، عن مصعب بن عبد الله الزبيري، كان يقال له: «حبيب الروم من كثرة الدخول عليهم».

(٣) الوابل الصيب (ص١٣١).

(٤) فتح القدير (٣/ ١٥).

عثمان يقول: سمعت عثمان ﵁ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قال: باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماءِ وهو السميع العليم، ثلاثَ مرات، لم تصبه فجأةُ بلاءٍ حتىٰ يصبح، ومَن قالها حين يصبح، ثلاث مرات، لم تصبه فجأة بلاءٍ حتىٰ يمسي**»، قال: فأصاب أبان بن عثمان الفالج، فجعل الرجل الذي سمع منه الحديث ينظر إليه، فقال له: ما لك تنظر إليَّ؟ فواللهِ ما كذبت علىٰ عثمان، ولا كذب عثمان علىٰ النبي ﷺ، ولكن اليوم الذي أصابني فيه ما أصابني، غضبت، فنسيت أن أقولها(١).

وقال بهلول بن راشد الحجري -في بيان سبب محنته-: أقمت ثلاثين سنة أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم» فلمَّا كان يومي مع العكّي أنسيت أن أقولها، فابتليت به(٢).

٤- قول (**أعوذُ بكلماتِ التَّامات مَنْ شرِ مَا خلق**). عن ذكوان أبي صالح عن أبي هريرة ﵁ أنَّه قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال يا رسول الله: ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة قال: أما لو قلت حين أمسيت: «**أعوذُ بكلماتِ الله التَّامات من شرِّ ما خلقَ لم تضرك**»(٣).

«مَا» استفهامية للتعجب أي أي شيء لقيت، أي لقيت أمرًا عظيمًا ووجعًا شديدًا. أو موصولة والخبر محذوف، أي الذي لقيته لا أقدر وصفه لعظم شدته «من عقرب لدغتني البارحة»، أي الليلة الماضية(٤).

---

(١) رواه أبو داود في «سننه» (٧/ ٤٢٠) والنسائي في «الكبرىٰ» (٩٧٦٠)، و(الفالج): شلل يصيب أحد شقي الجسم طولًا، وانظر: تعليق الشيخ شعيب عليه.

(٢) طبقات علماء القيروان (١/ ٢١٣)، والعكي هو محمد بن مقاتل العكي أمير إفريقية.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» (٢٧٠٩).

(٤) مراعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/ ١٧٣).

«مِنْ شرِ مَا خلق» متعلق بأعوذ وما عام يدخل فيه سائر المؤذيات من الخلق، ومنه الهوىٰ والشهوات[١].

قال القاضي عياض: وقوله: «أعوذ بكلمات الله التامات». قيل: معناه: الكاملة التي لا يدخلها نقص ولا عيب كما يدخل كلام البشر. وقيل: التَّامة: النافعة الشافيَّة، وقيل: الكلمات هنا: القرآن[٢].

٥- **ومن الحصون**، ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان رسول الله إذا غزا قال: «**اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل**»[٣] وهذا دعاء نبوي عظيم النفع، كثير الفائدة، يزرع في قلبه صاحب الأمن، ويزيل عن نفس صاحبه الخوف والجبن -بإذن الله-.

٦- **ومن الحصون**، قول عبد الرحمن بن أنعم المعافري: «مَنْ دخلَ علىٰ سلطانٍ ظالم يتقيهِ، فقال: «اللهم إنِّي أستعينك عليه، وأدفعُ بك في نحره، وأعوذُ بك من شره»، إلا صنع الله تعالىٰ به ذلك»[٤].

٧- **الدعاء في العموم**، وهو من أفضل أنواع السلاح للمؤمن بلا ريب، وفي فضله أحاديث مشهورة.

٨- **صلاة الفجر في جماعة، ومن صلاها فهو ذمة الله وحفظه.** عن أنس بن سيرين قال: سمعت جندب بن عبد الله رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**من صلىٰ الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء**»، وفي رواية: «**من صلىٰ صلاة الصبح**»[٥].

---

(١) دليل الفالحين لابن علان (٧/ ٢٥٩).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/ ٢٠٦).

(٣) رواه أبو داود في «سننه» (٢٦٣٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٨٥٧٦) و(١٠٣٦٥)..

(٤) طبقات علماء القيروان (١/ ١٥٧).

(٥) رواه مسلم في «صحيحه» (٦٥٧) قال النووي في «شرح صحيح مسلم»: «الذمة هنا الضمان، وقيل: الأمان».

قال أبو العباس القرطبي: وقوله: «مَنْ صلىٰ الصبحَ فهو في ذمَّةِ الله»؛ أي في أمان الله وفي جواره، أي قد استجار بالله تعالىٰ والله تعالىٰ قد أجاره، فلا ينبغي لأحد أن يتعرض له بضر أو أذىٰ، فمن فعل ذلك فالله يطلب بحقه، ومن يطلبه لم يجد مفرًا ولا ملجأ، وهذا وعيد شديد لمن يتعرض للمصلين وترغيب في حضور صلاة الصبح، ويكبه في النار يقلبه فيها علىٰ وجهه[1].

وعن أيوب بن سويد، عن يونس بن يزيد، عن الزهري قال: لما نزل الحجاج بابن الزبير رضي الله عنه أخذ رجلًا فدفعه إلىٰ سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم ليقتله فقال له: سالم أمسلم أنت؟

قال: نعم.

قال: وصليت الصبح.

قال: نعم.

قال: انطلق لا سبيل لي عليك. فبلغ الحجاج ما صنع، فقال له: ما فعل الرجل؟ قال: سألته أمسلم أنت؟ قال: نعم، وسألته: أصليت الصبح؟ قال: نعم، وأخبرني أبي عن رسول الله ﷺ أنَّه: «**مَنْ صلَّىٰ الصبح كان في جوار الله تعالىٰ حتىٰ يصبح أو يمسي**» قال: فإنَّه من قتلة عثمان رضي الله عنه قال: فما أنا بولي عثمان فأقتل قتلته!

فبلغ أباه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فخرج مسرعًا يجرُّ إزاره، فلقيه بما صنع، فقال: «سميتك سالمًا لتسلم، سميتك سالما لتسلم»[2].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/ ٢٨٢).

(٢) ذكره ابن حجر في «المطالب العالية» من رواية مسدد (زيادات معاذ بن المثنىٰ) (١٨٤٦)، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩/ ٢٤٩) (٨٥٤٣)، وهو حديث ضعيف، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب (١٨٦)، وانظر: تخريجه في طبعة المطالب العالية. ط: دار العاصمة. =

٩- صلاة الضحىٰ، عن عقبة بن عامر الجهني، أن رسول الله ﷺ قال: إن الله يقول: «**يا ابن آدم، اكفني أول النهار بأربع ركعات، أكفك بهن آخر يومك**»[(١)].

١٠- قول أنس بن مالك رضي الله عنه: «بسم الله علىٰ نفسي وديني، بسم الله علىٰ أهلي ومالي، بسم الله علىٰ كل شيء أعطاني، بسم الله خير الأسماء، بسم الله رب الأرض والسماء، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه داء، بسم الله افتتحت وعلىٰ الله توكلت، الله ربي لا أشرك به أحدًا، اللهم أنت جاري من كل شيء، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (السورة)، من خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي ومن تحتي»[(٢)].

= وهي بنحوها في كتاب «بغية الطلب في تاريخ حلب» لابن العديم (في ترجمة: سالم) (٤١٢٧/٩) وإسنادها ضعيف أيضًا.

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٧٣٩٠) وإسناده صحيح.
قال السندي: قوله: «بأربع ركعات»، قيل: يحتمل أن يراد بها فرض الصبح وركعتا الفجر، ويحتمل أن يراد بها صلاة الضحىٰ، وهذا هو الظاهر من الحديث وصنيع أبي داود (١٢٨٩) وغيره في «السنن».
«بهنَّ»: بجزائهن، قيل: يحتمل أن يراد كفايته من الآفات والحوادث الضارة، وأن يراد حفظه من الذنوب أو العفو عما وقع منه في ذلك اليوم، أو أعم من ذلك، والله أعلم.

(٢) الوافي بالوفيات للصفدي (٢٣٦/٩-٢٣٧)، وسبب ذلك أنَّ الحجاج أساء لخادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك رضي الله عنه، فأرسل أنس لعبد الملك بن مروان يشكو من الحجاج، فقال الحجاج: لولا خدمتك لرسول الله ﷺ وكتاب أمير المؤمنين لكان لي ولك شأن من الشأن، فقال أنس: هيهات! إنِّي لما خدمت رسول الله ﷺ، علمني كلمات لا يضرني معهن عتو جبار، فقال له الحجاج: يا عماه لو علمتنيهنَّ، فقال: لست لذلك بأهل، فدس إليه الحجاج ابنه محمدًا ومعه مائتي ألف درهم، ومات الحجاج قبل أن يظفر بالكلمات، ثم ذكر الكلمات السابقة (بسم الله ....).





[الفصل الثاني:

ما قيل في ذلك شعرًا]

وأنشدوا في ذلك شعرًا: فمما قاله أبو بكر البيهقي: أنشدنا الأستاذ أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب في تفسيره، قال: أنشدني أبي:

إِنَّ الْمُلُوكَ بَلَاءٌ حَيْثُ مَا حَلُّوا ... فَلَا يَكُنْ لَكَ فِي أَكْنَافِهِمْ ظِلُّ
مَاذَا تُؤَمِّلُ مِنْ قَوْمٍ إِذَا غَضِبُوا ... كَادُوا عَلَيْكَ وَإِنْ أَرَضِيتَهُمْ مَلُّوا
فَإِنْ مَدَحْتَهُم خَالُوكَ تَخْدَعُهُمْ ... وَاسْتَثْقَلُوكَ كَمَا يُسْتَثْقَلُ الْكَلُّ
فَاسْتَغْنِ بِاللَّهِ عَنْ أَبْوَابِهِمْ أَبَدًا ... إِنَّ الْوُقُوفَ عَلَىٰ أَبْوَابِهِمْ ذُلُّ[1]

وقيل لأبي العباس أحمد بن يحيىٰ ثعلب: توحشت من الناس جدًا، فلو تركت لزوم البيت بعض الترك، وبرزت للنَّاسِ كانوا ينتفعون بك وينفعك الله بهم، فسكت ساعة، ثمَّ أنشأ يقول:

إِنْ صَحِبْنَا الْمُلُوكَ تَاهُوا عَلَيْنَا ... وَاسْتَخَفُّوا كِبْرًا بِحَقِّ الْجَلِيسِ
أَوْ صَحِبْنَا التُّجَّارَ صِرْنَا إِلَىٰ الْبُؤْ ... سِ وَعـدْنَا إِلَىٰ عِدَادِ الْفُلُوسِ
فَلَزِمْنَا الْبُيُوتَ نَسْتَخْرِجُ الْعِلْمَ ... وَنَمْلَأُ بِهِ بُطُونَ الطُّرُوسِ[2]

وهذا ابن المبارك يقول لما ولي إسماعيل قضاء بغداد:

يَا حَامِلَ الدِّيْنِ عَلَىٰ كَفِّهِ ... كَحَمْلِ صَيَّادٍ لِشَاهِيْنِ
وَجَاعِلَ الْعِلْمِ لَهُ بَازِيًّا ... يَصْطَادُ أَمْوَالَ الْمَسَاكِيْنِ

---

(١) النصيحة للراعي والرعية للتبريزي (ص١٣٦).

(٢) جامع بيان العلم رقم (٢٤١٦).

احْـتَـلْـتَ لـلـدُّنْـيَـا وَلَـذَّاتِـهَـا ... بِـحـيْـلَـةٍ تَـذْهَـبُ بِـالـدِّيْـنِ
أيْـنَ رِوَايَـاتِـكَ فِـيْـمَـا مَـضـىٰ ... عَـنْ ابـنِ عَـونٍ وَابْـنِ سِـيْـرِيْـنِ
أيْـنَ رِوَايَـاتِـكَ وَالـقَـولُ فِـي ... غِـشْـيَـانِ أبْـوَابِ الـسَّـلاطِـيْـنِ[(١)]

وقال أبو العتاهية:

إِنَّ الْمُلُوكَ بَلَاءٌ حَيْثُ مَا حَلُّوا ... فَلَا يَكُنْ لَكَ فِي أَكْنَافِهِمْ ظِلُّ
مَاذَا تُؤَمِّلُ مِنْ قَوْمٍ إِذَا غَضِبُوا ... جَارُوا عَلَيْكَ وَإِنْ أَرْضِيتَهُمْ مَلُّوا
وَإِنْ نَصَحْتَهُمْ ظَنُّوكَ تَخْدَعُهُمْ ... وَاسْتَثْقَلُوكَ كَمَا يُسْتَثْقَلُ الْكَلُّ
فَاسْتَغْنِ بِاللَّهِ عَنْ أَبْوَابِهِمْ كَرَمًا ... إِنَّ الْوُقُوفَ عَلَىٰ أَبْوَابِهِمْ ذُلُّ[(٢)]

وقال محمد بن علي بن عبد الرحمن العلوي:

أرىٰ الْمُلُوكَ بدون الدِّيْنِ قد قنعوا ... أو أراهم رضُوا في الْعيشِ بالدُّونِ.
فَاسْتَغْنِ بالدَّينِ عن دنُيْاَ الْمُلُوكَ كما ... استغنىٰ الْمُلُوكَ بِدُنْيَاهُم عن الدِّيْنِ[(٣)]

وقال أبو عمرو بن العلاء:

أنـفـت مـن الـذل عـنـد الْـمُـلُـوكَ ... وإن أكـرمـونـي وإن قـربـوا
إذا مـا صـدقـهـم خـفـتـهـم ... ويـرضـون مـنـي بـأن يـكـذبـوا[(٤)]

وقال آخر:

أَنِسْتُ بِوَحْدَتِي وَلَزِمْتُ بَيْتِي ... فَدَامَ الْأُنْسِ لِي وَنَمَىٰ السُّرُورُ
وَأَدَّبَنِي الزَّمَانُ فَلَا أُبَالِي ... هُجِرْتُ فَلَا أُزَارُ وَلَا أَزُورُ

---

(١) الدرر الفريد وبيت القصيد (٥/ ٤٠٨)، و«روضة العقلاء» (ص٣٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤١٢).
(٢) كما في «جمهرة الأمثال» (ص١٨٣) ط: ابن حزم، وبنحوه أنشده الحدادي لمحمد بن العباس المؤدب في «العزلة» للخطابي (ص٢٣٧).
(٣) فوائد الكوفيين لأبي الغنام النرسي (ص٨٨).
(٤) مجالس العلماء للزجاجي (ص١٧٩)، ونحوه في «بهجة المجالس وأنس المجالس» (ص٧٥)، و«وفيات الأعيان» (٣/ ٤٦٨).

فَلَسْتُ بِسَائِلٍ مَا دُمْتُ حَيًّا ... أَسَارَ الْجُنْدُ أَمْ رَكِبَ الْأَمِيرُ[(١)]

وللمصحفي لما يئس من الْمَنْصُور وصفحه، وكان المصحفي الحاجب المدبر لشؤون الدولة، ثمَّ دار الزمان وصار المصحفي في السجنِ، والمنصور ابن أبي عامر حاجبًا ثم نودي به خليفةً، فقال:

لَا تأمننَّ منَ الزَّمَان تقلبًا ... إِنَّ الزَّمَان بأَهْله يتقلبُ
وَلَقَد أَرَانِي والليوثُ تخافني ... فأخافني من بعدِ ذَاك الثَّعْلَبُ
حسبُ الْكَرِيم مذلةً ونقيصةً ... أَلَّا يزَالُ إِلَىٰ لئيمٍ يَطْلبُ
وَإِذا أَتَت أعجوبَة فاصبِر لَهَا ... فالدهرُ يَأْتِي بعدَ مَا هُوَ أعجبُ[(٢)]

وقال آخر:

ضَنَّ الْأَمِيرُ بِإِذْنِهِ ... فَقَعَدْتُ فِي بَيْتِي أَمِيرَا
وَتَرَكْتُ إِمْرَتَهُ لَهُ ... وَاللَّهُ مَحْمُودٌ كَثِيرَا

وقال محمود الوراق:

رَكِبُوا الْمَوَاكِبَ وَاغْتَدَوْا ... زُمَرًا إِلَىٰ بَابِ الْخَلِيفَهْ
وَصَلُوا الْبُكُورَ إِلَىٰ الرَّوَاحِ ... لِيَبْلُغُوا الرُّتَبَ الشَّرِيفَهْ
حَتَّىٰ إِذَا ظَفِرُوا بِمَا طَلَبُوا ... مِنَ الْحَالِ اللَّطِيفَهْ
وَغَدَا الْمَوْلَىٰ مِنْهُمْ فَرِحًا ... بِمَا تَحْوِي الصَّحِيفَهْ
وَتَعَسَّفُوا مَنْ تَحْتَهُمْ ... بِالظُّلْمِ وَالسِّيَرِ الْعَنِيفَهْ
خَانُوا الْخَلِيفَةَ عَهْدَهُ ... بِتَعَسُّفِ الطُّرُقِ الْمَخُوفَهْ
بَاعُوا الْأَمَانَةَ بِالْخِيَانَةِ ... وَاشْتَرُوا بِالْأَمْنِ جِيفَهْ
عَقَدُوا الشُّحُومَ وَأَهْزَلُوا ... تِلْكَ الْأَمَانَاتِ السَّخِيفَهْ

---

(١) العزلة للخطابي (ص٢٣٦).

(٢) الحلة السيراء لابن الأبار البلنسي (١/ ٢٦٧).

ضَـــاقَـــتْ قُـــبُـــورُ الْـــقَـــوْمِ ... وَاتَّـسَـعَـتْ قُـصُـورُهُـمُ الْـمَـنِـيـفَـهْ
مِـــــــــنْ كُــــــــلِّ ذِي أَدَبٍ ... وَمَــعْــرِفَــةٍ وَآرَاءٍ حَــصِــيــفَــهْ
مُـتُـفَـقِّـهً جَـمَـعَ الْـحَـدِيـثَ ... إِلَـىٰ قِـيَـاسِ أَبَـىٰ حَـنِـيـفَـةْ
فَـأَتَـاكَ يَـصْـلُـحُ لِـلْـقَـضَـاءِ ... بِـلِـحْـيَـةٍ فَـوْقَ الْـوَظِـيـفَـهْ
لَـمْ يَـنْـتَـفِـعْ بِـالْـعِـلْـمِ إِذْ ... شَـغَـفَـتْـهُ دُنْـيَـاهُ الـشَّـغُـوفَـهْ
نَـسِـي الْإِلَــهَ وَلَاذَ فِــي الــ ... ـدُّنْـيَـا بِـأَسْـبَـابٍ ضَـعِـيـفَـهْ[1]

وقال أبو العتاهية:

عَـجَـبًـا لِأَرْبَـابِ الْـعُـقُـولِ ... وَالْـحِـرْصِ فِي طَلَـبِ الْفُضُـولِ
سُـــلَّابُ أَكْـــسِـــيَـــةِ الْأَرَا ... مِـلِ وَالْـيَـتَـامَـىٰ وَالْـكُـهُـولِ
وَالْـجَـامِـعِـيـنَ الْـمُـكْـثِـرِيـنَ ... مِـنَ الْـخِـيَـانَـةِ وَالْـغُـلُـولِ
وَالْـمُـؤْثِـرِيـنَ لِـدَارِ رِحْـلَـتِـهِـمْ ... عَـــلَـــىٰ دَارِ الْـــحُـــلُـــولِ
وَضَـعُـوا عُـقُـولَـهُـمْ مِـنَ الـدَّ ... نْـيَـا بِـمَـدْرَجَـةِ الـسُّـيُـولِ
وَلَــهُــوا بِــأَطْــرَافِ الْــفُــرُ ... وعِ وَأَغْـفَـلُـوا عِـلْـمَ الْأُصُـولِ
وَتَـتَـبَّـعُـوا جَـمْـعَ الْـحُـطَـامِ ... وَفَـــارَقُـــوا أَثَـــرَ الـــرَّسُـــولِ[2]

وقال آخر:

شَادَ الْمُلُوكُ قُصُورَهُمْ وَتَحَصَّنُوا ... مِنْ كُلِّ طَالِبِ حَاجَةٍ وَرَاغِبِ
غَالُوا بِأَبْوَابِ الْحَدِيدِ لِعِزِّهَا ... وَتَنَوَّقُوا فِي قُبْحِ وَجْهِ الْحَاجِبِ
فَإِذَا تَلَطَّفَ فِي الدُّخُولِ إِلَيْهِمُ ... عَافٍ تَلَقَّوْهُ بِوَعْدٍ كَاذِبِ
فَاطْلُبْ إِلَىٰ مَلِكِ الْمُلُوكِ وَلا تَكُنْ ... يَا ذَا الضَّرَاعَةِ طَالِبًا مِنْ طَالِبِ[3]

---

(١) جامع بيان العلم (١١٠١) (١/ ٦٣٧).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) القناعة لابن أبي الدنيا (ص٤٦-٤٧).




[الفصل الثالث:

من دخله الهم
بسبب معرفة السلطان له أو لأنه استعمل لهم]

وقد كان جماعة من السلف يصيبهم الهم، ويدخل إلىٰ قلبهم الخوف والفزع(١)، وربَّما هرب أحدهم، وطلب الآخر من ربه أن يقبضه إليه غير فاتنٍ أو مفتون، وأخبارهم لمن تتبع كتب السير والرجال كثيرة، ونذكر منها:

السري السقطي كان يقول: «إنِّي لأذكر مجيء الناس إليَّ فأقول: اللهم هب لهم من العلم ما يشغلهم عني، فإنِّي لا أريد مجيئهم، ولا أن يدخلوا عليَّ»(٢).

وجاء عن أبي أحمد الفراء من شيوخ مسلم، أنَّه ذكر السلاطين فقال: «اللهم أنسهم ذكري، ومن أراد أن يذكرني عندهم فأشدد علىٰ قلبه فلا يذكرني!»(٣).

وعن حماد بن زيد، قال: «كان أيوب صديقًا ليزيد بن الوليد فلمَّا ولي الخلافة قال: اللهم أنسه ذكري»(٤).

---

(١) وفي «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢١٤) أنَّ ابن الحداد كان يقول: «القرب من السلطان في غير هذا الوقت حتف من الحتوف، فكيف اليوم؟».

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٣٧٣).

(٣) طبقات علماء الحديث (٢/ ٢٩٩).

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٦).

وذكر أبو بكر المروذي: سمعت أبا بكر البخاري يقول: جاء ابن طاهر إلىٰ الفريابي، فاستأذن فلم يأذن له، وقال: قولوا له: هو في المخرج، فخرج ابن الفريابي فأخبره، فقال ابن طاهر: «هذا رجل اختار المخرج علينا»[١].

وكان فقيه المغرب ميسرة أحمد بن نزار القيرواني المالكي (ت٣٣٨هـ)، من العلماء العاملين، ووقع في ذهن المنصور بن إسماعيل أنَّ أبا ميسرة لا يرىٰ الخروج عليه، فأراده ليوليه القضاء، فقال: كيف يلي القضاء رجل أعمىٰ، يبول تحته.

فما علم أحد بضرره إلا يومئذٍ، فقال: «اللهم إنَّك تعلم أنَّي انقطعت إليك وأنا شاب، فلا تمكنهم منَّي، فما جاءت العصر إلا وهو من أهل الآخرة»[٢].

وقال ابن بكير: قال الليث: قال لي أبو جعفر: تلي لي مصر؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين إنَّي أضعف عن ذلك، إنَّي رجل من الموالي.

فقال: ما بك ضعف معي، ولكن ضعف نيتك عن العمل في ذلك لي»، أتريد قوة أقوىٰ مني ومن عملي!! فأمَّا إذ أبيت فدلني علىٰ رجل أقلده أمر مصر؟

قلت: عثمان بن الحكم الجذامي، رجل صلاح وله عشيرة.

قال: فبلغه ذلك، فعاهد الله ﷻ أن لا يكلم الليث بن سعد[٣].

وهذا يحيىٰ بن مجاهد بن عوانة أبو بكر الفزاري رحمه الله (ت٣٦٣هـ)، أراد الحكم المستنصر بالله أن يجتمع به، فلم يقدر عليه، ووجه إليه من

---

(١) أخبار الشيوخ (ص١٨٨).

(٢) السير (١٥/ ٣٩٥-٣٩٦)، و«معالم الإيمان» (٣/ ٥١).

(٣) المعرفة والتاريخ (١/ ١٢٣)، وهو في «السير» (٨/ ١٤٦) مختصرًا.

يتلطف به ويستعطفه، فقال: ما لي إليه حاجة، وإنَّما يدخل علىٰ السلطان الوزارء، وأهل الهيئة، وأيش يعمل بأصحاب الأطمار الرثة، فوجه إليه الحكم جبة صوف وغفارة وقميصًا من وسط الثياب ودنانير، فلما نظر إليها قال: ما لي ولهذه؟! ردوها علىٰ صاحبها، ولئن لم يتركوني سافرت، فيئس من لقائه وتركه، وكان يجلس إلىٰ مؤدب بالجامع يأنس به[(١)].

وعن أبي بكر بن أبي داود، يقول: كان المستعين بالله بعث إلىٰ نصر بن علي يشخصه للقضاء فدعاه عبد الملك أمير البصرة، فأمره بذلك، فقال: أرجع فأستخير الله، فرجع إلىٰ بيته نصف النهار فصلىٰ ركعتين، وقال: «اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني إليك، فنام، فأنبهوه فإذا هو ميت»[(٢)].

وعن ابن عون، قال: ذكر إبراهيم -النخعي- أنَّه: «أرسل إليه زمان المختار بن أبي عبيد، فطلىٰ وجهه بطلاء، وشرب دواء، ولم يأتهم، فتركوه»[(٣)].

وعن محمد بن محمد بن سليمان الباغندي، قال: كنت (بسرّ من رأىٰ)، وكان عبد الله بن أيوب المخرّمي يقرب إليّ، فخرج توقيع الخليفة بتقليده القضاء، فانحدرت في الحال من (سرّ من رأىٰ) إلىٰ بغداد، حتىٰ دققت علىٰ عبد الله بن أيوب، بابه، فخرج إليّ.

فقلت: لك البشرىٰ.

فقال: بشّرك الله بخير، وما هي؟

قال: قلت: خرج توقيع السلطان بتقليدك القضاء، لأحد البلدين، إما سرّ من رأىٰ، أو بغداد -أبو القاسم البجلي الشك منه-.

---

(١) السير (١٦/ ٢٤٥).

(٢) تاريخ بغداد (١٥/ ٣٨٩).

(٣) حلية الأولياء (٤/ ٢٢٠).

قال: فأطبق الباب، وقال: بشّرك الله بالنار.

وجاء أصحاب السلطان إليه، فلم يظهر لهم، فانصرفوا[(١)].

وعن الحسن بن الربيع البوراني، قال: قرئ كتاب الخليفة إلىٰ ابن إدريس وأنا حاضر: من عبد الله هارون أمير المؤمنين، إلىٰ عبد الله بن إدريس.

قال: فشهق ابن إدريس شهقة، وسقط بعد الظهر، فقمنا إلىٰ العصر وهو علىٰ حاله، وانتبه قبيل المغرب، وقد صببنا عليه الماء، فلا شيء.

قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، صار يعرفني حتىٰ يكتب إليَّ، أي ذنب بلغ بي هذا؟!»[(٢)].

وقال بعضهم: كنت أنظر إلىٰ أبي العباس بن طالب، إذا تفرغ من القضاء بين الناس، قدم فوقف وحول وجهه إلىٰ القبلة، ثمَّ بسط كفيه، فنظرت إلىٰ دموعه وهي تجري علىٰ خديه، ولحيته، وهو يقول: اللهم إنْ كان منَّي زلة، أو هفوة، أو أصغيت بأذني إلىٰ خصم دون خصم، أو مالت نفسي إلىٰ خصم دون خصم، فأسألك أن تغفر لي ذلك، ولا تؤاخذني، ولا تنتقم مني، إنَّك علىٰ كل شيءٍ قدير، ثمَّ يصلي علىٰ محمد ﷺ، وينصرف، هكذا يعمل في كل مجلس[(٣)].

وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال: أراد هشام بن عبد الملك أن يوليني خراج مصر، فأبيت، فغضب حتىٰ اختلج وجهه، وكان في عينه الحول، فنظر إليّ نظر منكر، وقال: لتلين طائعًا أو لتلين كارهًا، فأمسكت عن الكلام حتىٰ سكن غضبه، فقلت: يا أمير المؤمنين أتكلم؟

(١) نشوار المحاضرة (٤/ ١١٣).

(٢) السير للذهبي (٩/ ٤٦).

(٣) ترتيب المدارك (٤/ ٣٢٣).

قال: نعم.

قلت: إنَّ الله قال في كتابه العزيز ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾.

فوالله يا أمير المؤمنين ما غضب عليهن إذ أبين، ولا أكرههن إذ كرهن، وما أنا بحقيق أن تغضب عليَّ إذ أبيت، وتكرهني إذ كرهت، فضحك وأعفاني[1].

وكان عيسىٰ بن مسكين: إذا تحدث عن أيام قضائِهِ، يقول: كنت في بليتي. وكنت أيام تلك المحنة، ولما تاب الأمير ابراهيم، وتخلىٰ عن الملك، وتوجه الىٰ الجهاد، قصده عيسىٰ بن مسكين، فقال له: إنَّ الله عافاك ممَّا ابتلاك به. فاعفني ممَّا أدخلتني فيه؛ فقد كبر سني، وضعف بدني. فعافاه[2].

وحكىٰ أخو ابن الأثير الجزري عنه، قال: جاء مغربي عالج أخي بدهن صنعه، فبانت ثمرته، وتمكن من مد رجليه، فقال لي: أعطه ما يرضيه واصرفه.

قلت: لماذا، وقد ظهر النجح؟

قال: هو كما تقول، ولكنَّي في راحةٍ من ترك هؤلاء الدولة، وقد سكنت نفسي إلىٰ الانقطاع والدعة، وبالأمس كنت أُذلُّ بالسعي إليهم، وهنا فما يجيئوني، إلا في مشورة مهمة، ولم يبقَ من العمرِ إلا القليل[3].

---

(١) تاريخ دمشق (٧٤/ ٣١-٣٢).
(٢) ترتيب المدارك (٤/ ٣٥٠).
(٣) السير (٢١/ ٤٩١).

وعن عمران بن عبد الله بن طلحة الخزاعي، قال: حجَّ عبد الملك بن مروان، فلمَّا قدم المدينة، ووقف علىٰ باب المسجد، أرسل إلىٰ سعيد بن المسيب رجلا يدعوه ولا يحركه.

فأتاه الرسول، وقال: أجب أمير المؤمنين، واقف بالباب يريد أن يكلمك.

فقال: ما لأمير المؤمنين إليَّ حاجة، وما لي إليه حاجة، وإنَّ حاجته لي لغير مقضية[١].

فرجع الرسول، فأخبره، فقال: ارجع، فقل له: إنَّما أريد أن أكلمك، ولا تحركه.

فرجع إليه، فقال له: أجب أمير المؤمنين.

فرد عليه مثل ما قال أولا.

فقال: لولا أنَّه تقدم إليَّ فيك، ما ذهبت إليه إلا برأسك، يرسل إليك أمير المؤمنين يكلمك تقول مثل هذا!

فقال: إن كان يريد أن يصنع بي خيرًا فهو لك، وإن كان يريد غير ذلك، فلا أحل حبوتي حتىٰ يقضي ما هو قاض.

فأتاه، فأخبره، فقال: رحم الله أبا محمد، أبىٰ إلا صلابة[٢].

---

(١) ونحوِ هذا روي عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: عندما طلب منه الدخول علىٰ الخَليفة ليأمره ويَنهاه. فقال: «ما له في رُؤيتي خير، ولا لي في رُؤيته خير؛ يجب عليّ إذا رايتُه أن آمره وأنهاه، الدُنُو منهم فِتنة، والجُلوس معهم فتنة، ونَحن متباعدون منهم ما أرانا نَسْلَم، فكيف لو قربنا منهم». كما في «أخبار الشيوخ» للمروذي (ص٤٢)، وعنه ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص٥٠٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٢٧)، وهو في «الطبقات» لابن سعد (٥/ ٩٧-٩٨).

وقال سعد الدين الجويني عن أبي بكر الشعبي الزاهد (ت٦٤١هـ) كان من صلحاء الأبدال، صاحب علم وعمل ورياضات ومجاهدات، سألني السلطان الملك المظفر أن أقول له أن يأذن له في زيارته فلم يجب، وقال: أنا أدعو له أن يصلحه الله لنفسه ولرعيته فيجتهد ألا يظلم[1].

وقال تقيُّ الدين ابن دقيق العيد رحمه اللَّه تعالىٰ:

يقولونَ لي: هلَّا نهضتَ إلىٰ العُلا ... فمَا لذَّة عيشُ الصَّابرِ المتقنِّع
وهلَّا شددتَ الْعيسَ حتَّىٰ تحلَّها[2] ... بمصرٍ إلىٰ ظلِّ الجنابِ المرفَّع
ففيهَا مِن الأعيانِ مِن فيضِ كفِّه ... إِذَا شاءَ روَّىٰ سيله كلَّ بَلْقَعِ
وفيهَا قضاةٌ ليسَ يخفىٰ عليهمُ ... تعيّن كونَ العلمَ غيرَ مضيعِ
وفيها شيوخُ الدِّين والفضلُ والألىٰ ... يُشيرُ إليهم بالعلا كلُّ إصبعِ
وفيها، وفيها، والمهانة ذلَّة ... فقمْ واسعَ واقصدْ بأَب رزقكَ واقرعِ
فقلت: نعم! أسعىٰ إذاَ شئْتُ أن أُرىٰ ... ذليلًا مُهانًا مُستخفًّا بموضعِي
وأسعى إذا ما لذَّ لي طُولُ موقِفي ... علىٰ بابِ محجوبِ اللقاءِ مُمنَّع
وأسعىٰ إذا كانَ النَّفاقُ طريقتي ... أروحُ وأغدو في ثياب التصنعِ
وأسعىٰ إذا لم يبقَ فيَّ بقيَّة ... أراعي بهَا حقَّ التُّقىٰ والتورُّعِ
فكم بين أرباب الصدور مجالسٌ ... تشبُّ بها نارُ الغضىٰ بين أضلُعي
وكم بين أربابِ العلوم وأهلها ... إذا بحثوا في المشكلاتِ بمجمعِ
مناظرةً تُحمي[3] النفوسُ فتنتهي ... وقد شرَعوا فيها إلىٰ شر مشرعِ

(١) الوافي بالوفيات (١٠/١٦٨). والشعيبية من قرىٰ ميافارقين في الجزيرة الفراتية.
(٢) يجوز أن يكون من الإحلال، أي حتَّىٰ تنزلها، ويجوز أن يكون من الحل، أي تحل رجالها، وهو أنسب بقوله: شددت.
(٣) أي تجعلها حامية متقدة من الغضب.

إلىٰ السفهِ المزري بمنصبِ أهلِهِ ... أو الصمتِ عَنْ حقٍّ هُنَاكَ مُضيعِ
فإمَّا توقّي[١] مسلكَ الدِّين والتُّقىٰ ... وإمَّا تلقَّىٰ غُصَّة المُتَجَرِّع[٢]

وعن محمد بن عبد الله الأزدي، قال: «دعا بعض الأمراء شميطًا إلىٰ طعامه فاعتلَّ عليه ولم يأتِهِ، فقيل له في ذلك، فقال: فقد أكلةٍ أيسر عليَّ من بذل ديني لهم، ما ينبغي أن يكون بطن المؤمن أعز عليه من دينه»[٣].

وقال سليمان بن أبي شيخ: حدثني أبي، قال: «لما وجه شَرِيْكٌ إلىٰ قضاء الأهواز، جلس علىٰ القضاء، فجعل لا يتكلم حتىٰ قام، ثمَّ هرب، واختفىٰ»[٤].

ولما دخل صالح ابن الإمام أحمد إلىٰ أصبهان قاضيًا بدأ بالمسجد الجامع فصلىٰ فيه ركعتين، واجتمع الناس والشيوخ، وقرئ عهده بالقضاء الذي كتب له الخليفة، وجعل يبكي حتىٰ بكىٰ الشيوخ الذين قربوا منه، فلمَّا فرغ من قراءة العهد، جعل المشايخ يدعون له، ويقولون: «ما في بلدنا أحد إلا وهو يحب أبا عبد الله ويميل إليك».

---

(١) أي اجتناب مسلك الدين. أي هو بين أمرين: ألا يعني بأمر الدين فيخوض فيما يخوضون، غير مبال عاقبة ذلك، وإمَّا أن يبالي هذا فيحسّ الأسف والغصَّة علىٰ اقتراف الآثام في المناظرات والجدل.

(٢) معيد النعم (ص٥٩-٦٠).

(٣) مواعظ السلف (ص٨١٥) ط: الراية.

وكان يقول: «بئس العبد عبد خلق للعبادة فصدته الشهوات عن العبادة، بئس العبد عبد خلق للعاقبة فصدته العاجلة عن العاقبة، فزالت عنه العاجلة وشقي بالعاقبة».

وقال: «إنَّ الدينار والدرهم أزمة الشيطان، بهما يقود المنافقين إلىٰ السوءات».

(٤) السير (٨/ ٢٠٧).

فقال لهم: أتدرون ما أبكاني؟ «ذكرت أبي أن يراني في مثل هذا الحال؛ ولكن والله ما دخلت في هذا الأمر إلا لدين غلبني، وكثرة عيال أحمد الله تعالىٰ»[١].



(١) المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد (١/ ٤٤٤-٤٤٥).







[الفصل الرابع:

علماء اعتزلوا السلطان ونصحوا له

(الإمام سفيان الثوري أنموذجًا)]

واعلم بأنَّ المراد بما ذكرت في هذه الباب ليس الخروج علىٰ الحاكم، ولا الطعن بحكمه، وإنَّما هو قول الحق دون زيغٍ ولا شطط، واعتزال السلطان، وترك العمل والاستئثار بالوظائف من جهته، وعدم قبول عطاياه. وهذا الذي كان عليه الإمام سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان عليه جماعة من أعلام السلف وأئمتهم، كما ستراه بعون الله.

وسُفيان هو الإمام العلم الثقة سفيان بن سعيد بن مسروق الثوريُّ، كان فقيهًا، حافظًا للحديث، واسع العلم فيه، زاهدًا، خَيِّرًا، فاضلًا، دَيِّنًا، كثيرُ **الهروب من السلاطين**(١).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت لأبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق: أوصني بوصيةٍ أحفظها عنك، لعلَّ الله ينفعني بها.

فقال لي: يا سفيان! لا مُروّة لكَذُوب، ولا راحة لحسود، ولا سُؤْدد لسيئ الخلُق، ولا راحة لبخيل، ولا إخاء لملوك(٢).

قال ابن عيينة متجنبو السلطان ثلاثة: «أبو ذر في زمانه، وطاووس في زمانه، والثوري في زمانه»(٣).

---

(١) تسمية فقهاء الأمصار لابن عبد البر (ص٤٨).

(٢) تراجم حفَّاظ الحديث ونقَّاد الأثر (٢/ ٤٣).

(٣) تحفة الأحوذي (١/ ٣١٩) ط: التوفيقية.

وقال: «الرجال ثلاثة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثَّوري في زمانه»[١].

قال أبو حاتم الرازي عن سفيان الثوري: «هو إمام أهل العراق»[٢].

وقال وكيع: قال لنا أهل البصرة: وازنونا برجالنا ورجالكم فقالوا: عندنا أيوب، ويونس، وابن عون، قال: «فوازناهم بسفيان، ومنصور، ومسعر، وكان أجمع الستة سفيان»[٣].

وقال الإمام الكبير يحيىٰ بن معين: «سفيان أمير المؤمنين في الحديث»[٤].

وقال ابن أبي عمر: «وكان سفيان من معادن الصدق»[٥].

وحقَّ أنْ يُقال فيه:

علَّامةُ العُلَمَاءِ واللُّج الَذِي ... لا ينْتَهي، ولِكُلِّ بَحرٌ سَاحلُ[٦]

وكأنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ الذي عنته العالمة زينب بن محمد الغزي:

إنَّما العالمُ الَذِي ... جَمعَ العِلمَ واكْتَملْ
قَامَ فيهِ بِحقّهِ ... يُتْبعُ العِلمَ بالعَمَلِ
سَهَرَ الَّليّلَ كلَّه ... بنشَاطٍ بِلَا كَسلِ
فَهُو فِي اللهِ دابُهُ ... أبدَ الدَّهرِ لَمْ يزلْ
حَازِ عِلمًا بخَشْيةٍ ... وبدُنْيَاهُ ما اشتَغلْ

(١) مقدمة المجروحين لابن حبان (ص١٥٦) والبغوي في «الجعديات» (٢/ ٧٤٠).
(٢) شرح علل الترمذي (١/ ١٧٩).
(٣) أخبار الشيوخ (ص١٥٨).
(٤) الجرح والتعديل (٢/ ٢٢٤).
(٥) الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٨٥).
(٦) أعيان العصر (٥/ ٥).

حَاسِديه تَعجَّبُوا   لِيسَ ذَا الفضلُ بِالحِيَلْ
ذَاك مولَاهُ خَصَّهُ   بِكَمَالٍ مِنْ الأزلِ[١]

وعن أبي نعيم قال: سمعت سفيان يقول: «إنِّي لأعرف رجلًا لو نكس من السماء إلىٰ الأرض، وعلَّق بعرقوبيه، أو قال: برجلِهِ، ما دخلَ السلطانُ في شيءٍ، قال: فكنَّا نرىٰ أنَّه يعني نفسه»[٢].

وقال الشيخ الزاهد العابد يوسف بن أسباط: قال لي سفيان الثوري: «إذا رأيت القارئَ يلوذُ بالسُّلطان فاعلم أنَّه لصٌّ، وإذا رأيتَه يلوذُ بالأغنياء فاعلم أنَّه مُرائي، وإيَّاك أن تخدعَ فيقال لك ترد مظلمةً أو تدفع عن مظلومٍ؛ فإنَّ هذه خدعة إبليس اتخذها للقرَّاء سُلمًا»[٣].

ورؤي رَحِمَهُ اللَّهُ حزينًا، فقيل له ما لك؟ فقال: «صرنا متجرًا لأبناءِ الدنيا، يلزمنا أحدهم، حتىٰ إذا تعلم جعل قاضيًا، أو عاملًا، أو قهرمانًا»[٤].

وذُكِر عنده الأمراء، فقال: «أترون أنِّي أخاف هوانهم، إنَّما أخاف كرامتهم»[٥].

وأخرج أبو نعيم عن محمد بن وهب، قال: أنشدني بعض أصحابنا لابن المبارك:

---

(١) شذرات الذهب (١٩/ ١٤)، و«الكواكب السائرة» (٣/ ١٥٤-١٥٥).
(٢) أخبار الشيوخ وأخلاقهم (١٧٤) (ص١١٩).
(٣) ذكره السيوطي «ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلىٰ السلاطين» برقم (٤٩)، وروي مرفوعًا وهو ضعيف، انظر: (ص٤٣). وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٨٧) من طريق الكرابيسي عن أبي صالح عن يوسف بن أسباط به. وانظر: آفات القراء في كتاب «العزلة» للخطابي (ص٢٢٣).
(٤) الإحياء (١/ ٥٧).
(٥) طبقات المحدثين بأصبهان (٢/ ٦٦).

أَلا اِقتَدَيتُم بِسُفيانَ وَمِسعَرِكُم — وَبِابنِ مَغولٍ إِذ يَجمَعهُمُ الوَرَعُ
وَبِالتَقِيِّ أَخي طَيءٍّ فَرابِعُهُم — زَينُ البِلادِ جَميعًا خَيرُةُ فَرِعُ
مِثلُ الفِراخِ تَراهُم في تَهَجُّدِهِم — سُهدُ العُيونِ فَلا غُمضٌ وَلا هَجَعُ
جُلَّسُ البُيوتِ جُثومًا في مَنازِلِهِم — إِلاّ النَوائِبَ أَو تُزعِجهُمُ الجُمَعُ
خُمصُ البُطونِ مَعَ الأَكبادِ جائِعَةٌ — لا يَطمَعونَ حَرامًا خِشيَةَ الفَزَعِ
لِلناسِ هَمّ وَهُمُّ القَومِ أَنفُسُهُم — عِندَ الحَصادِ القَومُ ما زَرَعوا[١]

وعن أحمد بن يونس قال: **قال رجل لسفيان وأنا أسمع: يا أبا عبد الله، أوصني**، قال: «إيَّاك والأهواء، إيَّاك والخصومة، وإيَّاك والسلطان»[٢]، وبنحوه من كلام أبي قلابة[٣].

وقال أحمد بن يوسف السلمي: قلت للفريابي: أوصِني؟ قال: «عليكَ بتقوىٰ اللهِ، ولزوم السنَّة، واجتنابَ السلطان»[٤].

وعن المعافىٰ قال: سمعت الثوري يقول: «إذا لم يكن لله في العبد حاجة، نبذه إلىٰ السلطان»[٥].

وعن يوسف بن أسباط قال: قلت لسفيان: معاملة الأمراء أحب إليك أم غيرهم؟ فقال لي: «معاملة اليهود والنصارىٰ أحب إليَّ من معاملة هؤلاء الأمراء»[٦].

---

(١) ما رواه الأساطين (ص٦٩).
(٢) مسند ابن الجعد (١٨١٩)، و«ذم الكلام» للهروي (٨٩٧).
(٣) كما في «جامع بيان العلم» (١٠٩٤)، عن أيوب السختياني قال: قال أبو قلابة «يا أيوب، احفظ عني ثلاث خصال: إيَّاك وأبواب السلطان، وإيَّاك ومجالسة أصحاب الأهواء، والزم سوقك فإنَّ الغنىٰ من العافية».
(٤) تاريخ الإسلام (٥/ ٤٥٥).
(٥) سير أعلام النبلاء (٩/ ٨٢).
(٦) الورع للإمام أحمد (ص٩٦).

وقال: «النَّظر إلىٰ وجه الظالم خطيئة، ولا تنظروا إلىٰ الأئمة المضلين إلا بإنكارٍ منْ قلوبِكم عليهم، لئلا تحبطَ أعمالكم»[١].

وعن عباس العنبري يقول: قال لي بشر بن الحارث: «قد فعل سفيان أمرًا صارَ فيه قدوة، هربه من السلطان».

وعنه قال: حدثني محمد بن جابر، قال: قيل لابن المبارك: يا أبا عبد الرحمن، سفيان لم يكن يأمرهم، فقال: «الله أكبر! أي أمر أشد من الفرار»[٢].

وقال: «إذا أردت أنْ تنجو فاجتنب ثلاثًا: لا تدخلنَّ علىٰ السلطان، ولا تدخل في وصية، ولا تحج عن ميت»[٣].

وقال: «العالم طبيب الدينِ، والدرهمُ داء الدين، فإذا اجتر الطبيب الداء إلىٰ نفسه فمتىٰ يداوي غيره؟»[٤].

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتمثل بهذا البيت:

بَاعُوا جَدِيدًا جَمِيلًا بَاقِيًا أَبَدًا بِدَارِسٍ خَلَقٍ يَا بِئْسَ مَا اتَّجَرُوا[٥].

وقال محمد بن المبارك، عن سفيان الثوري: أنَّه كان معه في طريق مكة، فقال لي: «ما أخاف علىٰ دمي إلا من القراء أو العلماء.

فنظرت إليه شزرًا؛ فنفض يده في وجهي، ثمَّ قال لي: أنا قلته؟ إنَّما قاله إبراهيم النَّخعي»[٦].

---

(١) حلية الأولياء (٧/ ٣٩).

(٢) أخبار الشيوخ (ص١١٠).

(٣) العزلة للخطابي (ص٢٣٤).

(٤) روضة العقلاء (ص٢٩).

(٥) حلية الأولياء (٧/ ٥).

(٦) المجالسة (٢٨٨١) (٧/ ٣٤).

وقال: «في جهنَّم وادٍ لا يسكُنُه إلا القرَّاء الزَّوَّارُونَ للملوك»[١].

وقال: «إذا مررت بدورهم، يعني السلاطين، فلا تنظر إليها فإنما بنوها لينُظر إليها، ثمَّ تلا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الحجر: ٨٨]»[٢].

وعاتب سفيان رجلًا من كتاب الأمراء عَلَىٰ كتابته معهم، وقال له سفيان: كلما دعي بأميرٍ ممَّن كتبت له دعيت أنت معه، فسئلت عمَّا جرىٰ عَلَىٰ يدك فأنت أسوؤهم حالًا.

فَقَالَ له الرجل: فكيف أصنع بعيالي؟

---

(١) جامع بيان العلم (١٠٩٧).

(٢) التذكرة الحمدونية (١/ ٢١٦). وفي هذا المقام يجمل بي ذكر نظير ذلك وشبيهه:

(١)- كان الإمام الزاهد أحمد الرفاعي رَحِمَهُ اللَّهُ لا يقوم للرؤساء، ويقول: «النَّظرُ إلىٰ وجوههم يقسي القلب» كما في «السير» (٢١/ ٨٠).

(٢)- وفي «عقلاء المجانين». لابن الضراب (ص٢٤). قال سفيان بن عيينة: قلت لبهلول المجنون: يا بهلول عظني، فقال: «الملوك، هذه قصورهم، وهذه قبورهم».

(٣)- وفي «تفسير الطبري». (١٦/ ٢١٧)، عن هشام بن عروة، قال: كان عروة إذا رأىٰ ما عند السلاطين دخل داره، فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢] ثمَّ ينادي: «الصلاة الصلاة، يرحمكم الله».

(٤)- وفي «الحلية» لأبي نعيم (٧/ ٤٠)، قال الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تنظروا إلىٰ دورهم، ولا إليهم إذا مروا علىٰ المراكب».

(٥)- وفي «الجواهر المجموعة والنوادر المسموعة» للسخاوي (٩٩)، عن بشير بن الحارث قال: «النظر في وجه الظالم غيظ، وفي وجه الأحمق سُخنة عين، وإلىٰ البخيل قساوةُ قلب».

(٦)- وفي «الحلية» (٨/ ٣٦٤) عن معروف الكرخي، أنَّه كان يقول عند ذكر السلطان: «اللهم لا ترنا وجه من لا تحب النظر إليهم».

فَقَالَ سفيان: اسمعوا هذا، يقول إذا عصىٰ الله رُزق عياله، وإذا أطاع الله ضُيع عياله، ثمَّ قال سفيان: «لا تقتدوا بصاحب عيال، فما كان عذر من عوتب إلا أنْ قال: عيالي»(١).

وعن أحمد بن يونس: سمعت الثوري ما لا أحصيه، يقول: «اللهم سلم سلم، اللهم سلِّمنا، وارزقنا العافية في الدنيا والآخرة»(٢).

وقال يحيىٰ بن يمان: «كان الفقراءُ في مجلس سفيان هم الأمراء»(٣).

وأخرج ابن النجار في «تاريخه» عن سفيان الثوري قال: «ما زال العلم عزيزًا، حتىٰ حمل إلىٰ أبواب الملوك فأخذوا عليه أجرًا، فنزع الله الحلاوة من قلوبهم ومنعهم العلم به»(٤).

وعن بشر، قال: سألت قاسًما الجرمي عَنْ رجل يحلفه السلطان ما يعرف دكان فلان؟ قال: كان سفيان يقول: «يحلف ولا كفارة عليه»(٥).

وكان يقول: «هذا زمان السكوت، ولزوم البيوت»(٦).

وعن سعير بن الخمس، قال: رأيت سفيان بمكة معه شيخ، فقال لي: اذهب بنا إلىٰ هذا، فإنَّه قد تعرض لصاحبنا هذا.

قال: قلت: اللهم غفرًا، أنا أذهب إليه فأسلم عليه بالإمرة وأعزيه علىٰ ابنه مات، وأنت لا تسلم عليه!! قال: اللهم غفرًا.

---

(١) شرح «إن أغبط أوليائي» (٢/ ٧٤٥)، و(٤/ ٤١٨) ت: النجار.
(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٤٣).
(٣) المجالسة (٢٩٥١).
(٤) ما رواه الأساطين (ص٥٨).
(٥) تهذيب الكمال (٢٣/ ٤٦٤).
(٦) العزلة للخطابي (ص٨٩).

فذهبت معه، فدخلنا عليه، فسلمت وعزيته، ولم يسلم سفيان ولم يعز، إلا أنه قال: يا محمد بن إبراهيم، قد وعظت بابنك إنْ اتعظت، ما لك ومال صاحبنا هذا، قال: إنمَّا أردت أوليه القضاء.

قال: لا حاجة له به.

قال: قد أعفيناه[1].

وعن الهيثم بن جميل، قال: سمعت مهلهلًا، يقول: خرجت مع سفيان إلىٰ مكة. قال: وحجَّ الأوزاعي، فترافقنا في بيت، فبينما نحن ذات يوم جلوس دخل خصي فقال: الأمير جاء إليكم، وعلىٰ النَّاسِ عبد الصمد بن علي.

قال: فأمَّا أنا والأوزاعي فثبتنا، وأما سفيان فدخل . . .، فما كان بأسرع من أن جاء عبد الصمد فدخل، فأمَّا الأوزاعي فسلم عليه فقال: أين عبد الله؟ قال مهلهل: فقلنا: دخل لحاجته. فقمت إليه فقلت: إنَّ الرجل ليس يبارح أن تخرج.

قال: فألقىٰ رداءه، وخرج في إزار، وليس عليه رداء ولا قميص، وكان عظيمَ البطن، فسلم ورمىٰ بنفسه وسط البيت.

فقال عبد الصمد: يا أبا عبد الله إنَّك رجل أهل المشرق وعالمهم، بلغني قدومك فأحببت الاقتداءَ بك.

قال: فأطرق سفيان، ثمَّ قال: ألا أدلك علىٰ خيرٍ ممَّا جئت له.

قال: وما هو؟

قال: تعتزل ما أنت فيه.

قال: فقلت إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، تستقبل عبد الصمد بهذا؟

(١) أخبار الشيوخ (ص٤٧)، و«الجليس الصالح» لسبط ابن الجوزي (ص٢٠٢).

قال: فتغير لونه، وقال: يا أبا عبد الله إنَّ أبا جعفر لا يرضىٰ حتىٰ بهذا، وقام فخرج مغضبًا[١].

وعن يحيىٰ بن عبد الملك بن أبي غنية، قال: كنا عند سفيان فأتاه رجل فسلم عليه، فأعرض عنه سفيان، فقال له الرجل: يا أبا عبد الله، أما تعرفني؟ أنا جليسك، فلم يكلمه، وجعل يعرض عنه، فلما طال بالرجل وجعل لا يكلمه ويعرض عنه انصرف، فقال لنا سفيان: تدرون ما قصة هذا؟ هذا كان لنا جليسا، وكنا نوده ونقربه، فذهب فداخل السلطان، وهو يرىٰ أنا له علىٰ ما كنا له، ما أبعده من ذلك، ونحو هذا.

وعن محمود بن غيلان يقول: سلمتُ علىٰ مؤمل بن إسماعيل فلم يرد عليَّ، وسلمت عليه مرةً أخرىٰ فلم يرد عليَّ، فقلت: ما حالي؟ فقال الفزاري الشيخ المخضوب إلىٰ جانبه يصلي: تدري ما قال سفيان؟

قال: كان إذا بلغه أنَّ رجلًا أتىٰ السلطان، أمره ونهاه، فإن قبل وإلا هجره.

وسمعت أبا عبد الله يقول: حدثنا سفيان قال: لقيني مُطرَّف، وهو علىٰ حمار، فقال: ما لك لا تأتينا؟ قلت: وليت شيئًا من الصدقة، قال فبكىٰ، وقال: تغفلوني![٢].

وعن أبي الحسن بن إبراهيم البياضي، قال: أخبرت أنَّ أمير المؤمنين هارون الرشيد قال لزبيدة: أتزوج عليك، قالت زبيدة: لا يحل لك أن تتزوج علي، قال: بلىٰ، قالت زبيدة: بيني وبينك من شئت، قال: ترضين بسفيان الثوري؟ قالت: نعم، قال: فوجه إلىٰ سفيان الثوري فقال: إن زبيدة تزعم أنه لا يحل لي أن أتزوج عليها وقد قال الله تعالىٰ:

---

(١) المعرفة والتاريخ (١/ ٧٢٤).

(٢) أخبار الشيوخ (ص٦١-٦٣)، ونص مطرف انظره في «طبقات ابن سعد» (٦/ ٣٤٥).

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ [النِّسَاءِ: ٣] ثم سكت، فقال سفيان: تمم الآية يريد أن يقرأ: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ وأنت لا تعدل، قال: فأمر لسفيان بعشرة آلاف درهم فأبىٰ أن يقبلها(١).

[نصحه لأبي جعفر المنصور]

سمعت سفيان الثوري يقول: أدخلتُ علىٰ أبي جعفر بمنىٰ، فقلت: اتقِ الله؛ فإنَّما أُنزلت هذه المنزلة، وصرت في هذا الموضعِ بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤُهم يموتون جوعًا، حج عمر بن الخطاب ﷺ فما أنفق إلا خمسة عشر دينارًا، وكان ينزل تحت الشَّجر.

فقال لي: فإنمَّا تريدُ أنْ أكونَ مثلَك.

قال: قلت: لا تكُن مثلي؛ ولكن كنْ دونَ ما أنتَ فيه، وفوقَ ما أنا فيه.

فقال: لي اخرُج.

[نصحه للمهدي]

وعن عبد الرحمن بن مهدي يقول: سمعت سفيان يقول: لما أخذت بمكة وأدخلت علىٰ المهدي؛ قال: قلت في نفسي: قد وقعت يا نفس؛ فاستمسكي.

قال عبد الرحمن: قد كنت أحب أن يقول غير هذا -يعني من التوكل وأشباهه- قال: وإلىٰ جنبه أبو عبيد الله؛ فقال: لي عبيد الله ألست سفيان؟ قلت: بلىٰ.

قال: إنَّ كتبك لتأتينا أحيانًا.

قال: قلت: ما كتبت إليك كتابا قطُّ.

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٧٨).

قال: فأيُّ شيءٍ دخله.

وعن الربيع بن سليمان، قال: سمعت الشافعي يقول: دخل سفيان الثوري علىٰ أمير المؤمنين، فجعل يتجان عليهم ويمسح البساط، ويقول: ما أحسنه! ما أحسنه! بكم أخذتم هذا؟ ثمَّ قال: البول، البول. حتىٰ أخرج.

قال أبو محمد: قلت: يعني أنَّه احتال بما فعل؛ ليزهدوا فيه، فيتباعد منهم، ويسلم من شرهم[١].

[محنة سفيان وهروبه من السلطان]

ذكر الإمام الذهبي قائلًا: «قدم سفيان البصرة، والسلطان يطلبه، فصار إلىٰ بستان، فأجر نفسه لحفظ ثماره، فمر به بعض العشارين، فقال: من أنت يا شيخ؟

قال: مِن أهل الكوفة.

قال: أرطبُ البصرة أحلىٰ، أم رطب الكوفة؟

قال: لم أذق رطب البصرة!

قال: ما أكذبك! البرُّ والفاجر، والكلاب يأكلون الرطبَ الساعة.

ورجع إلىٰ العامل، فأخبره ليعجبه، فقال: ثكلتك أمك! أدركه، فإن كنت صادقًا، فإنَّه سفيان الثوري، فخذه لنتقرب به إلىٰ أمير المؤمنين، فرجع في طلبه، فما قدر عليه»[٢].

وفي «الحلية لأبي نعيم» عطاء بن مسلم، قال: «لما استخلف المهدي بعث إلىٰ سفيان، فلما دخل خلع خاتمه، فرمىٰ به إليه فقال:

---

(١) كتاب الجرح والتعديل (١/ ١٠٥ وما بعد).

(٢) السير (١٣/ ٢٩٨).

يا أبا عبد الله، هذا خاتمي فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة، فأخذ الخاتم بيده وقال: تأذن في الكلام يا أمير المؤمنين؟

قال عبيد: قلت لعطاء: يا أبا مخلد، قال له: يا أمير المؤمنين؟

قال: نعم، قال: أتكلم علىٰ أنَّي آمن؟

قال: نعم، قال: لا تبعث إليَّ حتىٰ آتيك، ولا تعطني شيئًا حتىٰ أسألك[١].

قال: فغضب من ذلك وهم به، فقال له كاتبه: أليس قد أمنته يا أمير المؤمنين؟

قال: بلىٰ، فلمَّا خرج حف به أصحابه فقالوا: ما منعك يا أبا عبد الله وقد أمرك أنْ تعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة؟

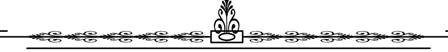
قال: فاستصغر عقولهم، ثمَّ خرج هاربًا إلىٰ البصرة»[٢].



---

(١) وفي «الطبقات» لابن سعد (٦/ ٧٦)، عن ميمون بن مهران أنَّ عامر بن عبد قيس بعث إليه أمير البصرة فقال: إنَّ أمير المؤمنين أمرني أنْ أسألك ما لك لا تزوج النساء؟ قال: ما تركتهن وإنِّي لذائب الخطبة. قال: وما لك لا تأكل الجبن؟ قال: إنَّا بأرض بها مجوس فما شهد شاهد من المسلمين أنَّه ليس فيه ميتة أكلته. قال: وما يمنعك تأتي الأمراء؟ قال: «لدىٰ أبوابكم طلاب الحاجات فادعوهم فاقضوا حوائجهم ودعوا من لا حاجة له إليكم».

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٤٠).





[الفصل الخامس:

في الدخول عليهم والمخالطة لهم]

ومن نهىٰ عن قبول جوائز السلطان فهو عن الدخول إليهم، وعدم الجلوس معهم أشدُّ نهيًا، ومن خلال التأمل في كلام أهل العلم وتراجمهم، نجد أنهَّم يجوزون ذلك في نطاق محدد، ومن ذلك:

أحدهما: إلزام من جهتهم يُخاف من الخلاف فيه الأذىٰ.

الثاني: أن يدخل عليه السلطان زائرًا[(١)].

الثالث: أن يدخل في شفاعة من يستحق الشفاعة، فيكون بذلك عصم دم غيره، وحفظ ماله، ومن ذلك كما يحكىٰ عن بعض أهل المناصب الدينيَّة أنَّ سلطان وقته أراد ضرب عنق رجلٍ، لم يكن قد استحق ذلك شرعًا، فما زال العالم يدافعه ويصاوله ويحاوره، حتىٰ كان اخر الأمرِ الذي انعقد بينهما علىٰ أنَّ ذلك الرجل يضرب بالعصا علىٰ شريطة اشترطها السلطان، وهو أن يكون الذي يضربه ذلك العالم، فأخرج الرجل إلىٰ مجمع الناس الذين يحضرون في مثل ذلك للفرجة، فضربه -أي العالم- ضرباتٍ فتفرق ذلك الجمع، وهم يشتمون أقبح شتمٍ وهو غير ملومين؛ لأنَّ هذا في الظاهر منكر، فكيف تولاه من هو مرجوٌ للإنكارِ مثل ذلك، ولو انكشفتم لهم الحقيقة واطلعوا علىٰ أنه بذلك انقضه من القتل، وتفاده بضرب العصا عن ضرب السيف، لرفعوا أيديهم بالدعاء له، والترضي عنه.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص٩٥).

ويظنُّ الجهولُ قَدْ فَسَد الأمْـ ـرُ وَذَاكَ الفَسَادُ عيْنُ الصَّلَاحِ

ومِن هذا القبيل ما حكاه «صاحب الشقائق» أنَّ سلطان الرومِ بقتل جماعة كثيرة من أهل الأسواق، لكونهم لم يمتثلوا من أمره به من تسعير بعض البضائع، فخرج السلطان وقد صُفوا للقتل؛ فقام بعض العلماء وقرب من السلطان وهو راكب؛ فقال: هؤلاء لا يسوغ قتلهم في الشريعة.

فذكر له السلطان أنهم خالفوا أمره، وأنه لا عذر من قتلهم، فقال العالم: هم يذكرون أنه لم يبلغهم ما عزم عليه السلطان، فوقف السلطان مركوبه، وقد ظهر عليه من الغضب ما ظهر أثره ظهورًا بينًا، وقال: ليس هذا من عهدتك، فقال: لا، هو من عهدتي؛ لأنَّ فيه حفظ دينك وهو من عهدتي، فأطلقه السلطان وسلم.

قال الشوكاني: فانظر هذا العالم وبصره في إنكار المنكر، فإنَّه لو قال له ابتداءً: إنَّ مخالفة أمرك لا توجب عليهم القتل، لكان ذلك القول مما يوبقهم لا مما يطلقهم، ولو سكت عند قول السلطان: ليس هذا من عهدتك، لكنه جاء بوسيلة مقبولةٍ تأثر في النفس أعظم تأثير . . .[(١)].

وعن يزيد بْن حَاتِم قَالَ: جاء زفر بْن الهذيل إلىٰ يزيد بْن المهلب وهو فِي حبس الحجاج فقال لابنه مخلد استأذن لي عَلَىٰ أبيك فاستأذن له عليه فدخل عليه فقال: السلام عليك أيها الأمير قدرك أعظم من أن يستعان بك أَوْ يستعان عليك وقد حملت خمسين حمالة، وقد قصدتك فقال: قد أمرت لك بها وشفعتها بمثلها.

فقال زفر: والله لا أقبل منها شيئًا!

فقال يزيد: ولم؟

---

(١) رفع الأساطين في حكم الاتصال بالسلاطين (ص٣٧-٣٨) مطبوعة مع تعليق الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

فقال: إنِّي بذلت لك من وجهي أكثر مما بذلت لي من مالك، فخرج ولم يقبل منها شيئًا[(١)].

وكان رجاء بن حَيْوَةَ (ت١١٢هـ)، كما قال الذهبي عنه: كَبِيْرَ المنزلة عند سليمان بن عبد الملك، وعند عمر بن عبد العزيز، وأجرىٰ الله علىٰ يديه الخيرات، ثمَّ إنَّه بعد ذلك أخر، فأقبل علىٰ شأنه[(٢)].

وكان **أبو جعفر الرازي** (ت١٦٠ هـ تقريبًا) صديقًا لسفيان الثوري، وكانت له معه بضاعة، وكان يكثر الحجَّ، فكان إذا قدم الكوفة تلقاه سفيان إلىٰ القنطرة، وإذا خرج إلىٰ مكة شيعه إلىٰ النجف، فقدم سنة من السنين مدينة السلام فاجتمع إليه الأضراء، فقالوا: يا أبا جعفر، تكلم لنا أمير المؤمنين فإنَّه قد وَلىٰ علينا رجلًا يقتطع أرزاقنا، ويسيء فيما بيننا وبينه فلم يجبهم إلىٰ شيء، فبلغ ذلك سفيان، فتلقاه أسفل القنطرة، وشيعه حتىٰ جاوز النَّجف، وزاده في البر، فلمَّا كان في العام المقبل قدم أبو جعفر وهو يريد الحج، فاجتمع إليه الأضراء فكلموه بما كلموه به في العام الماضي، فرق لهم، فأتىٰ باب الذهب، فقال للحاجب: استأذن لي علىٰ أمير المؤمنين وأخبره أنَّ بالباب أبا جعفر الرازي، فأسرع الرسول أنْ ادخل، فدخل علىٰ المنصور فأكرمَه بغاية الكرامة، وجعل يسأله عن أحواله، وسأله هل له حاجة؟ فقال: نعم.

فقص عليه قصة الأضراء، فقال: يعزل عنهم كاتبهم ويولىٰ عليهم مَن أحبوا، ويؤمر لأبي جعفر بعشرة آلاف لسؤاله إيَّانا هذه الحاجة[(٣)].

وعن مبارك بن فضالة (ت١٦٤هـ)، قال: وفد ابن سوار في وفد من أهل البصرة إلىٰ أبي جعفر، فإنا لعنده ذات يوم إذ أتي برجل فأمر بقتله،

---

(١) تاريخ جرجان للسهمي (ص٥٣).

(٢) السير (٤/ ٥٦٠).

(٣) تاريخ بغداد (ترجمة: عسىٰ بن أبي عيسىٰ أبو جعفر التميمي) (١٢/ ٤٦١).

فقلت في نفسي: يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر، فقلت: يا أمير المؤمنين، ألا أحدثك حديثا سمعته من الحسن؟ قال: وما هو؟ قلت: حدثنا الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة، جمع الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فيقوم مناد من عند الله، فيقول: ليقومن من له علىٰ الله يد، فلا يقوم إلا من عفا**»، فأقبل علي، فقال: آلله لسمعته من الحسن؟ قال: قلت: آلله لسمعته من الحسن، قال: خليا عنه[١].

وعَنْ مُوسَىٰ بْن إبراهيم صاحب حماد بْن سلمة، **قال: كَانَ شبيب بْن شَيْبَة (ت١٧٠هـ) يصلي بنا فِي المسجد الشارع فِي مربعة أبي عُبَيد اللَّه**، فصلىٰ بنا يومًا الصبح فقرأ بالسجدة، وهل أتىٰ علىٰ الإنسان، فلمَّا قضىٰ الصلاة قام رجل فقال: لا جزاك اللَّه عنِّي خيرًا فإنِّي كنت غدوت لحاجة، فلمَّا أقيمت الصلاة دخلت أصلي فأطلت حتىٰ فاتتني حاجتي.

قال: وما حاجتك؟

قال: قدمت من الثغر فِي شيءٍ من مصلحته، وكنت وعدت البكور إلىٰ دار الخليفة: لا ينجز ذلك!

قال: فأنا اركب معك، فركب معه ودخل علىٰ المهدي فأخبره الخبر وقص عليه القصة، قال: فيريد ماذا؟

قال: قضاء حاجته. فقضا حاجته وأمر له بثلاثين ألف درهم، فدفعها إلىٰ الرجل ودفع إليه شبيب أربعة آلاف درهم، وَقَال له: لم تضرك السورتان[٢].

---

(١) تاريخ بغداد (ترجمة: المبارك بن فضالة) (١٥/ ٢٧٩)، والحديث بهذا السند مرسل بأقل أحواله.

(٢) تهذيب الكمال (١٢/ ٣٦٥).

وعن عمر بن حبيب العدوي القاضي (ت٢٠٧هـ)، قال: وفدت مع وفد من أهل البصرة حتىٰ دخلنا علىٰ أمير المؤمنين المأمون، فجلسنا، وكنت أصغرهم سنا، نطلب قاضيا يولىٰ علينا بالبصرة فبينا نحن كذلك، إذ جيء برجل، مقيد بالحديد، مغلولة يده إلىٰ عنقه، فحلت يده من عنقه، ثمَّ جيء بنطع، فوضع في وسطه، ومدت عنقه، وقام السيَّاف شاهر السيف، واستأذن أمير المؤمنين في ضربِ عنقه، فأذن له، فرأيت أمرا فظيعا، فقلت في نفسي: واللهِ لأتكلمنَّ فلعله أنْ ينجو، فقمت، فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مقالتي، فقال لي قل، فقلت إن أباك حدثني عن جدك، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**إذا كان يوم القيامة ينادي مناد من بطنان العرش: ليقم من علىٰ الله أجره، فلا يقوم إلا من عفا عن ذنب أخيه**»، فاعف عنه عفا الله عنك يا أمير المؤمنين، فقال لي: آلله إنَّ أبي حدثك، عن جدي، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ فقلت: آلله إنَّ أباك حدثني، عن جدك، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ فقال: صدقت، إنَّ أبي حدثني، عن جدي، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ بهذا، يا غلام أطلق سبيله، فأطلق سبيله، وأمر أن أولىٰ القضاء، ثمَّ قال لي: عمَّن كتبت؟ قلت: أقدم من كتبت عنه داود بن أبي هند، فقال: تحدث، فقلت: لا، قال: بلىٰ، فحدث فإنَّ نفسي ما طلبت مني شيئًا إلا وقد نالته ما خلا هذا الحديث، فإنِّي كنت أحب أن أقعد علىٰ كرسي، ويقالُ لي مَن حدثك؟ فأقول حدثني فلان، قال فقلتُ: يا أمير المؤمنين، فلِمَ لا تحدث؟ قال: لا يصلحُ الملك والخلافة مع الحديثِ للنَّاس[١].

---

(١) تاريخ بغداد (١٣/ ٢٧).

وهذا فرج بن كنانة (ت٢١٣هـ) ولاه الحكم بن هشام بن عبد الرحمن قضاء قرطبة سنة ثمان وسبعين. فكان قاضيًا أيام فتنة الربض، فاستنقذ الله بشفاعته كثيرًا[(١)].

وعن عبد الله بن رجاء الغداني، قال: كان لأبي حنيفة جار بالكوفة إسكاف يعمل نهاره أجمع، حتىٰ إذا جنه الليل رجع إلىٰ منزله، وقد حمل لحما فطبخه، أو سمكة فيشويها، ثم لا يزال يشرب حتىٰ إذا دب الشراب فيه غنىٰ بصوت، وهو يقول:

أضاعوني وأي فتىٰ أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتىٰ يأخذه النوم، وكان أبو حنيفة يسمع جلبته كل يوم، وكان أبو حنيفة يصلي الليل كله، ففقد أبو حنيفة صوته، فسأل عنه، فقيل: أخذه العسس منذ ليال وهو محبوس، فصلىٰ أبو حنيفة صلاة الفجر من غد، وركب بغلته، واستأذن علىٰ الأمير قال الأمير: ائذنوا له، وأقبلوا به راكبًا ولا تدعوه ينزل حتىٰ يطأ البساط، ففعل، فلم يزل الأمير يوسع له من مجلسه،[(٢)] وقال: ما حاجتك؟

قال: لي جار إسكاف أخذه العسس منذ ليال، يأمر الأمير بتخليته، فقال: نعم، وكل من أخذ في تلك الليلة إلىٰ يومنا هذا، فأمر بتخليتهم أجمعين، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشي وراءه، فلما نزل أبو حنيفة مضىٰ إليه، فقال: يا فتىٰ، أضعناك؟ فقال لا، بل حفظت ورعيت، جزاك الله خيرًا عن حرمة الجوار، ورعاية الحق، وتاب الرجل ولم يعد إلىٰ ما كان[(٣)].

---

(١) ترتيب المدارك (٤/ ١٤٤)، وانظر: «تاريخ قضاة الأندلس» (ص٣٠-٣١)، و«جمهرة تراجم الفقهاء المالكية» (٢/ ٩٢٩).

(٢) وفيه أدب الأمراء مع العلماء، فتأمل.

(٣) تاريخ بغداد (١٥/ ٤٨٧)، و«حياة الحيوان» (١/ ٢٠٢)، و«العقد الفريد» (٧/ ١٦-١٧).

وكان العلامة النحوي ضياء الدين القناوي ابن الحاج (ت٥٩٩هـ) يسير في أفعاله وأقواله سيرة السلف، وملوك مصر يعظمونه ويجلون قدره ويرفعون ذكره -علىٰ كثة طعنه عليهم وعدم مبالاته بهم-، وكان القاضي الفاضل أيضًا يجله، ويقبل شفاعته، وله إليه رسائل ومكاتبات[١].

وكان السيد عبد الله بن لطف الباري الكبسي ثمَّ الصنعاني (ت١١٧٣هـ). مقبول الكلمة عند الإمام المهدي، لا ترد له شفاعة كائنة ما كانت؛ لمزيد ورعه، وعدم طمعه في شيء من الدنيا، وكذلك سائر أرباب الدولة كانوا يجلونه ويهابونه[٢].

الرابع: إن كان من يدخل عليهم يتقي الله ويقول بالصدق والحق، لا يداهن ويكذب، لأنَّه كما قيل عن بعض المتقدمين دخولك علىٰ الملوك يدعوك إلىٰ ثلاث: «إيثارك رضاهم، وتعظيمك دنياهم، وتزكيتك عملهم»[٣].

وفي «الجرح والتعديل» قيل لمالك بن أنس: إنَّك تدخل علىٰ السلطان وهم يظلمون ويجورون!

قال: «يرحمك الله؛ فأين التكلم بالحق»[٤].

وقال: «حقٌّ علىٰ كلِّ مسلم أو رجلٍ جعل الله في صدرِه شيئًا من العلم والفقه أنْ يدخل إلىٰ ذي سلطانٍ يأمره بالخير، وينهاه عن الشر،

---

(١) الوافي بالوفيات (١٦/ ١٢٣).

(٢) البدر الطالع (١/ ٣٩٣).

(٣) تنبيه الغافلين (ص٥٢٨).

(٤) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١/ ٣٠) و(ص١١١/ المقدمة) ط: الناشر المتميز، ومع ذلك امتحن مالك ﷺ في طلاق المكره، من قبل جعفر بن سليمان العباسي، كما في «تاريخ الإسلام» (٤/ ٧١٩) قال مالك: «ضُرِبت فيما ضرب فيه سعيد بن المسيب، ومحمد بن المنكدر، وربيعة، ولا خير فيمن لا يؤذىٰ في هذا الأمر».
وعن الليث بن سعد قال: «إنِّي لأرجو أن يرفعه الله بكلِّ سوطٍ درجة في الجنَّة».

ويعظه حتَّىٰ يتبين دخول العالم؛ إنَّما يدخل علىٰ السلطان يأمره بالخير، وينهاهُ عن الشر، فإذا كان فهو الفضل الذي ليس بعده فضل»[١].

وقيل: دخل مالك مرَّة وبين يديه شطرنج منصوب، وهو ينظر فيه، فوقف مالك ولم يجلس، وقال: أحق هذا يا أمير المؤمنين؟

قال: لا.

قال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ فرفع هارون رجله، وقال: «لا ينصب بين يدي بعد».

وقال لبعض الولاة يومًا: أتفتقد أمور الرعية، فإنَّك مسؤول عنهم، فإنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «والذي نفسي بيده، لو هلك حمل بشاطئ الفرات ضياعًا لظننت أنَّ الله يسألني عنهُ يوم القيامة»[٢].

وقال الفضيل رحمه الله: «أُمِرنا أن لا ندخل عليهم، فإنْ دخلنا نقول الحق»[٣].

وعن صالح بن أحمد بن حنبل سمعت أبي يقول: دخل سفيان بن عيينة علىٰ معن بن زائدة وهو باليمن، ولم يكن سفيان تلطخ بشيءٍ من أمر السلطان بعد؛ فجعل سفيان يعظه ويذكر له أمر المسلمين فجعل معن يقول له: «أبوهم أنت؟ أخوهم أنت؟»[٤].

---

(١) ترتيب المدارك (٢/ ٩٥).

(٢) ترتيب المدارك (٢/ ٩٦).

(٣) أخبار الشيوخ (ص٤٢).

(٤) الجرح والتعديل (١/ ٥٣)، ولسفيان رحمه الله أقوال نفيسة كما في «تهذيب الكمال» (١١/ ١٩٢-١٩٤) منها قوله: «الزهد في الدنيا: الصبر وارتقاب الموت».
قوله: «ليس من حب الدنيا طلبك منها مالا بد منه».
قوله: «ليس العالم الذي يعرف الخير والشر، إنمَّا العالم الذي يعرف الخير فيتبعه، ويعرفُ الشر فيجتنبه».
=

وعوتب أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه، في كثرة دخوله علىٰ السلطان، فقال: «نؤدي من حقهم»[١].

الخامس: أن يدخل فيعينه علىٰ العدل وتيسير أمور الدولة بالموجب الشرعي دون تملق أو تفلت، كما قال ابن مفلح: «وأمَّا السلطان العادل فالدخول عليه، ومساعدته علىٰ عدله، من أجل القرب؛ فقد كان عروة بن الزبير، وابن شهاب وطبقتهما من خيار العلماء يصحبون عمر بن عبد العزيز.

وكان الشعبي وقبيصة بن ذؤيب والحسن وأبو الزناد ومالك والأوزاعي والشافعي وغيرهم يدخلون علىٰ السلطان، وعلىٰ كلِّ حالٍ فالسلامةُ الانقطاع عنهم، كما اختاره أحمد وكثير مِن العلماء»[٢].

قال مالك: وكان سعيد -يعني ابن المسيب- لا يأتي أحدًا من الأمراء غير عمر، أرسل إليه عبد الملك فلم يأته، وأرسل إليه عمر فأتاه، وكان عمر يكتب إلىٰ سعيد في علمه[٣].

فإن كان الدخول إليهم يترتب عليه فتنة أو مخالفة للشريعة فلا، وروي أنَّ سعيد بن المسيب دعي إلىٰ البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك، فقال: «لا أبايعُ اثنين ما اختلف الليل والنَّهار».

= قوله: «العلم إن لم ينفعك ضرك».

قوله: «تدرون ما مثل العلم؟ مثل العلم: مثل دار الكفر ودار الإسلام، فإن ترك أهل الإسلام الجهاد جاء أهل الكفر فاخذوا الإسلام، وإن ترك الناس العلم صار الناس جهالًا».

وقوله: «الزهد فيما حرم الله، فأما ما أحل الله فقد أباحكه الله، فإنَّ النبيين قد نكحوا وركبوا ولبسوا وأكلوا، ولكن الله -تعالىٰ- نهاهم عن شيء فانتهوا عنه وكانوا به زهادًا».

(١) الأموال لابن زنجويه (٥٣) (١/ ٨٩).

(٢) الآداب الشرعية (٣/ ٤٧٨).

(٣) تهذيب الكمال (٢١/ ٤٣٨) وعمر هنا ابن عبد العزيز رحمه الله.

فقالوا: ادخل مِن هذا الباب واخرج من الآخر، قال: «لا واللهِ لا يقتدي بي أحد من النَّاس»، فجلد مائه وأُلْبِسَ المسُوح[1].

قال الوزير اليماني في «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم» في الحديث عن مخالطة السلطان: واعلم أنَّ مخالطتهم أقسام:

القسم الأول: المخالطة لمجرد التناول مما في أيديهم من بيوت الأموال، وحقوق المسلمين، فهذا نقصٌ من مرتبة الزهادة، وشينٌ في أهل العلم والعبادة، ولكنَّه لا ينحطُ إلىٰ مرتبة التحريم، فإنَّ حب الدنيا، وإن كان مذمومًا علىٰ الإطلاق، لكنَّه يختلف؛ فمنه حرام، ومنه حلال. فالحرام منه هو حب الحرام من الدنيا، والإضراب عن الدين، وأهل هذا هم الذين ذمهم الله تعالىٰ في القرآن.

القسم الثاني: المخالطة للمصالح المتعلقة بالعامة من الشَّفاعة للفقراء، والتبليغ بالمظلومين أو نحو ذلك، أو المصالح الخاصة بالملوك من وعظهم أو تذكيرهم وتعريفهم بما يجبُ للمسلمين وتعليمهم معالم الدين، وسواءً كان ذلك علىٰ جهة التصريحِ أو التلويح مع حسن النية، وهذا القسم يكون مستحبًا غير مكروه، وسواء كان الغرض الحاصل من ذلك تركهم للباطل كله، أو تركهم لبعضه، وتخفيفهم منه.

القسم الثالث: المخالطة للتقية، وهي جائزة، لنص القرآن، قال الله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، وسواء أظهر المخالط أنَّه خالط لأجل التقية، أو لم يظهر ذلك، فإن الأكثرين لا يتمكنون من إظهاره، بل التقية تقتضي كتم ذلك.

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٧٠)، ومختصر منهاج القاصدين (ص٩٥).

القسم الرابع: المخالطة لأجل الجهادِ والغزو معهم للكفار، ممَّن يستجيز ذلك.

القسم الخامس: المخالطة لأجل القرابة والرحامة، وهذا أيضا جائز، وقد رخص الله تعالىٰ للمسلمين في صلة المشركين علىٰ العموم إذا لم يجاهروهم بالحرب والإخراج من الديار[1].

ولنختم ذلك بكلام ابن العدوي الذي سبق ذكره: «اعلم أنَّ استيلاء الدنيا علىٰ الملوك وإقبالهم عليها ربما شغلهم عن أمر الآخرة، وأغفلهم عن مهمات الدين، فيجنحون إلىٰ اللذات ويهملون أمر الديانات؛ لأنَّ النفوس مطبوعة علىٰ الميل إلىٰ الترف وإيثار التنعم وكراهة التكليف، **فلا ينبغي أن تخلو مجالسهم من علماء الدين، وأصالح المتنسكين لينهوهم عند طريان الغفلة، ويذكروهم عند ضراوة الشهوة**، ويوضحوا لهم نهج الآخرة ومعالم الشريعة، **وقد كان ذلك شعار الملوك الغابرين، والخلفاء الراشدين في مجالسهم الحكماء واستماع مواعظ العلماء**، وكانوا في ذلك ثلاث طبقات.

١- طبقة لما سمعوا الموعظة والتذكير نبذوا ملك الدنيا الذي يفنىٰ ليعتاضوا عنه ملك الآخرة الذي يبقىٰ، واخرجوا ذلك من قلوبهم وأيديهم واهتموا بأمر الآخرة، والعمل لها لينالوا الفوز الكبير، والنعيم الدائم.

٢- طبقة عند سماع الموعظة أخرجوا ملك الدنيا من قلوبهم ولم يخرجوه من أيديهم، واهتموا بأمر الآخرة مع بقائهم في الملك وهذه الطبقة مجاهدتهم عظيمة، ومثلهم في ذلك من ألزم نفسه الظمأ وبحضرته نهر بارد ينظر إليه ويقدر علىٰ تناوله وشربه. وهذا مقام الخلفاء الراشدين، وأمرائهم وعمالهم ومن سلك سبيلهم.

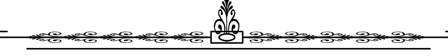
---

(١) (٨/ ١٩٠-٢٠٤) وما بعد وتفصيل في الكلام.

٣- طبقة أصمهم حب الدنيا، ونيل لذاتها، عن استماع المواعظ وأعمىٰ أبصارهم عن كل مذكر، وواعظ فآثروا اللذات علىٰ المهمات، وقطعتهم الشهوات عن أمور الديانات»[١].



(١) المنهج المسلوك في سياسة الملوك (ص٦٩٠).







الباب الرابع:

عقيدة أهل السنة والجماعة في التعامل مع الأمراء

وهذا باب زلَّت به الأقدام، واختلف فيه الأنام، ووقع النَّاسُ فيه في مشارب مختلفة، وأهواء مبتدعة، فالبعض يبدع ويفسق، والبعض لا ينكر ويجوز المنكر، أو يرضاه تحت مسمَّىٰ السياسة الشرعية، أو اعتقاد أشبه بمن يقول بالعصمة والتقية، وكلاهما نقيض لبعض، وعلىٰ شفا هلكة، والصواب في هذا أن نذكر موجزًا مختصرًا في اعتقاد أهل الحديث والأثر، أهل السنة والجماعة، ورحم الله قِوام السنَّة (ت٥٣٥هـ) إذ قال: «وممَّا يدلُ علىٰ أنَّ أهل الحديث -جعلنا الله منهم- هم علىٰ الحق، أنَّك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولهم إلىٰ آخرهم، قديمهم وحديثهم مع اختلاف بلدانهم وزمانهم، وتباعد ما بينهم في الديار، وسكون كل واحد منهم قطرًا من الأقطار، وجدتهم في بيان الاعتقاد علىٰ وتيرةٍ واحدة، ونمطٍ واحد يجرون فيه علىٰ طريقة لا يحيدون عنها، ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد ونقلهم واحد، لا ترىٰ بينهم اختلافًا، ولا تفرقًا في شيءٍ ما وإنْ قلَّ[1]، بل لو جمعت جميع ما جرىٰ علىٰ ألسنتهم، ونقلوه عن سلفهم، وجدته كأنَّه جاء من قلبٍ واحد، وجرىٰ علىٰ لسانٍ واحد، وهل علىٰ الحق دليل أبين من هذا؟»[2].

(١) يعني في الأصول.

(٢) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة (٢/ ٢٣٩) ط: الراية.

فأقول بأوجز الاختصار، مستعينًا بربي الغفار، أنَّ من عقيدة أهل السنَّة والجماعة عقد الإمامة للسلطان وبيعته، فإنَّ السلطان جُنَّة يستجنُ بها لما رواه الدارمي وغيره، عن تميم الداري رضي الله عنه، قال: تطاول النَّاسُ في البناءِ في زمن عمر رضي الله عنه فقال عمر: «يا معشر العريب، الأرض الأرض، إنَّه لا إسلام إلا بجماعةٍ، ولا جماعةَ إلا بإمارةٍ، ولا إمارةَ إلا بطاعةٍ، فمن سوَّده قومُه على الفقهِ، كان حياة له ولهم، ومن سوَّده قومه على غيرِ فقهٍ، كان هلاكًا له ولهم»[1].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا يصلح النَّاس إلا أمير بر أو فاجر. قالوا: يا أمير المؤمنين، هذا البر فكيف بالفاجر؟

قال: إنَّ الفاجر يؤمن الله عز وجل به السبل، ويجاهد به العدو، ويجبي به الفيء، وتقام به الحدود، ويحج به البيت، ويعبد الله فيه المسلم آمنا حتى يأتيه أجله»[2].

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

قال قتادة: «إنَّ نبي الله صلى الله عليه وسلم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان؛ فسأل سلطانًا نصيرًا لكتاب الله ولحدود الله، ولفرائض الله، وإقامة دين الله، فإنَّ السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغارَ بعضهم على بعض؛ فأكل شديدهم ضعيفهم».

واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح؛ لأنَّه لابدَّ مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه، يمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش

---

(١) رواه الدارمي في «سننه» (١/ ٣١٥) وابن عبد البر في «جامعه» (٢٧٤)، وسنده ضعيف.

(٢) شعب الإيمان (٧١٠٢).

والآثام ما لا يمتنع كثير من النَّاسِ بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتَّهديدِ الشديد، وهذا هو الواقع[١].

لولا الجماعة ما كانت لنا سبل وكان أضعفنا نهبًا لأقوانا[٢]

وقال أبو مسلم الخولاني: «مثل الإمام كمثلِ عينٍ عظيمةٍ صافيةٍ طيبة، الماءُ يجري منها إلىٰ نهر عظيم فيخوض النَّاس النهر فيكدرونه ويعودُ عليهم مقرُّ العين، فإذا كان الكدرُ من قبل العين فسد النَّهر».

قال: «ومثلُ الإمام والنَّاس كمثل فسطاط مستقيم أو قال: لا يستقيم إلا بعمود، ولا يقوم العمود إلا بأطناب. أو قال: بأوتاد، فكلَّما نزع ازداد العمود وهنا، فلا يصلح النَّاس إلا بالإمام، ولا يصلح الإمام إلا بالنَّاس»[٣].

قال العلامة مرعي الكرمي (ت١٠٣٣هـ): «اعلم أيدك الله، أنَّ ولاية أمور النَّاسِ من فروضِ الكفاية، وهي من أعظم واجبات الدين، ومن أهمِّ أمور المسلمين، بل لا قيام للدين والدُّنيا إلا بها، ولولاها لتعطَّلت شرائعُ الدِّين، واختلَّ نظامُ المسلمين، بل نظام جميع العالم؛ بسبب فساد بني آدم».

وقال بعضهم: «لولا السلطانُ لما قدرَ العالمُ علىٰ نشرِ علمهِ، ولا الحاكمُ علىٰ إعادة حكمه، ولا العابدُ علىٰ عبادته، ولا الصَّانعُ علىٰ صناعتِه، ولا التَّاجرُ علىٰ تجارته، ولا الزارعُ علىٰ زراعتهِ، ولانقطعت السُّبل، وتعطلت الثغور، وظهرت المصائب والشرور، ولكن من لطفِ الله تعالىٰ بعباده، ورأفتِه ببلادهِ، أجرىٰ عادته وحكمته في كلِّ زمانٍ، أن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١١) ط: طيبة.

(٢) ترتيب المدارك (٣/ ٤٥).

(٣) شعب الإيمان (٧٠١٣)، و«حلية الأولياء» (٢/ ١٢٦).

ينصب لبريَّتِهِ في الأرض سلطانٌ، ليُنصِف المظلومَ من الظالم، ويردع أهل الفساد عن المظالم، ويضعَ للرَّعيّةِ جميع المصالح، ويقابلَ كلَّ أحدٍ يستحقُّه من صالحٍ وطالحٍ»[١].

ومن عقيدة أهل السنَّة عدم الخروج علىٰ ولاة الأمر الشرعيين[٢].

ففي صحيح أبي عبد الله البخاري بإسناده، عن يحيىٰ بن سعيد، قال: سمعت أنسًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: أراد النبي ﷺ أن يقطع من البحرين.

فقالت الأنصار: حتىٰ تقطع لإخواننا من المهاجرين مثل الذي تقطع لنا. قال: «سترون بعدي أثرة، فاصبروا حتىٰ تلقوني»[٣].

قال ابن بطال: «فيه حجة في ترك الخروج علىٰ أئمة الجور، ولزوم السمع والطاعة لهم، والفقهاء مجمعون علىٰ أنَّ الإمام المتغلب طاعته لازمة؛ ما أقام الجمعات والجهاد، وأنَّ طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، ألا ترىٰ قوله ﷺ: لأصحابه: **(سترون بعدىٰ أثرة وأمورا تنكروها)** فوصف أنَّهم سيكون عليهم أمراء يأخذون منهم الحقوق ويستأثرون بها، ويؤثرون بها من لا تجب له الأثرة، ولا يعدلون فيها، وأمرهم بالصبر عليهم والتزام طاعتهم علىٰ ما فيهم من الجور»[٤].

وعن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: أنَّها قالت يومًا لمن عندها: كيف أنتم إذا دعاكم داعيانِ داعٍ إلىٰ كتاب الله وداعٍ إلىٰ سلطان الله؟ فقالوا: نجيبُ الداعي إلىٰ كتاب الله، فقالت: «لا، بل أجيبوا الداعي إلىٰ سلطان الله،

---

(١) المسارة والبشارة في فضل السلطنة والوزارة لمرعي الكرمي (٣/ ٤٥٧) و(٣/ ٤٦١).

(٢) انظر: الحجة في بيان المحجة (فصل في النهي عن سب الأمراء والولاة وعصيانهم) (٢/ ٤٣٥).

(٣) صحيح البخاري (٢٣٧٦).

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٨).

فإنَّ كتاب الله مع سلطانه»[١]. قال إسحاق: الخوارج يدعون إلىٰ كتاب الله.

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «يا بُنيَّ: إمامٌ عادل، خير من مطرٌ وابل، وأسدٌ حطوم، خير من إمامٍ ظلوم، وإمام ظلوم غشوم، خير من فتنة تدوم»[٢].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «يا أيها النَّاس عليكم بالطاعة والجماعة، فإنَّها حبل الله الذي أمر به، وإنَّ ما تكرهون في الجماعة خيرٌ لكم ممَّا تحبونَ في الفرقة»[٣].

وقال ابن عمر رضي الله عنه: دخلتُ علىٰ حفصة ونَسْواتها تَنطُفُ، قلت: قد كان من أمر النَّاسِ ما ترين، فلم يُجعل لي مِن الأمر شيءٌ.

فقالت: «الحق فإنهَّم ينتظرونك، وأخشىٰ أنْ يكون في احتباسِكَ عنهم فرقة»، فلم تدعه حتىٰ ذهب فلمَّا تفرق النَّاس خطب معاوية، قال: «مَنْ كان يريدُ أن يتكلَّم في هذا الأمر فليُطلِعْ لنا قرنه، فلنحنُ أحق به منه ومن أبيه».

قال حبيب بن مسلمة: فهلَّا أجبتَه؟ قال عبد الله: فحللت حُبْوَتي وهممت أن أقول: أحقُّ بهذا الأمر منك من قاتلك وأباكَ علىٰ الاسلام، فخشيت أن أقول كلمة تفرِّقُ بين الجمع، وتسفك الدمَ، ويحمل عنَّي غيرُ ذلك، فذكرت ما أعد الله في الجنان[٤].

---

(١) مسند إسحاق بن راهويه (١٩٤٤).

(٢) تاريخ دمشق (٤٦/ ١٨٤).

(٣) الإبانة لابن بطة (١٧٣) (١/ ٩٢-٩٣)، وذكره ابن القيم في «مدارج السالكين» (منزلة الاعتصام) (١/ ٤٥١).

(٤) صحيح البخاري (كتاب المغازي: باب غزوة الخندق) (٣٨٨٢) قوله: (نسواتها) =

قال حبيب: حُفِظتَ وعُصمتَ.

وقال سلام بن مسكين: سمعت الحسن يقول: «لما كان من أمرِ النَّاس ما كان زمن الفتنة، أتوا ابن عمر، فقالوا: أنت سيد الناس، وابن سيدهم، والنَّاسُ بك راضون، اخرج نبايعك. فقال: لا والله لا يُهراق فيَّ محِجمةٌ من دمٍ ولا في سببي[1] ما كان فيَّ روحٌ»[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «عليكم بالاستقامة، واتباع الأمراء والأثر، وإيَّاكم والتبدع»[3].

وقال الشعبي: «ما اختلفت أمة بعد نبيها، إلا ظهر أهل باطلها علىٰ أهل حقها»[4].

وعن أبي الحارث الصائغ قال: «سألت أبا عبد الله -يعني الإمام أحمد- في أمر كان حدث في بغداد وهمّ قوم بالخروج.

فقلت: يا أبا عبد الله! ما تقول في الخروج مع هؤلاء القوم؟

فأنكر ذلك عليهم وجعل يقول: سبحان الله! الدماء، الدماء لا أرىٰ ذلك ولا آمر به، الصبر علىٰ ما نحن فيه خير من الفتنة يسفك فيها الدماء ويستباح فيها الأموال، وينتهك فيها المحارم، أمَا علمت ما كان الناس فيه -يعني أيام الفتنة؟

قلت: والنَّاسُ اليوم أليس هم في فتنة يا أبا عبد الله؟

= ذوائبها قيل الأصح نوساتها. (تنطف) تقطر ماء وقيل: تتحرك. قوله: (أمر الناس) أراد ما وقع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من القتال.

(١) قال محققوه: تحرف في المطبوع إلىٰ (سبي).

(٢) السير (٣/ ٢٢٦)، و«حلية الأولياء» (١/ ٢٩٣).

(٣) السنة للمروزي (٦٨).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣١١). و«الحلية» (٤/ ٣١٣).

قال: وإن كان، فإنَّما هي فتنة خاصة فإذا وقع السيف عمت الفتنة، وانقطعت السبل. الصبر علىٰ هذا ويسلم لك دينك خير لك، ورأيته ينكر الخروج علىٰ الأئمة وقال: الدماء لا أرىٰ ذلك ولا آمر به»[(١)].

وَقَال أَحْمَد بْن عَبد اللَّهِ بْن صَالِح العجلي، عَن أَبِيهِ: هاجت فتنة بالكوفة، فعمل الْحَسَن بْن الحر طعامًا كثيرًا، ودعا قرَّاء أهل الكوفة، فكتبوا كتابًا يأمرون فيه بالكف، وينهون عن الفتنة، فدعوه، فتكلم بثلاثِ كلمات، فاستغنوا بهنَّ عن قراءة ذلك الكتاب، فقال: «رحم الله امرءًا ملكَ لسانه، وكفَّ يده، وعالج ما في صدره»[(٢)].

وقال أبو حامد الغزالي: «السلطان ضروري في نظام الدنيا، ونام الدنيا ضروري في نظام الدين، ونظام الدين ضروري في الفوز بسعادة الآخرة وهو مقصود الأنبياء قطعًا، فكان وجوب نصب الإمام من ضروريات الشرع الذي لا سبيل إلىٰ تركه فاعلم ذلك»[(٣)].

ومن عقيدة أهل السنَّة والجماعة أداء العبادات معهم.

قال الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثني معاوية بن قرة -بواسط- عن أشياخه قالوا: صلىٰ عثمان الظهر بمنىٰ أربعًا، فبلغ ذلك ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فعاب عليه، ثمَّ صلىٰ بأصحابه العصر في رحله أربعًا.

فقيل له: عتبت علىٰ عثمان وصليت أربعًا؟

فقال: «إنِّي أكره الخلاف» وفي رواية: «الخلاف شر»[(٤)].

---

(١) السنة للخلاّل (١/ ١٣٢)

(٢) تهذيب الكمال (ترجمة: الحسن بن الحُرّ النخعي) (٦/ ٨١-٨٢)

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد (ص١٢٨).

(٤) رواه البزار برقم (١٤٥٩)، وأبو يوسف في «الآثار» (١٤٥)، والشاشي في «المسند» (٤٢٦)، والبيهقي في «السنن الصغير» (٤٣٥)، وعند أبي داود في «سننه» بمتن أطول (١٩٦٠).

وقال ابن أبي شيبة: حدثنا وكيع، حدثنا بسطام[١]، قال: سألت أبا جعفر، عن الصلاة مع الأمراء، فقال: صل معهم فإنَّا نصلي معهم قد كان الحسن والحسين يبتدران الصلاة خلف مروان، قال: قلت: إنَّ النَّاس يزعمون أنَّ ذلك تقية، قال: وكيف إن كان الحسن بن علي ليسب مروان في وجهه وهو علىٰ المنبر حتىٰ يولي[٢].

وعن جعفر بن برقان قال: سألت ميمون بن مهران عن الصلاةِ خلفَ من يذكر أنَّه من الخوارج؟

فقال: «إنَّك لا تصلي له، إنَّما تصلي لله، قد كنَّا نصلي خلف الحجاج وهو حروري أزرقي. فنظرت إليه، فقال: أتدري ما الحروري الأزرقي؟ هو الذي إذا خالفت آية سماك كافرًا، واستحل دمك، وكان الحجاج كذلك»[٣].

وقال الحسن في الأمراء: «هم يلونَ مِن أمورنا خمسًا: الجمعة والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود، والله ما يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر ممَّا يفسدون، مع أنَّ -والله- إن طاعتهم لغيظ، وإن فرقتهم لكفر»[٤].

وأخرج أبو أحمد الحاكم في «شعار أصحاب الحديث» بسندهِ عن أبي رجاء قتيبة بن سعيد قال: «هذا قول الأئمة المأخوذ في الإسلام والسنة: الرضا بقضاء الله، والاستسلام لأمره، والصبر علىٰ حكمه، والإيمان بالقدر خيره وشره، والأخذ بما أمر الله ﷻ، والنهي عما

---

(١) في طبعة عوامة (بسام)، والمثبت من طبعة الحوت.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧٦٥٠).

(٣) فتح الباري لابن رجب (٦/ ١٨٧) ط: الحرمين.

(٤) جامع العلوم والحكم (ص٤٥٨) ط: الدار العالمية.

نهىٰ الله عنه، وإخلاص العمل لله، وترك الجدال والمراء والخصومات في الدين، والمسح علىٰ الخفين، **والجهاد مع كل خليفة جهاد الكفار لك جهاده وعليه شره**، والجماعة مع كل بر وفاجر -يعني الجمعة والعيدين- والصلاة علىٰ من مات من أهل القبلة سنة. والإيمان قول وعمل، الإيمان يتفاضل، والقرآن كلام الله ﷻ وأن لا ننزل أحدًا من أهل القبلة جنة ولا نارًا، ولا نقطع الشهادة علىٰ أحد من أهل التوحيد، وإنَّ عمل بالكبائر، ولا نكفر أحدًا بذنب إلا ترك الصلاة، وإنْ عمل بالكبائر، **وأن لا نخرج علىٰ الأمراء بالسيف وإنْ حاربوا**[1]، ونتبرأ من كل من يرىٰ السيف في المسلمين كائنًا من كان، وأفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثمَّ عمر ثمَّ عثمان، والكف عن مساوئ أصحاب محمد ﷺ، ولا يذكر أحد منهم بسوء، ولا ينتقص أحد منهم، ونؤمن بالرؤية، والتصديق بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ في الرؤية حق واتباع كل ما جاء عن رسول الله ﷺ إلا أن يعلم أنه منسوخ فيتبع ناسخه . . .»[2].

وقال أبو جعفر الطحاوي: «والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين، برهم وفاجرهم، إلىٰ قيام الساعة، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا، ويحافظون علىٰ الجماعات. ويدينون بالنصيحة للأمة»[4].

---

(١) هكذا في المصدر، وأقول ولعلها (وإن جاروا)، والله أعلم.
(٢) شعار أصحاب الحديث (ص٤٠) ط: دار البشائر.
(٣) العقيدة الطحاوية (ص٧١) ط: المكتب الإسلامي.
(٤) الواسطية (ص٢٥٧) ط: الهراس.

وقال أبو إسحاق الشاطبي: «كذلك الجهاد مع ولاة الجور قال العلماء بجوازه، قال مالك: لو ترك ذلك كان ضررًا علىٰ المسلمين، فالجهاد ضروري، والوالي فيه ضروري، والعدالة فيه مكملة للضرورة، والمكمل إذا عاد للأصل بالإبطال، لم يعتبر، ولذلك جاء الأمر بالجهاد مع ولاة الجور عن النبي ﷺ، وكذلك ما جاء من الأمر بالصلاة خلف الولاة السوء فإنَّ في ترك ذلك ترك سنة الجماعة، والجماعة من شعائر الدين المطلوبة، والعدالة مكملة لذلك المطلوب، ولا يبطل الأصل بالتكملة»[(١)].

ومن عقيدة أهل السنَّة هيبتهم للأمراء وزرع ذلك في نفوس عامة الناس. عن معاذ رضي الله عنه قال: عهد إلينا رسول الله ﷺ في خمسٍ من فعل منهنَّ كان ضامنًا علىٰ الله: «**من عاد مريضًا، أو خرج مع جنازةٍ، أو خرج غازيًا في سبيل الله، أو دخل علىٰ إمام يريد بذلك تعزيره وتوقيره، أو قعد في بيته فيسلم الناس منه ويسلم**»[(٢)].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أكرم سلطان الله في الدنيا، أكرمه الله يوم القيامة، ومن أهان سلطان الله في الدنيا، أهانه الله يوم القيامة**»[(٣)].

---

(١) الموافقات (٢/ ٢٧-٢٩).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٢٢٠٩٣)، وصححه الثلاثة: ابن خزيمة في «صحيحه» (١٤٩٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦٧).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢٠٤٣٣)، وإسناده ضعيف، والترمذي في «السنن» (٢٢٢٤) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والطيالسي (٨٨٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠١٧) و(١٠١٨) و(١٠٢٤)، والبزار في «مسنده» (٣٦٧٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٤١٩).

وعن الشعبي، أنَّ العباس بن عبد المطلب ﵁ قال لابنه عبد الله: يا بنيَّ، أرىٰ أمير المؤمنين يدنيك، فاحفظ مني خصالًا ثلاثة: «لا تفش له سرًا، ولا يسمعن منك كذبًا، ولا تغتابن عنده أحدًا»(١).

وعن زيد بن أبي الزرقاء، قال: حدثنا سفيان، عن أبيه، قال: كان الأحنف بن قيس وأناس يذكرون السلطان، فقال الأحنف: «إنَّكم قد أكثرتم في سلطانكم، فلو كان معتبكم كان قد أعتبكم، فاختاروا بينه وبين أمر الجاهلية»(٢).

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه: سمعت أبا يوسف القاضي يقول: خمسة تجب علىٰ الناس مداراتهم: «الملك المسلط، والقاضي المتأول، والمريض، والمرأة، والعالم ليقتبس من علمه»(٣).

وقال سهل بن عبد الله ﵀: «لا يزالُ النَّاسُ بخيرٍ ما عظموا السلطان والعلماء، فإذا عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وإذا استخفوا بهذين أفسد دنياهم وأخراهم»(٤).

وقال الحافظ ابن كثير الدمشقي: «لولا إقامة الملوك حكامًا علىٰ النَّاس لأكل قوي النَّاس ضعيفهم».

ولهذا جاء في بعض الآثار: «السلطانُ ظلُّ الله في أرضِهِ»(٥).

وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان﵁: «إنَّ الله ليزعُ بالسلطانِ ما

(١) اعتلال القلوب للخرائطي (٢/ ٣٤١) ط: الباز.
(٢) تاريخ بغداد (١١/ ٢٧١) ط: الغرب.
(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٤/ ١٧٣) ط: الرسالة.
(٤) تفسير القرطبي (سورة النساء: ٥٩) (٦/ ٤٣٢) ط: عالم الكتب.
(٥) قلت: يروىٰ مرفوعًا عند البزار في «المسند» (٥٣٨٣)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٤٠٢)، وفي سنده سعيد بن سنان، وهو متهم بالوضع، وانظر: شعب الإيمان للبيهقي (فصل: في فضل الإمام العادل) (٦٩٨٤/ وما بعد).

لا يزعُ بالقرآن»[1].

وقيل: «لأكثم بن صيفيّ: صِف لنا الحرب، فقال: أقلّوا الخلاف علىٰ أمرائكم، فلا جماعة لمن اختلف عليه»[2].

وعن أبي الشعثاء، قال: «دخل نفر علىٰ عبد الله بن عمر من أهل العراق فوقعوا في يزيد بن معاوية فتناولوه فقال لهم عبد الله: هذا قولكم لهم عندي أتقولون هذا في وجوههم؟ قالوا: لا بل نمدحهم ونثني عليهم فقال ابن عمر: هذا النِّفاق عندنا»[3].

وعن الزهري، قال: أخبرني عروة بن الزبير، أن المسور بن مخرمة أخبره أنَّه قدم وافدًا علىٰ معاوية بن أبي سفيان فقضىٰ حاجته، ثمَّ دعاه فأخلاه، فقال: يا مسور، ما فعل طعنك علىٰ الأئمة؟ فقال المسور: دعنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له.

قال معاوية: لا، والله ولتكلمنَّ بذات نفسك، والذي تعيب علي.

قال المسور: فلم أترك شيئا أعيبه عليه إلا بينته له.

قال معاوية: لا برئ من الذنب.

فهل تعد يا مسور ما نلي من الإصلاح في أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها؟ أم تعد الذنوب وتترك الحسنات؟ قال المسور: لا، والله ما نذكر إلا ما ترىٰ من هذه الذنوب.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٣٠١) ط: هجر.

(٢) التذكرة الحمدونية (٢/ ٣٩٧).

(٣) رواه الفريابي في «صفة النفاق» (ص١٠٣)، وروىٰ الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» بإسنادٍ ضعيف (٣٢٢١)، عن يزيد بن أبي زياد عن مجاهد قال: «أنَّ رجلًا قدم علىٰ ابن عمر رضي الله عنه فقال له: كيف أنتم والضحاك بن قيس رضي الله عنه؟ قال: نحن وهو، إذ لقيناه، قلنا له ما يحب، وإذا ولينا عنه، قلنا له غير ذلك. قال: ذلك ما كنا نعد ونحن مع رسول الله - ﷺ من النفاق».

قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشىٰ أن تهلكك إن لم يغفرها الله؟ قال مسور: نعم.

قال معاوية: فما يجعلك أحق أن ترجو المغفرة مني؟ فوالله لما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكن والله لا أخير بين أمرين، بين الله وبين غيره إلا اخترت الله تعالىٰ علىٰ ما سواه، وإنا علىٰ دين يقبل الله فيه العمل، ويجزي فيه بالحسنات، ويجزي فيه بالذنوب، إلا أن يعفو عمن يشاء، فأنا أحتسب كل حسنة عملتها بأضعافها، وأوازي أمورا عظاما لا أحصيها ولا تحصيها من عمل لله في إقامة صلوات المسلمين، والجهاد في سبيل الله ﷻ والحكم بما أنزل الله تعالىٰ، والأمور التي لست تحصيها وإن عددتها لك فتفكر في ذلك.

قال المسور: فعرفت أن معاوية قد خصمني حين ذكر لي ما ذكر.

قال عروة: فلم يسمع المسور بعد ذلك يذكر معاوية إلا صلىٰ عليه[(١)].

وعن عبد الحميد بن عبد الله بن مسلم بن يسار، قال: لما حبس ابن سيرين في السجن، قال له السجان: إذا كان الليل فاذهب إلىٰ أهلك فإذا أصبحت فتعال، فقال ابن سيرين: «لا والله، لا أعينك علىٰ خيانة السلطان»[(٢)].

ومن عقيدتهم السمع والطاعة بغير معصية. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصىٰ الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني**»[(٣)].

---

(١) تاريخ بغداد (١/ ٥٧٦-٥٧٧).

(٢) تاريخ بغداد (ترجمة: ابن سيرين) (٣/ ٢٨٣)، وكان حبس ابن سيرين في سبب دين ركبه لبعض الغرماء.

(٣) صحيح مسلم (١٨٣٥).

وعن علي رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ بعث جيشًا وأمر عليهم رجلًا، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأجج نارًا وأمرهم أن يقتحموا فيها، فأبىٰ قوم أن يدخلوها، وقالوا: إنَّما فررنا من النار، وأراد قوم أن يدخلوها، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**لو دخلوها -أو دخلوا فيها- لم يزالوا فيها**».

وقال: «**لا طاعة في معصية الله، إنَّما الطاعة في المعروف**»(١). وفي رواية عند أحمد: «**لا طاعة لبشر في معصية الله**»(٢).

وعن أبي إدريس الخولاني، أنَّه سمع حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: كان النَّاسُ يسألون رسول الله ﷺ عن الخيرِ، وكنت أسأله عن الشَّر مخافة أن يدركني.

فقلت يا رسول الله: إنَّا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟

قال: «**نعم**».

قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟

قال: «**نعم، وفيه دخن**».

قلت: وما دخنه؟

قال: «**قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر**».

قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟

قال: «**نعم، دعاة إلىٰ أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**».

قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠)، وأبو داود في «سننه» (٢٦٢٥)، والنسائي في «المجتبىٰ» (٤٢٠٥).

(٢) (١٠٦٥).

فقال: «**هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**».

قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟

قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟

قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتىٰ يدركك الموت وأنت علىٰ ذلك**»(١).

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه، قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فوعظنا موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقيل: يا رسول الله، وعظتنا موعظة مودع فاعهد إلينا بعهد. فقال: «**عليكم بتقوىٰ الله، والسمع والطاعة وإنْ عبدًا حبشيًا، وسترون من بعدي اختلافًا شديدًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمور المحدثات، فإن كل بدعة ضلالة**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك**»، قال قتيبة: الطاعة، ولم يقل: السمع(٣).

وقال الإمام الأوزاعي: «في رجلين خرجا من مصرهما لدار الحرب بغير إذن الإمام: إن شاء عاقبهما»(٤).

---

(١) صحيح البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٧١٤٢) بزيادة (فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد انقاد)، وأبو داود في «سننه» (٤٦٠٧)، والترمذي في «سننه» (٢٦٧٦)، وابن ماجه في «سننه» (٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٢).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٨٩٥٣)، ورواه مسلم في «صحيحه» (١٨٣٦)، وابن عاصم في «السنة» (١٠٢٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٥٦٢).

(٤) الردّ علىٰ سيرة الأوزاعي لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم (٧٦).

وذاك محمول في حال كون الجهاد فرض كفاية، فإنَّ حكم الجهاد في سبيل الله، وصد العدوان أو طلبهم، يختلف بحسب المقصد والنوع، وهذا شيءٌ معلوم في كتب الجهاد المفردَّة، أو كتب الفقه بالتبع لها.

وقال فقير: فقد قلت ليلة لأبي وهب(١): قم بنا لزيارة فلان.

قال: «وأين العلم؟ ولي الأمر له طاعة، وقد منع من المشي ليلًا»(٢).

وعن هشام، أنَّ أنس بن مالك رضي الله عنه أوصىٰ أن يغسله ابن سيرين، فلمَّا مات أتي محمد فقيل له ذلك فقال: أنا محبوس في السجن قالوا: فإنا قد استأذنا الأمير فأذن لك. قال: إن الأمير لم يحبسني، وإنما حبسني الذي له الحق عليَّ. قال: فأتي الذي له الحق فأذن له، فخرج فغسله وكفنه بخمسة أثواب إحداهن العمامة، وطلاه بالمسك من قرنه إلىٰ قدمه(٣).

قال الإمام البربهاري رحمه الله: «ومن ولي الخلافة بإجماعِ النَّاس عليه ورضاهم به فهو أمير المؤمنين، لا يحل لأحد أن يبيت ليلة ولا يرىٰ أن عليه إمامًا، برًا كان أو فاجرًا، ومن خرج علىٰ إمام من أئمة المسلمين فهو خارجي، وقد شق عصا المسلمين، وخالف الآثار، وميتته ميتة جاهلية»(٤).

---

(١) أبو وهب زاهد الأندلس، جمع ابن بشكوال أخباره في جزء مفرد، كما (ذكره الذهبي).

(٢) السير للذهبي (١٥/ ٥٠٧).

(٣) الزهد لأحمد (١٧٨٨).

(٤) شرح السنة للبربهاري (ص٥٦-٥٧).

ومن عقيدة أهل السنَّة والجماعة بذل النصح لهم. والنصيحة: «كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له»[(١)].

وقال أبو عمرو بن الصلاح: النَّصيحة «كلمة جامعة تتضمن قيام النَّاصح للمنصوحِ له بوجوه الخير إرادةً وفعلًا»[(٢)].

وقيل النَّصيحة: «مأخوذةٌ من نصح الرجل ثوبهُ، إذا خاطه فشبَّهوا فِعلَ النَّاصح فيما يتحرَّاه من صلاح المنصوح له بما يسده من خلل الثوب».

وقيل: «إنَّها مأخوذة من نصحتُ العسلَ: إذا صفيته من الشَّمع شبهوا تخليص القول من الغش بتخليص العسل من الخلط»[(٣)].

وعن أبي وائل قال: قيل لأسامة -بن زيد رضي الله عنه- لو أتيت فلانًا فكلمته. قال: «إنَّكم لترون أنِّي لا أكلمه إلا أسمعكم، إنِّي أكلمه في السر دون أن أفتحَ بابًا لا أكون من فتحه»[(٤)].

وقال عمر رضي الله عنه: «لا خيرَ في قومٍ ليسوا ناصحين، ولا خير في قومٍ لا يحبون الناصحين»[(٥)].

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه في نصيحته لأهل الشام: «إنِّي موصيكم بوصيةٍ، فإنْ قبلتموها لم تزالوا بخيرٍ ما بقيتم، وبعد ما تهلكون:

---

(١) وهذا تعريف الخطابي كما في «معالم السنن» للخطابي (٤/ ١٢٥)، و«شرح السنة» للبغوي (١٣/ ٩٣-٩٤)، و«شرح ابن العطار للأربعين النووية» (ص٨٠)، و«غذاء الألباب» للسفاريني (١/ ٤٥).

(٢) صيانة صحيح مسلم (٢٢٣-٢٢٤)، وعنه الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص١٥٠).

(٣) شرح النووي علىٰ صحيح مسلم (٢/ ٣٧)، و«شرح الأربعين» لابن العطار (ص٨١).

(٤) صحيح البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (٢٩٨٩)، واللفظ للبخاري.

(٥) رسالة المسترشدين للمحاسبي (ص٧١).

أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا، وتصدقوا، وحجوا واعتمروا، وتواصلوا وتحابوا، واصدقوا أمراءكم، ولا تغشوهم»[١].

النُّصْحُ مِنْ رُخْصَةٍ فِي النَّاسِ مَجَّانُ ... وَالْغِشُّ غَالٍ لَهُ فِي النَّاسِ أَثْمَانُ
الْعَدْلُ نُورٌ وَأَهْلُ الْجَوْرِ قَدْ كَثُرُوا ... ولِلظَّلُومِ عَلَىٰ الْمَظْلُومِ أَعْوَانُ
تَفَاسَدَ النَّاسُ وَالْبَغْضَاءُ ظَاهِرَةٌ ... فَالنَّاسُ فِي غَيْرِ ذَاتِ اللهِ إِخْوَانُ
وَالْعِلْمُ فَاشٍ وَقَلَّ الْعَامِلُونَ بِهِ ... والْعَامِلُونَ لِغَيْرِ اللهِ أَقْرَانُ[٢]

وعن سعيد بن جبير، قال: قال رجل لابن عباس: آمر أميري بالمعروف، قال: «إن خفت أن يقتلك فلا تؤنب الإمام، فإن كنت لا بدَّ فاعلًا ففيما بينك وبينه»[٣].

وقال ابن محيريز: «من جلس علىٰ وسادة الأمير فقد وجبت عليه النصيحة لله ولرسوله ولجماعة المسلمين»[٤].

وكان يحيىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حسن الهدي والسمت، يشبه سمته سمت مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «لمَّا ودعت مالكًا سألته أن يوصيني».

فقال لي: «عليك بالنَّصيحة لله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم». قال: «وقال لي لمّا ودعت الليث مثل ذلك؟ أي وصاه بمثل هذا»[٥].

وقال ابن سلام: قال بعض الحكماء: «اصحب الناس بثلاثة: بالحذر، ورفض الدالة، والاجتهاد في النصيحة».

---

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء لأبي الربيع سليمان بن موسىٰ الكلاعي الأندلسي (٢/ ٣١٤).
(٢) شعب الإيمان (٧٠٨٥)، و«تهذيب الكمال» (٢٠/ ٣٥٩).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٤٦٢).
(٤) فضيلة العادلين لأبي نعيم (ص١٧٠).
(٥) ترتيب المدارك (٣/ ٣٨٣)، و«شرح الزرقاني علىٰ موطأ مالك» (١/ ٢٢) ط: التوفيقية.

وقال أيضًا: «اصحب السلطان بالحذر، والصديق بالتواضع، والعدو بالجهد، والعامة بالبشر»[(١)].

ولما ذكر أبو نعيم في «الحيلة» رجاء بن حيوة، قال: «ومنهم الفقيه المفهم المطعام، مشير الخلفاء والأمراء»[(٢)].

قال أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الواعظ: «فانصح للسلطان، وأكثر له من الدعاء بالصلاح والرشاد بالقول والعمل والحكم؛ فإنهَّم إذا صلحوا صلح العباد بصلاحهم، وإيَّاك أن تدعو عليهم باللعنة فيزدادوا شرا ويزداد البلاء علىٰ المسلمين، ولكن ادع لهم بالتوبة فيتركوا الشر فيرتفع البلاء عن المؤمنين، وإيَّاك أن تأتيهم أو تتصنع لإتيانهم أو تحب أن يأتوك، واهرب منهم ما استطعت، ما داموا مقيمين علىٰ الشر، فإن تابوا وتركوا الشر من القول والعمل والحكم وأخذوا الدنيا من وجهها فهناك فاحذر العز بهم، لتكون بعيدا منهم قريبًا بالرحمة لهم والنصيحة إن شاء الله، وأمَّا نصيحة جماعة المسلمين فإنَّ نصيحتهم علىٰ أخلاقهم ما لم يكن لله معصية، وانظر إلىٰ تدبير الله فيهم بقليلٍ، فإنَّ الله قسم بينهم أخلاقهم كما قسم بينهم أرزاقهم، ولو شاء لجمعهم علىٰ قلبٍ واحدٍ، فلا يغفل عن النَّظرِ إلىٰ تدبير الله فيهم، فإذا رأيت معصية الله أحمد الله إذ صرفها عنك في وقتك، وتلطف في الأمر والنهي في رفق وصبر وسكينة، فإن قبل منك فاحمد الله، وإنْ ردَّ عليك فاستغفر اللهَ لتقصيرٍ منك كان في أمرك ونهيك، واصبر علىٰ ما أصابك، إنَّ ذلك من عزم الأمور»[(٣)].

---

(١) المجالسة وجواهر العلم (٥/ ٥٥).
(٢) حلية الأولياء (٥/ ١٧٠).
(٣) شعب الإيمان (٧٠١٦).

ومن عقيدة أهل السنَّة والجماعة غض الطرف عن زلاتهم، وعدم تكفيرهم بالكبائر فهذا شأن أهل البدع.

قال ابن جماعة في ذكر حق الخليفة: «إيقاظه عند غفلته، وإرشاده عند هفوته، شفقة عليه، وحفظًا لدينه وعرضهِ، وصيانةً لما جعله الله إليه من الخطأ فيه»(١).

وقد وصىٰ النبي ﷺ به فقال: «**من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يبده علانية، ولكن يأخذه بيده فيخلو به، فإن قبل منه فذلك، وإلا كان قد أدىٰ الذي عليه**»(٢).

ولقوله ﷺ: «**أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم**»(٣).

وسُئِل ابن عباس رضي الله عنهما عن أمر السلطان بالمعروف، ونهيه عن المنكر، فقال: «إنْ كنت فاعلًا ولابدَّ، ففيما بينك وبينه»(٤).

قال الشوكاني: «ينبغي لمن ظهر له غلط الإمام في بعض المسائل أن يناصحه، ولا يظهر الشناعة عليه علىٰ رؤوس الأشهاد، بل كما ورد في الحديث أنَّه يأخذ بيده ويخلو به ويبذل له النَّصيحة، ولا يذلُّ سلطان الله»(٥).

ومن عقيدة أهل السنَّة والجماعة الدعاء لهم. قال الفضيل: «لو أن

---

(١) تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام (ص٦٣).

(٢) رواه أحمد (١٥٣٣٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٩٦) من طريق بقية بن الوليد، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٣٩٣).

(٣) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٩٤)، وأبو داود في «السنن» (٤٣٧٥)، وأحمد في «مسنده» (٦/ ١٨١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٦٥)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/ ١٢٦)، والبيهقي في «السنن» (٨/ ٣٣٤).

(٤) انظر: سنن سعيد بن منصور (٨٤٦)، و«شعب الإيمان» (٧٥٩٢).

(٥) السيل الجرار المتدفق علىٰ حدائق الأزهار (ص٩٦٥) ط: ابن حزم.

لي دعوة مستجابة، ما جعلتها إلا في إمام، فصلاح الإمام صلاح البلاد والعباد»[١].

وقال عبد الله بن عبد العزيز العمري: قال لي موسىٰ بن عيسىٰ: ينهىٰ إلىٰ أمير المؤمنين أنَّك تشتمه، وتدعو عليه، فبم استجزت هذا؟

قلت: «أما شتمه، فوالله هو أكرم علي من نفسي لقرابته من رسول الله ﷺ وأما الدعاء عليه، فوالله ما قلت: اللهم إنه قد أصبح عبئا ثقيلا علىٰ أكتافنا، فلا تطيقه أبداننا، وقذىٰ في جفوننا، لا تطرف عليه جفوننا، وشجىٰ في أفواهنا، لا تسيغه حلوقنا، فاكفنا مؤنته، وفرق بيننا وبينه، ولكن قلت: اللهم إن كان تسمىٰ بالرشيد ليرشد، فأرشده، أو لغير ذلك، فراجع به، اللهم إن له في الإسلام بالعباس علىٰ كل مؤمن كفا، وله بنبيك ﷺ قرابة ورحم، فقربه من كل خير، وباعده من كل سوء، وأسعدنا به، وأصلحه لنفسه ولنا.

فقال موسىٰ: رحمك الله أبا عبد الرحمن، كذاك لعمري الظن بك»[٢].

وعن رجل من آل عمر، قال: قلت لسعيد بن المسيب: ادع علىٰ بني أمية. قال: «اللهم أعز دينك، وأظهر أولياءك، واخز أعداءك في عافية لأمة محمد ﷺ»[٣].

ومن عقيدة أهل السنَّة والجماعة الفرح بما يقومون به نصرة للشريعة، وقد عفا الإمام أحمد وسامح المعتصم رغم المحنة التي امتحن بها بسببه غزوه لعمورية ونصرته لسبايا المسلمين[٤].

---

(١) السير للذهبي (٨/ ٤٣٤)، و«طبقات الحنابلة» (٢/ ٣٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٧٦).

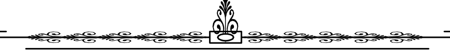
(٣) سير أعلام النبلاء (ترجمة: سعيد بن المسيب) (٤/ ٢٣٢).

(٤) السير (١١/ ٢٥٧-٢٥٨).

وفي «معجم الطبراني الكبير» عن ابن بريدة الأسلمي قال: شتم رجل ابن عباس، فقال ابن عباس رضي الله عنه وعن أبيه: «إنَّك لتشتمني وفي ثلاث خصال: إنِّي لآتي علىٰ الآية من كتاب الله عز وجل، فلوددت أنَّ جميع الناس يعلمون منها ما أعلم منها، وإنِّي لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأفرح به، ولعلي لا أقاضي إليه أبدًا، وإنِّي لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح، وما لي به من سائمة»[1]. هذا موجز مختصر لبعض اعتقاد أهل الأثر، ونسأل الله أن يقيل العثر، ويستر الزلل.



(١) المعجم الكبير (١٠٦٢١).




[الباب الخامس:

فضل الولي العادل وبيان عظيم أجره عند الله]

اعلم بأنَّ هذا الباب كبير، والحديث عنه طويل، وقد ذُكِرت بخصوصه في السنة أحاديث، فإفراده يطول، ولسنا عن بعضه نحول، ونذكر ما يسر الله لنا، وما فاتنا فعفا الله عنَّا، ونذكر في أول أمرنا بأنَّ منزلة الولي العدل عند الله من أعلىٰ المنازل والرتب.

قال الطرطوشي: «ليس فوق السلطان العادل منزلة إلا لنبي مرسل، وملك مقرب».

ولأبي منصور: «أشرف منازل الآدميين النبوة، ثمَّ الخلافة»(١).

وقال الشيخ عز الدين: «أجمع المسلمون علىٰ أنَّ الولايات من أفضل الطاعات، وأنَّ الولاة المقسطين أعظم أجرًا، وأجلُّ قدرًا من غيرهم؛ لكثرة ما يجري علىٰ أيديهم من إقامة الحدود، ودرء الباطل.

قال: أحدهم يقول الكلمة الواحدة، فيدفع بها ألف مظلمة فما دونها، فيا له من كلام يسير، وأجر كبير أن يوضع في ميزانه جميع أعمال رعيته»(٢).

---

(١) وبنحوه في رسالة «المسرة والبشارة في فضل السلطنة والوازرة» للعلامة مرعي الكرمي (٣/ ٤٦٥) ضمن مجموع رسائله: وهو قال: قال بعض العارفين: «إنَّ أشرف منازل الآدميّين الرسالة، ثمَّ النبوة، ثمَّ الخلافة، ثمَّ السلطنة، ثم الوِزارة».

(٢) بدائع السلك لابن الأزرق (ص٨٣-٨٤).

قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هذه أجمع آية في القرآن لخير يمتثل، ولشر يجتنب»(١).

ومن السنَّة: ما رواه البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**سبعةٌ يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجُلٌ ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجلٌ قَلبُهُ معلق في المسجد، ورجلانِ تحابا في الله، ورجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ إلىٰ نفسها، فقال: إنِّي أخافُ الله، ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتىٰ لا تعلم شِمَاله ما صنعت يمينه**»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وعن أبيه، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ المقسطين عند الله علىٰ منابر من نور، عن يمين الرحمن** عز وجل**، وكلتا يديه يمين الذين؛ يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما ولوا**»(٣).

وقال سليمان بن داود عليه السلام: «**الرحمة والعدل يحرزان الملك**»(٤).

وقال مالك بن دينار: لما استعمل عمر بن عبد العزيز علىٰ الناس. قال رعاء الشاء: من هذا العبد الصالح الذي قام علىٰ الناس؟

قيل لهم: وما علمكم بذلك؟

---

(١) تفسير القرطبي (١٢/ ٤١٢).

(٢) رواه البخاري في «صحيحه» (٦٤٢١)، ومسلم في «صحيحه» (١٠٣١). قوله: (تفرقا) استمرا علىٰ تلك المحبة حتىٰ فرق بينهما الموت. قوله: (طلبته) دعته للزنا.

(٣) رواه مسلم في «صحيحه» (١٨٢٧). قوله: (ولوا) أي كانت لهم عليه ولاية.

(٤) سراج الملوك للطرطوشي (ص٥٢).

قالوا: «إنَّه إذا قام علىٰ الناس خليفة عدل كفت الذئاب عن شائنا»[(١)].

وعن محمد بن عيسىٰ، عن عبد العزيز قال: كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن رأىٰ أمير المؤمنين أن يقطع لها مالا يرمها به فعل، فكتب إليه عمر: «أما بعد، قد فهمت كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا فحصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم، فإنه مرمتها والسلام»[(٢)].

وقال ابن خلدون: «إنَّ الظّلمَ مؤذنٌ بخرابِ العمران»[(٣)].

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٢٥٥)، و«سيرة عمر» رواية المروزي (ص٥٠) ت: عسيلان.

(٢) حلية الأولياء (٥/ ٣٠٥).

(٣) مقدمة ابن خلدون (ص٢٩٥) ط: مؤسسة الرسالة. وفي سراج الملوك (ص٦٦-٦٧)، و«حسن السلوك» (ص٤٥-٤٦).

قَالَ وهب بن مُنَبّه: «إِذا عمل الْوَالِي بالجور أَو هم بِهِ، أَدخل الله النَّقص فِي أهل مَملَكَته من الزَّرع والضرع، وكل شَيء، وَكَذَلِكَ إِذا هم بِالْعَدلِ أَو عمل بِهِ أَدخل الله البركَة فِي أهل مَملَكَته».

وقَالَ ابن عَبَّاس رضي الله عنه وعن أبيه: «إِنَّ ملكًا من الملوك خرج يسير فِي مَملَكَته مستخفيًا فَنزل علىٰ رجل لَهُ بقرة فراحت فحلبت لَهُ وزن ثَلَاثِينَ بقرة؛ فَعجب الملك من ذَلِك، وَحدث نَفسه بأخذها، فَلَمَّا راحت عَلَيهِ من الْغَد حلبت علىٰ النّصف، فَقَالَ الملك: مَا بَال حلابها انتقصَ؟ أرعيت فِي غير مرعاها بالأمس؟ فَقَالَ: لَا؛ وَلَكِن أَظن أَنَّ ملكنا هم بأخذها فنقص لَبنهَا، فَإِن الملك إِذا ظلم أَو هم بظُلم ذهبت البركَة. فعاهد الله سُبحانَه فِي نَفسه أَلا يَأْخُذهَا، وراحت من الغَد فحلبت حلاب ثلاثِينَ بقرة، فَتَابَ الملك وَعَاهد ربه ليعدلنَّ مَا بَقِي» والأخير بنحوه في «سيرة سليمان القانوني» لجار الله بن فهد (ص٢٨٩-٢٩٠).

وفي «المسرة والبشارة» (٣/ ٤٧٣) «جلس الإسكندر في مجلس حكمه، فما رُفِعَ إليه حاجةٌ فقال: لا أعدُّ هذا اليومَ من أيام مُلكي». =

وسئل بعضهم: أي شيءٍ أرفعُ لذكرِ الملوك؟ قال: «تدبيرهم أمرَ البلادِ بالعدل»[(١)].

وقال ابن الموصلي: «وَاعلم أَنَّ العدلَ قوام الملك، ودوام الدول، وأس كل مملكة»[(٢)].

وقيل: «لا ملك إلا برجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل»[(٣)].

وقيل: «صلَاح الدُّنيا بصلاح الملُوك، وصلاح الملُوك بصلاح الوزراء، ولَا يصلح الْملك إِلَّا لأَهله، وَلَا تصلح الوزارة إِلَىٰ لمستحقها».

وقيل: «أفضل عدد المُلُوك صلاح الوزراء الكفاة؛ لأَن في صلاحهم صلَاح قُلُوب عوامهم لَهُم»[(٤)].

وقيل لبعض الملوك: أي العدد أقوىٰ؟ فقال: «العدلُ»[(٥)].

وقيل: إنَّ الله يقيمُ الدولةَ العادلة وإن كانت كافرةً، ولا يقيمُ الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال الدنيا: «تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام»[(٦)].

= وفي «حلية الأولياء» (٥/ ٢٥٥) عن موسىٰ بن أعين قال: «كنَّا نرعىٰ الشاء بكرمان في خلافة عمر بن عبد العزيز، فكانت الشاء والذئب ترعىٰ في مكان واحد، فبينا نحن ذات ليلة إذ عرض الذئب لشاة، فقلت: ما نرىٰ الرجل الصالح إلا قد هلك».
قال حماد: فحدثني هذا أو غيره أنهَّم حسبوا فوجدوه قد هلك في تلك الليلة.

(١) نثر الدر (٤/ ١٧٨)، و«المسرة والبشارة» (٣/ ٤٧٥).

(٢) حسن السلوك الحافظ دولة الملوك (ص٦٨).

(٣) بهجة المجالس (ص٧١).

(٤) نثر الدر في المحاضرات للأبي (الْبَاب السَّابِع فِي سياسة السُّلْطَان وأدب الرّعية) (٤/ ١٧٨).

(٥) الجواهر الحسان في مناقب السلطان سليمان بن عثمان (ص٢٨٧).

(٦) الاستقامة لابن تيمية (٢/ ٢٤٧).

وقال ابن جماعة: «وقد اتفقت شرائع الأنبياء، وآراء الحكماء والعقلاء، أنَّ العدل سبب لنمو البركات ومزيد الخيرات، وأنَّ الظلم والجور سبب لخراب الممالك، واقتحام المهالك ولا شَّك عندهم في ذلك»[١].

وسجن الرشيد أبا العتاهية في تهمة أو شبهة، فكلَّف أحد الحرس أنْ يكون رقيبه في السجن، فجاءه ذات مرة بأنَّ أبا العتاهية كتب علىٰ حائط السجن:

أَمَـا وَاَللـهِ إنَّ الـظُّـلـمَ لُـؤمٌ ... ومَـا زَالَ الـمسِـيءُ هُـوَ الـظَّـلُـومُ

إِلـىٰ ديَّـانِ يَـوُمِ الـدِّيـنِ نـمْـضِـي ... وَعِـنـدَ اللـهِ تـجْـتَـمِـعُ الـخُـصُـومُ.

فتأثر الرشيد وبكىٰ وأحضره، وطلب منه العفو وأعطاه ألف دينار[٢].

قال الشيخ ابن باديس ﷺ: «أعظم الفتنة -فيما نرىٰ- هو ما قاله الإمام جعفر الصادق: (أن يسلط عليهم سلطان جائر) فإنَّه إذا جار السلطان -وهو من له السلطة في تدبير أمر الأمة والتصرف في شؤونها- فسد كل شيء: فسدت القلوب والعقول والأخلاق والأعمال والأحوال، وانحطت الأمة في دينها ودنياها إلىٰ أحط الدرجات، ولحقها من جرائه كل شر وبلاء وهلاك.

ثم يتفاوت ذلك الفساد بحسب ذلك الجور في قدره وسعته ومدة بقائه. هذا إذا كان ذلك الجائر من جنسها ويدين -بحسب ظواهره- دينها، فكيف إذا لم يكن من جنسها ولا دينها في شيء!!

---

(١) تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام (ص٧٠).

(٢) الذهب المسبوك في وعظ الملوك (ص٢١٦)، وفي «الحلية» لأبي نعيم (٥/ ٣٨٩)، عن سعيد بن أبي هلال، أنَّ كعبًا مرَّ بعمر وهو يضرب رجلًا بالدرة فقال كعب: «علىٰ رسلك يا عمر، فو الذي نفسي بيده إنَّه لمكتوب في التوراة: «ويلٌ لسلطان الأرض من سلطان السماء، ويلٌ لحاكم الأرض من حاكم السماء».

حقًا إنَّ أعظم ما لحق الأمم الإسلامية من الشر والهلاك كله جاءها علىٰ السلاطين الجائرين منها ومن غيرها.

وهذا ما يشهد به تاريخها في ماضيها وحاضرها.

فما أصدق كلمة جعفر الصادق، وما أعمق نظره فيها!!

ومن أحق بمثلها من بيت النبوة ومعدن الحكمة؟! عليهم الرضوان والرحمة»[١].



(١) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير (ص٣٣٨).





(فرع) ذكر نقوش خواتم بعض الخلفاء والأمراء

وهذه النقوش كانت موجودة علىٰ خواتم الملوك والخلفاء، وقد فصَّل في حكمها، وبيان ما يتعلق بها الحافظ الألمعي ابن رجب الحنبلي رحمه الباري وغفر له في كتابٍ خاص بها.

وهي مذكورة -الخواتم وما يتعلق بها- في شمائل النبي المصطفىٰ ﷺ -فإنَّه اتخذ خاتمًا ونقش عليه-، ومدونة في كتب السنة؛ كسنن أبي داود وغيرها من أمهات الكتب.

وأنا أذكرها لما في ذلك من عبرة وفائدة، وبعد نظر، ودقة فكر في بيان هذه النقوش وما سطر عليها مما يعني أنَّ أصحابها كانوا يذكرون أنفسهم بما كان منقوشا عليها، وهي من لطيف العلم وملحه، لا من واجبه وحتمه، ينتفع بها الناظر، ويجلو بها الخاطر العاطر.

فقد كان خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر رضي الله عنه يتختم بعد رسول الله **صلىٰ الله عليه وسلم** بخاتمه، وقيل: كان له خاتم نقشه «نعم القادر الله».

وتختم عمر رضي الله عنه بخاتم رسول الله ﷺ بعد أبي بكر. وقيل كان له خاتم نقشه. «كفىٰ بالموت واعظًا».

وكان عثمان رضي الله عنه يتختم بخاتم رسول الله ﷺ ست سنين من خلافته حتىٰ سقط منه فاتخذ خاتما من فضة، وفصه منه نقشه «آمنت بالذي خلق فسوىٰ».

وكان نقش خاتم علي رضي الله عنه «الله الملك الحق المبين». وقيل: «الملك لله الواحد القهار»، وقيل: «الله الملك وعلي عبده».

وخاتم ابنه الحسن رضي الله عنه «الله أكبر وبه استعنت»، وقيل: «العزة لله»، وقيل: «لا إله إلا هو الحي القيوم الملك الحق المبين».

وخاتم أخيه الحسين رضي الله عنه: «إنَّ الله بالغ أمره».

وكان **نقش خاتم معاوية** رضي الله عنه «لكل عمل ثواب». وقيل: «لا قوه إلا بالله».

وكان نقش خاتم عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه «عمر ابن عبد العزيز يؤمن بالله». وقيل: «لكل عمل ثواب». وقيل: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له». وقيل: «اغز غزوة تجادل عنك يوم القيامة».

وكان خاتم أبي الوليد بن يزيد «بالعزيز يثق الوليد». وقيل: «يا وليد إنك ميت».

ونقش خاتم يزيد بن الوليد بن عبد الملك «يا يزيد قم بالحق تصبه».
ولأخيه إبراهيم بن الوليد: «توكلت علىٰ الحي القيوم».

وعلىٰ خاتم مروان الحمار «اذكر الموت يا غافل».

وكان نقش خاتم السفاح عبد الله ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن».

ونقش خاتم أخيه المنصور واسمه عبد الله أيضًا «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن». وقيل: «الحمد لله كله».

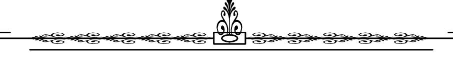
ونقش خاتم ابنه المهدي «حسبي الله». وقيل: «رضيت بالله». وقيل: «الله ثقة محمد بن عبد الله».

ونقش خاتم ابنه موسىٰ الهادي «الله ربي». وقيل: «بالله أثق». وقيل: «الله ثقة موسىٰ».

وكان نقش خاتم أخيه الرشيد «هارون كن من الله علىٰ حذر»[(١)].

---

(١) كتاب أحكام الخواتيم للحافظ ابن رجب (ص١١٢-١٢٦) ط: مكتبة المعارف.




[الباب السادس:

هكذا هم ملوك المسلمين]

وهذه نماذج مختصرة، وموقف فيها العبرة من سيرة الخلفاء والملوك، تنفع بإذن الله المعتبر، وتذكر الغافل الجاهل.

أبو بكر رضي الله عنه يتفقد رعيته

عن أبي صالح الغفاري، أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتعاهد عجوزًا كبيرة عمياء في بعض حواشي المدينة من الليل، فيستقي لها ويقوم بأمرها، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها، فأصلح ما أرادت، فجاءها غير مرةٍ كيلا يسبق إليها، فرصده عمر رضي الله عنه، فإذا هو بأبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي يأتيها، وهو يومئذٍ خليفة، فقال عمر رضي الله عنه: أنت هو لعمري[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما مرض أبو بكر رضي الله عنه مرضه الذي مات فيه قال: انظروا ما زاد في مالي منذ دخلت الإمارة فابعثوا به إلىٰ الخليفة من بعدي فإنِّي قد كنت أستحله.

قالت عائشة: فلمَّا مات نظرنا فإذا عبد نوبي كان يحمل صبيانه وإذا ناضح كان يسني عليه.

قال عبد الله بن نمير: ناضح كان يسقي بستانا له. قالت: فبعثنا

(١) تاريخ دمشق (٣٠/ ٣٢٢)، وسنده ضعيف جدًا، ونحوه في «طبقات ابن سعد» (٣/ ١٣٩)، وهو ضعيف أيضًا.

بهما إلىٰ عمر. قالت فأخبرني جدي أن عمر بكىٰ، وقال: رحمة الله علىٰ أبي بكر لقد أتعب من بعده تعبا شديدا(١).

عدل وتواضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وانشغاله بأمور الرعية عن أمر نفسه

عن عبيد الله بن عمر بالمدينة، عن سالم، قال: كان عمر إذا صعد المنبر فنهىٰ الناس عن شيء جمع أهله، فقال: إنِّي نهيت الناس عن كذا وكذا، وإنَّ النَّاس ينظرون إليكم نظر الطير -يعني إلىٰ اللحم- وأقسمُ باللهِ لا أجد أحدًا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة.

قال أبو جعفر الطبري: «وكان رضي الله عنه شديدًا علىٰ أهل الريب، وفي حق الله صليبًا حتىٰ يستخرجه، ولينًا سهلًا فيما يلزمه حتىٰ يؤديه، وبالضعيفِ رحيمًا رؤوفًا»(٢).

وقال رضي الله عنه: «إنَّ العبد إذا تواضع لله رفع الله حَكَمَتَه، وقال له: انتعش نعشك الله، فهو في نفسه حقير، وفي أعين النَّاس كبير، وإذا تكبَّر وعتا وَهَصَه الله إلىٰ الأرضِ، وقال له: اخسأ خسأكَ الله، فهو في نفسه كبير، وفي أعين النَّاس حقير، حتىٰ يكون عندهم أحقر من الخنزير»(٣).

ويذكر أنَّه مر عمر رضي الله عنه ببنيان يبنىٰ، بآجرّ وجصّ، فقال: لمنْ هذا؟ قيل: لعاملك علىٰ البحرين.

فقال: «أبتِ الدراهم إلا أن تخرج أعناقها»، فأرسل إليه فشاطره ماله(٤).

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ١٤٣).

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ٢٠٧).

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٣٤٤٦١)، وأبو داود في «الزهد» (ص٨٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٠/ ٤٥٤).

(٤) العقد الفريد (١/ ٤٣).

وعن يحيىٰ بن سعيد، أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ أدرك جابر بن عبد الله ﷺ ومعه حمال لحم، فقال: «ما هذا؟».

فقال: يا أمير المؤمنين، قرمنا إلىٰ اللحم، فاشتريت بدرهم لحمًا.

فقال عمر: أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه عن جاره، أو ابن عمه، أين تذهب عنكم هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠][1].

وقال القرطبي في «تفسيره»: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠].

في هذه الآية دليل علىٰ تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم. فانظر إلىٰ الهدهد مع صغره كيف لم يخف علىٰ سليمان حاله، فكيف بعظام الملك. ويرحم الله عمر فإنَّه كان علىٰ سيرته، قال: «لو أنَّ سخلة علىٰ شاطئ الفرات أخذها الذئب ليسأل عنها عمر». فما ظنك بوالٍ تذهب علىٰ يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان.

وفي «الصحيح» عن عبد الله بن عباس أنَّ عمر بن الخطاب خرج إلىٰ الشَّام، حتىٰ إذا كان بسرغ[2] لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة وأصحابه فأخبروه أنَّ الوباء قد وقع بالشَّام.

قال علماؤنا: كان هذا الخروج من عمر بعد ما فتح بيت المقدس سنة سبع عشرة علىٰ ما ذكره خليفة بن خياط، كان يتفقد أحوال رعيته وأحوال أمرائه بنفسه، فقد دلَّ القرآن والسنَّة وبينا ما يجب علىٰ الإمام من تفقد أحوال رعيته، ومباشرة ذلك بنفسه، والسفر إلىٰ ذلك وإن طال[3].

---

(١) الموطأ (٢/ ٩٣٦).

(٢) (سرغ) بسكون الراء وفتحها: قرية بوادي تبوك من طريق الشام.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٣١).

عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: أمر عمر بإخراج الحطيئة من الحبس، وقد كلمه فيه عمرو بن العاص وغيره، فأخرج وأنا حاضر، فأنشأ يقول:

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاخٍ بِذِي مَرَخٍ زُغْبِ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرُ
غَادَرْتَ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَارْحَمْ هَدَاكَ مَلِيكُ النَّاسِ يَا عُمَرُ
أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَىٰ إِلَيْكَ مَقَالِيدَ النُّهَىٰ الْبَشَرُ
لَمْ يُؤْثِرُوكَ بِهَا إِذْ قَدَّمُوكَ لَهَا لَكِنْ لِأَنْفُسِهِمْ كَانَتْ بِكَ الْإِثَرُ
فَامْنُنْ عَلَىٰ صِبْيَةٍ بِالرَّمْلِ مَسْكَنُهُمْ بَيْنَ الْأَبَاطِحِ يَغْشَاهُمْ بِهَا الْقَدْرُ
نَفْسِي فِدَاؤُكَ كَمْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمُ مِنْ عَرْضِ دَاوِيَّةٍ يَعْمَىٰ بِهَا الْخُبُرُ

قال: فلمَّا قال الحطيئة: ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ بكىٰ عمر، فقال عمرو بن العاص: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء[1]. أعدل من رجل يبكي علىٰ تركه الحطيئة!»[2].

وأخرج ابن سعد، عن سالم بن سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم قال: سمعت رجلًا من الأنصار يقول: دعوت الله أن يريني عمر في المنام، فرأيته بعد عشر سنين، وهو يمسح العرق في جبينه، فقلت: يا أمير المؤمنين ما فعلت؟! قال: «الآن فرغت، ولولا رحمة ربي لهلكت»[3].

وعن الحسن قال: قال رجل لعمر رضي الله عنه: اتقِ الله يا أمير المؤمنين، فواللهِ ما الأمر كما قلت قال: فأقبلوا علىٰ الرجل فقالوا: لا تَألِت[4]. أمير المؤمنين، فلمَّا رآهم أقبلوا علىٰ الرجل قال: «دعوهم، فلا خير فيهم

(١) (الخضراء والغبراء) السماء والأرض.
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٣٥١).
(٣) تاريخ الخلفاء (ص١٥٠)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٣١٧).
(٤) قوله: (لا تألت) يعني لا تتنقص.

إذا لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم تقل لنا»[١].

وعن الشعبي قال: كان بين عمر وأبي بن كعب رضي الله عنهما خصومة، فجعلا بينهما زيد بن ثابت، فأتياه فضربا الباب، فخرج إليهما فقال: ألا أرسلت إلي يا أمير المؤمنين؟ فقال: في بيته يؤتىٰ الحكم، فدخلا فقال: في الرحب والسعة، وألقىٰ له وسادة فقال: هذا أول جوْرُك، فتكلما فقال لأبيَّ: بينتك، وإن رأيت أن تُعفي أمير المؤمنين من اليمين فافعل، فقال أبي: نعفيه ونصدقه، فقال عمر رضي الله عنه: أيقضي علي باليمين ثمَّ لا أحلف؟ فحلف، فلمَّا وجبت له الأرض وهبها لأبي[٢].

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جده أسلم، قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب إلىٰ الشام، فاستيقظنا به ليلة وقد رحل رحالنا، وهو يرحل لنفسه، وهو يقول: أمير المؤمنين، لو أيقظتنا كفيناك:

لا يأْخُذ الْليلَ عليكَ بالهمْ　　　وألبسْ لهُ القميصَ واعتمْ
وكُنْ شَرِيكَ رَافِع وأَسلِم　　　واخدُمْ الأقوامَ حتَّىٰ تخُدم[٣]

وروىٰ مالك في «الموطأ»، عن إسماعيل بن أبي حكيم، عن سليمان بن يسار، أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه غدًا إلىٰ أرضه بالجرف فوجد في ثوبه احتلامًا فقال: «لقد ابتليت بالاحتلام منذ وليت أمر النَّاس»، فاغتسل، وغسل ما رأىٰ في ثوبه من الاحتلام، ثمَّ صلىٰ بعد أن طلعت الشمس.

قال ابن عبد البر: «ذلك والله أعلم لاشتغاله بأمرهم ليلًا ونهارًا عن النساء فكثر عليه الاحتلام».

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٧٧٣).
(٢) المصدر السابق (٢/ ٧٧٥).
(٣) تاريخ بغداد (ترجمة: إسحاق بن نجيح) (٧/ ٣٤٥).

وقال الباجي: «يحتمل ذلك، ويحتمل أن ذلك كان وقتًا لابتلائه به لمعنىٰ من المعاني ووقته بما ذكر من ولايته»[١].

وقال العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان لي عمر جارًا فكان يصوم النَّهار ويقوم الليل، فلمَّا ولي قلت: لأنظرنَّ الآن إلىٰ عمله؛ فلم يزل علىٰ وتيرة واحدة حتىٰ مات»[٢].

وعن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: كان عمر يحلف علىٰ أيمان ثلاث، يقول: «والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا بأحق به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبدا مملوكا، ولكنا علىٰ منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، ووالله لئن بقيت لهم،

---

(١) شرح الزرقاني علىٰ الموطأ (١/ ١٤١).

قال ابن الموصلي في «حسن السلوك» (ص١١٩-١٢٠): «وينبغي للسلطان ألا يشغل أوقاته بحظوظ نفسه فتضيع مصالح الناس كما قاله أبو العباس المبرد قسم كسرىٰ أيامه فقال: يصلح يوم الريح وللنوم، ويوم الغيم للصيد، ويوم المطر للشرب واللهو، ويوم الشمس للحوائج».

قال ابن خالويه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ ولكن نبينا ﷺكان إذا دخل منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء، جزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثمَّ جزء أجزاءه بين النَّاس، وكان يستعين بالخاصة علىٰ العام».

قلت: وورث هذا الحال حفيده عمر بن عبد العزيز، ففي «حلية الأولياء» (٥/ ٢٥٩) عن عقبة بن نافع القرشي: أنَّه دخل علىٰ فاطمة بنت عبد الملك فقال لها: ألا تخبريني عن عمر، فقالت: «ما أعلم أنَّه اغتسل لا من جنابة ولا من احتلام منذ استخلفه الله حتىٰ قبضه».

(٢) الفائق في غريب الحديث (٤/ ٤٠).

ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعىٰ مكانه»[١].

وعن الأحنف بن قيس، قال: كنَّا جلوسًا بباب عمر، فخرجت جارية، فقلنا: هذه سرية عمر، فقالت: إنَّها ليست بسرية عمر، إنَّها لا تحل لعمر، إنَّها من مال الله، قال: فتذاكرنا بيننا ما يحل من مال الله، قال: فرقي ذلك إليه فأرسل إلينا، فقال: ما كنتم تذاكرون؟ فقلنا خرجت علينا جارية، فقلنا: هذه سرية عمر، فقالت: إنها ليست بسرية عمر، إنها لا تحل لعمر، إنهَّا من مال الله، فتذاكرنا بيننا ما يحل لك من مال الله، فقال: ألا أخبركم بما أستحل من مال الله؟ حلتين: حلة الشتاء والقيظ، وما أحج عليه وأعتمر من الظهر، وقوت أهلي كرجل من قريش، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، ثمَّ أنا رجل من المسلمين، يصيبني ما يصيبهم[٢].

واستعمل رضي الله عنه رجلًا من بني أسد علىٰ عملٍ فدخل الرجل ليسلم عليه، فأتىٰ عمر بعض ولده، فقبّله عمر.

فقال الرجل الأسدي: أتقبل هذا يا أمير المؤمنين؟!

فوالله ما قبلت لي ولدًا قط!!

فقال عمر رضي الله عنه: «فأنت والله بالنَّاس أقلُّ رحمة، لا تعمل لي عملًا أبدًا»[٣].

وعن أبي عثمان، ثنا زياد، قال: حملت المال إلىٰ عمر رضي الله عنه فوضعه بين يديه، فجاء ابن له فأخذ درهما فوضعه في فيه ثمَّ سعىٰ فقام

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٩٢)، إسناده ضعيف، محمد بن ميسر الصاغاني وإن كان ضعيفا قد توبع عند أبي داود، وتبقىٰ العلة في محمد بن إسحاق فإنه مدلس وقد عنعن، ورواه أبو داود (٢٩٥٠)، ومن طريقه الضياء في «المختارة» (١/ ٣٩٥).

(٢) الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلَّام (٦٦٣).

(٣) الزهد لهناد (١٣٣٢) وسنده قوي.

عمر ﷺ يسعىٰ خلفه حتىٰ أدركه فأخذ بقفاه ثمَّ أدخل يده في فيه فانتزع الدرهم بلعابه وألقاه في المال، وقال: كلا والذي نفسي بيده لا يكون مهنأة لك وإثمه عليَّ، ثمَّ حملت المال إلىٰ عثمان فوضعه بين يديه فجاء ابنه فأخذ فلم يقل له شيئًا، قال: وجاء الخدم فجعلوا يأخذون ولا يقول شيئًا قال: فبكيت فقال لي عثمان: ما يبكيك؟ قال: قلت: لا شيء يا أمير المؤمنين. قال: لتخبرني ما الذي أبكاك؟ قال: فأخبرته. قال: قلت: حملت المال إلىٰ عمر ﷺ فوضعته بين يديه فجاء ابن له فأخذ منه درهمًا فوضعه في فيه ثمَّ سعىٰ فسعىٰ عمر خلفه فأدخل يده في فيه فانتزع الدرهم فألقاه في المال وقال: كلا والذي نفسي بيده لا يكون مهنأة لك وإثمه عليَّ، ثمَّ وضعت المال بين يديك فجاء ابنك فأخذ فلم تقل له شيئًا، ثمَّ جاء الخادم فأخذ فلم تقل له شيئًا ثمَّ جاءوا يأخذون فلم تقل لهم شيئًا فذلك الذي أبكاني قال: فقال عثمان: «إنَّ عمر منع قرابته ابتغاء وجه الله ﷻ وإنِّي أعطي قرابتي ابتغاء وجه الله ﷻ وقد أصاب وأحسنت أو قال: أحسن وأحسنت»[1].

تواضع الأمير الشهيد عثمان ﷺ

قال الحسن: رأيت عثمان بن عفان ﷺ يقيل في المسجد وهو يومئذٍ خليفة ويقوم وأثر الحصىٰ بجنبه، فنقول: «هذا أمير المؤمنين هذا أمير المؤمنين»[2].

(١) الأمالي لعبد الرزاق بن همام الصنعاني (ص٥٣-٥٤)، وسنده ضعيف.

(٢) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٤٣٧).

علي رضي الله عنه يستأثر خدمة نفسه بنفسه، وكان جمَّاعا لصفات الخير وهو أمير المؤمنين

وقال بعضهم: رأيت عليًا رضي الله عنه قد اشترىٰ لحمًا بدرهم فحمله في ملحفته. فقلت له: أحمل عنك يا أمير المؤمنين.

فقال: «لا، أبو العيال أحق أن يحمل»[(١)].

وقال رضي الله عنه: «حقٌ علىٰ الإمام أن يحكمَ بما أنزل الله، وأن يُؤدِّي الأمانة، فإذا فعلَ ذلك فحقٌّ علىٰ النَّاس أن يسمعوا له وأن يطيعوا وأن يجيبوا إذا دعوا»[(٢)].

وعوتب رضي الله عنه في لبوسه فقال: «إنَّ لبوسي هذا أبعد من الكِبْر، وأجدر أن يقتدي بي المسلم»[(٣)].

وقال هشام بن حسان: بينا نحن عند الحسن البصري إذ أقبل رجل من الأزارقة[(٤)] فقال: يا أبا سعيد، ما تقول في علي بن أبي طالب؟ قال: فاحمرَّت وجنتا الحسن، وقال: «رحم الله عليا، إنَّ عليًا كان سهمًا لله صائبًا في أعدائه، وكان في محلَّةِ العلم أشرفها وأقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ربَّانيَّ هذه الأمة، لم يكن لمال الله بالسَّرُوقة، ولا في أمر الله بالنَّئومة، أعطىٰ القرآن عزائِمَه وعَمَلَه وعِلْمَه، فكان منه في رياضٍ مؤُنِقةٍ، وأعلامٍ بيِّنة، ذاك عليُّ بن أبي طالب يا لكع»[(٥)].

---

(١) الإحياء (٢/٣٦٨).

(٢) سنن سعيد بن منصور (٦٣٤٣).

(٣) فضائل الصحابة لأحمد (١/٥٤٢) (٩٠٨).

(٤) فرقة من فرق الخوارج المارقين.

(٥) البداية والنهاية (١١/١٠٩).

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز: يقول عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب رضي الله عنه»[١].

[فائدة]

قال قبيصة بن جابر: ما رأيت أحدًا أرأف برعيته ولا خيرًا من أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ ولا رأيت أحدًا أقرأ لكتاب الله ولا أفقه في دين الله ولا أقوم بحدود الله ولا أهيب في صدور الرجال من عمر بن الخطاب؛ ولا رأيت أحدًا أشد استحياء من عثمان بن عفان؛ ولا رأيت أحدًا أشجع قلبًا ولا أوسع علمًا من علي بن أبي طالب؛ ولا رأيت أحدًا أعطىٰ للمال عن ظهر يد من غير سلطان أصابه من طلحة بن عبيد الله؛ ولا رأيت أحدًا أحلم من معاوية؛ ولا رأيت أنصع ظرفًا ولا أسرع جوابًا من عمرو بن العاص؛ ولا رأيت أحدًا المعرفة عنده أنفع إلا المغيرة بن شعبة؛ ولا رأيت أحدًا أحلم طبعًا ولا أخصب رفيقًا ولا أشبه سرًا بعلانية من زياد بن أبيه[٢].

نزاهة الأمين الجليل حذيفة رضي الله عنه

عن ابن سيرين قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا بعث أميرًا كتب إليهم: إنِّي قد بعثت إليكم فلانًا، وأمرته بكذا وكذا، فاسمعوا له وأطيعوا.

فلمَّا بعث حذيفة إلىٰ المدائن كتب إليهم، إنِّي قد بعثتُ إليكم فلانًا فأطيعوه.

---

(١) تاريخ دمشق (٤٢/ ٤٨٩).

(٢) البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (٦/ ٢٤٤)، [فائدة] قال عبد الملك بن مروان رحمه الله: «أنصِفونا يا معشر الرعيَّة، تُريدون منَّا سيرةَ أبي بكرٍ وعُمر ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرةِ رعيةِ أبي بكرٍ وعُمر نسأل الله أن يُعين كُلًّا علىٰ كُل» كما في «عيون الأخبار» (١/ ٦٢).

فقالوا: هذا رجلٌ له شأن، فركبوا ليتلقّوه، فلقوْه علىٰ بغلٍ، تحتُه إكافٍ وهو معترض عليه، رجلاه من جانب واحد.

فلم يعرفوه فأجازوه.

فلقيهم النَّاس، فقالوا: أينَ الأمير؟

قالوا: هو الذي لقيتم!!

قال: فركضوا في إثرِه فأدركوه، وفي يده رغيفٌ وفي الآخرىٰ عَرْق وهو يأكل.

فسلموا عليه فنظر إلىٰ عظيمٍ منهم فناوله العرق والرغيف. قال: فلمَّا أغفل ألقاه، وقال: أعطاه خادمه.

وفي روايةٍ آخرىٰ عن ابن سيرين: أنَّ حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان راكبًا علىٰ حمار له إكاف وبيده رغيف وعَرْق من لحم فقالوا: سلْنا ما شئت.

فقال: أسألكم طعامًا آكله، وعلفًا لحماري هذا ما دمتُ فيكم.

فأقام ما شاء الله، ثمَّ كتب إليه عمر أن أقْدم فقدم، فلمَّا بلغ عمر قدومه كمنَ له علىٰ الطريقِ في مكانٍ لا يراه.

فلمَّا رآه علىٰ الحال التي خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه، وقال: «أنت أخي وأنا أخوك»[(١)].

أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحمل متاعه وهو الأمير، ويقول: «أوسع الطريق للأمير»

عن ثعلبة بن أبي مالك القرظي، أنَّ أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقبل في السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذٍ خليفة لمروان. فقال: «أوسع الطريق للأمير يا بن أبي مالك».

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٣٣-٢٣٤)، وبنحوه في «تاريخ بغداد» (١/ ٥٠٧).

فقلت: أصلحك الله يكفي هذا.

فقال: «أوسع الطريق للأمير والحزمة عليه»(١).

والي حمص الأمير سعيد بن عامر بن جذيم الجمحي

عن ثور بن يزيد، ثنا خالد بن معدان، قال: استعمل علينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحمص سعيد بن عامر بن جذيم الجمحي، فلمَّا قدم عمر بن الخطاب حمص قال: يا أهل حمص، كيف وجدتم عاملكم؟ فشكوه إليه -وكان يقال لأهل حمص: الكويفة الصغرىٰ لشكايتهم العمال- قالوا: نشكو أربعًا: لا يخرج إلينا حتىٰ يتعالىٰ النَّهار، قال: أعظم بها، قال: وماذا؟ قالوا: لا يجيب أحدا بليل، قال: وعظيمة، قال: وماذا؟ قالوا: وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا، قال: عظيمة، قال: وماذا؟ قالوا: يغنظ الغنظة بين الأيام -يعني تأخذه موتة- قال: فجمع عمر بينهم وبينه وقال: اللهم لا تقبل رأيي فيه اليوم، ما تشكون منه؟

قالوا: لا يخرج إلينا حتىٰ يتعالىٰ النهار، قال: «والله إن كنت لأكره ذكره، ليس لأهلي خادم فأعجن عجيني ثمَّ أجلس حتىٰ يختمر ثمَّ أخبز خبزي، ثمَّ أتوضأ ثمَّ أخرج إليهم» فقال: ما تشكون منه؟

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٦٩٣)، ونحوه في «الزهد» لأحمد (١٠١٩) عن القاسم بن محمد قال: زعم عبد الله بن حنظلة أنَّ عبد الله بن سلام مر في السوق، وعليه حزمة من حطب، فقيل له: أليس الله قد أعفاك عن هذا؟ قال: بلىٰ ولكن أردت أن أدفع به الكبر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**».

ونحوه في «الحلية» (١/ ١٩٩) عن ميمون بن مهران، عن رجل، من بني عبد القيس قال: رأيت سلمان في سرية هو أميرها علىٰ حمار وعليه سراويل وخدمتاه تذبذبان، والجند يقولون: قد جاء الأمير، فقال سلمان: «إنَّما الخير والشر بعد اليوم».

قالوا: لا يجيب أحدًا بليل، قال: ما تقول؟ قال: إن كنت لأكره ذكره، إنِّي جعلت النَّهار لهم وجعلت الليل لله ﷻ.

قال: وما تشكون؟ قالوا: إنَّ له يومًا في الشهر لا يخرج إلينا فيه، قال: ما تقول؟ قال: «ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا لي ثياب أبدلها، فأجلس حتىٰ تجف ثمَّ أدلكها ثمَّ أخرج إليهم من آخر النَّهار».

قال: ما تشكون منه؟ قالوا: يغنظ الغنظة بين الأيام، قال: ما تقول: قال: شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة وقد بضعت قريش لحمه ثم حملوه علىٰ جذعة فقالوا: أتحب أن محمدا مكانك؟ فقال: والله ما أحب أنِّي في أهلي وولدي وأنَّ محمدًا ﷺ شيك بشوكة، ثمَّ نادىٰ: يا محمد فما ذكرت ذلك اليوم وتركي نصرته في تلك الحال، وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم إلا ظننت أنَّ الله ﷻ لا يغفر لي بذلك الذنب أبدًا، قال: فتصيبني تلك الغنظة.

فقال عمر: الحمد لله الذي لم يفيل فراستي، فبعث إليه بألف دينار وقال: استعن بها علىٰ أمرك، فقالت امرأته: الحمد لله الذي أغنانا عن خدمتك، فقال لها: «فهل لك في خير من ذلك؟ ندفعها إلىٰ من يأتينا بها أحوج ما نكون إليها» قالت: نعم، فدعا رجلًا من أهل بيته يثق به فصرها صررًا ثمَّ قال: انطلق بهذه إلىٰ أرملة آل فلان، وإلىٰ يتيم آل فلان، وإلىٰ مسكين آل فلان، وإلىٰ مبتلىٰ آل فلان، فبقيت منها ذهبية فقال: «أنفقي هذه» ثمَّ عاد إلىٰ عمله، فقالت: ألا تشتري لنا خادما، ما فعل ذلك المال؟ قال: «سيأتيك أحوج ما تكونين»[1].

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٤٥-٢٤٦).

جلوس عبد الملك بن مروان لسماع مظالم الناس

قال القَرافي المالكي: «ولاية المظالم أوَّل من أحدثها في الإسلام عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالىٰ، فكان يجلسُ للمظالم يومًا يخصُّها، ويردُّ مشكلاتِها لأبي إدريس الأودي»[١].

الخليفة أبو جعفر المنصور رَحِمَهُ ٱللَّهُ

وقيل: ولىٰ بعض العمال علىٰ بلد، فبلغه أنَّه قد تصدىٰ للصيد، وأعد لذلك الكلاب والبزاة، فكتب إليه المنصور: ثكلتك أمُّك وعدمتك عشيرتك، ويحك! إنَّا إنمَّا استكفيناك أمور المسلمين، ولم نستكفك أمور الوحوش، فسلم ما كنت تلي من عملنا إلىٰ فلان، والحق بأهلك ملومًا مدحورًا[٢].

والي اليمن عروة بن محمد بن عطية السعدي الجشمي

قال سفيان: حدثني مولىٰ لعروة بن محمد، قال: خرج عروة بن محمد من اليمن وقد وليها سنين وما معه إلا سيفه ورمحه ومصحفه.

قال: وبلغني أنَّه لما دخل قال: يا أهل اليمن هذه راحلتي؛ فإنْ خرجت بأكثرِ منها فأنا سارق[٣].

---

(١) قلائد العقيان (٧/ ٤٦٣)، وهو في «الذخيرة» (١٠/ ٣٨).

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ٤٦٧-٤٦٨).

(٣) وبنحوه في «ترتيب المدارك» (٢/ ٩٢) ترجمة (أبو عمر ميمون بن عمر المغلوب) ولي مظالم القيروان، ثم قضاء صقلية، ولما خرج إليها -وكان بسوسة- قال يا أهل سوسة: «هذا كسائي وفروي، وجُبتَّي وخَرْجي وكتبي، وسوداء تخدمني، معها جُبَّة وكساء، فبهذا دخلت عليكم، فانظروا بما أرجع!».
وقيل: فلمَّا وصل إلىٰ صقلية، قيل له: هذه دار القضاء، قال: «بل دار عظماء، ما أصنعُ فيها، تكفي دويرة صغيرة». =

وقال يعقوب بن سفيان، عن علي بن المديني: ولي عروة بن محمد اليمن عشرين سنة، وخرج حين خرج ومعه سيف ومصحف.

ذكره ابن حبان في كتاب «الثقات»[(١)]، روىٰ له أبو داود حديثًا واحدًا[(٢)].

الملك العادل نور الدين زنكي رَحِمَهُ اللَّهُ

وقع بيده إفرنجي من أكابر الملوك، ففدىٰ نفسه بمالٍ عظيم، فشاور نور الدِّين أمراءه، فأشاروا ببقائه في الأَسْر خوفًا من شرِّه، فأرسل إليه نور الدِّين في السِّر يقول: أحضرِ المال، فأحضر ثلاث مئة ألف دينار، فأطلقه نور الدين فعند وصوله إلىٰ مأمنه مات، فطلب الأُمراء أسهمهم من المال، فقال نور الدِّين: ما تستحقون منه شيئًا، لأنكم نَهَيتُم عن الفداء، وقد جمع الله لي الحُسْنيين: الفداء، وموت اللعين، وخلاص المُسلمين منه. فبنىٰ بذلك المال المارَسْتان.

وما كان يصل إليه من هدايا الملوك وغيرهم يبعث به إلىٰ القاضي، فيبيعه ويعمر به المساجد المهجورة، ولا يتناول منه شيئًا، وأمر بإحصاء مساجد دمشق، فأُحصيت، فكانت مئة مسجد، فأوقف الأوقاف علىٰ جميعها.

وكان له عجائز بدمشق وحلب، فكان يخيط الكوافي، ويعمل الساكر للأبواب، ويبيعها العجائز ولا يدري بهنَّ أحد، فكان يوم يصوم يُفْطر علىٰ أثمانها[(٣)].

= قال الذهبي في «السير» عنه (١٤/ ٣٥٥): قال عبد الله بن محمد المالكي في (تاريخه): «كان صالحًا، دينًا، فاضلًا، معدودًا في أصحاب سحنون».

(١) الثقات (٧/ ٢٨٧).

(٢) تهذيب الكمال (٢٠/ ٣٤)، و«المعرفة والتاريخ» (٢/ ٣٠).

(٣) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان (٢١/ ٢٠٨و٢١٠).

ودخل يومًا إلىٰ خزانته، فرأىٰ مالًا كثيرًا، فقال: مِنْ أين هذا؟ قالوا: قد بعَثَ القاضي كمال الدِّين من فائض الأوقاف، فقال: ردُّوه إليه، وقولوا له: «أنا رقبتي دقيقة، لا أقدر علىٰ حَمْله غدًا، وأنتَ رقبتك غليظة تقدر علىٰ حَمْله»[(١)].

السلطان المظفر صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ اللَّهُ

كان محبًّا للعدلِ، يجلس في كلّ يوم إثنين وخميس في مجلس عام يحضره القضاة والفقهاء[(٢)]، ويصل إليه الكبير والصغير والشيخ والعجوز، وما استغاث إليه أحد إلّا أجابه وكشف ظلامته؛ واستغاث إليه ابن زهير الدّمشقيَّ علىٰ تقي الدين عمر ابن أخيه، وقال: ما يحضر معي مجلس الشرع، فأمر تقي الدين بالحضور معه.

وادّعىٰ رجل علىٰ السلطان صلاح الدين المذكور بأنّ سنقر الخلاطيَّ مملوكه ومات علىٰ ملكه.

قال ابن شدّاد: فأخبرته فأحضر الرجل، وقد خرج عن طرّاحته وساواه فىٰ الجلوس، فادّعىٰ الرجل؛ فرفع السلطان رأسه إلىٰ جماعة الأمراء والشيوخ الأخيار، وهم وقوف علىٰ رأسه، فقال: أتعرفون سنقر الخلاطيَّ؟

قالوا: نشهد أنّه مملوكك، وأنّه مات علىٰ ملكك، ولم يكن للرجل المدّعي بيّنة، فأسقط فىٰ يده.

فقلت: يا مولانا، رجل غريب، وقد جاء من خلاط في طمع، ونفدت نفقته، وما يحسن أن يرجع خائبًا؛ فقال: يا قاضي، هذا إنّما

---

(١) المصدر السابق (٢١/٢٠٦)، و«التاريخ الباهر» (ص١٦٧)، و«سيرة الملك العادل» لابن قاضي شهبة (ص١١٦) بنحوه.

(٢) سيرة صلاح الدين (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) لابن شداد (ص٤١).

يكون علىٰ غير هذا الوجه، ووهب له نفقة وخلعة وبغلة، وأحسن إليه[١].

وكان للمسلمين لصوص يدخلون إلىٰ خيام الفرنج فيسرقون، فاتفق أنَّ بعضهم أخذ صبيًّا رضيعًا من مهده ابن ثلاثة أشهر، فوجدت -حزنت- عليه أمه وجدًا شديدًا، واشتكت إلىٰ ملوكهم؛ فقالوا لها: إنَّ سلطان المسلمين رحيم القلب، فاذهبي إليه، فجاءت إلىٰ السلطان صلاح الدين فبكت، وشكت أمر ولدها، فرق لها رقة شديدة، ودمعت عيناه، فأمر بإحضار ولدها، فإذا هو بيع في السوق، فرسم بدفع ثمنه إلىٰ المشتري، ولم يزل واقفًا حتىٰ جيء بالغلام، فدفعه إلىٰ أمه، وحملها علىٰ فرس إلىٰ قومها مكرمة[٢].

الظاهر بأمر الله

ولما ولي الخلافة، أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين، فلو قيل إنَّه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقًا، فإنَّه أعاد من الأموال المغصوبة في أيام أبيه وقبله شيئًا كثيرًا، وأطلق المكوس في البلاد جميعها.

وقيل: كانت العادة ببغداد أنَّ الحارس بكل درب يبكر، ويكتب مطالعة إلىٰ الخليفة بما تجدد في دربه من اجتماع بعض الأصدقاء ببعض علىٰ نزهة، أو سماع، أو غير ذلك، ويكتب ما سوىٰ ذلك من صغير وكبير، فكان النَّاس من هذا في حجر عظيم، فلمَّا ولي هذا الخليفة -جزاه الله خيرًا- أتته المطالعات علىٰ العادة، فأمر بقطعها، وقال: أي غرض لنا في معرفة أحوال النَّاس في بيوتهم؟ فلا يكتب أحد إلينا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا، فقيل له: إنَّ العامة تفسد بذلك، ويعظم شرها، فقال: نحن ندعو الله أن يصلحهم.

---

(١) النجوم الزاهرة (٦/ ١٠).

(٢) حسن المحاضرة (٢/ ٢٠).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ولقد سمعت عنه كلمة أعجبتني جدًا، وهي أنَّه قيل له في الذي يخرجه ويطلقه من الأموال التي لا تسمح نفس ببعضها، فقال لهم: «أنا فتحت الدكان بعد العصر، فاتركوني أفعل الخير، فكم أعيش؟» وتصدق ليلة عيد الفطر من هذه السنة، وفرق في العلماء وأهل الدين مائة ألف دينار[١].

عبد الملك بن رفاعة

كان واليًا علىٰ مصر، عفيفًا عن الأموال دينًا، وفيه عدل في الرعية، وكان ثقة أمينًا فاضلًا، روىٰ عنه الليث بن سعد وغيره.

قال الليث بن سعد: كان يقول عبد الملك بن رفاعة: «إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاق» يعني بهذا الكلام في حق كل عامل علىٰ بلد.

قلت -ابن تغري-: وهذا أيضًا في حق كل حاكم كائن من كان[٢].

جقمق الظاهر أبو سعيد الجركسي (ت٨٥٧هـ)

وكان ملكًا عادلًا، كثير الصلاة والصوم والعبادة، عفيفًا عن المنكرات والقاذورات، لا يضبط عنه في ذلك زلة، ولا تحفظ له هفوة، متقشفًا بحيث لم يمشي علىٰ سنن الملوك في كثير من ملبسه وهيئته وجلوسه وحركاته وأفعاله[٣].

---

(١) الكامل في التاريخ (١٠/ ٤٠١-٤٠٣).

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١/ ٢٣١).

(٣) البدر الطالع (١/ ١٨٤).

الإمام المهدي لدين الله العباس بن الإمام المنصور (ت١١٨٩هـ)

وكان إمامًا فطنًا ذكيًا، عادلًا، قوي التدبير، عالي الهمة، منقادًا إلىٰ الخير، مائلًا إلىٰ أهل العلم، محبًا للعدل، مصنفًا للمظلوم، سيوسًا حازمًا، مطلعًا علىٰ أحوال رعيته، باحثًا عن سيرةِ عماله، لا تخفىٰ عليه خافية من الأحوال، له عيون يوصلون إليه ذلك.

واشتهر ذكره، وقصدَه أهل العلم والأدب من الجهات البعيدة لمزيد إكرامه لمن كان له فضيلة لا سيَّما غرباء الديار، وكان مشتغلًا بالعلم بعد دخوله في الخلافة شغلة كبيرة لا يبرح إذا خلىٰ ناظرًا في كتاب من الكتب، وقرأ علىٰ جماعة من العلماء.

والحاصل أنَّه من أفرادِ الدهر، ومن محاسن اليمن؛ بل الزمن، ولم يزل قاهرًا لأضداده، قامعًا لحساده وأندادهِ، حافظًا لأطراف مملكته بقوة صولة، وشدة شكيمة، لا يطمع فيه طامع، ولا ينجع فيه خدع خادع[1].

(تتمة مفيدة) ابن الخليفة هارون الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ

روىٰ محب الدين ابن النجار سمعت أبا بكر ابن أبي الطيب يقول: بلغنا عن عبد الله بن الفرج العابد قال: احتجت إلىٰ صانع يصنع لي شيئًا فأتيت السوق فإذا في آخرهم شاب مصفر بين يديه زنبيل كبير ومرو وعليه جبة صوف ومئزر صوف.

فقلت له: تعمل؟

قال: نعم.

قلت: بكم.

قال: بدرهم ودانق.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣١١).

فقلت: له قم حتىٰ تعمل.

قال: علىٰ شريطة إذا كان وقت الظهر تطهرت وصليت في المسجد جماعة ثمَّ أعود وكذلك العصر.

قلت: نعم، فجئنا المنزل ووافقته علىٰ ما ينقله فجعل يعمل ولا يكلمني بشيءٍ، حتَّىٰ أذن الظهر فاستأذنني فأذنت له فصلىٰ ورجع وعمل عملًا جيدًا إلىٰ العصر، فلمَّا أذن الظهر فعل كالظهر ولم يزل يعمل إلىٰ آخر النَّهار فأعطيته أجرته وانصرف.

فلمَّا كان بعد أيام احتجنا إلىٰ عمل فقالت زوجتي: اطلب ذلك الصانع الشاب فإنَّه نصحنا، فجئت إلىٰ السوق فلم أره فسألت عنه فقالوا: لا نراه إلا من السبت إلىٰ يوم السبت فأتيت يوم السبت، وصادفته فقلت: تعمل؟

فقال: قد عرفت الأجرة والشرط.

قلت: نعم، فقام وعمل في اليوم الأول فلمَّا وزنت الأجرة زدته فأبىٰ يأخذ الزيادة فألححت عليه فضجر وتركني ومضىٰ، فغمَّني ذلك وتبعته وداريته حتىٰ أخذ أجرته فقط.

فلمَّا كان بعد مدة احتجنا إليه فمضيت يوم السبت فلم أصادفه، فسألت عنه فقيل: هو عليل، فأتيته وهو في بيت عجوز فاستأذنت ودخلت عليه فسلمت وقلت: ألك حاجة؟ قال: نعم إن قبلت.

قلت: نعم.

قال: إذا أنا مت فبع هذا المرو واغسل جبتي هذه الصوف وهذا المئزر وكفني بهما، وافتق جيب الجُبة فإنَّ فيها خاتمًا فخذه وقف للخليفة الرشيد في موضع يراكَ وأرِه الخاتم وسلِّمه إليه ولا يكون هذا إلا بعد دفني.

فقلت: نعم، ولما مات فعلت ما أمرني ورصدتُ الرشيد في يوم ركوبه وجلست علىٰ الطريق له، فلمَّا دنا قلت: يا أمير المؤمنين لك عندي وديعة ولوحت بالخاتم، فأُخِذت وحُملت حتَّىٰ دخل داره ثمَّ دعاني خلوة، وقال: مَنْ أنت؟

قلت: عبد الله.

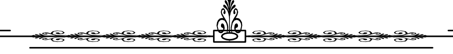
قال: هذا الخاتم من أين لك؟

فحدثته قصة الشاب فجعل يبكي حتىٰ رحمته، فلمَّا أَنِس بي، قلت يا أمير المؤمنين: من هو لك؟

قال: ابني، ولد قبل أن أليَ الخلافة ونشأ نشأً حسنًا، وتعلم القرآن والعلم، ولما وُليت الخلافة تركني ولم ينل شيئًا، فدفعت إلىٰ أمه هذا الخاتم وهو ياقوتٌ له قيمةٌ كبيرة، وقلت: ادفعي هذا إليه، وكان بها بارًا لعله يحتاج إليه ينتفع به، وتوفيت أمه فما عرفت له خبرًا إلا ما أخبرتني به أنت، ثمَّ قال: إذا كان الليل اخرج معي إلىٰ قبره، فلمَّا كان الليل مشي معي وحده وجلس علىٰ قبره وبكىٰ بكاءً شديدًا، فلمَّا طلع الفجر رجعنا، ثمَّ قال لي: تعاهدني في بعض الأيام حتىٰ أزوره قبره فكنت أتعاهده[1].



(١) الوافي بالوفيات (٨/ ١٤٤) وقال الصفدي هذه القصة: «قال محب الدين ابن النجار: عبد الله ابن الفرج العابد راوي هذه الحكاية هو أبو محمد القنطري، كان من أعيان الزهاد وكان بشر بن الحارث يزوره ولم يسم ابن الرشيد في هذه الرواية».
قلت: إن صحت هذه القصة ففيها عبرة وفائدة، أنَّ هذا الرجل تنسك لما صارت السلطة للرشيد، والعادة تحكم بخلاف ذلك في الغالب، ثمَّ مات غريبًا ما عرف إلا أن مات فرحمه الله وغفر له.





(فرع) بذكر جوانب مضيئة

من سيرة الخليفة عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قال مجاهد: «المهادي سبعة مضىٰ، خمسة وبقي اثنان». قال خارجة: «أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ»(١).

وقال سفيان الثوري: «الأئمة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز وما سوىٰ ذلك فهم منتزون».

قال ابن عبد البر معلقًا: «قد روي عن مالك وطائفة نحو قول سفيان هذا، وتأبىٰ طائفة من أهل العلم تفضيل عمر بن عبد العزيز علىٰ معاوية لمكان صحبته، ولكلا القولين آثار صحاح مرفوعة يحتج بها الفريقان»(٢).

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخلفاء خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز»(٣).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونص كثير من الأئمة علىٰ أنَّ عمر بن عبد العزيز خليفة راشد أيضًا».

ويدلُّ عليه ما خرجه الإمام أحمد من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «**تكون فيكم النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله**

---

(١) سيرة عمر رواية المروذي (ص٥١)، و«سيرة عمر» لابن الجوزي (٤٧).

(٢) جامع بيان العلم (٢٣١٨).

(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٤٨)، و«الانتقاء» لابن عبد البر (ص٨٢-٨٣)، و«السير» (١٠/ ٢٠).

إذا شاء أن يرفعها، ثمَّ تكون خلافة علىٰ منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثمَّ يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثمَّ تكون ملكًا عاضًا ما شاء الله أن تكون، ثمَّ يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة علىٰ منهاج النبوة» ثمَّ سكت. فلمَّا ولي عمر بن عبد العزيز، دخل عليه رجل، فحدثه بهذا الحديث، فسر به، وأعجبه.

وكان محمد بن سيرين أحيانًا يسأل عن شيء من الأشربة، فيقول: نهىٰ عنه إمام هدىٰ: عمر بن عبد العزيز»[1].

وعن أبي جعفر الباقر قال: «إنَّ نجيبَ بني أميّة عمر بن عبد العزيز، يُبعث يومَ القيامة أمةً وحدَه»[2].

وعن الأصمعي قال قيل للحسن رَحِمَهُ اللهُ: إنَّك كنت تقول الآخر أشر، وهذا عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج!

فقال الحسن: «لا بدَّ للنَّاسِ من متنفسات»[3].

(١)- كان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحد من الناس إذا خرج كتابًا إلا حمله، فخرج بريد من مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتابًا تذكر فيه أنَّ لها حائطًا قصيرًا، وأنَّه يقتحم عليها منه فيسرَقُ دجاجها فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلىٰ فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح، بلغني كتابك وما ذكرت من قصر حائطك، وأنه يدخل عليك منه فيسرق دجاجك، فقد كتبت لك كتابًا

---

(١) جامع العلوم والحكم (الحديث الثامن والعشرون) (ص٤٦١-٤٦٢) ط: الدار العالمية.

(٢) طبقات علماء الحديث (١/ ١٩٢).

(٣) المجالسة وجواهر العلم للدينوري (١٩٥٠)، وعنه السخاوي في «التماس السعد في الوفاء بالوعد» (ص٤٦).

إلىٰ أيوب بن شرحبيل -وكان أيوب عامله علىٰ صلاة مصر وحربها- آمره أن يبني لك ذلك حتىٰ يحصنه لك ممَّا تخافين إنْ شاء الله، والسلام.

وكتب إلىٰ أيوب بن شرحبيل من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلىٰ ابن شرحبيل أمَّا بعد: فإنَّ فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت إليَّ تذكر قصر حائطها، وأنَّه يسرق منه دجاجها، وتسأل تحصينه لها؛ فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتىٰ تحصنه لها، فلمَّا جاء الكتاب إلىٰ أيوب ركب ببدنه حتىٰ أتىٰ الجيزة يسأل عن فرتونة حتىٰ وقع عليها، وإذا هي سوداء مسكينة؛ فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين فيها، وحصَّنه لها[1].

(٢)- عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، قال: لما دفن عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك، وخرج من قبره سمع للأرض هزة أو رجة، فقال: ما هذه؟

فقيل: هذه مواكب الخلافة قربت إليك لتركبها.

فقال: مالي ولها، نحوها عنَّي قربوا إلي بغلتي، فقربت إليه بغلته، فجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة، فقال: تنح عني، مالي ولك إنَّما أنا رجل من المسلمين، فسار وسار معه الناس حتىٰ دخل المسجد فصعد المنبر واجتمع الناس إليه فقال: يا أيُّها النَّاس إنَّي قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان منَّي إليه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإنَّي قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم، فصاح الناس صيحة واحدة، قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضيناك فلِ أمرنا باليمن والبركة، فلمَّا رأىٰ الأصوات قد هدأت ورضي النَّاسُ به جميعًا، حمد الله وأثنىٰ عليه، وصلىٰ علىٰ النبي ﷺ فقال: «**أوصيكم بتقوىٰ الله**

---

(١) السيرة لابن عبد الحكم (ص٦٢).

فإنَّ في تقوىٰ الله خلفًا لكلِّ شيءٍ[1]**، وليس في شيءٍ من تقوىٰ الله خلف، واعملوا لآخرتكم، فإنَّه من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد للموت قبل أن ينزل بكم، فإنَّه هاذم اللذات، وإنَّ من لا يذكر من آبائه فيما بينه وبين آدم عليه السلام أبا حيًا لمعرق له من الموت، وإنَّ هذه الأمة لم تختلف في ربها ولا في نبيها ﷺ ولا في كتابها، إنَّما اختلفوا في الدنيا والدرهم، وإنِّي والله لا أعطي أحدًا باطلًا، ولا أمنعُ أحدًا حقًا، ثمَّ رفع صوته حتىٰ أسمع الناس، فقال: يا أيُّها النَّاس، من أطاع الله فقد وجبت طاعته، ومن عصىٰ الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم**»، ثمَّ نزل ودخل وأمر بالستور فهتكت، وبالثياب التي تبسط للخلفاء فحملت، وأمر ببيعها وإدخال أثمانها في بيت مال المسلمين، ثمَّ ذهب يتبوأ مقيلًا، فأتاه ابنه عبد الملك بن عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، ماذا تريد أن تصنع؟

قال: أي بني، أقيل.

قال: تقيل ولا ترد المظالم؟

فقال: يا بنيَّ، قد سهرت البارحة في أمرِ عمل سليمان، فإذا صليت الظهر رددت المظالم.

قال: يا أمير المؤمنين، من لك أن تعيش إلىٰ الظهر!

قال: ادنُ مني أي بني، فدنا منه فالتزمه فقبَّل بين عينيه، وقال: الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني علىٰ ديني، فخرج ولم يقيل،

---

(١) وفي «الحلية» لأبي نعيم (٥/ ٢٦٧) بسنده عن حمزة الجزري قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ رجل: «أوصيك بتقوىٰ الله الذي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإنَّ الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل».

وأمر مناديه أنْ ينادي ألا من كانت له مظلمَة فليرفعها، فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص أبيض الرأس واللحية، فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله.

قال: وما ذاك؟

قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضًا، والعباس جالس، فقال له: يا عباس ما تقول؟

قال: أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وكتب لي بها سجلًا.

فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟

قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله.

فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، قم فاردد عليه يا عباس ضيعته، فرد عليه، فجعل لا يدعىٰ شيء ممَّا كان في يديه وفي أيدي أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة[1].

(٣)- قال ابن عبد الحكم: وكتب عمر بن عبد العزيز علىٰ أبي بكر بن حزم إنَّ كل من هلك وعليه دين، لم يكن دينه في خرقه، فاقض عنه دينه من بيت مالِ المسلمين

وقال يحيىٰ بن سعيد: بعثني عمر بن عبد العزيز علىٰ صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرًا، ولم نجد من يأخذها منِّي قد أغنىٰ عمر بن عبد العزيز النَّاس، فاشتريت بها رقابًا فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين[2].

---

(١) انظر: سير السلف الصالحين (ص٨٥٤-٨٥٥)، و«تاريخ دمشق» (٤٥/ ٣٥٧)، و«صفة الصفوة» (٢/ ١١٤)، و«سيرة عمر بن عبد العزيز» رواية الآجري وجماعة (ص٥٧-٥٨) ت: عسيلان.

(٢) سيرته (ص٦٣) و(ص٦٥).

(٤)- وكتب عمر بن عبد العزيز من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلىٰ أمير الأجناد أمَّا بعد: فإنَّه من بلي بالسلطان تحضره مكاره كثيرة، وبلايا عظام، إن أغبته يومًا فهي حرية أن تحضره في اليوم الآخر، وإنَّه ليس أحد بأشغل عن نفسه، ولا أكثر تعرضًا لزيغ من ولي السلطان إلا ما عافىٰ الله ورحم، فاتقِ الله ما استطعت، واذكر منزلك الذي أنت به والذي حمِّلت، فقاتل هواك كما تقاتل عدوك، واصبر نفسك عندما كرهت ابتغاء ما عند الله من حسن ثوابه الذي وعد المتقون فيما بعد الموت، والذي وعدكم علىٰ التقوىٰ والصبر من النجاة في عاجل الأمر وآجله[١].

(٥)- عن شعيب بن صفوان، عن أبيه قال: خطب عمر بن عبد العزيز بخناصرة خطبة لم يخطب بعدها غيرها حتىٰ مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فحمد الله وأثنىٰ عليه وصلّىٰ علىٰ نبيه ثمَّ قال: «أيُّها الناس، إنَّكم لم تخلقوا عبثًا، ولم تتركوا سدىٰ، وإنَّ لكم معادًا يحكم الله بينكم فيه. فخاب وخسر من خرج من رحمة اللهِ التي وسعت كلَّ شيءٍ، وحُرِمَ الجنّة التي عرضها السَّموات والأرض. واعلموا أنَّ الأمان غدًا لمن خاف الله اليوم، وباع قليلًا بكثيرٍ، وفائتًا بباقٍ. ألا ترون أنَّكم في اسلاب الهالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقون كذلك حتىٰ تردوا إلىٰ خير الوارثين.

ثمَّ أنتم في كل يوم تشيّعون غاديًا ورائحًا إلىٰ الله، قد قضىٰ نحبه وبلغ أجله، ثمَّ تغيبونه في صدع من الأرض، ثمَّ تدعونه غير موسّد ولا ممهّد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وباشر التراب، وواجه

---

(١) السيرة لابن عبد الحكم (ص٧٣).

الحساب، غنيا عما ترك، فقيرا إلىٰ ما قدّم، وأيم الله إني لأقول لكم هذه المقالة، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي.

فاستغفر الله لي ولكم. وما تبلّغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها، وما أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي، ولحمتي الذين يلونني، حتىٰ يستوي عيشنا وعيشكم. وايم الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة، لكان اللسان منِّي ناطقًا ذلولًا، عالمًا بأسبابه؛ لكنَّه مضىٰ من الله كتابٌ ناطق، وسنّة عادلة؛ دلّ فيها علىٰ طاعته، ونهىٰ فيها عن معصيته.

ثمَّ بكىٰ رَحِمَهُ اللَّهُ فتلقىٰ دموع عينيه بطرف ردائه، ثمَّ نزل، فلم يرَ علىٰ تلك الأعواد حتىٰ قبضه الله إلىٰ رحمته»[(١)].

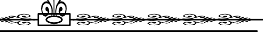
بلغ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّ ابنًا له اشترىٰ خاتمًا بألف درهم فكتب إليه عمر: بلغني أنَّك اشتريت فصًا بألف درهم فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم، وأشبع به ألف بطن، واتخذ خاتما بدرهمين، واجعل فصه حديدًا صينيًا، وأكتب عليه: «رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه»[(٢)].

إذا أعجبتك خصالُ امرئٍ ... فكُنْهُ يَكُنْ منه ما يُعجبكْ
فليس لدىٰ المجدِ والمكرُما ... تِ إذا جِئْتَها حاجبٌ يَحْجُبُكْ

وروي عن الأوزاعي، قال: كان عمر بن عبد العزيز جعل في كل يوم درهمًا من خاصة ماله في طعام العامة، ثمَّ يأكل معهم[(٣)].

---

(١) البيان والتبيين (٢/ ٨١-٨٢)، وانظر: «تاريخ الطبري» (٥/ ٣٢٢)، و«تاريخ دمشق» (٤٥/ ١٧٣).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٣١-٣٣٢).
(٣) سير السلف الصالحين (ص٨٥٨).


[الباب السابع:

نماذج عطرة من إمارة وقيادة الشباب]

إذا قلبنا صفحات التاريخ، دلتنا علىٰ رجال ظهرت عبقريتهم وكفايتهم للقيام بأعمال جليلة، وهم في أوائل عهد شبيبتهم.

نقرأ في السيرة النبوية: أنَّ النبي ﷺ ولّىٰ عتاب بن أسيد مكة وقضاءها، وهو في سن الحادية والعشرين.

وولّىٰ معاذ بن جبل رضي الله عنه علىٰ اليمن وهو دون سن العشرين.

وولّىٰ أسامة بن زيد إمارة جيش فيه الشيخان أبو بكر وعمر، وسِن أسامة يومئذ تسع عشر سنة.

وولّىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كعبَ بن صور قضاء البصرة وهو في سن العشرين.

وكان يدعو ابن عباس رضي الله عنه في المعضلات، ويجلسه بين الأشياخ، وهو دون سن العشرين.

وقلّد عثمان رضي الله عنه عبد الله بن عامر ولاية البصرة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، قاد الجيوش، وفتح ما بقي من بلاد الفرس، حتىٰ انقرضت علىٰ يده الدولة الساسانية.

وولّىٰ الحجاج محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم الثقفي قيادة جيش أخمد ثورة في الفرس، وقيادة جيش افتتح السند، وكان عمر هذا القائد سبع عشرة سنة، حتىٰ قال فيه بعضهم:

قاد الجيوش لسبع عشرة حجَّة   يا قربَ ذلك سؤددًا من مولدِ

وظهر نبوغ مخلد بن يزيد المهلبي في أوائل عهد شبابه، وفيه يقول حمزة بن بيض الحنفي:

بلغت لعشر مضت من سنيـ   ـك ما يبلغ السيد الأشيب

فهمّك فيها جسام الأمور   وهمُّ لداتك أن يلعبوا

وكان مخلد هذا واليًا علىٰ جرجان، وتوفي في عهد عمر بن عبد العزيز، وهو ابن سبع وعشرين سنة، وقال عمر بن العزيز: اليوم مات فتىٰ العرب، وأنشد متمثلًا:

علىٰ مثل عمرٍ تذهب النفس حسرةً   وتضحي وجوه القوم مغبّرةً سودًا

وولىٰ المأمون يحيىٰ بن الأكثم قضاء بغداد وهو في سن الحادية والعشرين.

وتولىٰ أبو شجاع بن نظام الدين الوزارة للمسترشد، وسنه دون العشرين، ولم يل الوزارة أصغر منه.

وإذا انتقلنا إلىٰ النظر في شباب الملوك، وجدنا رجالًا تقلدوا الملك في سن العشرين، أو فيما دونه، أو فيما يزيد عليه بقليل، وأخص حديثي وما أسوقه من الأمثال بمن تولوا الملك في عهد الشباب، وظهرت لهم آثار تدل علىٰ كفايتهم للقيام بأعباء الملك.

وأضع في أول سلسلة هؤلاء الشباب من الملوك: الخليفة هارون الرشيد، فإنه تولىٰ الخلافة وهو في سن الحادية أو الثانية والعشرين، وماذا أقول في هارون الرشيد، وصحف التاريخ مملوءة بمآثره الحميدة، وبما بلغه الإسلام في عهده من العزة والعظمة؟ وإذا لم يكن بدّ من ذكر خصلة من خصاله الزاهرة، فإنه كان يدع القضاء يتمتع بحريته الكاملة، ومما حدثنا به التاريخ: أن يهوديًا كان قد رفع عليه قضية لدىٰ القاضي

أبي يوسف، وحكم القاضي لليهودي، وكان هارون في المجلس، فبادر إلىٰ تنفيذ ما حكم به القاضي.

ومن عظماء شباب الملوك: ملك شاه بن ألب أرسلان الملقب بالسلطان العادل، تولّىٰ الملك وهو في سن التاسعة عشرة، أو العشرين، وقد ملك من كاشغر «أقصىٰ مدينة في بلاد الترك» إلىٰ بيت المقدس، وكان مغرمًا بالعمران، لهجًا بالصيد، مظفرًا في الحروب، وكانت السبل في أيامه آمنة: تسافر القوافل أو الأفراد مما وراء النهر إلىٰ أقصىٰ الشام من غير خوف ولا رهبة، وأصدق شاهد علىٰ إخلاصه في سياسة الأمة: أنه خرج لقتال أخيه أبي سعيد بن ألب أرسلان، واجتاز بمشهد الإمام علي الرضا، فقال في دعائه: «اللهم انصر أصلحَنا للمسلمين، وأنفعَنا للرعية».

ومن عظمائهم: محمد بن ملك شاه، فقد تولىٰ السلطنة وهو في سن العشرين، وسار سيرة حسنة، وكانت له الآثار الجميلة من العدل الشامل، والبرّ بالفقراء والأيتام، وكان ساهرًا علىٰ أن تكون عقيدة الأمة سليمة، يخشىٰ أن يدخلها الإلحاد، فتتزعزع قوتها المعنوية، وما تفشّىٰ الإلحاد والإباحية في قوم إلا قلت الرجولة من نفوسهم، وركب العدو أعناقهم.

ومن عظمائهم: محمود بن محمد بن ملك شاه؛ فقد تولىٰ السلطنة في خلافة المستظهر بالله، وخطب له في بغداد وهو في سن الحلم، وكان هذا السلطان متوقدًا ذكاء، قويًا في العربية، عارفًا بالتواريخ، شديد الميل إلىٰ أهل العلم والفضل، وهو الذي مدحه الشاعر حيص بيص بقصيدته التي يقول فيها:

يا ساري الليل لا جدب ولا فرق فالنبت أغيد والسلطان محمود
قيلٌ تألفت الأضداد خيفته فالمورد الضنك فيه الشاء السيد

ومن عظمائهم: فنا خسرو عضد الدولة بن بويه، فقد ولّي سلطنة فارس وعمره خمس عشرة سنة، واستولىٰ علىٰ العراق والجزيرة، وهو أول من خوطب بالملك في الإسلام، وكان شهمًا حازمًا متيقظًا، محبًا لأهل الفضل، وقصده فحول الشعراء ومدحوه بأحسن المدائح، ومن هؤلاء الشعراء المتنبي، ومما قال فيه:

ومن أَعتاضُ عنك إذا افترقنا وكل الناس زور ما خلاكا

ومنهم: محمد بن عبد الله السلامي، وهو الذي يقول فيه:

وبشرف آمالي بملك هو الورىٰ ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

ومن عظماء شباب الملوك في الشام أو مصر: أبو الفتح غازي بن السلطان صلاح الدين المعروف بالملك الظاهر، فقد سلم إليه والده مملكة حلب وسنه أربع عشرة سنة، وكان ملكًا حازمًا عالي الهمة، حسن السياسة، كثير الاطلاع علىٰ حال الرعية وأخبار الملوك، باسطًا للعدل، مجّلًا للعلماء، مجيزًا للشعراء، ورثاه راجح بن إسماعيل الحلبي بقصيدة بديعة يقول في طالعها:

سل الخطب إن أصغىٰ إلىٰ من يخاطبه بمن علقت أنيابه ومخالبه

يقول:

أيا تاركي ألقىٰ العدو مسالمًا متىٰ ساءني بالجد قمت ألاعبُهْ

ومن شباب ملوك مصر: خمارويه بن أحمد بن طولون؛ فقد تولىٰ ملك مصر وهو ابن عشرين سنة، وكان هذا الملك يمثل الثبات ومقارعة الخطوب؛ فقد أصابه في أوائل ولايته ما يكسر العزم، ولكنه ما زال ينهض حتىٰ ثبت لقتال الخارجين عن طاعته، ووصل أصحابه إلىٰ (سر من رأىٰ) بالعراق، وعظم أمره، واستولت الهيبة منه علىٰ القلوب. وإذا نزل بقدره شيء، فهو أنه كان ينفق الأموال الطائلة في الملاهي والزينة. كما فعل في تجهيز ابنته (قطر الندىٰ).

وممن يذكر في هذا القبيل: علي بن الحاكم العبيدي، الملقب بالظاهر، فقد تولىٰ ملك مصر وعمره ست عشرة سنة، وكان علىٰ خصال حميدة من نحو: السخاء والحلم والتواضع، والعدل في الرعية، والنظر في إصلاح البلاد، وكان لا يدّعي ما كان يدّعيه والده وجدّه من المزاعم، وله كتاب يتبرأ فيه من الغلاة فيه، وفي آبائه.

ومن هؤلاء العظماء: المظفّر موسىٰ بن الملك العادل، فقد ملكه والده مدينة «الرها» وهو في سن العشرين، واتسع ملكه بعد، وكان سلطانًا واسع الصدر، كريم الأخلاق، ويقول المؤرخون: إنه أحسن إلىٰ الناس إحسانًا لم يعهدوه ممن كان قبله، فكان محبوبًا إلىٰ الناس، مؤيدًا في الحروب، ومن شعرائه أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن النبيه، ويعجبني من مديحه له قوله:

قام بالدنيا وبالأخرىٰ معًا فهي ضرات به قد رضيت
حسن الظاهر للناس ولله منه حسنات خفيت

ومن عظماء شباب الملوك في تونس: أحمد بن محمد بن الأغلب، فقد ولي الملك بالقيروان وهو في سن العشرين، وكان حسن السيرة، رفيقًا بالرعية، كثير الصدقات، وكان مولعًا بالعمارة، فبنىٰ بأفريقية حصونًا كثيرة الحجارة والكلس وأبواب الحديد.

ومن هؤلاء العظماء: باديس بن المنصور، فقد تولىٰ الملك بالقيروان وعمره إحدىٰ عشرة سنة، وكان ملكًا كبيرًا، حازم الرأي، شديد البأس، وأذكر من مآثره: أن الفقيه الزاهد محرز بن خلف بعث إليه بكتاب يعظه فيه، ويطلب رفع مظلمة وقعت علىٰ أحد تلاميذه، ومما يقوله في الكتاب: «لا يغرنك توالي زخارف الدنيا عليك، وشاور في أمرك من يتقي الله، وخف من لا يحتاج إلىٰ عون عليك، أنت علىٰ رحيل، فخذ الزاد». ولما

وصل الكتاب إلىٰ باديس، أصدر أمرًا بتحرير طلبة العلم كافة، ورفع المظالم عنهم جملة.

ومن هؤلاء العظماء: المعزِّ معد بن منصور العبيدي، تولىٰ الملك وهو في الثانية والعشرين من العمر، وثبّت دعائم دولتهم بالمغرب، ثم أسس الدولة العبيدية بمصر، وكان عاقلًا حازمًا أديبًا.

ومنهم: المعزّ بن باديس؛ فقد تولىٰ الملك وهو في السنة الثامنة من العمر، وكان ملكًا جليلًا، عالي الهمة، حريصًا علىٰ تنفيذ أحكام الشريعة الغراء، واجتمع بحضرته من أفاضل الشعراء ما لم يجتمع إلا بباب الصاحب ابن عباد.

ويدخل في صف هؤلاء: المستنصر باللهِ محمد بن زكريا؛ فقد تقلّد الملك في تونس وعمره عشرون سنة، فنهض بأعباء الملك، وعلا صيته، وأبقىٰ آثارًا علمية وأدبية وعمرانية أبقت له ذكرًا جميلًا، وهو الذي قدم عليه حازم القرطاجني من الأندلس، فأكرم نزله، ومدحه بقصيدته الطائية المعروفة، وقصيدته الرائية التي يقول في نسيبها:

ولا تعجبوا يومًا لكسر جفونها ... فإن إناء الخمر في الشرع يُكسَرُ

ويقول في حال الأعداء:

وقد شابه الأعداء جمعًا مؤنثًا ... لذاك غدت في حالة الفتح تُكسَرُ

ومن عظماء شباب السلاطين بالمغرب الأقصىٰ: إدريس بن إدريس الحسني؛ فقد أخذت له البيعة بالمغرب الأقصىٰ وعمره إحدىٰ عشرة سنة، فقد نشأ في كفالة مولىٰ أبيه راشد، فأقرأه القرآن الكريم، وعلمه السنّة، وروّاه الشعر وأمثال العرب، وأطلعه علىٰ سير الملوك، ودربه علىٰ ركوب الخيل، والرمي بالسهام، فلم يصل إلىٰ السنة الحادية عشرة حتىٰ ترشح للأمر، واستحق أن يبايع، وظهر من ذكائه ونبله ما أذهل العامة والخاصة.

صعد المنبر يوم بيعته وخطب، ومما قال في خطبته: «أيها الناس! إنا قد ولّينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسن فيه الثواب، وللمسيء الوزر، ونحن -والحمد لله- علىٰ قصد جميل، فلا تمدوا الأعناق إلىٰ غيرنا، فإن ما تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا»، وكان عاملًا بكتاب الله، قائمًا بحدوده، وبذلك استقام له الملك، وعظم أمره.

ومن هؤلاء العظماء: علي بن محمد بن إدريس، أخذت له البيعة بعد وفاة أبيه، وكان يوم بويع في سن العاشرة من العمر، فظهر ذكاؤه ونبله، وسار بسيرة أبيه وجده في العدل، وإقامة الحق، وقمع الأعداء، وضبط البلاد والثغور، ويقول المؤرخون: كانت أيامه خير أيام.

ومن هؤلاء العظماء: علي بن يوسف بن تاشفين، بويع وعمره ثلاث وعشرون سنة، وكان حليمًا عادلًا وقورًا، آخذًا بالحزم، فضبط الثغور، وملك من البلاد ما لم يملكه أبوه من قبله.

ومن عظماء شباب الملوك بالأندلس: عبد الرحمن الناصر، تولىٰ الملك غير متجاوز الثانية والعشرين من عمره، درس عبد الرحمن القرآن والسنّة، وأجاد النحو والتاريخ، وبرع في فنون الحرب والفروسية، وزهت في عصره العلوم والزراعة والصناعة، وساد الأمن في البلاد، وكان للعلماء في عصره الحرية المطلقة، يواجهونه بالأمر بالمعروف، ويتلقىٰ منهم ذلك بصدر رحب. ومواقف منذر بن سعيد في نصحه له معروفة في التاريخ، وهو الذي خطب علىٰ المنبر في بعض المجالس الحافلة منكرًا عليه الإسراف في تشييد المباني وزخرفتها، وهو الذي خاطبه في أحد المجالس بقوله:

يا باني الزهراء مستغرقًا ... أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحسنها رونقًا ... لو لم تكن زهرتها تذبل

وكان القضاء في عهده علىٰ استقلال لا يخشون معه لومة لائم، وكان القاضي ابن بشير يحكم عليه لخصمه، ويتوعده بالاستقالة إذا لم يمتثل ما حكم به عليه.

ومن هؤلاء العظماء: أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج أحد ملوك غرناطة، تولىٰ الملك وهو في السادسة من العمر، وكان الغالب علىٰ أيامه الهدنة والصلاح والخير، وكان وزيره الأديب الكبير أبو الحسن بن الجياب، ثم توزر له لسان الدين بن الخطيب.

ومن هؤلاء العظماء: ابنه محمد بن يوسف بن إسماعيل، بويع له بعد وفاة أبيه يوسف وعمره تسع سنين، وكان وزيره لسان الدين بن الخطيب بعد أن توزر لأبيه من قبله، ووصفه ابن الخطيب فقال: متحلٍّ بوقار وسكينة، وسافر عن وسامة يكتنفها جلباب حياء وحشمة، كثير الأناة، ظاهر الشفقة، عطوف، مخفوض الجناح، مائل إلىٰ الخير بفضل السجية، فأنست العامة بقربه، وسكنت الخاصة إلىٰ طيب نفسه، وحمد الناس فضل عفافه، وكلفه بما يعنيه من أمره، وكان مع هذه المزايا مثلًا في الفروسية، قال بعض مادحيه:

إن ألـمَّتْ هيعةٌ طار إليها غير وانِ
يصدع الليل بقلبٍ ليس بالقلب الجبان

وأختم حديثي هذا بحديث ملوك تقلدوا في أوائل شبابهم ولايات كانوا فيها مظهر اليقظة والحزم، وتولوا الملك بعده، فساروا فيه سيرة عبقري زادته التجارب خبرة بطرق السياسة الرشيدة.

ومن هؤلاء الملوك: هشام بن عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس؛ فقد كان والده عبد الرحمن يوليه في صباه الأعمال، ويرشحه لولاية الملك، ولما توفي عبد الرحمن، تولىٰ هشام الخلافة وعمره ثلاثون سنة، وكان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

ويدخل في نظم هؤلاء الملوك: عبد الرحمن بن الحكم الأموي، وكان أبوه الحكم يوليه قيادة الجيوش العظيمة في الأندلس وهو ابن خمس عشرة سنة، فيهزم الأعداء، ويعود ظافرًا.

وأذكر من هذا القبيل: تميم بن المعزّ بن باديس، فوض إليه والده المعزّ ولاية «المهدية» وهو في سن الثالثة والعشرين، وتولىٰ الملك بعده وهو في سن الثانية والثلاثين، وكان حسن السيرة، محمود الآثار، معظمًا لأرباب الفضائل، وقصدته الشعراء من الآفاق، وكان هو نفسه معدودًا من طبقات الأدباء. ومن شعره:

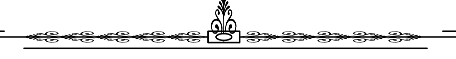
فإما الملك في شرف وعزٍّ ... عليّ التاج في أعلىٰ السرير
وأما الموت بين ظبا العوالي ... فلست بخالد أبد الدهور

والغرض من حديثنا عن أولئك الشباب الذين تولوا أمورًا جليلة القدر، عظيمة الشأن، فقاموا بأعبائها خير قيام: أن نستنهض همم أبنائنا للأخذ بأسباب قوة الفكر، وسعة الدراية لأول عهد التمييز، ولمواصلة السير في سبيل السيادة بجد وحزم؛ لكي نراهم وهم في ريعان الشباب قد بلغوا بجودة النظر، واستقامة السيرة أن كانوا موضع آمال الأمة، يعملون لسلامتها، والاحتفاظ بعزتها.

وواجب علىٰ ولي أمر الناشئ أن يشعره بأن بلوغ الفتىٰ المنزلة المحمودة في السيادة وهو في مقتبل العمر، ليس بالأمر المتعذر أو المتعسر، وليس من شك في أن هذا الشعور يريه السيادة قريبة التناول، فيشمر عن ساعد الجد، وسرعان ما يبلغ ذروتها، ومن أدرك السيادة في عنفوان شبابه، فإن مات، مات سيدًا، وإن عاش إلىٰ زمن الكهولة أو الشيخوخة، كانت سيادته أطول عمادًا، وأرفع ذكرًا، وأطيب ثمرًا[1].

---

(١) مقتبس من مقال للشيخ محمد الخضر من مجموع آثاره (٢/١٤٨-١٥٨).





[الباب الثامن:

الناس على دين ملوكهم وكما تكونوا يولى عليكم]

قال الله جلا جلاله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥].

قال ابن عباس ومجاهد: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] «السلاطين الظلمة، ومن تحت أرجلكم العبيد السوء»[(١)].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

قال الرازي: «الآية تدل علىٰ أنَّ الرعيةَ متىٰ كانوا ظالمين فالله تعالىٰ يسلط عليهم ظالمًا مثلهم، فإنْ أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم.

والآية تدلُ علىٰ أنَّه لا بدَّ في الخلقِ من أمير وحاكم؛ لأنَّه تعالىٰ إذا كان لا يخلي أهل الظلم من أمير ظالم، [فإنَّه] لا يخلي أهل الصلاح من أمير يحملهم علىٰ زيادة الصلاح كان أولىٰ».

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «لا يصلح للناس إلا أمير عادل أو جائر»، فأنكروا قوله أو جائر! فقال: «نعم! يؤمن السبيل، ويمكِّن من إقامة الصلوات، وحج البيت»[(٢)].

---

(١) تفسير البغوي (١/ ٢٦٧).

(٢) تفسيره (١٣/ ١٥٠).

وقال الحسين المروزي: أخبرنا الهيثم بن جميل قال: حدثنا عبد الغفور، عن همام، عن كعب قال: إنا نجد أن الله تعالىٰ يقول: «أنا الله لا إله إلا أنا، خالق الخلق، أنا الملك العظيم، ديان الدين، ورب الملوك، قلوبهم بيدي، فلا تشاغلوا بذكرهم عن ذكري ودعائي والتوبة إلي، حتىٰ أعطفهم عليكم بالرحمة، فأجعلهم رحمة وإلا جعلتهم نقمة»، ثمَّ قال: ارجعوا رحمكم الله تعالىٰ، وموتوا من قريب[١].

وعن كعب الأحبار قال: «الرعية تصلح بصلاح الوالي، وتفسد بفساده»[٢].

وعن القاسم بن مخيمرة، قال: «إنَّما زمانكم سلطانُكُم، فإذا صَلَح سلطانكم صلح زمانكم، وإذا فسد سلطانكم فسد زمانُكُم»[٣].

وقال سفيان ابن عيينة: «ما شيءٌ أضرَّ عليكم من ملوك السُّوء، وعلمٌ لا يعمل به»[٤].

وقال الفضيل بن عياض: «لو أنَّ لي دعوة مستجابةً ما صيَّرتهُا إلا في الإمام قيل له: وكيف ذلك يا أبا علي؟ قال: متىٰ ما صيرتها في نفسي لم تجزني، ومتىٰ صيرتها في الإمام، فصلاح الإمام صلاح العباد والبلاد»[٥].

وقال الطرطوشي: «وكان العلماء يقولون: إنْ استقامت لكم أمور السلطان فأكثر واحمد الله تعالىٰ واشكره، وإن جاءكم منه ما تكرهون

---

(١) زوائد الزهد لابن المبارك (١٠٥٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٩-٢٠) من طريق المروزي به.
(٢) حلية الأولياء (٥/ ٣٦٧).
(٣) السنن الكبرىٰ للبيهقي (١٦٦٥٢).
(٤) حلية الأولياء (٧/ ٢٨٧).
(٥) المصدر السابق (٨/ ٩١).

وجهوه إلىٰ ما تستوجبونه منه بذنوبكم وتستحقونه بآثامكم، فأقيموا عذر السلطان بانتشار الأمور عليه، وكثرة ما يكابده من ضبط جوانب المملكة واستئلاف الأعداء ورضاء الأولياء، وقلة النَّاصح وكثرة المدلس والفاضح»[1].

وقال ابن القيم: «وتأمل حكمته تعالىٰ في أنْ جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم، بل كأنَّ أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم؛ فإنْ استقاموا استقامت ملوكهم، وعدلوا عدلوا عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها، منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممَّن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملاتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه وضربوا عليهم المكوس والوظائف، وكل ما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة؛ فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم، وليس في الحكمة الإلهية أن يولىٰ علىٰ الأشرار الفجَّار إلا منْ يكون من جنسهم»[2].

وروىٰ أصحاب التواريخ في كتبهم أنَّ الناس كانوا إذا أصبحوا في أيام الحجاج يتسألون من قتل البارحة؟ ومن صلب؟ ومن جلد؟ ومن قطع؟ وفي أمثال ذلك.

قيل: كان **الوليد بن عبد الملك** شديد التكلّف بالعمارات والأبنية، واتّخاذ المصانع والضّياع، وكان النَّاسُ يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضا عن الأبنية والعمارات.

---

(١) سراج الملوك (ص٤٨).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٧٢١-٧٢٢).

وكان أخوه **سليمان** يحبّ الطّعام، فكان النَّاسُ في خلافته إذا التقوا، سأل بعضهم بعضًا عن الطّعام.

وكان **عمر بن عبد العزيز** صاحب عبادة وتلاوة، فكان النَّاسُ إذا تلاقوا في أيّامه سأل بعضهم بعضًا ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ وكم تقوم من الشّهر؟ وهذا من خواصّ الملك[١].

ولأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي العباسي (ت٢٨٤هـ) رسالة بعنوان (مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر). وفيها يقول: فأمَّا الخلفاء وملوك الإسلام، فإنَّ المسلمين في كل عصر تبع للخليفة، يسلكون سبيله، ويذهبون مذهبه، ويعملون علىٰ قدر ما يرون منه، ولا يخرجون عن أخلاقه وأفعاله وأقواله.

فكان **أبو بكر** رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ أزهد النَّاس، وأشدهم تواضعًا وتقلُّلًا في لباسه، وكان يلبس -وهو الخليفة- الشملة والعباءة. وقدمت عليه أشراف العرب وملوك اليمن وعليهم التيجان وبرود الوَشْي والحبر[٢]، فلمَّا رأىٰ القوم تواضعه ولباسه نزعوا ما كان عليهم، وذهبوا مذهبه، واقتفوا أثره.

وكان **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه مع تواضعه وخشونة ملبسه ومطعمه شديدًا في ذات الله، فكان عماله وسائر من يحضره أو يغيب عنه يتشبهون به، ولا يفارق أحد مذهبه.

وكان **عثمان بن عفان** رضي الله عنه في السماحة، والجودِ، وصلة الأرحام،

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (ص١٢٧)، و«حسن السلوك» (ص٦٨).

(٢) (برود الوشي) الثياب المنقوشة. و(الحِبرَة) ثوب من قطن أو كتان مخطط يُصنع في اليمن.

ورفع القرابة، واتخاذ المال، علىٰ ما كان عليه، فامتثل الناس فعله، فبنىٰ عثمان داره بالمدينة، وأنفق عليها مالًا جليلًا، وشيَّدها بالحجارة، وجعل علىٰ أبوابه مصاريع الساجِ، واتخذ أموالًا بالمدينة وعيونًا وإبلًا[١].

وفي أيام عثمان رضي الله عنه اتخذ أصحاب رسول الله ﷺ الأموال، وبنوا الدور، فبنىٰ الزبير بن العوام رضي الله عنه داره المشهورة بالبصرة،، وفيها الأسواق والتجارات، وبنىٰ الزبير أيضًا دارًا بالكوفة، ودارًا بمصر، ودارًا بالإسكندرية . . .

وكان **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه مشغلًا أيامه كلها بالحرب، إلا أنَّه لم يلبس ثوبًا جديدًا، ولم يتخذ ضيعة، ولم يعقد عل مال إلا ما كان بينبع.

وحفظ الناس عنه الخطب؛ فإنَّه خطب بأربعمائة خطبة حُفظت عنه، وهي تدور بين الناس، ويستعملونها في خطبهم وكلامهم.

وكان **يزيد بن معاوية** صاحب طَرْد، وجوارح، وكلاب، ولهو، ومنادمة علىٰ الشراب. فغلب ذلك علىٰ أصحابه، وفي عصره ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الأشراف الشراب.

ثمَّ كان **عبد الملك بن مروان**. فكان صارمًا، حازمًا، بخيلًا يحب الشعر والفخر، والتقريظ والمدح، وكان في عصره فحول الشعراء: (جرير، والفرزدق، والأخطل)، وغيرهم. وكثر الشعر في أيام عبد الملك، وامتدحت الشعراء الأمراء والأشراف وطلبت الثواب.

---

(١) في «الطبقات» لابن سعد (٣/ ٤٤) عن عبيد الله ابن دارة قال: «كان عثمان رجلًا تاجرًا في الجاهلية والإسلام، وكان يدفع ماله قراضًا».

وعن العلاء عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه: «أنَّ عثمان دفع إليه مالًا مضاربة علىٰ النصف».

ثمَّ كان **هشام بن عبد الملك** فطنًا، غليظًا، بخيلًا، يجمع الأموال، ويعمر الأرض، ويستجيد كل شيء يعمل له من الكسوة والفراش، ويعاقب علىٰ التقصير فيه بأغلظ عقوبة، وفي أيامه عُمل الخز والرقم[١].

وكان النَّاسُ جميعًا في أيام هشام علىٰ مثل مذهبه، في منع ما بأيديهم، وقلة الإفضال، وانقطاع الرِفد، حتىٰ إنَّه يقال: «لم يُرىٰ زمانٌ أصعب علىٰ النَّاس من زمانه».

وكان **الوليد بن يزيد بن عبد الملك** صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء، وهو أول من حمل المغنين من البلدان إليه، وجالس المهلين وأظهر الشراب والملاهي والعزف.

وكان في أيامه: ابن سريج المغني، ومعبد، والغريض، وابن عائشة، وابن محرز، وطويس، ودحمان، وغلبت شهوة الغناء علىٰ الأشراف، واتخذ الناس العيدان. وكان متهتكًا، ماجنًا، خليعًا.

وكان **مروان بن محمد بن مروان بن الحكم**، فكان في أيامه كلها في لهو ولعب، إلا أنَّه أول خليفة أظهر العصبية، وأوقعها من المنابر؛ وكان كاتبها عبد الحميد بن يحيىٰ بن سعد صاحب الرسائل، وكان في أول أمره معلمًا، وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب، فاستعمل النَّاس ذلك بعده.

أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، فإنها كانت تريد أن تتقدم الرشيد في كل شيء من جد وهزل، فأمَّا الجد فالآثار الجميلة التي ليس في الإسلام مثلها: فإنَّها حفرت عين المشاش، وساقتها اثني عشر ميلًا إلىٰ مكة، وأنفقت عليها ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، ثمَّ اتخذت المصانع، والسقايات، والمتوضآت حول المسجد الحرام، وبنت دور السبيل،

(١) **(الرقم)**: ضرب مخطط من النسيج.

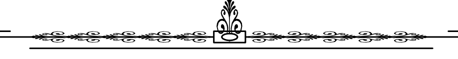
ومصانع بمنىٰ وعرفات، وسقايات، وحفرت آبارًا في من علىٰ طريق مكة، ووقفت علىٰ ذلك ضياعًا غلتها ثلاثون ألف دينار في السنة، وبنت في الثغور دور السبيل، وعملت البيمارستانات، وحبست ضياعًا علىٰ الثغور، وعلىٰ الفقراء والمساكين، غلتها مائة ألف دينار.

وأمَّا ما يتلين به الملوك وينعمون به، فهي أول من عمل في الإسلام الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجواهر، واتخذت رفيع الوشي، حتىٰ بلغ ثوب وشي عمل لها خمسين ألف دينار، وأول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري: يركبون الدواب ويختلفون برسائلها وكتبها. وأول من عمل القباب بالفضة والابنوس والصندل، ورايتها وكلاليبها من الذهب والفضة، ملبسة الوشي والسمور والديباج والخز والـمُلْحَم[1] والدَّبيقي، وأول من اتخذ القمص اللؤلؤ مفصلة بالجوهر وشمع العنبر، وتشَّبه الناس بأم جعفر في جميع أفعالها[2].



(١) (**المُلْحَم**): نوع من أنواع الثياب. (الدبيقي): نسبة إلىٰ دبيق قرية بمصر.

(٢) الاختيارات من مجلة معهد المخطوطات (ص١٥٠-١٧٠).




[الباب التاسع:
العلماء زينة الدولة ومصدر القوة]

إنَّ المتأمل لسيرة الصحابة، وتاريخ الممالك والدول، يجد أن قوة الدولة وعزتها، وجمالها وحسنها، يكمن في عون الحكام لأهل العلم والمزية من أهل الإسلام.

فإنَّ العلماء بنشرهم العلم يقل الجهل، وإذا قلَّ الجهل قلّ الاختلاف والنزاع، وتخلِص -بإذن الله- من الشر والافتراق، وكان الدين في عزة، والدولة في قوة، والسلطان في أمن وأمان، والرعية في خير وإحسان، فالدولة التي تقوم علىٰ العلم هي الأقرب للقوة، والأكثر عمرًا وفتوة، فسلطان العلم له قبول عند العامة كسلطان القوة، وقوام هذا الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر.

ومتىٰ ما ظهر الجهل؛ بدر التنازع، وحدث الافتراق، وشقت العصا، وظهرت المعصية وأهلها، فلا أمن ولا أمان.

وقد كان الإمام محمد الواسع، يمثل جيشًا بقوته وثباته، ورباطه في سبيل الله، كما قال الأصمعي: لما صاف قتيبة بن مسلم للترك، وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع؟

فقيل: هو ذاك في الميمنة، جامح علىٰ قوسه، يبصبص بأصبعه نحو السماء.

قال: «تلك الأصبع أحب إلي من مائة ألف سيف شهير، وشاب طرير»[(١)].

ودولةُ السِّيفِ لا تَقْوىٰ دعَامَتُها ما لم تَكُنْ حالفَتْها دَولَةُ الكُتُبِ

وعن رجاء بن أبي سلمة، عن رجاء ابن حيوة: أتانا نعي ابن عمر ونحن في مجلس ابن محيريز فقال ابن محيريز: «والله إن كنت لأعد بقاء ابن عمر أمانًا لأهل الأرض».

فقال رجاء بن حيوة بعد نعت ابن محيريز: «وأنا والله لقد كنت أعد بقاء ابن محيريز أمانا لأهل الأرض»[(٢)].

وعن أبي مسلم الخولاني، أنَّه كان إذا دخل الروم لا يزال في المقدمة، حتىٰ يؤذن للناس، فإذا أذن لهم كان في الساقة، وكانت الولاة يتيمنون به، فيؤمرونه علىٰ المقدمات[(٣)].

وقال معاوية ﷺ: «إنما المصيبة كل المصيبة بموت أبي مسلم الخولاني، وكريب بن سيف الانصاري»[(٤)].

ولما قدم العبَّاس بن الوليد واليًا علىٰ حمص، فحضر يوم الجمعة (الصلاة)، وخالد بن معدان في (الصنف)، فلمَّا رآه إذا علىٰ العباس بن الوليد ثوب من حرير، فقام إليه خالد، وشقَّ الصُّفوف حتىٰ أتاه، فقال يا ابن أخي! إنَّ رسول الله ﷺ نهىٰ عن لبس هذا، فقال: يا عمّ! هلّا قلت أخف من هذا؟ قال: وعمَّك ما قلتُ؟ والله لا سكنتُ بلدًا أنت فيه، فخرج منها، وسكن الطرَّسُوس، فكتب العبَّاس إل أبيه يخبره بذلك،

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ١١٩-١٢١)، و«تاريخ الإسلام» (٣/ ٥٢٦).
(٢) المعرفة والتاريخ للفسوي (٢/ ٣٦٦)، و«حلية الأولياء» (٥/ ١٤٢)، و«طبقات علماء الحديث» (٢/ ١٣٧).
(٣) تاريخ الإسلام (٢/ ٧٤٥).
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٤).

فكتب الوليد إليه: يا بُنيَّ! ألحقه بعطائه أين ما كان، **فإنَّا لا نأمن أن يدعوا علينا بدعوةٍ فنهلك**[١].

وأخذ هارون الرشيد زنديقًا فأمر بضرب عنقه، فقال له الزنديق: لم تضرب عنقي يا أمير المؤمنين؟ قال: أريح العباد منك. قال: فأين أنت من ألف حديث وضعتها علىٰ رسول الله ﷺ كلها ما فيها حرف نطق به رسول الله ﷺ قال: «**فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفًا حرفًا**»[٢].

وقال أمير السرايا مسلمة بن عبد الملك: «برجاء بن حيوة وبأمثاله ننصر»[٣].

وقيل: إنَّ المعتضدَ أوصىٰ وزيرَه بموسىٰ وبإسماعيل القاضي، وقال: «بهما يُدفع عن أهل الأرض»[٤].

وقال أبو عثمان الزّاهد: «إن اللَّهَ ليدفعُ البلاءَ عن أهل نَيسابور بابنِ خُزيمة»[٥].

ولما تحول المعتصم من بغداد وبنىٰ (سر من رأىٰ)، وذلك أنَّه اعتنىٰ باقتناء الترك، فبعث إلىٰ سمرقند وفرغانة والنواحي في شرائهم، وبذل فيهم الأموال، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب، فكانوا يطردون خيلهم في بغداد، ويؤذون الناس، وضاقت بهم البلد، فاجتمع إليه أهل بغداد وقالوا: إن لم تخرج عنا بجندك حاربناك، قال: وكيف تحاربونني؟

---

(١) تراجم حفاظ الحديث ونقاد الأثر (٢/ ١٩١-١٩٢).

(٢) المعرفة والتاريخ للفسوي (٢/ ٣٦٦)، و«حلية الأولياء» (٥/ ١٤٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦١).

(٤) طبقات علماء الحديث (ترجمة: موسىٰ بنُ إسحاق) (٢/ ٣٨٤).

(٥) طبقات علماء الحديث (ترجمة: أبو بكر ابن خزيمة) (٢/ ٤٤٢).

قالوا: «بسهام الأسحار»، قال: «لا طاقة لي بذلك»؛ فكان ذلك سبب بنائه: (سر من رأىٰ)، وتحول إليها[١].

وقال أحمد بن عبد الرحمن بحشل: طلب عبَّاد بن محمد الأمير عمي ليوليه القضاء، فتغيب عمي، فهدم عباد بعض دارنا، فقال الصباحي لعباد: متىٰ طمع هذا الكذا وكذا أن يلي القضاء؟!

فبلغ ذلك عمي، فدعا عليه بالعمىٰ.

قال: «فعمي الصباحي بعد جمعة!!»[٢].

ولما قال أبو الفتح لنظام الملك -وكان نظام الملك ينفق علىٰ العلماء والعباد-: بلغني أنَّك تخرج من بيوت الأموال كل سنة ستمائة ألف دينار إلىٰ مالا ينفعنا ولا يغنىٰ عنَّا شيئًا، فبكىٰ نظام الملك، وقال: يا بني أنا شيخ أعجمي، ولو نودي عليَّ فيمن يزيد لم أحفظ خمسة دنانير، وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين دينارًا، وأنت مشتغل بلذاتك ومنهمك في شهواتك، وأكثر ما يصعد إلىٰ الله تعالىٰ معاصيك دون طاعتك، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيوف طولها، ذراع وقوس لا ينتهي مدىٰ مرماها ثلاثمائة ذراع، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي والمزامر والطنبور، وإني أقمت لك جيشًا يسمىٰ جيش الليل؛ فإذا جنَّ الليلُ قامت جيوش الليل علىٰ أقدامهم صفوفًا بين يدي ربهم، فأرسلوا دموعهم، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم، ومدوا إلىٰ الله العظيم أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون، وبدعائهم تبيتون، وببركاتهم تمطرون

---

(١) تاريخ دمشق (٧/ ١٢٧)، وانظر: «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٠١)، و«طبقات علماء الحديث» (١/ ٤٠٠)، و«تاريخ الخلفاء» (ص٢٩٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (ترجمة: عبد الله بن وهب) (٩/ ٢٢٧).

وترزقون، وتخرق سهامهم إلىٰ السماء السابعة بالدعاء والتضرع؛ فبكىٰ أبو الفتح بكاء شديدًا، ثمَّ قال: «شاباش يا أبت شاباش -أي يا أبت- أكثر لي من هذا الجيش»[(١)].

ولما **رأىٰ أصحاب نور الدين** كثرة خرجه قال له بعض صحابة السوء: إنَّ لك في بلادك إدرارات وصلات ووقوفًا كثيرة علىٰ الفقهاء، والفقراء، والقراء، والصوفية وغيرهم، فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح فغضب من ذلك وقال: «والله إنني لا أرجو النصر إلا بدعاء أولئك، فإنَّما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم علىٰ فراشي بسهام لا تخطئ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم!»[(٢)].

وقيل: إنَّ برهان الدين البلخي أنكر علىٰ الملك نور الدين في استعانته في الحروب بأموال المكوس، وقال: «كيف تنصرون وفي عساكركم الخمور والطبول والزمور؟!»[(٣)].

ويقال: إنَّ سبب وضعه المكوس عن النَّاس أنَّ الواعظ أبا عثمان المنتخب بن أبي محمد الواسطي -وكان من الصالحين الكبار- أنشد نور الدين:

مَثِّلْ وُقُوفَكَ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ ... يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُورُ
إِنْ قِيلَ نُورُ الدِّينِ رُحْتَ مُسَلِّمًا ... فَاحْذَرْ بِأَنْ تَبْقَىٰ وَمَا لَكَ نُورُ
أَنْهَيْتَ عَنْ شُرْبِ الْخُمُورِ وَأَنْتَ مِنْ ... كَأْسِ الْمَظَالِمِ طَافِحٌ مَخْمُورُ

---

(١) انظر: بدائع السلك (١/ ٤١٣).
(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن أبي جرادة (٢/ ٤٩١)، وانظر: «وفيات الأعيان» (٥/ ١٨٨).
(٣) زبدة الحلب (٢/ ٤٧٦).

عَطَّلْتَ كَاسَاتِ الْمُدَامِ تَعَفُّفًا ... وَعَلَيْكَ كَاسَاتُ الْحَرَامِ تَدُورُ
مَاذَا تَقُولُ إِذَا نُقِلْتَ إِلَىٰ الْبِلَىٰ ... فَرْدًا وَجَاءَكَ مُنْكَرٌ وَنَكِيرُ
وَتَعَلَّقَتْ فِيكَ الْخُصُومُ وَأَنْتَ فِي ... يَوْمِ الْحِسَابِ مُسَحَّبٌ مَجْرُورُ
وَتَفَرَّقَتْ عَنْكَ الْجُنُودُ وَأَنْتَ فِي ... ضِيقِ اللُّحُودِ مُوَسَّدٌ مَقْبُورُ
وَوَدِدْتَ أَنَّكَ مَا وَلِيتَ وِلَايَةً ... يَوْمًا وَلَا قَالَ الْأَنَامُ أَمِيرُ
وَبَقِيتَ بَعْدَ الْعِزِّ رَهْنَ حُفَيْرَةٍ ... فِي عَالَمِ الْمَوْتَىٰ وَأَنْتَ حَقِيرُ
وَحُشِرْتَ عُرْيَانًا حَزِينًا بَاكِيًا ... قَلِقًا وَمَا لَكَ فِي الْأَنَامِ مُجِيرُ
أَرَضِيتَ أَنْ تَحْيَا وَقَلْبُكَ دَارِسٌ ... عَافِي الْخَرَابِ وَجِسْمُكَ الْمَعْمُورُ
أَرَضِيتَ أَنْ يَحْظَىٰ سِوَاكَ بِقُرْبِهِ ... أَبَدًا وَأَنْتَ مُبَعَّدٌ مَهْجُورُ
مَهِّدْ لِنَفْسِكَ حُجَّةً تَنْجُو بِهَا ... يَوْمَ الْمَعَادِ لَعَلَّكَ الْمَعْذُورُ

فلما سمعها الملك نور الدين بكىٰ، وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر بلاده. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يقول في سجوده: «اللهم ارحمِ العشَّار المكَّاس»[١].

وقيل: التمس الفقيه الكبير الخبوشاني أبو البركات محمد بن موفق بن سعيد من السلطان (ت٥٨٧هـ) إسقاط ضرائب لا يمكن إسقاطها، وساء خلقه، فقال: قم لا نصرك الله! ووكزه بعصاه، فوقعت قلنسوته، فوجم لذلك، ثمَّ حضر وقعة، فكسر، فظن أنه بدعائه، فجاء وقبل يديه، وسأله العفو[٢].

وفي الفتن التي تعصف بالدولة، وتواجه أهل السلطة، تجد من خير النَّاس كبتًا لها، وردًا علىٰ دعاتها، هم العلماء كما روىٰ الخطيب في «تاريخ بغداد»، قال شيخ من أهل العلم لأبي العباس بن سريج: أبشر أيها

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٤٨٨-٤٨٩).

(٢) السير (٢١/ ٢٠٦).

القاضي، فإنَّ الله بعث عمر بن عبد العزيز علىٰ رأس المائة، فأظهر كل سنة، وأمات كل بدعة.

ومنَّ الله علىٰ رأس المائتين بالشافعي حتىٰ أظهر السنَّة وأخفىٰ البدعة.

ومنَّ الله علينا علىٰ رأس الثلاث مائة بك حتىٰ قويت كل سنة وضعفت كل بدعة، وقد قيل في ذلك:

اثْنَانِ قَدْ ذَهَبَا فَبُورِكَ فِيْهِمَا ... عُمَرُ الخَلِيْفَةُ ثُمَّ حلفُ السُّؤْدُدِ

الشَّافِعِيّ الأَلْمَعِيُّ مُحَمَّدٌ ... إِرْثُ النُّبُوَّةِ وَابْنُ عَمِّ مُحَمَّدِ

أَبْشِرْ أَبَا العَبَّاسِ إِنَّكَ ثَالِثٌ ... مِنْ بَعْدِهِمْ سُقْيًا لتُرْبَةِ أَحْمَدِ[١]

وقال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة؛ لكي لا تبطل حجج الله وبيناته، أولئك هم الأقلون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا، بهم يحفظ الله حججه حتىٰ يؤدوها إلىٰ نظرائهم، ويزرعونها في قلوب أشباههم»[٢].

وقال سلمة بن سعيد: «كان يقال: العلماء سرج الأزمنة، فكلُّ عالم مصباح زمانه فيه يستضيء أهل عصره».

قال: «وكان يقال: العلماء تنسخ مكايد الشيطان»[٣].

وقال الإمام أحمد: «لولا العلم كان النَّاسُ كالبهائم»[٤].

وقيل: «العالم كالعين العذبة نفعها دائم».

---

(١) تاريخ بغداد (٥/ ٤٧١) رقم (٢٣١٣)، والأبيات المذكورة من «السير» (١٤/ ٢٠٣).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٣٣١).

(٣) الإبانة الكبرىٰ لابن بطة العكبري (١/ ٢٠٣).

(٤) إعلام الموقعين (٣/ ٥٧٠)، قلت: وينسب هذا للحسن البصري من قوله: «لولا العلماءُ لصارَ النَّاسُ مثل البهائمِ» كما في «مختصر منهاج القاصدين» (ص١٥).

وقيل: «العالم كالسراج من مر به اقتبس»[١].

إنْ افتخرَ الأبطالُ يومًا بسيفهِم ... وعدّوه ممَّا يكسِبُ المجدَ والكرمْ
كفىٰ قلم الكُتّابِ عزًّا ورِفعةً ... مدَى الدّهرِ أنَّ اللهَ أقسمَ بالقلمْ[٢]

وقال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ قومًا تركوا العلم ومجالسة العلماء، واتخذوا محاريب فصلوا فيها حتىٰ يبس جلد أحدهم علىٰ عظمه، ثمَّ خالفوا السنة فهلكوا، والله ما عمل عامل بغير علم إلا ما يفسد أكثر مما يصلح»[٣].

وقال محمد بن عيسىٰ الدامغاني: سمعت ابن عيينة يقول: «تدرون ما مثل العلم؟ مثل العلم: مثل دار الكفر ودار الإسلام، فإن ترك أهل الإسلام الجهاد جاء أهل الكفر فاخذوا الإسلام، وإن ترك الناس العلم صار الناس جهالًا»[٤].

وقال ابن القاسم سمعت مالكًا يقول: «إنَّ أقوامًا ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم فخرجوا علىٰ أمة محمد بأسيافهم، ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك»[٥].

---

(١) ينظر: المجموع شرح المهذب للنووي (١/ ٢٠)، و«نشر طيّ التعريف في فضل حملة العلم الشريف والرد علىٰ ماقتهم السخيف» (ص٣٨).

(٢) صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشاء (١/ ٧٥) قال بعض الملوك: «أمر الدين والدنيا تحت شيئين: قلم وسيف، والسيف تحت القلم» كما في «جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب» (ص٢١٤) ط: ابن حزم.

(٣) الترغيب والترهيب لقِوام السنة (٢١٥١).

(٤) تهذيب الكمال (١١/ ١٩٣).

(٥) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٣٤)، و«منهاج السنة» (٤/ ٥٢٩)، وذكره ابن عبد في جامع بيان العلم (٩٠٥)، عن الحسن قال: «العامل علىٰ غير علم كالسالك علىٰ غير طريق، والعامل علىٰ غير علم ما يفسد أكثر ممَّا يصلح، فاطلبوا العلم طلبًا لا تضروا =

وكتب أسد بن موسىٰ[١] إلىٰ أسد بن الفرات[٢]: «اعلم يا أخي أن ما حملني علىٰ الكتب إليك ما أنكر أهل بلادك من صالح ما أعطاك الله من إنصافك الناس، وحسن حالك مما أظهرت من السنة، وعيبك لأهل البدع، وكثرة ذكرك لهم، وطعنك عليهم، فقمعهم الله بك، وشد بك ظهر أهل السنة، وقواك عليهم بإظهار عيبهم، والطعن عليهم، وأذلهم الله بذلك، وصاروا ببدعتهم مستترين. فأبشر أي أخي بثواب الله، واعتد به من أفضل حسناتك من الصلاة والصيام والحج والجهاد. وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب الله، وإحياء سنة رسوله ﷺ؟! وقد قال رسول الله ﷺ: «**من أحيا شيئًا من سنتي كنت أنا وهو في الجنة كهاتين**» وضم بين إصبعيه، وقال: «**أيما داع دعا إلىٰ هدىٰ فاتبع عليه كان له مثل أجر من تبعه إلىٰ يوم القيامة**» فمن يدرك -يا أخي- هذا بشيء من عمله؟!

وذكر أيضًا: «إنَّ عند كل بدعة كيد بها الإسلام وليا لله يذب عنها، وينطق بعلامتها».

فاغتنم يا أخي هذا الفضل وكنْ من أهله، فإنَّ النبي ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلىٰ اليمن فأوصاه، وقال: «**لأنْ يهدي الله بك رجلًا خير لك من كذا وكذا**». وأعظم القول فيه، فاغتنم ذلك، وادع إلىٰ السنَّة حتىٰ

= بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا تضروا بالعلم، فإنَّ قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم حتىٰ خرجوا بأسيافهم علىٰ أمة محمد ﷺ ولو طلبوا العلم لم يدلهم علىٰ ما فعلوا».

(١) المعروف بأسد السنة، روىٰ عن ابن أبي ذئب والليث بن سعد وشعبة، وكانت ولادته سنة (١٣٢هـ)، سنة زوال دولة آبائه بني أمية، وقد طلب العلم، ولقي الكبار، ورحل وجمع وصنف، وله كتاب (الزهد) وغيره، وكان حريصًا علىٰ السنة، شديدًا علىٰ أهل البدع، عاش ثمانين سنة ثم توفي سنة (٢١٢هـ).

(٢) أبو عبد الله الحراني ثمَّ المغربي، ولد بحران سنة (١٤٤هـ) وكان أبوه الفرات بن سنان من أعيان الجند. روىٰ عن مالك الموطأ.

يكون لك في ذلك ألفة وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حدث، فيكونون أئمة بعدك، فيكون لك ثواب ذلك إلىٰ يوم القيامة كما جاء الأثر فاعمل علىٰ بصيرة، ونية وحسبة، فيرد الله بك المبتدع والمفتون الزائغ الحائر، فتكون خلفا من نبيك ﷺ، فأحي كتاب الله وسنة نبيه، فإنك لن تلقىٰ الله بعمل يشبهه[1].

وهكذا يُعلم أنَّ الجهل من أهم أسباب الفتن وظهور البدع، ولا يكون الجهل فاشيًا إلا بغياب العلماء الربانيين، فكان لزامًا علىٰ الأمة أن تنهل من العلم، وعلىٰ ولاة الأمر أن يعتنوا بالعلماء وأن يعطوهم مكانتهم التي أعطاهم الله إيَّاها حتىٰ ينشر الخير، ويعم الأمن بإذن الله.

والمتأمل في تاريخ بزوغ البدع، وظهور عوامل الافتراق عن جماعة المسلمين، أنَّ من صدها هم علماء الصحابة؛ فقد كان علي رضي الله عنه وهو عالم من علماء الصحابة ومن أوائل من ناظر الخوارج حين خرجوا علىٰ عثمان رضي الله عنه، وفعل ذلك عبد الله ابن عباس رضي الله عنه وعن أبيه عندما خرج الخوارج علىٰ علي رضي الله عنه؛ وقد كان فعل لسان ابن عباس وتأثيره في الإقناع والمحاججة ورجوع عدد كبير من الخوارج عظيمًا وكبيرًا، وقد فعل ما لا يفعله جيش بقوته.

ولما فتح الشام أرسله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومعاذًا، وأبا الدرداء ليعلموا الناس القرآن بالشام ويفهموهم، فأقام عبادة بحمص، ومعاذ بفلسطين، وأبو الدرداء بدمشق، ثمَّ صار عبادة إلىٰ فلسطين[2].

وكان أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه قد سمح لكثير من كبار الصحابة في المسير حيث شاءوا من البلاد، وكان عمر يحجر عليهم في ذلك، حتىٰ

---

(١) الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٠-٤٢)، وانظر: «البدع والنهي عنها» لابن وضاح (ص١٢).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٥٧).

ولا في الغزو ويقول: إنِّي أخاف أن تروا الدنيا أو أن يراكم أبناؤها، فلمَّا خرجوا في زمان عثمان اجتمع عليهم الناس، وصار لكل واحد أصحاب[(١)].

ولما فتح معاوية رضي الله عنه قبرص جعل فيها الإمام مجاهد بن جبر عالمًا يعلم الناس دينهم.

وعن حارثة بن مضرب، قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إني قد بعثت إليكم عمار بن ياسر أميرا، وعبد الله بن مسعود معلمًا ووزيرًا، وهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ، من أهل بدر فاسمعوا، وقد جعلت ابن مسعود علىٰ بيت مالكم فاسمعوا فتعلموا منهما، واقتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله علىٰ نفسي»[(٢)].

وقال رضي الله عنه: «ألا إنِّي والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، فمن فعل به شيء سوىٰ ذلك فليرفعه إلي، فو الذي نفسي بيده إذا لأقصنه منه، فوثب عمرو بن العاص، فقال: يا أمير المؤمنين، أورأيت إن كان رجل من المسلمين علىٰ رعية، فأدب بعض رعيته، أئنك لمقتصه منه؟ قال: إي والذي نفس عمر بيده، إذا لأقصنه منه، أنىٰ لا أقصنه منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم»[(٣)].

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٣٩٧-٣٩٨).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٦٦٣)، وابن كثير في «مسند الفاروق» (٢/ ٦٧٨).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» برقم (٢٨٦)، وفي سنده أبو فراس وهو النهدي لم يرو عنه =

وقال عبيد الله بن عمر: «بعث عمر بن عبد العزيز نافعًا مولىٰ ابن عمر إلىٰ أهل مصر يعلمهم السنن»[١].

وبعث ابن أبي مالك والحارث بن محمد إلىٰ البادية أن يعلما الناس السنَّة وأجرىٰ عليهما الرزق فقبل يزيد ولم يقبل الحارث[٢].

وكان حسان بن النعمان الذي أوكل إليه الفتح ما بين سنتي (٧٣-٨٥هـ) يوزع الفقهاء علىٰ سائر أنحاء البلاد لتعليم البربر قواعد الدين، ونشر اللغة العربية لغة القرآن فأقبل البربر علىٰ الإسلام في حماس منقطع النظير[٣].

وتولىٰ موسىٰ بن نصير سنة (٨٦-٩٦هـ) فاستكمل فتح المغرب الأقصىٰ بفتح طنجة وما والاها أقام عليها طارق بن زياد، وترك معه (١٧) رجلًا من العرب الفقهاء يعلمون البربر القرآن وشرائع الدين الإسلامي، فبدأ الإسلام أهل المغرب الأقصىٰ علىٰ يد هؤلاء.

وتولىٰ إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر والي المغرب توزيع هؤلاء التابعين في أنحاء المغرب. وبفضل هؤلاء وأمثالهم دخل البربر إلىٰ الإسلام ولم يبقَ علىٰ غير الإسلام في المغرب سوىٰ جماعة من

= غير أبي نضرة المنذر بن مالك، ولم يوثقه غير ابن حبان (٥/ ٥٨٥)، وقال أبو زرعة: «لا أعرفه، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين».

وقوله: (ولا تجمروهم) قال السندي: من التجمير بالجيم والراء المهملة، وتجمير الجيش: جمعهم في الثغور، وحبسهم عن العود إلىٰ أهليهم. فتكفروهم: أي تحملوهم علىٰ الكفران وعدم الرضا بكم، أو علىٰ الكفر بالله لظنهم أنه ما شرع الإنصاف في الدين. الغياض: جمع غيضة بفتح الغين وهي الشجر الملتف، قيل: لأنهَّم إذا نزلوها تفرقوا فيها، فتمكن منهم العدو.

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٩٧).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص١٤١).

(٣) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (١/ ٣٨).

الروم وطائفة من اليهود[١].

وفي بلاد الأندلس، نجد في تاريخنا الإسلامي من الدعاة من لم يعجبه موقف الحكام الأندلسيين من سكوتهم علىٰ الخطر المنذر بالنهاية فـ «رفع صوته بالاحتساب، ومشىٰ بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك من الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون لو صادف أسماعًا واعية؛ بل نفخ في عظام ناخرة، وعطف علىٰ أطلال دائرة، بيد[٢] أنَّه كلما وفد علىٰ ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه في التأنس والتقريب، وهو في الباطن يستجهل نزعته، ويستثقل طلعته، وما كان أفطن الفقيه ﷺ بأمورهم، وأعلمه بتدبيرهم، لكنه كان يرجو حالًا تثوب -يعني ترجع- ومذنبًا يتوب»[٣].

كان هذا الفقيه هو أبا الوليد الباجي رحمه الله تعالىٰ، ولكنه كما قال المقري: «لم يفد شيئًا، فالله تعالىٰ يجازيه عن نيته»، واستمر رحمه الله تعالىٰ في دعوته تلك ثلاث عشرة سنة حتىٰ توفي بالمرية سنة (٤٧٤هـ) وكان جاء إلىٰ المرية سفيرًا بين رؤساء الأندلس يؤلفهم علىٰ نصرة الإسلام ويروم جمع كلمتهم مع جنود ملك المغرب المرابطين علىٰ ذلك فتوفىٰ قبل تمام غرضه ﵀.

ولم يكن في الساحة وحده رحمه الله تعالىٰ؛ بل كان معه نجوم هو شمسهم منهم: أبو حيان، وأبو الحزم جهور بن محمد بم جهور، وابن حزم، والإلبيري، والعسال الطليطلي، وابن عبد البر، كل هؤلاء شاركوا في جهود الإنقاذ والدعوة إلىٰ الاتحاد، والحذر من الخطر القادم،

---

(١) الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين (ص١٧-١٨) ط: الأندلس الخضراء.

(٢) بالرغم من.

(٣) التاريخ الإسلامي (٣٣٩)، نقلًا عن «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة».

شاركوا بشعرهم وكتابتهم ودروسهم[١].

ولله در أبي الحسن الماوردي إذ قال في نعته للعلماء: «وهم أنفع له -يعني للملك- في دينه ودنياه؛ لأنَّهم في الدين دعاة، وفي الدنيا هداة؛ مع ما ينشر من الفساد بإهمال العلماء، وترك مراعاتهم، وذلك أنهَّم ربما بعث بعضهم قلة المادة، وضعف الحال علىٰ مسامحة النفس، والتبذل وارتكاب الشبهة؛ فإذا وافق ذلك إعراض السلطان عنهم، فتحت آثارهم عند الْعَامَّة، وتقاصرت رتبهم عند الخاصة؛ فهجروا هجر الأعداء، وزجروا زجر السفهاء، ثمَّ سرىٰ ذلك في خواصهم ومتصونيهم، وعم في خيارهم ومتدينيهم؛ لأنَّ نقص الجنس يسري فيه، فذهبت بهجة العلم وبهاؤه، وقلَّ طلابه وعلماؤه، وصار ذريعة إلىٰ انقراضه ودراسته.

ثم لا يبعد أن يظهر أهل نحل مبتدعة، ومذاهب مخترعة؛ يزوقون كلامهم مموهًا، ويزخرفون مذهبًا مشوها؛ لأنَّ ما صح من المذاهب قد اعتقد، وما سلم منها قد استقر».

واعلم بأنَّ كثيرًا من الخارجين علىٰ الدولة، الطاعنين بها، الشاقين لصفها، دعاة الإثم والدم، وأعوان الشيطان والشر غالبًا ما يخدعون العامة بشبهةٍ يلقونها، وفتنة يزرعونها، ولا دواء للفتنة كالحكمة، ولا حصن أقوىٰ من حصن العلم، ولا قادة في رد البغي كالعلماء.

---

(١) نقلًا عن كتاب استجابات إسلامية لـ «صرخات أندلسيَّة» (ص٣٩-٤٠)، قلت أبو إسحاق، وفي «رسائل ابن حزم» (رسالة التلخيص لوجوه التخليص) (٣/ ١٧٦) وهو يتكلم عن ملوك الطوائف «والله لو علموا أنَّ في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارىٰ فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارىٰ إلىٰ بلادهم، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحسرهم معهم آمنين، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعًا فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس».

ونجد أن علماء الأمة الربانيين أصحاب البصيرة وأهل السنة والجماعة علىٰ مر التاريخ وإلىٰ زماننا هذا لهم دورًا جليلًا، وموقفًا حكيمًا نبيلًا في رد الخارجين علىٰ الدولة، الطاعنين بها.

فلما ظهر نفاة القدر، لجأ من دارت عليه الشبه إلىٰ رجل من علماء الصحابة كي يفندها فكان المجيب صاحب الأثر، الصوام القوام المجاهد العالم ابن عمر رضي الله عنه وعن أبيه. فعن عبد الله بن بريدة عن يحيىٰ بن يعمر قال: «أن أول من تكلم في القدر معبد الجهني فخرجت أنا وحميد بن عبد الرحمن نريد مكة فقلت لو لقينا أحدا من أصحاب النبي ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء القوم فلقينا عبد الله ابن عمر فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فعلمت أنه سيكل المسألة إلي فقلت يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يتقفرون هذا العلم[(١)] ويطلبونه ويزعمون ان لا قدر إنما الأمر أنف»[(٢)].

قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنِّي منهم بريء وأنَّهم مني براء، والذي نفسي بيده لو أنَّ لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه في سبيل الله ما قبل الله منه شيئا حتىٰ يؤمن بالقدر خيره وشره ثم قال: حدثنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل شديد بياض الثياب -وذكر حديث الإيمان بطوله إلىٰ قوله فما الإيمان-؟ قال: **أن تؤمن بالله وحده وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت والجنة والنار**

---

(١) (يتقفرون العِلم): يطلبونه ويتتبعونه، هذا هو المشهور، وقيل معناه: يجمعونه. انظر: «النهاية» (٤/ ٩٠)، و«لسان العرب» (١١/ ٢٥٤) (قفر).

(٢) أي: مستأنف، وأُنُف: بضم الهمزة والنون: أي: مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالىٰ، وإنما يعلمه بعد وقوعه. انظر: «النهاية» (١/ ٧٥)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١/ ١٤٥).

والقدر خيره وشره؟»[١].

ولما وقعت فتنة الخوارج أرسل علي العالم الرباني ابن عباس رضي الله عنه وعن أبيه، فرد شبه القوم بصحيح العلم، فإنَّ العلم خير سلاح لمحاربة الجهل وللقضاء علىٰ البدع والمنكرات.

ولما تأثر رجل برأي الخوارج -وهو أبو شمر ذو خولان- حول حكم دفع الزكاة التي تؤدىٰ إلىٰ الأمراء أنها لا تجزي عنه، أخذه داود بن قيس إلىٰ وهب بن منبه -رحمهما الله- ليزيل الإشكال الذي حصل، والقصة بتمامها جمعت في كتيب فلينظر فيه[٢].

وجاء رجل إلىٰ الإمام أبو محمد بن حزم رحمه الله يسأله فكان أول جوابه: ذكرت -وفقنا الله وإيَّاك لعلم يقرب منه وعمل يرضيه- أنَّك رأيت الرجل يصلي خلف الرجل الإمام أيامًا كثيرة لا يدري مذهبه، فاعلم -عافانا الله وإيَّاك- أنَّ البحث عن مثلٍ هذا أحدثه الخوارج، فهي التي كشفت النَّاس مذاهبهم، وامتحنتهم في ذلك، وسلك سبيلهم المأمون والمعتصم والواثق مع ابن أبي داؤد وبشر المريسي ومن هنالك؛ وما امتنع قط أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولا من خيار التابعين من ولاة خلف كل إمام صلىٰ بهم؛ حتىٰ خلف الحجاج وحبيش بن دلجة، ونجدة الحروري والمختار، وكل متهم بالكفر، وقيل لابن عمر في ذلك، فقال: إذا قالوا حيَّ علىٰ الصلاة أجبناهم، وإذا قالوا: حيَّ علىٰ سفك الدماء تركناهم.

---

(١) انظر: صحيح مسلم (٨)، و«الإيمان» لابن منده (١/ ١٢٤)، و«الإبانة» لابن بطة (١٤٣٦) (٣/ ٤٨٠)، وابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٥٠).

(٢) انظر: «مناصحة الإمام وهب بن منبه لرجل تأثر برأي الخوارج» ط: مكتبة قتيبة، وانظر: «سير أعلام النبلاء» (ترجمة وهب) (٤/ ٥٥٥).

وقال عثمان رضي الله عنه عن الصلاة: «من أحسن ما عمل الناس، فإذا أحسنوا فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم»(١).

ولما أصاب ابن الديلمي في نفسه شيء من كلام أهل القدر، أتىٰ أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو من علماء الصحابة، وكبار مقرئيهم، كما في سنن «أبي داود وابن ماجه»(٢).

ولما ثارت الخوارج علىٰ حنظلة بن صفوان بطنجة، جمع حنظلة علماء إفريقية، وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلىٰ إفريقية ليفقهوا أهلها في الدين، منهم سعد بن مسعود وحبّان بن أبي جبلة وطلق بن جابان وغيرهم، فكتبوا له هذه الرسالة ليقتدي بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها وهي: بسم الله الرحمن الرحيم من حنظلة بن صفوان إلىٰ جميع أهل طنجة. «أما بعد: فإن أهل العلم بالله وبكتابه وسنّة نبيّه محمد ﷺ يعلمون أنه يرجع جميع ما أنزل الله ﷻ إلىٰ عشر آيات: آمرة، وزاجرة، ومبشرة، ومنذرة، ومخبرة، ومحكمة، ومتشابهة، وحلال، وحرام، وأمثال. فآمرة بالمعروف، وزاجرة عن المنكر، ومبشرة بالجنة، ومنذرة بالنار، ومخبرة بخبر الأولين والآخرين، ومحكمة يعمل بها، ومتشابهة يؤمن بها، وحلال أمر أن يؤتىٰ، وحرام أمر أن يجتنب، وأمثال واعظة، فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة وأنذرته المنذرة، ومن يحلّل الحلال ويحرم الحرام ويردّ العلم فيما اختلف فيه الناس إلىٰ الله، مع طاعة واضحة ونية صالحة، فقد فاز وأفلح وأنجح وحيا حياة الدنيا والآخرة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(٣).

---

(١) رسالة الإمامة في الصلاة ضمن مجموع رسائل ابن حزم (٣/ ٢٠٧-٢٠٨)، وطبعت مستقلة في دار البشائر الإسلامية.

(٢) سنن أبي داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧).

(٣) انظر: طبقات علماء القيروان (١/ ١٠٢-١٠٣).

وكان الإمام مالك ﷺ يقول: «اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم وما جاء من نبيكم، وإن لم تفهموا المعنىٰ فسلِّموا لعلمائكم ولا تجادلوهم، فإنَّ الجدال في الدين من بقايا النفاق»[١].



(١) قواعد التحديث (ص٢٣)







[صور من نصح العلماء للأمراء وتذكيرهم بالله][1]

ينبغي لمن وعظ سلطانًا أن يبالغ في التلطف، ولا يواجهه بما يقتضي أنَّه ظالم[2]، فإنَّ السلاطين حظهم التفرد بالقهر والغلبة؛ فإذا جرىٰ نوع توبيخ لهم، كان إذلالًا، وهم لا يحتملون ذلك[3]، وإنَّما ينبغي أنْ يمزج وعظه بذكر شرف الولاية، وحصول الثواب في رعاية الرعايا، وذكر سير العادلين من أسلافهم.

ثمَّ لينظر الواعظ في حال الموعوظ قبل وعظه: فإنْ رأىٰ سيرته حميدة -كما كان منصور بن عمار وغيره يعظون الرشيد وهو يبكي-[4] وقصده الخير، زاد في وعظه ووصيته.

---

(١) انظر: سرج الملوك (ص٢٩) (فصل: في مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والوزراء والسلاطين).

(٢) سُئِل ابن عباس رضي الله عنهما عن أمر السلطان بالمعروف، ونهيه عن المنكر، فقال: «إنْ كنت فاعلًا ولابدَّ، ففيما بينك وبينه». كما في «سنن سعيد بن منصور» (٨٤٦)، و«شعب الإيمان» (٧٥٩٢).

(٣) عن مجالد، عن الشعبي، قال: أغلظ رجل لمعاوية، فقال: «أنهاك عن السلطان، فإنَّ غضبه غضب الصبي، وأخذه أخذ الأسد» كما في «تاريخ دمشق» (٥٩/ ١٨٢).

(٤) وفي «التذكرة الحمدونية» (١/ ٣٥٣) ومن الكلام البديع فيما يوصّىٰ به أتباع السلطان ما وصّىٰ به الرشيد الأصمعيّ في أول ما عزم علىٰ تأنيسه. قال له: «يا عبد الملك، أنت أحفظ منّا ونحن أعقل منك، لا تعلّمنا في ملاء، ولا تسرع إلىٰ تذكيرنا في خلاء، واتركنا حتىٰ نبتدئك بالسؤال، فإذا بلغت من الجواب قدر استحقاقه فلا تزد، وإياك والبدار إلىٰ تصديقنا، أو شدة العجب بما يكون منّا، وعلّمنا من العلم ما نحتاج إليه =

وإن رآه ظالمًا، لا يلتفت إلىٰ الخير، وقد غلب عليه الجهل، اجتهد في ألا يراه ولا يعظه؛ لأنَّه إن وعظه، خاطر بنفسه، وإنْ مدحه، كان مداهنًا، فإن اضطر إلىٰ موعظته، كانت كالإشارة، وقد كان أقوام من السلاطين يلينون عند الموعظة، ويحتملون الواعظين، حتىٰ إنَّه قد كان المنصور يواجه بأنَّك ظالم فيصبر؛ وقد تغير الزمان، وفسد أكثر الولاة، وداهنهم العلماء، ومن لا يداهن لا يجد قبولًا للصواب، فيسكت[(١)].

وقال شمس الدين السفاريني: قال الإمام الحافظ ابن الجوزي: الجائز من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع السلاطين **التعريف والوعظ**.

فأمَّا تخشين القول نحو يا ظالم، يا من لا يخاف الله؛ فإن كان ذلك يحرك فتنة يتعدىٰ شرها إلىٰ الغير لم يجز، وإن لم يخف إلا علىٰ نفسه فهو جائز عند جمهور العلماء.

قال: والذي أراه المنع من ذلك؛ لأنَّ المقصود إزالة المنكر وحمل السلطان بالانبساط عليه أي حمله السلطان علىٰ أن يبسط يده في التعدي عليه أكثر من فعل المنكر الذي قصد إزالته، وقد قال سيدنا الإمام أحمد رضي الله عنه: «لا يتعرض بالسلطان، فإنَّ سيفه مسلول، وعصاه».

فأمَّا ما جرىٰ للسلف من التعرض لأمرائهم؛ فإنَّهم كانوا يهابون العلماء، فإذا انبسطوا عليهم احتملوهم في الأغلب.

= علىٰ عتبات المنابر وفي أعطاف الخطب وفواصل المخاطبات، ودعنا من رواية حوشيّ الكلام وغرائب الأشعار، وإياك وإطالة الحديث إلّا أن يستدعىٰ ذلك، ومتىٰ رأيتنا صادفين عن الحقّ فأرجعنا إليه ما استطعت، من غير تقرير بالخطأ ولا إضجار بطول الترداد».

(١) من كلام أبي الفرج في «صيد الخاطر» (ص٤١٤-٤١٥).

ولأحمد ﷺ، من حديث عطية السعدي ﷺ: «إذا استشاط السلطان، تسلط عليه الشيطان»[١].

وليعلم بأنّ الإنكار علىٰ الملوك والوُلاة بالخروج عليهم؛ أساس كل شر وفتنة إلىٰ آخر الدهر، وقد استأذن الصحابةُ رسولَ اللَّه ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخّرون الصلاة عن وقتها، وقالوا: أفلا نقاتلهم؟ فقال: «**لا، ما أقاموا الصلاة**»، وقال: «**مَنْ رأىٰ من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعَنَّ يدًا من طاعة**» ومن تأمل ما جرىٰ علىٰ الإِسلام من الفتن الكِبَار والصغار رآها من ضاعة هذا الأصل وعدم الصبر علىٰ منكر؛ فطلب إزالته فتولَّد منه ما هو أكبر منه؟ فقد كان رسول اللَّه ﷺ يرىٰ بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح اللَّه مكة وصارت دار إسلام عَزَمَ علىٰ تغيير البيت ورَدِّه علىٰ قواعد إبراهيم، ومنَعَه من ذلك -مع قدرته عليه- خشيةُ وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإِسلام وكونهم حَدِيثي عهدٍ بكفرٍ، ولهذا لم يأذن في الإنكار علىٰ الأمراء باليد؛ لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه كما وجد سواء[٢].

والعالم الحريص عليه واجب وهو أن يبلغ ما علمه الله بكل حكمة وأدب وشفقة، كما قال ابن المبارك: قال سفيان الثوري: «نظام العبادة النصيحة للناس، ونظام الصدقة الرحمة لذوي الخلة، ونظام العلم صدق اللسان، فأي هذه الخلال فقد نظامه بطل فضله».

وقال سفيان: «أنا للظالم أرحم منِّي للمظلوم»[٣].

---

(١) غذاء الألباب (١/ ٢٣١-٢٣٢).

(٢) من كلام ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٤/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري (١١/ ٣١٤).

وإن الحاكم والأمير عليه واجبات كثيرة، ومنها أن يستمع لكلام العالم الرباني ونصحه، وأن يحرص علىٰ ذلك، ويرجو بذلك الفائدة منه، وقد روي عن الإمام أحمد أنَّه قيل له: أنَّ عبد الوهاب الوراق ينكر كذا وكذا، فقال: «لا نزالُ بخيرٍ ما دامَ فينا من ينكر».

ومن هذا الباب قول عمر ﵁ لمن قال له اتقِ الله يا أمير المؤمنين فقال: «لا خير فيكم إنْ لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم»[١].

قلت: وعن محمد بن النعمان بن بشير أنَّ أباه أخبره أنَّ عمر ﵁ قال يومًا في مجلس وحوله المهاجرون والأنصار: أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمر، ما كنتم فاعلين؟ فسكتوا فعاد مرتين أو ثلاثًا. قال بشير بن سعد: لو فعلت قومناك تقويم القدح. قال عمر: «أنتم إذا أنتم»[٢].

قال أبو حامد الطوسي: «الأصل الثاني: أنْ يشتاق أبدًا إلىٰ رؤية العلماء، ويحرص علىٰ استماع نصحهم؛ وأن يحذر من علماء السوء الذين يحرصون علىٰ الدنيا، فإنَّهم يثنون عليك، ويغرونك، ويطلبون رضاك طمعًا فيما في يديك من خبث الحطام، ووبيل الحرام ليحصلوا منه شيئًا بالمكر والحيل.

والعالم هو الذي لا يطمع فيما عندك من المال، ومنصفك في الوعظ والمقال»[٣].

---

(١) الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ: **بعثت بالسيف بين يدي الساعة**، للحافظ ابن رجب الحنبلي (ص٣٥).

(٢) التاريخ الكبير للبخاري (ترجمة: بشير بن سعد الأنصاري ﵁) (٢/ ٩٨).

(٣) في الحديث عن أصول العدل من كتابه «التبر المسبوك في نصيحة الملوك» (ص١٨-١٩).

وقال: «فإنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهمة التي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوىٰ بساطه، وأهمل علمه وعمله؛ لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرىٰ الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه، فاستولت علىٰ القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتباع الهوىٰ والشهوات استرسال البهائم، وعز علىٰ بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم»(١).

وقال: «قيَّدت الأطماعُ ألسُنَ العلماءِ فسكتوا!»(٢).

ولنذكر جملة من النصائح والوصايا، ممَّا يعزز مكانة النصيحة، وواجب أهل العلم، وحال الأمراء والسلاطين في قبولهم الحق، وسماعهم النصح والانقياد له والتأثر به.

---

(١) الإحياء للغزالي (٢/ ٣٠٦).

(٢) الإحياء (٢/ ٣٥٧)، وقال ابن النحاس الدمشقي في «تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين» (ص٦٨): «قيد الطمع ألسن العلماء، فسكنوا إذا لم تساعد أقوالهم أفعالهم، ولو صدقوا الله لكان خيرًا له.

فإذا نظرنا إلىٰ فساد الرعية وجدنا سببه فساد الملوك، وإذا نظرنا إلىٰ فساد الملوك وجدنا سببه فساد العلماء والصالحين، وإذا نظرنا إلىٰ فساد العلماء والصالحين وجدنا سببه ما استولىٰ عليهم من حب المال والجاه».

[بين أعرابي وأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه]

وقف أعرابي علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

يا عمرَ الخيرِ جُزيت الجنّه   جهّز بنيّاتي وأمّهنّه
أُقْسِمُ باللهِ لتفعَلنَّه

قال: فإنْ لم أفعل يكون ماذا يا أعرابي؟

قال: أُقْسِمُ أَنِّي سَوْفَ أُمْضِيَنَّهْ.

قال: فإن مضيت يكون ماذا يا أعرابي؟ قال:

وَاللَّهِ عَنْ حَالِي لَتُسْأَلَنَّهْ   ثُمَّ تَكُونُ الْمَسْأَلاتُ ثَمَّهْ
والواقفُ المسئول بينهنّه   إمَّا إِلَىٰ نَارٍ وَإِمَّا جَنَّهْ

قال: فبكىٰ عمر حتىٰ اخضلت لحيته بدموعه ثمَّ قال: يا غلام أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره، والله ما أملك قميصا غيره[١].

[إنكار ابن عباس رضي الله عنه علىٰ أحد الأمراء]

عن طاوس، قال: كنَّا مع ابن عباس فابترك رجل من الأمراء، يقال له الهزهاز، فتطاول حتىٰ ما رأيت في البيت أطول منه، فقال له ابن عباس: «يا هزهاز، لا تكن فتنة للقوم الظالمين»، فتقاصر حتىٰ ما رأيت في البيت أحدًا أقصر منه[٢].

---

(١) تاريخ بغداد (٥/ ٧٠-٧١) ط: العلمية، وهو في «محض الصّواب في فضائل عمر بن الخطّاب» لابن المبرد (٢/ ٦٩٧-٦٩٨).

(٢) تفسير سعيد بن منصور (٣/ ٤٣٥).

[أبو هريرة ومعاوية رضي الله عنهما]

عن يحيىٰ بن أبي كثير قال: لما قدم معاوية رضي الله عنه يريد الحج تلقاه أناس من أهل المدينة فقيل لأبي هريرة: ألا تركب؟ فتلقىٰ أمير المؤمنين؟ فقال: «إنِّي أكره أنْ أركب مركبًا لا أكون فيه ضامنًا علىٰ الله»(١).

[أبو ذر ومعاوية رضي الله عنهما]

ذكر أبو بكر البلاذري قال: بنىٰ معاوية رضي الله عنه الخضراء بدمشق، فقال له أبو ذر رضي الله عنه: «إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهذا الإسراف». فسكت معاوية(٢).

[معاوية رضي الله عنه وأبو مسلم الخولاني رحمه الله]

وقيل: دخل أبو مسلم الخولاني علىٰ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

فقال: السلام عليك أيُّها الأجير!

فقالوا: قل السلام عليك أيُّها الأمير.

فقال: السلام عليك أيُّها الأجير.

فقالوا: قل: الأمير.

فقال: السلام عليك أيُّها الأجير.

فقال: معاوية رضي الله عنه دعوا أبا مسلم، فإنَّه أعلم بما يقول.

فقال: إنمَّا أنت أجير أستأجرك رب هذه الغنم لرعايتها، فإن أنت هنأت جرباها، وداويت مرضاها، وحبست أولاها علىٰ أخراها وفاك سيدها أجرك، وإن أنت لم تهنأ جرباها، ولم تداو مرضاها، ولم تحبس

---

(١) الزهد لابن المبارك (٢/ ٥).

(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٨/ ٢٧٦).

أولاها علىٰ أخراها عاقبك سيدها[١].

وعن عبيد الله بن أبي شميط، عن أبيه قال: كان أبو مسلم الخولاني يطوف ينعىٰ الإسلام، فأتىٰ معاوية، فقيل له فأرسل إليه فدعاه، قال له: ما اسمك؟

قال: معاوية.

قال: «إنَّما أنت أحدوثة، ابن قبر عن قليلٍ إن عملت خيرًا أو شرًا جزيت به».

«يا معاوية، لو عدلت علىٰ أهل الدنيا جميعا ثمَّ جرت علىٰ رجلٍ؛ لمال جورك بعدلك»[٢].

[أسماء ﵂ والحجاج]

عن ابن المختار، عن أبيه، قال: قدمت مكة بعدما صلب، أو قتل ابن الزبير بثلاثة أيام، فكلمت أمه أسماء بنت أبي بكر الحجاج، فقالت: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ قال: المنافق، قالت: لا واللهِ ما كان بمنافق، فلقد كان صوامًا قوامًا، قال: اسكتي فإنَّكِ عجوز قد خرفت، قالت: ما خرفت منذ سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «يخرج من ثقيف كذاب ومبير». فأمَّا الكذاب، فقد رأيناه، يعني: المختار، وأما المبير فأنت[٣].

---

(١) السياسة الشرعية (ص١٠-١١)، و«حسن السلوك» (ص٨٧-٨٨)، وانظر: «تاريخ دمشق» (٢٧/ ٢٢٣)، و«السير» (٤/ ١٣).

(٢) الزهد لأحمد (١٨٢٢).

(٣) المعجم الكبير للطبراني (١٣/ ٩٧)، وانظر: (مسند أسماء ﵂) من مسند الإمام أحمد رقم (٢٦٩٦٧).

[بين زياد بن الأرقم رضي الله عنه وعبيد الله بن زياد]

عن محمد بن القاسم الثقفي حدثني أبي، عن أبيه، أنَّه حضر عبيد الله بن زياد حين أتي برأس الحسين فجعل ينكت بقضيب ثناياه ويقول: إن كان لحسن الثغر! فقال له زيد بن أرقم: ارفع قضيبك، وطال ما رأيت رسول الله ﷺ يلثم موضعه، فقال: «إنَّك شيخ قد خرفت»، فقام زيد يجر ثوبه(١).

[رجل وعمر بن عبد العزيز رحمه الله]

دخل نفر من القراء وفيهم رجل ذكر ظلامة له علىٰ عمر فقال: يا أمير المؤمنين اذكر مقامي هذا؛ فإنَّه مقام لا يشغل الله جل وعز عنه كثرة من تخاصم إليه من الخلائق، يوم تلقاه بلا ثقة من العمل، ولا براءة من الذنوب.

فقال عمر: ويحك اردد كلامك! فرده عليه، فجعل يبكي وينتحب حتىٰ إذا أفاق قال: ما حاجتك؟

قال: عاملك علىٰ أذربيجان ظلمني، وأخذ من مالي عشرة آلاف درهم. فكتب بردِّ ذلك عليه، وبعزل عامله، وقال: انظروا هل اخلولق له من ثوب، أو تقطّع له من حذاء فحسب ذلك فبلغ عشرين دينارًا فأمر بدفعها إليه(٢).

[يزيد الرقاشي وعمر بن عبد العزيز]

دخل يزيد الرقاشي علىٰ عمر بن عبد العزيز، فقال: عظني يا يزيد. فقال يا أمير المؤمنين: اعلم أنَّك لستَ أول خليفة يموت فبكىٰ، ثمَّ قال:

---

(١) تاريخ دمشق (٤١/ ٣٦٥-٣٦٦)، وانظر بخصوصه مسند الإمام أحمد (٢٦٥٥٠).

(٢) المحاسن والمساوئ للبيهقي (ت٣٢٠هـ) (ص٢١٠).

زدني. قال يا أمير المؤمنين: ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت فبكىٰ، ثمَّ قال: زدني يا يزيد. فقال يا أمير المؤمنين: «ليس بينك وبين الجنَّة والنَّار منزل فخر مغشيًا عليه»[(١)].

[الإمام سعيد بن المسيب وعبد الملك بن مروان]

وقيل: إنّه قال يومًا لسعيد بن المسيّب: يا سعيد: قد صرت أفعل الخير فلا أسرّ به، وأصنع الشرّ فلا أساء به.

فقال له سعيد بن المسيّب: «الآن تكامل فيك موت القلب»[(٢)].

[الإمام سعيد بن المسيب وإنكاره الشديد علىٰ الحجاج]

وذكر أنَّ الحجاج بن يوسف صلىٰ مرة بجانب سعيد بن المسيب -وذلك قبل أن يلي شيئًا- فجعل يرفع قبل الإمام، ويقع قبله في السجود، فلمَّا سلم أخذ سعيد بطرف ردائه، وكان له ذكر يقوله بعد الصلاة، فما زال الحجاج ينازعه رداءه، حتىٰ قضىٰ سعيد ذكره، ثمَّ أقبل عليه سعيد فقال له: «يا سارق! يا خائن! تصلي هذه الصلاة! لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك». فلم يرد عليه، ثمَّ مضىٰ الحجاج إلىٰ الحج، ثمَّ رجع فعاد إلىٰ الشام، ثمَّ جاء نائبًا علىٰ الحجاز، فلمَّا قتل ابن الزبير كرَّ راجعًا إلىٰ المدينة نائبًا عليها، فلمَّا دخل المسجد إذا مجلس سعيد بن المسيب فقصده الحجاج فخشي النَّاس علىٰ سعيد منه، فجاء حتىٰ جلس بين يديه، فقال له: أنتَ صاحبُ الكلمات؟

---

(١) الإحياء (٤/ ١٨٦).

(٢) الفخري في الآداب السلطانية (ص١٢٣)، وفي «أدب الفتيا» للسيوطي (ص١٠٤) عن محمد بن يحيىٰ قال: «كان سعيد بن المسيب رأس المدينة في دهره، والمقدم عليهم في الفتوىٰ، وكان يقال له: فقيه الفقهاء».

فضرب سعيد صدره بيده وقال: نعم!

قال: فجزاك الله مِن معلم ومؤدب خيرًا، ما صليتُ بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك. ثمَّ قام ومضىٰ[١].

[بين الإمام سعيد بن جبير والحجاج]

قال أبو بكر الهذليّ: لما دخل سعيد بن جبير علىٰ الحجّاج قام بين يديه، فقال له: أعوذ منك بما استعاذت به مريم بنت عمران حيث قالت: [إِنِّي] ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ [مَرْيَمَ: ١٨]، فقال له الحجّاج: ما اسمك قال: سعيد بن جبير، قال: شقيّ بن كسير، قال: أمّي أعلم باسمي، قال: شقيت وشقيت أمّك، قال: الغيب يعلمه غيرك، قال: لأوردنّك حياض الموت، قال: أصابت إذا أمّي، قال: فما تقول في محمد ﷺ؟ قال: نبيّ ختم الله تعالىٰ به الرّسل وصدّق به الوحي، وأنقذ به من الهلكة إمام هدي ونبيّ رحمة، قال: فما تقول في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل، إنما استحفظت أمر ديني، قال: فأيّهم أحبّ إليك؟ قال: أحسنهم خلقا وأرضاهم لخالقه، وأشدّهم فرقًا قال: فما تقول في عليّ وعثمان، أفي الجنة هما أو في النار؟ قال: لو دخلتهما فرأيت أهلهما إذا لأخبرتك، فما سؤالك عن أمر غيّب عنك؟ قال: فما تقول في

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٥١٣)، قلت: ونحوه في «طبقات علماء القيروان» (١/ ٦٩) عن عمر بن شداد الليثي قال: «والله إنِّي لأصلي أمام المسور، فصليت صلاة الشاب كنقر الديك، فزحف إلىٰ المسور وقال لي: قم صل!

فقلت: قد صليت عافاك الله.

فقال: كذبت، والله ما صليت ولا تريم حتىٰ تصلي. فقمت فصليت، فأتممت الركوع والسجود.

فقال لي المسور: «والله لا تعصون الله ﷻ، ونحن ننظر، ما استطعنا».

عبد الملك بن مروان؟ قال: مالك تسألني عن امرئ أنت واحدة من ذنوبه؟ قال:

فمالك لم تضحك قطّ؟

قال: لم أرَ ما يضحكني، كيف يضحك من خلق من تراب وإلىٰ التراب يعود؟

قال: فإنَّي أضحك من اللهو.

قال ليست القلوب سواء، قال: فهل رأيت من اللهو شيئًا، ودعا بالنّاي والعود، فلما نفخ بالنّاي بكىٰ، قال: ما يبكيك؟ قال: ذكّرني يوم ينفخ في الصّور، فأمّا هذا العود فمن نبات الأرض، وعسىٰ أن يكون قد قطع من غير حقّه، وأمّا هذه المغاش والأوتار فإنَّها سيبعثها الله معك يوم القيامة، قال: إنَّي قاتلك.

قال: إنَّ الله ﷻ قد وقّت لي وقتًا أنا بالغه، فإنْ يكن أجلي قد حضر فهو أمر قد فرغ منه، ولا محيص ساعة، وإن تكن العافية، فالله تعالىٰ أولىٰ بها، قال: اذهبوا به فاقتلوه، قال: أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله استحفظكها يا حجّاج حتىٰ ألقاك يوم القيامة، فلما تولّوا به ليقتلوه ضحك.

قال له الحجّاج: ما أضحكك؟

قال: عجبت من جرأتك علىٰ الله، وحلم الله جلّ وعلا عليك ثم استقبل القبلة فقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]

قال: اقتلوه عن القبلة قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] قال: «اضربوا به الأرض».

قـــــال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]
قال: «اضربوا عنقه».

قال: اللهمّ لا تحل له دمي ولا تمهله من بعدي فلمَّا قتله لم يزل دمه يجري حتَّىٰ علا وفاض حتىٰ دخل تحت سرير الحجّاج، فلمَّا رأىٰ ذلك هاله وأفزعه، فبعث إلىٰ صادق المتطبّب فسأله عن ذلك.

قال: لأنَّك قتلته ولم يهله، ففاض دمه ولم يجمد في جسده، ولم يخلق الله ﷻ شيئًا أكثر دمًا من الإنسان، فلم يزل به ذلك الفزع حتىٰ منع النّوم، وجعل يقول: مالي ولك يا سعيد بن جبير، وكان في جملة مرضه كلما نام رآه آخذًا بمجامع ثوبه يقول: يا عدوّ الله فيمَ قتلتني، فيستيقظ مذعورًا، ويقول: «مالي ولابن جبير، وقتل ابن جبير»، وله تسع وأربعون سنة، وقبره بواسط يتبرك به[١].

وروىٰ ابن قتيبة أنَّ الحجاج قال له: اختر أية قتلة شئت، فقال: «اختر أنت لنفسك، فإنَّ القصاص أمامك»[٢].

[وقفة]

قال الله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠].

أي من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله: بالكلم الطيب، والعمل الصالح، وقال بعض السلف: «الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله»[٣].

---

(١) شذرات الذهب (١/ ٣٨٥-٣٨٦)، و«المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (٧/ ٨)، وانظر: نوادر الخلفاء للإتليدي (ص٢٣٦).
(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢١٧).
(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٤٨).

[جامع المحاربي والحجاج الثقفي]

قال العتبي: دخل جامع المحاربي علىٰ الحجاج -وكان جامع شيخًا صالحًا خطيبًا لبيبًا جريئًا علىٰ السلطان وهو الذي قال للحجاج: إذ بنىٰ مدينة واسط بنيتها في غير بلدك، وتورثها غير ولدك- فجعل الحجاج يشكو سوء طاعة أهل العراق وقبح مذهبهم.

فقال له جامع: أما إنَّه لو أحبّوك لأطاعوك، علىٰ أنهَّم ما شنئوك لنسبك، ولا لبلدك، ولا لذات نفسك؛ فدع عنك ما يبعدهم منك إلىٰ ما يقرّبهم إليك، والتمس العافية ممَّن دونك، تعطها ممَّن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك.

قال الحجاج: ما أرىٰ أن أردّ بني اللّكيعة إلىٰ طاعتي إلا بالسيف.

قال: أيُّها الأمير، إنّ السيف إذا لاقىٰ السيف ذهب الخيار!

قال الحجاج: الخيار يومئذٍ لله.

قال: أجل، ولكنَّك لا تدري لمن يجعله الله. فغضب وقال: يا هناه، إنَّك من محارب.

فقال جامع:

وللحربِ سُمّينَا وكنّا محاربًا ... إذا ما القنا أمسىٰ من الطّعن أحمرا

فقال الحجاج: والله لقد هممتُ بأن أخلع لسانك فأضرب به وجهك.

قال جامع: إن صدقناك أغضبناك، وإن غششناك أغضبنا الله؛ فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله.

قال: أجل، وسكن[1].

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢/ ٥٣).

[خالد بن صفوان وهشام بن عبد الملك]

قال خالد بن صفوان: وفدت علىٰ هشام بن عبد الملك، فقال: هات يا ابن صفوان: قلت: إنَّ ملكًا من الملوك خرج متنزهًا إلىٰ الخورنق، وكان ذا علم مع الكثرة والغلبة، فنظر وقال لجلسائه: لمن هذا؟

قالوا: للملك.

قال: فهل رأيتم أحدًا أعطي مثل ما أعطيت؟ وكان عنده رجل من بقايا حملة الحجة فقال: إنَّك قد سألت عن أمر، أفتأذن لي بالجواب؟

قال: نعم، قال: أرأيت ما أنت فيه، أشيء لم تزل فيه أم شيء صار إليك ميراثًا وهو زائل عنك إلىٰ غيرك كما صار إليك؟

قال: كذا هو، قال: فتعجب بشيء يسير لا تكون فيه إلا قليلًا، وتنقل عنه طويلًا فيكون عليك حسابًا؟

قال: ويحك فأين المهرب؟ وأين المطلب؟ وأخذته قشعريرة.

قال: إمَّا أن تقيم في ملكك فتعمل بطاعة الله بما ساءك وسرك، وإمَّا أن تنخلع من ملكك، وتضع تاجك، وتلقي عنك أطمارك، وتعبد ربك، قال: إنِّي مفكر الليلة وأوافيك السحر، فلمَّا كان السحر قرع عليه بابه، فقال: إنِّي اخترت هذا الجبل وفلوات الأرض، وقد لبست علىٰ أمساحي، فإن كنت لي رفيقًا لا تخالف، فلزم الجبل حتىٰ ماتا، وفيه يقول عدي بن زياد العبادي:

أيها الشامت المعيّر بالدّهـ ... ـر أَأَنْتَ الْمُبَرَّأُ الْمَوْفُورُ

أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ من الأيـ ... ـام بَلْ أَنْتَ جاهلٌ مَغْرُورُ

مَنْ رَأَيْتَ الْمَنُونَ خَلَّدْنَ أَمْ مَنْ ... ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ

أَيْنَ كِسْرَىٰ كِسْرَىٰ الْمُلُوكِ أَبُو سا ... سان أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ

وَبَنُو الأَصْفَرِ الْكِرَامُ ملوك الـ ... ـرّوم لَمْ يَبْقَ مِنْهُمُ مَذْكُورُ

وَأَخُو الْحَضْرِ إِذْ بناه وإذ دجـ ـلة تجبىٰ إليه والخابور
شاده مرمرًا وجلّله كلـ ـسًا فَلِلطَّيْرِ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ
لَمْ يَهَبْهُ رَيْبَ المنون فباد الـ ـملك عَنْهُ فَبَابُهُ مَهْجُورُ
وَتَذَكَّرْ رَبَّ الْخَوَرْنَقِ إِذْ أشـ ـرف يومًا وللهدىٰ تذكير
سرّه ماله وكثرة ما يمـ ـلك وَالْبَحْرُ معرضٌ وَالسَّدِيرُ
فَارْعَوَىٰ قَلْبُهُ وَقَالَ: وَمَا غبـ ـطة حيٍّ إلىٰ الممات يصير

زاد بعضُهم في هذه القصيدة:

ثُمَّ بَعْدُ الْفَلاحِ والملك والإمّـ ـة وَارَتْهُمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ
ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ ورقٌ جـ ـفّ فَأَلْوَتْ بِهِ الصَّبَا وَالدَّبُورُ

قال: فبكىٰ هشام حتىٰ اخضلت لحيتُه، وأمر بابنتيه وطيِّ فرشه، ولزم قصره، فأقبلتِ الموالي والحشم علىٰ خالد بن صفوان وقالوا: ما أردتَ إلىٰ أمير المؤمنين؟ أفسدتَ عليه لذته، فقال: إليكم عنِّي، فإنِّي عاهدتُ الله ألا أخلو بملكٍ إلا ذكرتُه بالله تعالىٰ(١).

[رجل من الأشراف وهشام بن عبد الملك]

شتم هشام مرة رجلًا من الأشراف، فقال: أتشتمني وأنت خليفة الله في الأرض؟ فاستحيا وقال: اقتص مني بدلها. أو قال: بمثلها.

فقال: إذن أكون سفيها مثلك.

قال: فخذ عوضا منها.

قال: لا أفعل.

قال: فاتركها لله(٢).

---

(١) تاريخ الخلفاء (ص٢٥١-٢٥٢)، والشعر من «تاريخ الإسلام» (٣/ ٩٩).

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ١٥١).

[ابن أبي ذئب وأبي جعفر المنصور]

عن داود بن أبي العباس، عن أبيه، عن جده قال: بعث بي المنصور إلىٰ ابن أبي ذئب أسأله عن مسألة فقال: ما هي؟

فذكرتها له.

فقال: لا يراني الله ﷻ أفتي جبارًا مثله في مسألة فيها ضرر علىٰ المسلمين.

قال: فرجعت إلىٰ المنصور مغضبًا، فعرف في وجهي.

فقال: لقد جئت بغير الوجه الذي ذهبت به.

فقلت: تبعث بي إلىٰ مجنون! وأخبرته.

فقال المنصور: الذي لقيت أنا منه العام في الطواف أشد من هذا. كنت في شوق إلىٰ أن أراه، فبينا أنا أطوف إذ قال لي المسيب: أليس كنت تسأل عن ابن أبي ذئب؟

فقلت: بلىٰ، فقال: هو ذا، هو يطوف، فأتيته.

فقلت: السلام عليكم ورحمة الله، وناولته يدي، فبرق عينيه في وجهي وقال: من أنت؟ فلقد أخذت يدي أخذ جبار.

قلت: أو ما تعرفني؟

قال: لا.

قلت: أنا أبو جعفر المنصور.

قال: فجذب يده من يدي، وقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

قال: قلت: يا أمير المؤمنين، ما صنعت به؟

قال: ما عسيت أن أفعل برجلٍ الله في قلبه عظيم.

أخبرنا أبي، أخبرني عبد الله بن مسلم، عن أحمد بن يحيىٰ عن محمد بن إدريس الشافعي قال: قدم أبو جعفر المنصور المدينة حاجًا فأتته الوفود من كل بلد يشكون إليه الأمراء، فأتاه أهل اليمن يشكون معن بن زائدة، وأتاه بنو أبي عمرو الغفاري من أهل المدينة يشكون أميرهم الحسن بن زيد، فقال وفد اليمن لأبي جعفر المنصور، وقد أحضر ابن أبي ذئب والعلماء فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن معن بن زائدة قد تعدىٰ علينا وأساء فينا السيرة، وقد رضينا بابن أبي ذئب فقال له أبو جعفر: ما تقول في معن بن زائدة؟

قال: قولي فيه وعلمي به أنَّه عدو الله، يقتل المسلمين بغير حق والمعاهدين، ويحكم بغير ما أنزل، ويفسد العباد والبلاد.

قال: ثمَّ تقدم الغفاريون يشكون الحسن بن زيد وسيرته فيهم وقالوا: قد رضينا بابن أبي ذئب. فأطبق عليه ابن أبي ذئب وذكره بسوء.

فقال الحسن بن زيد: يا أمير المؤمنين، ذكرني بما قد ذكر فإن رأىٰ أمير المؤمنين أن يسأله عن حال -أمير المؤمنين- عنده؟

فقال أبو جعفر: ما تقول فيَّ يا ابن أبي ذئب؟

فقال: اعفني.

قال: قد عزمتُ عليك.

قال: اعفني.

قال: لستُ أفعل.

قال: فبكىٰ ابن أبي ذئب، ثمَّ قال: تسألني عن نفسك، أنت أعلم بنفسك منِّي، وما عسىٰ أن أقول فيك ممَّا فيك، أنتَ والله الرجل الذي أمرر علىٰ المسلمين أمرهم، ظلمتهم، واعتديت عليهم، وسفكت الدماء

الحرام، وأخذتَ الأموال من غير حلها ووضعتها في غير حقها، وأهلكت المسلمين، والفقراء، واليتامىٰ، والمساكين.

قال محمد بن إبراهيم: وبين يدي أبي جعفر عمودٌ فجمع الناس عليهم ثيابهم مخافةً أن يتلطخ عليهم من دمه ودماغه، فلم يهجه بشيء وانصرف الناس، فقال عمٌّ لأبي جعفر: يا أمير المؤمنين، إنَّ هذا مجلس قد حضره أهل الآفاق وينصرفون إلىٰ البلاد فيخبرون بما كان إلىٰ أمير المؤمنين من الجرأة، فلو قتلت هذا الكلب لئلا يجترئ عليك غيره من الناس.

فقال له أبو جعفر: ويحك، هذا رجلٌ قد بلغت منه صعوبة العبادة، وقد سمع الحديث: «إنَّ أفضل الجهادِ كلمةُ عدلٍ قالها عند سلطان جائر يقتل عليها»، فطمع أنِّي أقتله أفيراني أقتله وأريحه مما هو فيه من صعوبة العبادة؟ ولا والله ما أهيجه أبدًا حتىٰ يموت أو أموت(١).

وقال ابن أبي ذئب للمنصور: يا أمير المؤمنين، قد هلك الناس، فلو أعنتهم مما في يديك من الفيء؟ قال: ويلك لولا ما سددت من الثغور وبعثت من الجيوش لكنت تؤتىٰ في منزلك وتذبح.

فقال ابن أبي ذئب: فقد سد الثغور، وجيش الجيوش، وفتح الفتوح، وأعطىٰ الناس أعطياتهم من هو خير منك.

قال: ومن هو ويلك؟

---

(١) من أخبار ابن أبي ذئب لابن زبر الربعي (ص٥٤-٥٧)، وقارن ذلك بما في «تهذيب الكمال» للمزي (٢٥/ ٦٣٨)، و«تاريخ بغداد» (١/ ٢٩١)، قال أحمد: «هو أورع وأقوم بالحق من مالك، دخل علىٰ المنصور فلم يَهلْهُ أن قال له الحق، وقال: الظلم ببابك فاش، وأبو جعفر أبو جعفر؟».
قال النووي في «تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٨٧): «ذكر الخطيب بأسانيده جملًا من مناقبه وقوله بالحق، وإنكاره علىٰ الخلفاء، وأنَّه لا يأخذه في الله لومة لائم، وتمييزه علىٰ علماء عصره في ذلك، رَحِمَهُ اللَّهُ».

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فنكس المنصور رأسه، والسيف بيد المسيب، والعمود بيد مالك بن الهيثم، فلم يعرض له والتفت إلىٰ محمد بن إبراهيم الإمام، فقال: «هذا الشيخ خير أهل الحجاز»(١).

[ابن أبي ذئب والمهدي]

وقيل: إنَّ المهدي حجّ فدخلَ مسجد النبي ﷺ، فلم يبقَ إلا مَنْ قام إلَّا ابن أبي ذئب، فقيل له: قمْ فهذا أميرُ المؤمنين، فقال: «إنَّما يقوم الناسُ لربِّ العالمين»، فقال المهدي: دعوه، فقد قامت كل شعرةٍ في رأسي(٢).

[سفيان الثوري وأبو جعفر المنصور]

وقال سفيان الثوري لأبي جعفر المنصور: إنِّي لأعلم رجلًا إن صلح صلحت الأمة، وإنْ فسد فسدت الأمة.

قال: ومَن هو؟

قال: «أنت!»(٣).

[سفيان الثوري والمهدي]

وعن محمد بن مسعود، عن سفيان قال: أدخلت علىٰ المهدي بمنىٰ، فسلمت عليه بِالإِمْرَةِ.

فقال: أيُّها الرجل! طلبناك، فأعجزتنا، فالحمد لله الذي جاء بك، فارفع إلينا حاجتك.

فقلت: قد ملأت الأرض ظلمًا وجورًا، فاتقِ الله، وليكن منك في ذلك عبرة.

---

(١) تاريخ بغداد (٣/ ٥١٥).

(٢) طبقات علماء الحديث (١/ ٢٩٢).

(٣) سراج الملوك (ص٤٥)، و«حسن السلوك» (ص٦٦).

فطأطأ رأسه، ثمَّ قال: أرأيت إن لم أستطع دفعه؟

قال: تخليه وغيرك.

فطأطأ رأسه، ثمَّ قال: ارفع إلينا حاجتك.

قلت: أبناء المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان بالباب، فاتق الله، وأوصل إليهم حقوقهم.

فطأطأ رأسه، فقال أبو عبيد الله: أيها الرجل! ارفع إلينا حاجتك.

قلت: وما أرفع؟ حدثني إسماعيل بن أبي خالد، قال: حج عمر، فقال لخازنه: كم أنفقت؟

قال: بضعة عشر درهمًا، وإنِّي أرىٰ ها هنا أمورًا لا تطيقها الجبال[1].

[الفضيل بن عياض وهارون الرشيد رحمهما الله]

قال الفضيل بن عياض: قلت لهارون أمير المؤمنين: «يا حسن الوجه، إن قدرت أنْ لا تلفح وجهك النَّار فتسوِّدَهُ فافعل، فواللهِ لقد قلِّدت أمرًا عظيمًا» فبكىٰ هارون[2].

[عبرة]

ترجم الحافظ ابن كثير الدمشقي (لقاضي القضاة نجم الدين بن صصري)، ثمَّ ذكر قائلًا: وكلها مناصب دنيوية، انسلخ منها وانسلخت منه، ومضىٰ عنها وتركها لغيره، وأكبر أمنيته بعد وفاته أنَّه لم يكن تولاها وهي: «متاع قليل من حبيب مفارق»[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٦٤-٢٦٥)، وهو في «أخلاق الشيوخ» نحوه (ص٧١).

(٢) صفة النَّار لابن أبي الدنيا (١٦٧)، و«طبقات علماء القيروان» (١/ ٥١٦).

(٣) البداية والنهاية (١٨/ ٢٢٨)، وذكر أنَّ لجمال الدين القفطي (ت٦٤٦هـ) كتابًا بعنوان: «من ألْوَت الأيام إليه فرفعتْه، ثمَّ ألْوَت عليه فوضعتْه».

[الليث بن سعد وهارون الرشيد]

عن عبد الله بن صالح، يقول: سمعت الليث بن سعد، يقول: «لما قدمت علىٰ هارون الرشيد، قال لي: يا ليث، ما صلاح بلدكم؟

قلت: «يا أمير المؤمنين صلاح بلدنا: بإجراء النيل وإصلاح أميرها، ومن رأس العين يأتي الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي».

فقال: صدقت يا أبا الحارث[١].

[بين أبو بكر بن عياش وهارون الرشيد]

قال عثمان بن أبي شيبة: أحضر هارون الرشيد أبا بكر بن عياش من الكوفة، فجاء ومعه وكيع، فدخل ووكيع يقوده، فأدناه الرشيد، وقال له: قد أدركت أيام بني أمية[٢] وأيامنا، فأينا خير؟

قال: أنتم أقومُ بالصَّلاة، وأولئكَ كانوا أنفعَ للنَّاس.

قال: فأجازه الرشيد بستةِ آلاف دينار، وصرفه، وأجاز وكيعًا بثلاثة آلاف[٣].

---

(١) حلية الأولياء (٧/ ٣٢٢).

(٢) وفي كتاب «شرح ما يقعُ فيه التصحيف والتحريف» للعسكري (ص٣-٤)، قال أخبرني أبو العباس بن عمَّار: سمعتُ سليمان بن أبي شيخ يحكي: أنَّ الأصمعي ذكر يومًا بني أمية أو -قال بني مروان- وشغَفهم بالعلم فقال: «كانوا ربما اختلفوا، وهم بالشام، في بيت الشعر، أو خبرٍ، أو يوم من أيام العرب، فيبردون فيه بريدًا إلىٰ العراق».

وبسندهِ عن أبي عبيدة قال: «ما كنَّا نفقد في كلِّ يوم راكبًا من ناحيةِ بني أمية، يُنيخُ علىٰ باب قتادة -بالبصرة- يسأله عن خبر أو نسبٍ أو شعرٍ، وكان قتادةُ أجمعَ الناس».

وقال عامر بن عبد الملك المستملي: «لقد كان الرجلان من بني مروان، يختلفان في بيت شعر، فيرسلان راكبًا إلىٰ قتادة يسأله».

(٣) السير للذهبي (٨/ ٤٩٨).

[أبو العتاهية والرشيد]

عبد الرحمن، عن عمه الأصمعي؛ قال: بعث إلي هارون الرشيد وقد زخرف مجالسه وبالغ فيها وفي بنائها، ووضع فيها طعامًا كثيرًا، ثمَّ وجه إلىٰ أبي العتاهية، فأتاه، فقال: صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا؛ فأنشأ يقول:

عِشْ مَا بَدَا لَكَ سَالِمًا ... فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ

فقال: أحسنت! ثمَّ ماذا؟ فقال:

يُسْعَىٰ عَلَيْكَ بِمَا اشْتَهَيْتُ ... لَدَىٰ الرَّوَاحِ وَفِي الْبُكُور

فقال: أحسنت أيضًا! ثمَّ ماذا؟ فقال:

فَإِذَا النُّفُوسُ تَقَعْقَعَتْ ... فِي ضِيقِ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ

فَهُنَاكَ تَعْلَمُ مُوقِنًا ... مَا كُنْتَ إلا فِي غُرُورِ

فبكىٰ هارون، فقال الفضل بن يحيىٰ: بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فأحزنته! فقال هارون: دعه؛ فإنه رآنا في عمىٰ فكره أن يزيدنا عمىٰ(١).

[نصح شيبان الراعي للرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ]

قال الرشيد لشيبان: عظني، قال: لأن تصحب من يخوفك حتىٰ يدركك الأمن خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتىٰ يدركك الخوف.

فقال الرشيد: فسّر لي هذا.

قال: من يقول لك: «أنت مسئول عن الرعية فاتقِ الله **أنصح لك** ممَّن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنتم قرابة نبيكم ﷺ» فبكىٰ الرشيد حتىٰ رحمه من حوله(٢).

---

(١) المجالسة وجواهر العلم (٤/ ٤٢٧).

(٢) تاريخ الخلفاء (ص٢٩٦).

[أبو يوسف القاضي وهارون الرشيد]

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب به أبو يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أمير المؤمنين هارون الرشيد أطال الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام له العز في تمام من النعمة، ودوام من الكرامة، وجعل ما أنعم به عليه موصولًا بنعيم الآخرة الذي لا ينفد ولا يزول، ومرافقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إنَّ أمير المؤمنين أيده الله تعالىٰ سألني أن أضعَ له كتابًا جامعًا يعمل به في جباية الخراج، والعشور والصدقات والجوالي، وغير ذلك ممَّا يجبُ عليه النَّظرَ فيه والعمل به.

وإنمَّا أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته، والصلاح لأمرهم. وفَّق الله تعالىٰ أمير المؤمنين، وسدده وأعانه علىٰ ما تولىٰ من ذلك، وسلَّمه ممَّا يخاف ويحذر.

وطلب أنْ أبينَ له ما سألني عنه ممَّا يريد العمل به، وأفسره وأشرحه، وقد فسرت ذلك وشرحته.

يا أمير المؤمنين، إنَّ الله -وله الحمد- قد قلدك أمرًا عظيمًا: ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب؛ قلدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم، وليس يلبث البنيان إذا أسس علىٰ غير التقوىٰ أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه علىٰ من بناه، وأعان عليه؛ فلا تضيعن ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية، فإن القوة في العمل بإذن الله.

لا تؤخر عمل اليوم إلىٰ غد فإنك إذا فعلت ذلك أضعت، إنَّ الأجل دون الأمل، فبادر الأجل بالعمل، فإنَّه لا عمل بعد الأجل، إنَّ الرعاة مؤدون إلىٰ ربهم ما يؤدي الراعي إلىٰ ربه. فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار؛ فإنَّ أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع

سعدت به رعيته، ولا تزغ فتزيغ رعيتك، وإياك الأمر بالهوىٰ والأخذ بالغضب.

وإذا نظرت إلىٰ أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة علىٰ أمر الدنيا، فإنَّ الآخرة تبقىٰ والدُّنيا تفنىٰ.

وكنْ من خشية الله علىٰ حذر، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء: القريب والبعيد، ولا تخف في الله لومة لائم.

واحذر فإنَّ الحذر بالقلب وليس باللسان، واتقِ الله فإنَّما التقوىٰ بالتوقي، ومنْ يتقِ الله يقه.

واعمل لأجل مفضوض، وسبيل مسلوك، وطريق مأخوذ، وعمل محفوظ، ومنهل مورود؛ فإنَّ ذلك المورد الحق والموقف الأعظم الذي تطير فيه القلوب وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته، والخلق له داخرون بين يديه، ينتظرون قضاءه ويخافون عقوبته وكأنَّ ذلك قد كان. فكفىٰ بالحسرة والندامة يومئٍذ في ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل، يومٌ تزل فيه الأقدام، وتتغير فيه الألوان، ويطاول فيه القيام، ويشتد فيه الحساب.

يقول الله تبارك وتعالىٰ في كتابه: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠].

وقال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] فيا لها من عثرة لا تقال، ويا لها من ندامة لا تنفع.

إنَّما هو اختلاف الليل والنهار، يبليان كلَّ جديدٍ، ويقربان كلَّ بعيدٍ، ويأتيان بكل موعودٍ، ويجزي الله كل نفسٍ بما كسبت إنَّ الله سريع الحساب؛ فالله الله فإنَّ البقاء قليل، والخطب خطير، والدنيا هالكة وهالك من فيها، والآخرة هي دار القرار، فلا تلق الله غدًا وأنت سالك سبيل المعتدين؛ فإنَّ ديان يوم الدين إنَّما يدين العباد بأعمالهم ولا يدين بمنازلهم، وقد حذرت الله فاحذر، فإنَّك لم تخلق عبثًا، ولن تترك سدىٰ، وإن الله سائلك عمَّا أنت فيه، وعمَّا عملت به، فانظر ما الجواب . . . [(١)].

[الإمام مالك وهارون الرشيد]

قال عتيق بن يعقوب: كان مالك إذا دخل علىٰ الوالي وعظه، وحثَّه علىٰ مصالح المسلمين، ولقد دخل يومًا علىٰ هارون الرشيد فحثَّه علىٰ مصالح المسلمين، قال له: لقد بلغني أنَّ عمر بن الخطاب ﵁ كان في فضله وقدمه ينفخ لهم عام الرمادة النَّار تحت القدور يخرج الدخان من لحيته، وقد رضي الناس منكم بدون هذا!![(٢)].

[زياد بن عبد الرحمن القرطبي[(٣)] وملك من الملوك]

قال حبيب: كنَّا جلوسًا عند زياد، فأتاه كتاب من بعض الملوك، فمد مدَّة -أي بلَّ قلمه من الحبر بلَّة-، فكتّب فيه، ثمَّ طبع الكتاب ونفَّذ به الرسول.

فقال زياد: أتدرون عمَّ سأل صاحب هذا؟ سأل عن كفَّتي ميزان الأعمال يوم القيامة، أمِن ذهبٍ هي أم من وَرِق -أي من فضة-؟ فكتبت إليه، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حسن**

---

(١) الخراج (ص١٣-١٤) وللكلام بقية فانظره في مصدره.

(٢) ترتيب المدارك (٢/ ٩٥).

(٣) تلميذ الإمام مالك.

إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». وسترد فتعلم[١].

[نصح طاووس لسليمان بن عبد الملك]

وحج سليمان بن عبد الملك، فخرج حاجبه، فقال: إنَّ أمير المؤمنين قال: ابغوا إليَّ فقيهًا أسأله عن بعض المناسك.

قال: فمر طاووس، فقالوا: هذا طاووس اليماني.

فأخذه الحاجب، فقال: أجب أمير المؤمنين.

قال: أعفني.

فأبىٰ، ثمَّ أدخله عليه.

قال طاووس: فلمَّا وقفتُ بين يديه، قلت: إنَّ هذا لمجلس يسألني الله عنه.

فقلت: يا أمير المؤمنين! إنَّ صخرةً كانت علىٰ شفيرِ جبٍّ في جهنَّم، هوت فيها سبعين خريفًا، حتىٰ استقرت قرارها، أتدري لمن أعدها الله؟

قال: لا! ويلك لمن أعدها؟

قال: لمن أشركه الله في حكمه، فجار.

قال: فكبا بها[٢].

وفي رواية: قال طاوس لسليمان بن عبد الملك: هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذابًا يوم القيامة؟

قال سليمان: لا أدري.

قال طاوس: أشد النَّاس عذابًا يوم القيامة من أشركه الله في ملكه، فجار في حكمه. فاستلقىٰ سليمان علىٰ سريره وهو يبكي، فما زال يبكي

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣/ ١٢٠).

(٢) حلية الأولياء (٤/ ١٥)، و«السير» (٥/ ٤٢).

حتىٰ قام عنه جلساؤه[١].

[نصيحة عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ اللَّهُ ووعظه لعبد الملك وسليمان بن عبد الملك]

قال عطاء بن أبي رباح لعبد الملك: يا أمير المؤمنين اتقِ الله في حرم الله وحرم ورسوله فتعاهده بالعمارة، واتقِ الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتقِ الله في أهل الثغور فإنه حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنَّك وحدك المسؤول عنهم، واتقِ الله فيمن علىٰ بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق دونهم بابك.

فقال له: أفعل. ثمَّ نهض وقام، وقبض عليه عبد الملك، فقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها فما حاجتك؟

فقال: ما لي إلىٰ مخلوق حاجة، ثمَّ خرج. فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤدد[٢].

ونحوِ هذا أيضًا أنَّ عطاء بن أبي رباح دخل إلىٰ سدّة الخليفة سليمان بن عبد الملك فجعل يقعقع الحلقة، فقال سليمان بن عبد الملك: افتحوا له، وتزحزح له عن مجلسه، فقال: أصلحك الله، احفظ وصية رسول الله ﷺ في أبناء المهاجرين والأنصار قال: أصنع بهم ماذا؟ قال: انظر في أرزاقهم، قال: ثم ماذا؟

قال: أهل البادية تفقّد أمورهم فإنهَّم مادة العرب، قال: ثمَّ ماذا؟ قال: ذمّة المسلمين تفقد أمورهم وخفف عنهم من خراجهم فإنهم عون لك علىٰ عدو الله وعدوهم.

قال: ثم ماذا؟

---

(١) سراج الملوك (ص٤١)، و«حسن السلوك» (ص٦٣).

(٢) تهذيب الكمال (٢٠/ ٨٠-٨١).

قال: أهل الثغور تفقدهم فإنه يدفع بهم عن هذه الأمّة.

قال: ثم ماذا؟

قال: يصلح الله أمير المؤمنين. فلما ولىٰ قال: هذا والله الشرف لا شرفنا، وهذا والله السؤدد لا سؤددنا، والله لكأنَّما معه ملكان ما أقدر أن أراجعه في شيء سألني، ولو سألني أن أتزحزح عن هذا المجلس لفعلت(١).

[ابن عجلان ووالي المدينة]

عن محمد بن إدريس الشافعي، قال: «كان محمد بن عجلان يأمر بالمعروف، وينهىٰ عن المنكر».

قال: فخطب والي المدينة يوما، فأطال الخطبة، فلما نزل وصلىٰ صاح به ابن عجلان، فقال: يا هذا! اتقِ الله، تطيل بيانك وكلامك، علىٰ منبر رسول الله ﷺ؟! فأمر به، فحبس، فأخبر ابن أبي ذئب، فدخل علىٰ الوالي، وقال: حبست ابن عجلان؟! فقال: ما يكفيه أنه يأمرنا فيما بيننا وبينه، فنصير إلىٰ ما يأمرنا، حتىٰ يصيح بنا علىٰ رؤوس الناس فنستضعف؟!

فقال ابن أبي ذئب: ابن عجلان أحمق، أحمق، هو يراك تأكل الحرام، وتلبس الحرام، فيترك الإنكار عليك، ويقول: «لا تطل بيانك وكلامك علىٰ منبر رسول الله ﷺ، فقال الوالي: أخرجوا ابن عجلان، ما عليه من سبيل»(٢).

(١) التذكرة لابن حمدون (٢/ ٩٠-٩١)، و«ربيع الأبرار» (٣/ ١٨١).

(٢) أدب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم (ص٧٦-٧٧)، وقال محققه: «الذي يظهر والله أعلم أنَّ والي المدينة انذاك هو جعفر بن سليمان الهاشمي ابن عمَّ المنصور» كما في «البداية والنهاية» (أحداث سنة ١٤٦هـ).

[بين يهودي وعبد الملك]

وقف يهودي لعبد الملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين إن بعض خاصتك ظلمني فأنصفني منه وأذقني حلاوة العدل، فأعرض عنه، فوقف له ثانيًا، فلم يلتفت إليه، فوقف له مرة ثالثة، وقال يا أمير المؤمنين إنا نجد في التوراة المنزّلة علىٰ كليم الله موسىٰ صلوات الله وسلامه عليه: إنَّ الإمام لا يكون شريكًا في ظلم أحد حتىٰ يرفع إليه فإذا رفع إليه ذلك ولم يزله، فقد شاركه في الظلم والجور. فلمَّا سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث في الحال إلىٰ من ظلمه، فعزله وأخذ لليهودي حقه منه[(١)].

[شَريك القاضي وعيسىٰ بن موسىٰ]

ادَّعت لديه امرأة مجهولة علىٰ الأمير الخطير ابن عم الخليفة وثاني رجل في الدولة بعده عيسىٰ بن موسىٰ، فحكم عليه -شريك قاضي الكوفة- حكمًا غيابيًا، فامتنع الأمير من إنفاذه وتوسَّل إليه بكاتبه، فحبس القاضي الكاتب لأنه مشىٰ في حاجة لظالم، فاستعان عليه بجماعة من وجوه العراقيين من إخوان القاضي، فساقهم جميعًا إلىٰ الحبس، فغضب الأمير وبعث من أخرجهم. عند ذلك -أيها السادة- عصفت نخوة الشرع في رأس القاضي، وأخذته عزَّة الإيمان فقال: «والله ما طلبنا هذا الأمر (يعني المنصب)، ولكنهم أكرهونا عليه، وضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلَّدناه لهم». ثمَّ ختم

---

(١) المستطرف (١/ ١١٣)، و«مناقب السلطان سليمان بن عثمان» لابن جار الله بن فهد (ص٣٠٠-٣٠١)، وذكر ابن جار الله قبل هذه القصة، ويحكىٰ عن بعض العلماء ممَّن ولي القضاء أنَّه جمع أصحابَهُ، وحضَّهم علىٰ الشفاعة عندهُ ورغَّبهم في ذلك بقوله: «هذا هو الوقت الذي يحسن لكم فيه اتَّخاذ الأيادي عند الناس، فكُلٌّ من رأيتموه ذا حاجةٍ فأعلموني حاجته»

وينبغي للسلطان أن يخصَّ أتباعهُ علىٰ إبلاغ حاجة ذوي الحاجات، وإعلامه بالمظالمِ التي إذا بلغته ولم يزلها كان شريكًا فيها.

قمطره، وجمع سجلَّاته، واحتمل بأهله، فتوجَّه نحو بغداد، ووقعت الرجفة في الكوفة حين مشىٰ فيها خبر خروج القاضي، حتىٰ خاف الأمير علىٰ سلطانه، فلحق بالقاضي يناشده الله أن يرجع، فقال القاضي: «لا والله حتىٰ يردَّ أولئك إلىٰ الحبس، فما كنت لأحبس أنا وتطلق أنت»؛ فبعث الأمير من يرجعهم إلىٰ الحبس، والقاضي واقف ينتظر حتىٰ جاءه الخبر بأنهم قد أُرجعوا، فقال القاضي لغلامه: خذ بلجام دابة الأمير وسُقه أمامي إلىٰ مجلس الحكم، إلىٰ المسجد، أيها السادة، وهناك أجلسه بين يديه مع المرأة، فلما انتهت المحاكمة وحكم لها عليه، نهض إليه فسلَّم عليه بالإمارة وقال له: هل تأمر بشيء؟ فضحك الأمير وقال: بماذا آمر؟ وأي شيء بقي؟ قال له شُريك: أيها الأمير، ذاك حقُّ الشرع، وهذا حقُّ الأدب. فقام الأمير وهو يقول: «من عظَّم أمر الله، أذلَّ الله له عظماء خلقه!»[(١)].

[بين جعفر بن محمد وأبي جعفر المنصور]

قيل: إنَّ الذباب وقع علىٰ المنصور، فذبه عنه فعاد، فذبه حتىٰ أضجره؛ فدخل جعفر بن محمد فقال له المنصور: يا أبا عبد الله لِم خلق الله الذباب؟

فقال: ليذلَّ به الجبابرة[(٢)].

[نصيحة الفرج بن فضالة للمنصور]

عن المدائني، قال: مر المنصور بفرج بن فضالة، فلم يقم له، فقيل له في ذلك، فقال: خشيت أن يسألني الله تعالىٰ: لم قمت؟ ويسأله: لم رضيت؟

---

(١) فكر ومباحث للطنطاوي (ص١٠٤-١٠٥).

(٢) الوافي بالوفيات (١١/ ١٠٠).

أخبرنا أبو منصور محمد بن عيسىٰ بن عبد العزيز البزاز بهمذان، قال: حدثنا علي بن محمد بن الحسن القزويني الصيقلي، قال: سمعت بعض أصحابنا، قال: أقبل المنصور يوما راكبا، والفرج بن فضالة جالس عند باب الذهب، فقام الناس فدخل من الباب ولم يقم له الفرج، واستشاط غضبا ودعا به، فقال له: ما منعك من القيام حين رأيتني؟ قال: «خفت أن يسألني الله عنه لم فعلت؟، ويسألك لم رضيت؟ وقد كرهه رسول الله ﷺ». قال: فبكىٰ المنصور وقربه، وقضىٰ حوائجه[1].

[النوري والمعتضد]

قال ابن جهضم: حدثني أبو بكر الجلاء، قال: كان النوري (ت٢٩٥هـ) إذا رأىٰ منكرًا، غيره، ولو كان فيه تلفه، نزل يومًا، فرأىٰ زورقًا فيه ثلاثون دنًا، فقال للملاح: ما هذا؟

قال: ما يلزمك؟

فألح عليه، فقال: أنت -واللهِ- صوفي كثير الفضول، هذا خمر للمعتضد!

قال: أعطني ذلك المدرىٰ، فاغتاظ، وقال لأجيره: ناوله حتىٰ أبصر ما يصنع.

فأخذه، ونزل، فكسرها كلها غير دن، فأخذ، وأدخل إلىٰ المعتضد، فقال: مَن أنت ويلك؟!

قال: محتسب.

قال: ومن ولاَّك الحسبة؟

قال: الذي ولاَّك الإمامة يا أمير المؤمنين!

---

(١) تاريخ بغداد (١٤/ ٣٧٧).

فأطرقَ، وقال: ما حملك علىٰ فعلك؟

قال: شفقةً مني عليك!

قال: كيف سلم هذا الدن؟

فذكر أنَّه كان يكسر الدنان ونفسه مخلصة خاشعة، فلمَّا وصل إلىٰ هذا الدن، أعجبته نفسه، فارتاب فيها، فتركه(١).

[صدر الدين محمد بن عمر بن مكي القرشي الأموي العثماني]

كانت له وجاهة وتقدّم عند الدولة، ونادم الأفرم وغيره، وركب البريد الىٰ مصر في أيام الجاشنكير، واجتمع هو وابن عدلان وأفتوا بأن الملك الناصر محمد لا يصلح للملك، ورُمي بأنه نظم قصيدة هجا بها السلطان، ومن جملتها:

ما للصَّبي ومَا للمُلْكِ يطْلُبه   إنَّ المرادَ من الصبيانِ معلومُ

وعمل أعداؤه الىٰ أن أوصلوا القصيدة الىٰ السلطان، فكانت في سولفه يخرجها كل يوم، ويقرؤها، وأراد الصاحب فخر الدين بن الخليلي القبض عليه تقرّبًا الىٰ الملك الناصر، فلما أحسّ بذلك هرب هو الىٰ السلطان، وجاء إليه وهو علىٰ غزة، حكىٰ قاضي القضاة جلال الدين القزويني، قال: بينما أنا جالس عند السلطان بغزة فإذا بالأمير سيف الدين بكتمر الحاجب قد دخل، وقال: يا خوند صدر الدين بن الوكيل.

فقال: يحضر فلما دخل به بكتمر الحاجب، قال له: بُس الأرض.

فقال: مثلي ما يبوس الأرض إلا لله تعالىٰ.

---

(١) السير (١٤/ ٧٦).

فقال: فجمعت ثيابي لئلا تلحقني طراطيش دمه، لما نعلمه من أنفاس السلطان فيه.

فقال له: والك، أنت فقيه تركب علىٰ البريد، وتروح من دمشق الىٰ مصر لتدخل بين الملوك وتغير الدول وتهجوني؟

فقال: حاشىٰ لله يا خوند، وإنما أعدائي وحسّادي نظموا ما أرادوا علىٰ لساني، ولكن هذا الذي قلته أنا، وأخرج قصيدة تجيء مئة بيت، وأنشدها في وزن تلك ورويّها، فأعجب السلطان وعفا عنه(١).

[حيوة بن شريح يلبس ويتجهز للموت]

عن محرز بن يسار اليشكري، قال: قدم أبو عون مصر، وقتل بها من قتل، واستولىٰ علىٰ البلد، أرسل إلىٰ حيوة بن شريح: ائتني، قال: فجاء، فدخل عليه، قال: فقال: إنا معشر الملوك لا نعصىٰ، فمن عصانا قتلناه، قد وليتك القضاء.

قال: أو آمر أهلي؟

قال: اذهب.

قال: فجاء حيوة بن شريح إلىٰ أهله، فغسل رأسه ولحيته، ونال شيئًا من طيب، ولبس أنظف ما قدر عليه من الثياب، قال: ثمَّ جاء فدخل عليه، قال: فقال: من جعل السحرة أولىٰ بما قالوا منا: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ [طه: ٧٢] فلستُ أتولىٰ لك شيئًا، قال: فأذن له فرجع(٢).

---

(١) أعيان العصر (٥/ ٩-١٠).

(٢) أخبار الشيوخ للمروذي (ص١٠٨-١٠٩).

[نصح مطرف بن الشخير ليزيد بن المهلب]

وكان يزيد ذا تيه وكبر، ورآه مطرف بن الشخير يسحب حلته، فقال له: إنَّ هذه مشيةٌ يبغضها الله.

قال: أو ما تعرفني؟

قال: «بلىٰ، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة»[١].

[نصح محدث إفريقيا عبد الرحمن بن أنعم لأبي العباس السفاح]

قال إسماعيل بن عياش: ولي السفاح، فظهر جور بإفريقية، فوفد ابن أنعم علىٰ أبي جعفر مشتكيًا، ثمَّ قال: جئت لأعلمك بالجور ببلدنا، فإذا هو يخرج من دارك!

فغضب، وهمَّ به.

وقيل: قال له: كيف لي بأعوان؟

قال: أفليس عمر بن عبد العزيز كان يقول: الوالي بمنزلة السوق، يجلب إليه ما ينفق فيه؟

فأطرق طويلًا، فأومأ إلي الربيع الحاجب بالخروج.

وقيل: وفد علىٰ المنصور بالكوفة، فوعظه، وصدعه بالحق.

---

(١) السير (٥/ ٥٠٥)، وانظر: «وفيات الأعيان» (٦/ ٢٨٤)، وبنحوه في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٨٤)، عن مالك بن دينار، إنَّه لقي بلال بن أبي بردة في الطريق والناس يطوفون حوله فقال له: ما تعرفني؟ قال: «بلىٰ أعرفك؛ أولك نطفة، وأوسطك جيفة، وأسفلك دودة» قال: فهموا أن يضربوه فقال لهم: هذا مالك بن دينار فتركه ومضىٰ.

قال ابن إدريس: ولي قضاء إفريقية لمروان الحمار[1].

ودخل يومًا علىٰ المنصور، فقال: يا ابن أنعم، ألا تحمد الله الذي أراحك مما كنت فيه، ومما كنت ترىٰ بباب هشام وذوي هشام؟

فقال له عبد الرحمن: ما أمر كنت أراه بباب هشام إلا وأنا أرىٰ اليوم منه طرفًا.

قال: فكبا لها أبو جعفر، ثمَّ قال له: فما منعك أن ترفع ذلك إلينا، وأنت تعلم أن قولك عندنا مقبول؟

فقال: «إنِّي رأيت السلطان سوقًا، وإنمَّا يرفع إلىٰ كل سوق ما يجوز فيها»، قال: فكبا لها أبو جعفر، ثمَّ رفع رأسه فقال: كأنَّك كرهت صحبتنا؟، فقال: «ما يدرك المال والشرف إلا في صحبتك، ولكنِّي تركت عجوزًا، وإنِّي أحبّ مطالعتها، فقال: اذهب فقد أذنّا لك»[2].

[نصيحة ابن الجعد للمأمون]

قال عبد الرزاق بن سليمان بن علي بن الجعد: سمعت أبي، يقول: لما أحضر المأمون أصحاب الجوهر، فناظرهم علىٰ متاع كان معهم، ثمَّ نهض المأمون لبعض حاجته، ثم خرج، فقام له كل من كان في المجلس إلا ابن الجعد، فإنَّه لم يقم، قال: فنظر إليه المأمون كهيئة المغضب، ثم استخلاه، فقال له: يا شيخ ما منعك أن تقوم لي كما قام أصحابك؟ قال: أجللت أمير المؤمنين للحديث الذي نأثره، عن النبي ﷺ قال: وما هو؟ قال علي بن الجعد: سمعت المبارك بن فضالة، يقول: سمعت الحسن،

---

(١) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ترجمة (عبد الرحمن بن أنعم الإفريقي) (٦/ ٤١١-٤١٢)، وقيل: كان أول مولود ولد في الإسلام بإفريقية، وفي هذا نظر!! كما قاله الذهبي. ووصفه بقوله: «قاضي إفريقية، وعالمها، ومحدثها علىٰ سوء في حفظه».

(٢) طبقات علماء القيروان (١/ ١٥٥).

يقول: قال النبي ﷺ: «**من أحب أن يتمثل له الرجال قياما، فليتبوأ مقعده من النار**». قال: فأطرق المأمون متفكرا في الحديث، ثم رفع رأسه، فقال: لا نشتري إلا من هذا الشيخ، قال فاشترىٰ منه ذلك اليوم بقيمة ثلاثين ألف دينار[1].

[نصح أبو عبد الله الزُّبيدي رحمه الله]

وكان أبو عبد الله محمد بن يحيىٰ الزبيدي: صبورًا علىٰ الفقر لا يشكو.

قال ابن الجوزي: كان يقول الحق وإنْ كان مرًا، لا تأخذه في الله لومة لائم.

قيل: دخل علىٰ الوزير الزينبي، وعليه خلعة الوزارة، وهم يهنئونه.

فقال: هو ذا يوم عزاء لا يوم هناء.

فقيل: ولم.

قال: أهنئ علىٰ لبس الحرير؟![2].

[نصح حفص بن عمر الجزري[3] لابن الأغلب]

كان عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب من أجمل الناس، وكان قد جعل علىٰ كل زوج[4] تحرث ثمانية دنانير، فضاق الأمر بالناس؛ فقدم حفص مع رجال صالحين من أهل الجزيرة فدخلوا علىٰ أبي العباس، فقال له حفص: «أيها الأمير، اتق الله الذي إليه مصيرك، وارحم شبابك هذا،

---

(١) تاريخ بغداد (١٣/ ٢٨١).

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٠/ ١٩٨)، ونعته الذهبي في «السير» (٢٠/ ٣١٦) «الإمام، القدوة، العابد، الواعظ».

(٣) جزيرة شريك المعروفة.

(٤) بقرتان، أو ثوران يتخذان للحرث.

واحذر علىٰ وجهك الجميل النار، وخفف عن الناس وأسقط عنهم ما وضعت علىٰ الأزواج من هذه الدنانير.

فقال له: لست أفعل، ولا أحطهم شيئًا، فخرجوا من عنده يريدون القيروان.

فقال لهم حفص: تصلون ركعتين تخلصون فيهما الدعاء، ونضرع إلىٰ الله تعالىٰ لعله يكفيناه، فإنَّا قد يئسنا من المخلوقين، فنرجع إلىٰ الخالق ﷻ، فتوضئوا للصلاة وصلوا ركعتين

ففعلوا، ثمَّ قال حفص: «اللهم إنَّ هذا الرجل الذي فضلته علىٰ عبادك في هذه الدنيا، ومكنته في بلادك قد ظلمنا، وحمل علينا ما لا نقوىٰ ولا نطيق دفعه، ولا نستطيع منعه فاكفناه، واحكم بيننا وبينه وأنت خير الحاكمين».

فما لبث أبو العباس إلا خمسة أيام، ثمَّ خرجت له قرحة عظيمة تحت أذنِه مات منها في اليوم السابع من دعائهم[١].

[عبرة]

وروي أنَّ رجلين تنازعا في أرض فأنطق الله لبنة من جدار تلك الأرض فقالت: إنِّي كنت ملكًا من ملوك ملكت الدنيا ألف سنة، ثمَّ متُّ وصرت رميمًا ألف سنة، فأخذني خزَّاف واتخذني خزفًا، ثمَّ أخذني وضربني لبنًا وأنا في هذا الجدار منذ كذا وكذا سنة، فلمَ تتنازعا في هذه الأرض؟![٢].

(١) طبقات علماء القيروان (١/ ٣٣٢).

(٢) سراج الملوك (ص٢٣).

[بين رجل صالح وسلطان كان يظهر المعاصي]

وحكي عن بعض سلاطين الإسلام أنَّه كان يجتمع مع من يجالسه علىٰ كثيرٍ من اللهو والفسوق، وكان في المدينة التي هو فيها رجلٌ صالح ينكر ما يبلغه من المنكرات، وإذا رأىٰ إناءً فيه خمرٌ كسره.

فمر يومًا من تحت دار السلطان، فقال للسلطان بعض جلاسه: هذا فلانٌ إذا رأىٰ إناءً من الخمرِ بيد أحد من الناس كسره، وإذا رأىٰ منكرًا غيره.

فأمر من يدخل إلىٰ مجلسه، ثم قال: أنت تنكر علىٰ الضعفاء من الناس ما تراه من المنكرات، وتكسر ما تجده عندهم من أواني الخمر، وهذه عندنا من الأواني ما تراه، فهل تستطيع أن تغير ذلك علينا؟

فقال له: أنا ضعيفٌ أنكر علىٰ مثلي من الضعفاءِ لقدرتي علىٰ ذلك، وأما أنت يا سلطان فكما قال الله ﷻ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]. فبكىٰ السلطان، وقال: وأنا أيضًا فأنكر عليَّ، وقم وارمِ بهذه الأواني من هذه الطاقاتِ، فقام ورمىٰ بها، وتاب السلطان، فلم يعد إلىٰ شيء مما كان عليه(١).

[نصيحة ابن سمعون لعضد الدولة]

قال أبو الثناء شكر العضدي: لما دخل عضد الدولة بغداد وقد هلك أهلها قتلًا وخوفًا وجوعًا للفتن التي اتصلت بين السنة والشيعة، فقال: آفة هؤلاء القصاص، فمنعهم، وقال: من خالف أباح دمه، فعرف

(١) رفع الأساطين للشوكاني (ص٢١-٢٢).

ابن سمعون[١]، فجلس علىٰ كرسيه، فأمرني مولاي، فأحضرته، فدخل رجل عليه نور، قال شكر: فجلس إلىٰ جنبي غير مكترث، فقلت: إنَّ هذا الملك جبار عظيم، ما أوثر لك مخالفته، وإنِّي موصلك إليه، فقبِّل الأرض وتلطف له واستعن بالله عليه.

فقال: الخلق والأمر لله.

فمضيت به إلىٰ حجرة قد جلس فيها الملك وحده، فأوقفته ثمَّ دخلت أستأذن، فإذا هو إلىٰ جانبي، وحول وجهه إلىٰ دار عز الدولة ثم تلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢] ثمَّ حول وجهه وقرأ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] ثمَّ أخذ في وعظه، فأتىٰ بالعجب، فدمعت عين الملك، وما رأيت ذلك منه قط، وشرك كمه علىٰ وجهه، فلما خرج أبو الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال الملك: اذهب إليه بثلاثة آلاف درهم وعشرة أثواب من الخزانة فإن امتنع فقل له: فرقها في أصحابك، وإن قبلها فجئني برأسه، ففعلت، فقال: إنَّ ثيابي هذه فصلت من نحوِ أربعين سنة ألبسها يوم خروجي وأطويها عند رجوعي، وفيها متعة وبقية، ونفقتي من أجرة دار خلفها أبي، فما أصنع بهذا؟

قلت: فرقها علىٰ أصحابك.

قال: ما في أصحابي فقير.

فعدت فأخبرته، فقال: الحمد لله الذي سلمه منَّا، وسلمنا منه[٢].

---

(١) الشيخ، الإمام، الواعظ الكبير، المحدث، أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عنبس البغدادي، شيخ زمانه ببغداد. مولده: سنة ثلاث مائة.

(٢) السير (١٦/٥٠٩-٥١٠)، وفيه: وسئل عن التصوف، فقال: «أمَّا الاسم، فترك الدنيا وأهلها، وأمَّا حقيقته، فنسيان الدنيا ونسيان أهلها».

[عبرة]

قال المهلب بن أبي صفرة: «عجبتُ لمن يشتري المماليك بماله كيف لا يشتري الأحرار بفعاله»[١].

[نصح الإمام سحنون رَحِمَهُ ٱللَّهُ لابن الأغلب]

وكان الإمام سحنون كما ذكر القاضي عياض في ترجمته في «ترتيب المدارك» قال أبو العرب: وكان لا يهاب سلطانًا، في الحق يقيمه عليه، ولما أكثر من رد الظلامات في رجال ابن الأغلب، وأبىٰ أن يقبل منهم الوكلاء علىٰ الخصومة إلا بأنفسهم: وجَّه إليه الأمير وقد شكوه إليه، بأنَّه يغلظ عليهم؛ فأرسل إليه ابن الأغلب وقال: إنهَّم فيهم غلظة وقد شكوك، ورأيت ممَّا فاتك من شرهم فلا تنظر في أمرهم.

فقال سحنون للرسول: ليس هذا الذي بيني وبينه، قل له: خذلتني خذلك الله. فلمَّا أنهىٰ الرسول الرسالة إلىٰ الأمير، قال له: ما نعمل به. إنَّما أراد الله.

فقال ابن أبي سليمان وغيره: إنَّ المحتسبين لم يكونوا يعرفون بإفريقية، حتىٰ كان سحنون جالسًا علىٰ باب داره، إذ مرَّ به حاتم الجراوي ومعه سبي من سبي تونس.

فقال سحنون لأصحابه: قوموا فأتوا بهم، حتىٰ خلوصهم من حاتم. أتوا بهم وهرب حاتم علىٰ برذونه وخرق ثيابه ودخل علىٰ الأمير فشكا أمره، فأرسل الأمير إلىٰ سحنون: إنهَّم أحرار ولا سبي عليهم وقد أطلقتهم، فرد الأمير إلىٰ سحنون لا بدَّ من ردهم. فأبىٰ سحنون، وقال للرسول: قلْ للأميرِ جعل الله حاتمًا شفيعك يوم القيامة. أقسم عليه ليبلغن

(١) المستطرف في كل فن مستطرف (ص١٧٤).

ذلك إلىٰ الأمير، ثمَّ قال سحنون: هذا الأسود، يعني حاتمًا، يمضي هكذا. فأمر بسجنه، فطرحت عمامته في عنقه، وحمل إلىٰ الحبس، فلحقه معتب، وقال له: يا حاتم لا تلق الشر بين الأمير والقاضي. وأعطاه معتب من عنده سبعة دنانير. فخلىٰ حاتم عن السبي، وأخبر معتب سحنون بذلك، فأمر بإطلاق حاتم من السجن(١).

[نصيحة عكرمة بن خالد لنافع بن أبي علقمة]

عن عكرمة بن خالد أنَّه دخل علىٰ نافع بن أبي علقمة الكناني، وهو أمير علىٰ مكة يعوده فرآه ثقيلًا، فقال له: اتقِ الله وأكثر ذكره، فولىٰ بوجهه إلىٰ الجدار فلبث ساعة ثمَّ أقبل عليَّ، فقال: يا أبا خالد ما أنكر ما تقول، فلوددت أنَّي كنتُ عبدًا مملوكًا لبني فلان من كنانة أشقىٰ أهل بيت من كنانة، وأنَّي لم أل من هذا العمل شيئًا قط(٢).

[أبو الحسين النوري والمعتضد]

كان النوري إذا رأىٰ منكرًا، غيره، ولو كان فيه تلفه، نزل يومًا، فرأىٰ زورقًا فيه ثلاثون دنًا، فقال للملاح: ما هذا؟

قال: ما يلزمك؟

فألح عليه، فقال: أنت -والله- صوفي كثير الفضول، هذا خمر للمعتضد.

قال: أعطني ذلك المدرىٰ، فاغتاظ، وقال لأجيره: ناوله حتىٰ أبصر ما يصنع.

فأخذه، ونزل، فكسرها كلها غير دن، فأخذ، وأدخل إلىٰ المعتضد، فقال: من أنت ويلك؟!

---

(١) ترتيب المدارك (٤/ ٦٢-٦٣).

(٢) تاريخ بغداد (ترجمة: بشر بن بشار) (٧/ ٥٦٦).

قال: محتسب.

قال: ومن ولاك الحسبة؟

قال: الذي ولاك الإمامة يا أمير المؤمنين!

فأطرق، وقال: ما حملك علىٰ فعلك؟

قال: شفقة مني عليك!

قال: كيف سلم هذا الدن؟

فذكر أنه كان يكسر الدنان ونفسه مخلصة خاشعة، فلما وصل إلىٰ هذا الدن، أعجبته نفسه، فارتاب فيها، فتركه(١).

[أبو الحسن علي بن الحسن الصندلي النيسابوري وكلامه لملك شاه]

وكان يعظ علىٰ عادة أهل خراسان وورد مع السلطان طغريل إلىٰ بغداد، ولما رجع إلىٰ نيسابور انقطع وتزهد، فلم يدخل علىٰ السلاطين.

وقال له السلطان ملك شاه في جامع نيسابور: لِمَ لا تجيء إليَّ؟

فقال: أردتُ أن تكون من خير الملوك حيث تزور العلماء، ولا أكون من شر العلماء حيث أزور الملوك(٢).

[الفقيه الواعظ المعمر بن علي بن المعمر بن أبي عمامة البقال البغدادي (ت٥٠٦هـ) ينصح الوزير نظام الملك]

قال: الحمدُ لله ولي الإنعام، وصلىٰ الله علىٰ من هو للأنبياء ختام، وعلىٰ آله سُرج الظلام، وعلىٰ أصحابه الغر الكرام. والسلام علىٰ صدر

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٧٦).

(٢) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١/ ٣٥٧).

الإسلام. ورَضِيّ الإمام. زَينه اللهُ بالتقوىٰ، وختم له بالحسنىٰ، وجمع له بين خير الآخرة والدنيا.

معلوم يا صدر الإسلام، أنَّ آحاد الرعية من الأعيان مخيَّرون في القاصد والوافد: إن شاءوا وصَلُوا، وإن شاءوا فَصلُوا، وَأَمَّا من توشح بولاية فليس مخيرًا في القاصد والوافدة؛ لأن من هو علىٰ الخليفة أَمير، فهو في الحقيقة أجير، قد باع زمنه وأخذ ثمنه. فلم يبق له من نهاره ما يتصرف فيه علىٰ اختياره، ولا له أن يصلي نفلًا، ولا يدخل معتكفًا، دون الصدد لتدبيرهم، والنَّظر في أمورهم، لأنَّ ذلك فضل، وهذا فرض لازم.

وأنتَ يا صدر الإسلام، وإن كنت وزير الدولة، فأنت أجير الأمة، استأجرك جلال الدولة بالأجرة الوافرة لتنوب عنه في الدنيا والآخرة، فأمَّا في الدنيا: ففي مصالح المسلمين. وأمَّا في الآخرة: فلتجيب عنه رب العالمين. فإنَّه سيقفه بين يديه، فيقول له: ملَّكتُكَ البلاد، وقلدتك أزمة العباد. فما صنعتَ في إفاضة البذل، وإقامة العدل؟ فلعله يقول: يا رب اخترتُ من دولتي شجاعا عاقلا، حازما فاضلا، وسمَّيتُه قوام الدين ونظام الملك، وها هو قائم في جملة الولاة وبسطت بيده في الشرط والسيف والقلم، ومكنته في الدينار والدرِهم، فاسأله يا رب: ماذا صنع في عبادك وبلادك؟ أفتحسن أن تقولَ في الجواب: نعم تقلدتُ أمور البلاد وملكت أزمة العباد وبثثت النوال، وأعطيت الإفضال، حتىٰ إذا قربت من لقائك، ودنوت من تلقائك، اتخذت الأبواب والبواب، والحِجاب والحجاب ليصُدُّوا عني القاصد، ويردُّوا عني الوافد؟

فاعمر قبرك كما عمرت قصرك، وانتهز الفرصة ما دام الدهر يقبل أمرك، فلا تعتذر، فما ثمَّ من يقبل عذرك.

وهذا ملك الهند. وهو عابد صنم ذهبَ سمعُه، فدخل عليه أهل مملكته يعزونه في سمعه، فقال: ما حسرتي لذهاب هذه الجارحة من

بدني، ولكن تأسفي لصوت المظلوم لا أسمعه فأغيثه، ثم قَالَ: إن كان قد ذهب سمعي فما ذهب بصري فليؤمر كل ذي ظلامة أن يلبس الأحمر، حتىٰ إذا رأيتُه عرفتُه فأنصفته.

وهذا «أنوشروان» قَالَ له رسول ملك الروم: لقد أقدرتَ عدوَّك عليك بتسهيل الوصول إليك. فقال: إنما أجلس هذا المجلس لأكشف ظُلاَمَةً وأقضي حاجة.

وأنتَ يا صدر الإسلام، أحق بهذه المأثرة، وأولىٰ بهذه وأحرىٰ من أعدَّ جوابا لتلك المسألة، فإنَه الله الذي ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ [مَرْيَمَ: ٩٠] في موقفٍ ما فيه إلا خاشع، أو خاضع أو مقنع، لينخلع فيه القلب، ويحكم فيه الرب، ويعظم فيه الكرب، ويشيب فيه الصغير، ويعزل فيه الملك والوزير، ﴿يَوۡمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفَجْرِ: ٢٣] ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٍ مُّحۡضَرًا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدًا﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٣٠].

وقد استجلبت لك الدعاء، وخلدت لك الثناء، مع براءتي من التهمة. فليس لي -بحمد الله تعالىٰ- في أرض الله ضيعة ولا قرية، ولا بيني وبين أحد خصُومة، ولا بي -بحمد الله تعالىٰ- فقر ولا فاقة.

فلمَّا سمع نظام الملك هذه الموعظة بكىٰ بكاءً شديدًا، وأمر له بمائة دينار.

فأبىٰ أن يأخذها، وقال: أنا في ضيافة أمير المؤمنين. ومن يكن في ضيافة أمير المؤمنين يقبح عليه أن يأخذ عطاءَ غيره.

فقال له: فُضَّها علىٰ الفقراء.

فقال: الفقراء علىٰ بابك أكثر مِنْهُمْ علىٰ بابي، ولم يأخذ شيئًا(١).

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٢٥٠-٢٥٢).

[بين محمد بن المظفر بن بكران الحموي والمشطب الفرغاني]

شهد عنده -الحموي- رجل من كبار الفقهاء والمناظرين يقال له: المشطب بن محمد بن أسامة الفرغاني فلم يقبله لما رأىٰ عليه من الحرير وخاتم الذهب، فقال له المدعي: إنَّ السلطان ووزيره نظام الملك يلبسان الحرير والذهب. فقال القاضي الشامي: والله لو شهدا عندي علىٰ باقة بقلٍ ما قبلت شهادتهما[1].

[إنكار شمس الدين بن مفلح الراميني علىٰ تيمور كوركان]

وهذا الإمام الهمام شمس الدين قاضي القضاة أبي إسحاق إبراهيم بن قاضي القضاة شمس الدين بن مفلح الراميني الأصل ثمَّ الدمشقي ولد صاحب الفروع، وذلك أنَّ تيمور كوركان ويقال له (تيمور لنك) لما فعل بالشام وأهلها ما فعل، وعمَّ بظلمه البر والبحر والسهل والجبل، وكان قد طلب الصلح، واجتمع به أئمة الإسلام وأظهر الحلم والصفح، وكان عبد الجبار المعتزلي إمامه.

وهو الذي يملك زمامه، يناظر علماء السنة بحضرة تيمور. ولا يمكنهم الجواب عن أكثر الأمور. فطلب من العلماء كتابة سؤال يتوصل به إلىٰ الإنكار والضلال وهو أن يكتبوا ويختموا الكتاب، بأن فضيلة النسب مقدمة علىٰ فضيلة العلم بلا ارتياب، فتقاعسوا وأحجموا، وعلىٰ الجواب وجموا، وعلم كل منهم أنه قد ابتلي، فابتدر بالجواب الإمام شمس الدين الحنبلي فقال: درجة العلم أعلىٰ من درجة النسب، ومرتبتها عند الخالق والمخلوق أسنىٰ الرتب، والهجين الفاضل يقدم علىٰ الهجان الجاهل، والدليل في هذا جلي.

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ١٥٢-١٥٣).

وهو إجماع الصحابة علىٰ تقديم أبي بكر علىٰ علي، وقد أجمعوا أن أبا بكر أعلمهم. وأثبتهم قدما في الإسلام وأقدمهم، وإثبات هذه الدلالة، من قول صاحب الرسالة «**لا تجتمع أمتي علىٰ ضلالة**».

ثم أخذ القاضي شمس الدين في نزع ثيابه، مصيخا لتيمور وما يصدر من جوابه، ففكك أزراره، وقال لنفسه إنما أنت إعارة. وكأس الموت لا بد من شربها، فسواء ما بين بعدها وقربها، والموت علىٰ الشهادة، من أفضل العبادة، وأفضل أحوالها لمن علم أنه إلىٰ الله صائر، كلمة حق عند سلطان جائر.

فقال له تيمور ما حملك علىٰ نزع ثيابك؟ فقال له الشيخ: بذلًا لنفسي في سبيل الله صابرًا لعقابك. فقال له: قد وسعك حلمنا، فلا تعدم سلمنا.

فقال له أيُّها السلطان الجليل: حيث مننت بالحلم علىٰ هذا العبد الذليل، فليكن الأمان مصحوبًا بالتفضيل؛ من صولة بعض العسكر الذي عدة مله تفوق علىٰ أمم بني إسرائيل. ففيهم من ابتدعوا بدعًا، وقطعوا في مذاهبهم قطعًا، ومزقوا دينهم وكانوا شيعًا.

ولا شك أنَّ مجالس حضرتك تنقل، وتخص في سريانها وتشمل، وإذا ثبت هذا الجواب عني، ووعاه أحد عن سني خصوصًا من ادعىٰ موالاة علي، ويسمَّىٰ في رفضه من والىٰ أبا بكر بالناصبي، وتحقق منِّي يقيني، وأنَّه لا ناصر لي يقيني، فإنَّه يقتلني جهارًا، ويريق دمي نهارًا. وإذا كان كذلك فأنا أستعد لهذه السعادة، وأختم أحكام القضاء بالشهادة.

فقال له تيمور: لله درك ما أفصحك، وأنصرك لمقالتك، وأنصحك، فأمر بجماعة يشيعونه، ويحرسونه من أعدائه في ذهابه لداره ويحفظونه، فأحاطت به الجند إحاطة الهالة بالقمر، وصاروا حوله كالسور حول

المسور. ومع هذا فقد وكزه بعض الطغام، من تلك العساكر الرعاع الغشام، فكان ذلك سببًا لحصول السعادة، فجرىٰ ما جرىٰ وختم الله عمله بالشهادة(١).

[العالم الشهيد ابن النابلسي والحاكم العبيدي]

قال أبو الفرج بن الجوزي: أقام جوهر القائد لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النابلسي، وكان ينزل الأكواخ، فقال له: بلغنا أنَّك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم، وجب أنْ يرمي في الروم سهمًا، وفينا تسعة.

قال: ما قلت هذا.

بل قلت: إذا كان معه عشرة أسهم، وجب أن يرميكم بتسعة، وأن يرمي العاشر فيكم أيضًا؛ فإنَّكم غيرتم الملة، وقتلتم الصالحين، وادعيتم نور الإلهية، فشهره ثمَّ ضربه، ثمَّ أمر يهوديًا فسلخه(٢).

---

(١) غذاء الألباب (١/ ٢٣٢-٢٣٣)، وقد أشار إلىٰ هذه القصة ابن عرب شاه في (تاريخ تيمور)، والشيخ العليمي في (المقصد الأحمد)، تراجم أصحاب الإمام أحمد -رضوان الله عليهم أجمعين-.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٤٩-١٥٠) ووصف الذهبي بـ «الإمام، القدوة، الشهيد»، وهو أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملي، ويعرف بابن النابلسي.
حدث عن: سعيد بن هاشم الطبراني، ومحمد بن الحسن بن قتيبة، ومحمد بن أحمد بن شيبان الرملي.
وروىٰ عنه: تمام الرازي، وعبد الوهاب الميداني، وعلي بن عمر الحلبي.
قال أبو ذر الحافظ: سجنه بنو عبيد، وصلبوه علىٰ السنة، سمعت الدارقطني يذكره، ويبكي، ويقول: كان يقول، وهو يسلخ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].
حكىٰ ابن السعساع المصري، أنه رأىٰ في النوم أبا بكر بن النابلسي بعدما صلب وهو في أحسن هيئة، فقال: ما فعل الله بك؟ فقال:

حَبَانِي مَالِكِي بِدَوامِ عِزٍّ ... وَوَاعَدَنِي بِقُرْبِ الانْتِصَارِ
وَقَرَّبَنِي وَأَدْنَانِي إِلَيْهِ ... وَقَالَ: انْعَمْ بعَيْشٍ فِي جِوَارِي.

[أبو العيناء وصديق له ولي ولاية]

عن أبي بكر أحمد بن محمد بن عيسىٰ المكي، قال: كتب أبو العيناء (ت٢٨٢هـ) إلىٰ صديقٍ له ولي ولاية: أمَّا بعد، فإنِّي لا أعظكَ بموعظةِ الله؛ لأنَّك عنها غني، ولا أخوفك إيَّاه لأنَّك أعلم به مني، ولكنِّي أقول كما قال الأول:

أحارَ ابن بدرٍ قد وُلِّيت ولايةً فكُنْ جرزًا منَها تخونُ وتسرِقْ

وكاثر تميمًا بالغنىٰ إنمَّا الغنَىٰ لسانٌ بهِ المرءُ الهيوبةَ ينطقْ

واعلم أنَّ الخيانة فطنة، والأمانة حرفة، والجمع كيّس، والمنع صرامة، وليس كل يوم ولاية، فاذكر أيَّام العطلة، ولا تحقرنَّ صغيرًا، فإنَّ من الدور إلىٰ الدور، وابلاء الولاية رقدة، فتنبَّه قبل أنْ تُنبَّه، وأخو السلطان أعمىٰ عن قليلٍ سوفَ يبصر، وما هذه الوصيةُ التي أوصىٰ بها يعقوب بنيه، ولكن رأيت الحزم في أخذ العاجل، وترك الأجل[1].

[الفقيه منذر بن سعيد البلوطي ووصيته للحاكم]

وذكر أبن أصبغ لهمداني عن منذر القاضي أنَّه خطب يومًا وأراد التواضع فكان من فصول خطبته أن قال: حتىٰ متىٰ وإلىٰ متىٰ أعظ غيري وأتعظ، وأزجر ولا أزدجر، أدل الطريق علىٰ المستدلين وأبقىٰ مقيمًا مع الحائرين؛ كلا إنَّ هذا لهو البلاء المبين ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾. اللهم فرغني لمّا خلقتني له ولا تشغلني بما تكفلت لي به، ولا تحرمني، وأنا أسألك ولا تعذبني، وأنا أستغفرك يا أرحم الراحمين، قال: وكان الخليفة الناصر لدين الله كلفًا بعمارة الأرض،

---

(١) تاريخ بغداد (ترجمة أبي العيناء) (٤/ ٢٨٤)، أصله من اليمامة، ومولده بالأهواز، ومنشؤه بالبصرة، وبها كتب الحديث وطلب الأدب.

وإقامة معالمها، وتخليد الآثار الدالة علىٰ قوة الملك وعزة السلطان؛ فأفضىٰ به الإغراق في ذلك إلىٰ أن ابتنىٰ مدينة الزهراء البناء الذي شاع ذكره، واستفرغ وسعه في تنميقها وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها، فأراد القاضي منذر أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة، والتذكير بالإنابة والرجوع؛ فأدخل في خطبته فصًا مبتدئًا بقوله تعالىٰ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾. ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ وهي دار القرار ومكان الجزاء.

ووصل ذلك بكلام جزل، وقول فصل، ومضىٰ في ذم تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته، والإسراف في الإنفاق عليه؛ فجرىٰ طلقًا، وانتزع فيه قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ الآية﴾ ... [١] إلىٰ آخر الكلام.

وذكر الذهبي في «السير»، أنَّ أمير المؤمنين عمل في بعض سطوح الزهراء قبة بالذهب والفضة، وجلس فيها، ودخل الأعيان، فجاء منذر بن سعيد، فقال له الخليفة كما قال لمن قبله: هل رأيت أو سمعت أن أحدًا من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا؟ فأقبلت دموع القاضي تتحدر، ثمَّ قال: والله ما ظننت يا أمير المؤمنين أنَّ الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ، أن أنزلك منازل الكفار، قال: لم؟

فقال: قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ

(١) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (٢/ ٢٧٧-٢٧٨)، وانظر ترجمة الفقيه في «مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس» (ص٨٩/ وما بعد).

لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٤] فنكس الناصر رأسه طويلًا، ثم قال: جزاك الله عنَّا خيرًا وعن المسلمين، الذي قلت هو الحق، وأمر بنقض سقف القبة[١].

[نصيحة الفقيه الخبوشاني وإنكاره علىٰ المظفر تقي الدين عمر]

وهذا الفقيه الكبير، الزاهد الخبوشاني أبو البركات محمد بن موفق بن سعيد جاءه حاجب نائب مصر المظفر تقي الدين عمر، وقال له: تقي الدين يسلم عليك.

فقال الخبوشاني: قل: بل شقي الدين لا سلم الله عليه.

قال: إنَّه يعتذر، ويقول: ليس له موضع لبيع المزر[٢].

قال: يكذب.

قال: إن كان ثم مكان، فأرناه.

قال: ادن.

فدنا، فأمسك بشعره، وجعل يلطم علىٰ رأسه، ويقول: لست مزارًا فأعرف مواضع المزر، فخلصوه منه.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٧٧).

(٢) **(المزر)**: بكسر الميم، نبيذ يتخذ من الذرة، وقيل: من الشعير أو الحنطة كما في «النهاية» لابن الأثير (٤/ ٣٢٤)، وكأنه يشبه (البيرة) في أيامنا.
وكان لتقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين مواضع يباع فيها المزر علىٰ ما قيل، فكتب الشيخ الخبوشاني ورقة إلىٰ صلاح الدين يذكر له هذا، فسيرها صلاح الدين إلىٰ ابن أخيه وطلب منه ارضاء الشيخ، فركب إليه، وطلب منه حاجبه أن يقف بباب مدرسة الخبوشاني ريثما يهيئ له الأمور فتحادث مع الشيخ بهذا الحديث المذكور. انظر: (تاريخ الإسلام) (وطبقات) السبكي وغيرهما).

وعاش عمره لم يأخذ درهمًا لملك، ولا من وقف، ودفن في الكساء الذي صحبه من بلده، وكان يأكل من تاجر صحبه من بلده[١].

[ابن أبي قباس وابن طولون]

ترجم الوزير ابن العديم في لابن أبي قباس خطيب جامع طرسوس، وإمام أهلها، فقال: قرأت بخط أبي عمرو القاضي الطرسوسي في (كتاب سير الثغور) في ذكر أئمة المسجد الجامع بطرسوس، قال: وقد صلىٰ بأهل هذا المسجد أئمةٌ من أهل العفاف والستر واليقين والتقوىٰ والصبر والزهادة والعبادة وسموِّ الذكر منزلتهم في الدنيا والآخرة عظيمة، ومواقع منافع الإسلام وأهله بهم حسنة جسيمة، يفتخر بذكرهم عند القرّاء، وتستنزل بهم بركات السماء، منهم: ابن أبي قباس، وكان من «فرسان المحراب».

حدثني أبو حفص عمر بن أحمد البروجردي المقرئ، شيخ عابد فاضل، قال: حدثني أستاذي السوسنجردي أن ابن أبي قباس كان إذا قرأ في محراب طرسوس سُمعت قراءته في سوق الصفَّارين، وكان إذا خطب حيّر السامعين وألهىٰ المحزونين.

وقال أبو عمرو: حدثني أحمد بن هرون الكوفي -كهل من أبناء طرسوس ووجوهها- قال: حدثني أبي قال: كتب السلطان قديمًا إلىٰ الاقاليم بسَبّ ابن طولون، فسُبّ علىٰ منبر طرسوس علىٰ لسان ابن أبي قباس، كما سُبّ بكل مكان.

وحج ابنُ أبي قباس فسلك الرَّكب الذين كانوا معه طريق مصر، فدخلوها في شهر رمضان، وكان يصلي بابن طولون عشرةُ أئمة كلٌّ واحد منهم تسليمة واحدة.

---

(١) السير (٢١/٢٠٦-٢٠٧).

فصار ابن أبي قباس الىٰ باب دار ابن طولون، فدخل في جملتهم، ووقع للحجاب والبوابين أن ابن أبي قباس أحد العشرة المرسومين للصلاة -أي: ظنوه أحدهم-.

فلما أقيمت تقدَّم وكلُ واحدٍ من العشرة يحسبُه يصلي عن إذنٍ ومؤامرة -أي: مشاورة وترتيب-، ومنهم من يحسبُه أحدَهم، فافتتح فقرأ فحيّر السامعين شجىٰ وطِيبا، وتمموا صلاتهم، فلما أرادوا النهوض للتراويح أمر ابنُ طولون أن يصلي ترويحته ففعل، ثم أخرىٰ، ثم أخرىٰ حتىٰ فرغ من جميعها، ومن الوتر، وانصرفوا، ولم يصل أحدٌ من العشرة فرضًا ولا نافلة.

فسأل ابن طولون حُجَّابه عنه، فقالوا: ما نعرفه ولا رأيناه قبل وقتنا هذا، وقال بعضهم: ما ظنناه إلّا واحدًا من العشرة المرسومين بالصلاة.

فتقدم ابن طولون الىٰ الحُجَّاب إن عاد ألا يحجب فعاد لليلته المقبلة وتقدَّم وصلىٰ، فلما أراد الانصراف استوقفه الحُجَّاب، وسألوه: من هو؟ ومن أين هو؟ فما أجابهم.

فردَّ الىٰ ابن طولون فخاطبه وسأله عن اسمه ونسبه، فقال: انا ابن أبي قباس، فسُرَّ به سرورًا عجيبًا، وأمره بالصلاة به ما بقي من الشهر وحده، وأمره بسبِّه بحيثُ يسمعُ كما سبَّه علىٰ منبر طرسوس!، فاستعفاه فأبىٰ عليه، واستعفاه فما وجد له منه محيصًا، وسأله الأمان فآمنه وقام فخطب، فلما وصل إلىٰ حيث يسُب رخَّم واختصر فحتَّم عليه ألا يغادر من السَّبِّ حرفًا واحدًا إلّا لفظ به، ففعل وأتىٰ عليه عن آخره، فأمر له بألف دينار، وزوده الىٰ مكة، وحمله فحج وعاد إلىٰ طرسوس شاكرا لابن طولون حامدًا![(١)].

---

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب (١٠/٤٧٠٤).

[إنكار إسماعيل بن رباح
علىٰ والي الجزيرة ابن أبي العنبر]

وذكر عن فضل بن أبي العنبر، وكان واليًا علىٰ الجزيرة، قال: «قدمت بزواملي[١] وأعواني، فنزلنا ببعض حصون الجزيرة التي علىٰ ساحل البحر، فأدخلوا ثقلي في مسجد من مساجد الحصون، وأدخلوا الحصن كلابًا وطيورًا كانت معهم.

قال الفضل: «فلمَّا دخلت رآني إسماعيل بن رباح، فأتاني فقال: «ما هذا الذي أحدثت؟ أمَا ترىٰ ما فعل أعوانكَ في بيتٍ من بيوتِ الله ﷻ؟» فصحت عليهم، وأخرجتهم بالزجر.

قال: فنظر إليّ إسماعيل وقال: حقن الله دمك!

قال: فشهد فضل معارك كثيرة فكان يقول لهم: «والله لو حملوني علىٰ الأسنة ما هراقت مني محجمة دم؛ لأنَّ دعوة الرجل الصالح بردت علىٰ قلبي» فمات فضل سويًا علىٰ فراشه لم يجرح جرحًا حتىٰ مات[٢].

[مجموعة من الحكايات والقصص ذكرها ابن قدامة رحمه الله]

وذكر في مختصر منهاج القاصدين نقلا من كتاب «المصباح المضيء» وأنا أنتخب منه ها هنا حكايات.

[نصيحة سعيد بن عامر لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه]

قال سعيد بن عامر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنِّي موصيك بكلمات من جوامع الكلام ومعالمه: اخشَ الله في النَّاسِ، ولا تخشَ النَّاسَ في الله، ولا يخالف قولك فعلك، فإنَّ خير القول ما صدقه الفعل، وأحب

(١) جمع زاملة. ما يحمل عليه من الإبل وغيرها (المعجم الوسيط: زمل).

(٢) طبقات علماء القيروان (١/ ٣٣٥-٣٣٦).

لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسكَ وأهل بيتك، وخض الغمرات إلىٰ الحق حيث علمته، ولا تخف في الله لومة لائم. قال: ومن يستطع ذلك يا أبا سعيد؟ قال: من ركب في عنقه مثل الذي ركب في عنقك.

[شيخ من الأزد يعض معاوية ﵁]

ودخل شيخ من الأزد علىٰ معاوية، فقال: اتقِ الله يا معاوية، واعلم أنك كل يوم يخرج عنك، وفىٰ كل ليلة تأتىٰ عليك لا تزداد من الدنيا إلا بعدًا، ومن الآخرة إلا قربًا، وعلىٰ إثرك طالب لا تفوته، وقد نصب لك علم لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك أن لحقك الطالب، وإنا وما نحن فيه وأنت زائل، والذي نحن صائرون إليه باق، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

[أبو حازم يعض سليمان بن عبد الملك]

ودخل سليمان بن عبد الملك المدينة، فأقام بها ثلاثًا، فقال: ما هاهنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ يحدثنا؟

فقيل له: ها هنا رجل يقال له أبو حازم، فبعث إليه فجاء.

فقال سليمان: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟

قال أبو حازم: وأي جفاء رأيت مني؟

فقال له: أتاني وجوه المدينة كلهم ولم تأتني؟!

فقال: ما جرىٰ بيني وبينك معرفة آتيك عليها.

قال: صدق الشيخ. يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟

قال: لأنَّكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلىٰ الخراب.

قال: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم علىٰ الله تعالىٰ؟

قال: أما المحسن فكالغائب يقدم علىٰ أهله فرحًا مسرورًا، وأما المسيء فكالآبق يقدم علىٰ مولاه خائفًا محزونًا.

فبكىٰ سليمان وقال: ليت شعري، ما لنا عند الله يا أبا حازم، فقال أبو حازم: اعرض نفسك علىٰ كتاب الله؟

قال: عند قوله ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤].

قال: يا أبا حازم، فأين رحمة الله؟ قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال: يا أبا حازم، من أعقل الناس؟

قال: من تعلم الحكمة وعلمها الناس.

قال: فمن أحمق الناس؟

قال: من حط نفسه في هوىٰ رجل وهو ظالم، فباع أخرته بدنيا غيره.

قال: يا أبا حازم فما أسمع الدعاء؟

قال: دعاء المخبتين.

قال: فما أزكىٰ الصدقة؟

قال: جهد المقل.

قال يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن فيه؟

قال: أعفني من هذا.

قال سليمان نصيحة تلقيها.

قال أبو حازم: إنَّ ناسًا أخذوا هذا الأمر عنوة من غير مشاورة المسلمين، ولا إجماع عن رأيهم، فسفكوا فيه الدماء علىٰ طلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنه، فليت شعري، ما قالوا؟ وما قيل لهم؟

فقال بعض جلسائهم؟ بئس ما قلت يا شيخ!

فقال أبو حازم: كذبت، إنَّ الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

قال سليمان: يا أبا حازم، أصبحنا تصيب منا ونصيب منك.

قال: أعوذ بالله من ذلك.

قال: ولم؟

قال: أخاف أن أركن إليكم شيئا قليلًا، فيذيقني ضعف الحياة، وضعف الممات.

قال: فأشر عليَّ.

قال: اتقِ الله أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

قال: يا أبا حازم، ادع لنا بخير.

فقال: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره للخير، وإن كان غير ذلك، فخذ إلىٰ الخير بناصيته.

فقال: يا غلام، هات مائة دينار، ثمَّ قال: خذ يا أبا حازم.

قال لا حاجة لي به، لي ولغيري في هذا المال أسوة، فإن واسيت بيننا وإلا فلا حاجة لي فيها، إني أخاف أن يكون لما سمعت من كلامي.

فكأن سليمان أعجب بأبي حازم، فقال الزهري: إنه لجاري منذ ثلاثين سنة، ما كلمته قط.

فقال أبو حازم: إنك نسيت الله فنسيتني.

قال الزهري: أتشتمني؟

قال سليمان: بل أنت شتمت نفسك، أما علمت أنَّ للجار علىٰ الجار حقًا؟

قال أبو حازم: إن بني إسرائيل لما كانوا علىٰ الصواب كانت الأمراء تحتاج إلىٰ العلماء، وكانت العلماء تفر بدينها منهم، فلما رأىٰ ذلك قوم من أذلة الناس تعلموا العلم، وأتوا به الأمراء، واجتمع القوم علىٰ المعصية، فسقطوا وانتكسوا، ولو كان العلماء يصونون دينهم وعلمهم، لم تزل الأمراء تهابهم.

قال الزهري: كأنَّك إيَّاي تريد وبي تعرض؟ قال: هو ما تسمع[١].

[أبو حازم وعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ]

وقيل: قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ لأبىٰ حازم: عظني. فقال: اضطجع ثمَّ اجعل الموت عند رأسك، ثمَّ انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن.

[نصيحة محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ]

قال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، إنما الدنيا سوق من الأسواق، منها خرج الناس بما يضرهم وما ينفعهم، وكم من قوم غرهم منها مثل الذي أصبحنا فيه، حتىٰ أتاهم الموت فاستوعبهم فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما أحبوا من الآخرة عدة، ولا لما كرهوا منها جنة، اقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلىٰ من لا يعذرهم فنحن محققون يا أمير المؤمنين أن ننظر إلىٰ تلك الأعمال التي نغبطهم بها فنخلفهم فيها، وإلىٰ الأعمال التي نتخوف عليهم فيها فنكف

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٤٢٣). وفي «القناعة» لابن السني (ص٤٣) عن زمعة بن صالح، قال: كتب إلىٰ أبي حازم بعض بني أمية يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه، فكتب إليه: أمَّا بعد، فقد جاءني كتابك تعزم علي أن أرفع إليك حوائجي وهيهات قد رفعت حوائجي إلىٰ ربي، ما أعطاني منها قبلت، وما أمسك عليَّ منها قنعت.

عنها، فاتقِ الله، وافتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم. ثلاث من كن فيه استكمل الأيمان بالله ﷻ: إذا رضىٰ لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

[نصيحة الإمام الأوزاعي لأبي جعفر المنصور وإنكاره عليه]

وعن الأوزاعي ؒ قال: بعث إلىٰ المنصور وأنا بالساحل فأتيته، فلما وصلت إليه وسلمت عليه استجلسني، ثمَّ قال: ما الذي أبطأ بك يا أوزاعي؟

قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: «أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم».

قلت: فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئًا ثمَّ لا تعمل به، فصاح بي الربيع وأهوىٰ بيده إلىٰ السيف، فانتهزه المنصور، وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام.

فقلت: يا أمير المؤمنين، حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيما وال مات غاشًا لرعيته حرم الله عليه الجنة**».

يا أمير المؤمنين: كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم، أحمرهم، وأسودهم ومسلمهم، وكافرهم، وكل له عليك نصيب من العدل، فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراءِ فئام، ليس منهم أحد إلا هو يشكو بلية أدخلتها عليه، أو ظلامة سقتها إليه.

يا أمير المؤمنين: حدثني مكحول، عن زياد بن حارثة، عن حبيب بن سلمة، أن رسول الله ﷺ دعا إلىٰ القصاص نفسه في خدش

خدشه أعرابيًا لم يتعمده، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، إنَّ الله تعالىٰ لم يبعثك جبارًا ولا متكبرًا، فدعا الأعرابي، فقال: اقتص مني، فقال الأعرابي: قد أحللتك، بأبي أنت وأمي، وما كنت لأفعل ذلك أبدًا، ولو أتيت علىٰ نفسي. فدعا له بخير.

يا أمير المؤمنين: إنَّ الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، وكذلك لا يبقىٰ لك كما لم يبق لغيرك.

يا أمير المؤمنين: جاء في تأويل هذه الآية عن جدك ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩]، قال الصغيرة: «التبسم، والكبيرة الضحك»، فكيف بما عملته الأيدي، وحصدته الألسن.

يا أمير المؤمنين: بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لو ماتت سخلة علىٰ شاطئ الفرات ضيعة، لخشيت أن أسأل عنها»، فكيف بمن حرم عدلك وهو علىٰ بساطك؟

يا أمير المؤمنين: جاء في تأويل هذه الآية عن جدك: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ قال: إذا قعد الخصمان بين يديك، وكان لك في أحدهما هوىً، فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفلج علىٰ صاحبه، فأمحوك من نبوتي، ثم لا تكون خليفتي، يا داود: إنَّما جعلت رسلي إلي عبادي رعاء كرعاء الإبل لعلمهم بالرعاية، ورفقهم بالسياسة، ليجبروا الكسر، ويدلوا الهزيل علىٰ الكلأ والماء.

يا أمير المؤمنين: إنَّك قد بليت بأمرٍ لو عرض علىٰ السماوات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه.

يا أمير المؤمنين: حدثني يزيد بن جابر، عن عبد الرحمن بن أبي عميرة الأنصاري: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلًا من

الأنصار علىٰ الصدقة: فرآه بعد أيام مقيمًا، فقال له: ما منعك من الخروج إلىٰ عملك؟ أما علمت أنَّ لك مثل أجر المجاهدين في سبيل الله؟

قال: لا.

قال: وكيف ذلك؟

قال: لأنَّه بلغني أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ما من والٍ يلي شيئًا من أمور الناس، إلا أتىٰ يوم القيامة مغلولة يداه إلىٰ عنقه، يوقف علىٰ جسر جهنَّم، ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه، ثم يعاد فيحاسب، فإن كان محسنًا نجا بإحسانه، وإن كان مسيئًا انخرق به ذلك الجسر فهوىٰ به في النار سبعين خريفًا**».

فقال له: ممَّن سمعت هذا؟

فقال: من أبي ذر وسلمان رضي الله عنهما، فأرسل إليهما عمر فسألهما، فقالا: نعم، سمعناه من رسول الله ﷺ.

فقال عمر: واعمراه من يتولاها بما فيها؟

فقال أبو ذر رضي الله عنه: من سلت الله أنفه، وألصق خده بالأرض، فأخذ المنديل -يعني المنصور- فوضعه علىٰ وجهه ثم بكىٰ وانتحب حتىٰ أبكاني.

ثمَّ قلت: يا أمير المؤمنين، قد سأل جدك العباس رسول اللهصلىٰ الله عليه وسلم إمارة علىٰ مكة والطائف أو اليمن، فقال له النبي ﷺ: «**يا عم نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها**» نصيحةً منه لعمه وشفقة منه عليه، وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئًا إذا أوحىٰ إليه: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٢١٤] فقال: يا عباس، ويا صفية، ويا فاطمة، إني لست أغنىٰ عنكم من الله شيئًا، لي عملي ولكم عملكم.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يقيم أمر النَّاس إلا حصيف العقل، لا تأخذه في الله لومة لائم، وذكر تمام كلامه للمنصور، ثمَّ قال: فهي نصيحة، والسلام عليك.

ثمَّ نهض فقال: إلىٰ أين؟

فقال: إلىٰ الوطن بأذن أمير المؤمنين.

فقال: أذنت لك، وشكرت لك نصيحتك، وقبلتها بقبولها، والله الموفق للخير، والمعين عليه، وبه أستعين، وعليه أتوكل، وهو حسبي ونعم الوكيل، فلا تخلني من مطالعتك إياي بمثلها، فإنك المقبول القول غير المتهم في النصيحة.

قلت: أفعل إن شاء الله. فأمر له بمال يستعين به علىٰ خروجه، فلم يقبله، وقال: أنا في غنىٰ عنه، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا كلها، وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في رده.

[نصيحة الحسن البصري رحمه الله لعمر بن هبيرة]

وعن علقمة بن أبي مرثد، قال: لما قدم عمر بن هبيرة العراق، أرسل إلىٰ الحسن وإلىٰ الشعبي، فأمر لهما ببيت، فكانا فيه نحوًا من شهر، ثمَّ دخل عليهما وجلس معظمًا لهما، فقال: إنَّ أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إليَّ كتبًا، أعرف أن في إنفاذها الهلكة، فإنْ أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله، فهل تريان في متابعتي إياه فرجًا؟

فقال الحسن: يا أبا عمرو، أجب الأمير.

فتكلم الشعبي، فانحط في أمر ابن هبيرة، كأنَّه عذره، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟

قال: أيها الأمير، فقد قال الشعبي ما قد سمعت.

فقال: ما تقول أنت؟

قال: أقول: يا عمر بن هبيرة، ويوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالىٰ فظ غليظ لا يعصىٰ الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلىٰ ضيق قبرك.

يا عمر بن هبيرة: إنْ تتقِ الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولن يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله تعالىٰ.

يا عمر بن هبيرة: لا تأمن أن ينظر الله إليك علىٰ أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، فيغلق به باب المغفرة دونك.

يا عمر بن هبيرة: لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة، كانوا عن الدنيا وهي مقبلة عليهم أشد إدبارًا من إقبالكم عليها وهي مدبرة عنكم.

يا عمر بن هبيرة: إنِّي أخوفك مقامًا خوفكه الله تعالىٰ فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

يا عمر بن هبيرة: إنْ تك مع الله في طاعته، كفاك يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك علىٰ معاصي الله وكلك الله إليه.

فبكىٰ عمر بن هبيرة وقام بعبرته.

فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما، وأكثر فيها للحسن، وكان في جائزة الشعبي بعض الإقتار، فخرج الشعبي إلىٰ المسجد، فقال: أيُّها الناس، من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالىٰ علىٰ خلقه، فليفعل، فو الذي نفسىٰ بيده، ما علم الحسن شيئًا منه فجهلته، ولكني أردت وجه ابن هبيرة، فأقصاني الله منه[1].

---

(١) وانظر: العزلة للخطابي (ص٢٣٩-٢٤٠)، وفي «حلية الأولياء» (٢/٢٦٨) عن جعفر بن مرزوق، قال: بعث ابن هبيرة إلىٰ ابن سيرين، والحسن، والشعبي، قال: فدخلوا عليه فقال لابن سيرين: يا أبا بكر ماذا رأيت منذ قربت من بابنا؟ قال: =

لَا تَـأْمَـنِ الـدَّهْـرَ فِـي تَـقَـلُّـبِـهِ وَإِنْ حَـوَيْـتَ الـنُّـضَـارَ وَالـذَّهَـبَـا
فَـوَ الَّـذِي يَـسْـجُـدُ الْـعِـبَـادُ لَـهُ لَـيَـسْـتَـرِدَّنَّ مِـنْـكَ مَـا وهـبـا[١]

[نصيحة محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ لبلال بن أبي بردة]

ودخل محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ بلال بن أبي بردة في يوم حارٍ، وبلالٌ في حبشة، وعنده الثلج، فقال له: يا أبا عبد الله، كيف ترىٰ بيتنا هذا؟

قال: إنَّ بيتك لطيبٌ، والجنَّةُ أطيبُ منه، وذكر النار يلهي عنه.

قال: ما تقول في القدر؟

قال: جيرانك أهل القبور، ففكر فيهم، فإنَّ فيهم شغلًا عن القدر.

قال: ادع الله لي.

قال: وما تصنع بدعائي؟ وعلىٰ بابك كذا وكذا يقولون: إنَّك ظلمتهم، يرفع دعاؤهم قبل دعائي، لا تظلم، ولا تحتاج لدعائي!

[لطيفة]

ذكر السلفي في «معجم السفر»، سمعت أبا الحسن علي بن محمد بن معدان الصدفي الركاني قدم الثغر يقول: سمعت أبا الحسن علي بن مروان المنكبي بالأندلس، يقول: كان لباديس بن حبوس الحميري صاحب غرناطة وزير يهودي فهلك، واستوزر بعده نصرانيًا، فقال أبو القاسم خلف بن فرج اللبيري، وكتب بها نسخًا عدة ورماها في شوارع

= «رأيتُ ظلمًا فاشيًا» قال: فغمزه ابن أخيه بمنكبه، فالتفت إليه ابن سيرين فقال: إنَّك لست تسأل إنما أنا أسأل، فأرسل إلىٰ الحسن بأربعة آلاف وإلىٰ ابن سيرين بثلاثة آلاف وإلىٰ الشعبي بألفين، فأمَّا ابن سيرين فلم يأخذها.

(١) معجم السفر رقم (٤٠٦).

البلد والطرقات وسار من ساعته إلىٰ المرية معتصمًا بالمعتصم بن صمادح، وطارت الأبيات في أقطار الأندلس، ولما وقف باديس عليها أرسل وراءه أصحاب الخيل ففاتهم ولم يلحقوه، والأبيات فهي:

كُلَّ يَوْمٍ إِلَىٰ وَرَا ... بُدِّلَ الْبَوْلُ بِالْخَرَا
فزمانًا تهودا ... وزمانا تنصرا
وسيصبوا إِلَىٰ الْمَجُوسِ ... إِنِ الشَّيْخُ عُمِّرَا[1]

[توبة جعفر بن حرب]

ذكر أبو القاسم التنوخي عن أبيه أن جعفر بن حرب كان يتقلد كبار الأعمال للسلطان وكانت نعمته تقارب نعمة الوزارة في غاية الوفور ومنزلته بحالها في الجلالة فسمع رجلا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]. فصاح: اللهم بلىٰ فكررها دفعات وبكىٰ.

ثمَّ نزل عن دابته ونزع ثيابه ودخل إلىٰ دجلة واستتر بالماء ولم يخرج منه حتىٰ فرق جميع ماله في المظالم التي كانت عليه وردها وتصدق بالباقي[2].

فاجتاز رجل فرآه في الماء قائمًا -وسمع بخبره- فوهب له قميصًا ومئزرًا فاستتر بهما وخرج وانقطع إلىٰ العلم والعبادة حتىٰ مات.

---

(١) معجم السفر رقم (٨٦٨)، وذكر العلامة مرعي الكرمي في «نزهة الناظرين في تاريخ مصر» (٨/ ٧٦) في (ترجمة المعز أيبك التركي) «بنىٰ المدرسة المعزية برحبة الحناء، وكان قد استوزر الأسعد هبة الله، كان نصرانيًا فأسلم، فأحدث ما أماته صلاح الدين من المكوس والمظالم، فكان شؤمًا علىٰ التركِ حيثُ عدلُوا عن وزارة العلماء إلىٰ وزارة القبط!» فتأمل قوله: (فكان شؤمًا علىٰ الترك).

(٢) التوابين لابن قدامة (ص١٠٢).

[نصيحة لشيخ المرابطين ابن تاشفين]

قال الطرطوشي: فيما كتب به إلىٰ السلطان أبي يعقوب يوسف بن تاشفين من ملوك المرابطين، ولقد بلغ ذلك نفوس الخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين مبلغًا ذهلت له عقولهم، وطاشت له أحلامهم، فيروىٰ أنَّ عليًا ﵁ قال: رأيت عمر بن الخطاب ﵁ يعدو علىٰ قتب؛ فقلت: إلىٰ أين؟

فقال: بعير من إبل الصدقة فرَّ، وأنا أطلبه!

فقلت: لقد أذللت الخلفاء من بعدك يا أمير المؤمنين.

فقال: لا تلمني يا أبا الحسن فو الذي بعث محمد ﷺ بالنبوة، لو أنَّ سخلة ذهبت بشاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة، ألا أنَّه لا حرمة لوالي ضيع المسلمين.

ثمَّ قال: «يا أبا يعقوب لقد ابتليت بأمر لو حملته السموات لانفطرت، ولو حملته النجوم لا انكدرت، ولو حملته الأرض والجبال لتزلزلت وتدكدكت، إنَّك حملت الأمانة التي عرضت علىٰ السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها»[1].

[نصيحة الشيخ عبد القادر الكيلاني للمقتفي لأمر الله]

حكىٰ التادفي في «قلائد الجواهر» لما ولىٰ المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين القضاء أبا الوفاء يحيىٰ بن سعيد بن يحيىٰ المظفر المشهور بابن المزحم المظالم، قال له الشيخ عبد القادر الجيلاني وهو يخطب الجمعة: «وليت علىٰ المسلمين أظلم الظالمين! ما جوابك غدًا عند رب العالمين أرحم الراحمين؟» فارتعد الخليفة وبكىٰ وعزل القاضي المذكور لوقته[2].

(١) بدائع السلك (ص٨٢).

(٢) القلائد للسباعي (ص١١٢).

[العز بن عبد السلام]

قال السبكي: ذكر أنَّ الشيخ -العز بن عبد السلام- لم يثبت عنده أنهَّم أحرار، وأنَّ حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين؛ فبلَغهم ذلك، فعظم الخطبُ عندهم فيه، وأضرم الأمر، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعًا ولا شرًاء ولا نكاحًا، وتعطلت مصالحهم بذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة فاستشاط غضبًا؛ فاجتمعوا وأرسلوا إليه، فقال: «نعقد لكُم مجلسًا وينادىٰ عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريقٍ شرعي».

فرفعوا الأمر إلىٰ السلطان فبعث إليه فلم يرجع، فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة؛ حاصلها الإنكار علىٰ الشيخ في دخوله في هذا الأمر، وأنَّه لا يتعلق به، فغضب الشيخ وحمل حوائجه علىٰ حمار، وأركب عائلته علىٰ حمار آخر، ومشىٰ خلفهم خارجًا من القاهرة قاصدًا نحو الشام، فلم يصل إلىٰ نحو نصفِ بريد إلا وقد لحقه غالب المسلمين؛ لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه إليه يتخلف، لا سيَّما العلماء والصلحاء والتُّجار وأنحاؤهم؛ فبلغ السلطان الخبر، وقيل له: متىٰ راح ذهب ملكك، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب قلبه فرجع، واتفقوا معهم علىٰ أنَّه ينادىٰ علىٰ الأمراء، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه فانزعج النائب، وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنه بسيفي هذا؛ فركب بنفسه في جماعتهِ وجاء إلىٰ بيت الشيخ، والسيف مسلول في يدهِ، فطرق الباب فخرج ولد الشيخ أظنه عبد اللطيف، فرأىٰ من نائب السلطنة ما رأىٰ فعاد إلىٰ أبيه وشرح له الحال فما اكترث لذلك ولا تغير، وقال: يا ولدي أبوك أقلُّ من أن يقتل في سبيل الله، ثمَّ خرج كأنَّه قضاء الله قد نزل علىٰ نائب

السلطنة، فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب، وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أنْ يدعو له، وقال: يا سيدي (أخبرني)[١] أيش تعمل؟

قال: أنادي عليكم وأبيعكم.

قال: ففيم تصرف ثمننا؟

قال: في مصالح المسلمين.

قال: من يقبضه؟

قال: أنا! فتم له ما أراد، ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا، وغالى في ثمنهم، وقبضه وصرفه في وجوه الخير.

وهذا ما لم يسمع بمثله عن أحد رحمه الله تعالى ورضي عنه[٢].

وحكي أنَّ الشيخ عز الدين خرج مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة فشاهد العساكر مصطفين بين يديه، ومجلس المملكة وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصريَّة، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان فالتفت الشيخ إلى السلطان، وناداه: يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوئ لك ملك مصر، ثمَّ تبيح الخمور؟ فقال: هل جرى هذا؟ فقال: نعم الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة، يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون، فقال: يا سيدي هذا أنا ما عملته هذا من زمان أبي.

فقال: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة.

---

(١) الأصل (خبر)، وأثبت ذلك بما يتناسب مع سياق الكلام، والله أعلم بالصواب.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي (٨/ ٢١٦-٢١٧).

قال الباجي: سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان، وقد شاع هذا الخبر يا سيدي كيف الحال؟ فقال: يا بني رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه.

فقلت: يا سيدي أما خفته.

فقال: والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالىٰ فصار السلطان قدامي كالقط[1].

[الزاهد اليونيني]

قيل: إنَّ العادل أتىٰ والشيخ يتوضأ، فجعل تحت سجادته دنانير، فردها، وقال: يا أبا بكر كيف أدعو لك والخمور دائرة في دمشق؟

فأبطل ذلك.

وقيل: جلس بين يديه المعظم، وطلب الدعاء منه، فقال: يا عيسىٰ، لا تكن نحس مثل أبيك، أظهر الزغل، وأفسد علىٰ النَّاسِ المعاملة.

حكىٰ الشيخ عبد الصمد، قال: والله مذ خدمت الشيخ عبد الله، ما رأيته استند ولا سعل ولا بصق[2].

[الطرطوشي وأمير مصر]

قال الأبشيهي: قال سيدي الشيخ أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالىٰ عليه دخلتُ علىٰ الأفضلِ بن أميرِ الجيوش وهو أميرٌ علىٰ مصر، فقلت: السلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته. فردَّ السلام علىٰ نحوٍ ما سلَّمتُ

---

(١) المصدر نفسه (٨/ ٢١١-٢١٢)، و«رفع الإصر عن قضاة مصر» لابن حجر (ص٢٤٠).

(٢) السير (٢٣/ ١٠١-١٠٢) اليونيني عبد الله بن عثمان بن جعفر. وصفه الذهبي: «الزاهد، العابد، أسد الشام كان أمَّارًا بالمعروف، لا يهاب الملوك، حاضر القلب، دائم الذكر، بعيد الصيت».

ردًا جميلًا، وأكرمني إكرامًا جزيلًا، وأمرني بدخول مجلسه، وأمرني بالجلوس فيه، فقلتُ: أيُّها الملك، إنَّ الله تعالىٰ قد أحلك محلًا عليًا شامخًا، وأنزلك منزلًا شريفًا باذخًا، وملَّكك طائفَة منْ ملكهِ، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك، فلا ترض أن يكون أحدٌ أولىٰ بالشكرِ منك، وليس الشكر باللسان، وإنَّما هو بالفعال والإحسان؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ واعلم أنَّ هذا الذي أصبحت فيه من الملك إنَّما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك؛ فاتقِ الله فيما خولك من هذه الأمة، فإنَّ الله تعالىٰ سائلك عن الفتيل والنقير والقطمير قال الله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾.

واعلم أيُّها الملك أنَّ الله تعالىٰ قد آتىٰ ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليه السلام فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثمَّ رفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال له: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فو الله ما عدها نعمة كما عددتموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها بل خاف أن تكون استدراجًا من الله تعالىٰ ومكرًا به فقال: ﴿هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم وأغث الملهوف أعانك الله علىٰ نصر المظلوم وجعلك كهفا للملهوف وأمانًا للخائف ثمَّ أتممت المجلس بأن قلت قد جبت البلاد شرقًا وغربًا فما اخترت مملكة وارتحت إليها ولذت لي الاقامة فيها غير هذه المملكة:

والنَّاسُ أكْيَسَ مِنْ أنْ يحَمَدوا رَجُلًا   حتَّىٰ يـرَوْا عِـنْـدَهُ آثَـارَ إحْـسَـان[1]

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف (١/ ١٨١-١٨٢)، وانظر: «نفح الطيب» (٢/ ٨٧).

وقال القاضي شمس الدين ابن خلكان: دخل الطرطوشي علىٰ الأفضل ابن أمير الجيوش بمصر، فبسط تحته مئزره، وكان إلىٰ جانب الأفضل نصراني، فوعظ الأفضل حتىٰ أبكاه، ثم أنشده:

يَا ذَا الَّذِي طَاعَتُهُ قُرْبَةٌ ... وَحَقُّهُ مُفْتَرَضٌ وَاجِبُ
إِنَّ الَّذِي شُرِّفْتَ مِنْ أَجْلِهِ ... يَزْعُمُ هَذَا أَنَّهُ كَاذِبُ

وأشار إلىٰ ذلك النصراني، فأقام الأفضل النصراني من موضعه[(١)].

[نصح الماوردي وإنكاره التلقيب «بملك الملوك» وذكر ما حصل معه]

قال القلقشندي: واعلم أنّه كان قد وقع في تلقيب الملوك بهذا اللّقب نزاع بين العلماء في سلطنة السلطان «جلال الدولة» السّلجوقيّ في سنة تسع وعشرين وأربعمائة كما حكاه ابن الأثير في تاريخه «الكامل» وذلك أنَّ السلطان جلال الدولة كان قد سأل أمير المؤمنين (القائم بأمر الله) الخليفة يومئِذ في أن يخاطب بملك الملوك فامتنع، فكتب فتوىٰ للفقهاء في ذلك، فكتب القاضي أبو الطيّب الطبريّ، والقاضي أبو عبد الله الصّيمريّ، والقاضي ابن البيضاويّ، وأبو القاسم الكرخيّ بجوازه.

ومنع منه أقضىٰ القضاة أبو الحسن الماورديّ، وجرىٰ بينه وبين من أفتىٰ بجوازه مراجعات، وخطب لجلال الدولة بـ «ملك الملوك». وكان الماورديّ من أخصّ الناس بجلال الدولة، وكان يتردّد إلىٰ دار المملكة كلّ يوم، فلمَّا أفتىٰ في ذلك بالمنع، انقطع ولزم بيته خائفًا، وأقام منقطعًا من شهر رمضان إلىٰ يوم النحر، فاستدعاه جلال الدولة، فحضر خائفًا، فأدخله عليه وحده، وقال له: قد علم كلُّ أحدٍ أنَّك من أكثر الفقهاء مالًا

---

(١) السير (١٩/ ٤٩٢).

وجاهًا وقربًا منًّا، وقد خالفتهم فيما خالف هواي، ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحاباة منك واتّباع الحقّ، وقد بان لي موضعك من الدّين ومكانك من العلم، وجعلت جزاء ذلك إكرامك بأنْ أدخلتك إليَّ وحدك، وجعلت إذن الحاضرين إليك، ليتحقّقوا عودي إلىٰ ما تحب. فشكره ودعا له وأذن لكل من حضر للخدمة بالانصراف(١).

[نصح أبو الفرج ابن الجوزي]

حكي عن ابن الجوزي، وقال يومًا في وعظه: يا أمير المؤمنين، إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك، وأنا أقدم خوفي عليك علىٰ خوفي منك، فقول الناصح: «اتقِ الله، خيرٌ من قول القائل: أنتم أهلُ بيتٍ مغفور لكم»(٢).

ولما وعظ الخليفة (المستضيء بأمر الله) سنة أربع وسبعين وخمسمائة قال له -رحمه الله تعالىٰ-: لو أنِّي مثلت بين يدي السدة الشريفة لقلت يا أمير المؤمنين: «كنْ للهِ سبحانه مع حاجتك إليه كما كان لك مع غناه عنك أنَّه لم يجعل أحدًا فوقك، فلا ترضىٰ أن يكون أحد أشكر له منك». فتصدق بصدقات وأطلق محبوسين(٣).

وقال ابن القطيعي: سمعت من أثق به. قال: لما سمع أمير المؤمنين المستضيء ابن الجوزي ينشد تحت داره:

ستنقلُك المنايا عن ديارِكْ ... ويُبدِلُك الردىٰ دارًا بدارِكْ
وتتركُ ما عُنيتَ بهِ زمانًا ... وتُنقلُ مِن غِنَاك إلىٰ افتقارِكْ
فدودُ القبرِ في عينيكَ يرعىٰ ... وترعىٰ عينُ غيرِك في ديارِك

---

(١) صبح الأعشىٰ (٦/ ١٦).

(٢) السير (٢١/ ٣٧٢).

(٣) غذاء الألباب (١/ ٢٣٤).

فجعل المستضيء يمشي في قصره ويقول: «أي والله: وترعىٰ عين غيرك في ديارك» ويكررها ويبكي حتىٰ الليل(١).

[نصيحة النووي إلىٰ السلطان الظاهر التركي]

وكان للنَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ عددٌ من النَّصائحِ كما هو مسطرٌ في الكتبِ التي تحدثت عنه، وترجمَت له.

ومن هذا النَّصائح: ما كتبَه بسبب الفقهاءِ لما رُسِم بأنَّ الفقيه لا يكون منزلًا في أكثرِ من مدرسةٍ واحدة، وهذه صورته: بسم الله الرحمن الرحيم خَدَمَةُ الشَّرعَ يُنهونَ أنَّ الله تعالىٰ أمرنا بالتعاوُنِ علىٰ البر والتقوىٰ، ونصيحةِ وُلاةِ الأمورِ، وعامةِ المسلمين، وأخذ علىٰ العلماء العهد بتبليغ أحكام الدين ومناصحةِ المسلمين، وحثَّ علىٰ تعظيمِ حُرُماتِه، وإعظامِ شعائر الدينِ، وإكرامِ العلماء وتباعِهم.

وقد بلغَ الفقهاءَ بأنَّه رُسمَ في حقِّهم بأن يُغيروا عن وظائِفِهم، ويُقطعوا عن بعضِ مدارِسِهم، فتنكَّدَت بذلك أحوالُهم، وتضرروا بهذا التضييقِ عليهِم، وهُم محتاجونَ، ولهُم عِيالٌ، وفيهِم الصالِحونَ، والمشتغِلونَ بالعلومِ، وإن كانَ فيهِم أفرادٌ لا يلتحقونَ بمراتِب غيرهم، فهم منتسِبونَ إلىٰ العلمِ، ومشارِكونَ فيهِ.

ولا تَخفىٰ مراتبُ أهلِ العلمِ، وفضلُهم وثناءُ الله تعالىٰ عليهِم، وبيانُه مزيّتَهم علىٰ غيرِهم، وأنهم ورثَةُ الأنبياءِ -صلواتُ الله وسلامُه عليهم- وأنَّ الملائِكَة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تضعُ أجنِحتها لهُم، ويستَغفِر لهُم كُلُّ شيءٍ، حتىٰ الحيتانُ.

والـلائِقُ بالـجَنابِ العالي إكرامُ هذه الطَّائفةِ، والإحسانُ إليهِم،

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١/ ١٦٧)، وعنه العلامة محمد صديق حسن في «التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول» (ص٥٤).

ومُعاضدتُهُم، ودفعُ المكروهاتِ عنهُم، والنَّظرُ في أحوالِهم؛ بما فيهِ الرِّفقُ بهم؛ فقد ثبت في «صحيح مسلم» عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**مَن ولي مِن أَمرِ أُمَّتي شيئًا، فرفق بهِم؛ فارفُق به**».

وروىٰ أبو عيسىٰ الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّه كان يقول لطلبةِ العلم: مرحبًا بوصيةِ رسول الله ﷺ، إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ رجالًا يأتونكُم يتفَقَّهونَ في الدِّينِ، فإذا أَتَوْكُم؛ فاسْتَوْصوا بهِم خيرًا**».

والمسؤول ألا يُغيَّر علىٰ هذه الطائفةِ شيء، وتُستجلبَ دعوتُهم لهذه الدولة القاهرة، وقد ثبت في «صحيح البخاري» أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**هل تنصرونَ وتُرزقونَ إلَّا بضُعفائِكم**».

وقد أحاطتِ العلومُ بما أجاب بهِ الوزيرُ نظامُ المُلك حينَ أنكَرَ عليهِ السلطانُ صرفَ الأموالِ الكثيرةِ في جهةِ طلبةِ العلم، فقال: «أقمتُ لكَ بها جُنْدًا لا تُرَدُّ سهامُهم بالأسحار» فاستصوبَ فعلَهُ، وساعدَهُ عليه، والله الكريمُ يوفقُ الجنابَ دائمًا لمرضاتِه، والمسارعة إلىٰ طاعاتِه[1].

[الشيخ عبد الله بن مروان الفارقي (ت٧٠٣هـ) وأمير دمشق الأفرم]

حكي أنَّه حضر دار العدل فرأىٰ علىٰ الأفرم قباء حرير وخاتم فضة ودواة مذهبة، فقال: إذا سألني الله عن هذا ما حجتي؟ إذ قال لي: لِمَ لم تقل إنَّ هذا حرام بالإجماع، وبكىٰ فابكىٰ الحاضرين والأفرم، وبادر إلىٰ نزع القباء والخاتم[2].

---

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين لابن العطار (ص١١٠-١١٢)، وانظر: «المنهاج السوي» للسيوطي (ص٧٤-٧٦) كما ذكره محققه.

(٢) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٣/ ٨٩-٩٠).

[من مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية]

قال تلميذه البار أبو حفص البزار رحمه الله: وأخبرني من لا أتَّهمهُ أنَّ الشَّيخ رضي الله عنه حين وُشي به الىٰ السلطان المعظم الملك الناصر محمد، أحضره بين يديه، قال: فكان من جملة كلامه: إنَّني أخبرت أنَّك قد أطاعك الناس، وأنَّ في نفسك أخذ الملك. فلم يكترث به؛ بل قال له بنفس مطمئنةٍ، وقلب ثابتٍ، وصوتٍ عالٍ سمعه كثيرٌ ممَّن حضر: أنا أفعل ذلك؟! والله إنَّ مُلْكَك وملك المغل لا يساوي عندي فلسين. فتبسم السلطان لذلك وأجابه في مقابلته -بما اوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة- إنَّك -والله- لصادق، وإنَّ الذي وشى بك إليَّ كاذبٌ[(١)].

وَقَالَ رحمه الله: «مَا يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني فِي صدري، أين رحت فَهِيَ معي، لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة».

وكان فِي حبسه فِي القلعة يَقُول: «لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبا مَا عدل عندي شكر هذه النعمة». أَوْ قَالَ: «مَا جزيتهم علىٰ ما نسبوا فِيهِ من الخير- ونحو هَذَا».

وكان يقول في سجوده، وَهُوَ محبوس: «اللَّهُمَّ أعني عَلَىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، مَا شاء اللَّه».

وَقَالَ مرةً: «المحبوسُ من حبسَ قلبُه عَن ربه، والمأسورُ من أسرهُ هواه»[(٢)].

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص٧٢-٧٣).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٤/٥١٩-٥٢٠).

[تذكرة]

قال الله تعالىٰ: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٢٢٧].

قال الزمخشري المعتزلي: ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول، ولا أنكىٰ لقلوب المتأمّلين، ولا أصدع لأكباد المتدبرين، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد إليه، وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدّتها، ولأن تخاف فتبلغ الأمن، خير من أن تأمن فتبلغ الخوف.

اللهم اجعلنا ممَّن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها، وعلم أنَّ من عمل سيئة فهو من الذين ظلموا[١].

[الشيخ أحمد الكوراني والسلطان محمد الفاتح]

قال العلامة الشوكاني: انتقل من قضاء العسكر إلىٰ منصب الفتوىٰ، وتردد إليه الأكابر، وشرح جمع الجوامع، وكثر تعقُّبه للمحلي، وعمل تفسيرًا وشرحًا علىٰ البخاري، وقصيدة في علم العروض نحو ستمائة بيت، وأنشأ بإسطنبول جامعًا، ومدرسة سمَّاها دار الحديث، وانهالت عليه الدينا، وعمر الدُّور، وانتشر علمه فأخذ عليه الأكابر[٢]، وحج في سنة (٧٦١هـ)، ولم يزل علىٰ جلالته حتىٰ مات في أواخر سنة (٧٩٣هـ)، وصلىٰ عليه السلطان فمن دونه، ومن مطالع قصائده في مدح سلطانه:

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٤٥)، وتفسير أهل البدع لا يطالع فيها إلا بعد رسوخ القدم في معرفة ضوابط التفسير وقواعده، وإحكام عقيدة أهل السنة والجماعة، ومن أخطر التفاسير الكلامية مع البلاغة التي فيه تفسير الزمخشري؛ لأنَّه يدلس الشيء دون أن يشعر القارئ بذلك.

(٢) يعني منْ هم في طبقة شيوخه أو شيوخه، ويعرف في مصطلح الحديث (رواية الأكابر عن الأصاغر)، والله أعلم.

هُوَ الشَّمْسُ إِلا أنَّه اللَّيثُ باسِلًا هُـو الـبَـحْـرُ إِلا أنَّـه مَـالِـكُ الـبَـرِّ

وقد ترجم له «صاحب الشقائق النعمانية» ترجمَة حافلَة، وذكر فيها أنَّ سلطان الروم السلطان محمد عرض عليه الوزارة فلم يقبلها، وأنَّه أتاه مرة مرسوم من السلطان فيه مخالفة للوجه الشرعي فمزقه، وأنَّه كان يخاطب السلطان باسمه، ولا ينحني له، ولا يقبل يده، بل يصافحه مصافحة، وإنَّه كان لا يأتي إلىٰ السلطان إلا إذا أرسل اليه، وكان يقول له: «مطعمك حرام، وملبسك حرام، فعليك بالاحتياط»، وذكر له مناقب جمة تدل علىٰ أنه من العلماء العاملين[(١)].

[الشيخ صاري خضر جلبي والسلطان محمد الفاتح رحمهما الله]

أمر السلطان محمد الفاتح ببناء أحد الجوامع بمدينة إسطنبول، وكلف أحد المعماريين الروم وأسمه أبسلانتي بالأشراف علي بناء الجامع، إذ كان هذا معماريًا بارعًا.

وكان من بين أوامر السلطان: أن تكون أعمدة هذا الجامع من المرمر

وأن تكون هذه أعمدةً مرتفعةً ليبدو الجامع فخمًا، وحدد للمعماري أرتفاع الأعمدة.

ولكن هذا المعماري الرومي -ولسبب من الأسباب- أمر بقص هذه الأعمدة، وتقصير طولها دون أن يخبر السلطان، أو يستشيره في ذلك.

وعندما علم السلطان محمد الفاتح بذلك، أستشاط غضبًا، إذ أن هذه الأعمدة التي جلبت من مكان بعيد، لم تعد ذات فائدة في نظره، وفي ثورة الغضب هذه، أمر بقطع يد هذا المعماري.

---

(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١/ ٤١)، وهو في الأصل في «الضوء اللامع» للسخاوي (١/ ٢٤١-٢٤٢).

ومع أنَّه ندم علىٰ ذلك لكنه كان ندمًا بعد فواتِ الأوان.

ولم يسكت المعماري علىٰ الظلم الذي لحقه، بل راجع قاضي إسطنبول الشيخ (صاري خضر جلبي) الذي كان صيت عدالته قد ذاع وأنتشر في جميع أنحاء الإمبراطورية، وأشتكي إليه من الظلم الذي لحقه من السلطان محمد الفاتح، ولم يتردد القاضي في قبول هذه الشكوىٰ، بل أرسل في فوره رسولًا إلىٰ السلطان يستدعيه للمثول أمامه في المحكمة، لوجود شكوىٰ ضده من أحد الرعايا.

ولم يتردد السلطان في قبول الدعوة القاضي، فالحق والعدل يجب أن يكون فوق كل سلطان.

وفي اليوم المحدد حضر السلطان إلىٰ المحكمة، وتوجه للجلوس علىٰ المقعد فقال له القاضي: لا يجوز لك الجلوس يا سيدي ... بل عليك الوقوف جانب خصمك.

وقف السلطان محمد الفاتح بجانب خصمه الرومي، الذي شرح مظلمته للقاضي، وعندما جاء دور السلطان في الكلام أيد ما قاله الرومي.

وعند انتهاء كلامه وقف ينتظر حكم القاضي، الذي فكر برهة وبعدها توجه إليه قائلًا: «حسب الأوامر الشرعية، يجب قطع يدك أيها السلطان قصاصًا منك!!!»

ذهل المعماري الرومي، وارتجف دهشة من هذا الحكم الذي نطق به القاضي، والذي لم يكن يدور في خلده أو في خياله لا من قريب ولا من بعيد، إذ أقصىٰ ما كان يتوقعه أن يحكم له القاضي بتعويض مالي.

أما أن يقطع يد السلطان محمد الفاتح (فاتح القسطنطينية) الذي ترتجف كل دول أوروبا منه رعبًا، فكان أمرًا فوق الخيال.

وبصوت ذاهل، وعبارات متعثره، قال الرومي للقاضي: بأنَّه يتنازل عن دعواه، وأنَّ ما يرجوه منه هو الحكم له بتعويض مالي فقط؛ لأنَّ قطع يد السلطان لن يفيده شيء وحكم له بعشر قطع ذهبية لكل يوم طوال حياته، تعويضًا له من ضرر البالغ الذي لحق به، ولكن السلطان محمد الفاتح قرر أن يعطيه عشرين قطعة ذهبية كل يوم تعبيرًا له عن فرحته لخلاصه من حكم القصاص، وتعبيرًا عن ندمه كذلك(١).

[بين الشيخ زمبيلي علي مالي أفندي والسلطان سليم الأول]

علم السلطان سليم الأول أنَّ الأقليات غير المسلمة الموجودة في (اسطنبول) من الأرمن والروم واليهود، بدأت تتسبب في بعض المشاكل للدولة العثمانية، وفي إثارة بعض القلاقل، فغضب لذلك غضبًا شديدًا، وأعطىٰ قراراه بأنَّه علىٰ هذه الأقليات غير المسلمة اعتناق الدين الإسلامي، ومن يرفض ذلك ضرب عنقه.

بلغ هذا الخبر شيخ الإسلام (زمبيلي علي مالي أفندي)، وكان من كبار علماء عصره، فساءه ذلك جدًا، ذلك لأنَّ إكراه غير المسلمين علىٰ اعتناق الإسلام يخالف تعاليم الإسلام، الذي يرفع شعار ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾؛ فلا يجوز أن يخالف أحد هذه القاعدة الشرعيَّة، وإن كان السلطان نفسه. ولكن من يستطيع أن يقف أمام هذا السلطان، الذي يرتجف أمامه الجميع؟ من يستطيع أن يقف أمام هذا السلطان، ذي الطبع الحاد فيبلغه بأنَّ ما يفعله ليس صحيحًا، وأنَّه لا يوافق الدين الإسلامي ويعد حرامًا في شرعه؟ ليس من أحد سواه يستطيع ذلك، فهو الذي يشغل

---

(١) روائع من التاريخ الإسلامي (ص٤٨)، و«العلماء بين المحن والابتلاءات» (٢/ ٤٣٠-٤٣١)؟

منصب شيخ الإسلام في الدولة العثمانيَّة، وعليه تقع مهمة إزالة هذا المنكر الذي يوشك أن يقع.

لبس شيخ الاسلام جبّته وتوجّه إلىٰ قصر السلطان، واستأذن في الدخول عليه، فأذن له، فقال للسلطان: سمعت أيها السلطان أنَّك تريد أن تكره جميع الأقليات غير المسلمة علىٰ اعتناق الدين الإسلامي، وكان السلطان لا يزال محتدًا فقال: أجل! إن ما سمعته صحيح، وماذا في ذلك؟ لم يكن شيخ الإسلام من الذين يتردّدون عن قوله الحق: أيُّها السلطان إنَّ هذا مخالف للشرع، إذ لا إكراه في الدين، ثمَّ إنَّ جدكم (محمد الفاتح) عندما فتح مدينة (اسطنبول) اتّبع الشرع الإسلامي فلم يكره أحدًا علىٰ اعتناق الإسلام، بل أعطىٰ للجميع حرية العقيدة، فعليك باتباع الشرع الحنيف، واتباع عهد جدكم محمد الفاتح.

قال السلطان سليم وحدّته تتصاعد: يا علي أفندي . . . يا علي أفندي: لقد بدأت تتدخل في أمور الدولة، ألا تخبرني إلىٰ متىٰ سينتهي تدخّلك هذا؟

فرد عليه القاضي: إنَّني أيُّها السلطان أقوم بوظيفتي في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وليس لي من غرض آخر، وإذا لم ينته أجلي، فلن يستطيع أحد أن يسلبني روحي.

فقال السلطان: دع هذه الأمور لي يا شيخ الإسلام.

فرد القاضي: كلا أيها السلطان . . . إن من واجبي أن أرعىٰ شؤون آخرتك أيضًا، وأن أجنبك كل ما يفسد حياتك الأخروية، وإن اضطررت إلىٰ سلوك طريق آخر.

فقال السلطان: ماذا تعني؟

فرد القاضي: سأضطر إلىٰ إصدار فتوىٰ بخلعك أيها السلطان، بسبب مخالفتك للشرع الحنيف إن أقدمت علىٰ هذا الأمر.

فأذعن السلطان سليم لرغبة شيخ الإسلام، فقد كان يحترم العلماء، ويجلّهم، وبقيت الأقليات غير المسلمة حرّة في عقائدها، وفي عباداتها، وفي محاكمها، ولم يمد أحد أصبع سوء إليهم(١).

[موعظة]

وقيل: حبس بعض السلاطين رجلًا زمانًا طويلًا ثمَّ أخرجه فقال له: كيف وجدت محبسك؟ قال: ما مضىٰ من نعيمك يوم إلا ومضىٰ من بؤسي يوم، حتىٰ يجمعنا يوم(٢).

[القاضي الحنفي مغيث الدين اليبانوي والسلطان علا الدين محمد شاه]

قال له السلطان: الأموال التي غنمتها في ديوكير في أيام الإمارة قبل أن أكون سلطانًا غنمتها بتحمل المحن والمشاق فهل هي لي خاصة لنفسي أو لبيت مال المسلمين؟

فأجاب القاضي: أنَّ الأموال التي غنمتها في ديوكير في أيام الإمارة غنمتها بعساكر المسلمين فهي لبيت مالهم، فلو كنت حصلتها بجهد نفسك علىٰ وجه يبيحه الشرع كانت تلك الأموال خاصة لك، فلما سمع السلطان ذلك غضب عليه وقال: كيف تقول؟ ألا يعلم رأسك ما تقول؟ الأموال التي أخذتها بجهد نفسي وقوة خاصتي من الخدم وحصلتها من الكفار الذين لا يعلمهم أحد في دهلي وما أدخلتها في بيت المال كيف تكون

(١) من روائع التاريخ العثماني (ص٥٧)، و«العلماء بين المحن والابتلاءات» (٢/ ٤٣٠-٤٣١).

(٢) التبصرة لابن الجوزي (١/ ٢٤٣).

لبيت المال؟ ثمَّ سأله أنه كم لي ولأهلي وعيالي نصيب من بيت المال؟ فقال القاضي: إنِّي أظنُ أنَّ الموت قد دنا مني، فقال السلطان: لِم تقول ذلك أيُّها القاضي؟ قال: لأنَّ السلطان سألني عن مسألة إن أجبت عنها بما يوافق الشرع يقتلني، وإن أجبت بما يوافق هواه يدخلني الله في النار يوم القيامة، فقال السلطان: إنِّي لست بقاتلك فقل ما بدا لك، فقال: إن اقتدىٰ السلطان بالخلفاء الراشدين وأراد رزق الآخرة فله أن يأخذ من بيت المال ما وظفه الشرع للمجاهدين في سبيل الله، وهو أربع وثلاثون ومائتا تنكة لنفسه ولأهل بيته، وإن قال السلطان إن هذا القدر لا يكفيه لعزة السلطنة فله أن يأخذ ما يعطي غيره من الأمراء، وإن أراد أن يأخذ أكثر من ذلك بما أفتاه علماء السوء فله أن يأخذ أكثر من ذلك كثرة يعيش بها أحسن مما يعيش الأمراء، وإيَّاه وإيَّاه أن يأخذ أكثر من ذلك، وأن يعطي نساءه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة من بيت المال وقرىٰ كثيرة من أرض الخراج والملابس الثمينة والظروف الغالية والجواهر الكريمة! فإنَّها تكون نكالًا ووبالًا لك في الآخرة، فقال السلطان: ألا تخاف سيفي فتقول: إنَّ ما نعطيه نساءنا حرام في الشرع؟

فقال: إنِّي أخاف سيفك ولذلك أحسب عمامتي كفني، ولكن السلطان سألني عن المسائل الشرعية فأجبت عنها بما علمته، فإن سألني عما تقتضيه المصالح الملوكية أجيب بأن ما ينفقه السلطان علىٰ نسائه واحد من ألف، فقال السلطان: إنَّك حرمت علىٰ كل ما سألتك عنه، فلعلك تحرم ما أفعله من التعزير والتشديد، فإني أمرت في شاربي الخمر وبايعيها بالحبس في الآبار وبقطع أعضاء الزناة وبقتل النساء الزواني، وإنِّي لا أميز الصالح من الطالح في البغاة فأقتلهم وأهلك نساءهم وأبناءهم، ومن يخون في بيت المال أمرت فيه أن يحبس في السجن ويوضع في الأغلال والقيود ويضرب ويطعن حتىٰ يدفع ما عليه، فنهض

القاضي من المجلس وذهب إلىٰ صف النعال ووضع جبينه علىٰ الأرض ونادىٰ بأعلىٰ صوته سواء قتلني السلطان أو أبقاني لم يبح له الشرع ذلك ولم يطلق يده في أن يفعل بالمجرمين ما يشاء، فكظم السلطان غيظه ودخل في الحرم ورجع القاضي إلىٰ بيته، ثمَّ ودع أهله وأقرباءه في الغد توديع المحتضرين وتصدق واغتسل كغسل الميت وأتىٰ قصر السلطنة ودخل علىٰ السلطان، فقربه السلطان إلىٰ نفسه وخلع عليه وكساه ووصله بألف تنكة(١).

[الشيخ شمس الدين فناري
والسلطان العثماني بايزيد الملقب (بصاعقة)]

حصل الحادث في مدينة بورصة في عهد السلطان العثماني بايزيد، الملقب بـ (الصاعقة) الفاتح الكبير، فاتح بلاد البلغار، والبوسنة، وسلا، وألبانيا.

السلطان الذي سجل انتصارًا ساحقًا علىٰ الجيوش الصليبية، التي دعا إلىٰ حشدها البابا (بونيغا جيوش الرابع)، لطرد المسلمين من أوروبا، والتي اشتركت فيها خمس عشرة دولة أوروبية كانت انجلترا، وفرنسا، والمجر من بينها، وذلك في المعركة التاريخية المشهورة، والدامية معركة نيغبولي سنة (١٣٩٦م).

هذا السلطان الفاتح اقتضىٰ حضوره للإدلاء بشهادة في أمر من الأمور أمام القاضي والعالم المعروف (شمس الدين فناري).

دخل السلطان المحكمة ووقف أمام القاضي، وقد عقد يديه أمامه كأي شاهد اعتيادي.

---

(١) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (٢/ ٢١٢-٢١٣)، و«مواكب الضياء» (١/ ٣١٠-٣١١).

رفع القاضي بصره إلىٰ السلطان، وأخذ يتطلع إليه بنظرات محتدّة، قبل أن يقول له: إن شهادتك لا يمكن قبولها، ذلك لأنَّك لا تؤدي صلواتك جماعة، والشخص الذي لا يؤدي صلاته جماعة، دون عذر شرعي يمكن أن يكذب في شهادته.

نزلت كلمات القاضي نزول الصاعقة علىٰ رؤوس الحاضرين في المحكمة. كان هذا اتهامًا كبيرًا، بل إهانة كبيرة للسلطان (بايزيد)، تسمّر الحاضرون في أماكنهم، وقد أمسكوا بأنفاسهم ينتظرون أن يطير رأس القاضي بإشارة واحدة من السلطان؛ لكن السلطان لم يقل شيئًا، بل استدار وخرج من المحكمة بكل هدوء.

أصدر السلطان في اليوم نفسه أمرًا ببناء جامع ملاصق لقصره، وعندما تمّ تشييد الجامع، بدأ السلطان يؤدي صلواته كلها في جماعة.

هذا ما سجله المؤرخ التركي عثمان نزار في كتابه: (حديقة السلاطين) المؤلف قبل مئات السنين؛ فعندما كان المسلمون يملكون أمثال هؤلاء العلماء، ملكوا أمثال هؤلاء السلاطين(١).

[بين عالم والخديوي]

لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة، وتوالت الهزائم علىٰ مصر، لوقوع الخلاف بين قوادها وجيوشها، ضاق صدر الخديوي لذلك، فركب يومًا مع شريف باشا، وهو محرج فأراد أن يفرج عن نفسه فقال لشريف باشا: ماذا تصنع حينما تلم بك مُلمة تريد أن تدفعها؟ فقال: يا أفندينا، إنَّ الله عودني إذا حاق بي شيء من ذلك أن ألجأ إلىٰ صحيح البخاري، يقرؤه لي علماء أطهار الأنفاس، فيفرج الله عني.

---

(١) من روائع التاريخ العثماني (ص٢٦).

قال: فكلم الخديوي شيخ الأزهر -وكان الشيخ العروسي- فجمع له صلحاء العلماء يتلون صحيح البخاري أمام القبة القديمة في الأزهر.

قال: ومع ذلك ظلت الهزائم تتوالىٰ، فذهب الخديوي ومعه شريف إلىٰ العلماء، وقال محنقًا: إمَّا إن هذا الذي تقرأونه ليس صحيح البخاري، أو أنكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح، فإن الله لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئًا.

فوجم العلماء، وابتدره شيخ من آخر الصف يقول له: منك يا إسماعيل، فإنا روينا عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم، فلا يستجاب لهم**» فزاد وجم الشيوخ، وانصرف الخديوي ومعه شريف، ولم ينبسا بكلمة، وأخذ العلماء يلومون القائل ويؤنبونه، فبينما هم كذلك إذا بشريف باشا قد عاد يسأل: أين الشيخ القائل للخديوي ما قال؟

فقال الشيخ: أنا، فأخذه وقام، وانقلب العلماء بعد أن كانوا يلومون الشيخ يودعونه وداع من لا يأمل أن يرجع، وسار شريف بالشيخ إلىٰ أن دخلا علىٰ الخديوي في قصره، قاعد في البهو، وأمامه كرسي أجلس الشيخ عليه، قال له: يا أستاذ ما قلته لي في الأزهر؟ فأعاد عليه الشيخ كلمته، وردد الحديث وشرحه، فقال له الخديوي: وماذا صنعنا حتىٰ ينزل بنا البلاء.

قال له: «يا أفندينا أليست المحاكم المختلطة فتحت بقانون يبيح الربا؟ أليس الزنا برخصة؟ أليس الخمر مباحًا؟ أليس؟ أليس؟ وعدد له منكرات تجري بلا إنكار، وقال: كيف تنتظر النصر من السماء؟».

فقال الخديوي: وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب وهذه هي مدنيتهم؟

قال الشيخ: إذن ما ذنب البخاري؟ وما حيلة العلماء؟ ففكر الخديوي مليًّا، وأطرق طويلًا ثم قال له: «صدقت، صدقت»[(١)].

[تذكرة وعبرة]

ذكر الإشبيلي في «العاقبة» قال يزيد الرقاشي: بينما جبار من جبابرة بني إسرائيل في منزلة قد خلا ببعض أهله إذ رأىٰ شخصًا قد دخل عليه من باب بيته، فوثب عليه مغضبًا فقال له: ويلك! من أنت؟ ومن أدخلك داري؟ وما حملك علىٰ الهجوم عليَّ في بيتي؟

فقال له: أما الذي أدخلني الدار فربها، أنا الذي لا يمنعني الحجاب، ولا استأذن علىٰ الملوك، ولا أخاف صولة السلاطين. فأسقط في يد الجبار وأرعد حتىٰ سقط منكبًا علىٰ وجهه، ثمَّ رفع رأسه إليه مستخذيًا متذللًا، فقال له: فأنت إذن ملك الموتَ.

قال: أنا هو.

قال: فهل أنت ممهلني حتىٰ أحدث عهدًا؟

قال: هيهات! انقطعت مدتك، وانقضت أنفاسك، ونفدت ساعاتك فليس إلىٰ إمهالك سبيل.

قال: فإلىٰ أين أذهب؟

قال: إلىٰ عملك الصالح الذي قدمت، وإلىٰ بيتك الحسن الذي مهدت.

قال: فإنِّي لم أقدم عملًا صالحًا، ولا مهدت بيتًا حسنًا!

قال: فإلىٰ ﴿لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥-١٦]. ثمَّ قبض روح فسقط بين أهله، فمن صارخة تصرخ، وباكية تبكي.

---

(١) موسوعة الأخلاق والزهد (٢/ ١٩٦-١٩٧)، و«صلاح الأمة في علو الهمة» (٣/ ٢٧٩-٢٨١).

قال يزيد: ولو يعلمون سوء المنقلب لكان العويل أعظم، والبكاء أكثر[١]. نسأل الله العفو والعافية، وحسن العاقبة والخاتمة.

[محمد مكي الكتاني]

رئيس رابطة علماء الشام ومفتي المالكية بها، السيد الشريف محمد مكي الكتاني، المغربي ثم الدمشقي (ت١٣٩٣هـ):

يقول عنه الشيخ علي الطنطاوي رحمهما الله: رجلٌ نبيلُ النفس سامي الخُلُق، مخلصٌ فيما يقول، وإذا قال دخل كلامُه قرارةَ نفسِ المخاطَب، فكان له في السامعين أبلغَ التأثير، وأَشهد أني قلَّما رأيتُ مثلَه في عزَّةِ نفسِه، وجُرأتِه علىٰ الحُكّام، وقوّةِ تأثيرِه عليهم[٢].



(١) العاقبة في ذكر الموت (ص١٤٢).

(٢) الذكريات (٤/ ٣٤٠).

الخاتمة

تمَّ بعون الله وتوفيقه الحديث عن حرص الأمراء وولاة الأمر علىٰ العلم (سماعًا، واحترامًا لأهله، وتقريبًا لهم، وكفايتهم، وغير ذلك).

وعنايتهم (ببناء المدارس الشرعية التي تمثل المحاضن الفكرية والمنهجية في توجيه أبناء الأمة في نهضتها وعزتها).

وعنايتهم بكتاب الله (حفظًا، وتفسيرًا، ورعاية لأهله).

وتبين للقارئ مذاهب العلماء في حكم أخذ المال والأعطيات، ومذهبهم في الدخول علىٰ ولاة الأمر بين مانع ومجيز.

والحديث عن عقيدة أهل السنة والجماعة في التعامل مع الأمراء، وهي عقيدة وسطية بحمد الله.

وفيه لمحة عن أمثلة رائعة في (تعظيم الأمراء للعلماء)، وذكر صور لأمراء وخلفاء عظماء في نزاهتهم، وتواضعهم، وانشغالهم بأمر الرعية عن أمورهم.

والحديث عن عناية أهل العلم ببعضهم (مواساة، وكفالة، وجاهة).

وفيه تبين لنا أمثلة عظمية من نصح العلماء للأمراء وتأثيرهم عليهم، والشفاعة لأهل الحقوق.

وتجلَّ في الكتاب أنَّ الناس علىٰ دين ملوكهم، وأنَّ وجود العلماء في الدولة عزة وقوة.

وفيه غير ذلك من المباحث والفصول المتضمنة (للفوائد والعوائد) في السياسة الشرعية، والآداب النبوية والعلمية، والمواقف التاريخية، والله الكريم أسأل بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا أن ينفع القارئ بما كتبت ويجعله أجرًا وذخرًا لي ولوالدي وأهلي، وكل من ساهم في نشره، ومراجعته، وتصميمه، والحمد لله رب العالمين.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة



الفهرس التفصيلي

